تاريخ
العصر الوسيط في أوربة

الجزء الثاني

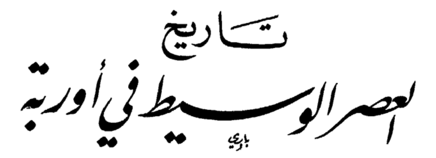
من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر

تأليف وتعريب
الدكتور نور الدين حاطوم

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

تاريخ
العصر الوسيط في أوربة



الجزءُ الثاني

من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر

تأليف وتعريب

الدكتور نور الدين حاطوم

رئيس قسم التاريخ في جامعة دمشق

دارُ الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دارُ الفكر
دمشق - سورية



الكتاب ٨٥٥

الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م

سورية - دمشق - برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد - ص.ب (٩٦٢)
برقياً: فكر - س.ت ٢٧٥٤ هاتف ٢٢٩٧١٧ ، ٢١١١٦٦ - تلكس FKR 411745 Sy

الصف التصويري: دار الفكر بدمشق

الإهـــــداء

إلى

رامــة و دانـــة

القسم الأول

تاريخ العصر الوسيط في أوربة

القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر

المقدمة

نهضة الغرب الأوربي

من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر

إن الغارات البربرية ، وإقامة اقتصاد أوربي مبني بصورة أساسية على الأرض ، كان من نتيجتها ، في أعلى العصر الوسيط ، أفول الحياة المدنية الذي نجت منه إيطاليا وحدها . أما في مناطق الغرب الأخرى ، فإن المدن المحصورة داخل نطاق ضيق من الحصون ، فلم تكن أكثر من مواقع عسكرية ، إدارية أو دينية ، أو مقام لكونت أو أسقف . ومنذ العصر الكارولنجي ، ظهرت مؤشرات تنمّ عن تجديد مدني ، مالبث أن تعرض لخطر الغارات الجديدة في القرن العاشر . وانطلاقاً من القرن الحادي عشر ، شجع التقدم الديمقراطي و (الثورات الزراعية) نمو الإنتاج الحرفي والمبادلات ، ونهضة المدن الواقعة في جوار عقدة مواصلات أو معبر ، أو جسر ، أو مصبّ نهر . وفي أغلب الأحيان كان النمو انطلاقاً من نواة قديمة ، كأن يكون قصراً ، قصر كونت ، أو أسقفيةً ، أو ديراً ؛ فحول البورتوس ، أي السوق المقام على مسافة من الأسوار ، ينشأ حيٌّ جديدٌ ، مدينةٌ صغيرة يقيم فيها الحرفيون والتجار . كما أن نمو أو تزايد عدد الشعب ، البورجوازي (المدني) ، يفسّر بتوسع المنطقة المدنية التي تنتهي باحتواء الحصن القديم والمدينة التجارية الأولى في جدار جديد من التحصينات . وفي بعض المناطق ، كانت المدن إبداعات كما يدلُّ على ذلك الترتيب الهندسي لمخططها . وفي شرق أوربة ، كانت هذه المنشآت الجديدة مرتبطةً بتقدم حركة الاستعمار . ففي

فرنسا ، ولا سيما في جنوبها ، كانت المدن الجديدة ودور الريف تنشأ من أدناها إلى أعلاها ، أي بكاملها ، على يد ديرٍ ، أو سيد إقطاعي ، أو الملك ، لغرض سياسي أو عسكري . وفي القرون الأخيرة من العصر الوسيط ، تدلّ خارطة المدن على تفاوت النمو الاقتصادي في أوربة ؛ فالمناطق الكثيرة العمران تتطابق مع المراكز الأساسية الهامة للنشاط الحرفي والتجاري ، كما في الفلاندر ، وألمانيا الجنوبية ، وشمال إيطاليا . أما المناطق ، التي ظلت ريفية أساساً ، فتتميز بالكثافة الضعيفة للمدن .

ومنذ أن استيقظ نشاط المبادلات في الغرب ، من القرن الحادي عشر إلى بداية القرن الثاني عشر ، وجدت منطقتان أساسيتان ظلتا حتى آخر العصر الوسيط أكبر المراكز الاقتصادية في أوربة . وهما : **إيطاليا** التي سيطر تجارها على تجارة المنتجات الشرقية في البحر المتوسط ، وعلى إعادة توزيعها على القارة ، **وملتقى الطرق** الفلاماندي الذي كان بإنتاجه الأقمشة في مركز المبادلات في البحار الشمالية . ومع ذلك ، ففي القرون الثلاثة التالية ، تعرضت خارطة أوربة الاقتصادية لتحولات كان من نتيجتها مشاركة مناطق جديدة في النهضة التجارية . وإذا ظل الإيطاليون يوسعون ميدان نشاطهم ويحافظون على حصر حقيقي في علاقاتهم مع الشرق البيزنطي والإسلامي وبحار الشمال ، فقد حلّ تجار الهانس ، في القرن الثالث عشر والرابع عشر ، محلّ الإسكاندينافيين ، وما لبثوا بدورهم أن طردوا في القرن الخامس عشر بمنافسة الهولانديين والإنكليز .

وفي الحقيقة ، لقد عرف الغرب الأوربي من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر ، تقدماً في الاقتصاد الريفي الأوربي كان بمثابة ثورة زراعية . وذلك بفضل التقدم العظيم في مضمار التقنيات ؛ من انتشار الطواحين المائية والهوائية وتحسين المحصول بعمل حيوانات الجر وتحسين المحراث ، إلى تقدم الدورة الزراعية

الثلاثية وظهور زراعات جديدة . وهذه التجديدات ساعدت حركة إحياء الأرض التي زادت بشكل عظيم سطح الأراضي المزروعة في أوربة كلها .

وأسهمت هذه التحويلات في تبديل الحياة الاقتصادية من حيث استغلال الأراضي الزراعية وتحسين ظروف الفلاحين الحقوقية والاجتماعية بعد أن استعيض عن السخرات بإتاوات مالية ، وعن العبودية بتحرر الأقنان ؛ وأنشئت مدن وقرى جديدة على مواقع إحياء الأرض . وفي هذه المدن الجديدة تمت نشاطات وفئات اجتماعية جديدة من تجار وحرفيين وعمال .

ووجدت في الوقت نفسه زيادةٌ عظيمةٌ في السكان ، ثورةٌ ديموغرافيةٌ حقيقيةٌ ، ارتبطت بها الثورة الزراعية بصورةٍ وثيقةٍ واستجابت لزيادة الطلب على المنتجات الغذائية .

وكذلك الطرق ، التي كانت توحد المراكز الكبرى للحياة الاقتصادية ، قد غيرت مكانها أيضاً . ففي القرن الثالث عشر ، كانت أسواق إقليم الشامپانيا ، في فرنسا ، ملتقىً دولياً للتجارة الأوربية الكبرى . وفي القرن التالي أثار أفولها نمو طريقين جديدين : الطريق البري الذي يسلك الشعاب الآلپية ووادي نهر الراين ، ويؤمن ازدهار مدن ألمانيا الجنوبية ؛ والطريق البحري ، الذي أصبح يصل ، منذ الآن فصاعداً ، البحر المتوسط بالبحار الشمالية وينعش بعبوره تجارة إقليم كاتالونيا وتجارة قشتالة .

وفي هذا القرن الثالث عشر ، أيضاً ، بلغ البناء الاقتصادي والسياسي والثقافي نقطة التوازن التي تجعل منه العصر الكلاسيكي للعصر الوسيط في الغرب الأوربي . فقد توسعت الآفاق الاقتصادية ، وسقطت الحواجز التي تجزئ الحياة المادية ، وتشكلت تيارات مختلفة ، من طرف لطرف في أوربة ، تربط القارة الأوربية بالبلاد البعيدة . وفي آخر العصر الوسيط ، نرى أن تكاثر تيارات

المبادلات التي تشق الغرب في كل الاتجاهات ، وحضور الفلورانسيين في كل المواقع الكبرى الصناعية والمصرفية تشير بشكلٍ واضحٍ إلى تضامن أوربة الاقتصادي .

وجرى تجمع القوى السياسية : ففي نطاق الملكيات ، التي توطدت ، ارتسمت أولى الدول الحديثة .

وعلى صعيد الفكر والفن،كان للقرن الثالث عشر دور التركيب . فقد شهدت الجامعات رجالاً أتوا من جميع البلاد المسيحية لمقارنة أفكارهم وتجابهها ، وإجراء حوار وموازنة لمعارفهم ، ونشأ الفن القوطي في إقليم جزيرة ـ فرنسا ، وانتشر في جميع البلاد الأوربية .

الفصل الأول

توسع الآفاق الاقتصادية
وتحول مجتمع العصر الوسيط

لقد كانت الأرض ، في بداية القرن الحادي عشر ، في الغرب ، المصدر الأساسي للغنى والثراء . لأن التقدم ، الذي قامت به الزراعة منذ العام ألف ، ساعد على توسيع السطوح المزروعة وتحسين المردود . ولكنه لم يقلب ملكية اقتصاد الأرياف : فقد ظلت ملكية كبرى تكتفي تقريباً بنفسها إلا قليلاً ، بتغيير زراعاتها وصنع أدواتها . وفي الحقيقة ، حدثت منذ القرن الحادي عشر يقظة في الاقتصاد المدني ، ولكن التجديد ، وإن كان خجولاً ، في الإنتاج الحرفي والمبادلات ، لم يكن إلا نتيجة غير مباشرة لازدهار الأرياف : لقد اقتصر دور التجار على العموم على تجارة الفائض من محاصيل الأملاك الزراعية ، وتجهيز الأمراء الأثرياء ببعض منتجات البذخ الآتية من الشرق . وبالشكل نفسه ، قدم حرفيو المدن بعض أشياء حسنة الصنع للقلة الضيقة من زبائنهم الأغنياء الذين لا يمكنهم أن يكتفوا بالمنتجات الخشنة التي تجهزهم بها المشاغل الريفية . وما زال تداول النقد قليلاً . ولذا فإن مختلف فئات المجتمع كانت تتميز عن بعضها تبعاً لعلاقاتها مع الأرض .

وانطلاقاً من ١١٥٠ م على وجه التقريب ، أخذت علاقة القوى الاقتصادية تجنح إلى العكس ، تحت تأثير ثورة تجارية حقيقية ، لأن بعض مناطق الغرب ،

تضاعفت فيها المبادلات ؛ فمن ذلك أن جرى تداول العملات الجيدة العيار ، ونشأ الاعتماد . وأكثر من ذلك أن التجار لم يعودوا وسطاء بسطاء . وظهرت فئة من كبار التجار المتعهدين . فقد تهيأت لهم رؤوس أموال متراكمة بفضل التجارة ، ولذلك شغّلوا الحرفيين ، وجهّزوهم بالمواد الأولية ، وأخذوا على عاتقهم توزيع المنتجات المصنوعة . وانتعشت المدن بالأسواق والمعارض والصنائع وأصبحت في عزّ نهضتها . وتغلغل اقتصاد المبادلة أيضاً ، في قطاعاتٍ واسعةٍ في الزراعة . فمن ذلك أن مناطق بكاملها انقطعت للزراعات التجارية . وكانت بذلك أول رسم للتخصص الإقليمي . وبشكل أعمّ ، لقد تعلم العالم الريفي استعمال النقد . وهكذا تغير الترتيب التقليدي للمجتمع ، لأن الأرض لم تعد القيمة الوحيدة ، ولأن المال أصبح ، منذ الآن فصاعداً ، يخول القوة أيضاً .

١ ـ الثورة التجارية والعمل المدني

أصول الثورة التجارية

لقد كانت (الثورة التجارية) في القرن الثالث عشر هامة بالنسبة لأوربة العصر الوسيط ، كالثورة الصناعية بالنسبة للعالم المعاصر . ومن الصعب تحديد وتعيين أصولها . فلم تكن فحسب تفتحاً للاتجاهات التي ظهرت في سياق العصور السالفة ؛ لأن الأمن الذي حصل حديثاً ، وتقدم الزراعة ، والجيل الأول للهيئات المدنية ، أعدت ولا شك تجديد الحياة الاقتصادية ، ولكنها لاتفسر هذه الثورة بشكل كامل ، لأن عوامل أخرى تدخلت في الحساب . ففي المقام الأول ، يجب أن نضع تقدم التقنية على صعيد النقل البحري : فحتى القرن الثاني عشر ، كانت السفن تحكم بواسطة المجاديف الجانبية . وفي بداية القرن الثالث عشر ، أضيفت قطعة خشبية ثقيلة وأثبتت في كوثل السفينة (مؤخرها) في الاتجاه الشاقولي ، فساعدت على التحكم بالسفينة بأمان أعظم وأكثر . وهذه الخشبة هي

سُكّان (دفّة) السفينة ، التي توضع خلف القسم الغائص في الماء من هيكل السفينة . يضاف إلى ذلك أن استعمال الشراع اللاتيني ، وهو اختراع إسلامي في الواقع ، جعل السفينة أكثر سهولةً في الاستعمال أيضاً : وهذا الشراع الذي يمكن توجيهه ، في كل الاتجاهات ، يساعد على السير ضد الريح يمنةً ويسرة ، وحتى الملاحة ضدّ الريح . وأمكن بناء سفن أضخم وأكثر سرعة . وفي الوقت نفسه تعلم ملاحو البحر المتوسط بسرعة استخدام وسائل مخترعة في الشرق ، البوصلة والإسطرلاب . وفي آخر القرن ، ظهرت الخارطات البحرية الأولى . وأصبحت الملاحة أكثر أمناً . ولم تتوقف في الفصول الرديئة ، حتى أن السفن الضخمة أمكنها الابتعاد عن السواحل وليست مضطرةً إلى اللجوء إليها والرسوّ فيها كل ليل . وفي ١٢٧٧ م ، اجتاز قُرقور (سفينة طويلة) جنوبي مضيق جبل طارق ووصل مباشرةً ميناء بروج[(١)] . وفتح على هذا النحو خطاً للملاحة الكبرى . وفي الحقيقة ، لقد انتشر هذا التقدم ببطء ، وبقيت الرحلات البحرية مفعمةً بالصدف . ولكن النقل تكاثف بعد أن أصبح أقل كلفة .

وفي داخل البر ، كان تقدم المواصلات أكثر تواضعاً ، ويشكل التجوال (التنقل) طريقة نقل صعبة ومكلفة ؛ لأن شبكة الطرق الرومانية قد تخربت تماماً في الواقع . ولم تكن الطرق في العصر الوسيط أكثر من (مكان يمكن المرور منه) ، ممر غير معين تسير عليه العربات ذات الدولابين ، والعجلات الثقيلة ذات الأربعة دواليب وحيوانات الحمل . ومع ذلك فإن هذه الطرق الضئيلة كانت تجتاز الجبال والأنهار . وفي القرن الثالث عشر ، أنشأ الأمراء المهتمون بدفع رسم المرور ، والبورجوازيون المهتمون بالأرباح التجارية ، جسوراً : ففي ١٢٣٧ م ، أطلق أول جسر معلق على نهر روس[(٢)] ، ففتح بشعب سن ـ غوتار أقصر طريق بين ألمانيا وإيطاليا .

(١) في شمال غربي بوردو .

(٢) نهر في سويسرا .

ومنذ أن أصبح المرور ممكناً سلكت البضائع والمسافرون الطريق النهري : في إيطاليا الشمالية ، نهر البو وروافده ؛ وفي الفلاندر ، الأنهار المتصلة منذ القرن الثاني عشر بشبكة قنوات (قارتان) وسدود ؛ وأخيراً المحور الكبير شمال - جنوب الذي يشكله نهر الراين . وانتعشت كل هذه الطرق بتجارة هامة .

واستطاع التجار الغربيون ، بفضل سفنهم خاصة ، الوصول إلى مناطق بعيدة أكثر فأكثر ، وفتحت أمامهم الأسواق . إن التوسع السلمي والحربي لأوربة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، والعمل المنضم للمستعمرين وفرنسا في الحروب الصليبية والمبشرين هيأت لها الطريق . وفي شرقي البحر المتوسط ، أفاد فتح الساحل السوري على يد الصليبيين بشكل مضاعف تجارة المدن البحرية الإيطالية : فمقابل السند أو الدعم الذي قدمه أسطولها للحرب الصليبية ، حصلت جنوة ، وبيزا والبندقية على مراكز وامتيازات جديدة في الإمارات الفرنجية . ومن جهة أخرى ، ظل التجار الإيطاليون يمدون بل وينمون العلاقات التجارية مع البلاد الإسلامية . وهكذا توطدت حلقة مثمرة للمبادلات بين الموانئ الإيطالية والإسكندرية ، ومراكز الفرنجة في سورية والقسطنطينية . وفي هذه المرحلة توصلت ثروات آسيا أيضاً إلى التجار الإيطاليين المقيمين على السواحل المتوسطية بأسعار مرتفعة وزادها شدة الوسطاء العرب أو البيزنطيون . ولتحسين الأرباح كان على التجارة الغربية أن تقتحم المعابر التي تحرس الوصول إلى أسواق الانتاج . وأخفقت الحملات التي أطلقت ضدّ مصر ، ولذا فإن الدخول المباشر للبحر الأحمر ظل ممنوعاً على الغربيين . وبالمقابل ، نجح البنادقة ، بتحويل الحرب الصليبية الرابعة عن أهدافها الأولية ، وذلك باجتياز المضايق (البوسفور ، الدردنيل) التي تفصل البحر المتوسط عن البحر الأسود : وهذا البحر ، الذي كان حتى ذلك الحين محتجزاً للتجارة البيزنطية ، فتح لهم بأخذ القسطنطينية (١٢٠٤ م) ، وأصبحت البندقية حينئذٍ إمبراطورية بحرية واسعة . فقد أسست مراكز في كافّ في القرم ،

وفي تـانـا في أقصى بحر آزوف . وفي آخر القرن الثـالث عشر ، بـدا أن انهيـار الإمبراطوريـة اللاتينيـة ، قوض مصـالح البنـدقيـة لخير مصـالـح جنـوة ؛ ولكن البنادقة ، بفضل مهـارتهم الـدبلومـاسيـة استعـادوا الوضع الـذي خسروه : وذلـك بتقسيم الامتيازات التجارية بين البندقيـة وجنوة . وأصبحت المـدينتـان في وضع جيد يمكنهما من كسب الظروف التي فتحت أخيراً للغربيين سوق الشرق الأقصى . إن إنشاء إمبراطورية مغولية تمتـد على كل آسيـا ، وسيـادة السلام المغولي سـاعـدا الرحالة الإيطاليين ، في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، على عقد علاقات اقتصـاديـة مبـاشرة مع الصين وجنوب شرقي آسيـا . وفي الوقت نفسـه ارتسمت في البحر المتوسط الغربي حركة مشابهة ، وإن كانت أقل سعـة . فقـد أفـاد الجنويون من ضعف الإسلام في إسبانيا ، ومن تقدم التقنيات البحرية ، فـاجتـازوا في آخر القرن مضيق جبل طـارق ، ونزلت سفنهم على طـول السـاحـل الإفريقي تبحث عن إقامة علاقات تجارية مبـاشرة ، أو أبحروا نحو مراكز التجـارة في شمال ـ غربي أوربـة . وفي هـذه المنـاطـق من العـالم الغربي أيضـاً ، يرى أن حركات الاستعمار الزراعي الواسعة والفتح السياسي والديني التي قام بها الألمان باتجاه البلاد السلافية قد رافقها نهوض تجارة البالطيـك . وتـأسست عـدة مـدن جـديـدة على السـاحـل الجنوبي والشرقي : **لُبيك** (١١٤٣ م) ، **ريغا** (١٢٠١ م) ، **روفال** (١٢٣٠ م) . وأقام تجار ألمان مراكز في المدن البولونية وفي إسكانـدينـافيـا ، وسـاقوا نحو الغرب ثروات العالم الشمالي ، قمح أراضي الاستعمار ، ورنكات (سمك) البحار الشماليـة ، وفرو وجلود التايغا . واتصلوا أيضاً ، عبر العالم السلافي ، مع تجـار آتين من آسيـا الوسطى لشراء الحيوانـات والعسل والشمـع . وهكـذا أغلقت دورة المبـادلات التي جعلت من القارة الأوراسية (الأوربية ـ الآسيوية) الواسعة سوقاً وحيداً .

إن سعة هذه المبادلات الجديدة تفترض تداول كتلة نقدية عظيـة ومحـاصيل تصدير عديدة . ورأت أوربة ، في الواقع ، أكداسها المعدنية تزداد في سياق القرن

الثالث عشر . فقد اكتشفت مناجم فضة جديدة واستثمرت من قبل مهاجرين ألمان (فرايبرغ في ساكس انطلاقاً من ١١٧٠ م) ؛ وبخاصةٍ التجارة التي عقدها الإيطاليون مع سواحل إفريقيا الشمالية كانت فائضة . وهكذا أخذ تجار الساحل الإيطالي قليلاً من ذهب السودان ، وهذه المجلوبات من المعادن الثمينة ساعدت مشاغل النقد المتجمعة أكثر فأكثر بين أيدي العواهل الأقوياء ، على إصدار عملة (نقد) ذات عيار أفضل ، مثل الإسترلينات الإنكليزية في آخر القرن الثاني عشر . وفي الوقت نفسه ، وإلى ضرب الدانق وأجزائه ، التي كان يكتفى بها حتى ذلك الحين ، ضرب قطعٍ نقديةٍ ذات قيمة أعلى ، متكيفة بشكل أفضل مع المعاملات الهامة ، من القطع الصغيرة السوداء التي تخرج من المشاغل الخاصة لكبار الأمراء ، الأساقفة ، الأديرة ؛ وقطع الفضة : الغروسّات التي تعادل اثني عشر دانقاً أو نحاسة (النحاسة لم تكن منذ أعلى العصر الوسيط إلاّ عملة حساب) ، سُكّت أولاً في البندقية ، في آخر القرن الثاني عشر ، ثم في النصف الأول من القرن التالي في مدن إيطالية أخرى (ڤيرونه ، فلورنسا ، نابولي ...) وأخيراً ، وببطء أكثر ، قلد باقي أروبة هذا المثل (النموذج) : وظهر الغرو الفرنسي في ١٢٦٦ م ، وأفاد نموذجاً لضرب النقود القشتالية والآراغونية والهولاندية . وفي منتصف القرن الثالث عشر ، ظهر ثانية صنع العملة الذهبية نفسه في إيطاليا (١٢٥٢ م) : وكان كلٌّ من الجنوي والفلورن (من فلورنسا) يساوي عشرين فلساً فضياً . وجرت محاولات مشابهة في فرنسا وفي إنكلترا ولكنها منيت بالإخفاق .

ومع ذلك يجب أن نشير إلى أن المخزون المعدني الذي تتصرف به أوربة ، وبالتالي كتلة النقد ، لم يزيدا بالجملة بكمية كبيرة جداً . وثبت التقدم بخاصة بتداول (الفضة) السريع ؛ ونظراً لأن كتلة الوسائل المعدنية الموضوعة تحت تصرف الاقتصاد ، بقيت أدنى جداً من حاجات المصالح . فقد اعتمدت الحياة

الاقتصادية في القسم الأعظم جداً على الاعتماد . والتسليف على الرهن ، في المقام الأول ، لعب دوراً لا يمكن إهماله ، وخاصةً في الأرياف ، وكان اليهود يحتلون مكان الصف الأول في إسبانيا ، وفي اللانغدوك الفرنسي وفي إنكلترا ؛ وفيما عدا ذلك يتحدد نشاطهم في الغالب ، بين دورين ، المصادرة أو الطرد ، على القرض على الاستنفاد الذي يطبقه أيضاً الأراجويون[1] الذين أفل دورهم في آخر القرن الثاني عشر ، أو تجار كاهور في الغرب ، حتى أصبح اسم كاهورسي مرادفاً لاسم مرابٍ ؛ وبالشكل نفسه وجدت بعض عائلات بيمونتية من أستي وشييري ، متوطدةً في أسواق فرنسا أو البلاد المنخفضة ، وصنعت شهرة اللومبارديين . ومع ذلك فإن كل هؤلاء المقرضين على الرهن منصرفون على العموم إلى نشاط عوز ، لاتتجاوز سعته دور مون دو-بيتيه[2] في العالم الحديث . وأكثر من ذلك دلالة ظهور وسائل دفع غير النقد المعدني تساعد على سدّ عدم كفاية النقد ، وهي (العملة الورقية) تحت شكل الاعتراف بالدين (النقد بطريقة الأسناد) ، تحت شكل سلفةٍ على وديعة أو تحويل حساب إلى آخر . وهذا النشاط المصرفي نشأ من عمليات صرافة (قطع) ؛ وقد أقام الصيارفة مقاعدهم في كل الأسواق التي لها بعض أهمية ؛ وفي الواقع ، إن العدد الكبير من النقود المتداولة يجعل مكاتبهم لاغنى عنها . ثم إن هؤلاء الصيارفة لم يكفوا عن الصرف اليدوي للقيام بوظيفة مصرف (بنك) وديعة وتحويل ، وحتى من أجل قبول قروض . ومنذ القرن الثاني عشر ، قبل الجنويون الحفاظ بشكل وديعة على المبالغ التي يضيق زبائنهم ذرعاً بنقلها ، ويفضلون أن يعهدوا بها إليهم . وبنقل وديعة إلى آخر ، أو بعمل بسيط للتعويض ، يردون المعادل بعملة أخرى في مكان مغاير . وهكذا كانوا يتصرفون بمال جاهز يمكن أن يخدم بتقديم سلف أو تحقيق استثمارات .

---

(١) سكان مدينة أرّاسْ ARRAS .

(٢) بنك الرهون .

وفي القرن الثالث عشر أمكن تقدم جديد بدافع ظهور بنوك أعمال حقيقية . وعلى سبيل المثال وجد بنك إيطالي يقبل بأن يسلف تاجراً الرأسمال الضروري لشراء سفينة شحن الحرائر أو التوابل المخصصة إلى السوق الفرنسية ، ومراسل البنك في مدينة السوق حيث تباع البضائع كان يقبض ، بعد إنجاز عمل ، المبلغ المستقرض مضافاً إليه (سعر القطع) أي حسم يكافئ الدائن .

وأخيراً ، إن هذا التقدم في الحياة التجارية كان في أصل نهضة الانتاج في أوربة الغربية ، لأن الحرفية لم تلعب دوراً محركاً في اقتصاد القرن الثالث عشر . وإذا تكاثرت المشاغل أو تضخمت ، فليس ذلك نتيجة ثورة تقنية . أما دور العمل اليدوي فقد ظل متفوقاً وراجحاً ، ويكفي أن يقتصر على مثال النسيج ليرى بأي خجل وبأي نفور تبنيت جميع الطرق الميكانيكية الجديدة . إن انتشار طاحونة الضغط تتابع ببطء شديد . وتحقق دولاب الغزل على وجه التأكيد في النصف الثاني من القرن الثالث عشر : فبالضغط على دواسة وبفضل جهاز آلة دافعة ذات مقبض لإدارتها تستطيع العاملة أن تطبع على المغزل حركة دوارة ؛ وبذلك يكون عملها سهلاً ومتسارعاً . ومع ذلك ، فإن هذه الطريقة ليست معروفة لدينا إلا بالنصوص الرسمية التي تمنع استعمالها (في سبير ، وفي أبيڤيل) . وهذه الوسيلة ، باعتبارها أسرع ، حام الشك حولها في أن تعطي نتائج رديئة . وكذا الحال بالنسبة للحلج الذي ظل ممنوعاً زمناً طويلاً ، أو قاصراً على انتاج الأقمشة من نوعية أدنى ، لأنه فكّر بأن الألياف المارة في الأمشاط (المحالج) يمكن أن تنقطع بسهولة . والدفع الحاسم أعطي إذن إلى المشاغل بالتجارة . إن ارتفاع الأسعار ، الذي رافق ، منذ القرن الحادي عشر ، نمو المبادلات والتداول النقدي تتابع بانتظام في القرن الثالث عشر ، ونشط الإنتاج لأنه أمّن للمنتجين أرباحاً متزايدة . وأكثر من ذلك أيضاً ، أن التجار أنفسهم هم الذين تدخلوا لتموين الإنتاج .

تحولات الخارطة الاقتصادية

وفي أوربة الثورة التجارية هذه في القرن الثالث عشر ، ظل قطب الحياة الاقتصادية المناطق المجاورة لبحر الشمال وشبه الجزيرة الإيطالية ؛ ولكن ، الأسواق الموسمية في الشامبانيا ألفت بينهما محطة .

أ ـ بلاد بحر الشمال

إن ازدهار بلاد بحر الشمال ظل بصورة أساسية مؤسساً على صنع وبيع القماش ، المصبوغ بألوان مختلفة وزاهية ، وظل هذا القماش ملكاً دون منازع ، فمنه تخاط ألبسة الطبقات الغنية . والأنسجة القديمة ، مثل الكتان ، والجديدة مثل الحرير ، التي بدأت بصنعها المشاغل الإيطالية ، كان لها استعمالات محدودة : فمنها تصنع البياضات والألبسة التي تغطي درع الفرسان . أما الأقمشة القطنية التي تستعمل القطن المزروع في البلاد الإسلامية ، فلم يبدأ ظهورها إلا بخجل . فالأقمشة إذن تتمتع بسوق عريضة جداً . أما المشاغل الريفية التي تبنت الطواحين الضاغطة لصنع اللباد فقد ظلت تنمو ، وتعمل غالباً من أجل زبائن الأرياف ، وتصنع أقمشة ذات نوعية متوسطة . ومع ذلك فإن بعض الملاكين الريفيين النبيهين ، أقاموا طواحينهم بالقرب من المدن وبدؤوا يضاربون على طلب الزبائن من أبناء المدن ، كما هي الحال بالقرب من هسدن في الأرتوا . ولكن المدن القماشية في عزّ نهضتها هي التي ربحت بخاصة من تقدم الحياة الاقتصادية . وتغيرت جغرافية الاقتصاد نوعاً ما ، بعض الشيء ، منذ بداية القرن الثاني عشر ؛ وأصبح الإنتاج الإنكليزي تافهاً ، لأن المنتجين الإنكليز فضلوا بيع صوفهم على القارة . وعلى هذه القارة تغطت كل مناطق الشمال الغربي قبل ١٢٥٠ م بأنوال تصنع الأقمشة الكبرى . ففي نورمانديا ، روان ، مونفيلليه ؛ وفي بيكارديا ، بوفيه وأميَن ؛ وفي الشامبانيا ، شالون على المارن ـ رنس وأوبانتون ؛

وفي البرابان ، بروكسل ومالين شاركتا في تنمية صناعة الأقمشة . ولكن التفوق اقتصر في هذا الصعيد على المدن الفلاماندية ، ومن بينها بروج ، دوويه ، ولا سيما إيپر وغاند ، اللتين احتلتا المكان الأول . وفي كل هذه المدن ، ظلت الصناعة مبعثرة كما في القرن السابق بين العديد من المشاغل التي يختص كل منها بمرحلة من العمليات . وعلى الصعيد المالي ، كانت الأعمال متمركزة أكثر فأكثر بين أيدي بعض كبار « المتعهدين بصناعة الأقمشة » . فالمعلم صانع القماش أو المعلم الصباغ ، الذي يعمل في مشغل مع بعض الرفاق ، ويدفع أجرة من جهة أخرى لعدد من العمال المكلفين بتحضير عمله أو بإنهائه (صناعات التحضير أو الإنهاء) ، نادراً ما يكون مستقلاً ، لأن تاجر الأقمشة يدفع له الأجر على عمله . وأحياناً يعيره تاجر الأقمشة جزءاً من آلاته . وفي الغالب الأكثر يتكفل بتجهيزه بالمواد الأولية التي يشتريها من بعيد ، ويبيع القماش المصنوع الجاهز للاستعمال .

لقد كان إنتاج الأقمشة إذن في مركز النشاط التجاري للملتقى الفلاماندي ؛ فالصوف الذي يجب أن يكون من نوعية جيدة جداً ، يجهز خاصة من إنكلترا . والتجار الفلامانديون يذهبون إليها في كل الأعوام ليؤمنوا مشترياتهم ، ويصرفوا بعض قماشهم . وفي بعض الحالات كانوا يقومون بالعملية بواسطة تجار إنكليز من أبناء البلاد . فهؤلاء يذهبون لشراء الصوف من الأسواق المحلية ، وخاصة الأسواق التي تجهز المشاريع الفلاحية أو الأميرية الصغيرة . ثم يبيعونه للمصدرين في الموانئ أو في عدة مدن حيث تتوالى أسواق موسمية متخصصة طوال السنة في دورة منظمة : ستامفورد ، سن ـ إيڤ ، سن ـ بوتولف ، ونيشستر أو نورثامبتون تؤلف على هذا النحو نوعاً من سوق دائمة للصوف . ولكن كبار المصدرين الأجانب يميلون إلى الدخول مباشرةً في علاقةٍ مع المنتجين الهامين ، الأديرة السيسترسية أو كبار الأمراء العلمانيين ، ويعقدون معهم سوقاً شاملاً . وهكذا نجد في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، أن أكثر التجار غنىً في سن ـ أومير ،

وهـو غليـوم كاد ، اشترى من بـارون إنكليزي كبير ، غليـوم السمين ، كـونت أومال ، كامل إنتاجه . وفي الغالب توقع عقود لمدة ثلاثة أو خمسة أعوام ، وتربط بالبائع المشتري الذي يدفع سلفاً عربونـاً مرتفعـاً . واحتج الوسطـاء الإنكليز ضـدّ هذه الممارسـات ، ولكنهم لم ينجحوا حتى في منع كبـار منتجي الصوف من تضخيم عمليات البيع بشرائهم إنتاج صغار المستثمرين المجاورين .

وسيطر التجار الفلامانديون على سوق الصوف الإنكليزي حتى نحو ١٢٧٠ م ، وهذا لم يمنع المنـافسـات بين المغتربين من مـدن الفلانـدر المختلفـة . وانطلاقـاً من ١٢٧٠ م ، نجـد أن الصعـوبـات الـدبلـومـاسيـة بين كـونتس الفـلانــدر مرغريت والحكومة الإنكليزية قد أثارت من جـانب هـذه عـدة إجراءات طرد ومصـادرات كان ضحاياها التجار الفلامـانـديون . وحـاولت بروج أن تفيـد من ذلـك ، بعـد عودة السلام ، لتفرض نفسهـا على رأس (هـانس فلامـانـدي) في لنـدن . ولكن البروجويين طردوا نهائياً في آخر القرن من قبل التجار الإيطـاليين الـذين ظهروا على هذه الأسواق في شمال أوربة ، ومن قبل المصـدّرين الإنكليز . وكان عليهم أن يتجهوا نحو بلاد منتجة جديدة مثل البلاد الجديدة في ألمانيا الشرقية .

ولتموين الصناعات الفلامانـديـة ، كان التجـار يستوردون منتجـات أخرى غير الصوف ، مثل المنظفات الضروريـة لعمليـات إزالـة المواد الـدهنيـة ولتثبيت اللون . ولأجل الأقمشـة من النوعيـة الجـاريـة الاستعمال ، يستعمـل البـوتـاس ، المستحصل من رماد الخشب ؛ والبلاد البالطية المغطاة بغابـات واسعـة هي الجهزة الأسـاسيـة لـه . ومن أجـل الأقمشـة الأكثر جمـالاً ، كان (سلفـات الألـومنيـوم) ضروريـاً ، ويـؤتى بـه من إسبـانيـا (من قشتـالـة) ، ومن إفريقيـة الشماليـة (بوجة) ، وإيطاليا (جزر ليبـاري) حيث هو في طريق النفـاد ، ولا سيما من آسيا الصغرى (فوسيـه ، وقرحصـار) حيث توجـد أغنى المنـاجم وأفضلهـا . ومن هذه البلاد الجنوبية أيضاً تأتي الأصبغة الملونة العديدة : فمن أجل الأصبغـة الحمراء

والصفراء ، (حبوب) جنوب فرنسا وإسبانيا التي تعطي اللون الأحمر الحي ، وخشب البرزيل ، الذي يجهز باللون الصباغ الأحمر ، من بلاد الشرق ، والفوّة من جميع بلاد البحر المتوسط . وبذل جهد لأقلمة هذا النبات الأخير في المناطق التي تجاور المدن (القماشية) ، الآرتوا ، وهولاندا والهاينوت . والصباغ الذي يفسح مجالاً للتجارة العظيمة يبقى العظلم أو الوسمة ، الضروري للصباغ بالأزرق والأسود وللحصول ، بالخلط مع أصبغة أخرى ، على اللون الأخضر والبنفسجي . وسوق العظلم الذي يزرع بخاصة في أتورتوا ، وفي بيكارديا وفي السهل اللومباردي ، هو بكامله تقريباً في أيدي التجار البيكارديين الذين يمونون المدن القماشية في الفلاندر . وفي آخر القرن ، نهضت منطقة جديدة منتجة ، هي منطقة تولوز التي جهزت بعد قليل مشاغل عديدة جداً بعجائن صغيرة من أوراق العظلم المجففة والمعجونة تحت اسم باستل (مسحوق مصلب بشكل معجونة بإضافة الماء المصمغ ، أو هو رسمٌ بألوان ينفذ بأقلام الباستل) .

إن كل هذه الواردات التي تتجه نحو بلاد شمال ـ غربي أوربة ، وبخاصة نحو الفلاندر ، يجب أن تعوض بصادرات . ومنذ زمن طويل ، أثرى تجار المدن النورماندية ببيع نسيج القنب النورماندي ، وملح الشاطئ الأطلسي وخمر المناطق الأكيتانية حتى إنكلترا . وفي كل المناطق التي تحاذي بحر الشمال ، كان توزيع التوابل الشرقية ومنتجات أوربة الشرقية مثل : الخشب والسمك والعسل ، يفسح مجالاً لتجارة مربحة . ولكن منتجات صناعة الأقمشة بخاصة كانت مادة صادرات عظيمة . فمدن الفلاندر في إيبر ، وفي ليل ، وفي توروت ، وفي مسينا ، تقام في كل سنة معارض (أسواق موسمية) تعقد فيها أضخم المعاملات ؛ وتجار البلد يذهبون إليها لا ليبيعوا فيها أقمشتهم فحسب ، ولكن أيضاً ليشتروا منها ، لأن التاجر الذي يريد أن يصدر شيئاً من الأقمشة إلى بعيد عليه أن يشكل مجموعة بإضافته نوعيات أخرى إلى إنتاجات مدينته الخاصة . ولكن المعارض تجلب أيضاً

أكثر فأكثر المشترين الأجانب . ومنذ منتصف القرن ، نجد فيها تجاراً من غاسكونيا ، وكاهور بل وحتى إيطاليين .

ولأجل المبادلات بطريق البحر ، تتركز التجارة في بروج وفي موانيها الأمامية : دام وليكلوز . والبروجيون الذين يقومون بهذا النشاط التجاري ليسوا أنفسهم لا ملاحين ، ولا أصحاب سفن . إن الحركة التجارية على البحر كان يسيطر عليها الأجانب وبخاصة الهانسيون ، فعلى طول ضفاف البالطيك التي تحدد التقدم الألماني (انظر الفصل الثامن) تأسست في جوف المصبات النهرية مدنٌ جديدةٌ ؛ وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، وبمبادرة من مدينة لوبيك ، اتحد تجار هذه المدينة في رابطة ؛ ونحو ١١٦٠ م أقيم مركز ترانزيت في ڤيسبي في جزيرة غوتلاند . وفي القرن الثالث عشر ، انضمت إلى هذا التجمع مواني بحر الشمال : هامبورغ ، بريم ، ومواني نهر الراين ، مثل كولونيا . وهذا هو **الهانس التوتوني** الذي طرد التجار الإسكاندينافيين وحصل على مراكز في الأماكن التجارية الرئيسية في أوربة الشمالية ، في لندن ، في نونغورود ولا سيما في بروج . وفي القرن الثالث عشر ، كانت السفن الثقيلة **كوغن** الهانسية تمخر البحار الشمالية في أوربة دون أن تلقى فيها منافسين ؛ فمن الشرق تأتي بالقمح وعظلم أراضي الاستعمار ، وسمك هارنغ البالطيك ، والفرو ، والخشب وعسل البلاد السلافية . وباتجاه معاكس ، كانت وسيطة التجارة بين الأطلسي وبحر الشمال ، وتنقل الملح والخمر نحو إنكلترا ، والمبادلات في بحر الشمال والبالطيك ، ناقلة الصوف الإنكليزي والقماش الفلاماندي . وفي آخر القرن بدأ مع ذلك خصومٌ أقوياء بالظهور في صعيدهم الخاص ، كما ظهروا في أسواق ومعارض الفلاندر ، وهؤلاء الخصوم هم الإيطاليون .

ب ـ الفاعليات الإيطالية

وفي الحقيقة ، إن نشاط التجارة الإيطالية مافتئ ينمو في سياق القرن الثالث عشر في اتجاهات بعيدة أكثر فأكثر . وفي الوقت نفسه تمركز ؛ وفي الأدرياتيك ، سادت البندقية دون تقسيم ؛ وفي البحر التيراني تقدمت **جنوة** بوضوح جداً على مارسيليا وعلى بارشلونة ، وفي ١٢٨٤ م ، سحقت منافستها المباشرة أكثر من غيرها ، بيزا ، في معركة لاميلوريا . واستطاعت المدينتان أن تتقاسما أرباح التوسع الأوربي في البحر المتوسط . وفي آخر القرن ، كانتا تتصرفان بعدة مراكز تحيط بكل العالم المتوسطي . وفي البحر المتوسط كله ، تتلاقى واردات **الألن**[1] والأصبغة ، والتوابل ، والقطن ، والمواد الزيتية الآتية من الشرق والمخصصة للسوق الأوربية ، وصادرات المنتجات المصنوعة في أوربة : أقمشة ، نسيج ، أسلحة ، يضاف لها الخيول . وألف الإيطاليون أيضاً المبادلات بين الموانئ الإسلامية في إسبانيا ، والمغرب ، ومصر ؛ وهذه النشاطات كانت مثمرة ، لأن المراد منها بخاصة مواد البذخ ، ولكنها خطرة لأن القرصنة تضاف إلى المجازفات والصدف في البحر . وفي آخر القرن ، اجتاز التجار الإيطاليون مضيق جبل طارق وبدؤوا يفرضون أنفسهم في الأطلسي وفي بحر الشمال ، ودحروا الهانسيين في البالطيك .

وصحب هذا النهوض في التجارة الإيطالية في المقام الأول نمو المنشآت البحرية والتسلح البحري ، أي الصناعات الأساسية للموانئ الإيطالية : حصر الدولة في البندقية ، وعمل البناة الخاصين في جنوة . ولمجابهة أخطار أقل ، تجمعت العمائر في قوافل ؛ ففي القرن الثاني عشر ، كانت البندقية توجه عمارتين في العام نحو مصر وسورية ، وثلاث نحو الإمبراطورية البيزنطية . ومع ذلك فقد ظلت أخطار الملاحة والقرصنة رصينة ؛ وكانت عقود المشاركة تساعد على تقسيم هذه الأخطار بتأمين أفضل لتمويل المشاريع .

---

(١) الألن Alun هو كبريتات الألومنيوم والبوتاسيوم .

وفي القرن الثالث عشر ، تحسن وضع مدن الداخل بنشاط المبادلات . وتمّ ذلك بتشكيل رابطات فيها جمعت رؤوس أموال هامة ، واستأجرت سفن المدن الساحلية . ولكن الذي صنع بخاصة ثروة مدن الداخل وبعض مدن الساحل التي لم تلعب دوراً بحرياً هاماً ، كان صناعة البنك . والنسيج يشغل هنا ، كما في الفلاندر ، معظم الصناع الحرفيين . ففي **فلورنسا** ، نمت صناعة القماش ، والأنوال تنسج الصوف الآتي من إنكلترا ولا سيما من ساردينيا والمغرب . ولكن في هذا الصعيد ، تأسست شهرة فلورنسا على تقنية خاصة ، وتقوم على أقمشة فلاماندية غير مقصورة (مبيضة) من نوعية عالية . مثل بياضات ليل التي يشتريها التجار الإيطاليون . وفي المشاغل الفلورانسية ، حيث فن الصباغة والتحضيرات النهائية الذي بلغ فيه أعلى نقطة في الكمال ، أصبح القماش نسيج البذخ . وعمل الحرير الذي أدخله العرب إلى صقلية ، انتشر في إيطاليا القارية . وفي القرن الثالث عشر ، كانت مدينة لوك المركز الأساسي للحرائر في العالم المسيحي كله . وأخيراً ، بالقرب من البندقية ، في مورانو ، حيث أتى صناع شرقيون بأسرار صناعة الزجاج النقي ، يصنع زجاج النوافذ ، والجامات ، والأواني التي أصبح تحسينها شهيراً .

وفي سيين ، وبليزانس ، ولوك نمت شركات تقاسمت النشاطات بين التجارة والبنك ؛ ولكنها كلها كسفت في آخر القرن بغنى وثراء البيوتات الفلورانسية . وهي رابطات تضم أعضاء عائلة واحدة ، ومن الممكن أن يضاف إليهم بعض أشخاص آخرين ، لوضع رأسمال مشترك . وللبنك فروع في كل المراكز الأوربية الكبرى حيث تفاوض الأعمال ، في باريس ، وبروج ، ولندن ... فهو يثمر رؤوس الأموال بالاستثمار مباشرة في التجارة ، بتحقيق عمليات القطع ، وبخاصة ، بقرض المال بالفائدة إما إلى تجار أو إلى أمراء . وهكذا فإن فتح مملكة صقلية على يد شارل آنجو كان ممولاً من قبل أصحاب مصارف من توسكانا ؛

وكذلك البيوتات السينوازية كانت مكلفة بتقبل موارد الكنيسة الرومانية من ماوراء الجبال . وفي آخر القرن ، كان آل فريسكوبالدي في فلورنسا في تنافس مع آل ريكاردي في لوك . وتوصلوا لأن يلعبوا دوراً من المستوى الأول في إنكلترا ، وسيطروا على السوق الإنكليزي للصوف الذي طردوا منه الفلاماندييين . وأفادوا كعملاء للبابوية من أجل جباية ونقل ضريبة العشر والرسوم الأخرى المقتطعة من الأكليروس الإنكليزي . ولم يتركوا للنوم رؤوس المال العظيمة التي تقع بين أيديهم ، لقد كانوا يثمرونها بإقراضها . وانطلاقاً من ١٢٩٠ م ، أصبح آل فريسكوبالدي مقرضين أساسيين للمال لإدوارد الثاني ملك إنكلترا . إنها عملياتٌ عظيمةٌ ، ولكنها تحت رحمة أقل انقلابٍ للظرف السياسي .

جـ ـ أسواق الشامبانيا موعد لقاء التجار الأوربيين

بين المركز الاقتصادي في الفلاندر ومركز إيطاليا ، كان التماس مؤمناً في القرن الثالث عشر ، بأسواق الشامبانيا . وكانت بروفن ، وتروا في القديم سوقين ، إلا أن نشاطها في بداية القرن الثاني عشر ، لا يتجاوز النطاق الإقليمي ؛ كانت تباع فيها الأصواف وجلود البلاد . ومنذ النصف الثاني للقرن الثاني عشر أفادت المدن الشامبانية من وضعها على الطرق التي تصل البحر المتوسط ببحر الشمال ، فبسطت شعاع عملها ، وحينئذ ارتسمت دورة أسواقها . وقد فهم كونتات الشامبانيا ما يمكن أن تربح أموالهم من العمليات الهامة ، فحموا التجار ، ونظموا الأسواق ، ففي بروفن تأسس مستشفى أساسي لاستقبال التجار المرضى . وانطلاقاً من ١٢٣٠ م استقر أصحاب المصارف السينوازيون . ومنذ الآن فصاعداً ، أصبحت أسواق الشامبانيا مركزاً لتجارة دولية حيث يلتقي التجار الإيطاليون والفلاماندييون ، والسوق الأساسية التي تتبادل فيها الأقمشة الشمالية من جهة ، والتوابل والحرائر الشرقية من جهة أخرى ؛ وفي الوقت نفسه ، ظلَّ الدور المالي والمصرفي في ازدياد ونمو .

وفي عزّ أكبر ازدهار لها وضع تقويم الأسواق على النحو التالي : في كانون الثاني ، يفتح سوق لايني - على - المارن ؛ ويوم الثلاثاء الذي يسبق منتصف الصوم الكبير أو الأربعين[1] ، تتبعها بار - على - الأوب ، وفي النصف الثاني من السنة ، تجري العمليات بالتعاقب في بروفن (أيار وأيلول) وفي تروا (تموز ، آب ، وتشرين الأول) . وكل سوق يدوم من ثلاثة إلى ستة أسابيع ويجري بالشكل التالي : في الأيام الأولى يستأجر التجار خوانات (طاولات) في سوق الساحة العامة أو على الطريق العام ويعرضون بضاعتهم ؛ وعندئذ يبدأ البيع . ويتوقف قبل نهاية السوق الأصلي ليخصص أسبوعٌ واحدٌ تقريباً لتسوية الحسابات . إن ممارسة نقل الاعتماد من سوق إلى سوق ، واستعمال (سند السوق) وهو نوع من الاعتراف بالدين ، قد أقر بها . ومن جهة أخرى ، أفاد بذلك التجار لتسوية ديون معاقد عليها في أمكنة أخرى ، وبالتالي فإن العمليات المصرفية تتطلب مهلة طويلة تقريباً . وفي النهاية القصوى للقرن الثالث عشر ، كشف عن مؤشرات أفول في نشاط أسواق الشامبانيا ، والأسباب كثيرة في ذلك ، فلم تعد الظروف السياسية مواتية ؛ لأن حروب الفلاندر قطعت مؤقتاً ، ابتداءً من ١٢٩٦ م ، العلاقات بين الفلاندر والشامبانيا ؛ وبخاصة إن ضم الشامبانيا إلى الأملاك الملكية كان من نتيجته زيادة الضريبة التي تثقل على التجار . وكانت التبدلات التي طرأت في التجارة الدولية أكثر حسماً من غيرها ؛ لأن التجار اجتذبوا في الوقت نفسه بطرق أخرى ابتعدت عن الشامبانيا : مثل افتتاح شعاب آلبية جديدة ، تشجيع المواصلات على الطرق التي تصل مباشرة شمال إيطاليا بالبلاد الرينانية ؛ وفي الوقت نفسه إن رحلة إسبانيا البحرية حول القارة ساعدت الإيطاليين على الوصول مباشرة للسوق الفلاماندي . وأخيراً ، مال التجار أكثر فأكثر إلى الاستقرار ؛ فانطلاقاً من الحين الذي امتلكت الشركات

---

(١) عند الكاثوليك ، زمن التوبة ويبدأ من أربعاء الرماد إلى يوم الفصح .

التجارية والمالية الكبرى فروعاً للإقامة في المراكز المدنية الكبرى الأساسية في الغرب ، ألفت هذه المراكز ، مثل باريس ، أسواقاً دائمة ، ولم يعد للأسواق الموسمية دور قطعي جازم .

٢ ـ تحول الاقتصاد الريفي

لقد انتهى تقدم اقتصاد المبادلات ، في القرن الثالث عشر ، بالتغلغل أيضاً في عالم الريفيين .

توسع السطوح المزروعة وصل إلى نهايته

في أرياف القرن الثالث عشر ، يرى أن التوسع الزراعي الذي يميز القرون السابقة ، قد تتابع ولكن بوتيرة أبطأ . وفي الواقع ، إن توسع الزراعات وصل إلى نهايته ؛ لأن اتساع البقع الجرداء البدائية في الغابات ، الذي جرى في نطاق الجماعات القروية القديمة ، انقطع في وقت مبكر في سياق القرن الثالث عشر . وإن كل الأراضي تقريباً التي كان يمكن أن تزرع حسب تقنيات العصر ، قد أحييت منذ ذلك الحين وأصبحت صالحة للزراعة . ومن جهة أخرى ، إن الغابات والمراعي أصبحت نادرة ، ولم يكن كسبها ممكناً دون الإضرار بخطورة في توازن الاقتصاد القروي . وأخيراً ، لقد أعطى تقدم تربية الحيوانات إلى هذه المساحات قيمتها ، ورفض الآن ملاكو الأراضي البور أن يقيموا فيها معمرين . وبالمقابل ، إن فتح الأراضي العذراء ظل ، في بعض المناطق ، حتى آخر القرن ، مرتبطاً باهتمامات عسكرية ودينية واقتصادية معاً . وفي جنوب ـ غربي فرنسا ، ظل العمل في تأسيس مدن محصنة . وفي أوربة الشرقية تسارع نمو **الجبهة الرائدة** ؛ ففي النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، قام الأمراء المقيمون على حدود الإمبراطورية بتوسيع سيطرتهم على الأراضي المأهولة بالسلاف المسيحيين : شفيرين ، ميكلامبورغ ، پوميرانيا ، وسيليزيا ؛ وأطلقوا من جهة أخرى عملية فتح وحملة تنصير باتجاه بلاد مازالت وثنية ، مثلاً ، في نوردالبينجي . وفي كل

هذه المناطق البعيدة أكثر من غيرها والمأهولة بالبالطيين ، والبروسيين ، والفينيين والليتوانيين ، انفتحت أراضي جديدة للاستعمار الزراعي . ولجرمنة ونصرنة هذه البلاد الشرقية ، دعا إليها الفاتحون فلاحين ألماناً ؛ وتكفل متعهدون ، كما في الدور السابق ، بسوق المعمرين وإقامتهم في القرى الجديدة .

وأخيراً ، وفي مناطق أخرى ، أخذ الاستيطان والاستغلال شكلاً آخر : فمن ذلك أن رواداً منعزلين أسسوا مستغلات في مناطق ظلت حتى ذلك الحين ضعيفة الاستيطان ، وأنشأوا أشكالاً للسكن إضافية . وأحياناً كانت فروعاً لأنظمة دينية فسحت لحياة النسك والزهد مجالاً هاماً ، أو مخازن كبرى أسستها أنظمة ديرانية . وفي ظروف أخرى ، كانوا فلاحين مهووسين بالفردية . وكان تقدم الأداة بالنسبة إليهم يساعد وحده على محاولة المغامرة . ففي البلاد المؤهلة لتربية الحيوانات ، مثل البولدرات الفلاماندية ، يفضل المعمرون أن يبقوا على مقربة من أراضي الرعي عوضاً عن التجمع في قرى ، وكثير من التجمعات أسسها أيضاً أمراء هجروا منازلهم القديمة الواقعة في وسط القرية ، من أجل مناطق على حافتها ، أو نبلاء أسسوا بالقرب من المدن الكبرى ، بجمع عدة قطع من الأراضي ، ملكاً خاصاً منفصلاً بوضوح عن جماعة القرية . وهذه البدعة الجديدة لاحتلال الأرض كانت في أصل نموذج خاص لمنظر يسود فيه الملك الخاص الدائم المحاط بسور ، وهو في عرفنا المزرعة . وعلى كل حال ، في آخر القرن الثالث عشر ، وفي كل مكان في أوربة ، وصل عمل إحياء الأرض إلى نهايته . ومنذ ذلك العصر بدأت هنا وهناك حركة تراجع ، لأن الزراعات امتدت إلى أراضٍ تخرب بسرعة ، مما اضطر الفلاحين لهجرها . وإنها لحالةٌ خطرة ؛ لأن نمو السكان استمر بينما استقر عدد الأراضي القابلة للزراعة . وهددت زيادة الاستيطان : ففي المناطق ذات الزراعة القديمة ، كانت الأراضي مجزأة بين عدد كبير جداً من العائلات ، وكل واحدة منها تكاد تعيش على قطعتها من هذه الأراضي . هذا بالإضافة إلى أن الأزمات المتعلقة

بالحنطة التي كانت تبدو كارثة وزالت منذ بداية القرن الحادي عشر ، عادت للظهور في فرنسا وإنكلترا ابتداءً من منتصف القرن الثالث عشر .

ازدياد المردود بنسب ضعيفة

ولسد هذا العجز المتزايد تتابعت جهود بغية تحسين المردود . فمن ذلك أن عدة أعمال فلاحية تشكلت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وأظهرت تجديداً للاهتمام بكل ما يختص بالأرض . فمن ذلك أن فصول (كتاب) البولوني (من بولون في إيطاليا) بيترو كريسّانتزي ، والكتاب اليدوي في الاقتصاد المنزلي للإنكليزي ولتر دو هنلي ، يؤلفان باللغة العامية مجموعتين عمليتين لكبار ملاكي الأطيان . وهما بالنسبة للمؤرخ الحديث مصدر معلومات ثمين . وأصبح تحضير الأرض أكثر عناية ، فالسرقين (الزبل) ، النادر دوماً ، خصص لكروم العنب والبساتين (حقول الأشجار المثمرة) وتقدم التسوير في القرن الثالث عشر ربما كان يستجيب لرغبة ملاكي القطعان في تخصيص السماد الثمين لأراضيهم الخاصة ، وفي آخر القرن الثالث عشر ، اتسعت زراعة الخضار وساعدت على تجهيز أراضي الحقول بالعناصر المنشطة . والتربة أيضاً قلبت (حرثت) بشكل أفضل : ففي النصف الثاني من القرن ، بدا أن ممارسة الحراثة الرابعة قد تعممت في الأرياف الفرنسية . وهذا التحسين الأخير يرتبط باستعمال الحصان باعتباره أسرع من الثور في الحراثة . ولكن حصان الحراثة لم يتغلغل في مناطق جنوب فرنسا . وأخيراً ، كنتيجة منطقية ، تحسنت دورات الزراعة ؛ وإذا بقي استعمال (الحقلين) ، أحدهما في راحة ، والآخر مزروع ، في كثير من المناطق ، في البلاد (الغرينية) في الحوض الباريسي ، فإن سنة البور تحددت بثلث المجال الصالح للزراعة .

وفي آخر القرن يمكن حتى الكشف عن التطبيقات الأولى لدورة رباعية من

أربعة أعوام . وقصارى القول ، إن المحاصيل بقيت ضعيفة . وقد وضع المهندسون الزراعيون الإنكليز في كتبهم المعدلات : ٨ للشعير ، و ٧ للشيلم ، و ٥ للقمح ، و ٤ للشوفان ، التي تبدو أنها متفائلة جداً وليس لها قيمة إلا من أجل أفضل الأراضي . والمعدلات الجارية (الشائعة) يجب أن تكون أدنى بكثير . ويجب أن نشير مع ذلك ، إلى أنه لم يعمل أفضل من ذلك حتى الثورة الزراعية الحديثة . لقد بلغت الفلاحة (الزراعة) في آخر القرن الثالث عشر مستوى تقنياً معادلاً إلى مستوى العصور التي سبقت مباشرة الثورة الزراعية .

تغلغل اقتصاد المبادلة في الأرياف

لقد انقلبت أرياف القرن الثالث عشر بنفوذ اقتصاد المبادلة أكثر من تقدم التقنية والمردود . فبادئ ذي بدء ازداد طلب المنتجات الزراعية بشكل محسوس ، ولم يكن على الفلاحين تغذية أسرتهم العديدة جداً فحسب ، وإنما كان عليهم أن يؤمنوا تموين المدن المأهولة بالسكان أكثر فأكثر . فقد ازداد عدد الرجال الذين لا يؤمنون غذاءهم الخاص بعمل الأرض ، من حرفيين ، وجنود ، وتجار . ومن أجل المدن الكبرى كان على المنطقة المجهزة بما هو ضروري أن تمتد بعيداً جداً . وهكذا فلورنسا التريسلاتو (أي سنوات ١٣٠٠ والتالية ، أي القرن الرابع عشر) لم تستطع العيش إلا خمسة أشهر في العام من إنتاج كونتيتها (كونتادو) ، وباقي تموينها يجب أن يؤمن بتجارة طويلة المسافة . ومن جهة أخرى ، كان هؤلاء المستهلكون الذين يكون مستوى حياتهم أعلى من غيرهم ، بفضل الازدهار العام ، يطالبون بغذاء أكثر وفرة وتنوعاً . ففي المجالس الفروسية ، انتشرت بدعة شرب الخمر بشكل واسع ، ومن أجل طبقات المجتمع كلها أصبح الكومباناجيوم أي اصطحاب الخبز ، أكثر وفرة وغنى . إن مقارنة التعيينات (وجبات الطعام) المخولة في المستشفيات وفي الطوائف الديرانية ، في القرن الثاني عشر ثم في القرن

الثالث عشر ، تعتبر في هذا الصدد كاشفة : فقد بقي الخبز الغذاء الأساسي ، ولكنه لم يكن الغذاء الوحيد . إن الفلاحين ، في الوقت الذي يطلب فيه منهم إنتاج أكثر من أجل البيع ، كان يغريهم أن يشتروا جزءاً أكبر من المنتجات المصنوعة في المدينة . وكفّ الأمراء عن طلبهم من فلاحيهم تقدمات تحت شكل مواد مصنوعة . ومنذ آخر القرن الثاني عشر ، في فرنسا ، توجه الفلاحون أنفسهم إلى المشاغل المدنية لشراء حديدة محراث أكثر صلابة أو أحذية أفضل صنعاً . وانتشر النقد الضروري لهذه المبادلات في الأرياف ، ونمت فيها قرى تجارية .

ماهي المنتجات التي تتناولها هذه المضاربات ؟ إنها عدد من الزراعات المخصصة معاً إلى تأمين إعاشة الفلاحين وإلى تغذية التجارة : القمح ، والخمر . والقمح ، انطلاقاً من آخر القرن الثاني عشر ، كان مادة تجارية هامة ، وكانت الأراضي الجديدة في أوربة الشرقية تقدم منه كميات كبرى مخصصة لتموين مناطق مدنية مثل الفلاندر أو البلاد المحرومة بسبب المناخ مثل النورفيج . وفي الغرب نفسه وجدت بعض المناطق التي تتصرف بفائض قابل للتصدير : مثل صقلية وإنكلترا . وكان التجار الجنويون يأتون ويشترون على شاطئ بروفانس ، وأسواق فريجوس حنطة الداخل . وبقي الطلب مدعوماً لأن الأسعار مافتئت في صعود حتى حوالي ١٣٠٠ م فقد بلغت تجارة الحبوب الكبرى آنذاك نقطة الذروة في أوربة ، حتى أن مستغلات متواضعة نظمت للتصرف بزيادة يمكن تصديرها . ونمت الكروم أيضاً تبعاً للطلب ؛ فمن ذلك أن كروم الشمال والشرق في فرنسا ، كروم أوني وسانتونج زادت إنتاجها ، وأفادت منطقتان كرميتان بخاصة من تقدم استهلاك الخمر ، حتى إن العواهل الإنكليز الذين لا يملكون على القارة أكثر من الغوين أنموا فيها (كروم بوردو) ، وفي الوقت نفسه شجع أدواق بورغونيا إنتاج وتصدير خمور بون . إلا أن الجنوب الروداني (من نهر الرون) وحده والمتوسطي البعيد كثيراً جداً عن مراكز الاستهلاك الكبرى ، بقي جانباً عن هذا النهوض .

ودعت أرباح استغلال الكروم بعض المناطق إلى التخصص في زراعة الكرمة والتخلي عن كل زراعة غذائية .

وفي بعض المناطق كان الاستغلال يتناول زراعات صناعية : زراعة النباتات الصباغية . ولنذكر على سبيل المثال ، إلى جوار (مدن الأقمشة) أن الفوة التي تعطي اللون الأحمر ، تدخل في دورة مع الكتان والقنب . وفي الآرتوا وپيكارديا ، كان العظلم (الوسمة) الذي يعطي اللون الأزرق ، يزرع في دورة زراعية مع القمح .

وفي القرن الثالث عشر ، عرفت تجارة الخشب نهوضاً مشابهاً لنهوض الخمر . وكان الطلب قوياً على حطب التدفئة بشكل حزم ، وعلى الخشب الضروري لبناء الدور المدنية والسفن أو لصنع البراميل . وما فتئ سعر الخشب في تزايد ، وازدادت بذلك قيمة الغابات التي تجهز ، من جهة ثانية ، بمنتجات أخرى مثل الصمغ ، والراتنج ، والقشر وفحم الحطب . ومنذ آخر القرن الثاني عشر ، بدأ ملاك الغابة بتثمين ثروتهم وحمايتها . ولم تعد الغابة احتياطياً عريضاً للمحروقات مفتوحاً للجميع ، ومرعى للحيوانات المنزلية في المنطقة ؛ لقد أصبحت (زراعة محمية للشجرة) . وكان الملاكون العقاريون يبيعون الأشجار المقطوعة لمتهنين بالتجارة .

ومع ذلك فإن الاستثمار أو الاستغلال لتربية الحيوانات كان أكثر كثافة من غيره . ويرجع ازدياد الطلب إلى عوامل عدة : أولاً : التذوق النامي للتغذية باللحوم ومنتجات الحليب ، ويدل على ذلك نمو صناعات المجازر في المدن (مجازر للحم البقر) ، (مجازر للحم الماعز ، ولحم الغنم) الذي يقدر قليلاً إلا في البلاد المتوسطية . ومن جهة أخرى ، أخذ تثمين السماد يزداد أكثر فأكثر لحاجات

الـزراعـة ؛ فمن ذلــك أن كتب الفـلاحــة الإنكليزيــة كانت تتكلم عن (الظلف الذهبي) للخروف الذي يخصب التراب الذي يدوسه . ولكن نمو تربية الحيوانـات كان يرتبط بخاصة بحاجات الصناعة المتزايدة . إن سمن الغنم والبقر يمكن أن يفيد في صنع شحم الشمع الضروري للإنارة ، وكان الجلد المادة الأولية لصناعات السروج والأحذية ، وجلد الخروف لصنع الرّق الذي يكتب عليه ، وجلد العجل لصنع الورق . وأخيراً ، إن صوف الغنم يؤلف إنتاجاً نسيجياً يكثر عليه الطلب في أوربة .

وهذه الأسباب المجتمعة كلها أدت إلى تكاثر القطعان وتحسين الحيوانـات . ففي القرن الثالث عشر ، كانت إنكلترا تضم من الخراف الخاصة للفلاحين والأمراء أكثر مما تحتوي بشراً . وجبال البروفانس ، في فرنسا ، التي هي اليوم خالية ، كانت تحتلها قطعان الخراف العديدة ، حتى أن هذا الحمل الثقيل المفرط الرعوي انتهى إلى تداع لا يمكن رده للغابات والعواسج . وتقدمت نوعية الحيوانات أيضاً ، ففي إنكلترا ، حيث يؤتى منها آنذاك بأفضل أصواف أوربة ، كان المربون يشترون من بعيد الأكباش المولدة ، ويجربون تهجينات جديدة . وبصورة عامة ، إن التوسع التدريجي للرّق في سياق القرن الثالث عشر يبرهن على النمو الحيوي للحيوانات التي يستعمل جلدها .

ومع ذلك لانلقى جماعات رعوية على سبيل الحصر : لقد كان المربون مضطرين لترك جزءٍ من الأراضي للزراعة لتغذيتهم . ولكن ، إلى جانب الأراضي الزراعية ، التي يدخل فيها الاستثمار في وتيرة التقويم الزراعي ، والحيوانات ترعى في الأراضي البور ، كانت توجد مناطق يجهز فيها النشاط الرعوي الأساسي من الموارد . وهذه حالة الأراضي الزراعية التي كانت أقل ملاءمةً لزراعة الحبوب ، مثل البَراح الرطبة الباردة في غرب وشمال إنكلترا : إن الأديرة الكبرى للرهبان السيسترسيين والبريمونتريين ، الذين أقاموا فيها في القرن

الثـاني عشر ، اتجهـوا منـذ البـدء نحـو الاستثمار الرعـوي ؛ وخـارجـاً عن بعض الزراعات الغذائية الصغيرة ، كانت الأراضي فيها مخصصةً لتربيـة الأغنـام ، وهـذا يوضح مـا يتكلم بـه جريـاً على كل لسـان عن (صـوف الـدير) وفي البـولـدرات (الأراضي المكتسبة من البحر) الفلاماندية يرى أن إحياء االأراضي الذي تمّ بدافع من الأمراء الكنسيين أو العلمـانيين ، كان يرافقـه ، على الأقل بصفـة مؤقتـة ، نمو القطعـان : فعلى جزيرات مـاكادت تجفف حتى أقيمت في البـدء أغنـام ، ومـا أن أزيلت ملوحة الأرض ، حتى حلّت محلها الأبقار بانتظار أراضي جـديـدة تخصب لتكون صالحةً للزراعة . وأخيراً ، انطلقت المناطق الجبلية أيضاً للتربية بخـاصـة ؛ ففي القرن الثـالث عشر بـدأ استغلال (جبـال الألب) في منـاطـق التيرول وفي باڤاريا ، على مراعي ألبيـة ظلت غير منتجـة حتى ذلـك الحين . ونظم الانتجـاع أيضـاً في منـاطق أخرى ؛ ففي البيـارن ، أنزلت الجمـاعـات الجبليـة في الـوديـان العـاليـة ، قطعـانهـا في الشتـاء إلى منـاطـق التـلال الصغيرة في بيـونت ؛ وفي البروفانس ، بالعكس تفوق الانتجاع الصيفي ، فالماعز والأغنام تصعد في الصيف إلى المرتفعات ، مثل قطعان دير سن ـ فكتور في مرسيليـا التي تـذهب صيفـاً إلى المراعي البعيدة في منطقة الأوباي في جبال الألب في بروفانس العليا .

كان الاستغلال الرعوي قبل كل شيء عمـل مـال وتجـارة وكاستغـلال الغـابـة وزراعـة الكرمـة . وكانت حـالـة إنكلترا أكثر دلالـةً من غيرهـا . لقـد كان كبـار المـلاكين من أصحـاب الأطيـان أمراء أو ديريين ، يشيـدون ثروتهم على تربيـة الغنم . إن أديرة رامسي وإيلي كانت تملك قطيعـاً بلغ أكثر من ٢٠٠٠٠ رأس ؛ وفي ١٢٥٩ م كان المـانس الأسقفي ، مجمـع المنـازل والبسـاتين والحقـول الـزراعيـة ، في وينشستر يغـذي ٢٩٠٠٠ خروف . وكان هؤلاء المـلاكـون الكبـار يحمـون بشـدة أراضي مراعيهم من حريق العواسج الذي يقوم به الفلاحون . وكان مجموع الصوف المنتج يشترى منهم في الغـالب سلفـاً قبل عـدة سنـوات من قبـل التجـار الإنكليز

أو الأجانب . وقيمة هذا الإنتاج عظيمة جداً ، حتى أن الحكومة الإنكليزية ، لجمع المال المخصص لدفع فدية ريتشارد قلب الأسد ، اكتفت بأن يقتطع سلفاً جزءً من أكداس صوف الأديرة الكبرى . ولكن كبار الملاكين لم يكونوا وحدهم في إنكلترا للمضاربة على الصوف . إن قطيع الفلاحين كان على الأقل ضعف قطيع الأمراء . وفي هذه المستغلات المتواضعة ، كان النشاط الرعوي مدعوماً من قبل سكان المدينة حسب طرق مطبقة عن سعةٍ أيضاً على القارة .

إن اللحامين وتجار الصوف وبورجوازيي كل مهنة الذين يتمنون فقط وضع مالهم بالفائدة ، كانوا يسلفون الفلاحين بالدوانق . وهكذا تألفت رابطة بين رأس المال والعمل ، نظمت بعقد يسمى في جنوب فرنسا ، عقد الشاكرية (غازاي)[1] وبموجبه يقدم الرأسمالي القطيع ؛ والمربي ، المراعي التي يتصرف بها عماله ويأخذ على عاتقه نفقات الاستغلال كلها . وفي غاية ثلاثة أو أربعة أعوام ، حسب العقود ، يجب أن يعيد للمالك القطيع سليماً ، والأرباح المتحققة في غضون ذلك من بيع الصوف ونمو القطيع تقسم مناصفة . وأحياناً كان العقد قرضاً مقنعاً : فمقابل قرض رأسمال ، كان المتصرف بالمال يتملك القطيع ؛ وفائدته تمثل بنصف ثمار التربية ؛ ويستطيع المقرض في آخر العقد أن يسترجع قطيعه ، إذا دفع له رأس المال . ومهما يكن ، فإن هذا النموذج من العقد يمثل شكلاً من الاعتماد الريفي الذي يحول عمل الأرض ويعطيه صفة مضاربة .

وكانت نتيجة هذا التطور الاقتصادي ، تبديل العلاقات بين مختلف طبقات المجتمع لأنه أدى في المدينة ، كما في الريف ، إلى تحويلات هامة في توزيع الدخول أي الموارد أو الغلات .

---

(١) غازاي Gasaille .

الفصل الثاني

المدن

(الشعب الطرير) و (الشعب النحيل)

في شعب المدن ، في الفلاندر كما في إيطاليا ، نمت الفروق الاجتماعية . لقد تعايش فيهما عالمان ، كما دلَّ على ذلك المؤرخ الإيطالي آ . سابوري : من جهة ، العالم التقليدي ، وبالتالي العصر الوسيطي أساساً بنموذجه في نظام الحرف . وهذا هو عالم المعلمين والصناع ، عالم المشاغل التي لا عدّ لها ، حيث يشتغل جمهور الصناع الأميين في الغالب وغير المثقفين لسوق ضيق على حدود مدينة أو حي ، مستعملين ، كوسيلة مبادلة (البيكولي)[1] ... وإلى جانب هذا العالم الصغير يعيش من جهة أخرى عالم طليعي . نرى فيه تنظيم الشركات التجارية الدولية ، صاحبة المستودعات الغنية التي تتكدس فيها البضائع الثمينة ، ورجالاً مجهزين بتجربة مديدة وبثقافة طلعة ومتنوعة ... يقومون بأعمال تجارية ومالية مع المراكز الاقتصادية الأساسية الهامة في بلاد ما وراء الجبال وما وراء البحار . وذلك بدفعهم بغزارة الفلورينات الذهبية والنقد الجاري في جميع بلاد العالم ... إن رجال الدراسة ، الذين لم يراجعوا كمصدر غير أنظمة الحرف ، انتهى بهم الأمر إلى رؤية وفهم عالم واحد ، عالم الأصناف الحرفية . ومع ذلك ، فإن هذه القوانين بالنسبة للصناع كانت إجبارية في الواقع ... بينما كان لها بالنسبة لكبار التجار قيمة شكلية أكثر منها جوهرية .

---

(١) پيكولي Piccoli .

مدن شمال ـ غربي أوربة

أ ـ لفيف أغنياء التجار يفرض سيطرته الاقتصادية

في المدن المقمشة ، في شمال ـ غربي أوربة ، وجدت أوليغارشية (أقلية) من أغنياء التجار ، وصفها المؤرخون المحدثون بلفيف بسط سيطرته الاقتصادية والسياسية على جمهور الصناع والعمال واستغل عملهم . وهذا الفريق الاجتماعي يضم أغنى بورجوازيي المدينة ، ويبقى منفتحاً لكل الذين يمكنهم أن يرتفعوا لمستوى ثروتهم . وأعضاؤه يتمتعون بامتيازات اقتصادية عديدة ، فلهم وحدهم حق الدخول إلى سوق المدينة لبيع الجوخ ؛ وهم وحدهم أعضاء الصنف ، ويستطيعون بهذه الصفة تصدير الأجواخ . ولما كانوا وحدهم يتصرفون برؤوس أموالٍ كافيةٍ للتموين بالمادة الأولية لصناعة الصوف ، كما من جهة أخرى على الصناع أن يمروا إجبارياً عن طريقهم لتصريف إنتاجهم المنتهي في الأسواق البعيدة ، إن هؤلاء التجار ، الذين يمسكون بطرفي سلسلة الصنع ، كانوا في الوقت نفسه متعهدين يعطون العمل ، ولا يمتنعون عن إساءة استعمال هذا الوضع ، وذلك بانتقاصهم أجور المأجورين ، وزيادتهم قيمة الفوائد الطبيعية التي تقوم مقام جزء من الأجرة . وأخيراً ، باعتبارهم ملاكي دور عديدة للإيجار في المدينة وفي الأحياء المتطرفة ، لذلك كانوا سادة الأجور لهذه الدور . إن تجارة وعمل القماش ساعدا على إشادة أضخم الثروات . ولكن يقع أحياناً أن التجار المغتنون أو ورثتهم يثمرون فيما بعد هذه الثروة بشكل آخر للتجارة ، ويتعاطون تجارة المال . أو أيضاً ، يضعون رؤوس أموالهم ثمناً للأراضي . وهكذا فإن أشهر وربما أغنى جميع تجار مدينة دوويه ، جان بوانبروك يملك فندقاً في دوويه وعدة دور للإيجار يؤجرها ، وأراضي للبناء في طرف المدينة ، ومطحنة وعدة أملاك ريفية لزراعة الحنطة والعظلم . وفي مدينة أراس فضلت أسرة كريسپن أن تتجه شطر تجارة المال .

وتحت هذا الفريق ، توجد فئة من صغار تجار الأقمشة الذين يسلمون هم أيضاً العمل إلى المستحدثين (الصناع) ، ولكنهم نظراً لضعف ثروتهم ، لم يكونوا إلا وسطاء بين هؤلاء الصناع وكبار التجار . والفريق الثاني الاجتماعي الفردي بوضوح هو فريق معلمي الحياكة . لقد كانوا في الغالب يملكون مجموع أدوات العمل ، ويشتغلون في مؤسستهم بمساعدة صانع يثقون به وبعض الخدم . ويؤلفون فئة اجتماعية معتبرة أيضاً نوعاً من أرستقراطية العالم العامل ؛ وللوصول إلى المعلمية ، يجب في الواقع أن يكون الواحد بورجوازي مدينة أي أن يملك فيها داراً ويقبله قضاة البلدية . ويأتي بعد ذلك على سلم أدنى قليلاً ، اللبادون (من صناع اللباد) ، والصباغون ، وصناع التحضير ؛ والمعلمون يصنعون إنتاجهم في مشغلهم الخاص ، ولكن أجرتهم يدفعها لهم في الغالب معلمو الحياكة الذين يوزعون عليهم العمل . وفي أدنى السلم الاجتماعي يوجد أخيراً فريق ثالث يتألف من (عمال الصوف) ومن خدم الحرف المختلفة . والأوائل مكلفون بعمليات تحضيرية ، يشتغلون في المنزل ، وتدفع لهم أجورهم بشكل بائس على العمل والسعر المألوف المتفق عليه . ويمنعون من أخذ عمل من عدة أشخاص معاً . وهذه الأعمال مخصصة عموماً لليد العاملة النسوية ، وفي الغالب فلاحات من الريف المجاور . وهذه حال المشاطات اللواتي وصفهن الشاعر والنحوي الإنكليزي جان دو غارلاند في قاموسه : « إنهن جالسات في ركن النار ، بالقرب من البالوعات والمستنقعات ، لابسات أردية مبطنة بالفرو رثة ممزقة ، وملابس قذرة » . وهذه هي الطبقة العاملة الكادحة الدنيا في صناعة الأقمشة . والخدم هم العمال المأجورون الذين يشتغلون في مشغل المعلم ومعه . وهم قلة في كل مؤسسة عمل ، لأن المشروع أساساً له صفة عائلية . ومن جهة أخرى ، إن الأنظمة المدنية تحدد عدد العمال الذين يمكن للمعلم أن يستخدمهم . ويبدو أن هؤلاء الخدم كانوا عند الانطلاق ، في البدء ، عمالاً يدويين بسطاء يتعلمون الحرفة قليلاً قليلاً .

ويساقون حسب عقد بسيط شفهي لعمل أو لأسبوع ، وفي الغالب ، متى تنتهي هذه المهلة ، يستخدمهم المعلم من جديد . والأجور محددة من قبل أتباع القضاة البلديين الذين يمنعون ، من حيث المبدأ ، كل دفع عيني (طبيعي) . وفي الواقع ، إن حالة هؤلاء الخدم ضعيفة جداً . ففي كل مرة ينتهي عقدهم ، يجب عليهم أن ينتظروا مع الآخرين ، على الساحة العامة حيث يجري السوق ، حسب إرادة المعلم الطيبة . وعلى هذا توجد يدٌ عاملة عامة عديدة جداً . وفي الحقيقة ، إن عمال المدينة يساقون مسبقاً قبل الأجانب . ومن جهة أخرى ، وبالرغم من هذه الأنظمة ، لأنها يمكن أن تفرض شروطها على المستخدمين المهددين بالبطالة دوماً ، فإن المستخدمين يعطون جزءاً من الأجرة العينية . لقد كان البؤس عظيماً في هذا العالم العمالي ، ويجد صدى له في بعض الأوساط الأدبية ، كما في رواية كريتيان تروا (١١٧٢ م) وفيها يصور بواقعية فقر عاملات النسيج .

وأخيراً لقد كان خدم وعمال الصوف موضوع عزل حقيقي ، فليس لديهم الحق في سكن المدن ، وإنما في أطرافها ؛ وفي كل مساء تغلق أبواب المدينة وراءهم .

ب ـ احتفاظ النبلاء بالحكم المدني

لقد توصل الأشارف ، لتأمين نفوذهم الاقتصادي بشكل أفضل ، عن طريق ثروتهم ، لأن يؤمنوا لأنفسهم حصراً الإشراف تقريباً على الحكم المدني ، وعلى القضاء البلدي الذي يدير المدينة . وكانوا وحدهم يتصرفون في البدء بالأوقات الكافية للاهتمام بالشؤون العامة . ومن جهة أخرى ، نجحوا منذ آخر القرن الثاني عشر بإقامة أنظمة انتخابية في كل المدن تفضلهم على غيرهم ؛ ففي الأصل كانت وظيفة القاضي البلدي في كل مكان على مدى الحياة تقريباً ؛ ولما كان هذا يؤلف التزاماً ثقيلاً جداً ، لذلك أصبح فيما بعد سنوياً ؛ وفي الواقع ، أن الأنظمة

التي تتغير حسب المدن ترجع دوماً إلى إقامة نظام يقضي بأن يعين المجلس أعضاءه : وهكذا نرى دوماً أن عائلات الأشارف نفسها تمارس دورياً وظائف القضاء البلدي . إن جان بوانوبروك كان قاضياً بلدياً لمدينة دوويه على الأقل تسع مرات . وعلى هذا فإن الطبقة الموجهة تستطيع أن تفرض سياستها . وكان القضاء البلدي ، في الواقع ، محكمة عامة مكلفة بالقضاء من حيث المبدأ باسم الكونت ، بالدعاوى التي تهم سكان المدينة . والقضاة البلديون الذين يقومون بالقضاء ، يقيمون العدل ، ولا يتوانون في خدمة مصالح الطبقة . ومن جهة أخرى ، كان للقضاة المدنيين دور مالي : كانوا يعدون موازنة المدينة ، ويحددون الرسوم على بيوع البضائع ، ويقررون ضريبة العامة واللجوء إلى القروض ، ولا يندر أن ينسوا وضع اسمهم على قائمة المكلفين بدفع الضريبة .

إن الإدارة المالية لنبلاء المدن مكروهة ، ولكن لما كان القضاة البلديون غير مسؤولين إلا أمام أخلاقهم ، لذلك فإن تضامن الطبقة يلعب في إبعاد كل حكم بحقهم . وأخيراً إن لوظيفة القاضي البلدي دوراً تشريعياً يسمح له مباشرة أيضاً بأن يفضل مصالح تجار الأقمشة ، وهو في الواقع ، الذي يحدد قواعد الصنع ، وأنظمة العمل ، والأجور ، والأسعار . فلئلا يكون سعر الكلفة عالياً جداً ، وليترك لهم للتصدير هامشاً عريضاً مفيداً ، يتدخلون على مستويين : من جهة ، في دور الارتفاع البطيء للأسعار ، يحاولون أن يحددوا سعر السلع الغذائية الأساسية ليكنهم إبقاء الأجور منخفضة تقريباً . وهذا التحديد يضر مصالح تجارة التغذية التي ينتمي ممثلوها ، كالصناع ، إلى الطبقات الوسطى في المدينة ، ويؤدي لأن يكون أول سبب في التوتر . ومن جهة أخرى ، يحاول القضاة البلديون تحديد الأجور في الحد الأدنى . وبما أنهم لا يستطيعون ذلك دوماً ، وهم أنفسهم يستخدمون من المأجورين ، لذلك يقومون بسهولة على هذا الصعيد

بتنازلات ، ويسقط ثقل هذه الأجور على المعلمين المستحدثين ، فيكون هؤلاء مستائين أيضاً .

وأخيراً ، إن الأوليغارشية التجارية تعاكس بكل قواها إحداث أنظمة لصنف صناعات الأقمشة في المراكز الكبرى .

وفي المدن الأخرى ، في الشمال الغربي لأوربة نجد الحالة نفسها : ففي باريس ، مثلاً ، حيث لاتوجد ناحية (كومون) وإنما قاضي ملكي يقوم بوظائف قضائية ، كان كبار التجار يسيطرون أيضاً بواسطة (عصبة تجار الماء) أي التجار الذين يستوردون ويصدرون بواسطة نهر السين . وكان زعيم هذه العصبة قديراً جداً . وختمه ، سفينة ، وشعاره ، « العوم دون الغرق »[1] أصبحا أسلحة وشعار باريس .

وبالمقابل ، خضع الصناع لنظام ضيق جداً . وقد نقّح القاضي الملكي في باريس إيتين بوالو هذا النظام بين ١٢٦٠ و ١٢٧٠ م .

جـ ـ الثورات المدنية

إن التوتر الاجتماعي بين الأوليغارشية التجارية من جهة ومن جهة أخرى ، معلمو الصناعات والطبقة الكادحة المدنية ، مافتئ ينمو في غضون القرن الثالث عشر . ومنذ منتصف هذا القرن ، انفجرت إضرابات حقيقية في المراكز الكبرى ، وإن تسوية دوويه تبرهن على ذلك ، وتمنع ، تحت طائلة الغرامات أو النفي ، التألب بين العمال ، و (ترك العمل) أي الإضراب ، وتحرّم أيضاً (منع الآخر من العمل) . ولكن هذه الانقطاعات المدبرة للعمل ، لا يمكن أن تكون إلا حركات ثورية عابرة ، لأن الطبقة الكادحة المدنية كانت فقيرة جداً ومجبرة على معاودة العمل بسرعة . وأصبحت الحالة أكثر خطراً عندما استلم الحياك توجيه الحركات الثورية . وهؤلاء الصناع (المستحدثون) الذين وجدوا

(١) Fluctuoat nec mergitur .

على رأس تسلسل العمال ، متأثرون بهرطقات ذات طابع إنجيلي تؤلف شكلاً لاحتجاج جماعي ضد تفاوت الثروات . وكان عالم الحياك أول عالم نظم في كل مكان . وقد أخذ فيه ظهور الأصناف المهنية طابعاً ثورياً في الوقت الذي زادت فيه المصاعب الاقتصادية والسياسية والأحقاد الاجتماعية في الثلث الأخير من القرن . إن الحرب التجارية الإنكليزية ـ الفلاماندية بين ١٢٧٠ و ١٢٧٥ م أبطأت وصول الأصواف الإنكليزية ورفعت أسعار المواد الأولية ، ونمت البطالة ، وتفجرت الاضطرابات في دوويه وتورنيه ، وبروج وإيپر ، وفي هذه المدينة الأخيرة ، يرى أن تحديد الأجرة ، في الحد الأدنى لعمال الصوف ، تسقط ثانية على المعلمين الحياك ، الذين كانوا في حالة صعبة ، قد أثار مشادة . وانتشر الثائرون ، وبخاصة الحياك في المدن يصرخون (كوكيرول) أي (ابتهاج جماعي) ، وطردوا القضاة البلديين حتى بيوتهم وانصرفوا للنهب . ولكن الثورة كانت دون غد ، لأن التألب الموجه ضد لفيف الأشارف قد لغم بالانقسامات الداخلية . والثورة الحقيقية حدثت آجلاً بمناسبة حروب الفلاندر التي قام بها فيليب الطيب . فقد ضاعف العاهل الكابسي تدخلاته لدى تابعه كونت فلاندر . والمنازعات الاجتماعية التي قسمت سكان النواحي بدت تشجع نواياه . ودعم عمال الملك أغنياء البورجوازيين ضد الحياك ؛ وفي ١٣٠٢ م ذبحت الحامية الفرنسية في بروج ، وسحق جيش الفرسان الفرنسيين من قبل قادة العمال الفلاماندييين في كورتريه . وأدت هذه الظروف إلى سقوط الأوليغارشية التجارية في مدن كثيرة حتى اضطرت ، على الأقل ، أن تقبل بمشاركة معلمي المهنة بالحكم .

وفي بروج أخذت مطالبات الشعب أيضاً نبرة مهددة .

المدن الإيطالية

وفي المدن الإيطالية حدث تطور مماثل : فقد كانت الحياة الاقتصادية يسيطر عليها في الأصل أرستقراطية مؤلفة من بورجوازيين أغنياء ، أصحاب سفن وتجار

صيارفة ، ولكن الفريد أكثر من ذلك أيضاً ، أن النبلاء ، كبار ملاكي الأطيان ، لم يترددوا بوضع رؤوس أموال في التجارة . وبالعكس ، إن كبار التجار الذين قاموا بأعمال مربحة جيدة وضعوا جزءاً من ثروتهم بعيداً عن صدف التجارة : اشتروا أراضي ، وشادوا بيوتاً لتأجيرها ، وأقرضوا المال ، وكالنبلاء كانوا يعيشون في منازل تعرف من بعيد بأبراجها العالية ، ويحملون أسلحة ويكافحون وهم على صهوات الجياد ، ومن هنا جاء اسم العسكر Milites ، الذي أطلق على أعضاء هذه الطبقة الأرستقراطية المدنية . وهذه الأشرفية تسيطر على كل الحياة الاقتصادية في المدينة ، وكما في الفلاندر ، تمارس ضغطاً قوياً على عالم المستحدثين ، من صغار أصحاب الدكاكين والعمال . ومنذ أصل الكومونات (النواحي) احتكرت الأرستقراطية أيضاً حكم المدينة ؛ وكفت مجالس الشعب العامة المجردة من السلطة عن الاجتماع بسرعة . والحكومة ، هيئة قناصل أو مجالس كانت مأهولة بالعسكر فحسب . وبفضل المنازعات بين النبلاء والبورجوازيين في داخل الطبقة الموجهة ، بدأ البوبولو ، الشعب ، بالظهور على المسرح السياسي ، في القرن الثالث عشر . وطالب بالمشاركة في حكم الناحية (الكومون) كما طالب بحق الجلوس في المحاكم . وفي الواقع ، لم يكن القصد اتجاهاً ديموقراطياً بحق : لأن الطبقة العليا للشعب (الشعب الطرير) ، الطبقة التي اغتنت بالصناعة ، أعضاء الأصناف المهنية ، التي تتمتع باعتبار خاص (الفنون العظمى) ، نجحت في الحصول على المشاركة في الحكم الذي لم تشأ فيه المشاركة مع (الشعب النحيل) . وفي كل مكان يحدث فيه هذا التطور ، كان يؤدي إلى وصول الشعب الطرير إلى السلطة . إلا أن الحركة لم تنجح سواسية في كل مكان : ففي البندقية ، توصلت أرستقراطية أصحاب السفن بتضامنها إلى الحفاظ على نفوذها ، أمام شعب طيّع وخالٍ من التنظيم . وفي جنوة أيضاً ، دخل الشعب في نضال بين شيع الطبقة النبيلة ، وكان دوره محدوداً . وفي الحقيقة ، كان لهاتين المدنيتين بنية اقتصادية واجتماعية تختلف عن البنيات الأخرى ، وذلك يرجع إلى الأهمية الضعيفة

التي كانت لطبقة المستحدثين . وبالمقابل انتصر الشعب الطري في مدن لومبارديا وتوسكانا : ففي ميلانو ، استولى العمدات ، على السلطة ومارسوها باسم الشعب . وفي فلورنسا ، حصلت الفنون الخمسة العظمى على سبعة عشر مقعداً في المجلس على حين أن الفنون الصغرى لم يكن لها غير خمسة ممثلين . وهكذا فقد توصلت أرستقراطية جديدة إلى السلطة ، وأدى صهر بطيء بين أعضائها وأعقاب العائلات الفروسية القديمة إلى تشكيل طبقة موجهة واحدة .

الأرياف : الأجلاف والأرستقراطية الطينية

إن المجتمع الريفي ، مجتمع الفلاحين والملاك النبلاء ، قد تحول هو أيضاً بشكل عميق في القرن الثالث عشر . ودخلت منتجات الريف بصورة عريضة وواسعة في دورة المبادلات . وعرف سعرها ، كسعر الأرض ، ارتفاعاً منتظماً خلال هذا القرن الثالث عشر . وكل الذين يتصرفون بفائضات زراعية يمكنهم بيعها ، أفادوا من هذا الظرف الملائم .

وبالمقابل ، إن الفلاحين والنبلاء كانت لهم أيضاً حاجات جديدة لا يمكنهم إرضاؤها أو إشباعها إلا بالمال . ودفعتهم تسهيلات الاعتماد إلى نفقات لا تستطيع مواردهم العادية تغطيتها . ولذا فإن تغلغل النقد في الأوساط الريفية أدى إلى تغير العلاقات الاقتصادية بين مختلف الفئات الاجتماعية التي تعيش من الأرض ، وبالتالي إلى تغيير الظروف الاجتماعية .

تحول اقتصاد الأملاك

كان سلوك الأمراء الاقتصادي يسيطر عليه قلق كسب المال بغية سدّ حاجاتهم للبذخ . وإن اقتصاد الدومين من النموذج القديم ، الذي يهدف إلى الحصول من الأرض التي يعمل فيها من بيده الأرض على الأساسي من المحاصيل

الضرورية لغذاء الأمير وعائلته ، قد تمَّ تجاوزه . ومنذ الآن فصاعداً ، كان الأمراء يتمنون الحصول من مستأجر الأرض على دنانير أكثر من العمل أو من السلع الزراعية . وفي الوقت نفسه يظهرون كسباً جديداً من فائدة إعمار ملكيتهم من الأرض عندما يمكن لهذه الملكية أن تجهزهم بمحاصيل تمكن المتاجرة بها .

وبالتالي ، فإن الملاك ، دون التخلي تماماً عن السخرة ، يحاولون أن يقلبوا الخدمات والإتاوات إلى دخل مالي . وفي دفع الضرائب ، يحدث في الغالب أن يدفع الفلاحون لهم المال عوضاً عن الحبوب أو بعض الحيوانات الداجنة ، من طيور وغيرها ، التي يعطونها عادة . وكان بعض الفلاحين أكثر همة من غيرهم ، وأخذوا بفكرة الحفاظ على الفائض الذي يمكن أن يحملوه إلى السوق . أما الأمراء فقد استهواهم في البدء أخذ النقد الرنان ، ولكن ربح الاستبدال ظهر بسرعة أنه كان باطلاً جداً . ولما كانت الأسعار آخذةً بالازدياد دوماً ، فإن الدخل الذي ظلَّ ثابتاً يمثل في آخر الأمر أجرة بسعر وهمي تافه . وعلى سبيل المثال ، نرى حوالي ١٣٠٠ م ، أن حصيلة الضرائب لا تمثل أكثر من ١ ٪ من الموارد السنوية لدير القديس ـ دوني . ولتعويض هذا الهبوط في إيجار الأرض ، حاول الأمراء أن يفيدوا بشكل أفضل من مصادر أخرى للدخل ، مثل رسوم انتقال الملكية من يد ليد . وقبل الأمراء طوعاً في القرن الثالث عشر بأن يجزئ المستأجرون قطع أرضهم ليبيعوا منها أو يورثوا منها قطعة أو جزءاً ، وذلك لأن الفرصة تتاح لهم لأخذ رسم الانتقال نقداً . وبالشكل نفسه حاولوا أن يزيدوا أرباح الإمارة العادية ، المرتبطة بالسلطة التي يمارسونها على الناس ، ورافق ذلك ميل إلى تثبيت هذه الرسوم الأميرية ؛ ففي إيطاليا منذ القرن الثاني عشر ، وفي فرنسا في الآجل قليلاً نمت حركة (تحرير) : وهي أن يبيع أمير القرية للمجموعة الفلاحية ، مقابل مبلغ هام من المال ، ميثاق حرية . ويحقق بذلك مباشرة ربحاً كبيراً ولا يتخلى كذلك عن المبالغة في رفع كل المتطلبات ، حتى أنه لا يقبل دوماً

بإنقاصها . وأصبحت هذه المبالغة في المتطلبات منتظمة ، وهذا ما كان يرجوه الفلاحون الراغبون في معرفة ما يجب عليهم دفعه . ومن جهة أخرى ، كان الفلاحون أنفسهم يوزعون ضريبة القامات بين المنازل .

وهكذا فإن العلاقات بين الأمراء والفلاحين وضعت منذ الآن تحت مؤثر المال . ولكن هل أصبح الأمراء حقاً أصحاب مداخيل من الأرض ؟ إن بعض حالات تقسيم الاحتياطي من الأرض ، استطاعت أن تترك مثل هذا الظن . وفي الواقع ، رأى الأمراء الملاكون أن من الأفضل إحياء هذا الاحتياطي ليجنوا من بيع المحاصيل أرباحاً متزايدة . ففي إنكلترا استأنف الأمراء الكنسيون العودة إلى استثمار مباشر للملك بأيديهم ، حتى أنهم طالبوا بسخرات هامة من المستأجرين . وهذه الممارسة الأخيرة ، التي كانت آنذاك في غير زمانها ، ظلت قاصرة على الأديرة الإنكليزية الكبرى . وبصورة عامة ، في إنكلترا ، كما في القارة ، كان اللجوء إلى العمالة المأجورة (طبقة الأجراء) من قبل صغار ومتوسطي الملاكين الذين يوجهون بأنفسهم إحياء الاحتياطي .

وأحياناً يفضل الأمير ، عوضاً عن إدارة الإمارة مباشرة ، أن يؤجرها . وفي القرن الثالث عشر ، حقق إيجار الأرض تقدماً كبيراً على القارة ، وفي الوقت نفسه تحول ، فبعد ١٢٥٠ م ، تراجع التأجير على (حياتين) بسرعة لصالح العقود القصيرة الأجل (٦ ، ٩ ، ١٢ أو ٢٤ عاماً) . كان الأمير ينتظر ، في الغالب ، ممن يقومون عوضاً عنه بالاستثمار ، نصيباً من المحصول ، وأن يوضع جانباً له في النبر (شونة) بعد الدراس ؛ وعلى هذا النحو يقيم العقد مقاسمةً . وكان هذا النظام يتمتع بحظوة كبيرة في القرن الثالث عشر ، لأنه سمح للمعلم (السيد) بأن يستفيد من زيادة الإنتاجية ومن ارتفاع الأسعار الزراعية .

وفي هذا الظرف الجديد ، كيف أصبحت حالة الفلاحين ؟ لقد تأثروا هم

أيضاً بالتداول السريع للعملة (النقد) . وإذا ساعدهم بيع بعض فائض عملهم في الحصول على بعض الدوانق ، فبالمقابل كان يغريهم الشراء أكثر من أجدادهم : حيوانات ، نمط زراعة ، أداة أو لباس مصنوع في المدينة . ومن جهة أخرى ، إن نهوض الضريبة أجبر كل واحد على أن يكون تحت تصرفه نقدٌ ليرضي جباة الضرائب ، وإذا كان شراء وثيقة التحرير (الاستثناء) ـ مناسبةً تكلف مصاريف ضخمة ـ قد ساعد نوعاً ما على تحديد الضريبة الأميرية ، فإن تقدم السلطة الملكية أو الكونتية ، انطلاقاً من بداية القرن الثالث عشر ، قد أثقل عليهم بأعباء جديدة ، تحت شكل ضرائب القامة الثقيلة والمتناوبة . ولسدّ كل هذه الحاجات التي لا تغطي الواردات بشكل كامل ، كان الفلاحون مضطرين للقرض ؛ هذا فضلاً عن أنهم يرغبون في الغالب بتوسيع أو تحسين ملكهم بغية الإفادة من ارتفاع الأسعار الزراعية . ويمكنهم الحصول من بورجوازي على استثمار رأسمال صغير في مستغلهم ويوقعون معه عقد الشاكرية . ولكن القصد في الغالب قروض استهلاك تجرى لدى اللومبارديين ، واليهود أو جار أكثر يساراً . وهكذا نرى في ١٣٠٠ م أن ٦٥ ٪ من ديون المرابين في مدينة پرپنيان قد عقدت من قبل فلاحين ، وهؤلاء يدفعون مقابل دينهم خلال عدة سنوات جزءاً من محصولهم لدائنهم . وأخيراً هناك ممارسة أخرى انتشرت في القرن الثالث عشر ، وهي ممارسة الدخول المتشكلة ، فمقابل المبلغ الذي يكون المستقرض بحاجة إليه ، كان يتخلى عن دخل سنوي ودائم (يشكله) على أرضه . وهكذا فإن الفلاحين لا يفيدون إلا جزئياً من ارتفاع الأسعار الزراعية ، والاقتطاعات تجري على أرباحهم ، من قبل الأمراء ، وسكان المدينة ، وعمال إدارة الضريبة الملكية .

الاضطراب في سلم الثروات

إن الدور الجديد ، الذي لعبه المال ، أدى إلى تغييرات هامة في عالم الفلاحين كما في عالم النبلاء .

من جهة الأرباح ، ومن جهة أخرى الدين أو الاستدانة ، كل شيء عجل التطور الاقتصادي والحقوقي للفلاحين في اتجاه فارق متزايد بين الأغنياء والفقراء ، وبين الأحرار وغير الأحرار . لقد حصلت الجماعات الفلاحية الموسرة أكثر من غيرها على فوائد من وثائق الإعفاء (الاستثناء) . فقد حذفت عن أعضائها الخدمة الشخصية . وبالمقابل ، يلاحظ في كل مكان تقريباً ، عودة العبودية ثانية ، والأسباب مختلفة : إن إعلان حرية بعض الأجلاف ، هو « بالمقابل الدلالة على أن الآخرين مصفدون بأغلال العبودية » . ومن جهة أخرى ، إن نهضة الدراسات الحقوقية شجعت حالة وعي بإنعاش مفهوم العبودية القديم ، ولكن بخاصة أن فقر جزء من مجموعة الفلاحين ساعد على ظهور الأقنان المرتبطين بالتراب ، وبالسخرة دون رحمة : وهم نادرون تقريباً في فرنسا ، وكثر في إنكلترا .

ومع ذلك فإن جمهور الفلاحين أفاد من إجراءات التحرير من العبودية ومن ارتفاع الأسعار الزراعية معاً . وهذا لا يعني أن المستوى المتوسط للحياة المادية للأجلاف قد تحسن بشكل محسوس منذ القرن الحادي عشر ، وأن الموارد الجديدة تكاد تعوض النفقات الجديدة . ولكن يوجد الآن فوق هذا المستوى المتوسط جماعة فلاحين أغنوا ، وهم مزارعو الأملاك الكنسية ؛ فقد استطاعوا بمهارة أن يوسعوا أرضهم ، وعرفوا كيف يقبلون على استثمارات مفيدة ، مثل تربية الحيوانات ، وأصبح بعضهم غنياً .

وهذا الاختلاف في الفئات الاجتماعية ، في داخل جماعة الفلاحين ، كان في البدء ملائماً للأمراء الذين أفادوا منه بنهب المال ممن هم أكثر غنى ومطالبة الأكثر فقراً بالخدمات الثقيلة . وفي الواقع ، على الرغم من أن أرباح الفلاحين تسيل في القسم الأعظم منها نحو صناديق (خزائن) الأمراء ، فإن ثروات الأمراء ، هي أيضاً ، مهددة في الغالب . لقد تذوق الأمراء حياة البذخ ، وأحبوا احتساء الخمر ،

والاستعراض بالملابس الجميلة ، في البلاطـات وفي المجـالس . وبنمو استعمال المـال ، توصلوا إلى تشكيل مهر بناتهم أو هباتهم التقية للكنيسة تحت شكل مبلغ من المـال (النقد) . وأخيراً إن الحرب نفسها كانت مصدراً لنفقات متزايدة . ففي أوربـة ، تحولت الحرب ولعبت القصور الحصينة دوراً أسـاسيـاً ، لأن فن التحصين والهجوم حقق تقدماً كبيراً . وأخـذ سكان القصور يبنون بـالحجر . وفي الجيوش زاد مكان المشاة ، أو من هم مرتزقة يستأجرهم الكونتـات أو الأمراء . وتجهيز الفـارس نفسـه أصبح مكلفاً أكثر فـأكثر . وفي آخر القرن الثـالث عشر ظهرت الـدروع المصفحـة التي يمكن أن تحمي الفارس من السهام . وأفقر الكثير من عائلات الفرسان بخاصة بسبب الحروب الصليبية التي نزعت لأن تصبح مؤسسة دائمة .

وازدادت إيرادات الأرض التي يتصرف بها الأمراء ، ازدادت بسرعـة أقل من النفقـات التي يجب أن يـواجهـوهـا . إلا في إيطـاليـا ، حيث أسهمـوا بـالنشـاط التجـاري ، ولم يكن لهم مصـدر آخر للإيرادات ، ولـذا كانوا مضطرين للقرض . وأصبح دين الطبقة النبيلة مزمناً منذ منتصف القرن الثاني عشر . وللحصول على قروض ، توجه النبلاء الملاكون للمؤسسات الدينية ، والبورجوازيين ، والمرابين ، وأصحاب المصارف الإيطاليين .

وكان الأمراء مضطرين ، عنـدمـا ينضب اعتمادهم ، إلى نقـل قطـع من أرضهم . وهذه الأراضي النبيلة والحقوق المرتبطـة بهـا تنتقل على هـذا النحو غـالبـاً إلى فلاحين أغنيـاء أو إلى رأسماليين بورجوازيين يبحثون عن تثمير (حقيقي) . والآثـار الأدبيـة المؤلفـة للجمهور النبيـل ، في القرن الثـالث عشر ، مفعمـةٌ بـالتهكم حيـال الفـلاحين الذين يقيمون في قصور المزارع ويحاولون أن يعتبروا أناسـاً طيبي الأصل . إن الجلف أو التاجر المغتني ، اللذين اكتسبا إمارة يباشران العيش بنبل . وعلى سبيل المثال يـذكر الأستـاذ دوبي في مـؤلفـه (الاقتصـاد الريفي وحيـاة الأريـاف في الغرب في العصر الوسيط) ، أن تاجراً من كلوني ، في ١٢٦٥ م ، حصل مقابل قرض غير مسترد من ٨٠٠

ليرة ، على حق التصرف في قصر اعتبر إقطاعاً من دوق بورغونيا ، مع كل العدالة العليا والسلطات على جميع التابعين مباشرة للأمير .

محاولة رد فعل الطبقة النبيلة

لقد أحست الطبقة النبيلة بالفقر الذي ألمَّ بها وشهدت صعود أغنياء جدد ، فرسمت رد فعل دفاعي . وللجم رقة الحال في الأموال المتوارثة تخلت الأسر الأميرية قليلاً قليلاً عن العرف في التقسيم المتساوي بين الورثة . وكانت الحصة الكبرى مخصصة للابن البكر ، أما الباقون فينصرفون للدين . وفي الوقت نفسه يحاول أمراء سلالات الفروسية القديمة أن يمتازوا عن الحديثي الغنى . وبما أنهم ليسوا الوحيدين لتملك وقف الثروة ، وبالتالي لا يقدرون على تسليح أنفسهم . فقد زعموا أن يؤسسوا تفوقهم على ميلاد يخولهم امتيازات خاصة . ونزعت الطبقة النبيلة إلى تحويل نفسها إلى طبقة مغلقة . وأول مؤشر لهذه الحالة الجديدة الفكرية ظهرت في قاعدة فرسان المستشفى (الاسبتارية) (١١٤٢ م) ؛ فقد تقرر أن يساق الإخوة الفرسان فقط من بين أبناء الفرسان أو من العائلات الفرسانية . ومن بعد ، نظراً لأن أعقاب الفرسان لا يملكون الوسائل لتسليم الدروع لأبنائهم ، فقد تبنوا ، لتعيين هؤلاء ، تعابير جديدة تدلّ على ميلادهم النبيل ، وهذه التعابير هي : دونزو أو داموازو وسكوتيفير أو أي مرشحٌ للفروسية . وأخيراً كان النبلاء أوفياء لمثل أعلى يقاومون به البورجوازي أو الجلف . كانوا فطنين ، مقتصدين ، كيسين . وفي (رواية الوردة)[1] ترى هذه (الروح) النبيلة موضحةً :

---

(١) قصيدة تحتوي جزأين :

الأول : قصة رمزية لمغامرة حب ، مؤلفها غليوم دولوريس Guillaume de Lorris (نحو ١٢٣٦ م) .

الثاني : قصة هجائية وتعليمية ترجع إلى جان دو مونغ Jean de Meung (١٢٧٥ ـ ١٢٨٠ م) .

« أريد وآمل أن تطرد من سلوكك كل عمل دنيء . والعمل الدنيء يصنع أدنياء . والأدنياء ، الذين أكرههم ، خونة لأميرهم ، سيدهم ، وغير أكفاء لخدمتي ، غير أكفاء لعواطف ناعمة ... تجنب أن تلفظ كلمات خشنة وشعبية ، وإياك أن تلفظ بشفتيك أشياء قبيحة . ولا أعتبر من يتكلم لغة عامية مبتذلة رجلاً مهذباً ... يجب أن تكون لبقاً ، واللباقة ليست مؤشر كبرياء . اعتن حسب إيراداتك بملابسك وأحذيتك ... واحتذ بأحذية جديدة لها أشرطة ، وعندما يراك الأدنياء تأخذها ضيقة جداً وتمر أمامهم يتساءلون ، مستهزئين بك ، كيف استطعت أن تدخل فيها وتخرج منها . وفوق كل شيء فرّ من البخل ، وتعلم العطاء » .

إن مفهوم النبل ينفصل إذن عن الفروسية . النبل صفة نوعية تنتقل بالدم وتعطي حقاً بامتيازات شرفية، لحمل الأسلحة أو لبس بعض الألبسة . وتخول (اللطافة) . ولا يبدو في الواقع أن رد الفعل النبيل هذا قد بلغ غايته كاملاً ، والطبقة النبيلة لم تصبح طبقة مغلقة حقيقة . أما شُراة المال النبيل ، الذين يعيشون حياة نبيلة خلال بضع سنوات ، خلال جيل على الأكثر ، فقد نجحوا في فرسنة أبنائهم وتغلغلوا بفضل الرضى المحلي في الطبقة العليا .

وقصارى القول ، إن هذا التطور الاجتماعي ، في الحدّ الذي تضعف فيه سلطة الطبقة النبيلة ويؤدي إلى تشكيل طبقات غنية جديدة تستطيع أن تدفع ضرائب أو تستجيب لقروض ، هذا التطور يشجع تقدم السلطة الملكية .

الفصل الثالث

توطيد الملكيات

فرنسا وإنكلترا

لقد شجع تجديد حياة العلاقات ، وعودة الصلات الاقتصادية والفكرية ، انطلاقاً من منتصف القرن الثاني عشر ، تجمع السيادات الصغرى وإمارات العصر الإقطاعي الأول في أراض قومية واسعة كانت الملامح الأولى لدول أوربة الحديثة . وفي مناطق الغرب تمّ هذا التطور حتى نهايته مفيداً سلطة الملكيات المركزية ؛ فقد بسط الملوك سلطتهم بفضل فقر الطبقة النبيلة وصعود طبقات اجتماعية جديدة اعتمدوا عليها ، كما في فرنسا ، أو قبلوا معها أخيراً تقسيم السلطة ، كما في إنكلترا . وبالمقابل ، إن السلطة الامبراطورية ، وإن كانت ماتزال متألقة بعد في القرن الثاني عشر ، فقد لاقت أفولاً عرّض أوربة الوسطى للفوضى . وهكذا ولّى زمن السيطرة الكونية كما زال زمن سكان القصور الحصينة .

لقد تشكلت ، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الامبراطورية الآنجفية التي وحدت بين أيدي عواهل آل بلانتاجونية ، إنكلترا والنصف الغربي كله من فرنسا ، وشكلت للملوك الكابسيين ، وللوحدة الفرنسية ، تهديداً فظيعاً استطاع فيليب أوغست تلافيه في السنوات الأولى من القرن الثالث عشر ، ومنذ ذلك الحين ، بدأ اتجاه تاريخ إنكلترا ، التي لاتملك على القارة أكثر من الغويين ، يختلف عن تاريخ فرنسا ، التي آل فيها الدومين الملكي إلى استعادة القسم الأعظم

من الأرض . لقد ضعفت الملكية الإنكليزية وقبلت رقابة البرلمان . وفي فرنسا ، بالعكس ، بلغت السلطة الكابسية الأوج ، في سياق القرن الثالث عشر ، وشجعت إشعاع الحضارة الفرنسية في أوربة كلها .

أ - الإمبراطورية الآنجڤية ضدَّ الملكية الكابسية فيليب أوغست وآل بلانتاجونة

في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، ورثت عائلة من القارة إرث السلالة الأنغلو - نورماندية وأعادت في إنكلترا عمل غليوم الفاتح . ولكن بيت آل آنجو كان يملك دوميناً (قارياً) أوسع من دومينه في الجزيرة ، وجرَّ إنكلترا في خلاف طويل مع الملوك الكابسيين .

منذ وفاة الملك هنري الأول (١١٣٥ م) ، كانت إنكلترا فريسة الفوضى ، ونظراً لعدم وجود ورثة ذكور مباشرين ، كان العرش متنازعاً بين حفيد غليوم الفاتح ، الذي استطاع أن يتوج نفسه تحت اسم إيتين الأول ، وبنت الملك الراحل ماتيلد . وبفضل هذا الخلاف ، تحررت البارونية الإنكليزية من السلطة الملكية ، وعندئذ تقدم مدعٍ جديد بالملك في شخص أمير آنجفي .

١ - تشكيل الإمبراطورية الآنجفية

إن السلالة الآنجفية ، التي استأنفت ووسعت المحاولة النورماندية ، كانت قد توطدت في زمن اصطدمت فيه مزاعمها بمزاعم غليوم الفاتح . وبعد أفول بضع سنوات ، استعاد بيت آنجو كل سناه بوصول الكونت جوفروا بلانتا جونيه إلى السلطة . فقد وطد هذا الأخير النظام في إرثه : **آنجو** ، **تورين** ، **ومين** . وأضاف له نورمانديا التي فتحها باسم زوجته ماتيلد . وهكذا ورث ابن جوفروا وماتيلد ، هنري بلانتاجونة ، إمارةً واسعةً (١١٥١ م) . وزواجه من آلينور

(١١٥٢ م) التي انفصلت عن ملك فرنسا لويس السابع ، كان عملية سياسية حاذقة ؛ فقد وقعت أكيتانيا كلها تحت سلطته وسيطرته . ولم يكفه هذا الدومين القاري الواسع ، فقام باسترداد مملكة جده هنري الأول . وفي كانون الثاني ١١٥٣ م ، نزل على الشاطئ الإنكليزي . وكان الملك إيتين مسناً ، فتخلى عن النضال بعد بضعة أشهر ، واعترف بهنري وارثاً للعرش ودعي للمشاركة في الحكم ليبقى بعد وفاة إيتين (١١٥٤ م) وحيداً على السلطة .

وثبت هنري الثاني ، لدى تتويجه في ميثاق « كل الامتيازات والهبات ، والحريات والأعراف الحرة التي أعطاها وخولها جده الملك هنري » ، وألغى « جميع الأعراف السيئة التي كان قد ألغاها جده وأسقطها » . وبذا أكد إرادته على العودة بها إلى ماقبل عشرين عاماً من الفوضى ، إلى سياسة جده السلطوية . لقد كان هنري الثاني (١١٥٤ ـ ١١٨٩ م) بنشاطه وقوته ، أحد كبار ملوك فرنسا . ففي عهده حققت السلطة الملكية تقدماً حاسماً ، وهيأ فيها مستشارو الملك نظرية الحكم الملكي المطلق . وفي ذلك العصر شرع الديوان الملكي باستعمال له دلالته وهو الصيغة : « ملك بفضل الله » .

وفي أقل من عام ، أنهى هنري الثاني الفوضى الإقطاعية التي نمت في إنكلترا في عهد حكم إيتين . إن (قصور الفساد) التي شيدت دون ترخيص ملكي طرحت أرضاً ، وردَّ الأمراء المشاغبون إلى حظيرة الطاعة . ولإنهاء التهدئة ، أراد الملك أن يصلب حدوده ، فمن ذلك أن ملك إيكوسيا أعاد كونتيات الشمال التي احتلها أثناء الفوضى ، وقدم له احترام مملكته . ومع ذلك ظلت هذه الروابط الإقطاعية رخوة . وفي بلاد الغال ، قام العاهل بثلاث حملات صعبة حتى اضطر إلى الاكتفاء بسيادة لاتضايق الملكين الأصليين من أبناء البلاد . وأخيراً فكَّر هنري بفتح إيرلاندة التي كانت فريسة المنازعات القبلية . وكان البابا أدريان يرغب

بإصلاح الكنيسة السلتية (الكلتية) ، فأعطى إلى هنري الثاني مرسوماً يخوله إيرلاندة بصفة وراثية ، ولكن لم يعمل شيئاً لتأمين الفتح الحقيقي للجزيرة .

وأكملت الإدارة الحسنة في المملكة ، النجاحات العسكرية . فقد استندت حكومة هنري الثاني محلياً على (موظفي الإدارة) الذين أصبحوا بحق عمال السلطة التنفيذية ، وصلة الوصل بين السكان والسلطة المركزية . وهذه الأخيرة كانت مؤمنة دوماً بالبلاط الملكي . وحافظ البلاط ، في الظاهر ، على طابعه الإقطاعي ؛ وفي الاجتماعات الكبرى ، البلاطات العامة ، يتزاحم الكونتات ، والبارونات ، وفرسان المملكة وكذلك الأحبار . ويعطي المجلس رأيه في قضايا السلام والحرب ، والأحلاف ، والزواج الملكي ، ولكنه لا يستطيع معارضة القرارات الملكية ، ولم يكن ذلك المجلس برلماناً بعد . وبالمقابل ، بدأ البلاط الملكي ، بشكله العادي ، خلال تطور بدأ من قبل في عهد هنري الأول ، بالتخصيص في المصالح التي تصور مسبقاً البوروقراطية (الديوانية) الحديثة . أما الديوان الملكي المكلف بتحرير الرسائل والصكوك (الأعمال) فيخضع إلى قواعد متشابهة ، وبدأ الأكليروس بإنشاء محفوظات بشكل منظم ، وهذه أقدم المحفوظات التي يمكن للمؤرخ أن يجدها في أوربة . أما بلاط الملك المعتبر كبلاط مالي ، بلاط الملك الجالس في وزارة المالية ، المذكور لأول مرة في ١١١٨ م فقد وصل إلى أعلى درجة في التنظيم . وتؤلف وزارة المالية الدنيا (الخزينة) . وإلى هنا يأتي موظفو المالية ليدفعوا المبالغ المجباة ، وهنا تحفظ حساباتهم ، وأول حساب حفظ ، يرجع تاريخه إلى ١١٣٠ ـ ١١٣١ م ، ولم تبدأ المجموعة المستمرة للحسابات إلا في السنة الثانية من حكم هنري الثاني . وكان بعض الاختصاصيين يشاركون في هذا القطاع من وزارة المالية . وعلى العكس ، كانت وزارة المالية ديوان محاسبات حقيقي يجلس فيه إلى جانب الفنيين ، كبار شخصيات البيت الملكي : وأمام هذا المجلس ، كان على المأمورين أن يبرروا نفقاتهم وجباياتهم ،

ويمكن عند الحاجة أن يتعرضوا للقضاء . وجاء اسم هذه الهيئة من الطاولة المستعملة للعمليات المالية ؛ فقد كانت مغطاة بسجادة سوداء رسمت عليها بيوت . ويحسب بالقريصات (أحجار لعب) التي تختلف قيمتها حسب الموقع الذي تحتله ؛ وهكذا فإن العمليات الحسابية يمكن أن تجرى بسرعة . وأخيراً يمكن للبلاط الملكي أن يتحول إلى محكمة . وهذه المزية ليست جديدة، فحتى وصول هنري الثاني إلى العرش ، كان القصد منها محكمة فائقة للعادة ، تستأنف فيها بعض قضايا تحكم بها المحاكم المحلية ، أو الأميرية ، أو تجلس للحكم بدعاوى خطيرة جداً . وانطلاقاً من حكم هنري الثاني ، أصبح البلاط محكمة عادية لكل المملكة . وللاستجابة لهذا التوجه الجديد يوفد قضاة جوالين إلى المملكة كلها وأصبحت جولاتهم منتظمة منذ ١١٧٦ م . وهناك قضاة آخرون يجلسون على الدوام لدى الملك ، ويشكلون ماسمي فيما بعد (محكمة أو مجلس الملك) . وهكذا حدثت ثورة في اتجاه المركزية والمماثلة الملكية في الشكل .

لقد ماثل نمو المحاكم الملكية نمو التشريع والحقوق ، ولم تأخذ العدالة الملكية في إنكلترا بعين الاعتبار الأعراف المحلية ، بل بالعكس ، إن (المحاكم الملكية) العديدة جداً في عهد حكم هنري الثاني ، كانت تصدر ، كما كانت في السابق البراءات الكارولنجية ، قواعد عملية ، فقهاً قضائياً قابلاً للتطبيق على المملكة كلها . وهذه المحاكم المعادية للروح الأميرية ، كانت تشجع أحرار الناس ممن حالتهم صغيرة ورقيقة : فالأمير لا يمكنه أن يستولي على إرث واضع اليد على الأرض ورفع يد وارثه عنها . ووجدت لجنة جيران تدعى من قبل موظف عام مختص وتكلف بالنطق بالحكم . وهكذا أدخلت منذ القرن الثاني عشر ، الدعوى بلجنة محلفين . ولم يكن التشريع الملكي أقل عداوة لتجاوزات العدالة الكنسية ، فبموجب **دساتير كلارندون** أراد هنري الثاني أن يقيد القضاء الكنسي ، أي الامتياز الذي لا يقاضى بموجبه الإكليركيون إلا في محاكم كنسية ، ويؤمن بنفسه عقوبة الإكليركيين

الجرمين . لقد كانت سلطة الملك قوية جداً جداً حتى أن ذوي الامتيازات المستائين لم يكونوا على درجة من الجرأة للتواطؤ ضدَّ الإرادة الملكية . ومع ذلك فإن قرية **كلارندون پارك** حرضت ثورة توماس بيكيت ضدَّ الملك ، مع أنه كان له مشاوراً وصديقاً ، وكانت في أصل درامة شهيرة جداً لموته .

على أن هذا الموقف من الملك ، لم يثر مجموع الإكليروس ضده ، فقد بقي وفياً له ؛ ولكنه بعد الإذلال الذي لحق به في كنيسة آفرانش وإخضاعه للتوبة اضطر إلى التخلي عن تطبيق دساتير كلارندون . وبعد هذا الإذلال حاول الكثير من البارونات النورماندييين والإنكليز أن يثوروا بتحريض من أبناء الملك (١١٧٣ م) ، فلم يجدوا أي سند لهم في الشعب الذي اكتفى بالنظام الذي فرضته إدارة هنري الثاني الشديدة . وتوطدت السلطة الملكية ، واضطر الملك ريتشارد أن يقضي كل حكمه تقريباً خارج إنكلترا دون أن يضطرب حبل السلام المدني .

ولم تكن الآفاق الضيقة لإنكلترا العصر الوسيط تكفي لإرضاء طموح هنري الثاني . فقد كانت لهذا العاهل وجهات نظر سياسية ، وميول كونية إمبراطورية أكثر من ملكية ؛ ولهذا فإن لتعبير (الإمبراطورية الآنجفية) الذي اخترعه المؤرخون المحدثون له ما يبرره . كان هنري الثاني رجل المشروعات الواسعة ، سلك دبلوماسية (أوربية) ، وأبرم أحلافاً مع قشتالة وأراغونة وربما فكر بأن يصبح إمبراطوراً . ولكن في فرنسا بخاصة تمت هذه (الإمبريالية) للسلالة الآنجفية . وسعة ممتلكاتها القارية الأعلى بكثير عن ممتلكات الدومين الإنكليزي ، تكفي لإيضاحها . لقد كان آل بلانتاجونيه يملكون بشكل إقطاع النصف الغربي من فرنسا . وكانوا قبل كل شيء أمراء فرنسيين ، ولم يقض هنري الثاني في الجزيرة إلا ثلاثة عشر عاماً من حكمه خلال أربعة وأربعين عاماً . كان يقرأ اللاتينية ، ويفهم البروفانسية والإيطالية ، ويتكلم الفرنسية ولا يعلم الإنكليزية . وحكم الدومين القاري كان بالنسبة له ذا أهمية عظيمة ؛ ففي قراراته

الرسمية كان العاهل يتوجه إلى (أوفيائه في فرنسا وإنكلترا) ، ولم يكن قصده سياسة توحيد منظمة ، فهناك بعض القرارات التي طبقت في مجموع ممتلكاته الإنكليزية ، وكان الموظفون القائمون في خدمة السلالة يعبرون البحر في الغالب ، ولكن كل عنصر من عناصر الدومين الآنجفي حافظ على شخصيته . ولم يكن بين الأراضي القارية وإنكلترا ، دوماً إلا رابطة ، ولكن تعابير هذه الرابطة قد انقلبت ؛ لأن إنكلترا ، منذ الآن ، كان عليها أن تقدم جزءاً كبيراً من مواردها الضرورية للدفاع أو لنمو الأموال القارية . ولم يعد يكفي لهذه الأرياف البعيدة الجيش الإقطاعي[1] والفيرد[2] . وخدمة الفيرد لا يمكن أن تطلب إلا في حدود الكونتية وللدفاع عنها . وخدمة الجيش لها مدة قصيرة جداً ، أربعون يوماً ، والبارونات النورمانديون الذين يملكون أموالاً (أملاكاً) وراثية في نورمانديا كانوا مستعدين للدفاع عنها . ولكن البارونات الإنكليز قلما كانوا يميلون إلى عبور بحر المانش . والوسيلة الوحيدة لحفظ الجنود زمناً طويلاً تحت الأسلحة هي أن تدفع لهم أعطيات ؛ فقد كان جيش المرتزقة يؤلف قسماً صالحاً من جيوش الحملات التي استخدمها هنري الثاني على القارة ، ومثل هذا الجيش يكلف غالباً . لذا ، كان على ملوك آل بلانتاجونه ، كالملوك الكابسيين ، مبدئياً ، أن يسحبوا كل مواردهم العادية من دومينهم . وفي الحقيقة ، أضافت السلالة الآنجفية على الرسوم الدومينية (امتياز الغابة) . ويقصد بذلك أراضي الصيد التي لا يحق للسكان فيها أن يمسوا لا حيوانات الصيد ولا الخضرة من شجر أو نبات أو عشب ، وكانت الغرامات التي تصيب المخالفين مصدر واردات لا يستهان بها . ومن جهة أخرى ، إن الملوك الآنجفيين ، باعتبارهم سادة ، كانوا يتمتعون بحقوق

---

(١) الأوستْ أي الجيش الإقطاعي الذي تتوجب فيه على الأتباع الخدمة العسكرية حيال أميرهم للدفاع عن البلد (OST) .

(٢) الفيردْ : الجيش الموكل إليه الدفاع عن الكونتية (La FYRD) .

غاية في الإفراط : رسم الأرض ، حق الحراسة ، المساعدة الإقطاعيـة . ومع ذلـك يبقى كل هـذا غير كاف . وهكـذا تـوصلت الملكيـة الإنكليزيـة ، وهي الأولى في الغرب ، إلى فرض الضريبة . وكجده هنري الأول ، بتعميه هـذه الممارسـة ، سمح هنري الثاني بإعفاء النبلاء الإنكليز من خـدمـة الجيش ، مقـابل دفع مبلغ محـدد . وهذا المبلغ يمثل إعاشة فارس مع درعه ومجنه . أما ابنه ريتشارد قلب الأسد فقـد فرض مراراً ضريبة عقارية ، ضريبـة على الأرض ، « ضريبـة المحراث » وضرائب « الأعراف » التي تجبى أيضـاً على البضـائـع في المـواني وفي الأسـواق . وضرائب (المسـاعـدات) هـذه بقيت استثنـائيـة ولا تنبئ سلفـاً إلا بعيـداً عن الضريبـة الحديثة . ومع ذلك فإن الملكيـة الإنكليزيـة ، في الصعيـد الضريبي كما في الصعيـد القضائي ، قد سبق وتجاوزت ، منذ ذلك الحين ، الإطار الإقطاعي .

وبين بلاد مـاوراء البحـار ، كانت أراضي الشمال ـ الغربي أقل إقلاقـاً للملوك الآنجفيين . لقد كانت نورمانديا ممهورة مع قضـائهـا في القرن الثـاني عشر بـإدارة مماثلـة لإدارة إنكلترا تقريبـاً ، وهزتهـا بعنف ثورة ١١٧٣ م . لقـد جرَّ أولاد هنري الثاني في تمردهم ، عدة بـارونـات نورمـانـديين . ولكن هؤلاء كانوا معـادين جـداً للملكيـــة الفرنسيـــة ، ولم يستطـع الملـــك الكابسي أن يفيـــد من كل هـــذه الاضطرابات . ولم تكن الأملاك الوراثية للعـائلـة الآنجفيـة : الآنجو ، التورين ، والمين أقل خضوعاً ، ولكنها ظلت طيعـة نسبيـاً ، وكان هنري الثـاني يطمع منـذ زمن طويل بإقليم بروتانيا ، واستطاع أن يستقر فيها وزوج ابنـه جوفروا بوارثـة الكـونت كـونـان ، وسـاعـدت ولادة آرثـور الصغير على زيـادة ارتبـاط البـلاد البروتانيـة بـدومين الآنجوفيين . وفي الجنوب الغربي ، بـالعكس ، بـدا عمل الملك صعباً وشاقاً ؛ فقد كانت أكيتانيا فريسة الفوضى الإقطاعية ، ورفض العديـد من السادة الأمراء تقديم الطاعة والولاء من أجل إقطاعهم ، لملك إنكلترا . ولإخمـادهم أقام هنري الثاني في أماكن محصنة بعض حـاميـات من المرتزقـة ، حتى أنـه حـاول

مِراراً أن يحتل الأملاك القديمة التابعة لأكيتانيـا : لوبرّي ، والأوفيرن ، وكونتيـة أنغوليم . وجرت هذه السياسة كثيراً من المصادمات مع ملك فرنسـا . كان الإنكليز يهددون كونت تولوز ، فطلب مساعدة سيـده ، الملـك لويس السـابع . ولمـا كان هذا لا يستطيع إرسال جيش لنجدة تابعه ، فقد جاء وهاجم ، وانقض على مدينة تولوز (١١٥٩ م) . واضطر حضوره إلى تراجع ملك إنكلترا الذي خـاطر بنفسـه بعيـداً عن قـواعـده . ولكن الجيـوش الآنجفيـة والكابسيـة ، في كثير من الظـروف الأخرى ، تدخلت في الكفاح .

كان تقسيم هذا الدومين القاري في أصل درامة عائلية أغمت آخر حيـاة هنري الثاني . أبناؤه يكره بعضهم بعضاً ولم يتفـاهموا إلا على خيـانتـه . ومـات الولـدان البكران هنري وجـوفروا قبـل أبيهما ، وترك جـوفروا البروتـانيـا لابنـه آرثـور . والابن الثالث ، ريتشارد المهيأ لوراثة تاج إنكلترا ، تآمر مع ملك فرنسا الجديد ، فيليب أوغست . وأعلن هنري الثاني عن نيتـه في تخصيص أكيتـانيـا لابنـه الأخير جان ، وتملك ريتشارد الغيظ لهذا الخبر ، فقدم احترامه وطاعته لملـك فرنسـا من أجل أراضي والده القـاريـة كلهـا ، ودخل في نزاع ضـده . ولمـا ضغـط على هنري الثاني من قبل أعدائـه ، وفي عـدادهم وجـد جـان أيضـاً أصغر أولاده ، اضطر إلى الفرار فجأة من مـدينـة مـانس ، ومـات من الحزن بعـد بضعـة أيـام بـالقرب من شينون (١١٨٩ م) .

٢ ـ فيليب أوغست : حكمٌ حاسمٌ لفرنسا

منذ أن فقدت الآمال الأكيتانية مع آلينور (١١٥٢ م) بدا الملـك الكابسي ، لـويس السـابـع ، في آخر حكمـه ، أنـه وجـه صغير إلى جـانب تـابعـه القـوي البلانتاجوني ، ملك إنكلترا هنري الثـاني ، فلم يكن غير عـاهل لـدومين ضئيل في وسط الحوض البـاريسي مطوق من كل جانب بأمارات أوسع وأصلب ظاهراً .

ومع ابن وخلف لويس السابع ، فيليب الثـاني (١١٨٠ ـ ١٢٢٣ م) وجـدت الجهـود الخفيـة أخيراً لأوائـل الكابسيين خـاتمـة مجيـدة . إن هــذا الرجـل الصغير والأعور والموهوب بطبع مراء ومحتال ، كان قليل التعـاطف . غير أن هـذا الملـك النشيـط والحـاذق في الإفـادة من الظروف ، كان أول أعظم عـاهل كابسي . لقـد وسع الدومين الملكي في كل الاتجاهات ؛ وأفاد بخاصة من المنازعات التي تقسم ورثة الإمبراطوريـة البلانتـاجونيـة ، وضمَّ قسماً كبيراً من الأملاك الآنجفيـة . واستحق بذلـك لقب (المبـارك) أي الـذي يزيـد . وقوي بـانتصـاراتـه ، وقوى السلطـة الملكيـة ونظمهـا . وفي بـدايـة القرن الثـالث عشر ، وانتصرت بفضلــه السلطــة الكابسية خارج الدومين إن في جنوبي فرنسا أو أمام تألب أوربي خطر .

توسيع الدومين الملكي

لقـد كان تـوسيـع الصعيــد (الــدومين) الملكي أول اهتمام لفيليب الثـاني . فالاتحادات الزواجية ، والمفاوضات ، والحرب أخيراً ، كلهـا صـالحـة بـالنسبـة لـه للوصول إلى أهدافه . حتى أن الملك الكابسي عندما يلجأ إلى السلاح ، يحاول دوماً أن يضع الحق الصالح إلى جـانبـه ، أي الحق الإقطـاعي . وعلى هـذا النحو عرف بشكل عجيب كيف يتــلاعب بـالأعراف التبعيــة ، فمن ذلــك أن تحققت بعض المكتسبات بتوكيل بسيط لأموال تابع خائن .

وفي آخر القرن الثـاني عشر ، اصطـدمت الملكيــة الكابسيــة في الشمال بقـوة فلاندر الهائلة ؛ فقد كان كونت الفلاندر ، ملتزماً بمعاونـة ملـك فرنسـا ، وتـابعـاً للإمبراطور الجرماني بسبب فلاندر الإمبراطورية ، وتدر عليه أيضـاً بـإقطـاع من ملـك إنكلترا أمـوال نقـديـة . واستطـاع أن يضيف إلى صعيـده الفـلامـانــدي : الآرتوا ، الآمينوا (منطقة آميان) ، الفيرماندوا ، والفـالوا . وكان فيليب الثـاني حياله تارة مصالحاً وتارة مهدداً .

وفي بـدايـة حكمـه تزوج ابنـة أخ الكونت ، إيـزابـل هينـوت (١١٨٠ م) . وقدمت له مهرها ، إقليم الآرتوا ، الذي سيصبح فعلاً مرتبطاً بـالْمُلـك الكابسي ، كما كان متفقـاً على ذلـك ، بعـد مـوت الكـونت (١١٩١ م) . ولكنـه في غضـون ذلك ، استطاع أن ينتزع من تابعه أقـاليم أخرى ؛ فقـد ادعى بـأن التـابع أعطى لنفسه بصورة غير شرعية بواسطة زوجتـه أموالاً ترجع إلى أخت هـذه ، إيليبيونور دوبومـون ، وتـدخـل فيليب أوغست بـالسـلاح . ورأى كـونت الفـلانـدر نفسـه منعزلاً ، فتخلى بمعاهدة بوف عن الأمينوا والفرماندوا للملك الكابسي ، وأرجع إلى إيليبيونور الڤالوا التي انتقلت عنـد موتهـا إلى ملـك فرنسـا . وهنـاك إمـارة أخرى شكلها بيت بلوا ـ شامبانيا وتحـدق بشكل خطر الملـك الملكي . وبسرعـة هزّ فيليب أوغست وصاية أمـه آديل دو شـامبـانيـا وأخوالـه الأمراء الشـامبنوازيين . ولكن التهديد ظلَّ ، لأن التابع الشامبنوازي انضم طواعية إلى أعداء التاج للتآمر عليه . ولكن فيليب أوغست خـدمـه ، لحسن الحـظ ، قصور الكونت تيبو الرابـع . فقـد لعب بحقوقـه سيـداً وطـالب بتسليمـه القصور ؛ كما حصل على أن يجهـزه الكـونت بـالرجـال والمـال بكميـة كبرى . أمـا البورغـونيـا فكان يملكهـا فرعٌ ثـانٍ لـلأسرة الكابسية ، فلم تصنع مشكلة . أما تابعو جنوبي فرنسا (الجنوبيون) ، الذين ظلوا حتى ذلـك الحين مستقلين ، فكانـوا مستعـدين إلى الاعتراف بشكل فعلي ، حقيقي بسيـادة ملـك فرنسـا ، لأنهم شعروا بـأنهم مهـددون بـالتسلـط (الإمبريـاليـة) الآنجفي .

النضال ضدّ آل بلانتاجونيه

أ ـ فيليب وريتشارد

كانت هذه القوة الآنجفيـة الكبرى تؤلف خصماً خطيراً لفيليب ، لأن الكابسي أفاد أولاً من الخلاف الذي اشتبك فيه ملك إنكلترا مع أولاده . فقد بـدأ نزاع أصم

في السنوات الأخيرة من حكم هنري الثاني . وفيه دعم فيليب ريتشارد ، الذي ثار على أبيه ، وحاول أن يفاقم النزاع . وفي الوقت نفسه قامت عمليات عسكرية على تخوم الدومين الكابسي والآنجفي . وكان القصد منها معرفة من سيفرض سيادته على الإمارات بيرّي ، والأفيرني ، وكونتية تولوز . وقطعت الحرب بهدنات فاوضت بها البابوية التي كانت ترغب في مصالحة العاهلين بغية إرسالها إلى الحرب الصليبية في المشرق العربي .

وأطلق هنري الثاني غارات على منطقة تولوز . وفي ١١٨٨ م اجتاح فيليب البرّي والأفيرني وتقبل ولاء وطاعة ريتشارد . ومع هذا الأخير قام بحملةٍ ، في ١١٨٩ م ، في وادي اللوار أدت بهنري الثاني إلى الهزيمة والموت . غير أن هذا النصر كان رقيقاً بالنسبة للملك الكابسي . وأخيراً عمل على تثبيت ريتشارد على العرش . وأصبح هذا الأخير ملكاً . ولكن هل يمكن أن يظل حليفه ؟ ومع ذلك فقد ذهب ريتشارد وفيليب صديقين طيبين للحرب الصليبية الثالثة في ١١٩٠ م . ولكن علاقاتها مالبثت أن فسدت بعجرفة ريتشارد . وبعد استسلام عكا ، غادر فيليب أوغست الحملة لأنه كان ، قبل كل شيء ، مهتماً بالسهر على مصالحه . وعندما علم أن ريتشارد رجع هو أيضاً من الأراضي المقدسة ، ووقع بين أيدي عدوه الإمبراطور هنري السادس ، بدأ بمكايده . فقد عمل على أن يتنازل له أخو الملك الأمير جان الذي نفد صبره للوصول إلى الحكم عن حصون نورمانديا وتورين ، وكلا الاثنين وعدا بمبالغ جسيمة للامبراطور ليحتفظ بريتشارد أسيراً . وأخيراً ، إن الزواج الثاني لفيليب من أخت ملك الدانيارك إيزامبور ، ربما كانت غايته أن يؤمن له حقوقاً بتاج إنكلترا ، الذي سبق وحمله في السابق كنوت الكبير . ولكن ريتشارد حرر ، في شباط ١١٩٤ م ؛ وهو الذي حصل بأعمال شجاعته في الحرب الصليبية على لقب قلب الأسد ، كان العدو الأول الخطر والعازم على أن يثأر لنفسه من خيانات الملك الكابسي . ومن أول

القرارات التي اتخذها عند عودته ، لحماية النورمـانـديـا ، بنـاء حصن في وادي نهر السين .

وخلال عـدة سنوات قـام نـزاع شرس بين الملكين على تخـوم نـورمـانـديـا ، وتورين ، وبرّي كادت تدور فيه الدوائر في الغالب على فيليب : ففي فريتيڤـال (١١٩٤ م) اضطر الملك الكابسي إلى الفرار تاركاً محفوظات وثائقه وثروتـه ؛ وفي كورسيل (١١٩٨ م) اضطر تقريبـاً إلى الاستسلام ، وأوشـك أن يغلب على أمره لولا أن البابا إينوسان الثالث فرض هدنة (١١٩٩ م) بغيـة جرّ الاثنين إلى حرب صليبيـة جـديـدة . وخـدم الحـظ فيليب أوغست : ففي ٢٦ آذار ١١٩٩ م قتـل ريتشارد قلب الأسد في حصار شالوس في إقليم ليموزَنْ أثناء عمل ضد تـابع متمرد ، واستطـاع ملـك فرنسـا أن يبرم ، مـع خلف ريتشـارد ، أخيـه جـان ، الـذي لم تتوطد سلطته ، صلحاً ملائماً جداً ؛ ففي غوليه بـالقرب من غـايون ، تخلى جـان عن بلاد إيفرو ، وجـزء من الڤيكسن النـورمـانـدي ، وأراضي في بيرّي وفي إفيرني (٢٢ أيار ١٢٠٠ م) ؛ وتزوجت ابنة أخيه ، بلانش قشتالة ، لويس وارث عرش فرنسـا ؛ وأخيراً قـدم جـان ولاءه وطـاعتـه لفيليب أوغست ودفع خراجـاً جسيمـاً لتملك دومينات العائلة الآنجفية في القارة .

ب ـ فيليب وجان

لقد أفاد تغيير العاهل خطط ومقاصد فيليب أوغست : فلم يقف أمامـه زعيم حربي متحمس ، وإنمـا مريض عقلي بـدا ، على ضوء معلومـات دراسـة ومعـالجـة الأمراض العقلية الحديثة ، أنه مصاب بـالاختلال العقلي الـدوري ؛ فتـارةً يكون فريسة الغضب والحنق ؛ وتارةً غير مبالٍ بشيء ، بل وحتى الهزيمة . إنـه كائن غير مستقر وغير مسؤول . وكان فيليب في ظروف ملائمـة ليستعمل ضـده جميع موارد الحق التبعي ؛ ففي ١٢٠٠ م تـزوج جـان فجـأة وبسرعـة ابنـة كـونت أنغـوليم ، إيزابل ؛ غير أن الآنسـة كانت موعودة بزواجهـا من هونج لوبرن دو لوزينيـان ،

كـونت المـارش . والبـواعث التي دفعت ملـك إنكلترا كانت سيـاسيــة أكثر منهـا عاطفية : فمنـذ أن احتل فيليب أوغست إقليم البرّي ، كانت المنطقـة البواتوفينيـة (من بواتيـة) تشرف وحـدهـا على المواصلات بين شمال الإمبراطـوريـة الآنجفيـة وأكيتـانيـا . وكان من الممكن أن تسوى القضيـة لـوأن جـان أعطى إلى الخطيب المطرود التعويضات التي كان له حقّ بها . ولكنه لم يعمل شيئاً . ومـا كان من آل لوزينيان إلا أن دعوا لذلك السيد الأعلى ، ملك فرنسا ، ثم بدؤوا يناوشون ضـدّ جان بعد أن صادر أراضيهم . وهكـذا استطـاع فيليب أوغست ، بشكل شرعي ، أن يدعو جان للمثول أمام محكمته ، فلم يحضر .

عندئـذٍ حصل ملـك فرنسـا على توكيل بجميع أراضي التـابع المتمرد ، وملّـك آرثور بروتـانيـا ، ابن أخ جـان وخطيب مـاري فرانس . وفي تموز ١٢٠٢ م قـدم هـذا الخطيب ولاءه لفيليب أوغست عن أراضيـه في بروتـانيـا ، وآنجـو ، وألمين ، وتورين ، واعداً بأن يفعل الشيء نفسه بشـأن بواتو (منطقـة بواتيـه) إذا توصل لفتحها . أما مـا يتعلق بنورمـانـديـا فقـد تمّ التوصل إلى أن يحتفـظ ملـك فرنسـا « بما يعجبه مما كسب وما سيخوله الله بكسبـه » . بـدأ فيليب بفتح نورمـانـديـا وآرثر بفتح بواتو ، ولكن فيما كان ملك فرنسا يتقدم بـانتظـام ، أسر آرثر من قبل عمه (آب ١٢٠٢ م) : وزجّ في برج روان ولم يعد أحـد يتكلم بشـأنـه . وقـد قتل بيد الملك جان الخاصة ، كما أكّد ذلك بعـد بضع سنوات حـارس البرج . ولم يترك فيليب أوغست الفرصـة تمر ليستغـل لصـالحـه الفضيحــة التي سببتهـا الجريمــة : واستطاع شيئاً فشيئاً أن ينال ثقـة النـاس بـالأسطورة المختلقـة التي حكم بموجبهـا الملك جان من قبل محكمة فرنسـا من أجل مقتل آرثور بروتـانيـا ؛ وعلى الصعيـد الأخلاقي أيضاً ، إن فتح الدومينات القاريـة لآل بلانتـاجونيـة وجـد مبرراً . وفي أربعـة أعوام ، انتزع فيليب من ملـك إنكلترا ، الـذي وقع في حـالـة عـدم حراك لا يصدق ، النورمـانـديـا (١٢٠٢ ـ ١٢٠٤ م) ، حيث استسلم قصر غـايـارد بعـد

حصار دام ثمانية أشهر ، والآنجو والمين والتورين وبروتانيا (١٢٠٢ ـ ١٢٠٦ م) ، وهذه الأخيرة البعيدة جداً والمضطربة بقيت خارج الدومين الملكي مع دخولها في التبعية الفرنسية . وعلى إثر هذه العمليات العسكرية ، أبرمت هدنة في ١٢٠٦ م بين فيليب أوغست وجان . لم يبق للبلانتاجوني في فرنسا سوى الغويين .

توطيد السلطة الملكية

وفيما كان فيليب يناضل ضد العدو البلانتاجوني ، كان يعمل على تقوية سلطة الملك . وكأجداده بدا مهتماً قبل كل شيء ، بتأمين وارث للتاج ؛ لقد توفيت زوجته الأولى إيزابل دوهينوت في (١١٩٠ م) تاركة له ابناً ، الأمير لويس ، وكانت صحته تثير الشكوك . ولم يكن زواج الملك من إيسزامبور الدانيارك سعيداً : فغداة عرسه ، أخذه هلع مرضي لا مبرر له من الأميرة البائسة . وأراد طلاقها وزجّها في دير . ودون أن ينتظر من الكنيسة إلغاء الزواج ، تزوج امرأة ثالثة ، آنيس دوميران (١١٩٦ م) ، وصرّح البابا بأن مملكة فرنسا في حالة منع كنائسي[1] ، واضطر فيليب عندئذٍ أن يخضع لكوميديا (ملهاة) مصالحة مع الزوجة المهجورة للحصول على رفع حكم المنع ، ولما ولد له ولد ثانٍ من آنيس ، فإن وراثة العرش أصبحت مؤمنة بصلابة . وشعر فيليب بأنه على درجة كافية من القوة حتى يتخلى في حياته عن تتويج ابنه البكر . ولذا كان أول الكابسيين الذي لم يلجأ إلى هذه الأصول .

لقد كان مطمئناً بأنه لن يترك لورثته دومينا واسعاً فحسب ، بل وأيضاً غنياً ومنظماً : فقد كانت مكاسب فيليب هامة بمساحتها وبقيمتها الاقتصادية أيضاً . فهي تؤمن للدومين مساحة واسعة على بحر المانش وعلى المحيط الأطلسي .

(١) المنع الكنائسي : حكم يمنع الأكليركي من ممارسة وظائف نظامه ، أو يحرم ممارسة العبادة في مكان معين .

وأصبح بإمكان الملكية أن تفيد من النشاط الاقتصادي الذي ينعش أودية اللوار والسين والسّوم . لقد فهم فيليب جيداً الفائدة التي يجنيها التاج من أشكال الاقتصاد الجديدة ، فرسوم المعابر والجسور والرسوم على الأسواق أغنت الخزانة الملكية . وعرف أيضاً أن البورجوازية كانت في عزّ نموها وتحاول في كل مكان أن تهز السلطة الأميرية ، وأنها تستطيع أن تقدم دعماً حاسماً للسلطة الملكية : وشجع فيليب بصورة منتظمة حركة تحرير المدن . وأسس في الدومين الملكي عدة قرى ، في شومون ، في بونتواز ، في بواسي وفي مونتروي على البحر ؛ وأيّد حركات أخرى بمنحها ميثاقاً (وثيقة تحرير) . ومقابل هذه الامتيازات ، حصل الملك على دخل ولا سيّما على مساعدة عسكرية . وهذا التعاون بين الملك والمدن وجد في باريس تطبيقه الخاص . فلم يكن للمدينة ميثاق ، وكان يديرها حاكم ملكي يختلف عن حاكم التجار ، ولكنها أصبحت منذ الآن عاصمة المملكة .

ولما أثرت الملكية وصارت تُخدم بشكل أفضل ، ومن الممكن مكافأة موظفين طيعين ومأمونين . وكان الدومين الملكي ، حتى ذلك الحين ، يدار من قبل ولاة ، ولكن إدارتهم كانت في الغالب غير شريفة . واقتداء بما وجده الملك في نورمانديا وفي آنجو ، من قضاة ورؤساء قضاء سبق أن عيَّنهم هنري الثاني في وظائفهم ومواقعهم ، أوجد فيليب في كل الدومين هيئة موظفين مماثلين : فبصفة مفتشين جوالين بادئ بدء ، ثم بشكل أكثر استقراراً ، كان القضاة مكلفين بإقامة العدل ومراقبة دخول الإيرادات ، وما فتئت أهميتهم في ازدياد ، كلما توطدت السلطة الملكية .

أصبح فيليب أقوى وأغنى أمير في المملكة . وحاول بنجاح أن يُعترف في كل مكان بسيادته . وللوصول إلى ذلك حسن مؤسسات السلطة الملكية . فبينما كانت الوظائف التقليدية لرئيس القضاة والرئيس الأعلى للقضاء ، محجوزة لكبار الأمراء الكنسيين والعلمانيين ، أصبحت شرفية بخاصة . ووظائف أخرى مثل

خباز الملك ، والسّقاء ، وأكبر موظف لغرفة الملك أخذت صراحة شكلاً منزلياً وتمثل جزءاً من جهاز بيت الملك ، بدأ العاهل يحيط نفسه بمشاورين . وهؤلاء هم موظفون مرتبطون بالملك بصورة وثيقة . كانوا من أصل متواضع في الغالب ، وتثقفوا عموماً بالدراسات الحقوقية ، وتشبعوا بالحق الروماني الذي يجعل من الملك تجسيداً للدولة ـ وكان هؤلاء الموظفون عمالاً متحمسين للمركزية الملكية . أما البلاط الملكي (المجلس) ، الهيئة التي يمارس الملك فيها وظائفه القضائية والتشريعية ، فقد تحول قليلاً ، « ومع ذلك كان الملك يجمع في الغالب ، البارونات والأساقفة في جلسة استثنائية » ، وفي هذه الاجتماعات ، تتخذ قرارات ذات مصلحة عامة ، القرارات التي تمس تنظيم الحرب الصليبية أو النضال ضد انكلترا . هذه القرارات تتخذ باتفاق كبار المملكة . ومن جهة أخرى ، تقدمت العدالة الملكية على حساب العدالة الأميرية : ففي التحقيقات التي تساعد على تقويم المفاسد التي ترتكب في داخل الدومين ، يضاف أصول الاستئناف ؛ وكل ساكن في المملكة يرى بأنه مضار يمكنه أن يتوجه إلى الملك مباشرة ليحكم في الأمر حكماً نهائياً لا يقبل المراجعة . وهذه الوسيلة ساعدت فيليب ، في ١٢٠٢ على أن يحكم على ملك إنكلترا بأنه تابع متمرد . وأخيراً ، حاول العاهل أن يمد الملكية بموارد أكثر أهمية : فمن حيث المبدأ عليه دوماً « أن يعيش من مورده » أي أن يحصل على إيراداته من دومينه الخاص . ولكن هذه الإيرادات ، وإن تحسنت ، ظلت غير كافية لتغطي النفقات الآخذة بالازدياد ؛ فمن أجل حاجات الإدارة ، يجب مكافأة الموظفين العديدين . ولحاجات الحرب ، بدأ الملك بإقامة جيش صغير من الفرسان والرقباء المرتزقة الذين يجب أن تدفع لهم أعطياتهم . وإلى هذه الموارد الأميرية تضاف الرسوم الإقطاعية على اعتبار أن الملك سيد يتطلبها من أتباعه ، واستطاع فيليب أن يجبي رسم الخراج عند تسلم أمراء هامين كرسي إمارتهم مثل كونت فلاندر (١١٩٢ م) أو كونت نوڤير (١١٩٩ م) . ومن أجل

الباقي ، لزمه أيضاً ، لعدم القدرة على فرض ضرائب دائمة ، أن يلجأ إلى وسائل أخرى كفرض ضريبة القامة ، ضريبة مباشرة تفرض على غير النبلاء (العامة) ، أو مساعدات تفرض من أجل حرب أو الحرب الصليبية ، ضرائب عن الكنائس ، ضرائب على اليهود . وهذه الإيرادات المختلفة تجمع في الخزينة الملكية ، في حصن المعبد التابع للرهبان الفرسان في باريس .

وبفضل كل هذه الجهود في المركزية ، لم يقف إشعاع الشوكة الملكية على حدود الدومين . ففي كل مكان تقريباً ، كان أساقفة ، وآباء ، ومدن يضعون نفسهم تحت الحماية الملكية . وساعدت معاهدات (اتفاق) بين الملك والأمراء على أن يصبح نائب ـ أمير لدومينات صغيرة كنسية أو علمانية . وبهذه التدخلات في إمارات كبار التابعين دلّ فيليب على أنه في قمة التسلسل الإقطاعي . ولكنه أكد في الوقت نفسه بأنه لا يستطيع أن يكون أسير هذا التسلسل ؛ فقد رفض أن يقدم احترامه لأمير ، عندما يجد نفسه قد أصبح تابعاً له بكسب أرضٍ جديدة .

وأكثر من ذلك ، بناء على طلب فيليب ، أعلن البابا إينوسان الثالث ، في ١٢٠٢ م ، بأن ملك فرنسا لا يعترف بأي أحد أعلى في الزمني ؛ وبأنه (إمبراطور في مملكته) . وعلى هذا النحو طرحت بوضوح مزاعم الأباطرة في التفوق الكوني (العام) .

انتصارات آخر حكم المليك

تؤكد انتصارات آخر حكم الملك ، بشكل واضح ، تصاعد الشوكة الفرنسية في الغرب . لقد جابه فيليب أوغست تألباً عقدته سياسته الطموحة ضده . وجد بين أعدائه بادئ بدء جان دون أرض الذي أذكت مناورات ملك فرنسا غيظه ؛ وعندما حكم البابا بعزل جان دون أرضٍ لاضطهاده الكنيسة الإنكليزية ، طلب فيليب أوغست من البابا إينوسان الثالث أن يوكل إليه مهمة تطبيق الحكم . وبدأ

بإعداد أسطول ، ولم تتوقف مشروعات الإنزال إلا بخضوع الملك الإنكليزي للبابوية . وفي الوقت نفسه ، تدخل فيليب نفسه في شؤون ألمانيا ، ففي ١١٩٨ م كان قد دعم فيليب دو سؤاب ضد أوتون الأول أمير برنسفيك ؛ ثم انحاز ضدَّ هذا الأخير أيضاً إلى شاب مدع بالعرش الإمبراطوري ، فريديريك صقلية . وهكذا عقد ملك فرنسا بنفسه التألب الذي تشكل ضده ؛ فإلى جانب جيوش أوتون الإمبراطورية والإنكليزية ، كان هذا التألب يضم تابعين لفيليب ، كونت بولون وكونت فلاندر . وهاجم المتألبون من الجانبين معاً : قاد جان بنفسه الحملة في الغرب ؛ ولكن الذعر تملكه بوصول جيش فرنسي ، وفرَّ دون أن يقاتل في لاروش - أو - موان ، في ٢ تموز ١٢١٤ م أمام الجيش الذي يقوده ابن فيليب أوغست . وفي الشمال ، كان على فيليب أن يعمل على أكثر من جبهة قوية ، الألمان حول الإمبراطور أوتون ، وجيوش كونت فلاندر ، وكونت بولون انضمت إلى بعضها في ڤالانسينّ للزحف على باريس . وقامت معركة حاسمة بالقرب من تورنيه في بوڤين (في ٢٧ تموز ١٢١٤ م) . وبفضل قصة غليوم البروتاني ، كانت هذه المعركة إحدى المعارك المعروفة أكثر من غيرها في العصر الوسيط كله .

وهكذا انتصر الكابسي على التألب في كفاح يمكن أن يبدو لنا ضعيفاً تقريباً . إن هذه المعركة التي اشتبك فيها ، ربما عشرون أو خمسةٌ وعشرون ألف رجل ، قامت قليلاً بصدفة ، وفاجأت على كل حال ملك فرنسا . والقتال الذي تلا كان ملتبساً ؛ فمن جهة كما في الجهة الأخرى ، لم يتصور أي مناورة تاكتيك ، وآل الكفاح إلى مجموعة صدامات فردية قضت خلالها محلياً أعمال الشجاعة الجميلة على القرار . وأخيراً ، عندما فرَّ الزعماء الأعداء ، لم يحاول فيليب أوغست أن يستغل هذا الفرار لصالحه لملاحقتهم . ومع ذلك فإن بوڤين أمنت انتصار السلالة الكابسية . في ألمانيا ، تفوق فريديريك الثاني ، حليف فيليب أوغست على منافسه ؛ وفي فرنسا نفسها ، قويت سلطة الملك نهائياً . وحافظ فيليب على كل

الأراضي المفتوحة قبل ١٢٠٦ م ؛ والفلاندر ، التي ظل كونتها أسيراً في اللوفر حتى ١٢٢٧ م ، أصبحت تحت وصاية الملك الوثيقة . وجان الذي أعيته الحيلة ، عاد إلى إنكلترا حيث وقف باروناته ضده . وعرض بعضهم التاج على الكابسيين ، حتى أن الأمير لويس نزل في ١٢١٦ م ودخل لندن دون قتال تقريباً . ولكن موت جان دون أرض (١٢١٦ م) ، وتدخل إينوسان الثالث الذي منع ملك فرنسا من فتح المملكة الإنكليزية ، وأخيراً إن وصول الشاب هنري الثالث بن جان دون أرض إلى العرش ، بعد أن انضم إليه البارونات الإنكليز ، أدى بالكابسيين إلى التخلي عن التاج الإنكليزي . ولكن إخفاق هذا المشروع المخاطر لم يكن شراً على فرنسا ؛ لأن الملكية وجهت نشاطها نحو الامتداد الطبيعي للدومين الملكي وهو بلاد جنوبي فرنسا . ومع ذلك ، فإن فيليب أوغست رفض بعظمة في البدء،التدخل ، عندما دعا تقدم الهرطقة الكثرية البابا إلى التبشير بمكافحتها في هذه المنطقة (١٢٠٨ م) ؛ والفتح الذي تحقق على أيدي بارونات شمال فرنسا تمّ تحت إدارة فارس نورماندي ، سيمون دو مونفور . وبعد انتصار المكافحين (١٢١٣ م) خضع فيليب أوغست أمام قرار مجمع لاتران الذي خصص دومينات كونت تولوز لسيمون مونفور ؛ واكتفى بقبول ولاء واحترام هذا الأخير . غير أن موت سيمون في ١٢١٨ م ، والثورة التي قامت ضد ابنه آموري ، والنداء الذي أطلقه هذا الأخير لسيده ، قررت أخيراً تدخل الملكية الكابسية . وأمر فيليب أوغست ابنه بأن ينجد التابع المهدد . ولما أصبح الابن ملكاً تحت اسم لويس الثامن (١٢٢٣ م) طبق هذا الأخير أثناء السنوات الثلاث القصيرة الأمد لحكمه ، سياسة أوضح : بدأت الحملة بمركيزية بروفانس التي كانت تابعة لريمون السابع . وساعد أخذ آفينيون (١٢٢٩ م) واحتلال اللانغدوك الملك على كسب بوكير وكاركاسون . وخاطر موته ، في ٨ تشرين الثاني ١٢٢٦ م ، وافتتاح قضية ولاية العهد بقطع جهد الملكية بشكل فظ .

ب ـ فرنسا من القديس لويس إلى فيليب الجميل
أوج السلطة الكابسية

بعد حكم لويس الثامن القصير الأمد ، استمر عمل فيليب أوغست على يد عاهلين كبيرين ؛ ففي عهد لويس التاسع (القديس لويس) (١٢٢٦ ـ ١٢٧٠ م) بلغت سلطة فرنسا وإشعاعها الأوج ؛ ودعم فيليب الثالث الجريء (١٢٧٠ ـ ١٢٨٥ م) وفيليب الرابع الجميل (١٢٨٥ ـ ١٣١٤ م) أيضاً بعظمة ومجد جاه فرنسا . ولكن أزمة اعترضت حكمها فقلبت الاقتصاد الأوربي كله .

١ ـ في زمن الملك الصالح لويس

وصاية بلانش قشتالة وحرب لويس الصليبية الأولى

ظهرت بدايات حكم لويس التاسع تنذر بأفول السلطة الفرنسية . فقد سبق أن شكل أبوه لويس الثامن على حساب الدومين الملكي إقطاعات وقفية عديدة وقوية لصالح أخيه ـ النصفي فيليب هوريل (كونتية بولون ، دومفرون ، مورتن ، كليرمون وأومال) ولأولاده الذين ولدوا بعده : الثاني ، روبير أخذ الأرتوا ، الثالث ، جان ، الآنجو والمين ، الرابع ، الفونس ، البواتو والأوفيرن . ولم تظفر فكرة الوحدة الملكية والقومية بعد تماماً ، على العرف الجرماني القديم في تقسيم المملكة بين أبناء الملك . ومن جهة أخرى ، لم يكن لوارث التاج غير اثني عشر عاماً من العمر عند وصوله إلى العرش . وكان لويس الثامن على فراش الموت قد قلد الملكة (بلانش قشتالة) الوصاية . أما البارونات الفرنسيون فقد كانت الفرصة متاحة لهم للقيام ضدّ السلطة الملكية التي أصبحت كاسحة كثيراً . ولذلك فإن امرأة ، علاوة عن أنها أجنبية ، يمكن أن توضع بسهولة تحت الوصاية .

ولسوء حظ حسابات البارونات كشفت الوصية عن امرأة قوية موهوبة بحس سياسي عظيم . أمنت تربيةالملك الفتى ، وأخمدت الأمراء الثائرين الواحد بعد الآخر : كونت شامبانيا ، تيبو ، ودوق بروتانيا ، بيير موكليرك اللذين كانا على رأس معظم التألبات التي عقدت وانحلت خلال عشرة أعوام . وفي غرب فرنسا كانت هذه التألبات يساندها عدة أمراء صغار وكل المنطقة الشرقية المتمردة . وفي جنوبي فرنسا أفاد ريمون السابع من هذه الحالة لاستعادة كونتية تولوز وطرد بارونات الشمال . وفي ١٢٢٨ م قام البارونات بمحاولة لخطف الملك ولكنها أخفقت . وبمساندة المندوب الحبري الملكة ، حصلت على أول نجاح . فقد خضع لها ريمون السابع ؛ وفي معاهدة باريس (١٢٢٩ م) اعترف به تابعاً لملك فرنسا ، وثبت التخلي عن بوكير وكاركاسون وأخيراً تعهد بأن يزوج ابنته إلى أخ للعاهل . وانتخب الفونس بواتيه . وهيىء كل شيء على أنه في حال وفاة الزوجين دون ولد ، أن تنضم كونتية تولوز إلى التاج ، وقد أحسنت الملكة في رد التابع الكبير إلى حظيرة الطاعة ؛ وكانت قد هيأت ارتباط اللانغدوك بالدومين الملكي . ونجحت في فصل كونت الشامبانيا الشاعر في حينه ، عن المؤامرة . وقام المتآمرون بمحاولة أخرى ، فأخفقت في ١٢٣٠ م ؛ فقد قدم كونت بروتانيا ولاءه لملك إنكلترا ، وأنزل هنري الثالث جيوشاً في سان ـ مالو ولكن البارونات البروتانيين رفضوا في هذه المرة أن يتبعوا كونتهم واضطر ملك إنكلترا إلى الإقلاع ، فيما رجا بيير موكليرك العفو عنه وذهب للحرب الصليبية . وفي ١٢٣٤ م زوجت بلانش قشتالة ابنها مرغريت ، البنت البكر لكونت بروڤانس . ويبدو أن دورها قد انتهى لأن الملك في السنة التالية بلغ سن الرشد المحدد بالعرف الإقطاعي .

غير أن ظروف وإرادة العاهل الشاب قررت غير ذلك ، لقد ترك لويس التاسع احتراماً لأمه قسماً كبيراً من إدارة الحكم . وأخذ هو نفسه رئاسة الجيش

لسحق محاولة جديدة لثورة إقطاعية ، في ١٢٤١ م ، وذلك أن كونت المارش الذي كان قد أسهم من قبل بمؤامرات كثيرة وتزوج أرملة جان دون أرض ، تمرد مرة ثانية . ومن جديد نزل هنري الثالث على القارة ، فهزمه لويس التاسع على نهر الشارانت واستولى على مدينة سَنْت . وانتابته حمى مرزغية (مستنقعية) (مالاريا) أثناء العمليات واضطرته إلى قبول هدنة طلبتها إنكلترا ، ثم أصيب بنزلة ثانية أشرف فيها على الموت (١٢٤٤ م) . وعندما شفي ، أعلم أمه المجهدة بقراره للذهاب والمشاركة في الحرب الصليبية في المشرق العربي ، حتى إنه لم يفكر فقط بسلامته الخاصة وإنما أيضاً بمصير المشرق المسيحي الواقع تحت الخطر بعد هجوم الأتراك الخوارزميين وأخذهم القدس (١٢٤٤ م) . وفي هذه الظروف امتدت الوصاية بإرادة الملك المهتم في الدفاع عن المسيحية أكثر من اهتمامه بالحكم .

كانت الحملة الصليبية السابعة فرنسية تماماً ، انطلقت من أيغ ـ مورت في آب ١٢٤٨ م ؛ لأن زواج أخ الملك ، شارل ، كونت آنجو ، مع وريثة بروڤانس قد ساعد على إقامة قاعدة لانطلاق الصليبيين على الشاطئ البروفانسالي . وقدر لويس التاسع أن يهاجم المسلمين في مصر . نزل أمام دمياط ، واستولى على المدينة في حزيران ١٢٤٩ م ، غير أن فيضان النيل اضطره إلى البقاء خمسة أشهر دون عمل . وعندما باشر بالزحف على القاهرة ، كان لدى المسلمين متسع من الوقت لبناء حصن المنصورة خلف القناة . واستطاع الجيش الفرنسي أن يجتاز هذه العقبة الأخيرة ، ولكن روبير آرتوا ، أخ الملك ، بإطلاقه هجوماً جنونياً على الحصن تسبب في قتل طليعة الجيش كلها . وأهلك مرض التيفوس باقي الجيش الذي أصبح مطوقاً . ومع أنه كان مع الملك متسع من الوقت ، إلا أنه رفض الفرار ، واستسلم في نيسان ١٢٥٠ م . أما المرتزقة الأتراك ، المماليك الذين استولوا على السلطة في مصر ، في غضون ذلك ، فقد قبلوا ، مقابل فدية ٥٠٠٠٠٠ ليرة ، وإرجاع دمياط بتحرير العاهل الكابسي . ثم أبحر هذا إلى سورية ، وقضى

فيهـا أربعـة أعـوام ، من أيـار ١٢٥٠ م إلى نيسـان ١٢٥٤ م ، ولم يستطع أخـذ القدس . بيد أنـه قـام في الأرض المقدسـة بعمل ممتـاز : أزال استحكامـات عكا ، ويافا وصيدا ، ووطد النظام بين الفرنجة . وبفضل هـذا التـدخل عرفت المملكـة اللاتينية مهلة أربعين سنة .

وأخيراً قرر لويس التـاسع العـودة إلى فرنسـا حيث تـوفيت والـدتـه بـلانش قشتالة (١٢٥٢ م) ، وأمن أخوه الفونس بواتيه الإدارة بشكل فائق .

وعنـدمـا بلغ الملـك سن الرابعـة والأربعين ، في ١٢٥٤ م ، استـأنف ممـارسـة السلطة ، وكان مثار الإعجاب العميق لدى معاصريه .

لويس التاسع عاهل تقي ولكنه متسلط مستبد

إن من صنع نفسه في الشرق جندي المسيح ، وعرض حياتـه في النضـال ضـد المسلمين في عصر لم يكن فيـه المثـل الأعلى للفـارس التقي المثـل الأعلى لأكثريـة الأمراء ، كان مسيحياً كاملاً ، واضطر لحكم البلاد أن يتخلى عن الحيـاة الـديرانيـة التي كانت تفتنـه ، وحـاول أن يوجـه حيـاتـه حسب التعـاليم الإنجيليـة . وكرس للممارسات الدينية ساعات طويلة . ويذكر لنا مؤرخ حياتـه ، غليوم دو سـان ـ باتوس ، أنه كان يكرس نفسه لدراسة الكتاب المقدس .

وخوفاً من الذنب أخضع نفسه لحيـاة النسـك حتى في خـارج أدوار الصوم أو التوبـة . وأخيراً دفعتـه التقوى الفرنسيسكانيـة إلى القيـام بروح الخشـوع بـأعمـال الإحسـان . وكان من عـادتـه أن يغسل أقـدام الفقراء ويسـاعـد البـائسين ويعتني بـالمرضى والجـذامى . وبين المستشفيـات والملاجئ التي شيـدت بـأمر القـديس لويس ، كان مستشفى الكنز ـ ثان لأجل « فقراء العميان في مـدينـة بـاريس » و « دار بنـات الله حيث ألجأ الكثير الكثير من النسـاء اللائي اضطرهن الفقر إلى

ارتكاب ذنب الدعارة والفجور) أكثرهن شهرة . وأخيراً أسس عدداً من الكنـائس والأديرة مثل كنيسة رويومون ؛ ولحفظ بقايا جسد القديسة إيبين شاد في جزيرة المدينة باريس (الكنيسة المقدسة) . وهذه اللوحة التي رسمها المؤلفون الأتقياء لسير القديسين ، ويبدو أنها مقتبسة في ظرف ما من « الأسطورة الذهبية » ، هي صحيحة دون شك ولكن ينقصها بعض الملامح . وَلا نجد أي تفاهة في طبع القديس لويس ، لقد كان الملك تقياً ، ولكنه لم يكن غارقاً في الورع ، وكان عرضة لثورات غضب عنيفة . والإحسان عنده لا ينفي الحزم في سلوك الحكم . إن لويس التاسع الذي قبل المنصب الملكي ، شغله دون ضعف ودون تنازل . وأكثر من أي ملك كابسي ، كان مفعماً بالامتيازات الملكية وحتى الاستبدادية . وإذا أصغى طواعية لنصائح رئيس أساقفة روان ، أود ، أو لنصائح روبير دو سوربون ، فلم يكن لديه وزير أو محظي يقاسمها حكم المملكة . وهذه السلطة لا تتحني أمام أي سلطة ، حتى ولا سلطة كبار التابعين . فقد ذكر بشدة أخاه شارل الذي سجن تابعاً له بغير حق : « لا يوجد إلا ملك واحد في فرنسا » ، واستمر في سياسة التدخل الملكي التي طبقها فيليب أوغست في الإمارات ؛ ولا سلطة الأساقفة : فالأحبار الذين يطالبون بتدخل الذراع الزمنية ضد الكافرين المحرومين (المطرودين من الجماعة) ، فقد ردَّ الملك عليهم بأنه لا يعمل إلا إذا كان واثقاً من أخطائهم ؛ حتى ولا سلطة البابا ؛ فقد حمى كنيسة فرنسا من مزاعم البابوية بالتصرف بالأموال التي تعطيها أحياناً إلى أجانب ، وبفرض ضرائب على الأكليروس الفرنسي . وأكد لويس التاسع على أن يستعمل سلطته ليحدث في فرنسا نظاماً دينياً لا نظاماً أكليروسياً ؛ ففي مملكته رغب في سيادة العدل وفي البلاد المسيحية في ترقية العدل .

---

(١) الأسطورة الذهبية : اسم أطلق في القرن الخامس عشر على مجموعة حياة القديسين التي ألفها جاك دو ڤوراجين نحو ١٢٦٠ م .

لويس التاسع عاهل « عادل »

وفي النصائح التي يسديها إلى ابنه ، كان يعبر عن مثل أعلى في الحكم مؤسس على العدل ، ودأب طوال حكمه على أن يكون ذلك العاهل (العادل) . ويعجبه أن يقيم العدل بنفسه . وهناك صورة للملك القديس وهو يقيم العدل تحت شجرة السنديان في غابة ڤانسين ، ترمز بشكل ضارب إلى التقدم الجديد الذي تم بالعدل الملكي على حساب العدل الأميري . وفي الحقيقة ، إن الملك لا يقاضي بنفسه كل الحالات المطروحة عليه ؛ ولكن قسماً من بلاطه تخصص قليلاً قليلاً في القضايا القضائية . وبراءة ١٢٦٠ م تنظم هذا الأصول في اللجوء إلى الملك .

يهدف كل التشريع الذي أعلنه لويس التاسع رسمياً إلى تأمين نصر العدل مشاركاً الفضيلة ؛ العدل الأخلاقي (المعنوي) أولاً . لقد صدرت براءات تحرم الدعارة والقمار (١٢٥٤ ـ ١٢٥٦ م) وتهدد المجدفين بعقوبات شديدة . وتصر على العدل في المعاملات التجارية . وعلى أن العملة الملكية الصالحة ، يجب أن تتداول في المملكة . لقد ضرب لويس التاسع عملة فضية وعملة ذهبية . وفي الوقت نفسه ، اتخذ إجراءات لتضييق سطح تداول النقود الأميرية . والعدل في الأخلاق الإقطاعية : إن حمل السلاح ممنوع على النبلاء كالفلاحين (١٢٥٨ م) ، وكذلك الحروب الخاصة . والعمل أمام محكمة يجب أن يحل محل الثأر الخاص . ومنذ الآن يجب ألا يكون هذا إلا دعوى ، لأن المبارزة القضائية ، الأصول القديم في قضاء الله ، قد ألغيت وحلّ محلها ، بينات الشهود والمواثيق . وأخيراً ، العدل في الإدارة الملكية : إن من يكلفهم الملك بتطبيق هذا التشريع يجب أن يكونوا أنفسهم في غنى عن كل لوم ، ففي ١٢٤٧ م ، قبل أن يذهب إلى الحرب الصليبية ، ثم من جديد في ١٢٥٦ م ، أمر الملك بإجراء تحقيقات على إدارة القضاة ، وكان المحققون مكلفين بإصلاح الأخطاء التي تسببت فيها الإدارة السيئة لعمال السلطة . وفي ١٢٥٦ م ، ثبتت براءة ملكية بوضوح حقوق وواجبات القضاء ورؤساء القضاء .

لقد كان لويس التاسع مشبعاً بمثل أعلى في العدل . وباختصار ، عمل في الاتجاه نفسه الذي سلكه فيليب أوغست ، وتابع عمل المركزية الذي بدأ به جَدّه ، وكل شيء يلتقي فيه . وكذلك تدخلات العدل الملكي إن في الإمارات أو في نهوض التشريع الملكي المطبق في الحقيقة بصورة أساسية في الدومين الملكي أو في تقدم ضرب النقود الملكي . وعقب حكمه ، حتى وإن لم تطبق كل هذه الإجراءات ، فإن السلطة الملكية قد تعززت بشكل عظيم . وفي الوقت نفسه عظم نفوذها الروحي : إن الصورة المعنوية السامية للملك باهتمامه بحماية المساكين والفقراء أنمت عند الشعب صوفية الملكية .

العاهل داعية سلام

بين التوصيات التي خلفها لويس التاسع لابنه إلى جانب العدل ، ترك مكاناً هاماً للسلام .

في السياسة الخارجية ، حاول لويس التاسع ، خلال حكمه ، أن يكون ، كما يقول ، (مهدئاً) . وما من ضعف في هذا الموقف ؛ لأن الملك في بداية حكمه عرف كيف يتخذ السلاح لدفع الإنزالات الإنكليزية على الشواطئ الفرنسية . وأطرح دوماً كل تدخل لدولة أجنبية سواء أكان تدخل البابا أم تدخل الإمبراطور . ولكنه تمسك بالسلام . ولئلا يكون هذا السلام هدنة بسيطة قصيرة الأمد ، كان مستعداً للقيام بتنازلات خاصة لإرضاء الخصم . وهذه الحالة الفكرية ظهرت في معاهدة كوربي الموقعة في ١٢٥٨ م مع ملك أراغونة ، على أن تكون بموجبها إيزابل أراغونة خطيبة لفيليب وارث العرش الفرنسي ؛ وأن يتخلى العاهل الفرنسي عن سيادته الاسمية منذ زمن طويل ، عن روسيون وكونتية بارشلونة . وبالمقابل يتخلى ملك أراغونة عن كل ادعاء في كونتية تولوز ، باستثناء مونبيليه التي ظلت تحت سيادته . وأراد أن يقيم مع إنكلترا صلحاً

نهائياً ، فبموجب معاهدة باريس (١٢٥٩ م) يتخلى لويس التاسع لملك إنكلترا عن الليموزن والبيريغورد وكيرسي التي ضخمت الغويين دوقيته . وبالمقابل ، يتخلى هنري الثالث نهائياً عن نورماندیا ، والآنجو ، والتورين وبواتو ويعترف به علناً بصورة رسمية تابعاً للملك فرنسا من أجل إقطاعة الغويين . ووعد ملك إنكلترا أيضاً أن يدفع ثمن تجهيز خمس مئة فارس خلال عامين (لخدمة الله والكنيسة) . وكان ملك فرنسا لويس التاسع يأمل أن يجر فرنسا وإنكلترا المتصالحتين إلى مشروع جديد للحرب الصليبية .

وهذا الصدق والاستقامة ، وهذه الروح العادلة جعلت من القديس لويس حَكَماً لأوربة ؛ وفي كل الخلافات ، ترجى وساطته . ففي ١٢٦٤ م مثلاً ، حاول أن يصلح ذات بين ملك إنكلترا مع كبار بارونات مملكته الذين ثاروا ضده . ولسوء الحظ ، اقتنع في آخر حكمه ، بدعم سياسة أخيه (شارل) الطموحة : فقد قبل هذا الأخير ، بناء على طلب أوربينو الرابع بتقليد مملكة صقلية . وكان شارل آنجو يحلم بأن يرجع لصالحه إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية ومملكة القدس ، وأراد أن يؤمن لنفسه السيطرة على البحر المتوسط الغربي . ونجح في جرّ لويس التاسع الذي شارك من جديد في الحرب الصليبية في ١٢٦٣ م ، في مغامرة حملة على تونس . ركب الملك البحر من إيغ - مورت ، في ٤ تموز ١٢٧٠ م ؛ وما أن نزل الجيش على الساحل التونسي ، إلا وأصيب بوباء الطاعون ، وهلك الملك في ٢٥ آب تحت أسوار تونس .

وبعد حكم كرس لنصرة الإيمان والعدل ، توفي الملك شهيداً . ومنذ ذلك الحين ، اعتبره الكثير من معاصريه قديساً ؛ وفي ١٢٩٧ م ، أعطى البابا لهذا الحكم تتويجه الرسمي وحكم بتطويب القديس لويس . وانعكس جاه العاهل على المملكة الفرنسية بكاملها ، وأسهم في إشعاع الفكر والفن الفرنسي الذي بلغ آنذاك قمة الأوج في أوربة الغربية .

٢ ـ فيليب الجميل وبدايات الأزمة الفرنسية

لم تأت السنوات الخمس عشرة التي تلت وفاة القديس لويس بأي تغيير هام في السياسة الفرنسية ؛ لأن ابن لويس التاسع ، فيليب الثالث (١٢٧٠ ـ ١٢٨٥ م) ، بالرغم من التربية السياسية الفائقة التي تلقاها ، كان عاهلاً ممحياً تقريباً منجذباً بين نفوذ محظيه الجراح پيير دولا بروسّ ، ونفوذ زوجاته المتعاقبات . ولكن السياسة الفرنسية استمرت أيضاً على الانطلاقة التي طبعها بها القديس لويس ، فإليه تعزى نجاحات الحكم . لقد ضم فيليب الثالث إلى الدومين الملكي تركة الفونس بواتيه ، الذي توفي دون وارث في ١٢٧٠ م ؛ واتحاد بلاد لغة أويل ، بلاد الشمال ، مع بلاد لغة دوك ، بلاد الجنوب : كونتية تولوز ، البيجوا ورووبرغ ، كان قد تمّ دون أن يكون للملك الحاكم فيه أي نصيب . وإن زواج فيليب ، ابنه الثاني ، بوارثة كونتية الشامبانيا أصبح ، بفضل الحظ ، عملية سعيدة . إن موت الابن البكر لفيليب الثالث جعل من فيليب وارثاً للعرش وساعد في المستقبل على ربط الشامبانيا والبري بالدومين الملكي . أما إخفاقات الحكم فتعود أيضاً إلى العناد الذي تابع به فيليب الثالث الأخطاء السياسية لآخر حكم القديس لويس . فقد دعم دون تحفظ سياسة شارل آنجو ، عمه ، ملك صقلية . وحامى عنه في النزاع الذي وقع بينه وبين ملك آراغونة ، والجيش الفرنسي شارك في (صليبية آراغونة) . وفي ١٢٨٥ م ، أخذت جيرونة ولكن الأسطول الفرنسي تبعثر في لاس فورميغاس ؛ لقد أصيب الأسطول بوباء ، واضطر إلى الانسحاب . ومات الملك في سياق هذا الانسحاب .

فيليب الجميل وجه غامض

إن حكم فيليب الرابع الجميل (١٢٨٥ ـ ١٣١٤ م) كان بالمقابل ، كحكم جده ، حاسماً بالنسبة لفرنسا . ومع ذلك ، فمن الصعب إعطاء حكم أكيد على

شخصية هذا العاهل الذي كتب عنه الإخباري جيوڤاني ڤيلاّني يقول : « كان من أجمل رجال العالم ، ومن أعظمهم قامة ، وأجود تناسباً في كل عضو » . وفيليب الرابع أسيئت معرفته كما عرف جيداً القديس لويس ، واستخف به كما أعجب بجده . وقد تردد المعاصرون كالمؤرخين المحدثين ، هل هو متعصب للسلطة الملكية . ويرتاب في كل مكان بالخيانة ، والهرطقة واللاأخلاقية ، ومستبد . إن الدرامات التي جرت في حياته الأسرية الخاصة يمكن أن تبعث إلى الظن ؛ ففي ١٣١٤ م انفجرت فضيحة فظيعة ، فقد اتهمت إيزابل فرنسا ، بنت الملك ، زوجات أخوتها الثلاث بالزنى . فقد تركن على الأقل أنفسهن بكثير من الخفة يتعرضن للخطر من قبل فارسين من البلاط ، فيليب وغوتيه دونيه . وبأمر الملك ، أعدم هذان الفارسان ببساطة ، وحكم على الأميرات الثلاث الرعناوات بقضاء باقي أيامهن في السجن . ووجد الكسندر دوما في ذلك موضوعاً لميلودرامته (برج نيل) . ولكن في السياسة ، هل كان هذا التشدد من المليك مخلصاً ، ألم يكن مرائياً يتظاهر بتصديق كل الاتهامات عندما تساعده على التخلص ممن يضايقونه . ويرى آخرون ، بالعكس ، أن فيليب لم يكن إلا ألعوبة بين أيدي مشاوريه .

من الأفضل التمسك بالوقائع ، فالاتهام ، عن خطأ أو صواب ، ضد مشاوري الملك ، في ذاته كاشف للسر ومذيع للخبر . والملك ، حتى ولو تغلبت إرادته أخيراً ، لم يكن الوحيد في الحكم . إن عدد ونفوذ موظفي الملك مافتئ في ازدياد ، وأدى إلى تسارع المركزية الملكية . لقد كان حكم فيليب الجميل حكم (المشرعين) بشكل فائق ، « هؤلاء الأناس الرقيقي الحال ، جعلهم الملك سادة في البلاط » كما أظهر ذلك أيضاً (التاريخ الشعري) . وهؤلاء الحقوقيون ، من بورجوازيين وصغار النبلاء المختصين بالحقوق الرومانية ، الذين يعينهم الملك ويعزلهم ، كانوا يفكرون بأن الملك سيد مطلق ، لأنه المعبر عن الخير العام .

وبين أهم مشـاريـه ، وعلى الأقـل من يظهرون لنـا في الـوثـائـق ، نــذكر أولاً : بيير فلـوت حـافـظ الأختـام من ١٢٩٨ م حتى وفـاتــه (١٣٠٢ م) ، وغليـوم دو نـوغـاريــه Guillaume de Nogaret ؛ وفي السنـوات الأخيرة أصبـح آنغيّران دو ماريني المشاور المحظي . وهؤلاء وأمثالهم استوطنوا بلاط الملك القديم . وتحت نفوذهم ، ولمعالجة الشؤون العديدة والمعقدة ، أكثر فأكثر ، انقسم البلاط إلى أقسـام مختصة : فلأجل المشاكل القضائية ، **البرلمان** ، الـذي كان منفرداً في عصر القـديس لويس ، نظم في ١٣٠٣ ونمى عملـه . واختص قسم آخر من المشـاورين في الشؤون المالية ، **ديوان المحاسبات** الذي بدأ بمراقبة إيرادات الدولة ونفقاتهـا . ومحليـاً تعزز عمل القضاة ورؤساء القضاة . وكل هؤلاء القضـاة يفكرون بـأن الملـك لا يمكن أن يعرف حدوداً لسلطته ولا سلطـة أعلى من سلطتـه . وظهرت وجهـة النظر هـذه بخاصة في سياسة الملك حيال كبار أتباعه بل وحتى البابا .

فيليب الجميل وأتباعه

عاود فيليب الجميل تجاه تابعه ، ملك إنكلترا ، السيـاسـة التي وضعهـا فيليب أوغست مـوضـع التطبيـق ؛ فمن ذلــك أن إدوارد الأول قــدم لــه ولاءه ؛ ولكن التنافس الذي وقع بين الملاحين البروتانيين والنورمـانـديين ضـد ملاحي الغوبين تحـول إلى معـارك بحريـة ؛ ففي الإقطـاع البـلانتـاجـوني ضـاعف عمـال الملــك التجاوزات ، مما حث الدعوات لبرلمان باريس . وفي تشرين الأول ١٢٩٣ م ، دعا فيليب الرابع ملـك إنكلترا للحضور أمـام محكمتـه ، ولـا رفض هـذا المثـول ، حكم برفع يده عن الإقطاعة وردها ، في أيار ١٢٩٤ م . واستؤنفت الحرب . وفي سياق العمليات ، استولى ملك فرنسـا على مـا يقـارب كامل الغوبين . ومع ذلـك ، كان يعمـل أيضـاً ملكاً لا يمكن أن يـدرك نظـامـاً سيـاسيـاً أجنبيـاً عن المـؤسســات الإقطاعية ، ورضي أن يقبل هدنة مؤقتـة يفـاوض فيهـا النواب الجيريون ومن ثم سلام مصـالحـة كما فعل القـديس لويس ؛ وردَّ أكيتـانيـا إلى إنكلترا ليرسـخ بشكل

أفضل الوفاق الذي وجد من جديد ، ويفاوض زواجاً مضاعفاً يوحد السلالتين : وذلك بأن تتزوج أخت فيليب الجميل إدوارد الأول ، ويتزوج وارث عرش إنكلترا ابنة ملك فرنسا . وإذا رضي بذلك فيليب فذلك لأنه كان مضطراً ، لأن آخر أتباعه ، كونت فلاندر ، غي دو دامبير ، الذي دفعته رعاياه في المدن (القماشية) التي ترغب بالإبقاء على علاقات اقتصادية طيبة مع الجزيرة المجهزة بالصوف ، كان قد انتقل إلى معسكر إنكلترا وهدد بشكل خطر شمال الدومين الملكي . وما أن وقعت الهدنة مع الملك الإنكليزي ، إلا وانثنى فيليب الجميل ضد الفلاندر ؛ فقد سجن الكونت غي وأخذ ملك فرنسا ، باعتباره سيداً ، على عاتقه إدارة الكونتية الفلاماندية مؤقتاً . غير أن الحاكم الملكي ، جاك دو شاتيون ، بالعكس ، عقد حلفاً مع الطبقة النبيلة الفلاماندية ؛ وبين الشعب الصغير في المدن والكونت ، تحقق الوفاق بعد ذلك ضد الفرنسيين والبيليارت (أنصار أزهار الزنبق) : ففي ١٣٠٢ م ذبحت الحامية الفرنسية في بروج . وأرسل الملك إلى الفلاندر جيشاً من الفرسان وبادر هؤلاء إلى الكفاح بشكل فوضوي وسحقتهم جيوش الحياك واللباد الفلاماندييين في كورتريه (١٣٠٢ م) .

وبعد عامين ، وطد الحال من جديد بفضل النصر الذي أحرزه في مونس - أن - پيڤيل (١٣٠٤ م) ، واستطاع أن يضم إمارات ليل ، ودوويه ، وبيتون . ولكن الشعب الفلاماندي لم يخمد .

فيليب الجميل وبونيفاس الثامن

حتى آخر القرن الثالث عشر ، لم تضع العلاقات ، بين الزمني والروحي ، مشاكل خطيرة في فرنسا . غير أن خلافاً عنيفاً انفجر ، عندما وجد وجهاً لوجه عاهل منعم بالسلطة الملكية ، فيليب الرابع ، وحبر متشدد ومدافع متحمس عن النظريات التيوقراطية (المشيئية) ، وهو البابا بونيفاس الثامن

(١٢٩٤ ـ ١٣٠٣ م) . حدثت أول مناوشة بمناسبة ضريبة الأعشار التي فرضها ملك فرنسا على الأكليروس أثناء الحرب الإنكليزية . غير أن البابا منع بقراره (١٢٩٦ م) كل دولة زمنية من أن تفرض ضريبة على الأكليروس دون ترخيص من الكرسي الأقدس . احتج الملك ، ولكن الحادث انتهى بعد تبادل بعض المكاتبات القدحية والعنيفة .

وبعد بضع سنوات قفز الخلاف من جديد على إثر قضية أسقف باميه : فقد اتهم بأنه تآمر مع ملك إنكلترا ، ومثل أمام القضاء . وطالب البابا عندئذٍ أن يطلق سراحه ويأتي إلى روما ويبرر نفسه ، وفي الوقت نفسه شجب كل مزاعم الملك وأعلن بالمرسوم « اوسكولتا فيلي » دعوة مجمع حيث اجتمع الأساقفة الفرنسيون خارج فرنسا وتناقشوا بـ « إصلاح شكل المملكة من جديد » . وهدد فيليب الجميل بالخلع ، وناور مشاوروه بمهارة قوية . وللنضال ضد البابا ، أمن الملك لنفسه قبل كل شيء مساندة الأمة : ولأول مرة في تاريخ فرنسا ، انعقد ، في ١٠ نيسان ١٣٠٢ م ، في كنيسة نوتر-دام ، مجلس مؤلف من ممثلي طبقات المملكة الثلاث ، الأكليروس ، الطبقة النبيلة ، الطبقة الثالثة . وهذا هو أول اجتماع لما « سيصبح فيما بعد » مجلس المملكة العام . ووافقت الطبقات الثلاث على سياسة الملك . وحصل فيليب أيضاً على مساندة كنيسة فرنسا : فأمام الكبار ، من كنسيين وعلمانيين ، مجتمعين في ١٤ حزيران ١٣٠٣ م ، أُطلق ضد الحبر الروماني اتهام بالهرطقة والسيمونية .

وقبل الآباء والأساقفة الحاضرون بأن يطلق فيليب الجميل ضد البابا دعوة لمجمع عام . وبرفض البابا دعوة المجمع ليبرئ نفسه ، يكون قد صرح بهذا بأنه مجرم ويجب أن يوقف ليقاضى . وكلف غليوم دو نوغارية من قبل الملك بتنفيذ هذه المهمة : ففي مدينة آناغني ، دعمت نوغارية جيوش آل كولونا ، أعداء البابا الرومانيون ، وألقي القبض على شخص بونيفاس الثامن (٧ أيلول ١٣٠٣ م) .

وبعد قليل ، خلص سكان آناغني البابا ، ولكنه توفي بعد شهر . ولم يلقِ الملك السلاح بهذه الوفاة . فقد حصل من البابا كليمان الخامس على دعوى ضد مذكرة بونيفاس . واعترف بغيرة ملك فرنسا بأنها طيبة وعادلة . ومحيت جميع الأعمال (الصكوك) الموجهة ضده من السجلات الحبرية . وانتصر ملك فرنسا .

المشكلة المالية ـ قضية فرسان المعبد

هذه النجاحات أساءت إخفاء المشاكل المتزايدة التي يلاقيها الملك على الصعيد المالي : فقد عظمت حاجات الملكية كثيراً وبأسرع من موارده في عصر بدأت فيه بالظهور أولى المؤشرات لأزمة اقتصادية . والحادث كان أوربياً ، ولكنه أصاب فرنسا بخاصة ، كان اقتصادها عرضة للنقد لأنه كان تابعاً للخارج . تصدر فرنسا منتجات أرضها ، الخمر ، العظلم ، وما تستخرجه من البحر مثل الملح . وأثرت من تيار المبادلات الدولية الكبير الذي يجتازها وأدى إلى نمو أسواق الشامبانيا ؛ وأخيراً ، إن النمو الاقتصادي كان في القسم الأعظم منه بفضل القروض التي يقبل بها أصحاب المصارف الإيطاليون : وهم متولان فلورانسيان بيسشيو وموستشياتو المشاوران الماليان للملك . وعلى إثر الأزمة الدولية ، عندما بدأ الزبائن الأجانب يقلصون مشترياتهم ، وعندما نأت الطرق الدولية عن الأرض الفرنسية ، وأشرفت أسواق الشامبانيا على الخطر ، تأثر اقتصاد البلاد بشدة ، وانفجرت اضطرابات اجتماعية في المدن الكبرى . وفي هذه الظروف ، أسيء قبول متطلبات الملك المالية أكثر فأكثر . وحاول فيليب الرابع كأسلافه إقامة ضرائب نظامية . ولكن هذه الضرائب التي تضرب شعباً مصاباً من قبل بالأزمة دخلت من جديد بشكل سيء جداً : ففي ١٢٩٥ م ، وضع رسم على السلع فأثار ثورة في باريس . وفي آخر حكمه ، حاول الملك الحصول من رعاياه أنفسهم أن يقبلوا بالضريبة : ففي الأول من آب ١٣١٤ م اجتمع مجلس المملكة العام في باريس والتمس منه أن يقوم بمساعدات للملك . وضربت الرسوم الثقيلة اليهود

واللومبارديين ؛ وأحياناً صودرت كل أموالهم وطردوا . وكان يسعدهم ألا يكونوا ضحايا المذابح الجماعية ، لأن الملك بعد أن أحس بتعاظم الاستياء حاول أن يحول غضب الشعب إلى اليهود المسؤولين عن كل الأخطاء والأغلاط . ولم تكن الضرائب والرسوم كافية . ولعب الملك أيضاً بتحويل النقد . فإما أن يزيد القيمة الاسمية لقطع النقد ، أو ينقص كمية المعدن الثمين التي تحتويها . وهكذا حقق ربحاً بالضرب أو الإصدار . وهذا التخفيض في قيمة النقد ساعده في الوقت نفسه على وفاء ديونه بنقد ضعيف .

ولم يهتم فيليب الرابع بالنتائج الاقتصادية لمثل هذه العمليات ، لأن تخفيض النقد يؤدي بالنتيجة إلى ارتفاع في الأسعار قاسٍ بالنسبة لرقيقي الحال ؛ وفقد الشعب والتجار الأجانب الثقة بمثل هذه النقود وتأثرت المبادلات بها .

وعلى ما يبدو ، يجب ربط إحدى درامات آخر العهد بالقضية المالية ، وهي دعوى فرسان المعبد ، فبعد سقوط عكا وخسارة آخر قصور الأرض المقدسة ، انطوى النظام ورجع إلى أوربة . وكان يتمتع بعد بإيرادات هامة يحفظها في صناديقه ، وتوصل إلى الانشغال بالمسائل المالية : فقد أخذ على عاتقه نقل الأموال ، وقبل أن يحفظ ودائع الأفراد في ملجأ داخل الأسوار القوية لقياداته . وفي معبد باريس كانت تحفظ الخزينة الملكية . وأغرى الملك ومستشاريه حذف النظام والاستيلاء على أمواله ، لاسيا وأن الإشاعات المقلقة منذ زمن طويل كانت تسري ضد النظام . فقد كان يحكى بأن الرهبان الفرسان كانوا قد باعوا الأرض المقدسة للمسلمين ، وأنهم يمارسون السحر . وكان من السهل استغلال هذه الإشاعات والضجيج حولهم . وحصل الملك من البابا كليمان السابع على السماح بالقيام بتحقيق في الأمر . وفي ١٣ تشرين الأول ١٣٠٠ م ، أمر فجأة بإيقاف جميع المعبديين ، وسؤالهم بعماله الخاصين قبل أن يسلمهم لمحكمة التفتيش ، وعندما خضع الإخوة الفرسان للتعذيب اعترفوا . ومن ثَمَّ رجع العديد من الإخوة عن

اعترافاتهم . ولكن اثنين وخمسين معبدياً حاكمتهم الجامع الأسقفية وشجبوا على أنهم هراطقة وأحرقوا أحياءً . وهكذا كان مصير المقدم الكبير جاك دومولية (١٣١٤ م) آخر مدير كبير لفرسان المعبد .

أما الإخوة الآخرون الذين لم يرجعوا عن اعترافاتهم ، فقد تفرقوا في أنظمة ديرانية مختلفة بغية التكفير عن أخطائهم . وبفضل هذه الدعوى فإن جميع الاحتياطات النقدية التي وجدت في صناديق المعبديين قد احتجزها رجال الملك دون رقابة ولم ترد إطلاقاً . وحتى ١٣١٨ م ، قبضت الملكية إيرادات الأملاك التابعة للنظام ، ثم نقلت جزءاً من هذه الأملاك إلى المعبديين ، واحتفظت بالباقي لنفسها . وهكذا كانت العملية المالية مربحة .

وبقيت الأزمة الاقتصادية والمالية خطيرة كثيراً بنتائجها على الحياة السياسية . وعندما توفي فيليب الجميل (١٣١٤ م) ، كان الاستياء عظيماً : لقد حاول النبلاء أن يفيدوا من زوال قوة العاهل ليأخذوا بثأرهم من عصر التقدم الملكي ؛ وشكلوا عصبات وألقوا المسؤولية على مشاوري الملك الراحل .

كان لويس العاشر « المماحك » الابن البكر والخلف للملك فيليب الجميل ، وكان عليه أن يضحي لهم انغرّان دوماريني الذي شنق في مشنقة مونفوكون (مكان بين لافيللت وأكمات شومون) ، ولمجابهة رد فعل الطبقة النبيلة ، حاولت الملكية أن تعتمد على مجموع الأمة ولا سيا الطبقة البرجوازية . فقد سبق أن جمع الملك فيليب الجميل مراراً ، في مجلس المملكة العام،الأحبار ، والبارونات وأثرياء البورجوازيين في المدن الطيبة ، فدل بذلك على الطريق . ولكن كان من المحتم أن يصل الأمر بالممثلين في مجلس المملكة العام أن يطالبوا ، مقابل المساعدات ، بإصلاحات وبالرقابة على استعمال الأموال . وبالإضافة إلى المشاكل الاقتصادية أعدت أزمة سياسية في الوقت الذي ضعفت فيه الملكية بسبب المشاكل السلالية :

إن أبناء فيليب الجميل الثلاثة ، لويس العاشر المماحك ، اللاج ، المنازع (١٣١٤ ـ ١٣١٦ م) ، وفيليب الخامس الطويل (١٣١٧ ـ ١٣٢٢ م) ، وشارل الرابع الجميل (١٣٢٢ ـ ١٣٢٨ م) تعاقبوا بسرعة جداً على العرش . ونظراً لعدم وجود وارث ذكر في الخط المباشر كان على البارونات ، في ١٣٢٨ م ، أن يختاروا من بين وارثين بعيدين : إدوارد إنكلترا وهو أقرب من غيره ، ولكنه أجنبي . ولذلك استبعده البارونات ، مدعين بالقانون السالي الذي يمنع كل وراثة في الخط المؤنث ، ووقع اختيارهم على فيليب دوڤالوا : ولكن هذا القرار الذي يمكن أن ينازع ألا يخاطر بنبش الخلاف القديم الفرنسي ـ الإنكليزي ؟!

إنكلترا من جان دون أرض

إلى إدوارد الثالث

عرفت السلطة الملكية أوجها في إنكلترا في آخر القرن الثاني عشر ، في السنوات الأخيرة من حكم **هنري الثاني** . وبعد بضع سنوات ، تحت حكم جان دون أرض (١١٩٩ ـ ١٢١٦ م) ، تفجرت أزمة خطيرة امتدت حتى وفاة الملك هنري الثالث (١٢١٦ ـ ١٢٧٢ م) ، ولم يبدأ النهوض من هذا العثار إلا في آخر القرن الثالث عشر .

١ ـ جان دون أرض وأصول الأزمة

الميثاق الكبير

إن مباغتة الأزمة التي انفجرت تحت حكم جان دون أرض يجب ألا تخدع . فقد أعدت في الأعماق منذ زمن طويل . وتعززت السلطة الملكية بشكل عظيم في القرن الثاني عشر . ولكن في الوقت نفسه ازدادت أو نمت أيضاً قوة بعض طبقات المجتمع الإنكليزي التي ستصبح خصوماً تخشاهم الملكية . فالنبلاء في منازلهم المحاطة بالأراضي الزراعية اهتموا مباشرة بالاستغلال الزراعي وجنوا من أرضهم أرباحاً هامة ؛ وأعضاء الأكليروس الأعلى ، من آباء وأحبار ، ينتسبون أيضاً لهذه الفئة من كبار الملاكين العقاريين ، وهم بخاصة أصحاب قطيع غنم واسع يباع صوفه بشكل مربح في الخارج . ولأجل تجارة الصوف هذه ، كما لاستيراد الخمر والملح من القارة ، نمت ، في لندن خاصة ، بورجوازية تجارية عديدة . وكل هؤلاء الناس الحريصين على الدفاع عن مصالحهم الاقتصادية ، يهتمون في الغالب بالشؤون الإنكليزية الخاصة ، ولذا فإن كبار الملاكين بالتالي معادون للأرياف

على القـارة التي تقتلعهم من أرضهم وتضطرهم إلى دفـع غرامـة ثقيلـة ؛ ووجـدت البورجوازية أيضاً بأن هذه المشاريع العسكرية تكلف غالباً ، ولا سيا أنها تعكر الحيـاة الاقتصـاديـة والاضطراب في المبـادلات . أمـا الأكليروس ، فيـدافـع عن مصالحه المادية وأيضاً عن استقلاله الروحي أمام ملكية فقدت منـذ مقتل بيكيت كل هالة دينية .

وما فتئ الظلم الملكي يتفاقم تحت حكم هنري الثـاني وريتشـارد قلب الأسـد ، مثيراً الاستياء والحقد في الطبقات الغنية من الأمـة . وعلى الأقل إن الجهـد المـالي والعسكري ، اللـذين طـالـب بها الملكان ، وجـد تبريره في انتصـارات عـديـدة أحرزت على القارة . وزعم جان دون أرض أن يستمر بل ويصلب سياسة أسلافه على صعيد المركزية الإدارية وعلى صعيد العلاقات مع الكنيسة ، في الوقت الـذي دار فيـه الحـظ على الأسلحـة الإنكليزيـة وتلت الهزائم الهزائم . إن افتتـاح الأزمـة يرجع إلى هذا التناقض .

لم يكتف جان دون أرض برفع سعر النقد ، ودفع إلى الحد الأقصى ، في الحكم الداخلي لإنكلترا ، استغلال الرسوم الإقطاعية ، والقضائية في المملكة . وعند وفاة تابعه ، تحفظ الملك بألا يقلد وارثـه إلا مقـابل دفع رسم الخراج . وهـذه الممارسـة ليست جديـدة ، ولكن الملـك جـان رفع كثيراً سعر هـذا الرسم : ولمـا كان كبـار التابعين ينقلون إلى رجـالهم الـدين الـذي يجب أن يـدفعوه برفع ضريبـة القـامـة (التاي) عليهم ، لذلك كان الاستياء عـامـاً . وهنـاك امتيـازات أخرى استغلهـا العاهل حتى النهاية : كرسم حراسة القاصرين ، ورسم زواج الفتيـات والأرامل . وعندما يكون وارث الاقطاعـة قـاصراً ، فللملـك الحق في أن يجبي ، مقـابل عـدم الخدمة ، إيرادات الإقطاعـة . ومن حيث المبـدأ يجب أن يرد هـذه الإقطـاعـة في حـالـة جيـدة عنـد بلوغ الـوارث سنّ الرشـد . وفي الـواقـع ، إن مـوظفي الملـك

يستغلـون الأراضي دون الاهتمام بتـدبر مردودهـا في المستقبـل . وعنـدمـا يكـون الإقطاع نصيب امرأة ، يبيع الملك للأمير الذي يدفع أكثر من غيره يـد الوارثـة ، إلا إذا ترك لهذه ، مقابل مال ، الحق في اختيار زوجها . وأخيراً كان قانون الغابة يحتمل بعسر . إن الملوك الآنغلو ـ نورمـانـديين ، الـذين كانـوا صيـادين كبـاراً ، أحـدثـوا أراضي كبيرة ذخراً لهم ظلت تعظم بعـدهم . وفي آخر القرن الثـاني عشر غطت الغابـة ثلث إنكلترا ، ويقصـد بهـا مسـافـات محرجـة ، ولكن أيضـاً أراضٍ عديدة دون غابة جردها هنري الثاني . وفي هذه المناطق ، ليس للسكان الحق على الإطلاق في قتل حيوان الصيـد ، حتى ولو أتلف المـزروعـات ، ولامس الخضرة ، أي النبات الطبيعي . ووجد جمع من الموظفين يطارد المجرمين ، الذين يستحقون في الحالات الخطيرة عقوبة الموت . ووجدت قصائد غنائية شعبيـة استوحى منهـا والتر سكوت في«ايفـانهوويـه»، أحـدثت صـورة أسطـوريـة لـ (روبين هـود) ، روبن الغـابـات ، الـذي يجسـد ثورة صغـار النـاس ضـد ظلم جـان دون أرض . ولكن ، في الغـالـب تحت حكم جـان دون أرض ، كان نظـام الغـابـة وسيلـة ضريبية ، لأنـه يسـاعـد على دفع غرامـات عظيـمـة . وكل هـذه الرسوم التي تثقل أتباع الملك وسكان الغابات ، كانت أيضاً وسيلة حكم . فقد كان بامكانه أن يمسك حسب هواه بسهولة تابعين مدينين دوماً له .

لقـد بلـغ الاستيـاء درجـة كاد فيهـا الخـلاف أن ينفجر بين الملـك وهيئـة البارونات منذ سنوات ١٢٠٨ ـ ١٢١٢ م على إثر سياسة العاهل الدينية . إن موت هبرت غوتيه رئيس أساقفـة كانتربري (١٢٠٥ م) كان في أصل خلاف خطير وقع بين الملك والبابوية ووضع الملـك في حـالـة صعبـة جداً . فقـد انتخب مرشحـان متنـافسـان ، أحـدهمـا انتخبـه الرهبـان ، والآخر مرشـح الملـك ، انتخبـه مجلس الأسـاقفـة . وذهب وفـد من الرهبـان وممثلي الملـك إلى رومـا لعرض القضيـة على إينـوسـان الثـالـث . وبعـد أن أجرى البـابـا تحقيقـه ، صرح بـأن الانتخـابين غير

قانونيين وأمر بانتخاب مرشحه الخاص إيتين لانغتون ، وهو إنكليزي خدم زمناً طويلاً في البلاط البابوي . رفض جان دون أرض قبول قرار الحبر الأعظم . وفي ١٥ آذار ١٢٠٨ م وضع البابا مملكة إنكلترا في حالة منع . رد الملك جان بأن أمر بمصادرة مباشرة لكل أراضي وأموال الكنيسة . وقبل كثير من الأساقفة مخالفة المنع الذي أصبح بهذا الواقع عديم التأثير . وفي ١٢٠٩ م قرر البابا حرمان العاهل الإنكليزي ، وبموجب ذلك تخلى الأساقفة عن العاهل . وما فتئت حالته تزداد سوءاً في السنوات التالية . ثارت هيئة البارونات وانضمت للأحبار في معارضتهم . ومن جهة أخرى ، بدا أن إينوسان مستعد لخلع العاهل ، ودعم الترشيح إلى عرش إنكلترا ، الأمير لويس ، الابن البكر لفيليب أوغست . واضطر جان دون أرض إلى المفاوضة ، وتحت تهديد الغزو الفرنسي ، إلى تقديم خضوعه . وكان عليه أن يتوب ، ويدعو كل من نفاهم ، ويدفع للكنيسة الإنكليزية جميع الإيرادات التي صادرها ؛ وأخيراً أن يعد بألا ينفي الأكليركيين . وكانت هذه الشروط قاسية جداً ، ومع ذلك فإن الملك جان شعر بأن الخضوع لها لا يكفي لتجنب جميع الأخطار التي تهدده ، الحملة التي أعدها الكابسيون وثورة البارونات التي تهيأ . فقدم أكثر من خضوع ، وأعلن بأنه يسلم مملكته للبابا ، وأعادها المفوض الحبري إليه كإقطاع من الكرسي الأقدس . وكمؤشر على إقطاعه إياها ، تدفع أتاوة سنوية . وهذا العمل السياسي الخالي من الذل كان حاذقاً للغاية ، فالبابا المخدوع ، المتباهي أصبح حليف جان وأخطر فيليب أوغست بأن يتخلى عن الإنزال . وانضم الأكليروس ، ماعدا لانغتون ، وجرَّ قسماً من البارونات إلى الانضمام له . وأنقذ جان دون أرض عرشه واحتفظ بكل سلطاته .

وكان أقل حظاً في سياسته القارية . فالبرغم من الهزائم التي دمغت بداية حكمه (١٢٠٢ ـ ١٢٠٥ م) ، لم يتخل جان دون أرض عن استرداد الإمبراطورية

الآنجفية . وفي السنوات التالية كلها ، اهتم بتشكيل خزانة حربية وعقد ضد فرنسا تألباً أوربياً . وفي ١٢١٣ م ، قرر تنظيم حملة في بواتو ؛ ودعا باروناته إلى بورتسموث ، ولكن الجيش الإقطاعي كان قد خدم في الربيع لتأمين حراسة السواحل في الوقت الذي كان يخشى فيه من إنزال فرنسي . ورفض العديد من البارونات ، وبخاصة بارونات شمال إنكلترا أن يستجيبوا لهذه الدعوة ، فانحنى الملك لأنه فكر في إطلاق حملة واسعة النطاق في السنة التالية . وبالفعل ، ففي سنة ١٢١٤ م ، وبعد أن فرض ضريبة مالية على جميع التابعين الذين لم يشاؤوا اجتياز المانش ، أبحر مع جيش فرسان صغير . ولسوء حظه ، لم تكن العمليات العسكرية لصالحه ؛ ففي ٢ تموز ١٢١٤ م ، هزم في لاروش - أو - موان ، وحليفه الإمبراطوري في بوڤين ، في ٢٧ تموز ١٢١٤ م . وهكذا فإن كل الجاه الذي استطاع أن يحتفظ به حتى ذلك الحين ، قد ضاع تحت وطأة هذه الهزائم . غير أن بعض البارونات الذين رفضوا الانضمام إلى الحملة خشوا من جهة أخرى انتقامه . وأخيراً ، في بداية ١٢١٥ م ، وردت رسائل من الحبر الأعظم تأمر البارونات أن تدفع مرة جديدة الضريبة المالية إلى الملك . وكلف رئيس أساقفة كانتوربري بحرمان البارونات الذين لا ينفذون الأمر . وفي هذه الظروف ، عقدت ضد الملك مؤامرة ، وكان لانغتون روحها . فقد تجمع حوله بارونات وبورجوازية لندن ، وطالب الجميع بميثاق حريات . وحاول جان آخر جهد لتفريق التألب ؛ ثم حاول أن يجرده من سلاحه معلناً عن نيته بأخذ الصليب والكفاح . بيد أنه أمام هذه الثورة المكشوفة ، اضطر للانحناء . وفي ١٥ حزيران ١٢١٥ م هجره الجميع في براح رونيميد بالقرب من وندسور ، واضطر إلى قبول متطلبات البارونات وأقسم باحترام نص أطلق عليه فيما بعد الميثاق الأكبر .

إن الوثيقة التي أعدها البارونات وقبلها الملك ، لا يوجد في شكلها عمل ثوري . وهي لا تختلف في الظاهر على الأقل ، عن المواثيق التي خولها هنري الأول أو هنري

الثاني عند اعتلائهما العرش . ولم يكن القصد التجديد ، وإنما بالعكس ، الرجوع إلى حالة قديمة . بحذف عدد من المساوئ الحديثة . وإن عمل العواهل الآنجڤيين ، وعن الإدارة ، والممارسة المشروعة للسلطة الملكية لم توضع على بساط البحث والتساؤل ؛ لأن القصد كان إحياء ضمانات قديمة لم يحترمها جان دون أرض . وهذه هي وجهة النظر التي تتضح في المواد الأولى التي تهم علاقات الملك مع الكنيسة من جهة ، ومع تابعيه ومدنه من جهة أخرى . لقد استعادت الكنيسة الإنكليزية (حرياتها) ، وبخاصة حرية الانتخابات الأسقفية ؛ أما البارونات فقد أمنوا من أن الملك لن يسيء تفسير الحقوق التي يخوله إياها العرف الإقطاعي .

وتخول مواد أخرى حماية الملك للتجار وتوجد نظام الأوزان والمقاييس .

ومع ذلك ، ذهب البارونات إلى أبعد من إرجاع بسيط للأعراف القديمة . وفي هذا المعنى يمكن أن يعتبر أن الميثاق الأكبر عمل لإنكلترا أول خطوة نحو حكم مراقب من أسلوب برلماني ؛ لأن الملك لا يمكنه أن يفرض ضرائب استثنائية دون الحصول على موافقة مجلس المملكة الأكبر .

وهكذا حصل كبار المملكة على ما كانوا يرغبون به ، من احترام امتيازاتهم وحق قبول الضريبة .

ومع ذلك ، فإن مطالب البارونات تجاوزت في نقطة أخيرة إطار المصالح الأنانية لطبقة أصحاب الامتيازات ؛ لأن الميثاق الأكبر ضمن الحرية الشخصية لجميع الناس الأحرار ضد الاستبداد الملكي .

وبهذا يمكن أن يعتبر الميثاق الأكبر أول نص تأسست عليه الضمانات الدستورية الإنكليزية .

ولرقابة تطبيق هذا النص ، توقع البارونات تشكيل نوع من لجنة رقابة ؛

ففي الحالة التي لا يفي فيها الملك بوعوده ، توقع الميثاق الأكبر ، من أجل هيئة البارونات ومن أجل (عموم البلد بكامله) حقاً حقيقياً بالعصيان .

وكان مع البارونات الحق في الشك بحسن نية المليك واتخاذ الحيطة . فقد حاول الملك جان أن يتخلص بكل الوسائل من التزاماته ؛ فمنذ بداية ١٢١٦ م . حصل على أن يلغي البابا الميثاق الأكبر . فحنق البارونات وحكموا بخلعه وقدموا العرش إلى ابن فيليب أوغست ، الأمير لويس ، الذي نزل في إنكلترا . وفي غضون ذلك حضهم موت جان دون أرض المفاجئ ، في تشرين الأول ١٢١٦ م ، على إعادة النظر في سياستهم ، وفضلوا على أمير أجنبي ، هنري ، الابن الشاب للملك جان . وما أن اعتلى العرش حتى وافق وأيد الميثاق الأكبر . ولم يكن في وسع لويس إلا أن عاد إلى فرنسا .

٢ ـ هنري الثالث (١٢١٦ ـ ١٢٧٢ م) : عودة الأزمة ونشأة البرلمان

إن قصور هنري الثالث ترك البارونات يأملون بأن يكون العاهل الجديد أكثر احتراماً من أبيه للتعهدات التي اتخذتها الملكية حيالهم . وفي الواقع ، عندما بلغ الملك سن الرشد ، في ١٢٢٥ م ، قبل أن يؤيد علناً الميثاق الأكبر .

نشأة إنكلترا البرلمانية

وقليلاً قليلاً ظهر الخلاف من جديد بين العاهل وهيئة البارونات . فقد استأنف هنري سياسة أبيه القارية ، وأفاد مراراً من مشاكل بلانش قشتالة ونزل في فرنسا في ١٢٤٢ م وسحق جيش القديس لويس جيشه في سنت . وبفضل إرادة العاهل الكابسي في التهدئة فقط ، لم تكن معاهدة باريس (١٢٥٩ م) كارثة لإنكلترا . ولم تكن هذه السياسة الخارجية الموضوع الوحيد لاستياء

البارونات الإنكليز . لقد كان الملك مسرفاً جداً ، ويحاول العودة إلى الامتيازات التي أجراها أبوه . فقد تخلص من لجنة الرقابة البارونية ، وأحاط نفسه بمشاورين أجانب عن المملكة ، مما أثار حنق الإنكليز وغضبهم .

تألب البارونات المستاؤون تحت إدارة فرنسي أصبح كونت ليستر وصهر الملك ، سيمون دو مونفور ، أحد أبناء زعيم مكافحة الهرطقة الألبيجية . فقد أحاطوا أنفسهم بجمهور من صغار الفرسان المدججين بالسلاح واجتمعوا في أوكسفورد وقدموا للملك مطالبهم . وبراءات هذه الأحكام المتخذة في أوكسفورد أصبحت أنظمة أوكسفورد بعد موافقة البرلمان (١٢٥٩ م) ، وأحدثت حكومة يسيطر عليها النبلاء : أي مجلس من خمسة عشر بارونا يراقب على الدوام الملك والموظفين الملكيين . وأبعد المستشارون الأجانب ؛ وأخيراً توجب على الملك أن يعقد ثلاث مرات في العام مجلساً كبيراً أو برلماناً . وأقسم الملك على ذلك .

ولكن الملك في ١٢٦١ م طلب من البابا شجب أنظمة أوكسفورد وطرد سيمون دو مونفور . ولتجنب الحرب المدنية المهددة ، قبل هنري الثالث والبارونات الإنكليز اللجوء إلى تحكيم القديس لويس . وقد خطأ « مرسوم أمْيَنْ » (١٢٦٤ م) البارونات الذين رفضوا الامتثال . كان الخلاف محتماً ، لا مفر منه ؛ فقد انضم بورجوازيو المدن الكبرى إلى الطبقة النبيلة تحت إدارة سيمون دو مونفور بعد أن عاد إلى إنكلترا . وفي أيار ١٢٦٤ م غلب الملك وأسر في ليويس . وما وسعه إلا أن سلم بالأمر ، وأصبح دو مونفور منذ الآن سيد السلطة الحقيقي . انتخب مشاوري الملك وأراد أن يخصص في حكم البلاد مكاناً للطبقة النبيلة الصغيرة إلى جانب كبار البارونات . وفي ١٢٦٥ م عقد برلماناً جلس فيه إلى جانب كبار الأمراء والأحبار فرسان يمثلون الكونتيات بمعدل فارسين عن الكونتية ، ونواب المدن والقرى . وهذا النظام سيكون مدعواً لمستقبل سياسي عظيم . ومع ذلك فقد آل الأمر بالبارونات إلى الملل من دكتاتورية سيمون

دو مونفور ، وشجع الشقاق من داخل المعارضة الملك . وفي ١٢٦٥ م ، جمع الأمير الوارث للعرش الأنصار وقاتل سيمون دو مونفور الذي غلب وقتل في إيفرشام واستطاع عندئذ هنري الثالث أن يمسك بالسلطة من جديد ، ولكن كان عليه أن يوافق ويؤيد الميثاق الأكبر وأنظمة أوكسفورد وانتهى حكمه بالفوضى .

٣ ـ نهضة السلطة الإنكليزية تحت حكم إدوارد الأول (١٢٧٢ ـ ١٣٠٧ م) وإدوارد الثاني (١٣٠٧ ـ ١٣٢٧ م)

لقد كان حكم إدوارد الأول لإنكلترا حكماً عظيماً مصلحاً . كان الملك الجديد بمزاجه مستبداً ، ولكنه عرف بوضوح كيف يقبل التطور الضروري للحكم . جدد الميثاق الأكبر وجميع المواثيق السابقة . وانطلاقاً من ١٢٩٥ م يرى أن البرلمان ، الذي أسسه في ١٢٦٥ م من ممثلي الكونتيات والمدن والقرى ، قد انعقد بانتظام ، واعترف الملك بأن الضريبة الملكية ، ضريبة القامة (التاي) ، لا يمكن أن تفرض دون موافقته . وبعد فما هو معنى المؤسسة الجديدة ؟ إنها لا تعطي أبداً لإنكلترا السيماء الملكية المراقبة أو الدستورية التي ستكتسبها فقط في الآجل كثيراً ... إنها تبدي صفة مجلس كبير موسع حيث ينضم مشاورو الملك العاديون من أجل جلسة قصيرة ... وإن عدداً من البارونات والأحبار مدعوون بصورة فردية بسبب قطعة أرضهم الإقطاعية . إنهم يؤلفون المجلس في برلمان ، وهو بخاصةٍ شكل رسمي لبلاط الملك . وفيه جرت العادة أيضاً ، منذ جيلين ، في استشارة ممثلي طبقات الأمة الأخرى ، من تجار ، وأكليركيين ، بورجوازيين وفرسان الكونتيات ... وانقطع فيه الأكليركيون عن المجيء . وبقي فيه فارسان عن كل كونتية ، وبورجوازيان عن كل مدينة ، وأربعة عن العاصمة ، وهؤلاء جميعاً وحدهم يشكلون ما يسمى في الآجل (مجلس العموم) ... ودورهم ثانوي ولا يشاركون في مناقشات المجلس وقلما يمثل البرلمان المشكل على هذا النحو مجلساً أساسياً سياسياً أو

تشريعياً . وبقي المجلس حكماً وحيداً للإجراءات التشريعية التي تعلن في البرلمان ... وباختصار ، إن البرلمان يمكن أن يكون للعاهل أفضل مساعد في سياسته كما هو أقبح عقبة لإرادته . فإلى الملك الشعبي قدم المساندة التي لا مثيل لها من الشعب ، وساعده على الكلام عالياً إلى العواهل الأجانب كما إلى زعيم الكنيسة ، باسم الأمة . وإذا حرض العاهل الأخرق ضده هيئة بارونات مستعدة دوماً لكشف أخطائه ، فهو يفيد أداة للمعارضة ويفرض على الملك وصاية خصومه . ومنذ آخر الحكم ، اتضح التنظيم : إن كبار الأمراء الكنسيين والعلمانيين يجتمعون على العموم في مدينة صغيرة مجاورة للندن (وستمنستر) ، ويشكلون مجلس اللوردات ؛ وإن الطبقة النبيلة الصغيرة والبورجوازيين الذين يتجمعون قبل جلسة البرلمان في مجلس يشكل مجلس العموم ، يعينان رئيساً مكلفاً بإعلام عاطفتهم إلى اللوردات . ولم تضعف السلطة الملكية بنشأة البرلمان ، بل بالعكس ، إن إدوارد الأول الذي أحاط نفسه بالحقوقيين ، مثل فيليب الجميل ، عزز المركزية الإدارية في المملكة .. وإن محكمة قضاء الملك ، المكلفة بالقضاء الجنائي ، ومحكمة الدعاوى العامة ، المكلفة بالقضاء المدني ترفعان أمامهما دعاوى عديدة . ومحكمة المالية تراقب الإدارة المالية للعمال المحليين . وأخيراً ، خلال حكمه كله ، بدا البرلمان ليناً مطيعاً وجهز الملك بالموارد التي كان بحاجة إليها لسياسته .

غير أن الحكم الذي يرثى له لخلفه إدوارد الثاني (١٣٠٧ ـ ١٣٢٧ م) لم يفسد المواقع الحصينة التي استردتها الملكية . كان عاجزاً ومسرفاً ، ومتأثراً بحظييه ، ودخل في خلاف مع البرلمان . ونظراً لعدم خضوعه لقوانين الإصلاح التي حكم بها هذا المجلس ، كان عليه أن يستغني عن الإعانات المنظمة ويعيش بالقروض . وزوجته الملكة إيزابل ، الأميرة الفرنسية ، المكلفة مع ابنها بسفارة في فرنسا ، وجدت فيها عاشقها المنفي مورتيمر . وجمعت بعض الجنود ونزلوا في إنكلترا (١٣٢٦ م) . وأسر إدوارد الثاني واضطر للتنازل عن العرش لصالح ابنه الذي

اعتلى العرش تحت اسم إدوارد الثالث ، واستطاع أن يستأنف سياسة جده القوية (١٣٢٧ م) .

توسع إنكلترا الأرضي في القرن الثالث عشر

وفي السياسة الخارجية أيضاً أدى حكم إدوارد الأول وإدوارد الثاني إلى تعزيز القوة الإنكليزية . إن إدوارد الأول الذي غَلب على القارة ، حيث نجح على الأقل ، باعتباره بلانتاجونياً صالحاً ، بالحفاظ على أكيتانيا أمام تجاوزات فيليب الأول . وباشر سياسة أكثر واقعية وأكثر مطابقة لمصالح إنكلترا : لقد حاول أن يبسط نفوذه على كافة الجزر البريطانية . وإيرلاندة فتحها هنري الثاني ولكن خضوعها في ١١٧١ م لم يكن إلا مؤقتاً . وبالرغم من بناء بعض القصور الحصينة ، فقد ظلت السيطرة على الجزيرة وهمية في القرن الثالث عشر كله . وحتى في الجزيرة الكبرى وجدت في بداية القرن الثالث عشر منطقتان مستقلتان : مملكة إيكوسيا وبلاد الغال ، حيث وجد جبليون قساة ومنظمون في أحزاب قاومت التغلغل الإنكليزي . وفي إيكوسيا ، منيت حملات العواهل البلانتاجونية بالإخفاق : ففي ١٢٨٦ م ، مع ذلك ، شجعت أزمة سلالية مشاريع إدوارد الأول ؛ وفي ١٢٩٧ م استطاع هذا أن يفرض على الملك الجديد روبرت بروس الاعتراف بسيادته . ولكن هذا الأخير دشن سياسة تحالف مع فرنسا ، وأجبر الملك الإنكليزي على الكفاح مراراً عديدة على جبهتين . وأخيراً ، في ١٣١٤ م ، سحق روبرت بروس إدوارد الثاني في بانوكورن . وحافظت إيكوسيا على استقلالها .

وبالمقابل ، دخلت بلاد الغال في جسم المملكة : ففي ١٢٦٧ م اعترف الملك الغالوي ليويلين بسيادة هنري الثالث ؛ وبعد عدة حملات أجبره إدوارد الأول على الخضوع تماماً ، بموجب معاهدة كونوي (١٢٧٧ م) ، وعندما توفي ليويلين جعل إدوارد من ابنه أول أمير لبلاد الغال . وفقدت البلاد استقلالها نهائياً . وبنيت

شبكة حصون ساعدت على تأمين السيطرة الإنكليزية ، فيما كان رئيس الأساقفة جون بيكام يعمل على أنكلزة الأكليروس والمؤمنين . ولم تكن نتائج هذه العمليات العسكرية كلها مرضية ، ولكن الجيش الإنكليزي المشكل والمدرب على حرب الجبل ضد الأنصار الإيكوسيين والغالويين ، تبنى أسلحة جديدة ، أسلحة خصومه ، وبخاصة القوس الغالوية الكبرى . وشارك جيش المشاة في الكونتيات والقرى مشاركة هامة في هذه الحملات ، إلى جانب جيش الفرسان النبيل .

وكانت إنكلترا تتصرف بقدرة عسكرية قوية وحديثة في عصر كان فيه الجيش الفرنسي الوفي لتقاليد الفروسية قد سحق في كورتريه ، دون أن يأخذ منها درساً ، بجيش العمال الفلاماندييين . وبالخروج من الأزمات السياسية ، تصلبت الوحدة القومية في إنكلترا بمشاركة جميع طبقات المجتمع في الحياة السياسية والعسكرية ، بينما كانت الملكية في فرنسا هدفاً لرد فعل الطبقة النبيلة ومترددة في الاعتماد بوضوح على دعم البورجوازية . وكانت هذه بالنسبة لإنكلترا حظوظاً رصينة في الوقت الذي يخاطر فيه نزاع سلالي يجرها إلى نزاع جديد مع فرنسا .

الفصل الرابع

ألمانيا وإيطاليا

توطيد الملكيات

لقد ولد تقسيم إمبراطورية شارلومان في (٨٤٣ م) المملكة الجرمانية . وفي النصف الثاني من القرن العاشر ، استطاع أوتون الأول وأخلافه القضاء على الفوضى الإقطاعية ، برد الأدواق والكونتات ، والأساقفة ، والآباء إلى دور عمال السلطة العامة . وبدفع التهديد الذي يثقل به السلافيون والهونغاريون على الحدود الشرقية لجرمانيا ، حقق العواهل الأوتونيون فتح مملكة إيطاليا التي ارتبط مصيرها بمصير ألمانيا لعدة قرون ، وبسطوا سيطرتهم على مملكة بورغونيا .

وبعد أن تزين ملوك جرمانيا باللقب الإمبراطوري منذ تتويج أوتون الأول في ٩٦٢ م ، ترأسوا منذ ذلك الحين مقدرات مجموعة أراضٍ واسعة أطلق عليها في القرن الحادي عشر اسم الإمبراطورية الرومانية .

وشغل الأباطرة الفرنكونيون (السلالة السالية ، ١٠٢٤ ـ ١١٢٥ م) وأباطرة عائلة آل هوهنشتاوفن (١١٣٨ ـ ١٢٥٤ م) أنفسهم بنزاع طويل ضد البابوية في خصومة التقليد العلماني والكنسي ؛ ونزاع الكهنوت والإمبراطورية . وإذا لم يستطع الكرسي ـ الأقدس تأمين السيطرة العالمية ، رهان الخلاف ، فإن الأباطرة نهلوا منها أفضل القوى : لقد أدخلتهم سياستهم أكثر فأكثر في إيطاليا التي لبس فيها فريديريك الثاني تاج مملكة صقلية . وفي ألمانيا ظل العواهل بمعزل عن

حركة التوسع الكبرى نحو الشرق ويتولون سلطتهم دوماً بالانتخاب ، ولذلك كانوا مضطرين للقيام أكثر فأكثر بتنازلات للأمراء ، وأخذت سلطتهم تتضاءل وتصغر .

وبعد موت فريديريك الثاني قهر الآنجفيون أعقابهم في إيطاليا واستولوا على مملكة نابولي بدعم من البابا ؛ وعرفت السلطة الملكية في ألمانيا خسوفاً تاماً من ١٢٥٤ م إلى ١٢٧٣ م (فترة خلو كرسي الملك الكبرى) فترة كانت فيها الدولة (دون رئيس) . وفي سياق القرنين الأخيرين من العصر الوسيط ، فصلت شبه الجزيرة الإيطالية التي لم يقم فيها العواهل الألمان إلا بحملات نادرة ، والكانتونات السويسرية ، مصيرها عن مصير ألمانيا . وتجزأت هذه الأخيرة إلى إمارات متعددة واتجهت لتصبح نوعاً من اتحاد (كونفودراسيون) ليس للإمبراطور فيه إلا الرئاسة .

ومع ذلك فإن التجميع الأرضي الذي قام به بيت آل هابسبورغ قد هيأ نهضة السلطة الإمبراطورية .

وعلى نقيض ماجرى في ألمانيا ، نجد أن العواهل ، في فرنسا كما في إنكلترا ، استطاعوا بفضل جهودهم الصابرة ، أن يوطدوا سلطتهم على دول قدرتها متواضعة ، ولكنها متجانسة متلاحمة . أما في أوربة الوسطى فقد نحا التطور السياسي منحى مختلفاً جداً ؛ فبين ١١٥٠ م تقريباً ومنتصف القرن التالي ، ظل الأباطرة الألمان يتابعون بنجاح الحلم القديم في الهيمنة العالمية . وبألقاب مختلفة ، بسطوا سيطرتهم على مجموعة بلاد تمتد من سواحل البالطيك إلى شواطئ صقلية ، ومن سفوح تلال بورغونيا إلى سهول پوميرانيا . وانطلاقاً من منتصف القرن الثالث عشر تفتتت عناصر هذه القوة ، ووصل بها مسار التفتيت إلى كل من ألمانيا وإيطاليا اللتين أصبحتا منذ الآن فصاعداً مؤهلتين للتفتيت .

أ ـ آل شتاوفن وآخر بريق للسلطة الامبراطورية
(١١٣٧ ـ ١٢٥٠ م)

عندما انطفأت في ١١٢٥ م السلالة السالية ، استأنف المبدأ الانتخابي حقوقه في ألمانيا ؛ ووقع اختيار الناخبين تباعاً على دوق ساكس الذي حكم تحت اسم لوتير الثالث (١١٢٥ ـ ١١٣٧ م) ، ثم على ممثل لأسرة منافسة ، كونراد شتاوفن الذي أصبح كونراد الثالث (١١٣٨ ـ ١١٥٢ م) . وكان حكم هذين العاهلين مطبوعاً بأزمة خطيرة للسلطة الملكية . ولكن كونراد الثالث استطاع أن يؤسس سلالة ظلت متماسكة أكثر من قرن على العرش مع فريديريك الأول بارباروسا (١١٥٢ ـ ١١٩٠ م) ، هنري السادس (١١٩٠ ـ ١١٩٧ م) ، وفريديريك الثاني (١٢١٥ ـ ١٢٥٠ م) . وأعاد آل شتاوفن للمنصب الإمبراطوري كامل وجاهته ونفوذه . وولدت سياستهم الطموحة نزاعاً جديداً مع البابوية . وبضرورة وعن ذوق ، تدخل الأباطرة الجدد أكثر فأكثر في إيطاليا ؛ وانطلاقاً من هنري السادس ، جمعوا بين منصب ملك صقلية ومنصب ملك الرومانيين . وفي نطاق هذه السياسة ، لم يكن لألمانيا إلا مكان ثانوي ؛ ومع ذلك فقد تحولت البلاد ؛ وتلاحقت حركة توسع قوية نحو الشرق ، ولكن دون أن تشارك فيها الملكية بأي نصيب . ولذا ربحت الطبقة النبيلة الجرمانية من غياب العواهل ، ومن صعوباتهم الإيطالية ، لتحرر نفسها : ولغم هذا التطور الخطير قليلاً قليلاً صلابة البناء الإمبراطوري .

١ ـ نزاع الكهنوت والإمبراطورية وسياسة آل شتاوفن الإيطالية

بعد وفاة هنري الخامس (١١٢٥ م) ، لعبت البابوية بالوصف المبهم لبعض بنود كونكوردات ڤورمس ، وحاولت وضع الأباطرة تحت الوصاية . وكل

محاولة لإرجاع السلطة الملكية كانت تثير حتماً نزاعاً جديداً مع روما . وهذا (النزاع بين الكهنوت والامبراطورية) كما سمّاه بعض المؤرخين امتد بحظوظ مختلفة للدافعين له خلال قرن ؛ ولم يكن الرهان فقط مسألة تقليد الأساقفة لوظائفهم فحسب ، حتى ولو ذكر هذا الغرض أيضاً . لأن القضية الحقيقية هي معرفة إلى من يجب أن تعود السيطرة العالمية ، إلى الإمبراطور أو إلى البابا ؟

الفوز الإمبراطوري : فريديريك باربارس وهنري السادس

بالرغم من كونكوردات فورمس ، ظل الخلاف عتيداً . وأول مرحلة للخلاف سيطر عليها شخص فريديريك باربارس ومحاولاته لغرض انتصار السلطة الإمبراطورية . وفي عهده انفجر النزاع الجديد مع البابوية ، بعد أقل من ثلاثين عاماً على توقيع كونكوردات فورمس . إن اتفاق ١١٢٢ م كان أبعد من أن يسوي بوضوح كل المشاكل . كما أن بعض المواد الغامضة أو غير الدقيقة تركت هامشاً كبيراً جداً للتفسيرات ؛ وهكذا فإن تقليد الأسقف يجب أن يتم قبل التكريس . فهل هذا يعني أن الملك يستطيع أن يستعمله كنوع من حق الرفض (الفيتو) ؟ إن شكل الكونكوردات يبدي صعوبات ، فقد وجد نصان مستقلان تماماً أحدهما عن الآخر . في أحدهما ، كان هنري الخامس يعدد الامتيازات التي خولها لكنيسة القديس بطرس ، بصفة دائمة ؛ وبالعكس ، إن الفوائد التي تخلى عنها البابا كاليكست كانت ممنوحة إلى ابنه الحبيب هنري ، بشكل امتياز شخصي وقابل للإلغاء دوماً . وكل هذه الملابسات التي استعملتها البابوية أولاً ، ثم فريديريك الأول ، الذي رغب في إرجاع السلطة الملكية ، كانت في أصل النزاع الجديد .

لقد اتفق موت هنري الخامس ، في الواقع ، مع ضعف السلطة الملكية التي أفاد منها الأحبار الرومانيون . وانتخاب خلف هنري الخامس ، الإمبراطور لوثير

الثالث (١١٢٥ ـ ١١٣٨ م) كان من صنع الحزب الحبري ، وفي الواقع ، إن ابني أخ الإمبراطور الراحل ، فريديريك وكونراد هوهنشتاوفن ، اللذين كانا نصيرين مؤمنين للأباطرة الساليين ، قد أبعدا لصالح الكونت لوثير دو ذويلنبورغ الذي كان على رأس ثورة ضد هنري الخامس . وكان لوثير الثالث مخلصاً تماماً للكنيسة ، كما يبرهن على ذلك أحد أعماله الأولى : فقد أعلم البابا بارتقائه عرش جرمانيا ، والتمس من الحبر الأعظم الموافقة على انتخابه . وكان الحزب الحبري ما يزال بعد يدعم ، بتغيير غير منتظر ، ترشيح كونراد شتاوفن في ١١٣٨ م ، وجعل منه كونراد الثالث (١١٣٨ ـ ١١٥٢ م) . وقد وضع العاهلان قواهما لخدمة البابوية : أطلق لوثير حملتين إلى إيطاليا ، لا لتنتصر حقوقه ، وإنما لتأمين فوز إينوسان الثاني على عدو البابا آناكليت الثاني ؛ أما كونراد الثالث فقد قاد جنوده الألمانية وشاركت في الأرض المقدسة بالحرب الصليبية الثانية . وفي ألمانيا بقي الإمبراطوران أيضاً متساويين وتماماً بعيدين عن الانتخابات الأسقفية ، حتى أن لوثير أعفى الأساقفة من تقديم الاحترام والولاء أثناء التقليد . وهذا الامتناع الملكي استخدمته بصورة طبيعية البابوية التي حاولت آنئذٍ أن تلحق بها الكنيسة الألمانية ، بتطبيق نظرياتها في التفوق المطلق للحبر الروماني على الكنيسة . وهكذا أرسل البابا في الغالب مفوضين إلى ألمانيا لمراقبة انتخاب الأساقفة ، والفصل في حال منازعة ، وتعليق أو خلع الأحبار . وبدأ الأساقفة الألمان ، من جهتهم ، يلتمسون من البابا تأكيد وتثبيت انتخابهم .

ظفر بارباروسا أولاً

انتخب فريديريك الأول بارباروسا في ١١٥٢ م ، واهتم في إرجاع السلطة الملكية في ألمانيا وفي إيطاليا ، وحاول أن ينهي تجاوزات البابوية . ففي عهد أسلافه ، كان تعيين الأساقفة الألمان قد تخلص تماماً من العاهل ؛ وأخطر من ذلك

أنهم ظلوا يشاركون في حكم المملكة . ولم يكتف فريديريك بالحفاظ بشدة جداً على التقليد قبل التكريس . فقد كان يحضر الانتخابات التي لا يساهم فيها الأكليركيون وحدهم بل أيضاً العلمانيون ، بالرغم من الحملة الخاصة ضدهم أثناء انعقاد مجمع لاتران (١١٣٩ م) . وفي حال انتخاب يحتمل الجدل والنزاع يأمر بإعادة عملية الانتخاب ؛ ويبعد في الغالب المتنافسين ليفرض مرشحه . وهذه الحريات التي اتخذها فريديريك حيال نص كونكوردات ڤورمس أوشكت أن تؤدي إلى خلاف مع البابوية منذ بداية الحكم . ولكن البابا أوجين الثالث كان آنذاك في حالة عسيرة جداً ، وهدفاً لتمرد الشعب الروماني الذي حصل في ١١٤٣ م ، في مدينة روما تحت إدارة آرنود دوبرشيا ، وللتهديد الذي كان يثقل على دوله طموح الملكية الصقلية ـ النورماندية ، مما اضطر الحبر الأعظم إلى التماس مساعدة فريديريك الذي استولى أثناء الحملة الإيطالية (١١٥٤ ـ ١١٥٥ م) على آرنود دوبرشيا وسلمه إلى والي المدينة ليأمر بإعدامه . ومقابل ذلك ، قام أوجين الثالث بالتتويج الإمبراطوري . ولكن خلفه ، هادريان الرابع ، قطع علاقته مع سياسة التخلي هذه ، وقرر أن يعتمد على المملكة النورماندية في صقلية وعاود لحسابه النظريات الغريغورية التي تؤكد تفوق السلطة الروحية على السلطة الزمنية . وبدأ كفاح طويل بين دولتين تريد كل منهما أن تكون عالمية (كونية) : البابوية التي أصبحت ، منذ نزاع التقليد الكنسي والعلماني ، السلطة المعنوية المتفوقة في السلطة والنفوذ على المسيحية . وفي ألمانيا ، في أوساط البلاط الإمبراطوري ، أعادت النهضة الفكرية وتجديد الحقوق الرومانية شرف فكرة إمبراطورية عالمية تدوم حتى آخر الأزمنة . وفي هذا المنظور تمت إمبراطورية آل شتاوفن إمبراطورية شارلومان ، ومن ثم إمبراطورية الرومان . وظهرت المسألة منذ حكم فريديريك الأول كا برهن على ذلك إعلان تقديس شارلومان (١١٦٥ م) الذي رقي إلى صف قديس حامٍ

للإمبراطورية ، والأدب المعاصر الذي بدا فيه فريديريك سيد الكون القادر على إعطاء أوامر إلى « ملوك الأقاليم » . وكان بارباروسا نفسه يشعر بأنه كان خلف الأباطرة الرومانيين . وعند وصوله إلى روما استقبله ممثلو المدينة بخطاب ملؤه الزهو والإعجاب .

وهذان المفهومان للسلطة العليا اصطدما للمرة الأولى عندما صرح البابا هادريان الرابع بأن الإمبراطور قد تناول من الكرسي ـ الأقدس « فضلاً » وهذا يعني في لغة العصر ، الإقطاعة . وأجاب فريديريك الأول مؤكداً بأنه تسلم الإمبراطورية من الله وحده عندما انتخبه الأمراء (١١٥٧ م) .

وفي الوقت الذي يدفع فيه فريديريك الأول على هذا النحو الادعاءات الحبرية ، كان يحاول أن يوطد السلطة الملكية في إيطاليا الشمالية . فكيف كانت الحالة فيها في منتصف القرن الثاني عشر ؟ لقد بدأت حركة المدن القوية التي تشجعت بالفراغ الإمبراطوري في زمن لوثير الثالث وكونراد الثالث . فمن ذلك ، أن المدن ، عواصم الكونتيات أو الأسقفيات تشكلت في قومونات واحتكرت قليلاً قليلاً الحقوق الملكية ، بما فيها القضاء الجنائي على حساب الملك أو ممثليه من كونتات وأساقفة . وهذه القومونات المدنية،التي امتدت سلطتها بسرعة إلى ضاحية المدينة ، ثم على مجموع الكونتية (الكونتادو) حيث خضع الأمراء والمدن الصغيرة ، قد أصبحت كذلك دولاً صغيرة ولها هيئات حكم خاصة : مجمع القناصل ويمسك بالسلطة التنفيذية ؛ ويساعده على العموم مجلسان يتمتعان بالسلطة التشريعية . ومجلس الشعب العام ويمكنه أيضاً أن ينعقد ، ولكن سلطاته قليلة محجمة ؛ لأن فتوحات الحركة القومونية قد صادرتها في الحال الأرستقراطية المدنية . وفريديريك الأول ، منذ بداية حكمه أخذ على نفسه أن يخضع من جديد مدن شمال إيطاليا ويجبرها على إعادة الحقوق الملكية المغتصبة . كان الصراع قاسياً وخاصة ضد ميلانو لأن قوتها كانت أعظم من قوة غيرها . فقد أرسل إليها

الإمبراطور مفوضين إمبراطوريين مهمتهم أن يقيموا إلى جانب القناصل ، قاضياً إمبراطورياً . وللمرة الأولى في ١١٥٨ م أعلنت المدينة خضوعها ، ولكن ، من بعد ، تفجرت ثورةٌ ، وتطلب استسلامها سنتي حصار . وبأمر من الإمبراطور اعتصبت ضدها مدنٌ أخرى في شمال إيطاليا وقوضت تماماً (١١٦٢ م) .

انتصرت السلطة الإمبراطورية ، وأعيد إلى جميع المدن الموظفون الإمبراطوريون . ولكن فريديريك الأول لم يتخل عن أهدافه الإمبراطورية في إيطاليا الجنوبية ، حتى أنه فكر بفتح المملكة النورماندية . غير أن تقارب الملكية النورماندية والكرسي الأقدس في الوقت الذي عاد النزاع من جديد بين البابا والإمبراطورية ، حوله عن مشاريعه .

اضطرار بارباروسا للذهاب إلى كانوسا

لم يكتف فريديريك باستقلاله عن البابوية ، وظن أنه يستطيع أن يضع هذه الأخيرة تحت الوصاية كما فعل العواهل الألمان في القرن الحادي عشر ، وهذه المزاعم المفرطة ستغير معسكر النصر .

في ١١٥٩ م ، وفي روما ، أدت انقسامات هيئة الكرادلة والنزاع بين أشياع الطبقة النبيلة الرومانية إلى انتخاب حبري مضاعف .

اعترف الإمبراطور بأحد البابوين ، وهو فيكتور الرابع الذي قبل أن يمثل أمام مجمع انعقد بناء على أمره . ولكن المنتخب الآخر وهو ألكسندر الثالث ، كانت معه أغلبية المسيحية ، وحرم فريديريك الأول وفيكتور الرابع . ولم يستطع هذا الأخير ، ومثله خلفه أن يبسط طاعته إلا على الإمبراطورية . أما ألكسندر الثالث ، بالعكس ، فقد وجد دعماً لدى الملك النورماندي في صقلية وبخاصة كسب التحالف الفعلي من مدن شمال إيطاليا . وقد عوملت هذه المدن

بقساوة ، وخضعت لإداريين ألمان دنقين متنطسين . فاهتبلت الفرصة لاسترداد استقلالها ، وشكلت مدن لومبارديا وثغر فيرون حول ميلانو عصبة قوية « العصبة اللومباردية » (١١٦٧ م) . وتعهد قناصل المدن على اليمين بالبقاء متحدين في الصراع .

وشيدت مدينة محصنة بسرعة عظيمة لإيقاف الجيوش الإمبراطورية المنحدرة من أعلى وادي سوز ، وعلى شرف البابا سميت هذه المدينة ألكسندريه (١١٦٨ م) . وفي لينيانو ، هزم الجيش الإمبراطوري هزيمة خطيرة (١١٦٧ م) . وعندئذ اضطر باربروسا إلى الانطواء على سياسة أقل تشدداً ؛ فقد اعترف بألكسندر الثالث ، كما في السابق فعل هنري الرابع في كانوسا ، واضطر إلى خفض جناحيه في البندقية أمام البابا ، وخرَّ ضارعاً إلى قدميه على فناء كنيسة القديس ـ مارك وساعد الحبر الأعظم على امتطاء صهوة الجواد ممسكاً بركابه . وأخيراً ، وفي **معاهدة كونستانس** (١١٨٣ م) اضطر فريديريك الأول إلى التنازل عن الحقوق الملكية في مدن إيطاليا الشمالية . وحافظ فقط على الامتياز الذي يخوله تقليد القناصل .

غير أن فريديريك باربروسا لم يتخل عن فكرة الأخذ بالثأر ؛ ففي آخر حكمه تصالح مع المدن اللومباردية وباشر بمناورة تطويق حول الدول الحبرية . وزوج ابنه بعمة ووارثة ملك صقلية ، الأميرة كونستانس (١١٨٦ م) . وكان البابا كليمان الثالث بحاجة إلى طلب تعاون الإمبراطور في الوقت الذي استرد فيه المسلمون القدس ، الأمر الذي دعا إلى ضرورة القيام بحرب صليبية ثالثة . ولذلك خول لقب (إمبراطور الرومانيين المنتخب) إلى ابن فريديريك ، هنري . وتوفي باربروسا على هذا النحو في عز مجده في الحرب الصليبية (حزيران ١١٩٠ م) . ونمت في الحال أسطورة في ألمانيا تؤكد على أن الإمبراطور لم يمت ، وأنه ينام في كهف وسيستيقظ ذات يوم ويعيد إلى بلده عظمته القديمة .

حلم هنري السادس الإمبراطوري

لقد كانت مشاريع الإمبراطور الشاب هنري السادس أيضاً أعظم من مشاريع أبيه . وبتطبيق هذا المبدأ ، حاول ، في المقام الأول ، أن يلحق بالإمبراطورية الدول الأوربية الأخرى : ملك إنكلترا ، ريتشارد قلب الأسد ، الذي عاد من الحرب الصليبية وسقط بين يديه ، ولاستعادة حريته ، قبل بأن يقسم له بتبعية مملكة إنكلترا . وعندما توفي ملك صقلية ، غليوم الثاني ، دون ولد في ١١٨٩ م ، ورث هنري السادس مملكته بواسطة زوجته الإمبراطورة كونستانس . وفي إيطاليا الشمالية كانت الحالة ملائمة لتدخل الإمبراطور ؛ فقد ضعفت المدن بالخلافات الداخلية ، وأصبحت متنافسة في جهدها لإخضاع الكونتادو . وهكذا انقسمت العصبة اللومباردية إلى فريقين متخاصمين : أحدهما حول ميلانو ، والآخر حول كريمون . وأفاد هنري السادس بمهارة من هذه الخلافات ونجح في توطيد جزء من السيطرة الملكية . وأخيراً استطاع هنري السادس أن يهدد سلطة البابا في داخل أرضه . ومرة أخرى كان الحبر الأعظم في صعوبة مع قومون روما . فأفاد من ذلك هنري السادس للتدخل في إيطاليا الوسطى . إن ثغر أنكونة ، ودوقية سبوليت والرومانيو ، التي اعترفت بحقوق البابوية عليها دبلومات إمبراطورية عديدة ، قد ضمت عملياً إلى مملكة إيطاليا . وهكذا تأمن الارتباط بين هذه المملكة ومملكة صقلية . وطوقت الدولة الحبرية تماماً بأراضٍ تعود بشكل أو بآخر إلى الإمبراطور ، وحجمت إلى إقليمين : لاتوشيا الرومانية ، وكامبانيا البحرية اللتين اقتصرتا على اسم (تراث القديس ـ بطرس) لأنها لم تفلتا من سلطة البابا منذ عهد شارلومان . وإذا وضعت هذه المنطقة جانباً ، فإن السيطرة الإمبراطورية امتدت إذن على إيطاليا كلها . وقد اتفقت تطلعات الإمبراطور العظيمة في البحر المتوسط مع نبوءة سرت آنذاك ، ومفادها

أن إمبراطوراً ألمانياً سيضم الشرق إلى الغرب . وعندما أخذ هنري السادس تاج الملوك النورمانديين ، ورث من حقوق سيادتهم على الأمراء الموحدين في إفريقية الشمالية ومشاريعهم في فتح الإمبراطورية البيزنطية . واهتم الإمبراطور بتعزيز حقوقه بتزويج أخيه أميرة بيزنطية . وأخيراً نظم حملة صليبية ألمانية لمحاولة استرداد الأرض المقدسة حيث كان يأمل بفرض سيادته على الممالك المسيحية . ولكن لم يكن لهنري الوقت لتحقيق حلمه . ومات بعد بضعة أيام على ذهاب الصليبيين الألمان إلى المشرق العربي (١١٩٧ م) .

إينوسان الثالث وفريديريك الثاني

إينوسان الثالث والتيؤقراطية (المشيئية) الظافرة

كان على ابن هنري السادس ، فريديريك روجر ، كما يدل على ذلك اسمه المزدوج ، أن يجمع سلطتين في شخصه ؛ فبالحق الوراثي كان ملك صقلية ؛ وقد انتخبه الأمراء الألمان ملك الرومانيين . ولكن ، في ١١٩٧ م ، كانت سنّ فريديريك روجر أربعة أعوام . ورأت أمه ، الإمبراطورة كونستانس ، أن من الحكمة ألا يدعي بحقوقه في الإمبراطورية . وقدم غياب السلطة الإمبراطورية للبابا الجديد إينوسان الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦ م) ، الرجل الواسع الذكاء والإرادة ، الفرصة لتحقيق النظريات التيؤقراطية الحبرية ، وأصبح في حبريته زعيم الكنيسة والمسيحية القدير القادر . وأفاد من سلطته الروحية لإطلاق الفرسان المسيحيين في مغامرة الحرب الصليبية الرابعة وتوطيد سلطته على العواهل الزمنيين . وإن الذين يجرؤون على مقاومته يحرمون مثل فيليب أوغست وجان دون أرض . وفرض سيادته على ملك آراغونة وملك قشتالة ، وملوك البرتغال وهونغاريا وملك إنكلترا الذي عاد وحسنت عواطفه .

ولكن في إيطاليا نفسها ، أرض الحكمة الإلهية في نظره ، وفي ألمانيا البلاد التي كانت فيها حقوق السيادة الحبرية مثاراً للنزاع والجدل ، انتصرت التيؤقراطية بشكل أفضل مما في غيرها . وفي شبه الجزيرة الإيطالية استرجع الحبر الأعظم سلطته بسهولة : ففي ١٢٠٥ نجح في فرضه على القومون الرومانية قبول دستور يؤمن للبابا تسمية الشيخ ، عامل القومون التنفيذي ، وجاب العمال الحبريون دوقية سپوليت وثغر إنكونه وفرضوا فيها ، دون كبير صعوبة ، سلطة الكرسي الأقدس . وهكذا استعادت الدولة الحبرية قوتها وامتدت من الأدرياتيك إلى البحر التيراني ، قاطعة مملكة إيطاليا من مملكة صقلية . وفي هذه المنطقة الأخيرة ، مارس إينوسان الثالث نوعاً من وصاية منذ أن عهدت إليه الإمبراطورة كونستانس قبل موتها في (١١٩٨ م) الوصاية على ابنها . وفي ألمانيا أخيراً ، نصب البابا نفسه حكماً .

وفي ١١٩٨ م انتخب إمبراطوران متنافسان ، فيليب دوسؤاب أخ الإمبراطور الراحل ، وأوتون برنسڤيك . وكانت هذه أول فرصة لتدخل إينوسان الثالث . ففي ١٢٠١ حكم لصالح أوتون الذي طلب من البابا تثبيت وتأكيد انتخابه ، وتعهد بتأمين كامل الحرية للانتخابات الأسقفية في ألمانيا . غير أن موت فيليب دوسؤاب الطارئ (١٢٠٨ م) أنهى بشكلٍ مرضٍ جداً للبابوية في هذه (الحيدة) الملكية الأولى . ولكن أوتون ، منذ أن تخلص من منافسه ، ادعى بحقوقه الملكية في إيطالية الشمالية والوسطى ، وانطلق في فتح مملكة صقلية (١٢٠٩ م) . عندئذ قلب إينوسان الثالث سياسته ، وبعد أن حرم أوتون ، شجع انتخاب فريديريك روجر ملكاً للرومانيين ، فأثار بذلك حيدة ملكية ثانية . والمنتخب الجديد فريديريك الثاني وحّد مصالحه مع العاهل الكابسي ، فيليب أوغست . وأمن الفوز الذي أحرزه في بوڤين ، في ١٤ تموز ١٢١٤ م ، ملك فرنسا على جيش أوتون ، نجاح فريديريك الثاني . وأنهى موت أوتون في ١٢١٨ م تقوية سلطته . ومرة أخرى

انتصرت السياسة الحبرية : فقد بدا أن فريديريك خضع تماماً لإرادة وصيه ؛ وتعهد بأن يترك كامل الحرية للكنيسة الألمانية .

وضاعف إينوسان الثالث الاحتياطات : فلكسر تطويق الدول الحبرية ، كان قد طلب من مرشحه قطع كل اتحاد شخصي بين مملكة صقلية والإمبراطورية الرومانية : ففي شباط ١٢١٢ م ، توج الابن الفتى لفريديريك ، هنري الصغير ، الذي كان عمره عاماً واحداً آنذاك ، ملكاً على صقلية ، وبعد انتخاب فريديريك الثاني للإمبراطورية وتتويجه تعهد بتحرير ابنه الشاب والتخلي له عن منصب ملك صقلية .

فريديريك الثاني عاهل فريد

ولكن مهارة إينوسان الثالث بذلت عبثاً ، لأن فريديريك الثاني لم يكن ابناً طيّعاً . لقد كان بمولده ، وتربيته وذوقه أميراً إيطالياً . وألمانيا ، التي يجهل لغتها ، لا تحتل إلا مكاناً ثانوياً في اهتماماته . وبالعكس ، كانت مملكة صقلية في نظره المقوم الأساسي لسلطته . ولم يكن التخلي عنها موضع تساؤل . ومن جهة أخرى ، إن الإمبراطور الجديد ، الأمين في ذلك على تقاليد آل شتاوفن ، أراد أن يرجع السلطة الملكية في جميع دوله . ولا سيا في إيطاليا ، ومملكة صقلية ، التي مهرها العواهل النورمانديون بهيئات ملكية مركزية ، استردت بسهولة . ففي ١٢٢٥ م ، خضع البارونات الصقليون الثائرون وساد السلام في صقلية . وقبيل عام أحدث فريديريك الثاني جامعة (١١٢٤ م) مخصصة لتكوين موظفين لخدمته . وأخيراً أمن سلطته بموجب دساتير ملفي (١٢٣١ م) التي أعلنت العقوبة بالموت ضد كل من تسول له نفسه القيام علناً بالحرب في المملكة . وكان يجب أيضاً توطيد النفوذ الإمبراطوري على إيطاليا الوسطى والشمالية لتأمين الارتباط بين الملكية الجرمانية وصقلية . ولخدمة هذا البرنامج الواسع بذل

الإمبراطور الجديد ذكاءً استثنائياً وطبعاً خارجاً عن المألوف . ومع ذلك فمظهره الخارجي على ما يبدو تنقصه (الجلالة) ، وكتب مؤرخ عربي : « كان أشقر الشعر ، أصلع وقصير النظر ، ولو كان عبداً ، لما كان يسوى مئتي درهم » .

وتحت مظاهره الخارجية القليلة الجاذبية ، كان يختفي سياسي عظيم ، فقد كان قادراً على تأكيد وتثبيت سلطته بجد وزهو ، كما كان يعرف اللجوء أيضاً إلى الخداع عندما يكون القدر معاكساً له .

وكان بصورة طبيعية (نبيلاً وكريماً) ، ومديناً لشبابه المنعزل بمزاج حذر وريبي . وفوق ذلك ، كان كل شيء فيه يبرق بالذكاء . ومع ذلك كانت تربية اليتيم الصغير مهملة كثيراً . لقد اكتسب فريديريك بنفسه ، بفضل تطلعه العام ، والبيئة الصقلية التي امتزجت فيها تيارات الحضارة اللاتينية والإغريقية والعربية ، هذه الثقافة الواسعة جداً التي صنعت منه رجلاً فريداً في عصره « كان يعرف اللاتينية ، لغتنا الشعبية ، (هذا ماقاله فلورانسي) والفرنسية ، والإغريقية ، والعربية » .

كان فيلسوفا يعرف تماماً مذهب أرسطو تحت الشكل الذي أعطاه له ابن رشد ؛ ورجل علم ، يهتم خاصة بالرياضيات ، والطب ، والعلوم الطبيعية ، وكتب مطولاً في فن الصيد والقنص ، نجد فيه ملاحظاته الشخصية على الطيور . وشاعراً ، جمع في بلاطه في بالرمو عدة كتاب . وأصبح هذا البلاط مركزاً لمدرسة شعرية صقلية نقلت إلى الإيطالية موضات ومفاهيم الشعر البروڤانسي ، وغاوية فن ، أمر بتشييد عدة قصور ، وزين التماثيل على الطراز القديم . وهكذا ظهر طليعة للأمراء الإيطاليين في عصر النهضة ، هذا فضلاً عن أن ثقافته أنمت في نفسه صفتين : الفكر النقدي والتسامح . ولا يتردد في الواقع في مطوله في الصيد والقنص أن يدحض سلطة أرسطو القوية باسم العقل والتجربة .

ومن جهة أخرى ، « كان يحب المسلمين ، فقد تربى في جزيرة صقلية التي كان أكثر سكانها مسلمين » ، ولا عجب في أن مثل هذا العقل المفكر قد أيقظ قلق معاصريه ولا سيا قلق الأكليركيين . فقد اتهم باللأخلاقية والكفر . ولم يوجد إلا خطوة اجتيزت بسرعةٍ من قبل خصومه عندما ساقتهم الظروف السياسية للدخول في نزاع ضد البابوية .

وفي تسامحه مع المسلمين ، لا تكفي بعض العبارات التي انتزعها الغضب ، لأن تجعل من فريديريك الثاني كافراً (جاحداً) . إن النضال الذي قام به ضدّ البابوية يرجع كنضال أسلافه ، إلى اهتمامات سياسية .

عودة النزاع

بعد أربع سنوات على وفاة إينوسان الثالث ، نجح فريديريك الثاني في تحويل التزاماته . ولم يقطع نفسه وعده ؛ ولكنه لعب من واقع أن ابنه لم يكن ملزماً بأي يمين . وفي نيسان ١٢٢٠ م حصل من الأمراء على انتخاب هذا الابن ملكاً على الرومانيين تحت اسم **هنري السابع** . وتحقق من جديد الاتحاد السلالي لصالح طفل لم يكن بالنسبة لسلطة فريديريك إلا اسماً مستعاراً . واستسلم البابا الضعيف **هونوريوس الثالث** للمديح والتملق والملاطفة باحتجاجات براءة فريديريك الذي ادعى بأن الأمراء عملوا دون علمه وقبل بتتويج هنري السابع . وفي الواقع ، لم يكن في رأس الحبر إلا فكرة واحدة وهي ، تنظيم حملة صليبية جديدة ، ولتشكيلها كان مستعداً للكثير من التنازلات . وفريديريك الثاني شارك في الحملة الصليبية أثناء تتويجه في اكس في ١٢١٥ م ، ووعد ، بعد أن طلب مهلة بأن يذهب ويكافح الكافرين . وبالعكس إن خلف هونوريوس ، **غريغوار التاسع** ، كان مصماً قبل كل شيء على النضال ضد سلطة فريديريك ، وعاد وكرر ، في رسالته إلى الإمبراطور ، مؤكداً تفوق السلطة الروحية .

وأخيراً تعهد الإمبراطور ، تحت طائلة الحرمان ، بأن يـذهب في ١٢٢٧ م . وطوال صيف تلك السنة ، في برند حيث احتشـد جيش الصليبيين ، انتشر وبـاء عنيف ؛ وأصيب فريـديريـك نفسـه وحرم من قسم كبير من جنـوده . وقرر أن يعيد تجهيز الحملة في السنة التالية . ولم يأخذ غريغوار التاسع بعين الاعتبار حـالـة هذه القوة القاهرة ، وحرم فريديريك ، وكان هذا مهتماً بالبرهان عن حسن نيتـه فـأبحر إلى عكا في صيف ١٢٢٨ م . ونظراً لكـونـه صليبيـاً محرومـاً ، كان تحت تصرفه عدد قليل من الجنود ، وعوضاً عن الحرب ، فاوض بمهـارة . وقع مع الملـك الكامل معاهدة صلح اعترفت للمسيحيين بامتلاك القدس والأمـاكن المقـدسـة التي كانت الحرب الصليبيـة غير قـادرة على استردادهـا . ومـع ذلـك ، أفـاد غريغـوار التاسع من غياب فريديريك وباشر بـالاستيلاء على مملكـة صقليـة . ولكن عملـه كان تعباً ضائعاً ، لأن الامبراطور لدى عودتـه استردهـا وحصل بموجب معـاهـدة سان جرمانو (١٢٣٠ م) على رفع الحرمان .

أما قضية نظام المدن اللومباردية فقد ولدت من جديـد الخلاف انطلاقـاً من ١٢٣٧ م . كما تألفت ثانية العصبة اللومباردية منذ بداية حكم فريديريك الثـاني . وفي تشرين الثـــاني ١٢٣٧ م ، أحرز الإمبراطــور نصراً على العصبــــة في كورتونووڤا ، في جنوب برغام . وللاحتفال بنصره في روما على شاكلـة الأبـاطرة القدماء ، أرسل إلى الرومانيين غنائم تصحبها رسالة بهذا الشأن .

ثم قام فريديريك الثاني بإخضاع شمال إيطاليـا كلهـا إلى السلطـة الملكيـة . وبعـد بضعـة أشهر (١٢٣٨ م) خول أحـد أبنـائـه غير الشرعيين ، أنزيو ، اللقب الملكي وساردينيا التي كان البابا يطـالب بهـا . ودون أي شـك كان العـاهل يـأمل بإدخال الدولة الحبرية كمملكة إيطاليا في إمبراطوريته : أعطى لكافة إيطـاليـا ، دون تمييز ، نظاماً إدارياً واحداً ، وعيَّن نواباً عـامين يرتبطون بـه مبـاشرة ، ولهم اليد العليا على حكام المدن ورؤساء البلاد السهلية .

ولكن الدولة الحبرية والمدن اللومباردية كانت مهددة أيضاً ، ولذلك كان من الطبيعي أن تعقد حلفاً ضد الإمبراطور ، وفي آذار ١٢٣٩ م ، حكم البابا بحرمان فريديريك الثاني . ومزق الخلاف شبه الجزيرة كلها ، واعتمد فريديريك الثاني على مملكة صقلية ، وسيطر على جزء من الدول الحبرية ، لاتوسكانا وثغر تريڤيز الذي يؤمن الارتباط مع ألمانيا . وفي المناطق الأخرى ، حتى في داخل المدن ، قام نزاع حاد بين أنصار الإمبراطور وأنصار البابا . وحاول الأحبار من جانبهم إسقاط نفوذ الإمبراطور وشجبه من المسيحية كلها له . وجرى تبادل رسائل بين البابا والإمبراطور وردَّ كل من الجانبين على الآخر .

ودعا غريغوار التاسع إلى روما مجمعاً عاماً يعقد في عيد الفصح ١٢٤١ م . وهاجم فريديريك السفن الجنوية التي تنقل آباء المجمع ؛ وألقى القبض عليهم وأرسلهم أسرى إلى إقليم البويْ . وقرر خلف غريغوار التاسع ، **إينوسان الرابع** ، أن يفر من الدول الحبرية ، وفي ١٢٤٥ م ، استطاع أن يعقد في ليون مجمعاً حكم بخلع فريديريك الثاني ، ولتدارك من يحل محله ، أرسل مفوض حبري إلى ألمانيا ، وجمع دون صعوبات بعض الناخبين الكنسيين الذين خلعوا لقب ملك الرومانيين على اللاندغراف ، **هنري راسب** (١٢٤٦ م) ، ثم على كونت هولانده غليوم (١٢٤٧ م) . وبالرغم من النوائب التي مني بها فريديريك في الوقت نفسه في إيطاليا الشمالية ، فما كان ليفكر بأنه خسر القضية . وأعد نفسه في مملكته الصقلية لاستئناف النزاع ، لولا أنه توفي في ٣ كانون الأول ١٢٥٠ م .

ولم يضع موته حداً قطعياً للخلاف ، فبموجب الوصية التي تركها فريديريك جعل من ابنه كونراد الرابع وارثاً للإمبراطورية ومملكة صقلية . واستمر النزاع حتى ١٢٦٨ م . هذا التاريخ ، الذي كانت فيه هزيمة وموت كونرادين حفيد فريديريك الثاني ، أمن النصر الحاسم للبابوية .

٢ ـ تطور ألمانيا في حكم آل شتاوفن

لقد ضحى أباطرة آل شتاوفن بألمانيا في سبيل سياستهم الإمبراطورية والإيطالية . وهكذا فإن فريديريك الثاني ، خلال ثمانية وعشرين عاماً من الحكم ، لم يقض ، بالإجمال ، إلا اثني عشر عاماً في ألمانيا . وأكثر من ذلك ، في صيف ١٢٤١ م ، وفيما كان الجيش المغولي يجتاز الأودر ويتغلغل في بولونيا وفي هونغاريا ويستعد لاجتياح ألمانيا من الجنوب ، كان فريديريك الثاني منصرفاً بكليته للعمليات الإيطالية ورفض مغادرة إيطاليا . وأنقذت ألمانيا من الغزو لأن ثورة مفاجأة في آسيا الوسطى أجبرت المغول بشكل غير منتظر على أن يعودوا أدراجهم .

التوسع الجرماني

وفيما كان آل شتاوفن يوجهون أنظارهم نحو الآفاق البعيدة في البحر المتوسط ، وجه العالم الجرماني توسعه في اتجاه أكثر تطابقاً مع الوقائع الجغرافية ، في مناطق تؤلف امتداداً طبيعياً لألمانيا ، نحو الشمال ونحو الشرق .

في الغرب ، في الواقع ، ثبت تاريخ طويل الأمد حدود جرمانيا في تماسها مع المملكة الفرنسية . وفي القرن الثالث عشر ، كانت الدولتان متحالفتين بصلابة أكثر من أي وقت مضى ، إن الكابسيين في كل نضالهم ضد الخطر الآنجفي ، كان من مصلحتهم التقارب مع آل شتاوفن ، والقديس لويس نفسه احترز من التدخل في الخلاف بين البابا والإمبراطور . وأخيراً ، وبشكل غير محسوس ، نجد أن المناطق الحدودية التي تتعلق حقوقياً بملك جرمانيا ، كانت تميل أكثر فأكثر إلى الخلاص منه ، وإمارات البلاد المنخفضة التي أثرت من التجارة ، تؤكد استقلالاً ذاتياً حقيقياً . وإلى الجنوب مملكة بورغونيا كانت منجذبة بشكل لا يقاوم في فلك فرنسا منذ أن تزوج أخ القديس لويس ، **شارل دانجو** ، في ١٢٤٦ م ، الأميرة الوارثة لكونتية بروفانص .

وفي المناطق البالطيكية والإسكاندينافية ، كان نفوذ ألمانيا ، بالمقابل ، يحل في جميع الأصعدة ، محل نفوذ إنكلترا . وشمال أوربة بدأ آنذاك يستيقظ على الحضارة الغربية . في النورفيج ، أدخلت الكنيسة ثم بعض كبار العواهل مثل هاكون الرابع (١٢١٧ ـ ١٢٦٣ م) أو ماغنوس المشرع (١٢٦٣ ـ ١٢٨٠ م) البلاد في محفل الأمم الأوربية : فالإصلاح الغريغوري ، والشرعية الملكية ، والأدب الفروسي ، حلَّ فيها محل الروح الفايكنغية ، ولكن منذ آخر القرن ، وقفت الطبقة النبيلة والأكليروس الأعلى ضد الملكية . وبفضل الفوضى ، ثبتت وتأكدت بخاصة سيطرة ألمانيا الاقتصادية ؛ فقد انتقلت التجارة إلى أيدي التجار الجرمانيين . وتحت شعار الجرمنة أيضاً يوضع تطور السويد . ففي القرن الثاني عشر ، ظلت تدين بالوثنية التي ورثتها عن أسلافها . غير أن الرهبان السيسترسيين وتجار الهانس أدخلوا إليها الحضارة قليلاً قليلاً . وفي ١١٦٤ م أحدثت أبرشية مكان المعبد الوثني في أوبسالا . ثم باشر السويديون الذين اعتنقوا المسيحية بأداء رسالة الإيمان إلى فنلاندة . وفي القرن الثالث عشر تثبتت السلطة الملكية ، والملك برجر الذي أقام عاصمته في موقع جديد ، في ستوكهولم (١٢٥٠ م) أسس سلالة الفولكونغ وبنى دولة صلبة . ومع ذلك ظل المجتمع السويدي يتجرمن ؛ فقد سمح العواهل بالتجارة الهانسية . واشتغل تقنيون ألمان في مناجم الحديد والنحاس . والدانيمارك أخيراً ، الأمة المجاورة مباشرة ، كانت في بداية القرن الثاني عشر إمارة تابعة لمملكة جرمانيا ، وكانت الإبرشيات الدانيماركية تحت وصاية الكنيسة الألمانية . وسيطر تجار لوبيك على التجارة كلها . وأخيراً كان الرباط الجرماني حكماً للخلافات السلالية العديدة . وحاول أمراء دانيماركيون ، مثل فالديمار الكبير انطلاقاً من ١١٥٤ م أن يدفع التغلغل الألماني . اعتمد على أكليروس مصلح ، ودعا رهباناً فرنسيين . وكانت السواحل الدانيماركية محفوفة بالحصون ، وأصبح أهمها مدينة كوبنهاغن . وأنقذت أخيراً

التقاليد القومية من النسيان . والراهب **ساكسو غراماتيكوس** (١١٤٠ ـ ١٢٠٦ أو ١٢١٦ م) الذي أتم دراساته في باريس كتب باللاتينية تاريخ الدانيارك ، وهو أهم آبدة أدبية في العصر الوسيط الدانياركي . ويقص هذا الأثر ، في ستة عشر كتاباً ، تاريخ البلاد منذ أصولها حتى ١١٨٧ م . وأراد ڤالديار الثاني بن ڤالديار الكبير أن يذهب إلى أبعد من ذلك . فلم يكتف بالتدخل في السويد وقطع روابط التبعية بألمانيا وفرض سيادته على الإمارات الألمانية المؤسسة في شرق نهر الإيلب . ولكن كونتات هولشتاين وشڤيرين فرضوا عليه هزيمة نكراء . ولم يعد التفوق الدانياركي موضع اهتمام في البالطيك ؛ لأن الدانيارك وقعت في الفوضى وأصبحت نوعاً من مستعمرة ألمانية .

وعلى الحدود الشرقية أخيراً ، بدأت للجرمانية حركة توسع كبرى ، (الزحف نحو الشرق) . ولم تكن هذه الحركة من عمل الأباطرة ، فقد اقتصر هؤلاء على الحفاظ كثيراً أو قليلاً على سيادتهم على الدول التي تشكلت قديماً في شرق ألمانيا ، هونغاريا ، بوهيميا ، بولونيا . وقد نظمت هذه الأخيرة في عهد بوليسلاف بوش تورس (١١٠٢ ـ ١١٥٨ م) وأصبحت مؤقتاً سيدة بوميرانيا التي أمنت لها منفذاً إلى البالطيك . ولكن ، في القرن الثالث عشر ، عادت البلاد وسقطت في الفوضى لصالح النفوذ الجرماني . وبوهيميا ـ موراڤيا ، التي تشكلت في ١٢١٨ م مملكة وراثية ، أصبحت دولة عظيمة منذ فتح العاهل أوتّوكار الثاني الشتيريا والكارنثيا والكارنيول . وكان الأباطرة منهمكين فقط في النزاع ضدّ بولونيا وبوهيميا .

وهكذا تمّ فتح الأراضي الجديدة تحت إدارة أدواق ومارغراڤات ألمانيا الشرقية . وأمنت إقامة الفلاحين الألمان الذين استعمروا الأراضي الجديدة أو تبشير السكان المحليين بالإنجيل على أيدي الأكليروس الألماني ، جرمنة المناطق المفتوحة .

ومنـذ الثـورة الكبرى للشعـوب السـلافيـة في ٩٨٦ ، ظلت الحـدود الشرقيـة لألمـانيـا ثـابتــة على خــط نهري الإيلب والسّــال (زالــة) . وفي سيــاق القرن الثالث عشر فقـط ، استؤنف التوسع في بلاد فينـد . وفتح ألبيرت الـدب ، كونت ثغر الشمال ، منـاطـق الهـافـل وأخـذ في ١١٥٠ م لقب مــارغراف برانــدبـورغ . واستأنف أخلافه الحركة نحو الشرق : ففي النصف الأول من القرن الثالث عشر ، فتحت بلاد الأودر والثارتا وشكلت « الثغر الجديـد » . وإلى الشمال ، بسـط دوق سـاكس ، **هنري الأسـد** سيطرتـه على بلاد الأوبـودريت والفـاغرِيَنَ والبـولاب ، وهكـذا تشكلت كونتيـات ودوقيـات ميكلامبورغ وپوميرانيـا . وأخيراً ، وأبعـد كثيراً نحو الشرق وفيما وراء نهر الفيستول ، عنـد الشعـوب البـالطيـة ، والبروسيـة والليتوانيـة ، والليتونيـة ، والاستونيـة ، بوشر عمل الفتح والصبـأ في سيـاق القرن الثـالث عشر ، على يـد نظـام فرسـان **بورت ـ غليف** الـذين ذابوا وانـدمجـوا في ١٢٣٦ م مع **الفرسـان التوتونيين** . وعنـدمـا عـاد هؤلاء من (الأرض المقـدسـة) أخذوا من فريديريك الثاني في ١٢٢٦ م حقوق سيادة في بروسيا شبيهـة بـالحقوق التي يتمتع بها كل الأمراء الألمان . بدأ الفتح معيناً ومحدداً بـإنشـاء قصور ومـدن ، كولم م كونيغسبرغ ومـاريـانبـورغ ؛ ومضـاعفـاً بسيـاسـة استعمار داخلي . وأبيـد الشعب الأصلي ، أو ردّ إلى العبودية وحلَّ محله معمرون ألمانيون .

أفول السلطة الملكية في ألمانيا

وما فتئت سلطة الأمراء الألمان تنمو في سياق ذلك الدور . ومقابل المجنـدين العسكريين الذين يجهزونهم لسياسة الأباطرة الإيطالية ، كان بإمكانهم أن يطلبوا امتيـازات هـامـة أكثر فـأكثر . وقـد بـدأ أفول السلطـة الإمبراطوريـة مـع زوال السـلالـة السـاليـة ، وتفـاقم بـالحرب التي قـامت بين الـولفيين (أو الغلفيين) والشتاوفن للحصول على السلطة . لقد قسمت أحـداث هـذا الصراع ألمـانيـا خلال قرن تقريباً . وعندما أصبح فريديريك الأول ، الشتـاوفني ، ملكاً ، نمت سلطـة

الولفيين بشكل خطر ، لقد جمع هنري الأسد ، سليل ولف الأول ، بين يديه دوقية ساكس والأراضي التي فتحها من بلاد الفيند (اسم أطلقه الألمان على السورابيين وهؤلاء هم سلاڤيو لوزاس الذين وقعوا ، في القرن التاسع ، تحت سيطرة الألمان الذين يسمونهم فيند) . وفي ١١٧٦ م رفض أن يمدّ فريديريك بارباروسا بمساعدته من أجل حملة إيطالية . واهتبل العاهل أول فرصة لرفع دعوى عليه . دعي هنري الأسد ثلاث مرات للمثول أمام المحكمة الملكية ، ورفض . فاتهم بأنه قطع السلام العام وطرد ، وأقطعت إقطاعاته إلى أمراء آخرين : قسم من الساكس إلى برنارد دانهالت والباڤاريا إلى آل فيتّلسباخ اللذين ظلاّ فيها حتى ١٩١٨ م .

انتصر آل شتاوفن على الولفيين بفضل الدعم الذي وجدوه لدى الأمراء الآخرين . وبالمقابل ، خَوَّل العواهل فوائد عظيمة بدلت بعمق البنية السياسية لألمانيا . وهذه التحويلات توطدت قليلاً قليلاً بطريق العرف ، واللوحة التي يقدمها لنا ، في ١٢٢٥ م ، آيك فون ريبغاو في (مرآة الساكسونيين) ليست إلا نهاية تطور مظلم . كان فريديريك الأول مضطراً للتنازل إلى العائلات القوية عن مكانة ممتازة في المملكة . وفي القرن العاشر كان ممثلو الملك ، الكونتات كالأدواق ، يؤلفون جزءاً من طبقة الأمراء . وانطلاقاً من ١١٨٠ م ضيقت المستشارية الملكية استعمال التعبير (أمراء) . إلا أن الأقوياء وحدهم الذين بسطوا سلطتهم على كونتيات كثيرة كان لهم الحق بلقب أمراء الإمبراطورية . واحتفظ لهؤلاء منذ الآن بحق المشاركة في الانتخابات الملكية . وعليه فإن طبقة الأمراء تشكل طبقة مغلقة . وحيال هؤلاء الإقطاعيين الكبار ، تعهد فريديريك الأول أن يُقطع من جديد كل إقطاع شاغر في مهلة عام ويوم . وعلى هذا فإن ملك جرمانيا لا يستطيع ، كالعاهل الكابسي ، أن يضخم ملكه من الإقطاعات التي تقع في حال عدم وجود ورثة لامتلاك ميراث . وفي هذه الظروف ، يرى أن

السلطة التي يمكن أن يبلغها بعض الأمراء الألمان ، كانت عظيمة . وأن حالة ثغر النمسا ، التي ارتقت لصف دوقية على يد فريديريك الأول كانت بخاصة مؤثرة ؛ فقد أقطع باربا روسا الدوقية إلى هنري دو بابنبرغ وزوجته وأولاده ، بمنحهم امتيازات باهظة .

ومنذ كونكورادت ڤورمس ، لم يعد الأساقفة أيضاً موظفين يعينهم الملك وتابعين له بصورة وثيقة . ولعب الانتخاب في حالهم الدور الذي أخذته الوراثة في دور الأمراء العلمانيين ؛ لأن الملك كان ملزماً كثيراً أو قليلاً بتقليد المنتخب الجديد زمني الأسقفية ، ومنذ حكم فريديريك الأول كان جميع الأساقفة يقدمون احترامهم للعاهل وإذا شاركوا أيضاً في الحكم ، فذلك بصفة تابعين .

وعاش النظام الأوتوني . وكان فريديريك الأول أكثر اهتماماً ممن سيكون حفيده بالشؤون الجرمانية ، كما كان أبعد من أن يكون غيرُ حساس بأفول السلطة الإمبراطورية في ألمانيا . ويأمل بأن يستغل لصالح الملكية الممارسات الإقطاعية . إن الأمراء الذين خولهم الكثير من السلطة يجب أن يكونوا في نظامه تابعي الملك ؛ وإلى المليك ينتهي هرم الاحترامات التابعية ، الدرجات السبع « للمجن التابعي » وكان باربا روسا يفكر بأن يجد في تعزيز روابط التبعية مصدراً جديداً للسلطة الملكية . أمل خلب ، ففي عهد أخلافه ، وخاصة في عهد فريديريك الثاني ازداد ضعف السلطة الإمبراطورية . وليحصل فريديريك الثاني على انتخاب ابنه ملك الرومانيين ، قدم تنازلات جديدة : تعهد أولاً باحترام الحرية الكاملة للانتخابات الأسقفية ، وفي الامتياز المنشور في ١٢٢٠ م ، وسع امتيازات القضاء الكنسي ؛ ثم خول كافة الأمراء (في ١٢٣١ م) جميع الحقوق الملكية . ومن جهة أخرى ، إن البعد الذي كانت فيه الشؤون الإيطالية تشغل العاهل ، وإدارة البلاد بأشخاص وسطاء ، لم يكونا ملائمين للسلطة الملكية ؛ فمن ذلك أن هنري ، الابن البكر لفريديريك الثاني ، الذي عهد إليه أولاً بإدارة الشؤون الجرمانية ،

طبق سياسة شخصية خرقاء ، معادية للأمراء ، حتى آل به الأمر إلى الثورة علناً ضدّ أبيه ولكنه كسر وطرح في السجن حيث مات في ١٢٤٢ م . وأخوه **كونراد** ، انتخب بدوره ملك الرومانيين ، وحلّ محله . ولكنه لجم بمستشارين انتخبهم فريديريك الثاني ، ومارسوا سلطة متنطسة . وحيال الإمبراطور الغائب دائماً ، ازداد عدم محبة الأمراء له ، وأواخر حوادث العهد ، خلع الملك ، وتعيين الملك ، لم تستطع تحسين الحالة .

وفي منتصف القرن الثالث عشر أفلست السلطة الملكية في ألمانيا . وبعد موت فريديريك الثاني ، انهار أيضاً كل البناء السياسي الذي شيد بأيدي ملك الرومانيين . كذلك تراخت الروابط التي كانت تشد ممالك بورغونيا وإيطاليا وصقلية إلى مملكة جرمانيا .

تفتيت الصرح الإمبراطوري

١ ـ الألمانيات

فترة خلو العرش الكبرى

من ١٢٤٥ إلى ١٢٧٣ م ، كانت ألمانيا فريسة الفوضى وكان المنصب الإمبراطوري موضع نزاع بين عدة مطالبين متنافسين .

إن غياب السلطة الملكية يبرر الاسم (خلو العرش الأكبر) الذي أطلقه المؤرخون على هذا الدور ؛ لأن العواهل ، زعماء حزب أو أجانب ، خالي الوفاض من دومينات هامة لتجهزهم بالموارد التي يحتاجونها ، لا يتمتعون بأي وجاهة أو نفوذ . وما من أحد منهم قادر على أن يقوم بعمل سلطة في ألمانيا . إن الفونس قشتالة ، انتخب إمبراطوراً ، ولم يضع قدمه أبداً في الإمبراطورية . وعدم الأمن أيضاً أصبح مزمناً ، الأمراء يتنازعون بأسلحة الإقطاعات التي لا وارث لها . والفرسان ، من أصل رقيق أو مملوك ، الذين يملؤون بعدد كبير حكومة آل شتاوفن ، ونكبوا بسقوطهم ، انصرفوا للشقاوة وقطع الطرق وأعمال العصابات . وأخيراً ، وبفضل هذه الفوضى ، تمت التجزئة السياسية في ألمانيا ؛ فالأمراء ، علمانيون أو كنسيون ، كان لكل فريق منهم حكومته الخاصة التي تفلت من السلطة الملكية . والأكثر قوة من بينهم احتفظوا لأنفسهم بحق انتخاب الإمبراطور . ففي ١٢٣٧ م ، لدى انتخاب كونراد الرابع ملك الرومانيين ، يرى أن الهيئة الانتخابية ، التي أخرج منها الكونتات البسطاء في آخر القرن الثاني عشر ، اقتصرت على سبعة أعضاء ممتازين : وهم ثلاثة أمراء كنسيين ، رؤساء أساقفة مانيس ، وكولونيا وتريف ، وأربعة أمراء علمانيين كونت بالاتينا

الراين ، دوق ساكس ، مارغراف براندبورغ ، وملـك بوهيميـا . وطوال فترة خلو العرش الكبرى ، وضعت هـذه الهيئـة القليلـة العـدد الملكيـة تحت الـوصـايــة . ولينتخب المرشحون كان عليهم ، في الواقـع ، أن يقبلـوا مـع الأعضـاء المتـازين بالتزامات تربطهم بشدة .

لقد حصل الأمراء السبعـة على ألا يتخـذ الملـك أي قرار خطير دون الحصول على موافقة مجلس الطبقة النبيلة ، الرايخشتاغ ، الـذي كان نفوذهم فيـه متفوقـاً . أما الملكية التي ظلت متنقلة ، ولا تتصرف إلا بمصالح قليلة ، إدارة ملكية ومحكمة ملكية ، فقلما يمكنهـا استعـادة استقلالهـا ، لاسيا وأنهـا تملـك القليل من الموارد . وإن معظم الحقـوق الملكيـة قـد تنـازل عنهـا إلى الأمراء فريـديريـك الثـاني أو أخلافـه . وكانت الموارد الوحيـدة للملكيـة أمـوال التـاج ، التي هي أيضـاً بـددت وبذرت ، تضاف لها الأموال الموروثـة للمرشح المنتخب . وانطلاقـاً من ١٢٤٥ م ، اهتمت الهيئة الانتخابية للحفاظ على امتيازاتها ، بمعارضة تشكيل سلالـة ملكيـة ، وذلك بعـدم انتخـاب العواهل من أسرة واحـدة مرتين ، وإبعـاد الأمراء الأقويـاء كثيراً عن الملكية .

محاولات إرجاع السلطة الإمبراطورية في آخر القرن الثالث عشر

في ١٢٧٣ م ، انتهت الحيـدة الملكيـة ، ولكن ملوك جرمـانيـا حـاولوا عبثـاً حينئذ أن يتعاقبوا على العرش دون صـدام . ومـا من واحـد منهم ، ولا رودولف دو هـابسبورغ (١٢٧٣ ـ ١٢٩١ م) ، ولا أخـلافـه المبـاشرون ، أدولف دونـاسـو (١٢٩١ ـ ١٢٩٨ م) ، وألبير دو هابسبورغ (١٢٩٨ ـ ١٣٠٨ م) ، حتى ولا هنري السابع دو لوكسمبورغ (١٣٠٨ ـ ١٣١٣ م) توصلوا إلى إرجاع السلطة الملكية .

إن العودة إلى الحالة الطبيعية تمت بـدعم البـابويـة ؛ لأن غريغوار العـاشر ، الذي يرغب في تنظيم حملة صليبية جـديـدة ويرجو أيضـاً أن يهز وصـايـة ملـك

صقلية ، كان يميل لأن يعيد للملكية الجرمانية قليلاً من جاهها . وبإيحاء منه ، اختار الناخبون بين المرشحين العديدين من ألمان وأجانب (ملك فرنسا فيليب الثالث الجريء في عدادهم) ، في ٢٩ أيلول ١٢٧٣ م ، في فرنكفورت ، الكونت رودولف دو هابسبورغ ، ملك الرومانيين . وكانت أسرة آل هابسبورغ من أغنى العائلات الكونتية في جنوب ـ غربي ألمانيا وأموال هذا البيت تقع في الأصل في أرغوڤيا ، بين نهري الآر ورويس ، هناك ، حيث يرتفع منذ القرن الحادي عشر قصر هابسبورغ الذي أعطى اسمه لهذا البيت . وفي القرن الثاني عشر ، تلقى آل هابسبورغ لاندغراڤيا الألزاس العليا وكونتية زوريخ ، واكتسبوا في هذه المناطق دومينات عديدة . ورودولف ، الذي أظهر ولاء تاماً حيال آل شتاوفن ، أفاد من فترة خلو العرش الكبرى لزيادة ممتلكاته ، وتحسين إدارة دومينه . والعاهل الجديد رجل بسيط وبشوش وملامحه الجسدية ظهرت جيداً بالتمثال المتقن المعبر الذي يزين به ضريحه في كاتدرائية سپير . وهناك قصص عديدة تكشف عن الشعبية التي تمتع بها خلال حكمه . ففي الريف ، يرقع بنفسه لباسه (لباس من العنق إلى الحزام ، استعمل من القرن الثالث عشر حتى القرن السابع عشر) الممزق ، ويتغذى ببعض اللفت ، السلجم المقتلع من الحقل . وفي زمن السلام ، يختلط طوعاً ودون تكلف بشعب المدن . وذات يوم كان يستدفئ بموقد فرن ، فعاملته صاحبة الفرن بقساوة وجفاء ، دون أن تعلم هوية هذا المتفرج الذي يقضي وقته بالنظر طويلاً إلى كل ما يراه . وعندما اعتلى رودولف العرش الإمبراطوري ، وإن كان متعلماً قليلاً ، برهن عن حكم أكيد وواقعية صلبة . لقد فهم أنه يتوجب على ملك جرمانيا أن يتخلى عن كل تطلعات آل شتاوفن الإمبريالية . وكانت كل جهوده موجهة إلى ألمانيا حيث حاول أن يثبت سلطة بيته الأرضية ، ويفيد بشكل أفضل من النظم الملكية . ومن جهة أخرى ، حاول أن يعيش باتفاق ووفاق مع البابوية ، ووعد بألا يسبب ضرراً

إلى الكنيسة الرومانية . وحصل من غريغوار العاشر على الوعد بتتويجه إمبراطوراً . ولم يتوقع من المباركة أو التقديس ، إرجاع سلطته إلى إيطاليا ، ويأمل فحسب في أن يستطيع بعد هذا الاحتفال أن يحصل في حياته على أن ينتخب الأمراء أحد أولاده ملك الرومانيين .

ولتحقيق هذا البرنامج ، فرض رودولف نفسه أولاً على كل ألمانيا وبخاصة أن يجبر ملك بوهيميا أوتاكار الذي لم يشارك في انتخابه بالاعتراف به ملكاً شرعياً . لقد كان أوتاكار خصماً خطراً ؛ كان سيد بوهيميا ومورافيا ودوقية كارانثيا وكارنيول والنمسا وشتيريا . ودوله غنية ومنظمة جيداً . غير أن جزءاً من هذه المكتسبات قد جرى بصورة غير قانونية على حساب حقوق التاج . وجه رودولف ضد ملك بوهيميا حملتين : الواحدة في ١٢٧٦ م ، والأخرى في ١٢٧٨ م ؛ وانتهت الأخيرة بهزيمة وموت أوتاكار ، واستغل الإمبراطور نصره وأقطع ابنه ألبيرت دوقيتي النمسا وشتيريا وضخم على هذه الصورة بشكل عظيم الثروة الوراثية لآل هابسبورغ . وبفضل هذه السلطة الأرضية المعززة ، حاول أن يرجع السلطة الملكية في ألمانيا : حاول أن يعمر الدومينات الإمبراطورية المستلبة أثناء فترة خلو العرش الكبرى وأعاد تنظيمها من جديد . وأمن بهذا الشكل إلى الملكية الألمانية موارد أكثر وفرة وانتظاماً . ولكن رودولف أخفق في مشروعه في لبس التاج الإمبراطوري ؛ لأن خلفاء غريغوار العاشر لم يروا ضرورة لإعادة الحياة إلى المنصب الإمبراطوري ، وفرضوا على رودولف التزامات جديدة أخرت دون انقطاع تاريخ التتويج . ولم يفز رودولف في جهوده للحصول من الناخبين على انتخاب أحد أولاده .

إن عمل الإرجاع الملكي الذي دشنه رودولف دو هابسبورغ بقي دون غد ؛ ففي ١٢٩٢ م عمل الناخبون الكنسيون وفانسيسلاس بوهيميا على إخفاق ترشيح ألبيرت دو هابسبورغ وقبول ترشيح كونت أدولف دوناسو . ولم يكن تحت

تصرف هذا غير سلطة أرضيـة ضئيلـة ومهيـأة لجـذب النـاخبين . وعنـدمـا اعتلى أدولف العرش حاول عبثاً تثبيت وضعه واستقلاله ، فأثـارت هـذه السيـاسـة قلق الأمراء الناخبين . وفي ٢٣ حزيران ١٢٩٦ م حكموا بخلعه وانتخبوا ألبرت النمسـا ، ابن رودولف ، ملكاً على جرمانيا . ولأول مرة يختـار النـاخبون المتـازون عـدواً للملـك دون أن يلفـظ البـابـا خلع العـاهـل الشرعي . وبعـد شهر ، غلب أدولف وقتـل في معركـة غـولهـايم (في ٢ تمـوز ١٢٩٨ م) . وأصبـح ألبير سيـد الـموقف . وأقطع أولاده بوهيميا وموراڤيا . وهكذا فإن السلطة الأرضيـة لعـائلتـه ، يضـاف إليهـا الصوت الانتخـابي المتعلق بمنصب ملـك بوهيميـا ، جعلت من ألبير العـاهـل الألمـاني أقـوى عـاهـل منـذ مـوت فريـدير يـك الثـاني . ولكن الـوقت لم يحن لآل هابسبورغ لاحتكار السلطة الإمبراطورية وإعـادة كامل بريقهـا إليهـا ؛ وفي الأول من أيار ١٣٠٨ م ، قتل ألبير من قبل أحـد أبنـاء أخيـه . وبـادر النـاخبون باختيـار خلف لـه ، أمير يتصرف بسلطـة أرضيـة أضعف من أن تصبح خطرة ، وهو هنري السـابع ، كونت دو لوكسمبـورغ . وهـذا العـاهـل الفرنسي الثقـافـة ، قضى شبـابـه في بلاط فيليب الجميـل ، ولا يهتم بـألمـانيـا ، حيث ترك الحبـل على غـاربـه ، وعـدم خضوع الأمراء للنظـام . وفي إيطـاليـا ، حيث تجتـذبـه أذواقـه الشخصية ، سيحاول عبثاً مع ذلك ، في إحياء الجاه الإمبراطوري .

٢ ـ سويسرا وإيطاليا

إن المناطق المنضمة تقليديـاً إلى مملكـة جرمـانيـا بـدأت بفضل أفول السلطـة الملكية ، تنفصل عنها . ففي الجنوب ـ الغربي للمناطق الجرمانية نفسهـا ، بـدأت بعض الكانتونات الألپية النضال الذي ولد الكونفدراسيون السويسري .

بدايات الكونفدراسيون السويسري (الهلفيتي)

منذ بداية القرن الثالث عشر حصل جبليو أوري وشفيتز على حق محاكمتهم بالمحاكم المحلية وإبعاد كل قاض أجنبي . ولكن آل هابسبورغ الذين كسبوا حقوقاً عديدة في السيادة على هذه المناطق ، حاولوا بالتالي أن يفرضوا فيها سيطرتهم . ففي ١٢٩١ م ، وجد أن « الكانتونات الثلاث الغابية » : أوري ، شفيتز وأونترفالدن التي تسيطر على طريق سان - غوتار ، قد أبرمت بينها اتحاداً تعهدت بموجبه احترام المبدأ التالي : الملك مصدر كل عدالة ، ولكن القضاة يجب أن يكونوا من رجال البلد . وقاومت بانتصار ضغوط آل هابسبورغ ، وفي ١٣١٥ م شكت السلاح الذي سحب منها وحصلت على الحقوق التي كانت تمارسها حتى ذلك الحين في الكانتونات الثلاث . وفي معركة مورتغاتن تكشفت لأول مرة القيمة العسكرية السويسرية .

وفي الوقت نفسه تفتت سلطة ملوك جرمانيا أيضاً في مملكة بورغونيا : إن كونتية بورغونيا (فرانش - كونته) التي تزوجت وارثتها في ١٢٩٥ م أحد أولاد فيليب الجميل ، وضعت تحت سيطرة الكابسيين الذين ضموا أيضاً ليون وبسطوا في الشمال سيطرتهم على الباروا . وكل القسم الجنوبي من مملكة بورغونيا ، تحت اسم مملكة آرل ، انتقل أيضاً إلى أمراء أجانب ، بينما أنجز كونت الساڤوا استقلاله الحقيقي .

خلاص إيطاليا من السلطة الإمبراطورية

وفي هذا النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، فصلت إيطاليا مصيرها عن مصير البلاد الجرمانية ؛ لأن جهود البابوية التي ما فتئت تناضل ضد مزاعم العواهل الجرمانيين ، قد توجت أخيراً بالنجاح والفوز . وفي الحقيقة ، سيرى أيضاً عواهل جرمانيين ينحدرون إلى إيطاليا : ولكن أشواط المباركة هذه لم يكن لها

من غايـة الآن إلا أن تؤمن لـلإمبراطـور في حيـاتـه انتخـاب أحـد أبنـائـه ملكاً للرومـانيين ، لأن التقليـد احتفـظ بهـذا الامتيـاز إلى الـذين يلبسـون التـاج الإمبراطوري في روما . ومن جهـة أخرى ، إن الروابـط التي تضم إيطـاليـا للبلاد الجرمانية تراخت كثيراً أو قليلاً بسرعة حسب مناطق شبه الجزيرة : في إيطـاليـا الجنوبية ، وبفضل مساندة البابويـة ، أقيمت سلالـة أجنبيـة ، سلالـة الآنجفيين ؛ وفي الوسـط ، عملت البلاد على إرجـاع وتـوسيـع الـدولـة الحبريـة ؛ وفي الشمال ، بالمقابل ، ظلت مملكة إيطاليا مرتبطة مبدئياً بمملكة جرمـانيـا ؛ واصطـدم فيهـا الأحبار ببقاء الفكرة الإمبراطورية في بعض المـدن ؛ وكانت المنطقـة كلهـا ممزقـة بالنزاع بين الحزب الحبري والحزب الإمبراطوري ، بين الغلفيين والجبليين .

أ ـ إيطاليا الجنوبية متنازعة بين الآنجفيين والأراغونيين

وفي ١٢٥٣ م ، كان البابا إينوسـان الرابع قـد قـدم إلى أخ القـديس لويس ، شارل ، كونت آنجو وبروفانص ، تـاج صقليـة ، وقبل شـارل العرض ، ولكنـه لم يعمل شيئاً في البدء لحيازة هذه المملكة الجديدة . وأخيراً في ١٢٦٥ م ، قرر شارل آنجو أن يستجيب لـدعوات الكرسي ـ الأقـدس الملحـة ، وتقلـد رسمياً من البـابـا كليمان الرابع مملكة صقلية ، ولكنه اضطر أن يجابه جنود ابن سفاح لفريديريـك الثـاني ، مـانفرد . وفي شبـاط ١٢٦٦ م ، أحرز الآنجفي انتصـاراً بـالقرب من بينيڤنت في معركـة أولى لقي فيهـا مـانفرد حتفـه . غير أن كـونرادين ، آخر شتـاوفني ، أسرع من ألمـانيـا وحـاول بـدوره مصير السلاح ، وسحق هو أيضـاً في معركة تاغلياكوزّو (بـالقرب من أكويلا) وأمر شـارلـد آنجو بـإعـدامـه . وبعـد بضعة أشهر ، سقطت آخر المقاومات ، واستطاع الملك الجديد ، سيد الموقف ، أن ينقل إلى أمراء فرنسيين وبرفانصيين أموال « المتمردين » . ونشأت دولـة جـديـدة في جنوب شبه الجزيرة نجت نهائياً من الأباطرة الجرمانيين .

لم تنتصر البابوية على هؤلاء الجرمانيين إلا بتثبيت ملك على العرش ظهرت سياسته الإيطالية والمتوسطية ، فيما بعد ، بالنسبة لها ، تهديداً رصيناً . وفي السنوات التي تلت الانتصار ، حاول شارلد آنجو في الواقع بسط نفوذه على مناطق إيطاليا الأخرى : في روما ، أفاد من شغور الكرسي الأقدس فترة طويلة (١٢٦٨ ـ ١٢٧٢ م) لينتخب شيخاً لروما ويخضع القومون الرومانية لسلطته .

وفي طوسكانة ، حيث عينه كليمان الرابع نائباً وكلفه أن يحجم مدن الحزب الإمبراطوري ، أمن شارل لنفسه السيطرة على الحياة السياسية في المدن الأساسية : ثبت الحاكم المعين وطلب ضريبة لإعاشة جيشه . إلا أن مدن إيطاليا الشمالية وحدها قاومته بعداء مصمم . ونظراً لأنه أصبح وارثاً للملكية النورماندية في صقلية ، فقد استأنف لحسابه أيضاً برنامج أسلافه الذين كانوا يهدفون إلى بسط سيطرة ملك صقلية على المتوسط الشرقي كله : وحلم بإرجاع الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية لصالحه وأعد تألباً معادياً للإغريق . إلا أن الحملة الصليبية التي نظمها في ١٢٧٨ م أخوه القديس لويس ، اضطرته إلى إرجاء مشاريعه ؛ وعلى الأقل أفاد منها ليحاول بسط نفوذه في المتوسط الغربي : وعلى ما يبدو في الواقع أن لويس التاسع قرر بناء على أبحاثه ، مهاجمة تونس ، التي كانت في حيازة الخليفة المستنصر ، عدوه . وكان الوحيد الذي أفاد من الحملة . وبعد موت القديس لويس حصل من الخليفة على وعد بضريبة سنوية مرتفعة .

غير أن الحوادث وضعت كابحاً للطموح السياسي الآنجفي ، لأنه كان على شارل أولاً أن يجابه سياسة البابوية المعادية أكثر فأكثر . فلإقامة معادل مضاد لسلطة ملك صقلية ، شجع غريغوار العاشر انتخاب رودولف هابسبورغ . ومن جهة أخرى ، نجح الحبر الأعظم مؤقتاً في توطيد الاتحاد مع الكنيسة الإغريقية الراغبة في حشد كل القوى المسيحية في حملة صليبية ضد مصر (حزيران ١٢٧٤ م) ، ولكن انتخاب بابا فرنسي ، مارتن الرابع ، الذي عهد

من جديد بوظائف شيخ روما إلى شارل ، وأنكر الاتحاد مع الإغريق (١٢٨١ م) ، يبدو أنه أعاد إلى العاهل الآنجفي كل الآمال . وكان شارل على أهبة الهجوم على القسطنطينية عندما انفجر العصيان الصقلي .

مجزرة عامة للفرنسيين في صقلية في ١٢٨٢ م

في يوم الاثنين لعيد الفصح ، في الوقت الذي تقرع فيه الأجراس لتدعو المؤمنين في صلاة الستار أو العصر أو الغروب ، ثار الصقليون ضد شارل الأول آنجو ، ودعمهم بيير الثالث دآراغون . وذبحوا الفرنسيين الموجودين في الجزيرة . وأصبح البيت الآراغوني سيد صقلية .

لقد كان الصقليون متعبين وسئموا من شدة الإدارة الآنجفية ، وكان بيير دآراغون عاهلاً طموحاً وسيداً على الشواطئ المتوسطية ، من ڤالانس إلى مونبليه ، ويطمع بصقلية . عرف كيف يفيد من هذا الاستياء . فقد انفجرت مشادة في بالرمو بين الشعب والشرطة ، في ٣٠ آذار ١٢٨٢ م ، وتردت إلى مجزرة جميع الفرنسيين في المدينة والجزيرة .

وفي الجزيرة الثائرة ضد السيطرة الآنجفية نزل بيير الثالث وأعلن نفسه ملكاً . وعندئذٍ باتت عبثاً كل محاولات شارل لاستعادة الجزيرة . والحملة الكفاحية التي قام بها ملك فرنسا فيليب الثالث بناءً على طلب العاهل الآنجفي ضد الآراغوني ، منيت أيضاً بالإخفاق . وخلال عشرين عاماً أيضاً ناضل الأراغونيون ضد الآنجفيين المنطوين في شبه الجزيرة ، في نابولي . وبقي هؤلاء أقوياء بالرغم من خسارتهم لصقلية ، وتدخلوا في إيطاليا كلها وظلوا يلعبون دور زعيم الحزب الحبري .

إيطاليا الشمالية الممزقة بنزاع الغلفيين والجبليين

بعد أن ثبتت وتأكدت الحركة القومونية في إيطاليا الشمالية ، كانت هذه الأخيرة فريسة المنافسات . إن النزاعات المختلطة التي مافتئت تقاوم فيها المدن المدن الأخرى ، والأشياع الأشياع الأخرى ، والشعب الطبقة النبيلة ، تحولت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر إلى مقاومة عظيمة بين حزبين كبيرين ، الحزب الغلفي والحزب الجبيلي . وفي الأصل وضعت خصومة خاصة اشتبكت فيها بمطالبة فظيعة بالثأر عائلتان نبيلتان من فلورنسا ، ولما انفجرت الخصومة في الوقت الذي كان فيه فريديريك الثاني وأوتون برنسفيك يتنازعان في ألمانيا على التاج الإمبراطوري ، تحزبت كل عائلة بقصد إيجاد غذاء جديد للخصومة ، إلى مطالب مدع بالعرش . وأوتون برنسفيك ينتسب إلى عائلة آل ڤيلف أو غيلف ، وأطلق اسم جيبيليين على أنصار فريديريك الثاني لأن عائلة شتاوفن كانت تملك قصراً بهذا الاسم (ڤايبلغن) . وابتداءً من منتصف القرن الثالث عشر بطل استعمال المفردين فقط في فلورنسا ، وتجمعت المدن في عصبة حسب أحقادها أو مصالحها العامة . ففي فلورنسا وفي لوقا ، كان الحزب الغلفي في السلطة . وشكلت بيزا ، وسيين ، وبيستويا بالعكس العصبة الغيبيلية . وبعداء الغلفيين لآل شتاوفن ، تحزبوا لشارل دآنجو ؛ ومولت المصارف الفلورانسية مشروعه . غير أن تحولاً مسرحياً يمكن أن يحدث في الأحلاف : فعندما يتغلب حزب في مدينة يطرد أنصار الأقلية ، وتصادر أموالهم . ويحاول المنفيون عندئذٍ عقد حلف مع أعداء المدينة التي ولدوا فيها بغية الاستيلاء عليها من جديد .

وفي سياق هذه الخلافات يتضح برنامج الحزبين قليلاً قليلاً : يبدو الغلفيون مدافعين عن الكنيسة وعن البابوية . ويعتمدون على « الشعب » ، وهم مشجعون للسياسة الفرنسية ؛ والغيبيليون ، الذين يعتبرون في صفوفهم أمراء إيطاليا العليا ينكرون على البابا كل سلطة زمنية لتمجيد السلطة الإمبراطورية . وقرروا

دعوة هنري السابع إلى إيطاليا . وأراد هنري السابع أن يلعب دور المصلح والموفق والحكم بين الأحزاب . وكان دانته يحييه بلقب (موسى الجديد) ، ويعتبر أن مهمته تحقيق المصالحة بين الكهنوت والإمبراطورية .

« يا خلف قيصر وأوغست ، لقد عبرت إذن وديان الآبنين وكما تشرق الشمس المرغوبة كثيراً ، فإن الأمل بعصر أفضل أشرق من أجل إيطاليا » .

لقد أخفقت الحملة الإمبراطورية (١٣١٠ - ١٣١٣ م) ، وأصبح هنري بالرغم منه زعيم الحزب ، وأسير جنوده . وعندما وصل روما اصطدم بالغلفيين الذين تخندقوا في المدينة الليونية ، واضطر إلى قبول تتويجه في لاتران ، في ١٩ حزيران ١٣١٢ م .

وهذا الإرجاع الذي انقطع فجأة بموت الأمير في آب ١٣١٣ م ، قد مُني بالفشل حتماً ، لأن القومونات الغيبيلية التي كانت قد دعمت القضية الإمبراطورية ، كانت تنتظر في الواقع تثبيت الامتيازات التي تجعل منها دولاً مستقلة صغيرة ، وهذا معناه نفي أو إنكار حقوق الإمبراطورية على إيطاليا . ولم يكن ممكناً فيها إحياء السلطة الإمبراطورية . وانتصر الحزب الغلفي ولا سيما البابوية ، فضلاً عن أن أزمة سلالية انفجرت في ١٣١٤ م في ألمانيا . ولم يعد يختلط منذ الآن تاريخ إيطاليا بتاريخ ألمانيا .

الفصل الخامس

الكنيسة في كفاح جديد

قرن المسيحية الذهبي

إن الدور الذي يبدأ من العقود الأخيرة للقرن الثاني عشر إلى آخر القرن الثالث عشر، يعتبر، في الرأي السائد، العصر الذي بلغت فيه حضارة العصر الوسيط الأوج. فقد أعطى القرن الثالث عشر القديس فرانسوا أسّيز، والجامعات، والكاتدرائيات، ولذلك يستحق أن يطلق عليه (القرن الذهبي) للمسيحية في العصر الوسيط.

ومع ذلك يجب ألا نستسلم إلى تبسيط يرجع إلى صناعة الصور وتجارتها في أبينال، لأنها صور شعبية ذات أسلوب ساذج قام بنشرها التجار الجوالون وطبع منها الكثير في أبينال، وإنكار تعقيد التيارات التي اخترقته. إن أجمل (عصور الإيمان)، عصر إينوسان الثالث والقديس لويس، هو أيضاً عصر الهرطقة الالبيجوازية. فقد شهد نشوء مذهب القديس توماس الاكويني الموفق بين العلم والإيمان، مقولات الفكر الإغريقي واللاهوت المسيحي؛ ولكنه كان مطبوعاً أيضاً بتناقضات عميقة، ومنها رواية الوردة، التي تضم ٢٨٠٠٠ بيت بين مؤلفين، ودورين، ومفهومين للحياة والحب، ويمكن أن تبدو كرمز من الرموز. لقد شهد القرن الثالث عشر تشييد أوابد تعد من بين أروع أوابد المسيحية القوطية (الغوطية)، مثل كاتدرائيات رَنْسْ أو أميان؛ ولكنه شهد

أيضاً مسيحي شمال فرنسا يجتاحون ويدمرون ، باسم (الأصولية) المهددة ، ساحة حضارة المسيحية الجنوبية . إلا أنه بالرغم من تعقيده وتناقضاته يظل أكثر غنىً وسحراً .

وفي هذا العصر الذي ثبت فيه البابا إينوسان الثالث سلطة الكرسي الأقدس على المسيحية ، وبشر القديس فرانسوا بحب الله ومخلوقاته ، ومات ملك فرنسا لويس التاسع في نضاله ضد المسلمين ، لا يمكن أن توجز الحياة الدينية المسيحية في تمجيد هادئ للإيمان . فلقد عرفت الكنيسة أزمات خطيرة جداً وإخفاقات عديدة . والنجاحات التي أحرزتها لم تكسب إلا بعد كفاح مرير . لأن محاولة القديس وحدها لم تستطع منع الدمار النهائي للحروب الصليبية فحسب ، ولا مزاعم التيوقراطية (المشيئية) الحبرية ، ولا عودة النزاع العنيف ، بين السلطات الزمنية والسلطة الروحية ، الذي غلبت هذه الأخيرة في نهايته . لقد تمزقت الكنيسة حتى في داخلها . وكان عليها أن تكافح حركات هرطقية أكثر خطراً من الحركات التي ظهرت في العصر السابق ، لأنها استجابت لتطلعات انتشرت عن سعة عند المؤمنين . وللنضال ضد هذه الهرطقات ظهرت أنظمة جديدة ، أنظمة المتسولين ، وحاولت البابوية تعزيز نفوذها على جميع أشكال الحياة الدينية .

الهرطقات

ونظراً إلى أن الكنيسة القائمة لم تسد الحاجات الروحية للعديد من المسيحيين الشديدي الإيمان ، فقد نمت هرطقات رهيبة مريعة ، هرطقة الڤودوازيين[1] ، وبخاصة هرطقة الكتريين[2] اللتان أجبرتا السلطات الكنسية على المبادرة لاستعمال القوة بتنظيم حملة مكافحة الألبيجوازيين وإقامة محكمة التفتيش .

(١) الهرطقة الفودوازية تنسب إلى إقليم Vaud وهو كانتون سويسري لغته الفرنسية .

(٢) الهرطقة الكترية أو الألبيجاوزية انتشرت منذ القرن الثاني عشر في جنوب فرنسا بالقرب من مدينة ألبي . والكترية فرقة مانوية .

وفي منتصف القرن الثاني عشر يمكن أن يعتبر أن الحركة الغريغورية كان من نتيجتها النجاح ؛ لأن الكنائس تحررت في الجزء الأعظم منها من سيطرة السلطات الزمنية ، مما ساعد على تذكير الأكليركيين والرهبان بمراعاة النظام الكنسي مراعاة دقيقة . ومع ذلك فقد ظهر لكثير من المسيحيين أن هذا الإصلاح المادي والنظامي بصورة أساسية لم يكن كافياً .

التطلع إلى الفقر والهرطقة الفودوازية

ماذا يؤخذ على الأكليركيين والرهبان ؟ في المقام الأول ، الغنى وحب الثراء والكسب . وقد ظهر على إثر ذلك أدب هجائي وشعبي يشهر بحياة اللين والفتور والبذخ التي يعيشها الحبر أو الأب الأكبر ، بفضل عمل العملاء والتابعين ، ويغنى على حسابهم ، والشدة التي يجبي بها الأكليركيون والديرانيون الرسوم الثقيلة على المؤمنين (العشر ، التقدمات ، الهدايا) ، أو يطلبون من المسيحيين ، عند الوفاة ، هبات حبوساً . وهؤلاء الذين يجب عليهم ، بخاصة أكثر من غيرهم ، أن يضربوا المثل في الحياة الإنجيلية الحق ، كالسيستريين ، ينكرون المثل الأعلى في الكمال الروحي والتخلي عن الأعراض المادية الذي هو على رأس تأسيس نظامهم . يضاف إلى ذلك أن تطور العالم المسيحي نفسه أسقط هذا المثل الأعلى . لقد جرت الكنيسة في حركة الثراء الكبرى التي استهوت المجتمع الغربي كله . وأفادت المؤسسات الدينية من توسع إحياء الأراضي سواء أشاركت فيها بنفسها ، أم بالإنتاج الزراعي المتزايد الذي يعني بالنسبة لها نتاجاً أكبر من الأعشار أو من أجرة الأرض . وأفادت من يقظة الحياة العمرانية التي حثت على الاتجار المندفع لنتاجات الأرض ، وسببت ارتفاعاً بطيئاً ملائماً للمنتجين . وأكثر من ذلك ، ظلت الثروة الكنسية في ازدياد بعامل الهبات التقية . ونظام سيتو ، الذي فرض عليه « ميثاق الإحسان » الفقر التام (١١١٩ م) ، حتى في العبادة الإلهية ، أعطى المثل المؤثر لهذا التطور : فمنذ النصف الثاني للقرن الثاني عشر ، أصبحت

الاهتمامات المادية لهؤلاء ، الذين أصبحوا قبل كل شيء « مزارعين نموذجيين » ، مسببين ضرراً عظيماً لروحانيتهم . ففيما كان يجب في الأصل أن يكتفى بإنتاج ما هو ضروري لغذاء زهيد للرهبان وإعاشة الضيوف والفقراء ، انطلقت الأديرة السيسترسية في مضاربات تجارية أو مالية . وهكذا فإن الأديرة الإنكليزية لم تكتفِ ببيع صوف غنمها الخاص ، وكانت تجمع صوف فلاحي الجوار لبيعه ثانية بربح . وفي الوقت نفسه ، تخلى الرهبان السيسترسيون في الغالب عن عمل الأرض ، وأقاموا فلاحين على دومينهم وتحولوا إلى أصحاب دخل من الأرض . وبهذا يتضح عدم رضى العديد من المؤمنين وبزوغ حركات هرطقية في بعض مناطق الغرب .

بين المذاهب المارقة (المخالفة للدين الصحيح) ، التي عبرت بوضوح عن الفقر ، كان أقدمها المذهب الذي يرتبط بفكر آرنود برشيا . فهو الذي اقترح على الكنيسة ، لتتطهر ، أن تعزف عن الأموال الزمنية وتردها للعلمانيين ، وكشف عن طمعها بالمال وعن ريائها ، فأوقف وأعدم (١١٥٤ م) . وظل تلاميذه الارنالديون يبشرون بمذهبه ، ولا سيافي لومبارديا . لقد أنكر هؤلاء على الكنيسة وعلى الأكليروس كل حق في الملكية . وانزلقوا بسرعة إلى هرطقة معادية للكهنوت : فقد اعتبروا أن جميع الكهان الذين يتمتعون بفوائد زمنية ، أي العالم الكهنوتي بأسره ، ساقطين حقيرين ، وبالتالي فإن الأسرار المقدسة المخولة من قبلهم لا قيمة لها . وهذه الحركة الارنالدية أُسيء فهمها وشجبت في مجمع فيرونة في ١١٨٤ م بالصفة نفسها التي عرفت بها حركات أخرى مناوئة للأكليروس وملائمة للفقر اختلطت بها هذه الحركة في بلاد البحر المتوسط في آخر القرن الثاني عشر .

بين هذه الحركات حركة عرفت انتشاراً كبيراً هي الفالدية . ففي وسط عمراني أيضاً ، مدينة ليون ، التي أثرت بدورها محطةً تجارية في القرن الثاني عشر ، وفي داخل الطبقة التجارية ، نشأت هذه الهرطقة . ومبادهها

بيير ڤالدو ، كان تاجراً غنياً وتقياً ومشبعاً (وهذا متاعه الفكري الوحيد) ، بقراءة الإنجيل وسير القديسين . تأثر بفضل الله و (اهتدى) نحو ١١٦٠ ، وباع أمواله وصار يعمل ويبشر بالفقر الإنجيلي . ومع بعض التلاميذ الذين أخذوا من بعد اسمه (ڤودوا دو ڤالدانس) ، عاش من الإحسان العام . وعملاً بذلك ، سمي ڤالدو وتلاميذه (فقراء ليون) ، وأصبحوا مجرمين بقيامهم بالتبشير مع أنهم لم يكونوا غير علمانيين بسطاء . وبمنع هذا التبشير بشراسة وبخرق في (١١٨٠ ـ ١١٨١ م) ، دفعهم رئيس أساقفة ليون والبابا إلى الهرطقة ، فثاروا ضد هذا القرار وأخذوا يفشون فساد الأكليروس ، مؤكدين على أن السلطة الدينية والنظامية مؤسسة على فضيلة الممسك بها وليست مخولة بترقية إلى درجة كنسية ، واستخلصوا أن جميع المؤمنين الأفاضل هم كهان الله ويمكنهم أن يعملوا كما هم . وفي رغبتهم الحارة في الرجوع إلى الحياة الإنجيلية توصلوا إلى تمني تبسيط أقصى للمسيحية ، وأنكروا صحة وحتى وجود معظم الأسرار تحت الشكل الطقسي الذي أعطته لها الكنيسة . ورفضوا مذهب مناولة القديسين والمطهر ، حتى أنهم رأوا من غير المفيد كل مكان عبادة ، كل صورة ، وكل طقس . وفي عطشهم إلى الطهارة المطلقة ، أوصى الفودوازيون النخبة بالعفة التامة وشجبوا الكذب بشكل مطلق .

ونما عدد تلاميذ ڤالدو ، وانتظموا في جماعات أخوية . والنخبة ، التي بيدها التوجيه الروحي للجماعة ، تتألف ممن يبيعون أموالهم لصالح إخوانهم ، ويقبلون ، بوضع يدي (الرئيس) على رأسهم لمباركتهم ، سلطة الحواريين ويتعهدون بالعفة التامة ليعيشوا حياة تشبه حياة الأديرة . وعين مبشرون أثناء انعقاد المجالس لتبشير كافة المؤمنين ومتابعة نشر الأفكار الجديدة والدفاع عن مذهبها . وكتاب الطقوس أو الرتب يتألف من تفسير حر للكتاب المقدس ، وصلوات جماعية ، ووجبة طعام في يوم خميس العهد ، خميس القربان

أو الأسرار ، ويذكر بالعشاء الرباني أو (السري) ، وقد اضطهد الفودوازيون بشكل متقطع خلال القرن الثالث عشر ، ولكنهم نشروا مذهبهم بخاصة في الوديان الألبية (جبال الألب) ، في بريانسونية والبيمونت حيث حققت الفالدية تقدماً هاماً ودائماً أكثر من غيرها .

ولكن أفكار فقراء ليون راجت على طول الطرق التجارية الكبرى ، وبلغت أبعد المناطق . من ذلك أن عرف وجود طائفة في مدينة أراس في منتصف القرن الثالث عشر من الاضطهاد الذي استشرى عليها . وفي المناطق المتوسطية اتحد الفودوازيون مع حركات هرطقية أخرى ؛ وفي أوساط مستحدثي (الصناع) المدن (القماشية) في لومبارديا انضموا إلى المهانين الذين ظلوا في معظمهم أوفياء للكنيسة القائمة . وفي اللانغدوك اختلطوا بحركة هرطقية ، من طبيعة مختلفة ، حركة الكاتاريين .

التطلع إلى الطهارة والهرطقة الكاتارية

في سياق القرن الثاني عشر نمت هرطقة الكتريين ، من كلمة إغريقية تعني (الأطهار) ، ومن العسير جداً ، نظراً للصفة الجزئية والمنحازة جداً في الوثائق (لأن الكاتاريين يبدون لنا في الغالب عبر الردود والانعكاسات التي أثارتها هرطقتهم من جانب الأصوليين الأورثوذكس) ، أن نوضح بدقة أصول الحركة ومراحل انتشارها . ويبدو أن الفرق الكاتارية نشأت ، في الغرب ، من تبشير البوغوميليين ، الهراطقة المانويين العديدين في البلقان في القرن العاشر والحادي عشر : والأسماء (بلغاريون) ، أو (بوغريون) ، التي يدل بها عليهم في كل مكان ، تبدو أنها كانت الدليل على ذلك إن بقايا المانوية في المناطق الغربية ، حيث كانت الكنيسة ، في شخص القديس أغسطينوس خاصة ، تكافحهم في القرن الرابع والخامس ، استطاعت أن تسهل نجاح المبشرين الشرقيين .

ومهما يكن ، ومنذ الأصل ، فإن الهرطقة الكاتارية في الحد الذي تنتمي فيه إلى تعاليم لاهوت عالم ، تتميز عن الحركات الهرطقية ، مثل الفالدية ، الناشئة من تطلعات أناس سذّج وجاهلين . وإذا كانت هنالك مشابهات لا تنكر ، بين الفرقتين ، يمكن أن توضح ، فهي توضح بالعدوى التي لم تأل الكاتارية جهداً في ممارستها على الفالدية في المناطق التي نمت فيها الحركتان جنباً إلى جنب . لقد كوّن الكاتاريون في الواقع ، مريدين ، حيث كان المناخ الديني مضطرباً من قبل : فمن ذلك يدل على شمال فرنسا (بورغونيا ، شامبانيا ، فلاندر) ، وعلى بلاد الراين ؛ ونجدهم أكثر في إيطاليا الشمالية ، على طول الطرق التجارية التي تصل هذه المناطق بالشرق البيزنطي ، حيث تلقوا تركة الحركة الباتارينية[1] القديمة ؛ ولكن موطنهم الأصلي جنوب فرنسا (بروفانس ، لانغدوك) حيث يسمون (البيجوازيين) ، وإن نجاحهم في هذه المنطقة الأخيرة يعزى أولاً إلى قباحة ولا شعبية قسم كبير من الأكليروس اللانغدوكي ، الذي يعتبر غليوم دو بويلورنس[2] صدى له .

ومن جهة أخرى ، إن جو التسامح السياسي والاجتماعي شجع تقدم الهرطقة . لقد سأل أسقف فارساً كاثوليكياً طيباً لماذا لا يطرد الهراطقة من أراضيه ، فأجاب : « لا نستطيع ، لأننا تربينا معهم ، ولنا أهل بينهم ونراهم يعيشون بشرف » .

ماهو المذهب الذي يعلمه الألبيجوازيون ؟ إنهم يعتقدون كالمانوية بوجود مبدأين ، الخير والشر في نزاع دائم . وفي بداية القرن الرابع عشر ، عرف الأخ برنارد غي في : (كتاب المفتش) ، فكرهم بهذه العبارات :

« فرقة المانوية تعترف وتعلم بوجود إلهين أو سيدين ، وهما إله الخير وإله

(١) حركة فرق هرطقية في إيطاليا الشمالية في القرنين ١١ و ١٢

(٢) بويلورنس مدينة في إقليم كاهور في فرنسا .

الشر . ويؤكدون بأن خلق كل جميع الأشياء المرئية والمادية ليس من عمل الله ، الأب السماوي - من يسمونه إلّه الخير - وإنما هو من عمل الشيطان ، إبليس ، إلّه الشر ، إلّه هذا القرن وأمير هذا العالم .

فهم يميزون إذن خالقين ، الله والشيطان ، وخلقين ، خلق الكائنات غير المرئية وغير المادية ، والآخر خلق الأشياء المرئية والمادية » (ترجمة مولاّ - شامپيون) .

ولما كان العالم الأرضي من عمل روح الشر ، فإن الكاتاريين يبشرون بازدراء كل ما هو مادي . ولتستطيع الروح الانفصال عن العالم ، يوصون بممارسة الزهد وبخاصة تجنب الزواج الذي يديم اللحم . وباسم هذا المبدأ نفسه ، يشجبون الكنيسة القائمة وينكرون كل قيمة لطقوسها ولأسرارها ، ويطرحون بعض عقائدها ، قبل تجسيد المسيح وألوهيته ؛ ومن المستحيل في نظرهم أن يصنع إلّه الخير نفسه لحماً .

وعلى هذا فقد نظم الكاتاريون « كنيسة - مضادة » حقيقة لها طقوسها الخاصة ، أساقفتها ، مجالسها . وانعقد مجمع كاتاري دولي كبير في ١١٦٧ م في سان - فيليكس - دو - كارامان بالقرب من تولوز . والفرق الكاتارية تضم فئتين من المؤمنين :

أ - من هم أكثر تقدماً في طريق التجرد ويشكلون فريق الكاملين ، وهم في الواقع الذين تلقوا نوعاً من تعميد روحي ، يجري بوضع الأيدي على الرأس ويجبر من يتلقاه على ممارسة الزهد الشديد .

ب - المؤمنون البسطاء ، وهم كثر .

وكان هؤلاء المؤمنون ينتظرون لحظة الموت لتلقي التعميد الروحي لأنه كان بالنسبة لهم نوعاً من مباركة قصوى بالمسح بالزيت .

وفي جنـوب فرنسـا ، كان تقـدم هـذه العقيـدة صـاعقـاً ، ففي آخر القرن الثاني عشر ، كان الكاثاريون كُثراً حتى أنهم لا يخفون أنفسهم . وكما هي الحـالـة في الڤالدية ، مست الحركة الكاثاريـة المـدن بخـاصـة ، حيث انتسبت البورجوازيـة والطبقات الشعبية بكتلتها ، بجماهيرها ، إلى المذهب الجـديـد . ولكن كان أيضـاً بين الكاثـاريين ، نبلاء مـؤمنـون عن إخـلاص أو مفتـونـون بـأمـل تملـك أمـوال الكنيسـة ، مثل كونت فوا وفيكونت بيزيـه ، هـذا ويرسم لنـا كـونت تـولـوز ، ريمون السادس الذي كان ولا شك متعاطفاً مع الهرطقة ، بهذه العبارات ، الحالـة في المجلس العام لنظام سيتو .

« لقـد تغلغلت الهرطقـة في كل مكان ، واستسلم الكهـان أنفسهم للعـدوى . الكنائس خالية وسقطت في دمار . أما أنا ، فأعمل كل مـابـإمكاني لإيقـاف هـذا الوبـاء ، وأشعر بـأن قـواي تحت هـذه المهمـة . إن الشخصيـات الهـامـة في أرضي استسلموا للفسـاد . وسـار الجمهور على منـوالهم ، وهجر الإيمـان ، وهـذا مـا يجعلني لا أجرؤ حتى ولا أقدر على قمع الشر » .

قمع الهرطقة : مكافحة الإلبيجوازيين ومحاكم التفتيش

لقد كان عمل الأكليروس المحلي ، ضد الألبيجية غير مجدٍ ، عديم التـأثير ، لأن رجال الـدين النظـاميين والزمنيين كانوا أنفسهم في الغـالـب مصـابين بـالعـدوى . والبابا إينوسان الثالث ، منذ أن اعتلى العرش الحبري (١١٩٨ م) قرر أن يـأخـذ على عـاتقـه هـدي الهراطقـة ، ولكن المبشرين السيسترسيين المرسلين لتبشيرهم لم يلقوا نجاحـاً . وعنـدئـذٍ تلقى أسقف أوسما الإسبـاني ، دييغو ، من البـابـا السماح باستعمال طرق جديدة في التبشير ، وصحبـه رفيق واحـد ، مسـاعـد رئيس مجلس الدير ، دومينيك ، وباشر برد الهراطقة إلى الإيمان الحقيقي بإعطـائـه نفسـه المثل لحياة زاهدة وفـاضلـة : وتخلى عن نمـط الزهو الـذي كان عليـه المرسلون الحبريون

وسار عاري القدمين ، بلباس فقير ، في طرق لانغدوك . وفي كل مكان قدم نفسه لدعم مؤتمرات مضادة للكاملين . وبدأت حركة هداية خفيفة للكاثوليكية الأصولية (الأرثوذوكسية) . ولكن الكترية كانت قد تجذرت بعمق حتى لا يكفي لاستئصالها رجلان في بضعة أشهر .

ولهذا العمل الطويل النفس ، قرر إينوسان الثالث أن يعهد به إلى نظام مبشرين دائمين ، وكلف رفيق دييغو ، دومينيك ، بتنظيمه . وعلى هذا النحو نشأ نظام الدومينيكيين .

ومع ذلك تفاقمت الحالة السياسية والدينية بفظاعة في اللانغدوك ، ففي ظروف غير واضحة تماماً ، في ١٢٠٨ م ، قتل المفوض الحبري بيير دو كاستيلنو من قبل موظفي كونت تولوز ، ريمون السادس . واتهم هذا الأخير بأنه شجع على القتل ، وحرمه البابا إينوسان الثالث الذي قرر أن يقوم بإعداد حملة مكافحة ضد الهراطقة . رفض ملك فرنسا فيليب أوغست ، المشاركة بها ، ولكنه ترك أتباعه أحراراً للقيام بذلك .

وللاستفادة من جميع الفوائد المادية والروحية المعترف بها للمكافحين المنضوين تحت إمرة الممثلين الحبريين ، انطلق أمراء صغار ومغامرون أتوا من الشمال ، بينهم سيمون دومونفور ، الذي ترأسهم ، إلى اللانغدوك . وتحولت مكافحة الألبيجوازيين بسرعة إلى حرب الشمال ضد الجنوب وإلى حملة نهب وسلب .

وبالرغم من ضمانات الخضوع التي أعطاها ريمون السادس للبابا ، بقبول توبة علنية في ١٢٠٩ ، فقد قام المكافحون بمذابح شرسة ، كما جرى في نهب مدينة بيزيه (١٢٠٩ م) .

وتكررت فصول الهول والرعب نفسها عند أخذ قصر لاڤور (في إقليم التارن) في فرنسا .

وليحافظ ريمون السادس على دوله ، نظم عندئذٍ المقاومة ، فمني بشجب حبري جديد (كانون الثاني ١٢١١ م) ، وهزيمة وموت بيير الثاني داراغون ، في مورية ، (١٢١٣ م) ، بعد أن بادر لنجدته ؛ وأخيراً سقوط تولوز بعد سنتين من الحصار (١٢١٣ ـ ١٢١٥ م) . كل ذلك أجبر ريمون السادس على تسليم البابا جميع دوميناته ، وأعطيت هذه إلى سيمون دومونفور . ولم يكن لهذا الأخير الوقت الكافي للإفادة من فتحه . ففي ١٢١٧ م قامت ثورة عامة استدعت حضور ريمون السادس الذي عاد ظافراً إلى مدينته تولوز . ولا سيمون دومونفور الذي قتل آنذاك عندما قام بهجوم جديد في (١٢١٨ م) ، ولا ابنه آموري دومونفور ، ولا حتى الأمير الملكي لويس (١٢١٩ م) استطاعوا استعادة المدينة .

وهكذا فإن الكونت ريمون السادس ، ثم بعد موته (١٢٢٢ م) ابنه ريمون السابع ، استطاعا أن يدخلا من جديد في حوزتها كل أراضيها . أما بالنسبة للكنيسة فكل شيء يجب أن يبدأ من جديد ، لأن الهرطقة ، بفضل سياسة كونتات تولوز المتسامحة ، عاودت نهوضها . ثم إن البابا هونوريدس الثامن حرم ريمون السابع ، وأطلق حملة مكافحة جديدة استلم ملك فرنسا لويس الثامن توجيهها . وأخيراً ، بعد سقوط آڤينيون (١٢٢٦ م) خضع اللانغدوك للملك . وانتهى الخلاف بنصر الشمال على الجنوب والأصولية على الهرطقة . وفي معاهدة باريس (١٢٢٩ م) ، سلم ريمون السابع مباشرة إلى ملك فرنسا القسم المطل على البحر المتوسط من دوله (كاركاسون ، بيزيه ، آغد ، نيم وجنوب الألبيجوا) . وقبل أيضاً بزواج ابنته الوحيدة جانّ بالفونس بواتيه ، أخ لويس التاسع . وهكذا تهيأ الالتحام النهائي للانغدوك في الدوبين الكابسي . وحاول ريمون

السابع عبثاً بمساعدة ملك إنكلترا ، هنري الثالث ، استئناف النزاع (١٢٤٢ - ١٢٤٣ م) . وعندما توفي الفونس بواتيه وجانّ دون خلف ، في ١٢٧١ م ، ضم ملك فرنسا ، فيليب الثالث الجريء ، وارثها ، اللانغدوك إلى التاج .

ولم يكن انتصار الأصولية أكثر من قضية زمن ؛ ففي ١٢٢٩ م ، اضطر ريمون السابع بأمر من البابا وملك فرنسا ، إلى اتخاذ إجراءات لكفاح الهرطقة ؛ وفي الوقت الذي أنشئت جامعة في تولوز (١٢٢٩ م) لنشر المذهب الأصولي ، بوشر بملاحقات ضد الكاتاريين على يد محكمة التفتيش . إن الأصول التفتيشي المبني على تحقيق سري وعلى اللجوء إلى التبليغ السري للكشف عن الهراطقة ، أحدثه إينوسان الثالث في سياق النضال ضد الكاتاريين وهذا الأصول عهد به أولاً إلى الأساقفة الذين كلفهم مجمع لاتران (١٢١٥ م) بتنظيم جولات زيارات خاصة عبر الأبرشية وطلب الشهادات . وفي الوقت نفسه شدد آباء المجامع الدينية العقوبات ضد الهراطقة الذين لا يتوبون ، وذلك بمصادرة أموالهم لصالح سيدهم ، وكان هذا التدبير واسطة لتشجيع الإفشاء . أما الهراطقة فيحكمون بالسجن مدى الحياة أو يسلمون إلى السلطة الزمنية ليلقوا في النار . وهذا (التفتيش الأسقفي) على اعتبار أنه يحصر البحوث في حدود الأسقفية ويعهد بها إلى أساقفة تتغير غيرتهم ونشاطهم ، ظهر أنه غير كاف . ولهذا قرر غريغوار التاسع أن يعهد بملاحقة الهراطقة إلى مفوضين رسوليين مقلدين بسلطات واسعة ، ولكنها مؤقتة . وهؤلاء هم المفتشون . وكانوا أعضاء نظام الدومينيكيين الجديد واختيروا (١٢٣٢ - ١٢٣٣ م) للقيام بهذه المهمة ، وخاصة في جنوب فرنسا . وكان أول ضحايا الاضطهاد الأسقف الكاتاري فيغورو دو باكونيا (١٢٣٣ م) ، ومن بعد أخذ الاضطهاد بالاستشراء .. حتى أن أهل وأصدقاء الهراطقة أنفسهم ساورهم القلق . وكانت ردود الفعل الشعبية اللانغدوكية حتمية ؛ ففي ناربونة ، أحرق الجمهور الدير الدومينيكي . وفي تولوز خضع الإخوة لحصار حقيقي وغادروا المدينة .

وأخيراً ، إن أهـوال القمـع ليست غريبـة على الثـورة الأخيرة التي أشعلها ريمـون السـابع كونت تولوز في ١٢٤٢ م وأطلقت تحـديـاً للكنيسـة وللملـك بقتل ثـلاثـة مفتشين دومينكيين .

أخذ البـابـا إينوسـان الرابع درسـاً من هـذه الحوادث ، فقرر ، دون أن يمنع نفسه عن اختيـار وتسميـة المفتشين ، أن يضعهم تحت سلطـة رؤسـائهم المبـاشرين ليستطيع هؤلاء منع إساءة استعمال السلطـة التفتيشيـة (١٢٤٤ م) . ثم إن ربـط الأراضي اللانغدوكيـة بـالـدومين الملكي (١٢٧١ م) أمن لمحـاكم الكنيسـة مسـاعـدة غيورة من قبل موظفي الملك . وإذا وضعت جـانبـاً بعض المراكز المبعثرة القليلـة الخطر ، فيمكن أن يعتبر أن الهرطقة الكاثـاريـة قـد أوقفت في نموهـا ، في بـدايـة القرن الرابع عشر .

ولم يرجع نجاح الكنيسة فقط إلى استعمال القوة وحدهـا . ففي الوقت نفسـه بـذلت جهود في داخل الكنيسـة لرد الهراطقـة إلى الأصوليـة بـالإقنـاع وبـالمثل : وذلك بعمل أنظمة جديدة ، أنظمة المتسولين والبابوية نفسها .

تطور الحياة الدينية

أنظمة المتسولين

كانت نظم المتسولين الأداة النشيطة لردّ فعل الكنيسة تجاه تهديـدات الفرقـة والبعثرة ؛ فقد ساعدتها على خلق أسلوب فكر وحياة مسيحية جديداً تماماً ، وعلى رد العنـاصر التي اتجـه بهـا العصر بسهـولـة إلى إبعـادهـا عن حضن الكنيســة . إن الفرانسيسكان والـدومينيكان ؛ وإن اختلفوا في أصـولهم ، يمثلـون حركات نشـأت من المدينة ، كلفة بالفقر والحياة الإنجيليـة . وهم يبتعـدون عن المجتمع ويقتصرون على الطلب منـه ، بـالتسـول ، حـداً أدنى من الغـذاء . وبخـاصـة لا يتعلقـون إلا بالكرسي ـ الأقدس .

الإخوة الصغار ، إخوة القديس فرانسوا

في الأصل ، إن الإخوة الصغار ، إخوة القديس فرانسوا داسيز يتميزون قليلاً جداً عن الخشع المستكينين المشجوبين في فيرونة . كان فرانشيسكو دي برناردون ابناً لتاجر غني من أسيز ، وكان في هذه المدينة أحد الأعضاء البارزين في الشبيبة الجديدة الذهبية ، التي كانت تهتم بتشبيه نفسها بالطبقة النبيلة بمظهرها الخارجي وبحثها عن الأسلوب الجيد في الحياة الاجتماعية . وقد جعله حلمه بالفروسية يسهم في حرب بين مدينة أسيز وبيروز (أو فيروز) . وعندما سجن اتجه نحو الله بعد عودته بقليل ، في ١٢٠٦ م ، وبالرغم من جميع الضغوط الأسرية ، والاجتماعية ، والكنسية ، تخلى عن إرثه وأصبح ناسكاً . عاش زمناً طويلاً وحيداً في الجبال ، واعتنى بالمجذومين ، وبشّر في الشوارع وهو يتسول طعامه . وبالرغم من أن العديد من التلاميذ قلدوه ، فقد كره وأبى طويلاً أن يؤسس طائفة حقيقية . « في الغالب الأعم ، كانوا يتيهون ، كلّ من جهة ، مشاة دوماً عارين القدمين ، فرحين ، مرحين ، ومنشدين دوماً ، ويعلنون عن أنفسهم أنهم مرتلون مداحون بحب الله ، ويساعدون الفلاحين في أعمال الحقول » وتبشيرهم يقوم على التوبة والسلام ؛ لأن فرانسوا وتلاميذه لا يريدون شيئاً آخر إلا التائبين ، وباعتبارهم علمانيين متواضعين ، تخلوا عن أموال هذا العالم وأصبحوا خدم (سيدة الفقر) ولكن النجاح وضع بسرعة قضايا خطيرة ، وذهب فرانسوا في ١٢١٠ م يطلب من روما الموافقة على حركته . وبعد تحقيق دقيق سمح إينوسان الثالث لفرانسوا بالتبشير بالتوبة ، شريطة ألا يستعمل البرهنة اللاهوتية . فمن ١٢١٠ إلى ١٢٢٠ م كان تقدم الحركة صاعقاً وامتد إلى كل المسيحية . ولتحقيق الروح الإنجيلية بكاملها ، لم يكتف الإخوة الصغار بالتبشير ، بل كانوا أيضاً يعملون ، ويعتنون بالمرضى ، ويمارسون التأمل . ومنذ الآن أصبح فرانسوا أسيز يلقب بـ (الفقير الصغير) ، ومجد التأمل الديني كتطابق ، تماثل ، للطبيعة خالقة الله .

وذهب حتى النهاية في الرمز ، وتكلم مع العصافير بلغتها ، وفي آخر حياته بلغ قمة الزهد المسيحي ، بتقبله الوسوم أسوة بجروح السيد المسيح المصلوب الخمسة . وضم إلى النظام الناشئ طائفة نسوية ، الكلاريسات ، وحجَّ مبشراً في الأرض المقدسة ثم في إسبانيا وفي مراكش . وتضاعفت المهمات والواجبات حتى أن البابا الجديد غريغوار التاسع ، الكاردينال القديم هغولن ، حامي الفرنسيسكان ، فكر بأن يستعمل بشكل أوسع وأعقل كل الطاقات بتأسيس نظام حقيقي . ولهذا كان يكفي أن يكيف تنظيمه مع الأطر الموجودة من قبل في تسلسل الأنظمة الدينية . وانطلاقاً من ١٢٢٠ م ، قبل فرانسوا قاعدة ، تشكيل المجالس ، وتحويل المؤسسات المؤقتة والبائسة في البدء إلى أديرة حقيقية . واختير أكليركيون مثقفون لوضع نظام تسلسل ، ومنذ الآن لم يقبل العلمانيون إلا في نظام طبقات ثالث . وهذه الحركة المضطربة والمجنونة قليلاً لأصدقاء (سيدة الفقر) تأطرت بصلابة بواسطة الآلة الكنسية القوية .

وبعد وفاة فرانسوا (١٢٢٤ م) لم يكذب نجاح الفرنسيسكان ؛ ففي ١٢٣٩ م وجد الإيطاليون في حالة أقلية . والرئيس نفسه كان من أصل إنكليزي . ومنذ ١٢٦٣ م كان في فرنسا أكثر من ألف دير ، ونظراً لأهميتها فإن المجالس العامة ، لا يمكن أن تنعقد إلا كل ثلاثة أعوام . ووسع الفرنسيسكان من جهة أخرى دورهم في التبشير في الجامعات . وابتعدوا عن مدح الجهل ، وأصبح الإخوة تلاميذ ، ثم معلمين للاهوت في باريس ، حيث علم ألكسندر دو هاليس وفي بولونيا حيث استقر برنارد دو كونتاڤال ، وفي أوكسفورد . وفي الحقيقة إن تحويل الإخوة العلمانيين الصغار إلى نظام أكليركيين مثقفين لم يجر دون أزمات ، لأن عدة إصلاحات وانقسامات فتتت الأسرة الفرنسيسكانية ، الممزقة بين المتنطسين والمتمسكين بأهداف المؤسس المتواضعة ، وهم الروحانيون ، وبين من يمسك بهم مع نظام (المؤسسة) الرسمية ، غنى تدريجي بانحراف المؤسسات التقية .

ولكن ، أخيراً ، بلغت الغاية التي كانت البابوية قد عينتها للنظام وهي : أن تعاد إلى حضن الكنيسة كل الطاقات الكريمة التي سحرها الفقر الإنجيلي .

إخوة القديس دومينيك المبشرون

على خلاف الفرنسيسكان الذين لم يدخلوا إلا تدريجياً في القالب ، كان إخوة القديس دومينيك المبشرون تشجعهم البابوية منذ بداياتهم . فمن ذلك أن الكاهن القانوني المنتظم دومينيك دو غوزمان ، عندما زار اللانغدوك ، استطاع أن يدرك إخفاق التبشير السيسترسي تجاه الهرطقة الكاتارية . وقدم حينئذ مشروع تبشير بالفقر قبله البابا ، وظل مكانه ليضرب المثل عنه . فمن ١٢٠٥ إلى ١٢١٥ م بشر دومينيك مع بعض النجاح ، ولكن دون أن يكسر الألبيجية بعمق . وهذا ماجعله يوافق على مكافحة سيمون دو مونفور ، المعتبرة كقصاص إلهي . وبعد استعادة تولوز ، أقام فيها أوائل تلاميذه وقبلوا هبات عديدة . ثم وافق إينوسان الثالث ، في ١٢١٦ م ، على هذه الطائفة الصغيرة التي تبنت قاعدة القديس أغسطينوس لتحول المنع الذي تم في مجمع لاتران في تأسيس نظم جديدة . ولبس هؤلاء الكهنة القانونيون اللباس الأبيض ، وأخذوا من بعد لقباً أكثر تواضعاً وهو (إخوة) . وعندئذ شكل دومينيك شخصية نظامه بتوجيهه حصراً نحو التبشير بالعقيدة ، الذي يفرض ، في بلد عالم وعاقل ، معارف واسعة جداً . وأصبحت كل طائفة مدرسة ، والعمل الفكري خلال أربع ساعات في اليوم إجباري على الإخوة . كما أصر النظام بحق على الفقر الإنجيلي . ولكن الاهتمامات التربوية تفوقت في البدء . وبعد رحلة إلى روما استطاع دومينيك خلالها اللقاء بفرانسوا أسّيز ، وتقرر على إثره انتشار جغرافية الطائفة . وحوالي ١٢٢٠ م وجد دومينيكيون في باريس ، في شارع القديس جاك ، وفي ليون ، وسيغوفيا ، ومدريد ، وروما وبولوني . واستطاع النظام النسوي الدومينيكي المقيم منذ ١٢٠٦ م في بروىْ ، في لانغدوك أن ينتشر بدوره . وفي ١٢٢١ م ، انعقد المجلس

العام في بولونيي وأُعد نظـامـاً أصلب من نظـام الإخوة الصغـار ، وهو نظـام (الإخوة المبشرين) الذي يجمع بين شدة النظام والروح الديموقراطية . وكان على رأس كل دير رئيس منتخب ؛ والرؤساء الإقليميون يؤمنون الارتباط مع المعلم العام الذي يرتبط مباشرة بالكرسي ـ الأقدس . وهذا المفهوم السواسي يذكر قليلاً بمفهوم القومون العمرانية (المدينة) التي أقيمت فيها الأديرة . وبسرعة جاء الفوز : فقد حسب تقريباً خمس مئة دير في آخر القرن . وفي الغالب يرى في مدارس الأديرة القريبة التناول من المبتدئين بالترهب (الأغرار) في النظام ومن الأكليروس الزمني ، أن نفاذ التعليم كان عظيماً ، كان الدومينيكيون يعلمون الفنون الحرة ، ومن ثَمّ الفلسفة الأرسطاطاليسية . وقد جهد الأساقفة في أن يجدوا فيهم مساعدين أحياناً مزعجين ، ولكن ثمينين . وعلى المستوى المتوسط يوجد حلقة وسطى للاهوت في الإقليم ، وفي القمة خمس مدارس كبرى : أوكسفورد ، كولونيا ، بولونيا ، تولوز وباريس . وأحياناً يدخل الأساتذة المديريون في خلاف مع الأساتذة الزمنيين ، وخاصة في باريس حيث قدم الإضراب الجامعي لعام ١٢٢٩ م إلى النظام الفرصة لاحتكار وظائف جديدة . ومنذ منتصف القرن ، كان مشاهير الأساتذة دومينيكان : مثل بيير دو تارانتيز ، البابا في المستقبل ، ألبير الكبير المولود في سؤاب ، وتوماس الإكويني ، النابوليتاني ، ولكن كليهما علما في باريس . ولم ينس النظام كذلك بأنه تأسس لقمع الهرطقة ؛ فبالنسبة إلى اللاشعبية التي تعرض لها ربما كانت النتائج التي حصلت عليها المحاكم الاستثنائية ، مشجعة قليلاً . ومع ذلك فقد شارك المبشرون في كل نضال العصر ، وحتى السياسية صرفاً ، مثل نضال مدن إيطاليا الشمالية للحصول على مواثيقها .

تعزيز السلطة الحبرية

وللنضال ضد قوى الشقاق والانفصال التي تهدد المسيحية آنذاك ، حاول بابوات القرن الثالث عشر تعزيز السلطة الحبرية وتقوية مركزية وتوحيد شكل العالم الأكليركي .

ظهرت هذه الإرادة من قبل في السياسة التي تابعها الأحبار لتوجيه رغبات الإصلاح الفوضوية ولمكافحة الهرطقات . وبعد بعض الترددات شجعت البابوية أخيراً الطرق المتسولة ووضعتها تحت حمايتها ، وهذا ماساعدها على مراقبتها ، وكذلك وجد البابوات في شخص الرهبان الجدد ، الموضوعين خارج الأطر الأبرشية أو الوطنية ، العمال الأوفياء لها والغيورين على سياستهم . وبنفس الشكل رفع قمع الحركات الهرطقية ، مؤقتاً وجزئياً على الأقل ، عن الأساقفة ليسلم إلى مفوضين حبريين ، ومن ثم إلى الدومينيكان . وأخيراً ، لمراقبة تكاثر وازدياد الأفكار الجديدة التي يمكن أن تؤدي أيضاً إلى الهرطقة ، وضعت البابوية تحت وصايتها الجامعات الناشئة .

ولكن تعزيز السلطة الحبرية يقرأ بشكل أوضح أيضاً في عدة إجراءات تنزع إلى أن تجعل من الكنيسة ملكية مركزية حقيقية . وقد جرى عمل المركزية هذا على الصعيد التشريعي بادئ بدء . فللمساعدة على توحيد الحق الكنسي ، حاول أحبار القرن الثالث عشر تقنين الكتلة العظيمة من القرارات الحبرية التي لها قوة القانون أو تشكل سابقة حقوقية . وحتى آخر القرن الثاني عشر ، كان القانونيون ، رجال القانون ، يكتفون بالمجموعات الخاصة ، مثل المجموعة التي كان قد نشرها غراسيان في بولونيا في ١١٤٠ م (مرسوم غراسيان) ، والتي كانت غير كاملة . وفي ١٢٣٤ م أمر غريغوار التاسع بجمع أربعة كتب من القرارات البابوية في أول مدونة ؛ فقد أضيفت إلى مجموعة المذهب التي جمعها غراسيان ، قرارات أسلافه المباشرين على عرش القديس بطرس والمجامع الدينية الأخيرة . وفي ١٢٧٤ م تمم غريغوار العاشر ، ومن بعده بونيفاس الثامن ، في ١٢٩٨ م ، عمل التقنين بإصدار الكتاب الخامس والسادس من القرارات البابوية . وأصبح رجال القانون من رجال الدين يتصرفون منذ الآن بأداة عمل هامة بالنسبة لهم ، كما (المدونة الأصولية للحقوق) ، وأشهرها مجموعة مدونة جوستينيان أو باندكتا

[٥٣٣] ، بالنسبة لرجال القانون المدنيين . وهذا التنظيم لتشريع الماضي كان أبعد من أن يمثل كل النشاط التشريعي لبابوات القرن الثالث عشر . ويظهر هذا النشاط أيضاً بدعوة الكثير من المجامع الدينية المسكونية : مثل مجمع لاتران الرابع في ١٢١٥ م الذي عقده إينوسان الثالث ونظم التعليم في كل المسيحية وأملى الالتزام بتناول القربان المقدس السنوي ؛ والمجمع الثاني المنعقد في ليون (١٢٧٤ م) الذي دعا إليه غريغوار العاشر ، نظم وضبط أصول الانتخاب الحبري ، فمنذ الآن على الكرادلة أن يبقوا في حال انعقاد مجلس مغلق أو مجمع كرادلة حتى انتخاب البابا . وازدوجت المركزية التشريعية بجهد المركزية المالية : فلينتصر قانون روما في الكنيسة والسياسة الحبرية في العالم المسيحي ، شعرت البابوية ، كالعواهل العلمانيين في الوقت نفسه ، بالحاجة إلى زيادة مواردها المادية . وبالفعل فإن البابا ، بالرغم من أنه كان زعيم كنيسة غنية جداً محلياً ، كان يعيش حتى ذلك الحين مما يخصه ويكتفي بإيرادات متواضعة تأتيه من جهة ، من أسقفية روما ، ومن جهة أخرى ، من الدولة الإقطاعية الصغيرة التي هي تركة القديس بطرس . أما الكنيسة الكونية ، العامة ، فلم تقدم للكرسي الأقدس إلا ضريبة ضعيفة جداً تتمثل بصدقات الزائرين الآتين للحج في روما ، وبدانق (دينار) القديس بطرس المفروض في إنكلترا وفي الدانيمارك (بمعدل دينار على المؤمن) وبالضرائب الإقطاعية ذات القيمة الرمزية أكثر منها واقعية ، والتي تدفع من بعض الممالك التابعة لروما ، الأراغونة ، وصقلية وإنكلترا . ولذا كان البابوات منذ آخر القرن الثاني عشر مهتمين بإعداد نظام ضريبي حقيقي ، ونظراً لعدم القدرة على وضع ضريبة على كافة المؤمنين (والإخفاق الذي منيت به ضريبة « عشر » صلاح الدين في ١١٨٧ م كان قاطعاً) ، حاولوا أن يفرضوا على كل كنيسة في الدول المسيحية ضريبة على إيراداتها . ولكن رغبة البابوات في أن يجعلوا من هذه (الأعشار) ضريبة دائمة ومنظمة ، اصطدمت بمعارضات

شديدة ، عندما لا يكون القصد تمويل حملة صليبية . ولذا اضطرت البابوية أن تطلق اسم (حملة صليبية) أو (صليبية) على كل مشاريعها السياسية حتى المشاريع الموجهة ضد المسيحيين ، صليبية ضد فريديريك الثاني ، صليبية صقلية ، صليبية آراغونه ... وعندما لم تكف هذه الحملات ، قرروا توسيع عدد (المناصب الدينية) التي يمكنهم اللجوء إليها مباشرة . ففي ١٢٦٥ م ، وضع كليمان الرابع مبدأ تصرف البابا الكامل ، بجميع الفوائد والتكاليف الكنسية . وهذه الموارد المتعلقة بالمناصب الكنسية هي مخصصة لتجهيز أجرة موظفي الهيئة الحكومية والإدارية والقضائية للكرسي ـ الأقدس (البلاط الحبري) ، ومعظمهم إيطاليون ، وأخذ عددهم يزداد كثيراً .

وهذه الممارسات التي تتضمن غياب المستفيدين نمت على حساب معالجة وصحة الأرواح ، وأثارت معارضة متزايدة من قبل الأكليروس القومي في البلاد الأوربية .

وبعد ، فهل كانت نتيجة هذه السياسة تعزيز السلطة الحبرية في آخر الأمر ؟ إذا أخذ الصعيد الزمني بعين الاعتبار ، فعلى العموم كانت النهاية الإخفاق . لأن بابوات القرن الثالث عشر لم ينجحوا لا في إطلاق الحرب الصليبية ، ولا في تحقيق اتحاد كنائس الغرب والشرق ، ولا في ، الغالب ، في نصر نظريتهم في التيؤقراطية الحبرية . إن القرن الذي افتتح مشرقاً بإينوسان الثالث الذي فرض تفوق خلف القديس بطرس في الصعيد الروحي والزمني ، اختتم بإذلال البابا بونيفاس الثامن الذي أوقفه رسل ملك فرنسا في أناغني (١٣٠٣ م) . وبالمقابل ، ازدادت سلطة البابا وجاهه . ففي نظر جميع الأكليركيين من جامعيين ورهبان وأحبار ، إن البابا فرض نفسه حكماً أعلى لجميع المؤمنين ، وأصبح شخصه موضع احترام وإجلال : وإن اليوبيل ، عيد سنة الأبراء أو الرجعة ، أو السماح العام ، الذي أسسه البابا بونيفاس الثامن في ١٣٠٠ م ، ويخول جميع الحجاج الآتين إلى روما بهذه المناسبة سماحاً كاملاً ، يعتبر نصراً للبابوية .

الفصل السادس

الأشكال الجديدة

لقد توالت النهضة الفكرية التي حدثت في القرن الثاني عشر في الغرب ، وتوسعت في القرن التالي . كما أن تطور الإخوة الصغار ، الذين كان مؤسسهم يعارض العلم والدراسات في داخل نظامه ، له في هذا الاعتبار دلالته .

وفي الوقت نفسه ، طبعت نزعات جديدة حياة الفكر . فقد انتظم التعليم في إطار الجامعات ؛ ونزعت أصناف الأساتذة والطلاب إلى تشكيل وسط منفرد انتهى بتأسيس طبقة فكرية حقيقية . وفي الأدب العالمي انتصرت الطريقة الجامعية أو المدرسية (سكولاستيك) ؛ وعبرت عن نفسها في عناوين كتب لاهوتية أو في دوائر معارف ، معلمات (أنسيكلوبيديات) كتبت في معظمها باللاتينية ، وكانت هذه التراكيب عظيمة ، كانت كاتدرائيات فكرية في القرن الثالث عشر .

وفي الوقت نفسه تفتح الأدب الدنيوي بلغة عامية ، يعبره أحياناً عداء عتيد للأكليركية ، وأعطى روائع مثل « الملهاة الإلهية » لدانتي .

الجامعات

في آخر القرن الثاني عشر وفي بداية القرن الثالث عشر تشكل أساتذة وطلاب المراكز المدرسية الهامة على غرار هيئات المهن الأخرى ، في أصناف ، والجامعات ، للدفاع عن استقلالها وامتيازاتها .

أصول الجامعات

إن أصول الأصناف الجامعية غامضة بالنسبة لنا في الغالب ، كما هي أصول هيئات المهن الأخرى . لقد انتظمت ببطء ، وإثر فتوحات متعاقبة ، وبطريق الصدفة حوادث هي الأخرى مناسبات . ولم تؤيد وتثبت النظم غالباً هذه الفتوحات أخيراً إلا آجلاً . ولسنا متأكدين دوماً بأن التي نملكها كانت الأولى . ولا عجب في ذلك . ففي المدن ، حيث تشكلت ، أظهرت الجامعات بعدد وبنوعية أعضائها سلطة أقلقت السلطات الأخرى . ففي النضال ، تارة ضد السلطات الكنسية ، وتارة ضد السلطات العلمانية ، اكتسبت استقلالها الذاتي » .

وهذا النجاح الذي حصلت عليه الجامعات يتضح أولاً بتلاحم الوسط الجامعي وبنفاذ وسائل الضغط التي كانت تحت تصرفه : فالتهديد بالإضراب أو الانفصال ، وأحياناً الوضع موضع التنفيذ ، يشكل بالنسبة للأساتذة والطلاب سلاحاً هائلاً .

« لقد وجدت السلطات المدنية والكنسية الكثير من الفوائد في حضور الجامعات التي كانت تقدم مجموعة زبائن لا تهمل ، مؤسسة وحيدة من المستشارين والموظفين ، ومصدراً براقاً بالجاه ، لمقاومة وسائل الدفاع هذه » .

ومن جهة أخرى ، أفادت الحركة الجامعية من مساندة أو دعم سلطة قديرة وهي سلطة البابوية . إن الأحبار الذين يحاولون آنذاك تعزيز قبضة الكرسي الأقدس على مجموع المسيحية ، بتركيز إدارة الكنيسة ، وإلحاق النظم الدينية الجديدة ، اهتبلوا على عجل الفرصة المتاحة لهم للتدخل في حياة المراكز الفكرية الأساسية . إن إخراج الجامعيين من أحكام العلمانيين وسيطرة السلطات الكنسية المحلية ، أساقفة أو أباتية ، كان الوسيلة لوضعهم مباشرة في تبعية البابوية .

إن تاريخ جامعة باريس ، في أصوله ، يؤلف أفضل صورة لهذا المسار . ففي القرن الثاني عشر ، أثار نمو الفلسفة في باريس ، حيث تعلم من جهة أخرى كل العلوم ، إقبال عدد كبير من الطلاب المفتونين بدروس أساتذة مشهورين مثل غليوم دوشامبو وبيير آبيلار . وكانت إدارة الدراسات خاصة بالأسقف الذي يعهد بسلطاته إلى مدير مدرسة أسقفية ؛ وهذا الأخير الذي بدئ بتسميته حافظ الختم ، كان له الحق وحده في منح الدرجات العلمية ، وبخاصة السماح بالتعليم . وكان الأساتذة والطلاب خاضعين لسلطته . ومن جهة أخرى ، كان هؤلاء في الغالب على علاقة مع موظفي الملك ، وبخاصة مع رئيس الشرطة الباريسية . ومنذ القرن الثاني عشر ، بدأ الجامعيون يجدون دير الكنيسة ضيقاً ، وسلطة الرئيس حافظ الختم ثقيلة . وعندئذٍ ترك بعضهم جزيرة المدينة وذهبوا إلى مراكز دراسات لاسلطة لحافظ الختم عليها ، مثل أديرة القديس فيكتور ، والقديسة جونفيف ، والقديس جرمن - دي - بريه ، وشكلوا رابطة صنفية حقيقية ، منحها ، منذ ١١٩٤ م البابا سيليستن الثالث امتيازاتها الأولى . ومع ذلك ، فإن السلطات الكنسية والعلمانية المصممة جيداً على ألا تتخلى عن حقوقها ، باشرت ضد الجامعة الفتية نضالاً تحول مراراً إلى حوادث عنيفة . وفي ١٢٠٠ م ، نشبت مشاجرة بين بعض الطلاب وصاحب حانة (خمّار) ؛ فالتمس البورجوازيون تدخل الشرطة ورئيس شرطة الملك . وكانت هذه الشرطة أكثر من فظة ، لأن العديد من الطلاب قتل . وانحاز الأساتذة للطلاب وهددوا بقطع دروسهم . وخشي فيليب أوغست انصرافهم ، فأمر بهدم بيوت البورجوازيين المتورطين . وطلب رئيس الشرطة العفو من الجامعة ؛ وحكم عليه بالسجن الأبدي ، ففضل الموت . وبعد بضع سنوات أيدت البابوية تقدم الحركة الجامعية الباريسية ودافعت عنها ضد الأسقف والملك . وفي ١٢٠٩ م ، اعترف رسمياً بجامعة الأساتذة والطلاب الباريسيين ؛ وفي ١٢١٥ م ، منح الكردينال روبير دوكورسون ، مفوض البابا

إينوسان الثالث ، الجامعة أنظمتها الأولى . وفقد حافظ الختم امتيازه في منح الإجازة وانتقل هذا الحق إلى أساتذة الجامعة . على أن الاستقلال الذاتي للجامعة لم يكتسب نهائياً إلا بعد حوادث دامية دارت من ١٢٢٩ إلى ١٢٣١ م . وفي هذه المرة أيضاً بدأ كل شيء بمشاجرة بين الطلاب والبورجوازيين وبتدخل الموظفين الملكيين الفظ . وقررت أكثرية الجامعيين الإضراب وانسحبت إلى أورلئان . وخلال عامين حرمت باريس تقريباً من دروسها . وتدخل البابا من جديد ولام الأسقف عام ١٢٢٩ م في رسالة شديدة اللهجة .

ومنذ الآن خرجت الجامعة عن سلطة الأسقف . واضطر لويس التاسع وبلانش قشتالة أيضاً ، إثر تدخل غريغوار التاسع ، إلى الاعتراف باستقلال الجامعة وامتيازاتها . وبموجب المرسوم العلمي أخذت جامعة باريس أنظمة جديدة (١٢٣١ م) منحتها حق تنظيم نفسها بنفسها وربطها مباشرة بالكرسي الأقدس .

وتاريخ الجامعات الأخرى يكرر مع بعض الفروق تاريخ جامعة باريس . ففي أوكسفورد أفادت حركة التحرير أولاً من ابتعاد الأسقف الذي كان مقره في لينكولن ، ومن كسوف السلطة الملكية عندما حرم جان دون أرض . وانتهى النزاع بالانفجار بين ١٢٣٢ و ١٢٤٠ م عندما زعم هنري الثالث استئناف الوضع بيده ، وناصر إينوسان الرابع قضية الأساتذة والطلاب بوضع الجامعة « تحت حماية القديس بطرس والبابا » . وفي بولونيا (إيطاليا) لم ينازع الجامعيون السلطات الكنسية المحلية التي لم تكن لتهتم بتعليم الحقوق المدنية . وبالمقابل أرادت القومون أن تحول الأساتذة إلى موظفين حقيقيين ، وتتابعت الإضرابات وانفصال الجامعيين حتى الحين الذي اعترفت فيه المدينة ، في ١٢٧٨ م ، بالبابا سيداً .

على أن بعض الجامعات كانت بالعكس إبداعات اصطناعية ترجع إلى إرادة عاهل علماني أو حبر .

في ١٢٢٤ م أنشئ في نـابولي أول مؤسسة للجـامعـة بـالمعنى الـدقيق للتعبير ، وخصصت عمداً لخداع البولونيين ، سكان مدينة بولوني ، فسجلت على هـذا النحو أول خرق حقيقي في النظـــام الفكري للقرن الثـــاني عشر . وكان المـؤسس ، فريـديريـك الثـاني ، يقصـد من ذلـك لتعليم الحقوق خلق مركز منـافس لغلف بولونيا ويؤمن على هـذا النحو لمملكـة صقليـة ، بتشكيل موظفين نخبـة ، جـاهـاً خاصاً لتعزيز مزاعم العاهل . وفي الحقيقـة إن مقـدمـة ميثـاق التـأسيس تلمح إلى الله : القصـد تثقيف رجـال أكفـاء للخـدمـة بشكل أفضل ، ولكن يجب أيضـاً أن يكون هؤلاء الرجال مقبولين باهتمامهم بالعدل » . ويجب بخاصة على الجـائعين إلى العلم أن يجـدوه « في المملكـة نفسهـا » لا أن يـذهبوا « لتسـولـه عنـد أمم أخرى ، ولا البحث عنه في مناطق أجنبية » . ومن جهـة أخرى ، كان محرمـاً منـذ ذلـك الحين « التجرؤ على الخروج من المملكة بحجـة الـدراسـات » . وعلى هـذا نرى أن فكراً جديداً للغاية ، من مسلك علماني ووطني ، كان على رأس هذه المؤسسـة التي قلدت منذ ١٢٢٥ م في سالامنكا من قبل الفونس ليون التاسع .

وتدخلت الكنيسة أيضاً لتأسيس جامعات ، بصورة أساسية في فرنسا . فقـد أحـدثت جـامعـة تـولـوز برمتهـا في ١٢٢٩ م لغـايـة نضـاليـة . فبعـد مكافحـة الألبيجوازيين ، كان يجب الإعمار ، وبخاصة الحيلولة دون رجوع الهرطقـة . وقـد قـال ذلـك غريغوار التـاسع بوضوح في مرسوم التـأسيس الـذي وجهـه إلى كونت تولوز ، وفيـه يمنح المـؤسسـة الجـديـدة كافـة الامتيـازات التي تتمتـع بهـا جـامعـة بـاريس . وليـؤمن لجـامعـة تـولـوز صفـة علنيـة في أوربـة كلهـا ، حرر جـان دو غارلاند رسالة ظلت شهيرة : سيعهد إلى تولوز بـدراسـة أرسطو ، والمـدونـة ، وجـالينـوس وحتى الأرغن . والكتب الممنـوعـة في بـاريس (الحقـوق الرومـانيـة والعلوم الطبيعية) يمكن أن توسع فيها وتفسر . وهكذا فإن التطلعـات الفكريـة اجتذبت إلى تولوز وأرفقت بها نهضة الإيمان .

تنظيم الحياة الجامعية

إن الجامعات التي مهرت بأنظمة انتزعت بنضال أعلى أو بالعكس منحها المؤسس ، كانت كلها ذات طابع صنف حقيقي . وأعضاؤها ، الذين يساقون بطريق تعيين أعضاء مجالسهم لهم بفضل حصر منح الدرجات الجامعية ، كانوا يقسمون اليمين باحترام الأنظمة ، والدفاع عن الأعراف والامتيازات الجامعية ، وينتخبون رئيسهم ، مدير الجامعة . وللصنف الجامعي ختم ، دليل سيادته ، وصندوق . وتحدد الأنظمة الأعياد والتسليات الجماعية « التي تثبت الوحدة الروحية للجماعة وقبول الجديد في داخلها . وكالمشاركة في التلذذ بالشراب عند الأصناف الأولى ، كانت هذه الظاهرات الطقس الذي يشعر فيه الصنف بتضامنه العميق » . وتثبت الأنظمة أيضاً الأعمال التقية ، وأعمال الورع (الوظائف الدينية ، والمواكب) التي يقوم بها الصنف . وأخيراً ، تضع الجامعة تنظيمها الداخلي على الصعيد الإداري وعلى الصعيد المهني .

ويمكن أن تتخذ جامعة باريس نموذجاً ، يميز فيها أربع كليات : كلية الفنون ، كلية القرار (أو القوانين الكنسية) ، كلية الطب ، وكلية اللاهوت . والإقبال على كلية الفنون أكثر مما في غيرها وذلك لأن دورة الدراسات الجامعية تبدأ إجبارياً بدراسة الفنون الحرة . وهكذا فإن الأساتذة والطلاب يتجمعون فيها في (أمم) : فرنسيون ، بيكارديون ، إنكليز ، ونورمانديون . والأساتذة أو الوكلاء عن كل أمة ينتخبون نائباً . وعلى رأس النواب الأربعة مدير الجامعة . والكليات الثلاثة الأخرى يوجد على رأسها عميد منتخب أيضاً . ولكن عندما مست الحاجة إلى سلطة مركزية ، وجد بعد ذلك أن مدير الفنون كانت له اليد العليا على الجامعة . فهو الذي يتصرف بأموال الجامعة ويرأس مجلس الأساتذة العام . ويجب مع ذلك ألا نتصور مركزية إدارية شديدة لأن القضايا المادية التي يجب أن تحل مشاركة قلما كانت عديدة . ولم يكن الأساتذة في الواقع مكافئين من

قبل الجامعة التي لا تملك أيضاً على العموم عمائر خاصة ؛ فالاجتماعات كالدروس تعقد في دور خاصة ، في الأديرة والكنائس أو في الصالات التي تنعقد فيها مجالس الكهنة القانونيين أو الرهبان .

وتثبت الأنظمة بعد ذلك نظام الدراسات : مدة الدراسة ، وشروط الامتحانات . ومن العسير التعميم ، لأن هذا التنظيم المتغير من جامعة لأخرى قد تحول أيضاً في سياق القرن . ومن الممكن مع ذلك رسم المراحل الأساسية لطالب باريسي يملك بتاتاً ابتدائياً (قراءة وكتابة) منتشراً في مدارس النحو (الثانوية) ، التي لا يعلم بالضبط ما إذا كانت تؤلف أو لا تؤلف قسماً من الجامعة . لأن العصر الوسيط يسيء التمييز بين مختلف حلقات التعليم . إن الطالب الشاب كان يتبع أولاً خلال ستة أعوام ، تقريباً من أربعة عشر إلى عشرين عاماً ، دروس كلية الفنون . وفي نهاية السنتين الأوليين كان يقبل باجتياز فحص البكالوريا . « أولاً ، على الطالب المتقدم أن يدعم نقاشاً مع أستاذ خلال استجوابات تجري أثناء شهر كانون الأول الذي يسبق الصوم الكبير أو الأربعيني الذي يقع فيه الامتحان . فإذا نجح في الامتحان يقبل في الامتحان النهائي أو البكالوريا حيث يجب عليه أن يبرهن ، بأجوبته عن أسئلة لجنة من الأساتذة ، أنه يعرف المؤلفين المقررين في برنامجه . فإذا اجتيزت هذه الخطوة يتدخل القرار الختامي . وفي الصوم الكبير ، يعطي سلسلة دروس ، وعليه أن يبرهن فيها عن كفاءته في متابعة (الحياة) الجامعية » . وبعد أربعة أعوام ، تجرى امتحانات تتضمن أيضاً أسئلة ، ومناقشة ، ودرساً تمنح الطالب الفني الذي نجح في هذه الامتحانات ، الإجازة (الليسانس) والدكتوراه .

وبعد أن يحصل على الأستاذية في الفنون ، يتطلب التخصص أيضاً دراسات طويلة : خمسة أو ستة أعوام للحصول على الإجازة أو الدكتوراة في الطب أو في الحقوق ، وثمانية أعوام للاهوت .

وبعد أن يعين على هذا النحو إطار الدراسات ، يبقى أن نوضح مم يتـألف التعليم ، وما هي طرقه ؟

إن كل تعليم يبنى على دراسة النصوص : الكتاب المقدس والآبـاء من جهـة ، أفـلاطـون ، أرسطـو والعرب من جهــة أخرى ، يجب أن تجهـز بكل معطيــات المعرفة . ولذا يصبح الكتاب أداة لاغنى عنهـا : والمؤلفون في البرنـامج ، يجب أن يقرؤوا من قبل الأساتذة والطلاب ؛ والدروس التي تعلم تنشر أيضاً . ونتيجـة كل ذلـك تحويل عميق في الكتـاب . ففي أعلى العصر الوسيـط ، كان الكتـاب موضع بذخ مزين بشكل فائق ولكنه مخصص لبعض الشخصيات الكبرى . وفي عصرنـا ، أصبح أداة عمل ، أي يجب أن ينسخ على نسـخ عـديـدة بسرعـة وبسعر رخيص . وهذه المتطلبات الجديدة تطابقهـا صفـات جـديـدة . فقـد أصبح حجم الكتـاب أصغر ممـا كان ، إذ يجب إمكان حملـه وتـداولـه ونقلـه بسهولـة ؛ والكتـابـة أيضـاً تحولت ؛ فالحرف الصغير ، الذي يخط بعناية بواسطة قصبة ، هجر لصـالح الحرف الـدقيـق القـوطي الـذي يرسم بسرعـة بريشـة الإوزة ويفسـح مجـالاً لاختزالات عـديـدة . ولم يعـد الكتـاب عملاً فنيـاً ، وإنمـا أصبـح ينتـج (صنـاعيـاً) وبثمن رخيص . وانتظم عـالم بكاملـه من الكتـاب والـوراقين في ظـل الجـامعـات ، التي جعلتهم يفيدون من امتيازاتها بغية نشر المؤلفين والدروس بعدد كبير من النسخ .

وبعد أن أصبح الأساتذة والتلاميذ يتصرفون بنصوص لعـدد كافٍ أمكنهم أن يطبقوا في دراستهم الطريقة الجامعية التي أسست في القرن السابق وهي المدرسيـة (السكولاستيك) . وهذه الطريقة المدرسية كانت أبعـد من أن تحصر المحـاكمـة في منطق صوري ، كما سيحدث ذلك آجلاً ، وإنما ساعدت الفكر على التقدم .

مشاكل العالم الجامعي

ومن هـذا التقـدم في التعليم يجب ألا يستنتج مع ذلـك أن الحيـاة الجـامعيـة

كانت في القرن الثالث عشر دون مشاكل . وهذه المشاكل بالعكس كثيرة وعديدة .

إن أول مشكلة توضع لكل جامعي ، سواء أكان أستاذاً أم طالباً هي من نوع مادي : كيف يعيش ؟ بالنسبة للأستاذ ، الإغراء عظيم ، لأنه يثبت نفسه بأنه رجل مهنة ، ويعيش من هذه المهنة ، أي أن يطلب من طلابه أجر المعرفة التي يقدمها لهم . ويرى في هذا الحل استقلاله لأنه لا ينتظر من أمير ، أو كنيسة أو مدينة مكافأته . ولكن هذا النظام له محذوره وهو إغلاق الجامعة في وجه الطلاب الفقراء . وكذلك الكنيسة ، التي تعتبر أن التعليم جزء لا يتجزأ من وظيفة الأكليركي ، تتدخل أيضاً ؛ فمنذ مجمع لاتران الثالث ، في ١١٧٩ م ، أعلن البابا ألكسندر الثالث مبدأ مجانية التعليم . وعندئذٍ يجب أن تؤمن حياة الأستاذ بمنحه رتبة كنسية ذات إيراد . وهذا الحل لا يخلو من محذور ، لأن التعليم بهذا الواقع يبقى من شأن الأكليركيين ، وهذا يكون على حساب الثقافة والكنيسة معاً . وعلى هذا فإن كافة الدراسات ، وبخاصة الطب والحقوق المدنية ، الخالية من الطابع الديني تكون مشلولة لقرون في نموها . حقاً ، لقد تأسست ، إلى جانب الجامعات ، مدارس علمانية ، ولكن الكنيسة كانت تنظر إليها نظرة سوء ، بيد أنها اقتصرت على إعطاء تعليم تقني للتجار ، وبقيت الثقافة وقفاً على حلقة ضيقة من المفكرين . ولحق الضرر الكنيسة أيضاً : فلسد حاجات عدد يتعاظم من الأساتذة ، يجب أن يوزع عليهم (حتى ولو كانوا علمانيين) وظائف عادية . وعلى هذا النحو تفاقمت إحدى مفاسد الكنيسة عدم إقامة الرعاة الذين تخلوا عن صحة الأرواح في سبيل الانصراف والتكريس للدراسات .

وبالنسبة للطلاب الفقراء لم تحل مع ذلك مشكلة العيش بكاملها بمجانية التعليم ، إذ يلزمهم السكن ، والغذاء وشراء الكتب التي ظلت غالية بالرغم من التقدم المتحقق . والكثير منهم ردّ إلى التسول أو الاهتمام بالحصول على لقمة العيش

بشكل أقل مما هو مقدر أيضاً . على أن هنالك أرواحاً تقية اهتمت باكراً لحصول هؤلاء الشبان على وسيلة يعيشون بها حياة أكثر ملاءمة للدراسة وأكثر تطابقاً للحالة الكنسية التي رصد الكثير أنفسهم لها . ففي ١٢٠٨ م أسست كلية الأولاد الصالحين . ونحو ١٢٥٧ م أقام روبير دوسوربون ثمانية عشر أستاذاً في الفنون فقيراً ، طلاباً للاهوت ، في كلية حملت اسمه : السوربون . ثم ظهرت كليات هاركور ، وناڤار ، وكليرمون .

وقبل فيها طلاب لهم رواتبهم موضوعون تحت رقابة مدير ، ويقدم لهم في البدء الطعام والمأوى ، ثم آل الأمر لإعطائهم دروساً بها .

وهناك مشكلة أخرى من نوع مسلكي . وهذه المشكلة عكرت حياة الجامعات ، وهي نزاع الأكليركيين النظاميين والزمنيين . كما أن تفوق التعليم الجامعي قد تأكد بسرعة . فمنذ النصف الأول من القرن الثالث عشر ، فتح الفرنسيسكان والدومينيكان لطلاب نظامهم دوراً بالقرب من الجامعات الأساسية وكثير من أعضائهم يعلمون فيها بصفة أساتذة . وأثارت هذه الحالة عداء الأساتذة الزمنيين . وأخذ هؤلاء على المتسولين أنهم لايحترمون الأنظمة الجامعية : فهم يحصلون على الدرجات في اللاهوت ويعلمونه دون أن يحصلوا على الأستاذية في الفنون . ويعيشون من الصدقات ، ولذلك لا يهتمون بمشاكل الحياة المادية التي توضع للأساتذة الآخرين . وأخيراً ، يكسرون التضامن الجامعي باستمرارهم بإعطاء دروس عندما تكون الجامعة في إضراب . وهذا النزاع هيج باريس بخاصة ، بين سنوات ١٢٥٠ و ١٢٩٠ م ، وتحول إلى هجوم عام ، على الصعيد العقائدي ، على الحياة الديرانية من قبل الزمنيين وأنصارهم . وبين هؤلاء ، الأستاذ غليوم دوسان ـ آمور الذي شجبه البابا وطرد من الجامعة لأنه نشر ضد الإخوة كتاباً بعنوان : « أخطار الأزمنة الجديدة » ، وكتّاب مثل روتبوف وجان دومونغ ، وهؤلاء الثلاثة شككوا في المثل الأعلى لفقر المتسولين واتهموهم

بالهرطقة . وبفضل البابوية والملك القديس لويس الواليين تماماً للفرنسيسكان ، كسب النظاميون القضية .

وأخيراً ، قسمت المشاكل الفكرية الجامعيين ، والأولى منها عرضت بأنها تناقض بين الاحترام الواجب لسلطة القدامى التي اعتمد عليها المدرسيون ، ومعطيات التجربة . وهذه هي مدرسة أوكسفورد وفيها ظهر الفرنسيسكاني روجه باكون ، الذي حاول طريق التجربة .

ويتابع روجه باكون بتعريف برنامج جديد في (الأبوس ماجوس) (١٢٦٧ ـ ١٢٦٨ م) :

« وضع اللاتينيون أسس العلم فيما يتعلق باللغات والرياضيات والمنظور ، وأريد الآن أن أهتم بالقواعد التي أعدها العلم التجريبي ، لأنه لا يمكن دون تجربة أن يعلم شيء بشكلٍ كافٍ . وإذا لم ير أحد النار أبداً وبرهن بالمحاكمة أن النار تحرق ، وتفسد الأشياء وتخربها ، فإن فكر المستمع لا يرضى بذلك ، ولا يتجنب النار قبل أن يضع اليد أو شيئاً قابلاً للاحتراق على النار ، ليبرهن بالتجربة ماعلمته المحاكمة . ولكن ماأن تكتسب تجربة الاحتراق ، حتى يطمئن الفكر ويستريح في نور الحقيقة . إذن المحاكمة لاتكفي ، وإنما التجربة » .

ولكن آثار روجيه باكون ، كانت مشبوهة ، وشجبت نظرياته .

وهكذا يتضح الفصل بين العقل والتجربة ، بين النظرية والتطبيق .

أما التوازن الذي يجب الحفاظ عليه بين الإيمان والعقل فيضع قضية أخرى . والنقاش يقع حول أثر أرسطو المعروف بشكل أفضل مما في القرن الثاني عشر بفضل ترجمات عدة كتب ، والمتم بتفسيرات كبار الفلاسفة العرب ، ابن سينا ، ولا سيما ابن رشد . وقد حرمت قراءة بعض كتب أرسطو مراراً : منذ ١٢١٠ ، في جامعة باريس ، (الطبيعة) و (ماوراء الطبيعة) . وبالرغم من الشجب ، فقد

استمرت دراسة هذه النصوص ، لأن أساتذة مثل توماس الأكويني نجحوا بشكل لامع بالإفادة من الفلسفة الأرسطاليسية لصالح العقيدة المسيحية . ولكن في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، وصلت أفكار ابن رشد ، مفسر أرسطو ، بعض الجامعيين الذين شكلوا ، في باريس ، حزباً حقيقياً ابن رشدياً تحت إدارة الأستاذ سيجر دو برابان .

لقد علم هذا الأستاذ أن من الممكن أن توجد حقيقة غير الحقيقة التي أوحى بها الدين ، وأن العالم خالد ولم يخلقه الله . وهذه الهرطقة العالمة ، هاجمها القديس توماس نفسه ، وشجبها أسقف باريس في ١٢٧٠ م ، ولا سيما في ١٢٧٧ م .

وسجن سيجر دو برابان ، ونشرت قائمة نظريات هرطقية ، ولكن وجد بين هذه إلى جانب الأطروحات الابن رشدية خاصة ، نظريات نشرها توماس الإكويني الذي توفي منذ ثلاث سنوات أي في (١٢٧٤ م) . وقد أوقف رد فعل الكنيسة هذا كل محاولة لإدخال فكر حرية العقيدة في الدين وفي التعليم .

الأدب العالم والأكليركي

إن المدرسية التي تعلم في الجامعات لم تثقف فقط عدة أجيال من الطلاب ، وإنما أنتجت أيضاً أعمالاً من أهم الأعمال في القرن الثالث عشر . ومؤلفوها هم في الواقع جامعيون .

ويجب أن نذكر في المقام الأول كتب اللاهوت التي تحاول أن تعطي عرضاً كاملاً لكل المعرفة اللاهوتية . وبين الأكثر شهرة يمكن أن نذكر كتب ألكسندر هاليس (١١٩٠ ـ ١٢٤٥ م) . وهو فرانسيسكاني إنكليزي علم الفلسفة واللاهوت في باريس . وإذا كان من أوائل من استخدم بشكل نافع الترجمات العربية لأرسطو ، وظل فكره أوغستينياً بعمق ؛ وألبير الكبير (١١٩٣ ـ ١٢٨٠ م) ، وهو

دومينيكي ألماني علم أيضاً عدة سنوات في باريس ، وحاول هو أيضاً أن يستعمل الفلسفة الأرسطاطاليسية لصالح العقيدة المسيحية . ولكن أثره هيأ بخاصة أثر تلميذه الشهير القديس توماس الأكويني . وبفضل هذا الأخير ، مارس الدومينيكان في صعيد الفكر نفوذاً قاطعاً .

« إن إنجيلية المبشرين ، حسب الأب شونو لم تولد مؤسسة فحسب ، وإنما مذهباً متجانساً لهذه المؤسسة . والقديس توماس اللاهوتي هو ابن دومينيك المبشر . والمبشرون ، دون القديس توماس الإكويني لا يمكن التفكير بهم » . وكفرانسوا داسيز كان توماس إيطالياً وغنياً . وأبوه الكونت أكوينيو ، خصص له إقطاعات الدير البندكتي في مون كاسينو . ومثل البوقيريللو ، قطع الصلة بعائلته في ١٢٤٤ م ، ليتبع دعوة كهنوتية أكثر حداثة . تتلمذ على يد ألبير الكبير في باريس ، ثم أقام في كولونيا وعلم في فرنسا وفي شبه الجزيرة الإيطالية . وأثراه الأساسيان (المختصر اللاهوتي) ، و (المختصر ضد الوثنيين) ظلا غير منتهيين ، ولكن كما هما أعطيا إلى فلسفة العصر الوسيط والمسيحية الآبدة العقائدية التي تنقصها .

وهناك شرط مزدوج سيطر على نمو الفلسفة التوماسية وهو : التمييز بين العقل والإيمان وضرورة اتفاقهما . العقل يسود الفلسفة ، وكل ما هو في متناول النور الطبيعي يبرهن عليه بموارده الوحيدة ؛ اللاهوت يبنى بالعكس على الوحي . ينتج عن ذلك ، حسب كلمة جيلسون « إن الاستحالة التي نعالج فيها الفلسفة واللاهوت بطريقة واحدة لا تمنعنا من اعتبارهما يشكلان فكرياً حقيقة واحدة شاملة » . وإذا وجد تناقض ، فالعقل هو الذي يخدع ، ويجب إذن استئناف طريقته حتى الانسجام الذي يوضح به العقل الإيمان . إن لاهوت توماس الإكويني قد تهيأ بلاهوت ألبير الكبير ، وعلى هذا النحو قدم المثل الأكثر كمالاً والأكثر تنظيماً في اكتشاف الطبيعة ليجد المعنى المسيحي للوحي ،

وهو إعطاء معناه في ربط الروح والجسد . وفي الحقيقة أن توماس وسّع وفسّر عدة مؤلفين إغريق وعرب ، وكان تلميذاً وفياً لأرسطو في صعيد الفيزياء والفيزيولوجيا والشهب . ولكنه لم يستسلم أبداً لإغراء إثبات وجود الله ، والوقوع في اللانهاية السببية الأرسطاطاليسية . وهذا لم يمنع أثره من إثارة جدل عنيف أظهرت بعض صداه (الرواية الوردية) . إن التفسير في الدفاع والنقاش في هذه المصالحة بين الإيمان المسيحي والمجموعة الفكرية الدفاعية الإغريقية ، كان خلال النصف الثاني كله من القرن الثالث عشر ، الشاغل الأساسي للجامعات الجديدة والنشيطة .

وإلى جانب هؤلاء اللاهوتيين الذين تثقفوا بدروس الفلسفة ، يجب أن يترك مكان للقديس بونافانتور (١٢٢١ ـ ١٢٧٤ م) الذي كان في الغالب صوفياً مع بقائه « في الوقت نفسه فيلسوفاً لأنه أدرك مشروع تنظيم المعرفة والأشياء تبعاً للصوفية » لقد انحدر من أسرة نبيلة إيطالية ، وكان اسمه جيوفاني فيدانزا ، وأخذ لقب بونافتور من القديس فرانسوا نفسه في الوقت الذي مازال بعد طفلاً . دخل النظام الفرنسيسكاني ، وكان أحد تلاميذ ألكسندر دوهاليس في باريس حيث أصبح أستاذاً في الوقت الذي كان يعلم فيها توماس الإكويني . إن الوظائف الثقيلة التي أخذها على عاتقه ، جنرال الفرنسيسكان في عصر كان فيه النظام ممزقاً بالمنازعات الداخلية (١٢٥٧ م) ، منصب الكاردينالية ، لم تصرفه عن أعمال الفكر . وكتابه (طريق الروح إلى الله) ، أهم أثر له ، يصف مراحل الطريق الذي يجب سلوكه للوصول إلى الله . إن الخنوع والتقوى أهم مساعدين يمكن للإنسان استخدامها للارتقاء نحو الخالق .

وأثر روجيه باكون (١٢١٤ ـ ١٢٩٤ م) يتعلق ببحث يختلف كثيراً . وحياته (عمله) تشبه مع ذلك ، في بداياتها ، حياة معاصريه المشهورين . وبعد دراسات في أوكسفورد ، ثم في باريس ، دخل النظام الفرنسيسكاني وباشر بتفسير أرسطو .

ولكنه انطلاقاً من ١٢٤٧ م ، اتجه نحو الدراسات العلمية ، لأنه ينتظر من التجربة أكثر من قراءة القدامى . وفي كتابه أوبوس ماجوس (١٢٦٧ ـ ١٢٦٨ م) ظهر أنه من أنبه وأفطن الأفكار العلمية في زمانه ؛ وكان أيضاً أول من لاحظ بأن التقويم الجولياني مغلوط ، وأشار إلى النقاط الضعيفة في منظومة بطليوس . وفي البصريات وضع قوانين انعكاس وحوادث انكسار النور . وأثره لا يخلو ، في الحقيقة ، من أخطاء ، ولكن مأتاه في وضع (الطريقة) التجريبية كان الأهم .

وإلى جانب الكتب اللاهوتية ، شهد القرن أخيراً ظهور معلمات (انسيكلوبيديات) عديدة من بينها وأشهرها (المرآة العظيمة) لواضعها الدمينيكي الفرنسي فانسان دو بوڤيه (١١٩٠ ـ ١٢٦٤ م) .

وهذه المعلمة اللاتينية تجمع ، في ثلاثة مطولات ، كل ما يمكن معرفته في القرن الثالث عشر ، وتحاول أن تؤلف انسجاماً بين جميع الوقائع في رؤية دينية للعالم . والمرآة الطبيعية تبحث في خلق العالم والله والملائكة ، وكل العناصر ، أجسام (معادن ، أحجار ثمينة) وكائنات حية (تصنيف النباتات والحيوانات) وأخيراً النفس البشرية . و (المرآة المذهبية) مكرسة للفنون الحرة ، والفلسفة ، والحقوق ، والسياسة ، واللاهوت . و (المرآة التاريخية) هي تاريخ عام لأصول العالم حتى القرن الثالث عشر . وفي بداية القرن الرابع عشر ، أضيفت (المرآة الأخلاقية) من قبل متمم لفانسان دو بوڤيه . وإذا كان هذا ينقصه في الغالب الفكر النقدي في الأحداث التي ينقلها ، فإن عمله ، أثره ، يبقى شاهداً هاماً جداً على معارف وعقلية الأوساط المثقفة في القرن الثالث عشر .

الأدب الدنيوي والعلماني

لقد كان القرن الثاني عشر ، من وجهة النظر الأدبية قرناً فرنسياً . وفي الحقيقة ، يرى في آخر القرن الثاني عشر وفي القرن الثالث عشر ، أن الأنواع ،

التي كان يجدها ، ظلت تجد لدى جمهور أكثر فأكثر سعة واهتماماً متزايداً . لقد استمرت كتابة أغاني الملاحم والبطولات والطوافين من الشعراء الغنائيين الذين يؤلفون أغاني بلغة الشمال في فرنسا المعروفة بلغة اويل ، شمال خط بواتيه - غرونوبل ؛ ومن الشعراء الغنائيين الذين يؤلفون أشعارهم بإحدى لغات الجنوب ، لغة أوك ، وكلا الفريقين دلّ على النجاح المستمر الدائم للشعر الغنائي . وقد أعطى كريتين دو تروا للرواية التهذيبية المصفاة ، أعظم روائعه . ومع ذلك فقد تغير الجو قليلاً قليلاً ، وأظهرت القيمة الضعيفة أكثر فأكثر للآثار الغنائية والتهذيبية ، مع بعض الاستثناءات الكبرى ، بأن عصر التهذيب قد انتهى . ولكن التطور كان بطيئاً ، لأن كل طبقة صاعدة كانت تميل إلى تبني المثل الأعلى للنخبة في مكانها . ولذا فإن نجاح البورجوازية لم يؤد بالحال إلى تجديد الموضوعات الأدبية ؛ وفي فرنسا ، من جهة أخرى ، يبدو أن حكم القديس لويس قد أطال بقاء المثل الأعلى الفروسي الذي فهم قليلاً قليلاً . ولكن الأهمية غيرت مكانها . وهذا العصر الذي كان أقل حساسية للشعر المحض ، استهوته القضايا الحالية . وهذه الاهتمامات الجديدة نفذت عبر الأنواع التقليدية أكثر من غيرها . فهي توضح نمو التاريخ ، وتذوق العلم الذي نفذ إلى جزء من الجمهور العصري المتعلق بلذائذ المجتمع والعالم . ظهرت بنمو اللغات الوطنية الذي قلل الحصر المطلق للغة اللاتينية في تعليم الجامعات . لقد شرع بترجمة الآثار القديمة التي دخلت في مكتبات الكبار ، وأخيراً ، كلما تقدم القرن الثالث عشر سجل تفضيله لأدب الأفكار . وهذا التغيير حول بعمق سيماء الأدب في أوربة . وصحب أفول الأجناس الغنائية والتهذيبية في الواقع انخفاض النفوذ الأدبي للبلاد التي ولد فيها ، فرنسا الشمالية والأوكسيتانيا[1] ، بالرغم من أن الروايات الفرنسية مازالت تلقى النجاح عبر أوربة كلها . وكان النفوذ الفرنسي ، من جهة أخرى ، ضحية

---

(١) الأوكسيتانيا : اسم أطلق على مجموع بلاد لغة أوك ، لغة الجنوب .

نجاحه نفسه . ففي إسبانيا ، والبرتغال ، وألمانيا ، بعد أن اكتفي بترجمة الروايات الفرنسية بدئ بتأليفها باللغات الوطنية ، وكانت إنكلترا ماتزال تدور في فلك فرنسا الثقافي ، ولكن شعر بتفتح الزمن الذي ستبتعد عنه . وفي أدب الأفكار الجديد ، كانت فرنسا مسلحة أقل من غيرها بكثير ، وأكثر مفكريها أصالة ، هؤلاء الذين كانوا يعلّمون في جامعة باريس ، كانوا يأتون من سؤاب أو من نابولي . ومع الـ (دولشه ستيل نيوفو) ودانتي الذي ورث وأفضى إلى خمسة قرون من البحوث المتنوعة التقت فيها الغنائية والتعليمية والتفكير الفلسفي والسياسي ، أخذت إيطاليا الشمالية بدورها مقدمة المسرح ، وستحتلها زمناً طويلاً .

نهاية العصر البطولي

يبدو بادئ بدء أن العقود الأخيرة من القرن الثاني عشر وخاصة عقود القرن الثالث عشر كانت خاتمة براقة أحياناً للعصر المهذب . ففي فرنسا ، كان مؤلفو أغاني البطولة يكتفون في الغالب بتعديل نتاجات سابقة . وهكذا فإن غريندور دو دوويه ، في بداية القرن ، ألّف ، من القصائد الثلاث القديمة في الحرب الصليبية ، أغنية (فتح القدس) ، وهذا العمل عمل تصنيف وترتيب يراد منه شد أواصر قنوات القرابات بين الأبطال ، ويرى فيه الجمهور معاً لذة فكرية وأكثر سطحية معاً ، وأكثر حداثة في معنى ما . وما كان ثانوياً أصبح أساسياً . لأن المثل الأعلى نفسه ، المسيحي والفروسي ، الذي أنعش وحرك القصص الشعرية في البطولة والمغامرات السابقة ، لم يُشعر به .

إن نضوب العبقرية الفروسية كان أيضاً أكثر تظاهراً في النتاجات الأصيلة . وهكذا فإن أربع أغاني ألفت بين ١٢١٠ و ١٢٤٠ م لم تعمل سوى أن أتمت بشكل غير مفيد مسلمة (معطاة) رولان الأولى . لقد عرض مؤلف قصيده

« هوون دو بوردو » أكثر من شخصية ، ولكنه باستغلاله بمهارة ، من جهة أخرى ، التأثيرات السحرية (أوبرون ، ملك الإلفات في روايات أعلى العصر الوسيط ، والإلفات ، آلهات جوية ترمز إلى الهواء ، النار ، الأرض ، إلخ ... جنيات ، أقزام ، أرواح الغابات) ، صنع من أثره قصة خالصة فائقة . وعلى هذا ففي الوقت الذي بلغ فيه عالم الفرسان أقصى توسعه وتشكل في مجموعات ، فرغ من محتواه . ماذا كانت هذه المجموعات ؟ مجموعات الحرب الصليبية ، الملك ـ الذي أعاد رسم ملحمة شارلومان ـ وفي آخر القرن ، مجموعة غارن دو مونغلان الذي كان بطله غليوم دو رانج ، كونت تولوز .

ومع ذلك ، يوجد ، في الوقت نفسه ، أدب حماسي أكثر إخلاصاً . وقد جعل منه الشعراء الفرنسيون مدرسة . وعلى هذا النحو ، ظهرت آثار وطنية في إسبانيا والبرتغال ؛ وخاصة في النمسا ، على حدود العالم الجرماني . وضع مؤلف مجهول أغنية النيبيلونغن[1] بموهبة نادرة نحو ١٢٠٠ م ، مادة جرمانية بعمق . إن إخلاص وحيه انفصل عن الرتابة المبتذلة في الأعمال الأدبية الفرنسية في نفس العصر . وفي الحقيقة ، إن سيغفريد ، هاغن ، غونتر لم يكونوا مطلقاً محاربين بدائيين ، وبأهواء ابتدائية وعنيفة . تأدبوا بالتهذيب الفروسي الذي أصدرته فرنسا ، وظلوا دوماً حساسين بالطرق والأساليب الفرنسية ، واهتمامهم كبير بآداب اللياقة . ولكنهم لا ينتسبون إلى فروسية دولية . وهؤلاء هم الأسلاف ذوي النفوذ للأمة الألمانية .

---

(١) Niebelungen : في الأسطورة الألمانية ، أقزام يملكون ثروات كبيرة تحت الأرض وملكهم نيبيلونغ Niebelung . وإن محاربي سيغفريد ثم البورغونديين أخذوا تباعاً اسم Niebelungen بعد أن استولوا على أموالهم .

و Niebelungen أغنية النيبيلونغن ملحمة جرمانية كتبت نحو ١٢٠٠ م في وسط ألمانيا العليا . وتقص مغامرات سيغفريد ، سيد كنز النيبيلونغن ، لمساعدة غونتر Gunther لكسب يد برونهيلد Brunhild ، وزواجه من كريمهلد Kremhild أخت غونتر ، وموته تحت ضربات الخائن هاغن HAGEN ، وثأر كريمهلد .

الأدب المهذب والغنائي

إن الجمهور النبيل ، الذي تحول عن الجنس الحماسي ، أخذ يفضل الأدب ، وخاصة القصة المهذبة . فمنذ النصف الأول للقرن الثاني عشر ، عرف جنوب فرنسا عذوبة حضارة محببة كثيراً وصافية كثيراً . لقد كان السادة الأمراء والسيدات يجذبون إلى بلاطهم الشعراء التروبادور الذين يغنون جمال الطبيعة وآلام الحب وأفراحه . وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر بلغت هذه الموضات الجديدة المناطق الشمالية تحت تأثير آلينور أكيتانيا بخاصة . وقد تزوجت هذه طوراً وطوراً ملك فرنسا ، لويس السابع ، ثم كونت آنجو ، هنري بلانتاجوني الذي أصبح في ١١٥٤ م ملك إنكلترا . وأقامت في الدومين الملكي الفرنسي ، ثم في لندن ، التهذيب الجنوبي . وسارت على منوالها ابنتها مارية ، كونتس شامبانيا ، التي جعلت نفسها حامية كريتين دو تروا ، ونظمت (دروس الحب) التي تناقش فيها رقة ولطافة العاطفة المحبة .

إن التخيلات ، التي تعبر فيها الحساسية الجديدة ، كانت مقتبسة إما من الأدب القديم ، أي اللاتيني ، المنسوخ والموسع والمفسر مراراً عديدة في القرن الثاني عشر ، أو من الأسطورة السلتية (الكلتية) ، والقصص القديمة مثل قصة إينياس (١١٦٠ م) ، التي هي نقل رومانسي مهذب ولبق عن الإنياذة ، أو قصة طروادة العظيمة التي ألفها في ١١٦٥ م بنوا سانت ـ مور ؛ هذه التخيلات تخرج الأبطال الإغريق أو الرومان بتحويلهم إلى فرسان شجعان ومهذبين . وإن (موضوع بروتانيا) وعلى الأخص ، القصة الأسطورية الآرثرية تجهزان بإطارهما قصصاً مهذبة أخرى . إن مآثر الملك آرثر زعيم المقاومة البروتانية ضد المجتاحين الساكسون في القرن السادس ، التي وصفها جوفروا دو مونموث في تاريخ مملكة بريطانيا في ١١٣٥ م ، وضعت في متناول جمهور عريض بالترجمة

الحرة جداً التي قام بها واس الكاهن القانوني في مدينة بايّو ، لهذا الأثر منذ ١١٥٥ م . وهذا الكنز من الأساطير استغله الكتاب المهذبون .

بين هؤلاء الكتاب يحسن أن نذكر ، من فرضوا على الجنس الأدبي طابع عبقريتهم الشخصية . إن مارية فرنسا التي عاشت في بلاط آلينور وهنري الثاني ملك إنكلترا ، كانت امرأة مثقفة تعرف الأدب الفرنسي وأيضاً اللاتينية والإنكليزية . استخدمت الأساطير البروتونية القديمة وألفت (قصائد وصفية أو غنائية بأشعار قصيرة ، على العموم من ثمانية مقاطع) . وقد أجادت في فن إيحاء أدق العواطف ورسم الاكتئاب السريع التأثر .

وكان من معاصري مارية ، بيرول وخاصة توماس الإنكليزي ، الذي عاش هو أيضاً في بلاط آلينور ، وقد اقتبس كل واحد منهما من (مادة بروتانيا) أسطورة « تريستان وإيزوت » . والمقطوعات التي وصلتنا من آثارهما تدل على أنهما عرفا ، كل واحد منهما بشكل يختلف عن الآخر ، كيف يرسم قوة الهوى القادرة وحتميته .

ومع ذلك فإن كريتين تروا (١١٣٠ ؟ ـ ١١٩٠ ؟) ظل أكبر ممثل للقصة المهذبة . ففي أثره تلتقي عدة مؤثرات : فبواسطة مارية دو شامبانيا حاميته التي أهداها قصة وموضوعها أن أحد فرسان (المائدة المستديرة) ربته الجنية ڤيڤيان في قعر بحيرة ، وفتن بالملكة غونيڤر ، زوجة الملك أرتوس ، وتحمل بحبه لها كل أنواع المحن . ولهذه القصة اسم آخر وهو : « لانسيلو » أو لانسيلو ذو العربة (نحو ١١٦٨ م) . لقد تدرب على المفهوم البرُفانسي في الحب ؛ وفرسانه الذين يقومون بمآثرهم الشجاعة في سبيل الحب وأحياناً طيش نسائهم ، هم أبطال وجدوا لإرضاء جمهور نسوي . ودخل كريتين تروا ، في آخر حياته ، في خدمة فيليب دالزاس كونت فلاندر ، وتحت تأثير هذا الأخير ، أخذ أثره

لوناً صوفياً . والبرسفال أو (قصة غرال) التي لم تتم ، تقص (الإناء الأقدس) الذي استعمله يسوع ـ المسيح في (العشاء الرباني) ، وجمع فيه يوسف رامة الدم الذي سال من جنب السيد المسيح وهو مصلوب بعد أن ثقبه القائد الروماني . وساعد بقوة أسلوب كريتين دو تروا الخفيف والرشيق على انتصار الفرانسيان (لهجة جزيرة فرنسا) على سائر اللهجات . وأوصل إلى الكمال فن عقدة القصة وتجديد اهتمام القارئ دوماً ، وتحليل عواطف الأبطال بدقة ووضوح ، وأبدع نهائياً في جنس القصة .

وفي القرن الثالث عشر ، وضعت نثراً جميع القصص الشعرية للقرن الفائت ؛ وأخذت آثار كريتين دو تروا وعدلها مؤلفون ظلوا مجهولين في قصة « لانسيلو » واحد ، أصبحت درامة واسعة رمزية للحالة البشرية الممزقة بين الذنب والسعادة ، تخترقها محن (البحث عن الإناء ـ الأقدس) ذات دلالة قربانية . والبحث عن الكأس ـ الأقدس كان يقترب على هذا النحو من الحنين الذي يطبع ويميز العاطفة الدينية في القرن الثالث عشر .

والبطل لانسيلو يعرض ، جزئياً ، صفة عصرية ، وهذه الصفة كانت خاصة في (القصة الوردية) للأورلئاني غليوم دو لوريس المؤلفة شعراً في ١٢٣٠ م . وكان الحب موضوعها الوحيد ، المعبر عنه في صفائه الباطني ؛ والوردة فيه هي رمز العذراء المرغوبة التي يحاول الواصف أن يستعطفها بدعم أو برغم دسائس شخصيات رمزية ، مثل ، ترحاب جميل ، كرم ، كره ، خيانة أو خطر . وتناول لوريس موضوعات تقليدية للأدب المهذب ، ولكن بصهرها في حرارة الحياة الشديدة التي حولت الرموز إلى حركات صافية للروح . وانمحى التعليم أمام حساسية يشعر توأ بأنها ناجمة عن التجربة . لقد أنشئت **(قصة الوردة)** بعناية ، ولذا فهي ، كما قيل ، تقدم معاً (آخر وأجمل ثمرة التقليد المهذب) . وفي

نهاية أربعة آلاف بيت شعر أنهى لوريس أثره . وبعد خمسين عاماً أعطاه جان دو مونغ تكملة طويلة ، ولكن ، وجه القرن قد تغير آنذاك .

الشعر الغنائي

يؤلف هذا الشعر القطاع الثالث للأدب التقليدي . وكان في تراجع ، هو أيضاً ، في البلاد التي رأى فيها النور ، ومع ذلك فقد أثار ، في شمال فرنسا ، بعض الآثار الجميلة .

وكانت أوكسيتانيا (الاسم المطلق على مجموع بلاد لغة الأوك) غنية بالشعراء ، ولكن الأصالة فيها كانت نادرة بعد الحرب الصليبية . والأثر الغزير للتولوزي أيميريك دو بيغيلهان لا يرتفع فوق الرشاقة . وغنائية الإيطالي سورديل ، التروبادوري الأكثر شهرة ، يبقى من الضعاف . وفي شمال وشرق فرنسا ، بالمقابل ، كان الفن التقليدي ممثلاً بقوة . وأعظم هؤلاء (التروڤير) في بداية القرن ، كان تيبو الرابع ، كونت شامبانيا ، ثم انطلاقاً من ١٢٣٤ م ، ملك ناڤار . كان موسيقياً شهيراً ، وترك أثراً عظيماً ، وكله مخصص تقريباً للحب . وتأمنت المرحلة في النصف الثاني من القرن على يد آدم دولاهال الملقب بالأحدب الذي عاش في البدء في أراس ، المنافسة الفكرية الكبرى لباريس ، ثم استقر في بلاط شارل آنجو ، وكان مؤلفاً لأغاني الحب ، وألف قطع ترتيلات جميلة أخذ نصها من الصلوات الطقسية ، ولكن بخاصة مع لعبة الظل ، لعبة روبن وماريون ، كان أحد مبدعي مسرح العصر الوسيط . وفي أثره حسم بوضوح ، في هذا القرن المنتهي ، في ضعف معظم معاصريه . وذلك لأن اهتمامات العصر ذهبت إلى أخرى غيرها : لأن الأسطورة ، وعبادة المثل الأعلى الذي لا يهتم بالجسد ، كانت أهميتها أقل من تحليل أدق للحاضر ، والحياة أو العلم . وهكذا انتهى عصر البطولة .

ظفر الأدب البورجوازي

لقد كان التعليم والهجاء أهم ملامح العصر البورجوازي الجديد ؛ سواء أكان القصد إيضاحاً أم تفسيراً وتعليقاً ، أو صباً في أشكال أدبية واقعاً موفوراً ، أو بالعكس تصويره تصويراً هزلياً . ففي كلا الحالين ينطلق المؤلف من الحاضر . وإلى تذوق الواقع هذا ، يجب أن يذكر في المقام الأول ، نمو التاريخ في القرن الثالث عشر .

لقد ولد شمال فرنسا أشهر مؤرخي ذلك العصر ، وفيه عاش ثلاثة مؤرخين الحوادث التي رووها ، كلٌ حسب مزاجه وكفاءاته . وحرصوا على أن يسجلوا هذه الصفة التي يتصف بها أثرهم : « الحقيقة ، كما في الواقع فتحت القسطنطينية . وإن من كان فيها ورآه ، وسمعه ، يبرهن عليه ، روبر دو كلاري الفارس ، وكتب الحقيقة كما فتحت » . هذه هي النتيجة النهائية لمؤلف روبير دو كلاري ، فارس منطقة بيرونّ . ذهب وشارك في الحرب الصليبية الرابعة ، وحرر قصته نحو ١٢١٠ م ، ولم يكن بين زعماء الحملة الأساسيين ، ولكنه أحد هؤلاء « الفرسان الفقراء » الذين عبروا غالباً عن حقدهم وعدم صبرهم . إن تواضعه (لا ينسب لنفسه أي مغامرة « مأثرة » ، ولا يتكلم عن نفسه إلا عندما يذكر شجاعة أخيه) أظهر في تاريخه اليوميات البسيطة لجندي بسيط ، ومع ذلك حاول أن يصعد إلى أسباب السياسة الكبرى ، أو ما يفكر بالتنبؤ به . وثقافته وفكره النقدي لم يكونا على ارتفاع هذا الطموح ، ولكن الواقع البسيط الذي أدركه إنما هو صفة هامة بالنسبة للمؤرخ .

وهناك صليبي آخر كان أحد الزعماء ، وقد نجح حيث أخفق كلاري وهو : جوفروا دو فيلهاردون ، ماريشال شامبانيا ، وكان أحد المستشارين الأساسيين للبارونات وعمل على هذا النحو على قبول اختيار بونيفاس دو مونفرا زعيماً

للحملة الصليبية الرابعة . ومؤلفه الذي حرره نحو ١٢١٠ م (فتح القسطنطينية) هو عمل غير شخصي أقل من عمل روبير دو كلاري لأن فيلهاردون دخل المسرح بحيطة وتحفظ وتواضع ، ولم يستطع تجنب ذكر اسمه ، أثناء المفاوضات أو المعارك التي لعب فيها دوراً قاطعاً ، حاسماً ، ولكنه عامل صورته الخاصة دون أقل إعجاب بالذات . ومع ذلك كان أثر فيلهاردون عملاً (ذا أطروحة) لأنه حاول أن يجيب فيه كل من عجبوا من انحراف هذه الصليبية التي تركت القدس جانباً لتفتح القسطنطينية المسيحية . « واعلموا أنه بأرض بابل أو باليونان ، ستستعاد أرض ماوراء البحار إذا مااستعيدت ذات يوم » . وتاريخه المنطقي ، والمختصر ، وحتى الجاف ، يدل على وضوح الفكر الذي كان إحدى الصفات المميزة والأكثر جاذبية وفتنة للقرن الثاني عشر .

و (**تاريخ القديس لويس**) لمؤلفه جوانفيل ، له صورة مغايرة تماماً . لقد حرره ، بين ١٣٠٠ و ١٣٠٩ م ، رجل عمره ثمانون عاماً ، يروي بسذاجة محببة (الكلام المقدس والأعمال الطيبة لملكنا القديس لويس) ، ولكنه هو أيضاً أصرَّ على صحة القصة : « أعلم الجميع بأني أعلم قسماً كبيراً من أحداث ملكنا القديس لويس مما قاله وسمعته .. وإن كل من يقرؤون هذا الكتاب يعتقدون بجزم بكل ما يقوله الكتاب بأني حقاً رأيت وسمعت ؛ أما الأشياء الأخرى المكتوبة فيه ، فلا أبرهن لكم على أنها حقيقية لأنني لم أرها ولم أسمعها » .

وبهذه الصفة يبقى أثر جوانفيل ثميناً حقاً كوثيقة عن الصليبيات الأخيرة ، ولكن أيضاً عن عقلية ودين القرن الثالث عشر ، وتاريخه ثرثرة محارب قديم ، لم يكنْ على الأقل ، مؤلفاً خبيثاً صادراً عن سوء نية من مسيحي (متوسط) تجاه بطلٍ من عصر آخر ، يعجب به دون أن يفهمه دوماً . « قال الملك ياسينشال : أي شيء هو الله ؟ فقلت له : يا صاحب الجلالة إنه شيء طيب ولا يمكن أن يكون أفضل منه حقاً ، قال : إجابة حسنة ؛ وإني أطلب منك أيها أحب إليك أن تكون

مجذوماً أو أن ترتكب ذنباً يفقد فيه المذنب عفو الله . وأنا الذي لاأكذب أجبته بأنني أفضل أن أرتكب ثلاثين ذنباً على أن أكون مجذوماً . وسألني ماإذا كنت أغسل أقدام الفقراء يوم الخميس الأعظم (خميس العهد أو الخميس الأقدس) ، (وغسل الأقدام حفلة طقس ديني تقع في يوم الخميس الأقدس ذكرى ليسوع الذي ، نقلاً عن القديس يوحنا المعمدان ، غسل أقدام حوارييه عشية موته) .

ـ قلت : يا صاحب الجلالة ، يا للمصيبة ! لن أغسل أرجل هؤلاء الوضيعين أبداً . حقاً ، قال : لقد أسأت القول ، لأنه لا يجب عليك أن تحتقر ماصنعه الله لتعليمنا » .

والاهتمام بالحالة الحاضرة لا يرى فقط في التواريخ الخاصة على سبيل الحصر : إن أغاني البطولات (الملاحم) نفسها كانت طوعاً مراجع للحوادث المعاصرة . إن الأغنية الأوكسيتانية التي تروي في ١٢٠٠٠ بيت من الشعر مكافحة الألبيحوازيين ، والتاريخ الشرقي ، لجاك فيتري الذي يروي تاريخ الدول الفرنجية في الشرق (١٢٤٠ م) أو قصة إيراكل (١٢٣١ م) التي تصور العلاقات بين القدس والقسطنطينية ، هي أيضاً شواهد .

وللكلام عن الحاضر ، كان يجب في الغالب ، كما فعل كلاري ، وفيلهاردون وجوانڤيل ، الكتابة بالفرنسية . وهذا مافعله روتيبوف ، أول شاعر تكلم عن نفسه بلغة شعبية ، كان حراً وأصيلاً لعمل ذلك بشكل مباشر دون أن يتكيف مع القوالب الجامدة (الثابتة) للقصص المهذبة .

كتب روتيبوف نحو ١٢٦٠ م وألف عدة قطع عن الحال الحاضر ، خاصة بصليبيات لويس التاسع أوضياع القسطنطينية ، وغطى بالتهكم اللاذع (نزاع الجامعة) . وللهجوم على الأنظمة الدينية كتب « رونار بصورة حيوان » الذي اقتبس رموزه من العمل الشعبي الشهير . ولم يكن الوحيد في القرن الثالث عشر ،

فعديدة كانت (التكملات) التي أعطيت إلى « قصة رونار » بقصد جدلي . ومغامرات الحيوانات فيها أصبحت حجة لهجاء سياسي أو حتى عروض فلسفية . وهذا كان فكر (تتويج رونار) و (رونار الجديد) الذي ألفه في ١٢٨٨ م جاكار جوليه .

وفي الوقت نفسه أعطى جان دو مونغ للقصة الوردية تكملتها (الفلسفية) والمعادية للأكليروس . هذه التهجمات العنيفة ضد الدومينيكان كانت ، بالرغم من وحدة العنوان ، بعيدة كل البعد عن الرموز اللطيفة لغليوم دو لوريس . وريزون ، في (قصة الوردة) الجديدة حول عاشق عن (خدمة) الحب ، وڤينوس تشهر فيها إلى المرأة وهم (العفة) . وجان دو مونغ ، المثل النموذجي للبورجوازية يهاجم على هذا النحو أسس الأخلاق المهذبة : الاحترام العصري للمرأة ، واحترام أرستقراطية الدم . ولهذا اعتمد على عدة مؤلفات فلسفية من سيجر دو برابان إلى روجيه باكون .

والأشكال الشعرية الجديدة ، استعمال اللغة العامية ، تركيب المعارف المكتسبة ، الحديث عن قصة جميلة لحب معاكس ، كل هذا وجد شرحه الأعلى في آبدة القرن الثالث عشر الأدبية ، ألا وهو أثر دانتي .

بدايات الأدب الإيطالي : دانتي

إن التفوق الناشئ لإيطاليا على فرنسا يتضح في الحقيقة بسبب بسيط ؛ وهو أنه في الوقت ، الذي ازداد فيه الفصل في فرنسا بين الفكرة والغنائية ، نجحت عبقرية دانتي في صهرهما في عمل ، أثر ، يحتفظ بأحد المواقع الأولى بين كلاسيكيات البشرية الغنائية . وفي الحقيقة أن دانتي كان حقاً غنائياً : ففي أول مجموعة من القصائد له ، (الحياة الجديدة) المنشورة بين ١٢٩١ و ١٢٩٣ م ، يغني حبه لبياتريس التي أحبها منذ سن التسعة أعوام . ولكنه كان أيضاً كاتباً سياسياً : غلفياً معتدلاً أثناء إقامته في فلورنسا ، وطنه ، وكان ضحية أنصار غير

مرتبطين بالبابا بونيفاس الثامن ، نفوه في ١٣٠٢ م . وعندئذ ماانفك دانتي يعارض المزاعم الزمنية للبابا ، في مؤلفات فلسفة سياسية مثل « الملكية » ، ولكن أيضاً في (الملهاة الإلهية) ، وفيها أغرق عدة بابوات في الجحيم ، وضاعف اللعنات ضد المتمردين على الإمبراطورية ، التي هي الضامن الوحيد للسلام العالمي . وأخيراً ، كان دانتي عالماً ، تثقف بفلسفة أرسطو وفلسفة توماس الأكويني . وقد أمكن اكتشاف مشابهات في الصور بين فقرات من (الكوميديا الإلهية) والدروس التي ألقاها في فلورنسا تلميذ (**الدكتور الملائكي**) . وبخاصة لا يعين لمشروعه حدوداً أخرى غير حدود الفكر البشري ، وكان هدفه احتواء الحقيقة بكاملها . ولهذا فإن تعاليم بطليموس وتعليم دكاترة الكنيسة كانت ثمينة بالنسبة له . وشارك كلياً بالرؤيا الرمزية التي أعدت في سياق القرون السالفة . وفي الكونفيفيو استأنف مذهب المعاني الأربعة للكتاب المقدس : « يجب أن نعرف أن الكتاب المقدس يمكن أن يفهم ويجب أن يعرض حسب أربعة معاني : أحدها يسمى **الحرفي** وهو الذي لا يذهب إلى أبعد من الحرف بالمعنى الدقيق للكلمة ، والثاني يسمى **الرمزي** وهو الذي يخفي تحت الستار خرافات ؛ والثالث **أخلاقي** (معنوي) وهو المعنى الذي يجب على القراء أن يكشفوا عنه بعناية عبر الكتاب المقدس لخيرهم ولخير الناس الذين يعلمونهم . ويسمي دانتي المعنى الرابع أيضاً المسمى **تفسيري** ، وبحسبه أن الحقيقة التي تتعلق بالنفس البشرية تختفي تحت حقيقة حرفية مثقلة بمعنى حرفي أكثر تحديداً ؛ وهكذا بمناسبة خروج إسرائيل خارج مصر ، « قال النبي بأن جبال اليهودية أصبحت مقدسة وحرة » ، يجب أن نفهم عدا ذلك ، بأن الروح تقدست وتخلصت وردت إلى سلطتها الخاصة بالخروج من الخطيئة » . (وكلمة تفسيري هنا تعني تفسير الكتاب المقدس بشكل يرتفع من المعنى الحرفي إلى المعنى الصوفي) .

وكذلك أدخل دانتي هذه المعاني الأربعة في (الكوميديا الإلهية) التي تظهر

بذلك صفتها التعليمية ؛ ففي الأعماق ، تصف الكوميديا الإلّهية مغامرة روح تائهة توصلت إلى الله بنجدة الحكمة والإيمان . ولكن الشاعر نظر أيضاً إلى التاريخ في مظهره الحرفي جداً . وأخيراً ، لا حاجة للإصرار على المعنى المعنوي للرحلة التي قاده فيها فيرجيل ، ثم بياتريس ، والتقى به في نظام لم يترك فيه مكان للصدفة ، أنصار جميع مختلف المفاسد ، في جهنم وفي المطهر ، ثم في الجنة جماعة السعداء التي تكاد تختلف قليلاً .

ولكن مشروع دانتي لا يقتصر على جمع صفات مبعثرة في مختلف مؤلفي القرن الثالث عشر لقد جدد وأبدع أسلوباً شخصياً تماماً ، يزيل كل ما اتفق عليه ، ويوسع إلى كل العالم الصعيد الشعري وبذلك بنى عالماً روحياً جديداً . لقد كان أسلافه يمارسون نظاماً شعرياً شكلياً كانت فيه الأجناس منفصلة بشدة . إن شاعراً مجهولاً من آخر القرن الثالث عشر كتب على هذا النحو نظاماً شعرياً يسمى (البحر العاشق) ولم يكن إلا تعداداً لموضوعات وصور خاصة بالشعر الغنائي . وكذلك الشعراء السياسيون التزموا بالجدل أو المديح . أما دانتي ، فعلى العكس ، لم يقبل بأن يكون الأدب خاضعاً لتقاليد أو شروط : إن معلمه الوحيد هو الواقع . ومنذ البدء ظهر أنه يهتم بحقيقة العاطفة ، وعرف نفسه في الأغنية الرابعة والعشرين للمطهر كالشاعر الذي « عندما ينفخ الحب فيه ، يقيد (يلاحظ) وينطلق كما هو معبراً عما أملى عليه الحب » . وهنا العذوبة الجديدة ولكنه بهذا يغير العاطفة لدرجة يفجر فيها المفهوم التقليدي لـ (الجنس) . وبهذا قام بأكثر من تجديد تقني ، أي بثورة روحية حقيقية .

وفي القصائد الأولى من (الحياة الجديدة) التي كتبها تحت تأثير أستاذه غيدو كاڤالكانتي ، قدم دانتي الحب كقوة غامضة ، حتمية للحرية البشرية والمشاركة الوحيدة فيها تساعد على إدراك السعادة . إن رؤية بياتريس تحركه ، تهيجه حتى أنها تغرقه في نوع من الرعب . وسلام ، تحية تكفي لنشوته . وإذا لم تحيِّ تسقطه

في وهدة الألم . وقوة هذا السحر يلخصها على هذا النحو : « وجهت خطاي في هذا الجزء من الحياة التي فيا وراءها لا يمكن التقدم بنية العودة » .

ثم ، في وسط (الحياة الجديدة) حدث انقطاع ؛ إن جوهر الحب لا يكمن في المشاركة ، ولكن في كل ما يخص بصورة أساسية من يحب ، ولا يمكن أن ينتزع منه ، الحماسة . وهكذا فإن شعر المديح والتمجيد ، يحل محل شعر الرثاء . وإن كل ما يأتي من الحب ، ولو كان الألم ، له قيمته لأنه حركة الروح . ولكن ليس هذا ببساطة مديحاً يقدم للواقع ، لأن الحب بكامله يتجه نحو المثل الأعلى ، وحركة الروح الخالصة هذه هي فضيلة وتساعد على التقدم المعنوي ؛ والحب أيضاً سعادة : واقع طبيعي ، معنوي ، روحي . وهذا هو موضوع (الكوميديا الإلّهية) التي يرتفع فيها الشعر الغنائي إلى الشعر دونما زيادة .

وإن عملاً عظيماً كهذا غير مهيأ لتفسير مختصر ، ولكن يحسن بخاصة الإمساك منه بتوسيع عجيب للمضمار الشعري . ولا شيء غريب على دانتي ، ففي الكوميديا يجانب الفقراء كبار الأمراء . وعذوبة نهر الجنة تجد فيها مكانها ، كل شيء كرائحة البراز البشري . أراد دانتي كل الواقع ، ولكن لأن كل شيء إشارة على الله . الجمال ، والقبح ، الخير والشر تتبع نظاماً وحيداً ، الاختلاف معرفاً واقع العالم . لقد غنى دانتي الكون ، وغنى في الوقت نفسه عقلانيته : وبهذا التداخل ، هذا التوازن ، يقترب في الأعماق من المهندسين المعماريين أو نحاتي العصر الغوطي . ولهذا أمكن أن يكتب بأن الكاتدرائية الحقيقية الإيطالية هي (الكوميديا الإلهية) . إن وحدة المكان ، تحت شعار العقل الإلّهي ، توجد في حالة تعاظل (تراكب) كلي للأزمنة تحت شعار (السلام) . إن سقوط طروادة يصور مسبقاً ، قبل التجسيد بزمن طويل ، العذاب الضروري للمسيح . والعودة السرية للسعادة التي تتبع الفداء على يد المخلص ، والفخاخ التي نصبها الجشع تخبر

بمجيء المنقذ الذي تبقى ملامحه غير واضحة ، ولكن دانتي ينادي بها من كل روحه .

وهكذا تعكس الطبيعة الكمال الإلهي ، ولكن التاريخ كما هو صنع من خطيئة الإنسان . وعبر الحب ، دانتي ، إينه الجديد ، القديس بول الجديد يجهد نحو أراضي المثل الأعلى ، فهو يختصر على هذا النحو في نفسه ماتعتبره تطلعات القرن الثالث عشر ماهو أعلى وما هو أحدث .

الفصل السابع

الفن القوطي[1]

فن حديث

إذا كان القرن الثاني عشر يسجل ظفر الأسلوب الرّوْماني ، فإن القرن الثالث عشر قرن الفن الغوطي الفائق . ومع ذلك فمن غير الممكن القول بأن الأسلوبين تعاقبا ، وأقل من ذلك أيضاً أن أحدهما نتج عن الآخر . وفي الواقع ، في إيطاليا ، وإسبانيا ، وألمانيا ، وحتى قبل ذلك بكثير في العصر الوسيط ، استمر بناء العمائر والصروح (الرومانية) ، إلا أن الفن الغوطي ، بخاصة ، أخذ ينهض في منطقة لم تُطبع بالطابع الروماني : فبينما الكتلة المركزية ، وبورغونيا ، وجنوب فرنسا كانت في القرن الحادي عشر والثاني عشر مقراً لمدارس مجددة بجرأة وشجاعة ، تأخرت جزيرة ـ فرنسا في الفن القديم . ولذا أمكن كتابة : « إن فنها الروماني كان الفن الغوطي » . فمن اليوم الذي اخترع فيه (العقد) من قبل بناة نورمانديين ببساطة لتقوية القبة ، ونصادف من قبل في هذه الرائعة من الفن الروماني التي هي كنيسة فيزلي اعتبره المعماريون الفرنسيون العنصر القطعي ، مبدأ البناء ، ولد الفن الغوطي . وانتشر العقد بكل سهولة في جزيرة ـ فرنسا ، فضلاً عن أن الطرق التي أعدها المهندسون المعماريون الرومان كانت فيها قليلة الاستعمال . ولكنه بعد ذلك مالبث أن اجتاح الصعيد الروماني نفسه : دخل فيه أجنبياً ، ولكن منطقه كان قوياً ، ويطابق في هذه النقطة متطلبات المهندسين

---

(١) الفن القوطي أو الغوطي بالاصطلاح الحديث .

المعارين العقلانية ، حتى أنه تفوق بسرعة ، وهذا النزاع ، الذي انتهى بنصر تام للأسلوب الغوطي في جزء عظيم من الغرب ، احتل النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، وعندما بدأ القرن الثالث عشر ، كان قد بلغ بالضبط مرحلته الكلاسيكية (الاتباعية) .

وفي الحقيقة ، لا خلاف في أن الفن الروماني بلغ نضجه قبل الفن الغوطي بأكثر من قرن ، ولكن تطور الاقتصاد والتقنيات والفكر في هذه الفترة أثرت بشكل قاطع في المفاهيم الفنية . فالأزمنة أصبحت أكثر ليناً ، والأخلاق أقل قساوة ، وازداد الأمن ، وجعل تقدم الزراعة المجاعات أقل تهديداً . كل ذلك أعطى لإنسان القرن الثالث عشر رؤيةً للحياة أكثر هدوءاً من رؤية سابقيه .

ولكن هذا التدرج في الزمن يدل أيضاً وبصورة خاصة على ارتقاء مكان جديد . فبين نهري الموز واللوار ، في هذه المنطقة التي تجتازها الطرق القابلة للملاحة ، والغنية بالغابات ، والسهول الخصبة ، ومراعي الأغنام ، نمت منذ القرن العاشر حضارة جديدة مدنية (عمرانية) . وهنا ، أكثر من الجنوب بكثير ، أدى سقوط الإمبراطورية الرومانية في السابق إلى تقلص المدن وبخاصة تراجع الزراعة والتقنيات . بيد أن نهوض التجارة والصناعة جذبا من جديد جماهير خارجة عن الإطار الضيق للمدينة القديمة إلى مدن جديدة . أما المستحدثون والتجار فيختلفون بصورة عظيمة عن الإقطاعيين بنمط حياتهم وأيضاً باهتماماتهم . أرباح التجارة التي تنافس أرباح الأرض ، ومنذ ذلك الحين شجع الأمراء مركزية التجار ، وذهبوا حين سئموا من إقاماتهم الريفية . والأكليركيون أنفسهم جذبوا لنوع الحياة المدنية ، وتأثروا بالعقلية البورجوازية المعاكسة كثيراً مع ذلك للمواقع التقليدية للكنيسة . ففي مدن الشمال الشرقي من فرنسا ، التي جذبت إليها كل الطاقات ، طاقات العلمانيين والأكليروس ، ولد الفن الغوطي ونما . وتجاه الفن الروماني الذي هو بالأساس ريفي وجنوبي ، ظهر كإبداع للمدن وللشمال .

وهنـاك أكثر من صفـة تتضـح بهـذه اللمحـة : فبـادئ ذي بـدء الكاتـدرائيـة الغوطيـة تبـدو ، أكثر بكثير من بنـاء رومـاني ، مطبوعـة بـالفكر العقـلاني . إن الإسراف في التفصيـل سلم هـذا الفكر ، وعلى الأقـل في البـدايـة ، إلى التـلاحم ، والضبط ، ومنطق المجموع لأجزاء واتفاقها مع بعض . وبين مختلف العمائر تكون الوحدة أعظم بكثير مما في العصر الروماني . وهذا يدل على ظفر الفكر الموحد على تنـوع الأمـزجـة . وهنـا نجـد الخـاص في الأفراد النشيطين المتجهين إلى الخـارج والمآلفين أكثر للحساب ، وإن مشهد العـالم الـذي يعيشون فيـه يـدعو إلى التفكير أكثر من الحلم ؛ لأن خيالهم أقل إغراءً للهرب من الواقع ، وخلق عالمـه الخـاص ، ولأن العالم الخارجي قد انتظم ، وتأكد في مؤسسات منطقية نظامية ، فهو يؤمن بذاته وبإنجازاته . وظلت الكنيسـة بحق تـدير وتوجـه الأبنيـة ، ولكن الكهنـة ، من المسؤولين غـالبـاً عن مشـاغل الكاتـدرائيـات ، كانوا مطبوعين بعمق بـالروح البورجوازية ويسهمون بـالوطنيـة المحليـة ، وفوق ذلـك ، كانوا بحـاجـة إلى كرم رجال التجارة الذين يريدون أن يجنوا من استثماراتهم ربحاً ، معنوياً فقط وصالحاً لإرضاء حبهم الذاتي وحده . والرؤيـة التي تركهـا لنـا ميشليـة عن شعب مـأخوذ بالإيمان يشارك مجاناً في بناء بيت الله لا تقاوم فحص الوقائع والأحداث ؛ والبنـاة الذين يبنون مجـانـاً لوجـه الله يظلون استثنـاءً . وفي الواقع كان يجب اللجوء إلى عمال مأجورين . فالكاهن أو البورجوازي الـذي يمول يـأمل بـأن تخولـه هبـاتـه الوجاهة والنفوذ . ولا يمكن ، في الجو الجديد الأخلاقي (المعنوي) الذي يسود في المدن ، أن يطلب إليهم التواضع أكثر من رهبان كلوني الـذين لم يستطع القـديس برنارد لجم الذوق الـذي لا حـدّ لـه . ولـذا فـإن بنـاة مختلف الكاتـدرائيـات كانوا يتنافسون فيما بينهم . وكل قومون تريد أن تبني أعظم من منـافستهـا . وبممارسـة موهبة فنية سيدة نفسها أكثر فأكثر ، هذا ما يوضح الارتفاع المتزايـد للقبب كلمـا تقـدمنـا في القرن . فقبـاب نوتردام بـاريس ترتفع إلى ٣٥ متراً ؛ وفي شـارتر التي

كرست كاتدرائيتها في ١١٩٤ م ، تبلغ ٣٦,٥٥ متر . وفي ١٢١١ م ، حققت قباب رنس رقماً جديداً بـ ٣٨ متراً ، ولكن ضربتها أميان في ١٢٢٠ م ، بـ ٤٢,٣٠ متراً . وفي بوفيه عمل ماهو أعلى فأدى إلى انهيار الخورس . إن الأبعاد الواسعة للكاتدرائيات ، وهذه صفة أخرى للكاتدرائيات الغوطية ، إذا قارناها مع معظم العمائر الرومانية ، تتضح أيضاً بوصفها في قلب المدن الكبرى . وباعتبارها مخصصة لتكون مركز الحياة الروحية المحلية ، كان يجب في أيام الأعياد الكبرى ، أن تقدر على استقبال مجموع السكان ، فضلاً عن أن المقدس والدنيوي لم يكونا منفصلين بشكل واضح ، وإن الكاتدرائية تفيد أيضاً نوعاً ما بيتاً للشعب . وأخيراً ، في هذه المناطق الشمالية ، كان من المهم أن تضاء الكنائس إلى الحدّ الأقصى : فارتفاع القبة ، والنوافذ العديدة أكثر فأكثر ، والعالية أكثر فأكثر ، واللجوء إلى الزجاج تستجيب أولاً إلى الإرادة في تدبر وصول النور بسهولة ويسر .

ولم ننظر حتى الآن إلى الفن الغوطي إلا تحت مظهره الهندسي المعماري ، وذلك لأن هذا المظهر أساسي ، ولأن كل الأشكال الأخرى تتعين بالهندسة المعمارية وملحقة بها . فالمنحوتات تدخل في الآبدة أو على الأقل يجب أن تتلاءم معها . والزجاج ، هذا (الرسم) للفن الغوطي يأخذ بشكل طبيعي مكانه في المجموع الذي يحتويه . وبالإجمال ، إن المهندس المعماري هو الذي يبدع فكرة الأسلوب ، وحتى من أجل الأشكال الصغرى . « إن إطار المنمنمات في القرن الثالث عشر هو إطار هندسي معماري » ، كما لاحظ هنري فوسيون . ويريد أن نلاحظ « الأثاث آبدة ، والأشكال المرتبة من أجل توازن صحيح للكتل المبنية تنعكس بصفة تزيين في زخرفة الخشب . وعلى هذا النحو ، حتى ولو كانت صغيرة ، تذكر بعظمتها الأصلية ، وتظهر في دقة الأعمال الثمينة ، ذكرى الكتل الجسيمة التي من أجلها فهمت في البدء » وليس بغير سبب تبنيت الكاتدرائية كرمز للعصر الغوطي حتى عندما يكون القصد أعمالاً فلسفية أو أدبية .

الكاتدرائية الغوطية

لا توجد هندسة معمارية غوطية مثالية تترتب جميع عناصرها في نظام ثابت لا يتغير ، عضوي تماماً ، خارجاً تواً من رأس مهندس معمار متفوق : لقد تكون الفن الغوطي خلال قرن من التاريخ كانت فيه التجارب الأولى مندفعة بالتدريج حتى أقصى نتائجها ، وإذا تابع الفن الغوطي تطوراً ، كما رأينا ، فهو لا يؤلف نهاية أو خاتمة . لقد نشأ منذ أن أصبح تصالب العقود القطعة الأساسية في توازن القباب . ومع ذلك فمن الواضح أن النظام الجديد ، في البدء ، قد وجد مع العناصر التي كانت سابقة عليه . ولا يمكنه أن يهدم في يوم الترتيب العام الذي اخترعه المهندسون الروْمان . إذن يوجد عصر أول للفن الغوطي هو بالذات ، ولكن نسبياً ؛ ثم العصر الكلاسيكي ، للغوطي المطلق . ولكن هنا أيضاً يجب الاحتراس . فإذا سجلت بداية القرن الثالث عشر بعض الاستقرار ، فإن الحركة لم تتوقف ، فكل فن حيّ في صيرورة دائمة . ومن جهة أخرى ، وحتى في العصر الكلاسيكي لا يوجد كاتدرائية نموذجية ، تلك التي رسمها فيوليه ـ لو ـ دوك ـ مهما تكن قيمتها التربوية ـ تبقى نظرة فكرية . ومع ذلك ، فكلما فرضت الحلول الجديدة نفسها ، فإن الأسلوب الجديد كان ينتشر خارج صعيده الأصلي ، نحو جنوب فرنسا ، في إسبانيا ، في إيطاليا ، في إنكلترا . وكان عليه أن يأخذ بعين الاعتبار الظروف المحلية والمادية أو الجمالية . وهكذا نشأت أشكال أصيلة للفن الغوطي .

إن الزمن ، والناس ، والجغرافيا نوعت البناء الغوطي . ولكنه في الوقت نفسه ، وإن لم يبلغ الوحدة ، كان ينزع أو يتجه نحوها .

إن البناة الذين استخدموا العقود الأولى كانوا مجهولين في عزّ العصر الروماني .. إلا أنه على الأقل وجد (مخترع للفن الغوطي) وهو سوجر ، مستشار

لويس السابع ، فمن طريقة استحداثية أوجد مبدأ فن جديد للبنـاء . ويجهل اسم المهندس المعماري الذي دشن في خورس كنيسة سان ـ دوني هذه اللغـة الثوريـة ، ولكن ، على أي حال ، لم يكن إلا ذراعاً مساعداً ، فما هي الـدوافع المحركـة للأب سوجر ؟

لقد كان يرغب أن يمجـد لقبـه الـذي لم يرثـه من أحـد ، وأن يعطي بريقـاً خاصاً للبيت الملكي ، وأراد أن يكون خورس الدير الذي خـدم منـذ زمن طويل ضريحاً لملوك فرنسـا ، من أوسع مـارأتـه عين . وأراد أيضـاً أن يكـون مضيئـاً . وعليه يجب عمل فتحـات بعـدد كبير جـداً . ولكن كيف تثقب الجـدران دون أن تحدث الضرر بمتـانـة العمارة ؟ إن التقنيـات الرومـانيـة لاتقـدم حلاً . ففي الفن الروماني يحصل توازن القبة بالقوس المضاعف الـذي يقوي السقف (الطـاق) أي السقف الممتد بالقوس الرافد الذي يمتن الطـاق بعضـادة الـدعم ، بسماكـة الـدعـائم والجدران ؛ وقبة الروافد المشكلة بتداخل طـاقين متقـاطعين بزاويـة قـائمـة ، قـد ساعد حقاً على رقة الجدران وفتح نوافـذ ، لأن الـدفعـات ، عوضـاً عن أن تكون مستمرة كما في سقف قبوي بسيط ، تكون متوضعة على حوامل إسناد ، موضوعة في النقاط التي تنتهي إليها الروافد ، وفي فرجـة الحوامل يمكن عمل فتحـات . ولكن سوجر أراد أن يذهب إلى أبعد في هذا الطريق ، وهنا أدرك كل الفائدة التي يمكن الحصول عليهـا من قبـة العقود ، والعقـد هـو عصب مستعرض نـاتئ يعتمـد عليـه السقف القبوي . وقد ظن بعضهم أنه لا يؤلف إلا زينة وليس له إلا قيمة شكليـة . وفي الواقع ، بدل بنية البناء ، لأن هذه الأعصـاب النـاتئـة ، المتشـابكـة ، تؤلف طرفاً مستقلاً عن السقف القبوي . إن الدفعات التي يمـارسهـا وزن السقف القبوي تتقى نحو أربع دعائم زاويـة تزيل تمـامـاً عبء الجـدران . وهـذه الجـدران ليست ضرورية لتوازن البنـاء ، إذ من الممكن ، منـذ الآن ، ودون محـذور ، ثقب عـدة فتحات . وأقواس العقود المتصالبة تشكل هيكلاً بنـائيـاً حقيقيـاً من الحجر . وهو

الذي سيساعد سوجر على توسيع فكرته بحرية . والخورس الواسع محاط بمصليات مشعة غير محاطة بجدران وإنما بأعمدة . وبفضل عقد قبة ملحق ، أمكن فتح نافذتين في كل مصلى من المصليات . وهكذا يستطيع النور أن ينفذ بسعة في بناء يمكن أن يستقبل عدة مؤمنين . لقد وضع سقف سوجر القبي لخدمة غرض معنوي ، وهو اعتزازه بفتوحات العقل ، ولذلك أراد أن يخرج الإنسان من الظلمات . والإله لا يقيم من أجله في هذا السر المعتم الذي لا يكف عن العتمة التي يوحي بها عمق وظلمة المعابد الرومانية . وليس القصد إغراق الأفكار في الرعب ولا إخضاعها « وإنما تنويرها والوصول بها من أنوار الطبيعة إلى النور الحقيقي الذي يكون المسيح بابه الحقيقي » . هذه هي عبارات سوجر الخاصة .

وما دام القوس العقدي يتكيف مع عمائر تظل بنيتها ومفهومها العامان غير متغيرين ، فالفن الغوطي لم ينشأ . إن كل فن جديد هو قبل كل شيء فكرة ، حتى ولو تطلب تعبيرها تقنية . وهذا ما جعل لقاء سوجر وهؤلاء النورمانديين أو الإنكليز المجهولين عجيباً . إن عصوراً أخرى تمجد التقنية يمكن أن تعجب من أسلوب (عمائري) جديد يرجع إلى أكليركي ، إلى رجل سياسي لم يكن نفسه مهندساً معماراً . ولكنه لا يكون العبقرية الوحيدة للفن التي لا تدخل نفسها أي تجديد تقني . ومن جهة أخرى ، إن الظروف التي تهيأ فيها فن العصر الوسيط تختلف عن التي نعرفها منذ عصر النهضة ؛ إن الكنيسة ، في العصر الوسيط التي تعين البرنامج ، تحدد محتوى الأعمال الفنية . ورجال الفن ليسوا إلا منفذين . وحتى نقطة ما لا يفصل أي فارق أساسي العامل اليدوي الذي ينقل الأحجار بالعجلة ، من النحات الذي يقطعها أو المهندس الذي يقيمها . المسؤول الحقيقي هو : (صاحب العمل) ، وصاحب العمل هو في الغالب رجل كنيسة . فقد تثقف على أنظمة متينة وصلبة ، ويتحدث مع المهندس المعماري بالخطط العقلانية والقاسية والمستوحاة من طرق تسود في السكولاستيكية . فهو ينظر ويراقب

التنفيذ بمراحله المختلفة ، ولا يمكنه حقاً أن يمنع من أن يكون للطريقة التجريبية والمبادهة الفردية ، نصيب واسع جداً في الغالب ـ وفي هذا المعنى ، يمكن أن ينظر للكاتدرائيات كعمل جماعي ـ ولكن هذا المفهوم لا ينفي وحدة الدفع والحركة .

وقد أسهم تأثير الدير الملكي أيضاً في إعطاء إعلام لهذا العمل الذي يتكلم بنفسه . وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، كان لسوجر منافسون في كل جزيرة فرنسا ، في نويّون ، وفي لان وباريس . وفي كل هذه الكاتدرائيات ، يتصف الأسلوب الجديد بإضاءة كثيفة ونسب واسعة . والمخططات تختلف ، فتارة ينفصل الجناح المصالب في الكنيسة بوضوح ، وتارة بالعكس يكون المنظور واحداً من الرواق أمام جناح الكنيسة إلى الخورس ، كما في كنيسة نوتردام في باريس ، ولكن ، في كل مكان ، تكثر الفتحات ويرتفع السقف القبوي .

هذا الفن الغوطي الأول يبدي وحدة حقيقية تساعد على تمييزه بوضوح من الأعمال اللاحقة : إن الوثبة في البناء التي أصبحت أقوى مما كانت في العصر الروماني ، لم تمنع بعض كثافة المجموع . والأعمدة ، التي تدعم المجاز الجانبي في كنيسة نوتردام باريس تدعوان الإعجاب قبل كل شيء بقوتها . وهذا الانطباع بالقوة ، وانطلاقاً ، من التقشف الذي تعطيه العمائر في هذا العصر ، يرجع إلى أن الارتفاع يصل إلى أربعة طوابق موضوع بعضها فوق بعض ، مستقلة ، من طاقات الطابق الأرضي حتى النوافذ العالية . والطاقات تعلوها منابر (منصات) ، بقايا من الدور الروماني ، تقطع المكان إلى كتل متميزة . والأسلوب ، في نويون بخاصة ، صنع طوعاً أكثر أعصاباً ؛ وفي لان تخف البنية بوضوح ولكن التسلسل الذي يؤلفه تصالب العقود لم يندفع بعد حتى النهاية . وظلت الجدران تلعب دوراً هاماً في بنية العمارة . والوردة التي تنمو على الواجهة

لا تحدث فيها إلا فرصة (حزة) . والمادة البنائية خفت ولكن فن البناء (العمارة) ظل فن المادة .

إن حريق كاتدرائية شارتر الذي لم يوفر إلا البوابة الملكية ، وتعميرها الذي بوشر به في ١١٩٤ م ساعد على تسجيل مرحلة ثانية للفن الغوطي ، والسهم الذي ينتصب على أفق الحنطة البوسية من (منطقة البوس) هو أفضل رمز لهذا الفن بكامل ارتفاعه ، الذي يضحي توازن مختلف الكتل لوحدة الانطلاق . ومن بعد ، في ١٢١١ و ١٢٢٠ م ، أعطت كاتدرائية رنس وأميان للفن الغوطي رائعتين أخريين : إن النزعات العقلانية التي دلَّ عليها فكر سوجر تجد هنا خاتمتها (نتيجتها) ، فالقباب ترتفع ، والمنظور يتركز على تقاطع مصلبة الكنيسة (نقطة تقاطع المصلبة والجناحين) ، والنور يدخل أمواجاً عبر النوافذ العالية . وهذا هو التداخل بين العالم الخارجي والعالم الداخلي ، الذي يعرف ، في كل الحضارات ، العصر الكلاسيكي . لقد تحول الإنسان لدرجة طاقة فكرية محضة حتى قارب أن يمس الله . وأصبح غير منفصل عنه إلا بإنسانيته التي تصنع مجده . الإنسان عاقل ، والله عقل . وقد بدأ الحوار ، والذنب الأصلي وحده يفصلها . والكاتدرائية جهد لإلغاء أو لتحديد نتائجه . والإنسان يطارد في داخله أقل خفيَّة للظل ، بينما الله مجرد من آخر نعوته البربرية . وهذا التميز في فكر سوجر يتضح بصورة طبيعية في كاتدرائيات شارتر ، رَنْس ، أميان بعبارات بنائية ؛ ويفسر بإدخال مفاهيم جديدة عنصرية في لغة البناء ، تزيد في قوة تأثيرها . وهذه العناصر هي : المخطط الأطول من جهة أكثر من الأخرى ، المقوصرة أي القوس الجانبي لِمعزَبة (مسافة بين عارضتين) الموازي لمحور السقف القبي ، والزافرة . فبفضلها يستطيع منذ الآن ، هيكل البناء ، الذي ظلَّ اتساعه محدوداً ، أن يتسع ، ويرتفع ، ويقوى .

والقباب القائمة على تقاطع العقود للأبنية الغوطية الأولى كانت سداسية ذات

ست قبيبات ، أي أن التقاطع لا يتألف من عقدين وإنما من ثلاثة عقود : اثنان مستعرضان ، والثالث مواز للأقواس الرافدة التي تعزز وتقوي السقف القبي . والعقود الطولانية المستعرضة تتطلب سنداً أقوى من العقود العرضانية المعترضة ، ولهذا فإن كلاً من معزبات جناح الكنيسة الأوسط تطابق معزبتين من الجناح الجانبي . وهذا هو المخطط المربع . وعليه كان جسم البناء (الصرح) مؤلفاً من عدة كتل متميزة . وعلى العكس منذ الآن فصاعداً ، في المخطط المستطيل (الحرْد) غير المتساوي في الطول ، أي بعضه أطول من بعض ، يتألف السقف القبي من أربعة أجزاء . وإن التوالي بين السند الضعيف والقوي قد حذف على هذا النحو ، وتطابقت معزبة الأجنحة الجانبية المنخفضة مع معزبة صحن الكنيسة . وبذا تكون بنية الكنيسة قد توحدت ، وقلب الكنيسة أزيل دفعة واحدة .

كما إن اختراع القوس المقوصرة في السنوات الأخيرة من القرن الثاني عشر لم يكن أقل أهمية . وهي قوس موازية لمحور السقف القبي وتندس في الجدار الجانبي . هدفها أن تجعل الجدار غير مفيد لأنه يدعم دفع السقف القبي في مكانه . وعلى هذا فإن تأسيس القوس المقوصرة يساعد على تعديل الجدران بثقبها بفتحات واسعة بحيث لا يبقى بينها إلا رابطة رقيقة . وبفضلها لا تكون المنابر ضرورية لحفظ التوازن . ويمكن للجوانب المنخفضة أن تنتصب بشكل أجنحة جانبية حقيقية . ويتعزز عملها بالزافرة التي يسجل اختراعها بالنسبة لبعضهم النشأة الحقيقية للفن الغوطي ، ووجودها يعرف على كل حال عصرها الكلاسيكي ، والزافرة قوس خارج البناء ، طويل يستند على الدعامة ، وينقل دفع السقف القبي الأوسط إلى الكتف المغروسة بشكل شاقولي في الأرض والتي تفيد أيضاً كدعامة لقباب الأجنحة الجانبية المنخفضة . ولما كانت ذروتها تصل إلى نقطة الدفع المجتمعة للأقواس الرافدة والعقد ، فإن الدعامة تفيد كنقطة ارتكاز للبناء

بكامله . ومن ثم أصبحت الزافرات ، في سياق القرن الثالث عشر ، ذات منعطفين عندما ازدوجت الأجنحة الجانبية ومهرت بطابقين لتتقبل بشكل أفضل دفع السقف القبي . وهكذا فإن الأقسام المفيدة تكون قد انتقلت إلى خارج البناء ، بينما جُوِّف الداخل تماماً ؛ وأخذ النور يدخل إليه من النوافذ العليا المقسمة إلى فتحات ، ويغمر توالي الأقواس المنكسرة (المدببة) .

هذه هي اللغة البنائية العامة في سائر الكاتدرائيات الغوطية الكبرى في القرن الثالث عشر ، « إن حالة فكر كلاسيكي في فن البناء هي حالة لغة جميلة ، متى ثبتت لاتكون بحاجة إلى كلمة جديدة » . ولهذا فإن الاختلافات أقل بكثير بين شارتر ورَنْسْ ، مما بين باريس ولانْ . وبهذا يلاحظ هذا السير نحو الوحدة التي تؤلفها المغامرة الغوطية . ولكن كل واحدة من الكاتدرائيات الثلاث الكبرى تحتفظ بخاصيتها . ففي شارتر يؤخذ الإنسان بسعة الجناح العرضاني للكنيسة الذي ينتهي كل ساعد منه بواجهة ملتجئة تحت بوابة ؛ والأجراس ، والسهم والأبراج تجذّر البناء أكثر مما في رنس وأميان . ورنس أكثرها أبهة ، ولذا كان من الطبيعي أن يبارك فيها الملوك . والجناح الأوسط (الصحن) أوسع بكثير مما في شارتر ، والواجهة أكثر جلالاً ؛ والكلمة الرئيسية السيدة هنا هي الرشاقة . ولا نجد في أي مكان أن تلاعب ذرى البناء الغوطي في الكنيسة المضاءة بدقة ولطافة ورقة ، والجبهات الثلاثية التي تتوج البوابات ، وكثرة الأقواس المدببة المتطاولة إلى أعلى ، تفرض مثل هذا الانطباع في الخفة والانطلاق نحو السماء . ألا ربما كنيسة أميان التي صحنها ، حسب أفاضل المختصين ، أكمل تعبير للنظام الغوطي ، ففيها تتتابع الدعائم ، في موكب جميل ، متزايدة في كل طابق بعميدٍ جديد ليحمل مدماك العقد (رقبة القبة) زيادةً على ذلك .

إن قوة ، وخفة وتجريد هذا الفن الغوطي ستزداد أيضاً في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وتولد ما يسمى بـ (الفن المشع) . والمعبر الأساسي عنه هو

بيير مونترو . ومنذ الآن نرى أن فن البناء لا يطبق على الممتلئ وإنما على الفارغ . وقد أمكن تسمية (القابلة المقدسة) التي بنيت في باريس ، بأمر من القديس لويس ، لتحفظ فيها بقايا القديسة ـ إيبين : (مدّخر من حجر وزجاج) ، لما حاول المهندس المعماري الكثير لتحميل الدعائم كتلة المادة بكاملها . وفي سن ـ دوني ، ونوتردام باريس ، فتح بيير دو مونترو وردات ضخمة أخذت كل الواجهة تقريباً . ولم تعد العمارة أكثر من محصلة قوى تتوازن ويتدافع بعضها على بعض في لعبة مجردة بشكل فاتن . لقد تمّ التطور ، والمرحلة القادمة ستكون بالفعل نفياً لفن البناء ، (الصفحة البيضاء) التي تعهد للتأمل المحض بهمة استيعاب سعة السماء . ومن المؤكد ، أن بناء كنائس ، وقابلات صغرى ، وكاتدرائيات قد استمر ، ولكن مامن حل جديد بحق أكثر قابلية للفهم مما في داخل النظام الغوطي . إن المهندسين المعماريين ، مثل فيلاّردو هونّكور ، الذي تعرفنا دفاتره النشاط المبدع لبنّاءٍ في القرن الثالث عشر ، ما عليهم إلا أن يستلهموا من النماذج الكبرى ، التي مازالت حديثة بعد ، ولا يمكنهم أن يجددوا إلا في التفاصيل . ومع ذلك فإن الانحطاط ما يزال بعيداً . وكذلك العصر الذي سيمتص فيه فن التزيين الأساسي من القوى المبدعة .

وخلال القرن كله ، تغطت فرنسا ومن ثَمّ البلاد المتاخمة بعمائر تدل على قوة وإشعاع الفن الغوطي الفرنسي . ولكن لم يكن القصد ، على العموم ، تقليداً حرفياً . وإذا لم تمس المبادئ فإن تطبيقاتها كانت في الغالب تأخذ بعين الاعتبار التقاليد المحلية . وهذا يعني دليلاً على نفوذ صحيح وعميق .

وفي المناطق التي تحد جزيرة ـ فرنسا مباشرة ، كانت التبدلات ، التي أتى بها المهندسون المعماريون المحليون إلى الفن الفرنسي ، ضعيفة . ففي نورماندیا ، في ليزيو ، وقَنْ ، ترى الجدران أقل فراغاً . وقد حافظت كنيسة روانْ على نظام المنابر الذي قلد فيه العهد الغوطي الأول الفن الروماني . لأن الفن الغوطي

النورماندي كان أكثر تكتلاً وكثافة من الفن الفرنسي . وفي بورغونيا ، في ديجون ، كان العمل جيداً ، ولكنه لا يدل على تأثير محلي خاص . وفي الألزاس ، تعتبر كاتدرائية ستراسبورغ عظيمة باستعمال الحجر الرملي الذي يؤتى به من جبال الڤوج . وانتشر الفن الغوطي بصعوبة تقريباً في إيطاليا ، ولم يعط روائع . ويجب أن نذكر أن كاتدرائية أسّيز المتلئة البنية أكثر مما في الفن الفرنسي ، قد أنشئت لاستقبال فرسكات الفنان جيوتّو . وبالمقابل ، كان نجاح الفن الغوطي تاماً في البلاد الإيبرية . فمن كاتالونيه إلى جيرونة ، إلى تراغونة ، حتى قشتالة ، إلى طليطلة ، ظهر فن غوطي إسباني بطابع أصيل يرجع في أساسه إلى التأثير العربي وإلى استعمال القوس الحدوية . ولكن البنية تبقى البنية التي حددها المهندسون المعماريون الفرنسيون . لقد فهمت الرسالة وقبلت ، ولكنها كانت تلبس لكل حالة لبوسها حسب موضة البلاد . وهذا يعني أن إشعاع هذا الأسلوب الذي ظل الألمان وحدهم على العموم يناوؤونه خلال القرن الثالث عشر . ومع ذلك فإن إقليمين غوطيين يستحقان ذكراً خاصاً ؛ لأن النموذج فيهما قد تكيف بعمق مع التقاليد المحلية وتبدل بها وهما : جنوب فرنسا وإنكلترا .

ففي منطقة تولوز وألبي ، كان الفن الغوطي فن الغزاة ومع ذلك فقد تكيف مع الكنائس المبنية بالآجر وبصحن وحيد ، والعديدة جداً في المدن الجديدة التي بنيت فيها آنذاك ، والنموذج هو كنيسة نوتردام تور في تولوز . ولكن النجاح الوضاء لهذا الفن الغوطي الجنوبي هو كاتدرائية القديسة سيسيل في ألبي . فالدعائم الضخمة بشكل أبراج ، والصحن الواسع المبني بالآجر الذي لا تؤثر نوافذه العالية على كتلته ، تنقلنا بعيداً جداً عن القابلة المقدسة في باريس .

أما في إنكلترا ، فإن العقد ظل فيها ، زمناً طويلاً ، عنصراً إضافياً وتكملة . ومن ثَمّ ، في منتصف القرن ، يرى أن الارتفاع والتجويف لم يزيلا عن كاتدرائية يورك ، تكتلها ، وسيبقى الفن الغوطي البريطاني عملياً دوماً أكثر

بكثير ، بغزارته التزيينية ، ، التي تنفيها الصرامة الفرنسية . ولكن الجزيرة البريطانية أعطت أيضاً فلسفة دونز سكوت الذي عرض فكره دوماً كمضاد للعقلانية التوماسية ... وعبر هذا التنوع ، سادت ، رغم ذلك ، وحدة العالم الغوطي وأفضل رمز لها هو انتشار فن البناء السيسترسي المتقشف ، الهندسي ، المتعلق بالصفاء المجرد للأسلوب العقدي الذي طبع أوربة الغربية ، من بورغونيا حتى پاتالها في البرتغال ، بفكر القديس برنارد المتشدد .

التزيين الغوطي

تظهر الكاتدرائية الغوطية برشاقتها وكأنها عمل عقل تماماً . ففيها تعهد غاية التعبير عن علاقات الإنسان والعالم ، والله ومخلوقه ، إلى العدد المحض . ولكن هذه العقلانية ، والمثال السيسترسي مستثنى ، ليس فيها شيء من الشدة ولا من التقشف . ودراسة النحت يجب أن تقنعنا بذلك ، فهي التي أدخلت إلى الكاتدرائية صورة العالم مطبوعة بالإنسانية والجمال والحب الهادئ . إن دمار فن البناء الروماني قد ضرب الضربة القاضية التزيين المنحوت على التيجان بخاصة ، الذي كان يؤلف جزءاً لا يتجزأ من بنية العمارة . ولكن المفهوم الجديد كان بعيداً عن الضرر بالنحت . فقد رفض أن يثقل نفسه بالزخارف الزائدة الفائضة ، وأعطاه استقلاله الذاتي الكامل . إن ثقل التماثيل لا يتقيد بفن عمارة تتجاوزه . فالتمثال يشارك ، على وجه التأكيد ، بالانسجام العام . ولكن المبدع في الحركة التي يعطيها له لا يرى فيه إلا هي وحدها . وهو أيضاً ينجو من سيطرة المادة . ومن جهة أخرى ، يرى نحات الحجر دوره متزايداً . حتى أن كثيراً منهم حرصوا على توريث اسمهم إلى ذريتهم ، واعين بأنهم أبدعوا أثراً أصيلاً بالتمام والكمال .

ومع ذلك فإن الفنان ، قبل أن يستسلم لخياله ، سواء نفذ التزيين الشفاف على الزجاج الملون ، أم تماثيل ، أم منحوتات ، عليه أن يحترم البرنامج الذي

وضعته الكنيسة . وقد قيل أن مسؤولية العمل ترجع بكاملها إلى الكنيسة . وهـذا صحيح أيضـاً بـالنسبـة للتزيين الـذي تعهـد إليـه بـدور ممتـاز ، وهـو تعليم شعب المؤمنين ، بصورة مبـاشرة أكثر ممـا يسمح بـه فن البنـاء . وقـد علق سـوجر آمـالاً كبيرة على القيمة الإقناعية للبنية الآبـديـة وللنور . ولكن العـالم المنحوت ، الـذي يقدم شخصيات ويرتبها في مشاهد ، هو أكثر جلاء . وبصورة مستقلـة عن قيمتـه الجمالية الخاصة التي تشرك المشاهد الحساس بالعالم الفكري والأخلاقي للفنان ، نراه يساعد على تصوير موضوعات ومذاهب ، وإدراك العـالم العزيزة على الكنيسـة . ولـذا فـإن أب كنيسـة القـديس ـ دوني اعتقـد أن من الخير أن يختـار بنفسـه موضوعات تزيين زجـاج كنيستـه ، ويفسرهـا بنقوش تجعلهـا أكثر قـابليـة للفهم أيضـاً . ولم نحتفـظ بتـوجيهـات غير تـوجيهـاتـه ، ولكن لا يمكن أن نشـك بـأن منافسيه ، أو أنداده في لان ، بـاريس ، شـارتر ، قـد سلموا ، على سبيل المثـال ، إلى الفنان (كتيبات) حقيقية . إن الدراسة الدقيقة التي قام بها إميل مال تبرهن في الواقع ، على أن المشاهد المنحوتـة على كُنَّـات الكاتـدرائيـات ، هي في الغـالب انعكاس لأعمال أدبية ، من آخر العصر القـديم أو من بـدايـة العصر الوسيـط ، كان يمارسها الدكاترة ، ولكن نحاتي الحجر ما كان بإمكانهم أن يعرفوها .

وحسب التعبير المألوف ، إن الكنيسة فهمت الكاتدرائيـة كتـابـاً من حجر ، وترجمة تشكيلية لكتب اللاهوت وعلاقته بالفلسفة ومرايـا ، وصور العـالم التي تميز الحيـاة الفكريـة في القرن الثـالث عشر . والأقسـام الأربعـة لـ « المرآة الكبرى » لمؤلفها فنسـان دو بوفيـه ، أكبر فقيـه في العصر الغوطي : مرآة الطبيعـة ، مرآة العلم ، مرآة الأخلاق ، مرآة التاريخ قد صورت دوريـاً وصنعت من الكاتـدرائيـة مختصر الكون . ففي (مرآة الطبيعـة) تنعكس حقـائـق العـالم في النظـام الـذي خلقها الله به ؛ فتارة تمثل فيه الطبيعة لنفسهـا ، وتـارة ، بـالعكس ، يمثل العـالم المادي صورة العالم المعنوي (الأخلاقي) . وهكـذا فـإن الحيوانـات الأربعـة ، التي

تحيط بالمسيح في المداليات ، تصور الإنجيليين الأربعة ، وأيضاً الأعمار الأربعة لحياة (المخلص) ، وأيضاً الفضائل الأربع التي تؤمن السلامة . ومرآة العلم تقص كيف ينهض الإنسان من السقوط بالأعمال اليدوية وبالعمل الفكري ، فالفلاحون في الحقول ، ورموز الفنون السبعة الحرة ، كل واحد مع خاصته ، إنما هي تمثيل مصور لهم ولها . والمرآة الأخلاقية تصور لنا الفضائل المنتصرة والواثقة من نفسها ولا أكثر ، وليست ، كما في العصر الروماني ، مضطهدة بالرذائل التي لا تنتصر عليها إلا بشق الأنفس . وأخيراً المرآة التاريخية ، وتدل على استمرار الأزمنة منذ العهد القديم الذي هو صورة مسبقة للعهد الجديد ، حسب المفهوم الرمزي الذي كان موضع شرف في القرن الثالث عشر حتى يوم الحساب (اليوم الآخر) مروراً بالأناجيل الحقيقية أو المزيفة ، وحياة القديسين . وفي الحقيقة إن بعض هذه الموضوعات قد أتت من أعلى العصر الوسيط ، ولكن القرن الثالث عشر جمعها في هذه المجموعة المتجانسة . ومن جهة أخرى ، أصرّ على بعض المشاهد : كالتبشير الرمزي بالإنجيل في مشاهد العهد القديم (مثل يونس الخارج من فم الحوت يصور لنا مسبقاً بعث المسيح) يفسر مفهوماً عقلانياً للتاريخ العام ؛ والدور الكبير المسند للعذراء يدل على تطور العاطفة الدينية التي تخصص للحساسية الحنون مكاناً أوسع مما للإرهاب . وبصورة عامة ، إن العالم مقبول كما هو ، وحاشا الهرب منه . لأن القصد منذ الآن هو فهمه أيضاً ، في تفاصيله كما في وحدته ، وإعطاء صورة سامية عنه . وفي شارتر يلاحظ هذا الطابع الإنسيكلوبيدي بشكل أفضل مما في غيرها ، لأن الكاتدرائيات الأخرى ، على ما يبدو ، متعلقة بصعيد تفضله على الصعد الأخرى . فأميان أوجدت مكاناً خاصاً للأنبياء ؛ وفي باريس أربعة أبواب على ستة مخصصة للعذراء ؛ ولأن تشرف بخاصة العلم ؛ ورنس تقص تاريخ ملوك فرنسا . ولكن هذا الدليل الإضافي للأصالة يجب ألا يخفي الوحدة العميقة في التعليم .

إن القيمة الموجبة للعبرة أو القدوة ، في فن الأيقونات ، يمكن أن تكون مع ذلك شيئاً قليلاً إذا كانت الحقائق الأخلاقية التي ينوي الدلالة عليها لا يشعر بها من الأعماق الفنانون الذين عبروا عنها بعبارات الجمال . وفي الحقيقة يحسن أن نأخذ لمحة عامة عن موضوعات النحت الغوطي كما لو لا يمكن الكلام عن أوبرا دون أن نختصر الدليل عليها . ولكن العمل الدرامي يوجد في الشكل نفسه ، وليس من الضروري المشاركة بأديولوجية العصر الوسيط لنبهر بالجمال البشري بعمق في صور رَنْسْ .

وفي الواقع إن البشرية ، هي أول ميزة للنحت الغوطي ؛ فالتمثال فيه لا يلتحم بالكتلة البنائية ، لأن الفنان يستطيع بحرية أن يمنح الحياة لشخصياته أو يحني أوضاعهم حسب العاطفة التي يريد أن يعبر عنها . إن رأس العذراء في باب كاتدرائية رَنْس منحنٍ بعذوبة ، بينما الملاك ، الذي يقف على يمين القديس نكيز ، يرفع رأسه بهيئة نصر . وإن سكون الإله الجميل في أميان ليس فيه شيء من الجمود . إنه يدل على الخشوع الذي يفرض على عتبة السر . وإن تحرير فن التمثال قد ساعد الحياة على الانزلاق حتى في اللباس الذي توحي طياته بالشكل الحي ، على حين أنها في الفن الروماني لم تكن إلا نمواً زائداً عن العمود . وإن الموضوعات التي فرضتها الكنيسة تساعد الفنان في التعبير عن اعترافه الخاص بكل الجمال المقدم للإنسان ، والأكثر ألفة منها ليست بالنسبة له أقل إعزازاً : كالفلاحين وهم في العمل في سهل البوس أو في كروم الشامبانيا ، والحيوانات الداجنة ، والنباتات التي يكتشفها في الربيع بإعجاب متجدد كل الأعوام . هذا الاكتشاف الجديد للقيم الإنسانية يتماشى مع مهارة متزايدة ليجد فيها التعبير المناسب ، والفنان لا يتردد في تبديل النسب الحقيقية للجسم البشري ليعطي بشكل أفضل وهم الطبيعي . وبهذا وجد فنان العصر الغوطي من جديد درس الفن الإغريقي الذي حنى ذروة المعابد لتظهر مستقيمة ، فهو لا يقلد الطبيعة فحسب ، بل يجعل

منها مثلاً أعلى يجب أن ينتصر على الواقع نفسه . وهنا تكون الصفة الثانية للفن الغوطي ، فحسّه بالإنسان لا ينفصل عن حسه بالمثل الأعلى . فالناس ، والقديسون ، والمسيحيون وعذارى الكاتدرائيات قريبون منا ، ولكنها في الوقت نفسه تكشف عن عالم أعلى كل شيء فيه نظام وجمال . إنه النظام الذي أبدعه المسيح الذي هو معاً آدم جديد وابن (ثاني شخص في الثالوث الأقدس) متجسد في السيد المسيح . وهذا العالم الأخلاقي (المعنوي) للعصر الوسيط ، هو عقلاني ، أقل كمالاً ولا شك ، وأقل قدرة من العصر الإغريقي ، ولكنه أقرب منه إلى المصادر الحية للحساسية . يقول مالرو : لقد أعطت المسيحية نظراً للتماثيل : فعبر الفرح الشديد للقديس ـ ميشيل في بورج ، تخترق ابتسامة ملاك رَنْسْ الغامضة عالماً مستسلماً تماماً تحت قانون حب الله الذي يفتن القديس تيؤدور شارتر ، ويغمر إلّه أميان الجليل بطيبة عظيمة .

وكما في البناء ، في جزيرة ـ فرنسا ، وفي الشامبانيا ، ونحو منتصف القرن الثالث عشر ، بلغ فن النحاتين كماله . ومن ثمّ ، ومع احترام أسلوب الأسلاف ، أغري الفنانون نوعاً ما ، بدقة ورقة الشكل ، وإعطاء شخصياتهم حياة أكثر مع المخاطرة بانتزاع جلالتهم منهم . وإن تأثر الفنون الصغرى ، وبخاصة فن العاجيات الباريسية ، لم يكن غريباً عن الرغبة المتزايدة في صنع (الجميل) . وفي الوقت نفسه إن نمو فن صور الأشخاص على الأضرحة سيوجه فن النحت نحو بحوث نفسية كان يجهلها في العصر الكلاسيكي . وإن تأثير النحاتين الفرنسيين تجاوز عن سعة الدومين الملكي ، ولكنهم اصطدموا بمقاومات محلية أكثر من المهندسين المعماريين . إن حواريّي ريو ، في متحف تولوز، الأقوياء والباروكيين قلما ينظر إليهم بالنسبة للعذوبة الشامبانية . وفي إسبانيا ، في آفيلا وكومبوستيل انمحى الفكر الفرنسي أمام الشدة الدرامية : فحواريو كومبوستيل مازالوا رومانيين ، ولكنهم من جهة أخرى وهّاجون أي من طراز الأسلوب

الوهاج . وفي ألمانيا ، لم يكن فن النحت الفرنسي مجهولاً . إن فنان بامبرغ كان يعرف صور رنس ، ولكن آدمه وحوّاه متكتلان متصلبان بجلال ، بينما الإمبراطور الجرماني هنري الثاني (٩٧٨ ـ نحو ١٠٣٩ م) وزوجته كوينغوند دولوكسمبورغ (القديسة) يضربان الحس خاصة بقوة التعبير وظاهر الحقيقة النفسية . وعدا فروق المشغل ألا يمكن أن يرى هنا فصل بين الأسطورة التوراتية والتاريخ القومي الذي كان مجهولاً في الفكر الفرنسي الذي كان أكثر عقلانية وأكثر عالمية ؟

وإيطاليا ، أخيراً ، نجت تماماً أو تقريباً من السيطرة الغوطية ، واتجهت بصورة طبيعية نحو العصر الروماني القديم والوجيه . وألهمت المنحوتات القسطنطينية النحات العظيم نيقولا بيزانو . وعليه فإن النحت الغوطي في آخر الأمر فرنسي بخاصة أكثر من فن العمارة . ولم تتم الوحدة إلا في القرن الرابع عشر . ولم يكن عندئذ النحاتون ، وإنما في الحقيقة فنانو العاجيات الذين ضبطوا الموضة .

ولا يمكن الوقوف اليوم على كل ثروة التزيين الغوطي : فالمذابح المغطاة بالذهب ، والكؤوس المقدسة ، والكنوز اختفت من الكاتدرائيات . وكذلك التلبيس بالحجر والستائر المختلفة الألوان . ودهنت الجدران بالأبيض ، وفقدت التماثيل لونها . ومع ذلك بقي من الزجاج الملون شيء كثير . وقد رأينا أي مكان يحتل في فكر سوجر بما عهد إليه بادئ بدء برسالة التعليم . وشبكة الرصاص ، التي تحفظ الصور الملونة المنزلة في الزجاج ، ترسمها بقوة ، وتسهل قراءة وفهم المشاهد الممثلة فيها . ومن الموضة اليوم الكلام بتنازل عن هذا الشعب الساذج الذي ينهل من التماثيل الصغيرة الأساسي من غذائه الروحي . ومع ذلك ، وأكثر أيضاً من تماثيل الكنات ، لقد سحرت الشبابيك الزجاجية الملونة العقول .

وفي المقام الثاني ، تحلل ألوان الزجاج النور الذي يدخل الكاتدرائية عبر الفتحات الواسعة ويقتلع الحواس من ظلام الدنيا . وبعد أن علمها الزجاج كلّف بتمجيد روح المؤمن ، ونقلها إلى مناطق مجهولة حيث تعتلي العذراء وابنها العرش .

وفي كل المناطق التي ظفر فيها الفن الغوطي على الطريقة الفرنسية ، حلّ الزجاج في الغالب جداً محلّ الفرسكة التي جعلتها الجدران المفرغة مستحيلة .

ومع ذلك بقي فن التصوير (الرسم) الآبدي تحت شكله الزخرفي ليثبت خطوط وأحجام فن العمارة ، وتحت شكله التزييني لتزيين السقوف كما في كنيسة بوتي ـ كوفيللي ، بالقرب من روانّ . وظهر فن التصوير بخاصة على صفحات المخطوطات ؛ لأن الفكر الغوطي نفذ أيضاً إلى فن (التزويق) أي التزيين بالألوان . ففي اختيار الألوان الحارة والمعروفة عن سعة في التركيب الذي يتبنى في الغالب ترتيب الشبابيك الزجاجية (كما في مجموعة المزامير لبلانش قشتالة) تأثر الكتاب بنفوذ الشباك الزجاجي وبفن البناء . وأجمل الأعمال (مجموعة المزامير للقديس لويس ، والكتاب الذي يحوي أناجيل جميع قداسات السنة للكنيسة المقدسة في باريس) تدل على التفوق المدوي لمدرسة باريس .

إن عرض الفن الغوطي يكون ناقصاً إذا لم تذكر الحركة الموسيقية الهامة الناجمة ، هي أيضاً ، من هذه البؤرة العجيبة التي كانت جزيرة ـ فرنسا في القرن الثالث عشر . فقد ثبت الترتيل الغريغوري منذ القرن التاسع ، واقتصرت مدارس مجالس الكهنة القانونيين على الحفاظ عليه بكل دقة وعناية . ولكن نشأت في باريس مدرسة ردت الترتيل الغريغوري إلى دور الدعم ، وانطلاقاً من الترتيل الليتورجي (الطقسي) نمت بحرية موسيقى متعددة الأصوات متطابقة . وكان أشهر الأساتذة ، في هذه المدرسة ، ليونين وبخاصة بيروتين الذي قاد في آخر

العصر كورس نوتردام . وتمجيداته الطبيعية للرب ، ومجموع أناشيد القداس : فيدرونت ، وسيديرونت تدعم بقوة المقارنة مع أجمل أعمال البناء . وكان تأثيرها عظيماً في أوربة كلها .

لقد ولد الفن الغوطي في وسط الدومين الملكي الفرنسي . وفيه تابع أقصى نمو له . ففي خلال خمسين سنة ، وتحت توجيه الكنيسة السامي والنشيط رفع المهندسون المعماريون والنحاتون والموسيقيون آبدة عظيمة تتجلى فيها شدة المحاكمة معدلة دوماً بإنسانية مشربة بالحب . وهذا الفن المتجذر بعمق في التراب الفرنسي ، لم يكن ليقصد غير الشمول . وأجمل أعماله كانت أنقى تعبير لداخليته . وهذا ما يوضح تأثيره وإشعاعه ، ولكن الخارقة لا يمكن أن تدوم إلا خلال مدة . فما من فن تماسك وظل أكثر من بضع عشرات السنين على القمم . ومع ذلك إذا لم يستطع أخلاف كبار الأساتذة التنافس معهم ، فلم ينسوا دروسهم طوال قرن بكامله ، وبخاصة إذا لم يبلغ الفن الغوطي المصدّر إلى مختلف الممالك في أوربة الغربية ، في كل مكان ، الصرامة المنطقية نفسها ، الحدة نفسها لعدم اعتبار الجسد ، فقد كان في كل مكان كاشفاً لمختلف الأمزجة الوطنية لأنه أتى بأداة فكرية لا مثيل لها ، وسما إلى أعلى درجات التجريد ، وعاش عليه الأوربيون حتى آخر القرن الخامس عشر .

بدايات فن التصوير (الرسم) الإيطالي

وبالرغم من ظفر الفن الغوطي ، فقد تهيأت في إيطاليا ثورة جمالية حقيقية . ففي هذه المنطقة المتمردة على فن العمارة الغوطي ، نهض فن التصوير الآبدي ، من فرسكات وفسيفساء ، بتحرره من التقليد البيزنطي . وكان من نتيجة أخذ القسطنطينية من قبل الصليبيين في ١٢٠٤ م ، تدفق جديد للمزخرفين والفسيفسائيين الإغريق على شبه الجزيرة الإيطالية . ففي روما عذراء

(مـادونـا) القـديســة ـ مــاريــا دو تراستيفيريــه ، وفرسكات سن ـ سيلفستر للمتوجين الأربعة « تكشف دومـاً القمع الرتيب للشكل الإغريقي »[1] . ولكن في النصف الثاني من القرن تشكلت مدرسة فسيفسائيين وفرسكيين إيطـاليين . ففي روما اشتهر لاكوپو توريتي ، في آخر القرن الثـالث عشر ، في تتويج العـذراء في صدر كنيسة القديسة ـ مارية العظمة . وبيترو كاڤالليني (١٢٥٠ ـ ١٣٣٠ م) في تـاريخ عـذراء القـديسـة ـ مـاريـة دو تراستيفيريـه ، فقـد مثلا تمـامـاً الأسلوب البيزنطي بكل دقتـه . ولكن تـأمل النماذج القـديمـة أدخل في فنها قوة وضخـامـة جـديـدتين . فلــدى كاڤــالليني ، في رومـــا ، بــدأ الفلــورنسي تشيمـــابــو (١٢٤٠ ـ ١٣٠٢ م) بالعمل قبل أن يوجد ثـانيـة في مشغل (ورشـة) أسيز . إن تـأثير الفنـانين في رومـا ، ووجود تشيمـابو الـذي كان أستـاذه ، وتجربـة أسيز التي شـارك فيهـا تجعل ظهور عبقريـة جيوتـو (١٢٦٦ ـ ١٣٣٧ م) أقـل سراً . ومعـه « استولى فن التصوير على الجدار بكامله ، ونظمه حسب هواه » . وكما في كنيسـة سكروڤيغني في عرين بـادوا ، ينفتـح المكان ، ولكنـه ليس مكانـاً منظـوراً تحفره مسـافـة صغيرة وهميـة تحت الصور ؛ إنـه نوع من مشهـد ضيق وممتـد تتطور فيـه الأشكال المكعبة والكثيفة . وعلى هذا النحو تكسب الشخصيـات الحق في الحركـة والإيماء ، لا لعرض صفاتها ، والكشف عن خاصيتهـا . وإنمـا فقـط للـدلالـة على مشاركتها التامة في العمل » (شـاستل) . وعلى مـا يبـدو أن معـاصر جيوتو وهو دوكتشيــو (١٢٦٠ ـ ١٣١٩ م) قــد تثقف في المــدارس نفسهــا التي تثقف فيهــا جيوتو . فلقد أعطى لفن التصوير السينوازي (من مدينة سيين) تعبيره الأول . ففي الرافدة وراء المذبح ، الرافدة الكبرى للعذراء ، نجد التركيب البسيط والنافذ نفسه الذي نجده عند جيوتو . ولكن الفنان السينوازي يبحث بخاصـة عن التـأثير الثمين ، بالتلاعب بدقـة ونعومـة بـالألوان .. وهكـذا تكشف الفن الإيطـالي ، في بداياته ، غنياً بالإمكانيات المختلفة .

(١) A. Chastel, LArt italien, ed. Larousse

الفصل الثامن

الحملات الصليبية

المقدمة

الشرق والغرب

بين القرن العاشر ومنتصف القرن الثالث عشر ، وعلى طول شريط عريض من الأراضي يلف أوراسيا (أوربة وآسيا) من إسبانيا حتى الصين الشمالية مروراً بسورية وسهوب آسيا الوسطى ، في هذه المنطقة ، حيث تتماس شعوب وحضارات عالم العصر الوسيط ، قلبت الحملات العسكرية وحركات الشعوب المواقع المكتسبة ووضعت على بساط البحث من جديد قضية توازن القوى .

إسلام الغرب وحرب الاسترداد

في الغرب كان العالم الإسلامي المنقسم إلى ثلاث خلافات يدعم بنظام مبعثر الهجومات التي يوجهها إليه المسيحيون بعد أن استيقظت قواهم : تراجع إسلام الغرب ، في إسبانيا ، في المغرب ، وفي صقلية .

الأتراك والصليبيون

وأكثر إلى الشرق ، كما في القرون الأولى من العصر المسيحي ، أن الحوادث ، التي أحدثت الاضطراب في القارة الأوراسية انطلاقاً من القرن التاسع وبدلت العلاقات بين الغرب والشرق ، ترجع في أصلها إلى سهوب آسيا العليا الوسطى . وخلال أعلى العصر الوسيط كله (من القرن السادس إلى الثامن) ، كانت هذه

المناطق خاضعة للهيمنة التركية : فتحت إدارة الأتراك التوكيو تشكلت في السهوب إمبراطورية كبرى راحلة ، غير مستقرة . وعندما ضعفت هذه الإمبراطورية بانقساماتها الداخلية ، انهارت في منتصف القرن الثامن ، وعندئذ بدأ ، لآسيا الوسطى ، دور عدم استقرار كان في أصل تحولات عميقة .

بدأت الشعوب التركية بحركة انزلاق بطيئة نحو الغرب ، نحو المناطق التي استطاعت منذ ذلك الحين أن تحمل اسم (تركستان) أي بلاد الترك . وغمرت الشعوب الهندية ـ الأوربية القديمة في واحات التاريم وحضاراتها القديمة ؛ ثم ، دانت بالإسلام . وانطلقت ابتداءً من القرن العاشر لفتح السهل الهندي ـ الغانجي (الأتراك الغزنويون) ، وروسيا الجنوبية (البتشينيك) ، وإيران الإسلامية ، وآسيا الصغرى وسورية (الأتراك السلجوقيون) . وأوشكت الاستيلاء على القسطنطينية . وهذا التهديد التركي للمسيحية أدى إلى هجوم معاكس غربي من قبل الصليبيين . ونجح الصليبيون في أخذ موطئ قدم لهم في سورية . وتأسيس دول لاتينية فيها . وفي الواقع ، لقد أفادوا في الغالب من الظروف التي كانت متاحة جداً لهم . فمن ذلك أن طفرة الفتح التركي كسرت ، حتى قبل نزول أوائل الفرسان الغربيين ، بتفتيت الإمبراطورية السلجوقية التي انقسمت إلى عدة سلطنات ، كانت مملكة خوارزم في فارس وسلطنة إيكونيوم في الأناضول الوارثتين الأساسيتين لها . ومع ذلك لم يسد الوفاق بين المسيحيين من الفرسان الغربيين وإغريق الإمبراطورية البيزنطية : ففيما تتفتت الممتلكات المسيحية تحت الهجومات المعاكسة التركية ، أدى الفتح الموقت العابر للقسطنطينية في الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٤) إلى تعميق الخندق الذي يفصل بين بيزنطة واللاتينيين . ومنذ آخر القرن الثالث عشر طرح اللاتينيون في البحر واستعد الأتراك لهجوم جديد .

ظهور المغول

ومع ذلك ، وجد الأتراك أنفسهم قليلاً قليلاً قد حذفوا من أعلى آسيا الشرقية التي ستصبح بهذا الواقع بلد المغول ، مونغوليا . وقد تحقق حذف هؤلاء الأتراك من آسيا الشرقية ببطء . وبعد انطلاق قسم من التوكيو إلى المناطق الغربية ، صارت السيادة على عالم الرحل في الشرق أولاً إلى أتراك آخرين ، وهم الإيغور . وتحت تأثير الصين ، التي كانوا حلفاءها المخلصين ، وإيران (وبخاصة بلاد ماوراء النهر) ، التي أخذوا عنها الديانة المانوية والكتابة ، كانوا الأوائل بين الشعوب التركية التي توصلت للحضارة . وتشهد على ذلك الفرسكات المرسومة في منطقة تورفان ، وترجمات النصوص الصينية والإيرانية إلى الإيغورية . ولكنهم ضعفوا في غضون تحضرهم : ففي سنة ٨٤٠ ، أخذت عاصمتهم كارا ـ بالغاس ـ سون (في موقع على مقربة قليلاً من كاراكوروم) وتهدمت إمبراطوريتهم على أيدي أتراك آخرين ظلّوا برابرة ، وهم القرغيز الذين انحدروا من مناطق أعلى نهر ينيسائي .. وذهب الإيغور ، سقط إمبراطورية منغوليا ، واستقروا في واحات شمال نهر التاريم (تورفان ، كوتشا) ، حيث اعتنق كثير منهم الديانة البوذية . ومن هناك ، سيستمر نفوذ حضارتهم في الإشعاع على مجموع عالم السهوب : ولعبوا دور المربين للشعوب التركية ـ المغولية وجهزوهم بكتاب نساخين وبكتابتهم . ومع ذلك ، فإن القرغيز ، في منغوليا غير أكفاء لتأسيس أمبراطورية مستقرة . وفي الوقت نفسه ، وإثر ضعف التانغ ، انطوت الصين على نفسها ، وانقطعت عن ممارسة نفوذ على آسيا العليا . وأحدث إهمال القرغيز والامتناع الصيني فراغاً سياسياً ساعد المغول على أن يكونوا سادة منغوليا . وتم هذا التطور ببطء : ففي القرن العاشر ، استقر أوائل المغوليين ، الكيتان ، في السهوب ، ودخلوا في ٩٢٤ كارا ـ بالغاسّوم وطردوا القرغيز في سيبريا . ثم والوا تقدمهم باتجاه الجنوب : وقاوموا في ذلك الحين آل سونغ في الصين وانتزعوا منها أقاليمها الشمالية . وفي آسيا العليا

نفسها ، بقيت سيطرة كيتان رخوة جداً وسطحية جداً : حصل أباطرة كيتان على ولاء القبائل المغولية التي ظلت تنحدر من مناطق نهر آمور الأعلى نحو منغوليا متقدمة على طول وديان نهر الأونون ونهر الكيرولن ؛ وأخضعوا أيضاً لسيادتهم بعض القبائل التركية مثل التتر . ولكن إلى الجنوب أكثر استقرت قبائل متحدرة من التيبت الشرقية ، التنغوت سي ـ هيا ، وبخاصة في الشمال الشرقي اهتزت شعوب تونغية ، وهم الجورتشيت ، الذين استولوا في (١١٢٢) على إمبراطورية كيتان الصينية ، وأجبروا هؤلاء الأواخر على الخضوع أو الفرار نحو تركستان حيث ظهروا ثانية تحت اسم كاراكيتاي . وتوطدت السيطرة المغولية في بداية القرن الثالث عشر على يد جنكيز خان الذي جمع مختلف شعوب تحت رايته ، وأطلقها لفتح الدول المستقرة في أوراسيا . فمن فارس إلى شواطئ المحيط الهادئ مدت الإمبراطورية المغولية جسراً بين الشرق الأقصى والغرب بعد أن ظلا يعيشان حياة منفصلة منذ عدة قرون .

وحوالي العام ألف لم يفتح الغرب الأوربي لنفسه غير نوافذ ضيقة على البحر المتوسط . وكان الإسلام وبيزنطة ، الدولتان العظيمتان في البحر المتوسط ، تقتسمان حوضه الشرقي . وبفضل مواقع أمامية ، أشباه جزر وجزر ، وتسيطران كلياً على نشاط حوضه الغربي . وبفضل قدرتهما السياسية ، وثروتهما الاقتصادية ، وحضاراتهما النقية كسفا دون تعب دول أوربة الغربية التي مازالت في ذلك الحين تحاول بعناء أن تنشل نفسها من الفوضى والفقر والبربرية .

وفي العام ألف اقتسمت ثلاث ديانات العالم الروماني القديم : المسيحية الكاثوليكية الرومانية والمسيحية الأرثوذكسية البيزنطية اللتان فصلتهما من بعد حيدة ١٠٥٤ للأبد ؛ والإسلام الذي امتد في توسعه إلى أوربة .

وفي بداية القرن الحادي عشر كانت القوة السياسية والثروة الاقتصادية والحضارة مسلمة وبيزنطية . فقد عرفت بيزنطة عصراً ذهبياً ثانياً تجلى بنهضة

ثقافية وفنية صحبتا تجديد قوتها السياسية في آسيا ، وعلى الدانوب ، وفي إيطاليا حيث استأنفت الهجوم الجيوش الإغريقية ، وبلغ الإسلام في المتوسط الغربي أكبر اتساع أرضي له . وبالرغم من أنه لا يؤلف وحدة سياسية ، واضطر لفسح المجال في آسيا للإمبراطورية البيزنطية . فقد كان يشع بكل سنا حضارته المدنية وثقافته .

وإلى جانب الإسلام وبيزنطة كانت الدول المسيحية الغربية في حال تجزئة وفقر وبربرية . ومع ذلك نجحت في إيقاف موجة الغارات السلافية والاسكانديناقية ، وبدأت بعملية مزج صابر في تبشير القادمين الجدد بالمسيحية . كما بدأ عمل تعمير سياسي واقتصادي ، وسيساعد بعد قليل مسيحيي الغرب على الانطلاق في اتجاه البلاد الإسلامية بهجوم معاكس وظافر ، ولو إلى حين ، وهو الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٩ .

وفي غضون ذلك ، كانت المناطق ، التي تتجاور فيها المسيحية والإسلام ، وبخاصة إسبانيا ، وصقلية ، وجنوب إيطاليا ، موطناً لنزاعات عنيفة في الغالب ، ولكن أيضاً لاتصالات اقتصادية وفكرية مثمرة ولا سيا للغرب .

الحملات الصليبية في الغرب الأوربي

بعد انتشار الإسلام في البحر المتوسط بثلاثة قرون تقريباً ، انطلق الأوربيون بحملاتهم الصليبية لاسترداد البلاد التي احتلها المسلمون في أوربة . بدأت الحركة في إسبانيا ، وحررت حرب الاسترداد القسم الأعظم من شبه الجزيرة الإيبرية من النفوذ الإسلامي . وفي أواخر القرن الحادي عشر توجه فرسان الغرب المسيحيون ، لأسباب عديدة : اقتصادية ، سياسية ، دينية ، استعمارية ، نحو شرقي البحر المتوسط ، يحاولون تخليص الأماكن والأرض المقدسة من أيدي أهلها وفتح بلاد المشرق العربي . وكان المثل الأعلى الذي كان عليه فرسان الغرب الأوربي ، هو المثل الأعلى الذي كان عليه جنود أباطرة

القسطنطينية البيزنطيين . غير أن كثيراً من العقبات وقفت بين هؤلاء وأولئك ، ولم يقم بين الجانبين تعاون حقيقي . وأخيراً أهملت الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢ ـ ١٢٠٤) الأراضي المقدسة وذهبت لتحتل القسطنطينية . وهكذا أخفقت حمية الإيمان المسيحي في القرن الثاني عشر ، وإخفاق جميع الحملات الصليبية في المشرق العربي . وفي القرن الثالث عشر وجدت حملات وحروب صليبية ، ولكنها كانت على غير وفاق مع زمانها .

إن إزاحة المسلمين من المواقع القوية ، التي كانوا يحتلونها في أوربة ، كانت أول مهمة فرضت على الجيوش المسيحية في الغرب الأوربي . ومنذ أن فتح المسلمون إسبانيا لم ينقطع النضال ضدهم : من غارات منظمة انطلاقاً من الممالك المسيحية الصغيرة في جبال البيرينه ، ومن حملات أعدها الأباطرة والبابوية في إيطاليا الجنوبية حيث كان الأدواق البيزنطيون يقيمون حالة عداء دائم . ولكن انطلاقاً من بداية القرن الحادي عشر ، أي في الوقت الذي استيقظت فيه قوى الغرب المسيحية ، كان الإسلام في الغرب الأوربي موضع هجوم عام .

فتح النورمانديين لصقلية

لقد أخذت حرب الاسترداد أشكالاً مختلفة حسب المناطق . ففي إيطاليا كان إخراج المسلمين منها نتيجة جهود بذلها الأمراء النورمانديون لتأسيس إمارة واسعة ، وحملة صقلية لم تأخذ شكل حرب مقدسة . بدأت لاسترداد الجزيرة في ١٠٦١ م وانتهت في ١٠٩١ م . وانطلاقاً من هذه الإمبراطورية النورماندية ، وبعد نصف قرن ، فرض نورمانديو صقلية تحت قيادة روجيه الثاني سيطرتهم على شاطئ تونس (١١٣٤ ـ ١١٤٦ م) . ولكن صقلية ظلت مركز إشعاع حضاري . ففيها أثرت الحضارة الغربية بتماسها مع الشرق البيزنطي ومع الشرق الإسلامي . ووجد في بلاط الملوك النورمانديين علماء مسلمون مثل الإدريسي

الذي جمع لحساب روجيه معلومات جغرافية عن العالم المعروف آنذاك . وكان خلف العواهل النورمانديين ، فريديريك الثاني محباً للاطلاع ، متسامحاً في الدين ، مشجعاً لانتشار المعارف المكتسبة عن طريق العلماء المسلمين في البلاد المسيحية . ويظهر في الفن النورماندي طابع الفن البيزنطي واضحاً في الفسيفساء كما يرى في كاتدرائية سيفالو ، وتأثير بذخ التزيين العربي في خورس كنيسة مونرياله .

أصول الاسترداد في إسبانيا

كانت بدايات حرب الاسترداد في إسبانيا تؤلف نوعاً من مقدمات للحروب الصليبية في المشرق العربي . أما عودة النزاع ضد المسلمين فيتضح ، في إسبانيا كما في إيطاليا ، بظرف سياسي جديد ؛ وهو أن زوال الخلافة والمنافسات بين ملوك الطوائف قدمت لمسيحيي الشمال إمكان استغلال هذه الحالة لصالحهم .

كانت حالة إسبانيا الإسلامية مهيأة لمشاريع الاسترداد التي كان يديرها العواهل المسيحيون . وفي الوقت نفسه ، كان تحول دول الشمال مقدمة لعودة الحروب . فبعد قرون من التجزئة ، عرفت إسبانيا المسيحية ، في القرن الحادي عشر ، بعض التجمع للقوى المسيحية . ففي شرق إسبانيا ، ضم كونتات بارشلونة إلى كاتالونيا سيطرتهم على اللانغدوك ، واعترف بهم كونتات بيزيه ، وناربونة ، وقرقصونة سادة عليهم . وإذا لم تعش هيمنة الناڤار الممتدة تقريباً على كل إسبانيا المسيحية ، تحت حكم سانش الأكبر (١٠٠٠ ـ ١٠٣٥ م) . بعد موت العاهل ، فإن الكونتيات الأرغونية اتحدت في مملكة أراغونة الجديدة على يد رامير الأول ، وكونتية قشتالة السابقة ، التي تحولت إلى مملكة على يد فرديناند الأول في ١٠٣٧ م ، امتصت الليون وغاليس . وهذه الدول الجديدة ، التي ثبتت فيها السلطة الملكية ، تأثرت بالنهوض الديموغرافي الذي حصل في الغرب . هذا بالإضافة إلى أن ضغط الضرورات الاقتصادية ، في بلد فقير ، صنع

من حرب الاسترداد مشروع استعمار ضروري . وكان على رأس هذه الحركة طبقة المحاربين ، من الطبقة النبيلة ، التي بدأت تتبنى الأعراف والتعاملات الإقطاعية .

وتضاعف مشروع الاستعمار بحرب مقدسة . وهذه الصفة الخاصة التي أخذها النزاع ضد الممالك الإسلامية ، ظهرت بأشكال مختلفة ؛ من ذلك أن الدسائس الدبلوماسية والمكائد الحربية التي كانت ، حتى ذلك الحين ، تمزج المسلمين والمسيحيين في أحلاف مؤقتة ، قد قام ، بدلاً عنها ، عند المسيحيين ، فكرة جديدة ، وهي أن الاسترداد يجب أن يكون عملاً مشتركاً لجميع ممالك إسبانيا المسيحية ضد الإسلام ؛ ومن بعد فإن كل البلاد المسيحية في أوربة مدعوة لتساهم في النزاع . وهكذا اتجهت الممالك المسيحية في إسبانيا نحو أوربة ونحو الكنيسة بكاملها . وعقد العواهل القشتاليون والآراغونيون روابط سلالية مع أمراء فرنسيين . وتمّ هذا التقارب على يد الرهبان الكلونيين بخاصة . فقد دعاهم الفونس السادس ملك قشتالة (١٠٧٢ ـ ١١٠٩ م) إلى كاتالونيا ، وأسهموا بقوة في (تغريب إسبانيا) أي جعلها دولة غربية . ووجه رهبان من أصل فرنسي الأديرة الإسبانية ، كما احتلوا الكراسي الأسقفية وشدوا أواصرهم مع باقي البلاد المسيحية ؛ حتى أن الحج الذي نظموه إلى شنتياقب (سان جاك دو كومبوستيل أو سنتياغو) رفد إسبانيا بحجاج مشاهير في الغالب من بارونات وفرسان يميلون إلى تمديد رحلة التقوى بالمشاركة في مشروع الاسترداد . وبصورة موازية ، كان رهبان كلوني يعملون على وضع الكنيسة الإسبانية من جديد تحت وصاية روما الوثيقة . وهجرت الليتورجيا (مجموع الطقوس) الڤيزيغوطية في كل مكان ، وحلت محلها الليتورجيا الرومانية (من روما) . وأخيراً إن الدور ، الذي لعبته البابوية ، أعطى للاسترداد صفة الحرب الصليبية . وكان البابا ألكسندر الثاني أول من دعا في ١٠٦٤ و ١٠٧٣ م ، المؤسسة الفروسية لنجدة ملك أراغونة الذي قبل وصرح بنفسه أنه تابع للكرسي الأقدس . واستجاب لدعوة البابا وندائه

فرسان أكيتانيا ، الذين يقودهم الدوق غليوم السابع ، وفرسان إقليم الشامبانيا . كما حض كل من البابا غريغوار السابع في ١٠٧٥ م ، ثم البابا أوربينو الثاني في ١٠٨٨ م ، مسيحيي الغرب على حرب (الكافرين) . وأكثر من ذلك إن غريغوار السابع تجرّأ وزعم السيادة على البلاد التي ستسترد من أيدي المسلمين مدعياً بهبة قسطنطين المزعومة ، ومؤكداً « أن مملكة إسبانيا كانت سابقاً تابعة للقديس بطرس ، وستستمر بألا تتبع شخصاً آخر إلا الكرسي الرسولي » . وهذه المزاعم تخلى عنها خلفاء غريغوار السابع ؛ ولكنها تعتبر صورة مسبقة ، ولو جزئياً ، للسياسة الحبرية في الأرض المقدسة .

الحرب الاستردادية الأولى ، وهجوم المرابطين المعاكس

إن حرب الاسترداد التي قامت في إسبانيا في هذه الظروف ، أعادت في قرنين (من منتصف القرن الحادي عشر إلى منتصف القرن الثالث عشر) كامل إسبانيا تقريباً . أما الهجومات التي أطلقها الفرسان الإسبان والفرنسيون فقد تقطعت بعودة قوى الإسلام . وكانت أول وثبة للاسترداد تقع في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ؛ فبينما كان كونت برشلونة يحاول التقدم ، في اتجاه نهر الإيبر الأدنى ، ويفرض دفع ضريبة على عدة مليكات مسلمين ، كان الأرغونيون ، بمساعدة الفرسان الفرنسيين ، يناضلون بشجاعة ، ولكن على أرض صخرية وعرة المسالك جداً ، واستطاعوا أن يستولوا على حصن بربشتر الهام ، وما لبثوا أن أضاعوه بعد قليل (شمال ـ شرقي سرقسطة) . وفي هذا القطاع راوح الهجوم المسيحي مكانه . وعلى العكس ، حصل الاسترداد القشتالي على نجاحات باهرة أكثر دواماً : فقد اكتفى فرديناند الأول (١٠٣٦ ـ ١٠٦٤ م) بفرض ضريبة على ملك إشبيلية وعلى ملك طليطلة ؛ حتى أن هذا الأخير قبل أن يرد له بقايا القديس إيزيدور . وبدءاً من ١٠٦٣ م ، انطلق فرديناند في الفتح العسكري مؤمناً لنفسه المناطق في جنوب نهر دورو حتى كوايمبر ، وفتح ابنه الفونس

السادس (١٠٧٢ ـ ١١٠٩ م) هضاب قشتالة الحديثة في ١٠٨٥ م واستولى على طليطلة العاصمة الفيزيغوطية السابقة والعاصمة الدينية في إسبانيا ، واستطاع عندئذ أن يفاخر بلقب (إمبراطور إسبانيا كلها) .

لقد أثارت هذه النجاحات القشتالية (نصف شبه الجزيرة في أيدي المسيحيين الآن) حمية المسلمين ؛ فمن ذلك أن ملوك الطوائف دعوا لنجدتهم المرابطين الذين كانوا يسيطرون ، من عاصمتهم مراكش ، على إمبراطورية واسعة . ففي ١٠٨٦ م أنزل يوسف بن تاشفين جيوشه في الجزيرة الخضراء ، والتقى بالجيش القشتالي في الزلاقة (بالقرب من باداجوز ، إيسترامادور) ، وهزمه بكامله في ٢٦ تشرين الأول ١٠٨٦ م . وفي الحقيقة ، أن الجيوش المرابطية لم تتجاوز نهر التاج نحو الشمال . ولذلك سلمت الفتوحات المسيحية الحديثة ، باستثناء فالانس التي سقطت عند موت السيد (١٠٩٥ م) . ولكن التوسع المسيحي توقف صراحة ؛ لأن المرابطين كانوا يؤلفون ، بين ١٠٩٠ و ١١١٠ م ، بإخضاعهم ممالك الطوائف الواحدة بعد الأخرى ، دولة عسكرية واسعة . وكان تحت تصرفهم جيش قوي ، وموارد إمبراطورية واسعة تمتد في إفريقية من السنغال إلى الجزائر . وجرت محاولة قام بها القشتاليون لاستئناف الهجوم في ١٢٠٨ م ، ولكنها منيت بإخفاق مريع ، وموت ابن الملك غير البكر في ساحة المعركة .

عودة الهجوم المسيحي ودفاع الموحدين

عاود المسيحيون الهجوم في النصف الأول من القرن الثاني عشر ، في ظروف جديدة ، بعد أن أفل نفوذ المرابطين ، وتراخى البربر القساة الجفاة في الأندلس بسرعة ، وفرض المرابطون دكتاتورية الفقهاء ، مما أثار المعارضات الدينية ضدهم . أما من جهة المسيحيين فقد عاودوا الكرة في الهجوم ، ولكن لم تكن

قشتـالـة على رأس هـذا الهجـوم لأنهـا كانت تجتـاز أزمـة وراثيـة خطيرة (١١٠٨ ـ ١١٢٦ م) لم تنتـه إلا مع اعتـلاء الفـونس السـابـع (١١٢٦ ـ ١١٥٧ م) العرش . وقـد توج هـذا إمبراطوراً في ١١٣٥ م في بورغـوس (برغش) ، وحـاول عبثاً أن يستعيد من جديد المزاعم القشتالية للإمبراطورية والسيطرة على إسبـانيـا المسيحية بكاملهـا . وفي الواقع ، إن قوتـه ضعفت بـانفصـال الأقـاليم الشرقيـة التي تشكلت في ١١٤٠ م في مملكة البرتغال . وكانت الآراغونة ومملكة البرتغال الجديـدة في القرن الثاني عشر البطلين الأساسيين في حرب الاسترداد . وبمساعـدة الفرسـان الفرنسيين نجح بيير الأول دآراغون (١٠٩٤ ـ ١١٠٤ م) وابنـه الفـونس المشـاكس (١١٠٤ ـ ١١٣٤ م) في بسـط مملكتهما نحـو الجنـوب على حســاب المسلمين : ففي ١١١٨ م ، فتحت سرقسطة وأصبحت العاصمة الآراغونية الجديدة . وتتابع التقـدم في جنـوب نهر الإيبر ، وانتزعت حصـون قلعـة أيـوب ، دروقـه ، ثم في ١١٤٧ م مدينة تورتوزا . ولم تعد آراغونة مملكـة بيرينيـة صغيرة لأن اتحـادهـا مع كونتيـة برشلـونـة المتحقـق لصـالـح الفـونس الثـاني (١١٦٢ ـ ١١٩٦ م) الـذي ورث من التـاجين ، فتح لها آفاق السياسة المتوسطيـة ، فبفضل مسـانـدة أسطول الصليبيين الفلامانديين والإنكليز الذين تحولوا برحلتهم عن الأرض المقدسة بتـأثير عـاصفـة ، استـولى الملــك الفـونس هنري على لشبـونــة (١١٤٧ م) . ومن بعــد ، استمرت الجيوش البرتغالية في تقـدمهـا في جنوب نهر التـاج واستولت على بـاحـة يـابرة ، وعلى هذا تضاعفت مساحة مملكة البرتغال منذ ولادتهـا وأخـذت منـذ ذلـك الحين وجه دولة عظمى في شبه الجزيرة الهسبانية .

وفي منتصف القرن الثاني عشر بهر الاسترداد ، وضـاقت أنفـاسـه ، وانقسمت القوى المسيحية : فقد فصل تقسيم الإرث من جديد مقـدرات قشتـالـة ومقـدرات ليون . هذا فضلاً عن أن الدول المسيحية وقفت ضد بعضها في منازعات أخويـة ، فقد حـاولت نـافـار وليون أن تكبرا على حسـاب قشتـالـة؛ ووقعت المنـازعـات

الأرضية بين ناڤار والبرتغال وأخذت تقاوم إحداهما الأخرى . وأخيراً تحولت مملكة أراغونة عن مهام الاسترداد لتكرس نفسها لسياسة عظيمة في جنوب فرنسا : في لانغدوك ، حيث ازدادت سلطة العواهل الأرغونيين بضم إقليم البروفانس بفضل زواج ريمون بيرانجيه الثالث بوارثة الكونتية ، والروسيّون التي آلت إليهم بطريق الإرث . وهذه الإمبراطورية ، التي تمتد من نهر الإيبر إلى جبال الألپ تطلبت كل اهتماماتهم ، حتى القرن الثالث عشر ، حيث وقع البيت الأرغوني ضحية مكافحة الهرطقة الإلبيجوازية ، وفقد القسم الأعظم من إقطاعاته اللانغدوكية ، وقفل راجعاً إلى سياسة شبه الجزيرة الإسبانية . وهذا التشعب وهذا الانقسام في القوى المسيحية تدخلا في الوقت الذي بدأ فيه الخطر الإسلامي يضغط من جديد إثر مجيء موجة جديدة أتت بالموحدين .

منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر ومقاومة مذاهب المرابطين الدينية في تعاظم ولا سيما بين القبائل البربرية في الأطلس الأعلى . وذلك أن المصلح ابن تومرت الملقب بالمهدي والمتأثر بمؤلفات وأفكار الغزالي الشرقية ، وقف في تنمال (١١٢٥ م) وهاجم الفقهاء المرابطين الذين شرحوا الصفات التي تجعل الله صورة عن الإنسان وانتهوا بـ (التشبيه) ، وبشر بالوحدانية الإلهية (التنزيه) ، وأدخل إلى الأرثوذكسية الدينية في الغرب عاطفة صوفية عميقة كانت عبادة القديسين تعبيراً لها . وسمي أنصاره باسم شعبي (الموحدين) أي الذين يبشرون بوحدانية الله . وبعد وفاته استولى أحد تلاميذه ، عبد المؤمن على مراكش وبسط نفوذه على إفريقية الشمالية كلها . وفي ذلك الحين قامت ثورات في إسبانيا ضد سيطرة المرابطين ، ودعا الثائرون الموحدين لنجدتهم . وأرسل عبد المؤمن جيشاً وأخضع لسلطته جميع الأراضي الإسلامية في شبه الجزيرة (١١٤٦ ـ ١١٦٣ م) . وفي الوقت نفسه هاجم الممالك المسيحية بقوة واستولى على المرية في ١١٥٧ م . وحاول عواهل الشمال رد الفعل ، وأحدثت مليشات ديرية ، أنظمة قلعة رباح

(كالاتراڤا) ، وشنتياقب (سنتياغو) والقنطرة للنضال ضد الكافرين (المسلمين) وفي ١١٧٧ م أخذت قونقة من الموحدين ، كما أطلقت عدة غارات مسيحية ضد الأندلس . ولكن الجيوش المسيحية سحقت في معركة الأرك (الأركوس) في ١١٩٥ م .

إسبانيا الموحدين

لقد امتدت إمبراطورية عبد المؤمن على شاطئ البحر المتوسط الغربي وأخذ في ١١٦٢ م لقب خليفة . واستعادت إسبانيا الإسلامية تحت نفوذ الموحدين كامل ازدهارها وسنا حضارتها . وأفادت من ذهب السودان الذي أنعش حياتها الاقتصادية . وضاعفت علاقاتها مع الموانئ الإيطالية . وتفتح الفكر الإسلامي بعد أن تحرر من صرامة المرابطين الحقوقية . وأخذت الثقافة الهسبانية ـ الإسلامية نيابة الشرق على جميع الأصعدة بعد أن أخذته سنةٌ من النوم فأغفى في الوقت الذي تهيأ فيه الغرب المسيحي للتعرف على كنوز الثقافة الإسلامية على أيدي الإسبانيين . وفيما كان الشعر الأندلسي مستمراً في ازدهاره ، كان العلم الإسباني آخذاً بالنمو ممثلاً بخاصة بالجغرافي والرحالة ابن جبير . فقد قام برحلة سياحية واسعة في الشرق زار فيها مصر وحتى الدول اللاتينية في الأرض المقدسة . وعلى صعيد الفلسفة أتى الإسلام في إسبانيا بإسهام واسع مع ابن رشد . فقد ولد في قرطبة في ١١٢٦ م ودرس اللاهوت والفلسفة والطب والرياضيات ، وارتبط الخليفة به بصداقة عميقة ، وأخذه تحت حمايته ، وطلب منه شخصياً أن يعمل لصالحه تحليلاً لآثار أرسطو . ولكن هذه التفسيرات والشروح لفكر الفيلسوف الإغريقي العظيم استحق عليها النفي ، في آخر حياته ، إلى مراكش بناء على طلب الفقهاء . وترجم أثره إلى العبرية واللاتينية . وكان له أثره العميق في الفكر المسيحي في القرن الثالث عشر . وولد معاصر له في قرطبة وهو ابن ميمون أبو عمران موسى (١١٣٥ ـ ١٢٠٤ م) الذي استقر أخيراً في مصر حيث مارس الطب ، وأنجز في ١١٦٨ م شرحاً بالعربية لـ (المشنا) ، أي مجموعة الأعراف والمذاهب العبرية ،

وهو جزء من التلمود وفيه شروح لنصوص التوراة . وكتب مؤلفه الأساسي (دلالة الحائرين) وخصصه للذين يحارون بين الوحي والعقل . وهو أكبر فيلسوف يهودي في العصر الوسيط . وبعده ظفرت الاتجاهات الصوفية (القبالة) أي التفسير الصوفي للتوراة .

وأخيراً على صعيد الفن يشهد جامع كتبية في مراكش ، وبرج الخيرالدا في إشبلية على فخامة وجلال حضارة الموحدين .

الاسترداد في القرن الثالث عشر

إن الخطر ، الذي تمثل بقوة الموحدين ، انتهى ، في بداية القرن الثالث عشر ، بإثارة جهد قوي للمسيحيين في العودة إلى الاسترداد . فقد وحدت ممالك الشمال قواها ، وانضمت لها حملة حقيقية نظمت لدى دعوة البابا إينوسان الثالث . وفي ١٦ تموز ١٢١٢ م ، أحرزت الجيوش المسيحية نصراً حاسماً في لاس نافاس دو تولوزا (العقاب) ، واستطاعت كل مملكة أن تستأنف عندئذ توسعها نحو الجنوب : من ذلك أن وحد فرديناند الثالث بشكل نهائي الليون وقشتالة واستولى على عبيدة وقرطبة في ١٢٣٦ م ، وأخيراً عاصمة الإسلام في إسبانيا ، إشبلية في ١٢٤٨ م . وفي آراغونة احتل جيم الأول ، الملقب بالمغامر ، جزر الباليئار (١٢٢٩ ـ ١٢٣٥ م) ثم ڤالانس (١٢٣٨ م) والساحل الشرقي الإسباني . وأخيراً وسع العواهل البرتغاليون نفوذهم حتى السواحل الجنوبية التي تسيطر على مدخل مضيق جبل طارق . ونحو ١٢٧٠ م لم يبق للمسلمين إلا منطقة غرناطة ، أي خمس إسبانيا . وانهارت خلافة الموحدين الواسعة ، وفي غرناطة استقر عواهل السلالة المرينية . والمغرب الذي توحد بعض الوقت تحت صولجانهم ، عاد وانقسم من جديد . ومنذ النصف الأول من القرن الثالث عشر ، انفصلت تونس تحت سلالة الحفصيين الذين قاوموا بنجاح الحملة الصليبية التي نظمها القديس لويس . وفي ١٢٧٠ م تأسست إمارة ثانية ، وهي إمارة بني عبد الواد في تلمسان . وأخيراً

في مراكش حلت السلالة المرينية محل الموحدين ، وحاولت عبثاً استعادة مزاعم أسلافها في السيطرة على المغرب كله وتقديم المساعدة لحضور الإسلام في إسبانيا ، واغتنت عاصمتهم فاس بالأوابد ونافست بفخامتها غرناطة .

وفي الحقيقة ، لقد أعطى الاسترداد لإسبانيا وجهاً جديداً . وأدى تجمع القوى فيها إلى أول تبسيط سياسي . على أنه يجب أن توضع جانباً النافار ، الحبيسة في جبالها والتي قطعت في وقت مبكر اتصالها بالإسلام وربطتها الظروف السلالية بكونتية الشامبانيا الفرنسية أولاً ثم بالملكية الفرنسية . وهكذا نجد أن ثلاث ممالك مسيحية تقاسمت شبه الجزيرة : البرتغال ، قشتالة ، الاراغونة . وفي كل واحدة منها توطدت السلطة الملكية بفضل النضال ضد الإسلام ، وأيضاً بقوة الطبقة النبيلة والأنظمة الدينية الكبرى . وفي ذلك ما يدع مجالاً للتنبؤ بحدوث خلافات . وبشكل أصيل جداً ، لقد ساعدت حاجات الكفاح واستعادة الاستيطان على الحفاظ على الطوائف الريفية والمدنية حرة نسبياً لأنها مهرت بامتيازات . ومنذ القرن الثالث عشر استطاع ممثلو المدن الوصول إلى المجلس الكبير الذي يعقده العواهل والمسمى الكورتيس ، إلى جانب الطبقة النبيلة والأكليروس . وهذه الحرية نفسها تطبع أيضاً الحياة الدينية . ودون حساب المسيحيين المستعربين الذين تميزهم طقوسهم الدينية الخاصة والذين انصهروا بسرعة في الكنيسة الإسبانية ، كانت الأراضي التي استردها العواهل المسيحيون تحتوي عدداً كبيراً من المسلمين وأقليات يهودية كان من المستحيل تمثيلها وامتصاصها . فقد حصل (المدجنون) (المسلمون الذين خضعوا للنفوذ المسيحي) على حرية ممارسة عبادتهم ، واحترام أموالهم ، والمساواة المدنية مقابل دفع أتاوة . ولعب اليهود دور التجار وأصحاب المصارف . وقد شجعت هذه الروح المتسامحة في التعامل تفتح الثقافة في إسبانيا المسيحية ، فأصبحت أرض لقاء لحضارتين . ونقلت الممالك المسيحية جزءاً من الثقافة الإسلامية للغرب ،

وتلقت منه مآتي حضارية عديدة . وتحققت هذه المبادلات في الجزء الأعظم منها في نطاق جامعات شبه الجزيرة ، سالامنكا أول جامعة تأسست في ١٢١٥ م ، مرسية ، إشبلية ، كوامبرا التي تأسست في البرتغال في ١٢٩٠ م . وكان الشعراء البروفانسيون والإسبانيون والعلماء المسلمون واليهود فيها جنباً إلى جنب متكاتفين . وعكس الأدب الإسباني الشعبي هذه التأثيرات المختلفة . إن الكانتار ، أي الأساطير الملحمية ، نقلت بأسلوب يدل على العدوى من الملحمة الفرنسية ؛ والأسطورة الملحمية المسماة : (أسطورة ملحمة سيدي) أشهرها . فهي تشيد بمآثر رودريغ دياز دو بيفار ، سيد المعارك ، الذي أصبح البطل الأسطوري للاسترداد ، فقد نفاه الملك الفونس السادس ، ولكنه ظل يعمل تابعاً وفياً في نضاله ضد المسلمين . والأدب الإسباني أسهم معاً في فن الشعراء الطوافين البروفانسيين وفي عبقرية الشعر العربي الشعبي . وحدثت اللقاءات نفسها في صعيد الفن . وإذا تغلغل الفن الغوطي في إسبانيا منذ آخر القرن الثاني عشر ، بتأثير السيسترسيين وأنتج فيها بكاتدرائيتي ليون وطليطلة أعماله الفائقة ، فإن الفن الهسباني ـ العربي فيها مشرب بعمق بذكريات الفن الإسلامي ؛ فالأبراج المربعة للأجراس تذكر بالمآذن ، والطلاء الملون يمتزج بالعقود الغوطية .

وأخيراً شغل الإسبان بمشاكل الاسترداد ، وهذا ما حال دون مشاركتهم في الحملات الصليبية التي اجتذبت فرسان الغرب نحو الأرض المقدسة .

الفصل التاسع
الحملات الصليبية في المشرق العربي

المقدمة

تجربة قاسية تلك التي مرت بها بلاد المشرق العربي الإسلامي في فترة الحروب الصليبية بعد أن غزاها فرسان الغرب الأوربي الصليبيون بحجة الدفاع عن سلامة الحجاج المسيحيين وقبر السيد المسيح في بيت المقدس . وما كانت هذه الحجة إلا ستاراً يخفي وراءه الأطماع الحقيقية للاستعمار الغربي الذي بدأ في إسبانيا بحرب الاسترداد ، كما رأينا ، وأراد إشباع رغائبه على أرض العرب والإسلام واستيطانها وتقسيمها إلى إقطاعات على ما كان يجري في أوربة . هذه حقيقة لم تعد لتخفى على أحد ، بعد أن أشبعتها البحوث التاريخية دراسةً وتعمقاً . غير أن هنالك حقيقة أخرى أصبحت واضحة أيضاً : وهي تلك السهولة النسبية التي استطاع بها الصليبيون غزو البلاد ، لما كانت عليه من فرقة بين الحكام وضعف في المقاومة التي واجهتهم في بلاد المشرق العربي الإسلامي في أواخر القرن الحادي عشر ، وفي العقود الأولى من القرن الثاني عشر .

كانت بلاد المشرق العربي الإسلامي تحكم من قبل حكام غرباء عن أهل البلاد الأصلاء ، أسلموا وحسن إسلامهم ، ودافعوا عن الإسلام ، ووثق بهم الخلفاء العباسيون ، فاستأثروا بالسلطة في ولاياتهم ، وأصبحوا أسياد دول مستقلة ، ورضي بهم السكان ، طوعاً أو كرهاً ، حكاماً ، باعتبارهم قادة مسلمين يحكمون صورياً باسم الخليفة العباسي ، وفعلاً باسمهم الخاص . ولم يكن ذلك إلا نتيجة مؤسفة من نتائج السياسة البائسة والعاجزة التي سلكها الخلفاء العباسيون في

قضائهم على الأمويين وانصرافهم إلى حياة الدعة والراحة وتسليم السلطة لأيدٍ غير عربية ؛ هذا فضلاً عن ضعف الإدارة المركزية ، مما أيقظ النعرات القومية والإقليمية والحركات الانفصالية التي أدت إلى دويلات انفصلت عن جسم الدولة وعاشت حياتها الخاصة ، على ما بينها وبين جاراتها من تحاسد وتنافس بل وحروب ، وهي لا تملك من أسباب القوة غير الدفاع عن نفسها تجاه أبناء البلاد الأصلاء .

وإذا أضفنا ، إلى هذه التجزئة السياسية ، النزاع الخفي حيناً والسافر حيناً آخر بين الخلافة العباسية في بغداد ، والخلافة الفاطمية في مصر التي كان إنشاؤها تحدياً لسلطة الخلافة العباسية ؛ والتنافس بين السلجوقيين والفاطميين على بلاد الشام والعراق ، وثورات القصر في مصر ، والتنازع على السلطة والحكم بين الوزراء الفاطميين أنفسهم ، ولعبة القبائل العربية وتعاملها مع العباسيين والفاطميين على أساس المنفعة والكسب المادي ؛ إذا قلنا ذلك ، وتذكرنا أيضاً أن سادة هذه الدويلات لم تكن لديهم فكرة واضحة عن مفهوم الدولة والحفاظ على بقائها واستمرار وجودها ؛ وأن كل واحد منهم يعتبر الدولة ملكاً من أملاكه الخاصة يقسمه بين الورثة في حياته ، أو يتقاسمه الورثة بعد مماته ، وتقوم الحروب بين الإخوة والأقارب من أبناء الأسرة الواحدة للفوز بأكبر سهم من الغنائم ، إلى أن يأتي زعيم قوي الشكيمة فيجمع الأجزاء ، وما أن تتم الوحدة بعد العناء حتى يعود التقسيم من جديد ، وهكذا دواليك .

لهذه الأسباب استولى الغزو الصليبي في حملته الأولى على منطقة تتألف من مملكة أرمينية الصغرى في شبه جزيرة الأناضول ، ومن بلاد الشام إلى حدود الفرات شرقاً وعلى شريط ساحلي يختلف عمقه قليلاً أو كثيراً حسب العهود ، ويمتد من خليج إسكندرونة إلى غزة على الساحل المتوسطي ، وإلى خليج العقبة في الداخل ، وكل ماتبقى من بلاد الشام الداخلية كان جزءاً من آسيا العباسية

والسلجوقية ، ومن بعد الأتابكية . وكانت نتيجة هذا الغزو الصليبي الفرنجي وضع الغزاة من جهة ، وأبناء البلاد الأصلاء وحكامهم من جهة أخرى ، وجهاً لوجه . وما من تسامح أو تساهل . وهذا ما يجعلنا نميز بين وضع الصليبيين الغزاة ووضع أبناء البلاد .

وضع الصليبيين في الأراضي المحتلة

لقد توطد وضع الصليبيين في الأراضي التي احتلوها بسبب انقسام العالم الإسلامي وضعف مقاومته . وكانت هذه الأراضي تتألف من مملكة القدس ، وإمارات : الرّها ، وأنطاكية ، وطرابلس . وبالرغم من جهودهم وهجماتهم المتكررة ، لم يستطيعوا الاستيلاء في عمق الداخل على حلب وحماة وحمص ودمشق ، وذلك لسببين :

الأول ؛ المقاومة الإسلامية التي لاقوها بالرغم مما كانت عليه من ضعف وعدم استعدادٍ كافٍ .

الثاني ؛ همهم الوصول إلى القدس بأسرع وقت ممكن لتوطيد نفوذهم فيها ، وهي هدفهم الأول . وفي هذا أو ذاك ما يدع مجالاً للأمل والخلاص وطردهم وإلقائهم في البحر متى تصدق النية ويصح العزم عند المسلمين من ظهير البلاد ومن الأراضي المحتلة . وهذا ما حصل فعلاً وإن جاء متأخراً .

كان الغزاة المحتلون فرساناً ، جنوداً وزعماء ، يؤلفون أقلية عسكرية أرستقراطية ، طبقة حربية حقيقية تكونت فوق المجتمع الشرقي الإسلامي وأدخلت إلى البلاد الأعراف والأطر الإقطاعية المتعارف عليها في الغرب الأوربي مع الكثير من الانضباط والشدة للحصول على خدمة عسكرية ناجعة . ووزعت الأراضي على الفرسان الفرنجة . وحددت (شرعة القدس)،بمجموعة الأعراف الفرنجية الإقطاعية،العلاقة بين التابع والسيد ، التي لا يمكن للتابع بموجبها من التصرف

بالإقطاع أو نقله إلى يد أخرى دون موافقة سيده ؛ هذا مع العلم أن الإقطاعة الممنوحة كانت صغيرة ولا تقدم موارد كافية ، لأن الأراضي التي احتلها الصليبيون كانت محدودة أيضاً . وقررت قاعدة البكورة في الإرث ، وعدم نقل الإقطاع إلى يد الوارث غير القادر على الخدمة العسكرية . ولذا كان السيد يعين فارساً يحل محل التابع القاصر ، ويتمتع بدخل الإقطاع ، حتى يبلغ الوريث الشرعي سنّ الفروسية . وألزمت أرملة التابع بالزواج لئلا يترك الإقطاع دون قيِّم عليه من الرجال . ومنع نقل الملكية من حيث المبدأ لصالح المؤسسات الدينية .

كانت الروابط التي تربط التابع بأميره شديدة وأقوى وأمتن مما في الغرب ، وذلك لحشد جميع القوى العسكرية ضد المسلمين . والأمير أو الملك هو السيد الاسمي لكل الأرض التابعة له ، وعلى التابعين القيام بكل الخدمات الإقطاعية التي يطلبها .

وهؤلاء السادة الجدد النجب ، من ملوك وأمراء ، وإن كانوا أسياداً لإقطاعات عسكرية ، فهم أبعد ما يكونون عن سادة مطلقي الصلاحية والسلطة تجاه كبار البارونات ، لأن كل واحد منهم يعتبر الأول بين كبار الأمراء . ولهم حق التدخل في اختيار الملك أو الأمير . وهذا التدخل له دلالته ، لأن السيد ينتخب بصورة عادية ، وما يسري في الإقطاعات الكبرى أو الإمارات يسري على السلطة الملكية . لأن الفرنجة ، وهم طبقة عسكرية ، لا يمكنهم أن يجازفوا بنقل الإقطاع إلى وارث غير كفء للزعامة الحربية . ولذا عندما ينتقل التاج الملكي بطريق الوراثة إلى بنت ، كان البارونات ينتخبون لها الزوج الفارس الذي يحكم باسمها ، وينتخبون الحكام المكلفين بممارسة السلطة عندما يكون الملك أسيراً أو حدث السن . وهم الذين يقررون الحرب والسلام ، والتشريع عند مقتضى الحال ، وذلك لإتمام الأعراف أو لتوضيحها . وكان الملوك محاطين بعدد من كبار

الموظفين ذوي الصفة العسكرية أيضاً : كالقائد الأعلى للجيش أو الماريشال .

وصفوة القول ، كان هذا النظام الفرنجي في الأراضي المحتلة نظاماً عسكرانياً صرفاً . ونظراً لهذه الصفة العسكرانية وقلة أعداد الغزاة ، نُوّع الدفاع عنه بطرق شتى أهمها :

١ ـ الانتفاع من سوق الجنود من جهات مختلفة ، وتشكيل جيش المرتزقة المحلية (التركوبل) .

٢ ـ الإفادة من مرتزقة الفرنجة الذين يفدون إلى الشرق على نفقة ملك غربي يسهم مالياً بالحملة الصليبية .

٣ ـ بناء الحصون لسد طرق الغارات عليهم من جهات مختلفة .

٤ ـ تأسيس الأنظمة الرهبانية العسكرية وأشهرها :

أ ـ **نظام الاسبستارية** ، أي نظام فرسان المستشفى . وكان همهم الحرب ، ويساقون عادة من بين أفراد الأسر العريقة في الغرب . وعليهم يقوم أمن الحجاج المسيحيين وحماية أموال النظام ضد الغارات وتلبية دعوة الملك في كل حملة عسكرية .

ب ـ **نظام الداوية** ، أي نظام فرسان الهيكل (الهيكليون) ، ووظيفته حماية الحجاج بين ميناء يافا والقدس . وقد منح ملك القدس رجاله غزة في ١١٤٩ م ، وكونت طرابلس قلعة طرسوس .

جـ ـ **نظام الفرسان التوتونيين** ، وقد تشكل في السنوات الأخيرة من القرن الثاني عشر . وكان حصن فرسانه قلعة قرين (مونفور) بالقرب من مدينة صور .

ونظراً إلى صفة هذا النظام الاستعماري الاستيطاني والاستغلالي ، فقد اعتمد على نظام مالي مقتبس عن النظام المالي المعروف عند المسلمين والبيزنطيين ، وعهد به إلى دواوين مكلفة بفرض الضرائب على الأهالي من ملاكين وغيرهم ، وإثقال كاهل الفلاحين بالاتاوات والضرائب غير المباشرة التي تجبى على طرق القوافل في الداخل ، وفي الموانئ على الساحل حين دخول البضائع أو خروجها .

وإلى جانب المؤسسة العسكرية الإقطاعية المستغلة التي أصبحت سيدة البلاد التي احتلت ، سمح الصليبيون بإقامة فرنجة آخرين من طبقة رجال المال والأعمال ؛ وفي معظمهم كانوا من أصل إيطالي : جنوي ، بيزاوي ، وبندقي ، شكلوا في الموانئ الشامية جاليات مستعمرة ومستثمرة قليلة العدد ، ولكنها نشيطة وغنية . كانوا وسطاء التجارة بين أوربة والبلاد المحتلة ، وتمتعوا باستقلال ذاتي إداري وقضائي ، وبامتيازات ضريبية وتجارية ، وأخذوا على عاتقهم نقل وتصدير المنتجات الآسيوية القادمة إلى الموانئ الشامية أو الإسكندرية في مصر ، إلى الموانئ الأوربية ؛ ونقل الحجاج والمسافرين من صليبيين وغيرهم . وأثروا ثراءً فاحشاً ، وأصبحوا قوة اقتصادية عظمى .

وضع أبناء البلاد الأصلاء

كان السكان الأصلاء من أبناء البلاد ، في هذه الدول الصليبية الدخيلة الأربع ، يؤلفون الأكثرية الساحقة المنتجة ، والصليبيون الأقلية المستغلة . وقد ترك هؤلاء الصليبيون أبناء البلاد يمارسون نشاطاتهم الاقتصادية وأعمالهم في حياتهم اليومية من فلاحة الأرض وتربية السائمة والحرف اليدوية وغيرها . وبالمقابل ، كان عليهم أن يعملوا في سبيل أنفسهم وفي تأمين إعاشة المحتلين . كما فرضت عليهم الضرائب والرسم وغيرها من سخرات .

فرضت ضريبة الرأس على المسيحيين من أبناء البلاد ، وضريبة القامة

الثقيلة والتحكمية على المسلمين . وأضيفت لها الاتـاوات على العقـارات ؛ وضريبـة العشر على إنتـــاج الأرض ، وكانت على الجميــع ، وخصص ريعهـــا للكنيســـة اللاتينية . وفرض على الفلاحين دفع ضريبـة الفلاحـة والحقل ، والقيـام بـأعمـال السخرة العـديـدة من نقـل على العربـات والـدواب ، وأعمـال البنـاء ، وصيـانـة القصور . وبتعبير آخر كان همّ المحتلين ، أولاً وقبـل كل شيء ، جبـايـة الضرائب ، وفرض الأتاوات ، والغنى على حساب الأهالي دون اهتمام بتحويل النظام للصـالح العام . وتركوا لكل فئة من السكان إدارتها الخـاصـة في المـدن والقرى والبـاديـة ، والقيام بأعمال الأمن والقضاء حسب الأعراف المحلية السائدة . وهـذا معنـاه أنهم لم يقوموا بأي عمل منتج بل عاشوا طفيليين مستغلين على حساب البلاد وأهلها .

وعلى الصعيد الديني ، كان شغلهم الشاغل كفاح المسلمين وإثقالهم بـالضرائب ومعاملة الفلاحين معاملتهم للأقنان . واعتبروا المسيحيين ، في بـدايـة الاحتلال ، إخـوانـاً في الـــدين ، وحلفــاء يعتمـــد عليهم ، ولكن سيــاستهم اختلفت حسب المذاهب .

عاملوا الأرمن معاملـة حسنـة في البـدء ، ثم انقلبوا عليهم ، بعـد إذ تبين لهم أنهم غير مخلصين لهم دوماً . وتمتع الموازنة في ظلهم بحظوة خـاصـة ، لتعـاونهم معـاً عند الاقتضاء ، ولاعترافهم بسلطة الكرسي الأقدس . واعتبروا النساطرة واليعاقبة والموحدين هراطقة منشقين . واختلف التعامل بين اللين والشدة والاضطهاد .

الدفاع الإسلامي

ما من شك في أن المسلمين ، بالرغم من تجزئتهم وضعف مقـاومتهم في البـدء ، لم يقفـوا مكتـوفي الأيـدي تجـاه هـذا الغـزو الغربي . فمـذ وطـأت أقـدام فرســان الصليبيين أرض بلاد المشرق العربي الإسلامي ، بدأ رد الفعل ، وأخذ شكلين :

الأول : الدفاع الغريزي أو العفوي ، وهو الدفاع الـذي تمثل بـالوقوف ، في

وجه العدو ، لأول وهلة ، وبكل الوسائل المتاحة . ولكنه لم ينل حظه من النجاح المؤمل للأسباب التي ذكرناها آنفاً . فقد أصاب المسلمين وأبناء البلاد عموماً ماأصابهم من بلاء بسبب التجزئة السياسية التي بعثرت القوى ورانت على البلاد قبل احتلال الصليبيين . ولذلك لم يحسنوا الدفاع رغم مابذلوا من جهود . ومن جهة أخرى ، بلغ السخط والغيظ والحنق والتشاؤم الحد الأقصى ، إثر الأعمال والفظاعات الوحشية التي ارتكبها الغزاة ولا يدانيها من بعيد أو من قريب إلا جرائم غزاة المغامرين الأوربيين حيال الهنود الحمر عند اكتشاف أمريكا ، وجرائم الصهيونيين البشعة التي لم تعد تخفى على أحد في العالم .

وهكذا تعالت أصوات الاستغاثة ، من كل جانب ، تهيب بالخليفة العباسي ، المستظهر بالله (١٠٩٤ ـ ١١١٨ م) ، إلى القيام بعمل شيء رغم ماكان عليه من وهن وضعف وانحلال . وقام الخطباء في الجوامع والمصليات يذرفون الدموع حزنين مستغيثين لما حلّ بالأمة الإسلامية من محنة ، ويستنهضون الهمم والضمائر لتوحيد الكلمة والاستعداد للمقاومة والكفاح في سبيل الذود عن الحمى والعرض والمال والجار . ولاقت هذه الصيحات المتعالية المدوية ، من كل جانب ، آذاناً صاغية عند من وخزهم الضمير على التقصير . وبدأ الجهاد ضد الصليبيين يظهر على مسارح الكفاح حيثما هاجم الصليبيون . ولكن هذه الحركات كانت تحالفات دفاعية مؤقتة ، ولم تأت بكبير نتيجة . بيد أنها إن دلت على شيء ، فإنما تدل على عدم الرضا بالاحتلال والعدوان وبذل المزيد من الجهد في سبيل الدفاع . ونذكر ، على سبيل المثال ، دفاع مودود أمير الموصل ، وأيل غازي أمير ماردين ، ورنكمان أمير خلاط ، وطغتكين أمير دمشق في حصار الرّها عام ١١١٠ م لاستردادها من أيدي الصليبيين : وكذلك تحالف مودود مع طغتكين وسلطان بن منقذ ، أمير شيزر ، لمهاجمة كونتية طرابلس ؛ وتحالف طغتكين ومودود عندما

أغـار بـودّوَنْ الأول على دمشـق ، أو عنـدمـا تعرضت حلب لهجـوم روجر ، أمير أنطاكية ، عام ١١١٩ م وغيرها ...

الثاني : الدفاع الواعي المنظم والموحـد ، وقـد نمـا تـدريجيـاً وعلى مراحل . ومن الممكن أن نقول إن هذا الدفاع بدأ منـذ ١١١٨ م عنـدمـا تمثل بتهـديـد دول الفرنجة والسياسة الجريئة التي سلكها أمير ماردين ، أيل غازي . فقـد أدرك قيمـة الاتحاد لرد عـدوان الصليبيين على المنـاطق المهـددة في الـداخل أكثر من غيرهـا : حلب ، حمص ، دمشق ، والإمارات التركية في العراق الأعلى . وهذا مـا قـاده إلى التحـالف مع دولتي حلب ودمشق ، ومكنـه من سحق فرسـان الصليبيين في شرق نهر العاصي في الموقع المسمى (ساحة الدم) في ٢٠ حزيران ١١١٩ م . ومع ذلـك ، كان الصليبيون قادرين من بعـد على توطيـد الوضع على يـد بودْوَنْ الثـاني ملـك القدس .

وبعد عشر سنوات جاء زعيم آخر ، وهو أتابك الموصل ، عماد الـدين زنكي ، وأتمّ سياسة أيل الغـازي ، وجمع تحت إمرتـه الأراضي الواسعـة بين الموصل وحران وحلب ، وهدد من جـديـد الـدول الفرنجيـة ، واستولى ، في بضعـة أسـابيع ، على منطقة ما وراء العاصي ، في معركة جبل الحجاج ، في آذار ١١٣٧ م .

والمهم ، في نظرنـا ، هو أنـه تـابع هجماتـه المتواليـة على كـونتيـة الرّهـا حتى أفقرت وأصبحت بلقعـاً ، ووقعت أخيراً في يــده ، فكانت أول دولــة استردهــا المسلمون ، في ١١٤٤ م ، كما كانت أول منطقة استولى عليها الصليبيون عنـد غزوهم البـلاد . ومنـذ منتصف القرن الثـاني عشر شعر الصليبيـون بـالخطر ، وأخــذت جهودهم تتكاثف وتتكاثف خشيـة إبـادة كليـة . ولكنهم استطـاعوا أن ينجـوا لأن المسلمين ما زالوا منقسمين وميزان القوى بين الجانبين متعادل الكفتين تقريباً .

غير أن هذا التوازن الضعيف انقطع على يد نور الدين بن عماد الدين زنكي أمير حلب الشهباء ، عندما توحدت المنطقة الشمالية من سورية وتحررت وأخذت تهدد الصليبيين . وهذا ماجعلهم يتجهون بأنظارهم صوب مصر كتعويض . ومن دفاعهم اليائس في الشمال ، وهجومهم المتهور في الجنوب بدت بوادر الأجل المحتوم .

ودون أن ندخل في تعداد الحوادث وتفاصيلها ، حسبنا أن نذكر أن الاتحاد الذي هيأه نور الدين ، وانتهى تحت إدارة صلاح الدين الأيوبي ، أخذ يجني ثماره في حركة التوحيد والتحرير التي توالت على يد المدن الأربع : الموصل ، حلب ، دمشق ، القاهرة .

لم يكتف نور الدين بوحدة سورية الشمالية ، بل حقق اتحاد سورية الوسطى معها بعد أن استولى على دمشق . وفي الوقت نفسه اتجهت طموحاته صوب مصر الفاطمية التي أصبحت موضع تنافس الصليبيين والمسلمين . ومحاولاته هذه أدت أخيراً إلى الوحدة الإسلامية ، كما أدى تدخل الصليبيين في مصر إلى الوحدة السياسية ، بعد أن استهلكت فيها ثورات القصر المتتابعة ، وبدت غنية سهلة بالنسبة للفرنجة في مملكة القدس ، لإعادة التوازن مع قوة نور الدين الصاعدة . ولكن مصر ضاعت نهائياً من يد الفرنجة ، بعد أن استولى أسد الدين شيركوه على الحكم فيها باسم نور الدين . وعندما توفي في سنة ١١٦٩ م ، أصبح ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي فيها وزيراً .

وما أن مضت بضع سنوات على تولي صلاح الدين الوزارة ، حتى بدا هاجساً مخيفاً للصليبيين . فبعد الخليفة الفاطمي أصبح السيد الفعلي في مصر ، وإن كان فيها نائباً عن نور الدين . ولكن سيده توفي ، وبعد هذه الوفاة ، امتد نفوذ صلاح الدين على بلاد المشرق الأدنى عندما ألف القلوب بين الأطراف المتنافسة في

سورية ، وأصبحت دمشق وحلب والعراق الأعلى والحجاز والنوبة واليمن تحت لوائه . وبهذا الاتحاد أصبحت الأرض المقدسة المحتلة مطوقة من ثلاث جهات . ومع ذلك لم يفقد الفرنجة شجاعتهم ودفاعهم الحربي . غير أن الغارات التي قاموا بها ، في ذلك الحين ، لم يكن منها إلا تأخير الوحدة الإسلامية إلى حين .

وانطلاقاً من ١١٨٣ م ضعفت مملكة القدس اللاتينية بسبب المنازعات الداخلية في قضية وراثة العرش ، وتنافس الزعامات الفرنجية . ووجدت فئتان :

الأولى : فئة البارونات المحليين والنظم الدينية .

الثانية : فئة بارونات الغرب والأكليروس الأعلى .

وبعد لأي ، تغلبت هذه الفئة الأخيرة ، وفرضت غي دولوزينيان ملكاً ، وهو غير أهل لهذا المنصب . كان مكروهاً ، وليس له سلطة ، ومغامراً ، ومقامراً بحياة الناس في بلده قبل أن يأتي إلى فلسطين .

أفاد صلاح الدين من هذا النزاع على السلطة والعرش ، وقرر أن يضرب الضربة القاصمة . وفي معركة حطين أنجز حر ما وعد ، في ٣ ـ ٤ تموز ١١٨٧ م . وكانت هذه المعركة كارثة كبرى للصليبيين . وبعد هذا النصر الساحق ، أخذ يسترد فلسطين منطقة منطقة ، والمدن الساحلية الواحدة بعد الأخرى ، حتى أصبحت القدس معزولة . وما وسعها إلا أن أذعنت للقوة ، وطلب الصليبيون فيها الأمان مقابل تسليم المدينة . وفتحت (بيت المقدس) أبوابها ، ودخلها السلطان صلاح الدين ، يوم الجمعة في ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ الموافق للثاني من تشرين الأول ١١٨٧ م ، أي بعد ثلاثة أشهر على نصر حطين المجيد .

وهنا تجدر المقارنة بين مافعله الصليبيون عند احتلال القدس ، وما فعله صلاح الدين عند فتحها واستردادها ، حتى طبقت شهرته الطيبة ، وحسن تعامله

مع النـاس والأحـداث ، آفـاق الشرق والغرب . كتب غودفروا دوبويّـون الـذي سمى نفسه تواضعاً وتقى (حامي القبر المقدس) إلى البابا عنـد فتح بيت المقـدس يقول : « إذا رغبتم أن تعرفوا ماصنع بالأعداء الذين وجدوا في القـدس ، فـاعلموا بأن رجالنا كانوا يخوضون في دماء المسلمين في بوابة سليمـان وفي الهيكل » . وتصف روايات الشهود للمجـازر : « نحو عشرة آلاف مسلم ، أبيـدوا في الهيكل » . « ومن وجد هناك كانت أقدامـه ملطخـة بـدمـاء القتلى حتى الركب . ولم ينج أحـد من الكفرة (المسلمين) ، ولم توفر النساء ولا الأطفال الصغار » .

وتلت مشاهد النهب والسلب مشاهد المجازر : « وبعـد أن شبع رجـالنـا من المجازر ، شرعوا يداهمون البيوت ، ويأخذون كل مـاتقع عليـه أيـديهم . وأول من يأتي ، فقيراً كان أم غنياً ، ويدخل مسكناً من المسـاكن ، يستولي عليـه وعلى كل مافيه ، ويصبح مالكاً له كملكه الخاص ، حتى أصبح هـذا التصرف قـانونـاً وتجب مراعاته بدقة .

وتحررت القدس المدينة المقدسة ، عند كل الطوائف المؤمنة ، وملأت الفرحة القلوب ، وعمت البهجة النفوس ، وفاض الأدب العربي مهللاً بالثناء والمـديح على صلاح الدين والدنيا ، لعدله وتسامحه وحسن بلائه وعودة بيت المقدس إلى أهله . ولم يكن هذا إلا بفضل تآزر القوى الإسلاميـة ، بعـد أن هزمتهـا الحملـة الصليبيـة وأخذتها الحمية العربية ـ الإسلامية ، وتوافـدت من كل حـدب وصوب ، وتجمعت في جيش واحـد ، وتحت رايـة واحـدة ، رايـة صـلاح الـدين ، بعـد أن فتّ في عضدها ضعف الإدارة المركزية والتجزئة السياسية ، وتفتيت قوى الإسلام .

هذا الفتح المجيد الذي حققـه صلاح الـدين ، لم يبق من الـدول الفرنجيـة في فلسطين وسورية آنذاك إلا بعض بقايـا متنـاثرة على طول السـاحل . وفي مملكـة القدس السـابقـة ، بقيت صور المـدينـة الوحيـدة التي ظلت تقـاوم . وفي كونتيـة

طرابلس تماسك البروفانسيون في طرابلس نفسها ، وفي طرطوس وفي قلعة الحصن . وفي الشمال أخيراً كانت أنطاكية آخر مركز للمقاومة .

وهذه الكارثة التي مني بها الصليبيون في الحملة الصليبية الثانية ، أثارت حملة صليبية ثالثة بقيادة الإمبراطور الألماني فريديريك باربار وسا ، وملك فرنسا فيليب أوغست ، وملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد . انطلق فريديريك باربار وسا برجاله الألمان . وفي آسيا الصغرى سحق الأتراك في قونية ، وعبر جبال طوروس وعسكر على ضفاف نهر قره صو (سيدنوس) ، وفيما كان يسبح في النهر أصيب باختناق رئوي أودى بحياته ، والتحقت بقايا جيشه بالفرنسيين والإنكليز أمام عكا .

وانطلق فيليب أوغست من جنوة ، وريتشارد قلب الأسد من مارسيليا ، ووصلا صقلية في ١١٩٠ م ، ومنها إلى عكا . وفي الطريق فتح ريتشارد قلب الأسد جزيرة قبرص ، وعندما وصل الملكان إلى عكا ، كان الموقع محاصراً من البر والبحر منذ عام . وتحت أسوارها قامت معارك كبرى ، واضطرت الحامية الإسلامية فيها أخيراً للاستسلام في تموز ١١٩١ م . وبعدها عاد فيليب أوغست إلى فرنسا . أما ريتشارد قلب الأسد فقد بقي عامين في الأرض المقدسة ، ونشبت بينه وبين صلاح الدين معارك دامية . نذكر منها معركة (شعبان ٥٨٧ هـ / أيلول ١١٩١ م) انتصر فيها الصليبيون واعتبروها أخذاً بثأر حطين . ومع ذلك استمرت المعارك حتى بدا أن الطرفين أنهكها القتال ، وجنحا للسلم ، وتمّ بينهما توقيع الصلح المعروف بـ (صلح الرملة) في شهر شعبان ٥٨٨ هـ / ٢ أيلول ١١٩٢ م . وهو (صلح وسط) أو (تسوية) بالتراضي بين الطرفين المتقاتلين ، يحتفظ فيه كل طرف بما في يده لمدة ثلاث سنوات وثمانية أشهر . والذي يهمنا هو بقاء القدس بيد المسلمين . وعكا ، عاصمة مملكة (بيت المقدس) الجديدة ، ظلت قرناً آخر ، حتى ١٢٩١ م ، في يد المسيحيين .

هذه الحملة الصليبية الثالثة تبدي بعض الصفات الأصلية : أولاً ، إن الجيوش التي شاركت فيها لا تشبه الجم الغفير من الناس الذين رأيناهم في الحملة الصليبية الأولى . لقد أبعد عنها الحجاج بشدة وصرامة . ومن هنا فإن الحملة كان لها صفة عسكرية أكثر منها دينية . وليصل الفرنسيون والإنكليز إلى فلسطين اجتازوا البحر المتوسط ، وتجنبوا المرور عبر أوربة وآسيا الصغرى والخلافات العديدة مع الشعوب التي يلقونها في طريقهم . وطريق البحر كان أسرع وأقصر وأسهل للنقل . وقد أصبح الطريق البحري منذ الآن طريق الحملات الصليبية .

ومن جهة أخرى إن النزاع بين المسيحيين والمسلمين فقد شدته وحدته اللتين كانتا في البدء . فقد ضعفت الكراهية الدينية ، وكان الخصوم شجعاناً ويقدرون بعضهم . كما توطدت فيما بينهم علاقات مهذبة خارج ساحات المعارك . فبعد معركة حطين أراد صلاح الدين من غي دولوزينيان ، أسيره ، أن يجلس إلى جانبه في خيمته وقدم له الماء ليشرب . وفي حصار عكا تبادل صلاح الدين الهدايا مع ريتشارد قلب الأسد . وارتبط هذا بعلاقة صداقة مع أخ صلاح الدين حتى أنه فكر بتزويجه أخته . وتقدمت المفاوضات في هذا السبيل ، إلا أن التهديد بالحرمان أوقف ريتشارد وحال دون هذا الزواج .

الحملة الصليبية الرابعة

كانت هذه الحملة تتمة للحملة الثالثة . لقد قررها البابا إينوسان الثالث (١١٩٨ م) بعد خمس سنوات من عودة ريتشارد قلب الأسد . وفي السنة التالية ، وفي مباراة قام بها كونت شامبانيا ، حمل الحضور الصليب ، وتبعهم عدد عظيم من فرسان الشمال للشرق ، في وقت كان فيه ملك إنكلترا وملك فرنسا في حرب أحدهما ضد الآخر ، ولذا امتنعا عن المشاركة في هذه الحملة التي كانت كالحملة الأولى حملة إقطاعية . وانتخب الأمراء كونت شامبانيا زعيماً عليهم ، وبعد موته فارساً من بيمونت وهو بونيفاس مونفرّا .

لقد قرر البابا إينوسان الثالث أن يهاجم الصليبيون المسلمين في مصر ، لأنها كانت مركز قوتهم . فإذا غلبوا في مصر لا يستطيعون الاحتفاظ بفلسطين وسورية .

وكان الصليبيون بحاجة إلى سفن ، والبنادقة يملكون أهم أسطول في البحر المتوسط . فأرسل إليهم الصليبيون كثيراً منهم ، ومن بينهم فيلهاردون الذي كتب فيما بعد تاريخ هذه الحرب الصليبية ، لمفاوضتهم بإيجار سفنهم . وتعهد البنادقة بنقل الصليبيين ، وكانوا تقريباً نحو أربعة عشر ألف فارس وعشرين ألف مشاة ، بأجر قدره ٨٥٠٠٠ مارك فضي شريطة أن تدفع قبل الانطلاق . ومن جهة أخرى على البنادقة أن يضموا قواهم إلى قوى الصليبيين ، ومن بعد يتقاسم الحلفاء الفتوحات والغنائم .

احتشد الصليبيون في البندقية ، ولم يستطيعوا دفع كامل المبلغ المتفق عليه . ورأى البنادقة في ذلك مناسبة لعمل رابح . وربما ، لمصلحة تجارتهم ، كانوا يفضلون ألا تهاجم مصر ؛ فاقترحوا على الصليبيين إبرائهم من باقي الدين ، إذا أرادوا ، قبل الإبحار نحو مصر ، أن يساعدوهم في أخذ زارا على بحر الأورياتيك ، هذا الميناء المنافس للبندقية . قبل الزعماء الصليبيون . وأخذت زارا ونهبت .

وفي الحقيقية ، لقد تهيأت هذه الحملة الصليبية الرابعة في آخر القرن الثاني عشر لمساعدة الدول اللاتينية المنهكة في المشرق الإسلامي . ولكن هذه الحملة هل تستحق أن تسمى حملة صليبية ؟ لقد أعدت الحرب المقدسة لضرب القوة الإسلامية ، ولكنها تحولت إلى مشروع نهب وسلب وغزو ضد الإمبراطورية البيزنطية في الشرق . وبقيت القدس في أيدي المسلمين ، فيما كان الصليبيون يهاجمون القسطنطينية .

ضعف بيزنطة

هذا التحويل للحملة الصليبية الرابعة كان غير منتظر بادي ذي بدء . فمنذ الحملة الصليبية الأولى مافتئت أحقاد الغربيين في ازدياد ضد المسيحيين المنشقين الذين لعبوا مراراً لعبة مضاعفة بين الصليبيين والمسلمين . وكلما مرّ الصليبيون عبر الإمبراطورية الإغريقية ، كانت تحصل حوادث ومناوشات بين الفرسان الفرنجة وجنود البازيلوس . وإلى هذا الحقد الدفين بين الطرفين تضاف جاذبية ومفاتن بقايا وذخائر ثمينة محفوظة في القسطنطينية ، وبخاصة الطمع في الثروات المتوهمة في المدن البيزنطية . ولذا فإن تدخلاً مسلحاً ضد بيزنطة يمكن أن تكون له فائدة مضاعفة في إنهاء الحيدة بين المسيخيين الغربيين الكاثوليك والمسيحيين المنشفين في الشرق وسهولة النضال ضد الإسلام بالوحدة المسيحية . وهذه الحالة الفكرية ليست جديدة في الغرب . فحتى آخر القرن الثاني عشر ، وتحت إدارة آل كومنين الحازمة (ألكسيس الأول ١٠٨١ ـ ١١١٨ م ، وجان الثاني ١١١٨ ـ ١١٤٣ م ، مانويل الأول ١١٤٣ ـ ١١٨٠ م) ، ظلت الإمبراطورية البيزنطية قوية صلبة بما يكفي لتقف عثرة أمام المحاولات الغربية لتجزئتها ، وبصورة أساسية محاولات النورمانديين . وفي آخر القرن الثاني عشر لم يكن الوضع على مثل هذه الحال . لأن بيزنطة ضعفت بشكل خطر ، وأصبحت غنية جذابة للعديد من الدول الغربية التي تألبت مصالحها ضد بيزنطة . وفي الحقيقة ، لقد وقعت الإمبراطورية في حالة فوضى . وذلك أن أندرونيك كومنين ، بعد أن ثلّ عرش ابن عمه ألكسيس الثاني (١١٨٠ ـ ١١٨٣ م) حاول أن يستأنف الحالة بيده بإقامة نظام إرهاب يقضي على الطبقة الأرستقراطية (١١٨٣ ـ ١١٨٥ م) . ولكن الطبقة النبيلة ظفرت أخيراً ورفعت إلى السلطة أحد رجالها وهو إسحاق الثاني آنج (١١٨٥ ـ ١١٩٥ م) . ثم قلب هذا بدوره على يد أخيه ألكسيس الثالث آنج (١١٩٥ ـ ١٢٠٣ م) . وهذه التمزقات الداخلية حضت أطماع أعداء بيزنطة :

ففي البلقان ، حقق الصرب اتحادهم تحت قيادة نيامبا ؛ والبلغاريون ، نظموا أنفسهم من جديد ، منذ ١١٨٥ م ، تحت إدارة أسرة من كبار الأمراء ، وكان زعيمهم جان آزين يحلم بتأسيس مملكة بلقانية كبرى . وكانوا أكثر من أي وقت مضى ، جيراناً خطرين على الإمبراطورية الإغريقية . وأكثر من ذلك ، أن الصرب والبلغار تفاوضوا مع روما للخلاص من وصاية بطركية القسطنطينية ، وشكلوا مع هونغاريا ، التابعة للكرسي الأقدس ، فريقاً من الدول المعادية جداً لبيزنطة . وكان لهذه الدولة الأخيرة أعداءً آخرون أيضاً أكثر استشراءً لضياعها ؛ ففي إيطاليا ، كانت البندقية تحاول أن تؤمن السيطرة على المبادلات بين الشرق والغرب . يضاف إلى ذلك أن الحصر التجاري الذي نجحت الجمهورية البندقية في كسبه في الإمبراطورية في بداية القرن الثاني عشر ، كان مهدداً بعد أن حاولت السياسة البيزنطية أن تشجع في القرن الثاني عشر ، ضد قوة البندقية الكبرى ، الفاعلية المنافسة لمدينتين إيطاليتين أخريين وهما : جنوة وبيزا . ويرى الدوج داندولو أن الوقت قد حان لانتزاع فوائد حاسمة بالقوة . أما نورمانديو صقلية ، فلم يتخلوا عن برنامجهم في التوسع على حساب الإمبراطورية البيزنطية : ففي ١١٨٥ م ، أرسل الملك غليوم الثاني ضدها جيشاً عظيماً نزل في درازّو واستولى على تسالونيكا . وزحف النورمانديون على القسطنطينية ، حيث كان غليوم الثاني يحلم بلبس التاج الإمبراطوري ، عندما نجح جيش بيزنطي في قهرهم في ديميتيزا ، في أيلول ١١٨٥ م ، وطرحهم في البحر . إلا أن مشروع النورمانديين لم يزل بانطفاء سلالتهم ، لأن الإمبراطور الجرماني هنري السادس ، خلف فريديريك بارباروسا ، ولكن أيضاً العواهل النورمانديين في صقلية ، داعية الحلم الإمبراطوري نصّب نفسه طواعية حامياً لألكسيس الشاب ابن العاهل المخلوع على يد ألكسيس الثالث آنج . وكذلك فيليب سؤاب ، أخو هنري السادس تزوج أخت الأمير ألكسيس ، وأعلن هو أيضاً عن مزاعمه بتاج القسطنطينية .

تحويل الحملة وأخذ القسطنطينية

إن كل هذه المصالح المتألبة شوهت مشروع البابا إينوسان الثالث وحولت الحملة الصليبية عن غاياتها الأولى . وبالرغم من الجهود التي بذلها البابا إينوسان الثالث ، الذي هدد الصليبيين بالحرمان وحرم البنادقة ، فإن الصليبيين انطلقوا لفتح القسطنطينية ، وفي ١١ تموز ١٢٠٣ م ، حاصروها ، وبعد ثمانية أيام ، ثل فيها سكان المدينة عرش ألكسيس الثالث ، وفتحت المدينة أبوابها للإمبراطور المنفي ولابنه الذي أصبح إمبراطوراً مساعداً تحت اسم ألكسيس الرابع . ولكن ألكسيس لم يبادر بدفع المبالغ الموعودة للفاتحين . ومن جهة أخرى أثار استياء الإغريق الذين يكرهون الصليبيين ، اللاتين ، كما يسمونهم . ونشبت ثورة وقلبت ألكسيس ، وشكا الإغريق السلاح ضد الصليبيين . وكان هؤلاء معسكرين في خارج المدينة ، فقرروا الاستيلاء عليها . وفي ١٢ نيسان ١٢٠٤ م أصبحوا سادة وبدؤوا بنهبها بشكل مريع ، وسلكوا فيها مسلك الهمج ، شوهوا الرخام ، وحطموا الأعمال الفنية ليسحبوا منها الذهب والفضة والأحجار الكريمة التي تزينها . حتى أنهم صهروا التماثيل البرونزية وروائع النحاتين القدامى ليجعلوا منها قطع نقود . ويحتفظ اليوم في البندقية ، وفي كثير من مدن الغرب ، ببقايا وبآثار فنية بيزنطية أتي بها من القسطنطينية . وهكذا انتهت الحملة الصليبية الرابعة بنهب روما الجديدة ، هذه المدينة التي أراد قسطنطين أن يجعلها المدينة المسيحية بأعلى درجة .

تجزئة الإمبراطورية البيزنطية

لقد كان المجال رحباً أمام الصليبيين بعد هذه الأحداث لتحقيق أطماعهم .

اقتطعت البندقية جزءاً خاصاً بها ، وتملكت عدة مواقع تمتد على طول الطريق التجاري من الأدرياتيك إلى القسطنطينية ، ديرّاشيوم ، راغوز ، مودون في أقصى البيلوبونيز ، أدرنة في تراكيا ، وموانئ الهللسبون ، وبحر مرمرة

(غاالليبولي وهرقلة) ؛ ومن جهة أخرى ، أقامت في الجزر الأيونية ، التي أعطيت إلى نبلائها ، في أوبية وفي كريت التي تركها للبندقية بونيفاس دومونفرّا ، وهذا ما أمن لها الإشراف على بحر إيجة . وفي العاصمة البيزنطية نفسها كان البنادقة سادة ثلاثة أخماس المدينة . وخصوا أنفسهم أخيراً بالإشراف الروحي على الإمبراطورية اللاتينية وكان بطريريك القسطنطينية توماس موروزيني بندقياً . وعلى أطلال الإمبراطورية الإغريقية التي أنهوا فتحها بسرعة ، شاد الصليبيون إمبراطورية لاتينية ، فقد بورك كونت الفلاندر ، بودون ، إمبراطوراً في كنيسة أياصوفيا (القديسة صوفيا) ، في ١٦ أيار ١٢٠٤ م . وخص نفسه بضم تراكيا والأراضي المعدة للفتح في آسيا الصغرى . وتألفت إمارات وإقطاعات هامة قليلاً أو كثيراً لصالح أمراء الحملة الصليبية الأساسيين . حصل مونفرا على ماكيدونيا (مملكة تسالونيكا) . وتشكلت دوقية حول آثينة وطيبة لصالح أمير فرنسي ، أوتون دولاروش . وفي البيلوبونيز أسس آل فيلهاردون إمارة أكايي ؛ وأدخلوا فيها النظام الإقطاعي ؛ فقد قسمت البلاد إلى اثنتي عشرة إقطاعة ، ولكن سلطة الأمير كانت محددة بعدة أعراف ستقنن في القرن الرابع عشر (قواعد رومانيا) . وارتسم اتحاد بين الأرستقراطية الفرنجية والأمراء الإغريق .

الإمبراطورية اللاتينية المؤقتة

جاءت مقاومة توطين الفرنجة من البلغاريين والبيزنطيين . فقد سلك الأوائل سياسة عالمة متقلبة بين اللاتين والإغريق . ولكن مشاريعهم ، بإضعاف الإمبراطورية اللاتينية ، شجعت أخيراً عودة هجومية للإغريق . ولجأت المقاومة البيزنطية في ثلاثة مراكز منعزلة :

أ ـ إمبراطورية طربزون التي أنشئت في جنوب البحر الأسود على يد أمير آل كومنين ، والتزمت سياسة انعزالية ، ولم تتخل عنها حتى فتحها على يد الأتراك .

٢ - استبدادية إبيروس . ٣ - امبراطورية نيقية ، وكانتا خصمين عنيدين للفرنجة . ولكنهما لم تناضلا باتفاق تام ؛ لأن مستبدي إبيروس ، الذين ينتسبون إلى أسرة آنج ، كانوا يعملون لحسابهم الخاص . ولكن كان عليهم أن يواجهوا ، على حدودهم الشمالية ، التهديد البلغاري الذي يشل عملهم .

لذا ، فمن إمبراطورية نيقية سيخرج محرر بيزنطة . لقد أسس هذه الإمبراطورية تيؤدور الأول لاسكاريس (١٢٠٤ - ١٢٢٢ م) ، الذي ثبتها بإحرازه نصراً مبيناً على سلطان إيكونيوم . وخلفه إمبراطور قوي ، جان الثالث فاتاتزيس (الرحيم) (١٢٢٢ - ١٢٥٤ م) .

بعد عام تقريباً على أخذ القسطنطينية ، كادت الإمبراطورية اللاتينية أن تسقط . فقد أدى غزو بلغاري عليها إلى ثورة الإغريق وهزيمة الفرنجة بفظاعة في أدرنة (١٢٠٥ م) . وأخذ البلغار الإمبراطور بودون أسيراً ، ومات بعد بضعة أشهر في سجنه . ومع ذلك فإن الإمبراطورية اللاتينية ظلت تقاوم خمسين سنة أيضاً . فقد استطاع هنري دوهينوت (١٢٠٥ - ١٢١٦ م) ، الذي خلف أخاه في ظروف صعبة ، إرجاع الحالة إلى ما كانت عليه تماماً ، وجمع شتات الشعب الإغريقي الذي أرعبته فظاعة البلغاريين ، وتوصل إلى طرد هؤلاء وسحقهم في معركة فيليبوبولي (١٢٠٨ م) ، وتوصل بعناء إلى اعتراف بارونات الفرنجة بسيادته في اليونان وماكيدونيا ، وحاول أن يكسب حظوة عند الإغريق بحماية الأكليروس الأرثوذوكسي . وأخيراً ، استأنف في آسيا سياسة هجومية ضد إمبراطورية نيقية ، واضطر على إثرها تيؤدور لاسكاريس أن يتخلى عن سواحل بيتينيا ، وميزيا ، وترواد . بيد أن نجم الإمبراطورية اللاتينية أفل بعد موت هنري هينوت وتفتتت بشكل لا يشفى . وكان خلفه بيير كورتنية (١٢١٦ - ١٢١٨ م) ، ومن بعده ابنه روبير الأول (١٢٢١ - ١٢٢٨ م) ، غير كفؤين لتأمين الدفاع عن الإمبراطورية . فمن ذلك أن الهدب الساحلي الذي فتح في

آسيا الصغرى قد تخلى عنه ، واحتل مستبد إبيروس تسالونيكا وماكيدونيا (١٢٢٢ م) ؛ وسحق البلغاريون الجيوش اليونانية في إبيروس (١٢٣٠ م) . وساءت الأحوال عندما تولى العرش طفل بعمر اثني عشر عاماً ، وهو أخٌ لروبير الأول ، واسمه بودون الثاني (١٢٢٨ ـ ١٢٦١ م) ، وعهد بالوصاية عليه إلى شيخ بعمر الثمانين عاماً وهو جان دوبريين ، الذي اشتهر في الأرض المقدسة . وأفاد إمبراطور نيقية جان الثالث فاتاتزيس من هذا الوضع للنزول في أوربة ، واستعاد من البلغار فتوحاتهم في ماكيدونيا وتراكيا واستولى على تسالونيكا . وبعد موته وموت ابنه تيؤدور الثاني (١٢٥٤ ـ ١٢٥٨ م) ، يرى أن ميشيل باليؤلوغ ، الذي لعب لدى الشاب جان الرابع لاسكاريس (١٢٥٨ ـ ١٢٦١ م) دور الوصي ، قد استأنف الهجوم ؛ وطرد البلغار من ماكيدونيا ، ثم أحرز نصراً على مستبد إبيروس وعلى حليفه ، أمير آكايي ، غليوم دوفيلهاردون ، وفي ٢٥ تموز ١٢٦١ م ، أخذ جنود ميشيل القسطنطينية بمفاجأة ، فيما كان الإمبراطور اللاتيني بودون الثاني والبطريرك اللاتيني يهربان إلى الغرب .

وهكذا نهكت قوى الإمبراطورية اللاتينية من هذه المحنة . وميشيل باليؤلوغ الذي توج في آيا صوفيا تحت اسم ميشيل الثامن ، حكم على إمبراطورية خربتها الحرب وشوهتها ؛ ولم تمارس سلطة حكومة القسطنطينية إلا على أرض نيقية وتراكيا وجزء من ماكيدونيا . وظلت الدولتان الإغريقيتان ، إمبراطورية طربزون واستبدادية إبيروس ، مستقلتين ؛ وبقي الفرنجة في منطقتين ، ودوقية آثينة ظلت في أيدي الفرنسيين ، ولم تنج منهم إلا لتقع بين أيدي الكاتالانيين . وفي إمارة مورة حصل ميشيل باليؤلوغ في (١٢٦٢ م) على تنازل من أربعة مواقع حصينة في لاكونيا مقابل الحرية التي منحها لغليوم فيلهاردون . ولكن هذا اعترف به تابعاً لملك صقلية شارل دانجو (١٢٦٧ م) ، وأصبحت مورة ملحقة بالمملكة الآنجفية . وأخيراً ، إذا فقد البنادقة امتيازاتهم الاقتصادية في

الإمبراطورية ، فقد حلّ محلهم الجنويون ، لأن هؤلاء ساعدوا الإغريق على طرد اللاتين . وهكـذا فـإن الحملـة الصليبيـة الرابعـة كان من نتيجتهـا لغم قـوى الإمبراطوريـة الإغريقيـة وبـالتـالي إضعـاف الحضور المسيحي في البحر المتوسـط الغربي .

نهاية الحملات الصليبية

إن تحويل الحملة الصليبية الرابعة ونهب القسطنطينية يـدلان على أن حـالـة الأفكار قد تحولت عمـا كانت عليـه في زمن الحملـة الصليبيـة الأولى ، وأن الحمـاسـة الدينية قد فترت وضعفت بشكل فريد . ومع ذلك فقـد وجـدت عـدة حملات في سياق القرن الثالث عشر . ولكنها باستثناء الحملة السادسة ، باءت بـالفشل بشكل مريع .

لقد وجهت الحملة الخامسة (١٢١٧ ـ ١٢٢١ م) من قبل ملك هونغاريا ضـد مصر ، وضمت بخاصة ألماناً وهونغاريين وانتهت بكارثة .

والحملة السادسة (١٢٢٨ ـ ١٢٢٩ م) لها صفـة خـاصـة ، وهي أن زعيم هـذه الحملة وهو الإمبراطور فريـديريـك الثـاني كان محرومـاً ، وعوضـاً عن أن يحـارب المسلمين تفاوض معهم . فمنـذ توفي السلطـان صلاح الـدين الأيوبي ، أخـذ أولاده وإخوته وأقاربه يتهافتون على سلطته ، ويتقاتلون بسببها وكأنها غنيمـة سـائغـة . وبدأ بعد صلاح الـدين دور تفسخ وانحلال دفع الصليبيين لاسترداد مـا فقـدوه في صلح الرملة ، وهو تسليم بيت المقدس صلحـاً إلى الإمبراطور فريـديريـك الثـاني الجرماني على يد الملك الكامل باتفـاق يـافـا (في شبـاط ١٢٢٩ م) ، شريطـة أن يبقى سور بيت المقدس مخرباً ولا يعاد تجـديـده وبنـاؤه ؛ وأن يحتفـظ المسلمون بـالمسجـد الأقصى وقبـة الصخرة (جـامع عمر) ، ويكـون لملـك الصليبيين القرى الممتدة على طول الطريق بين بيت المقدس وعكا ، عاصمة الصليبيين الجـديـدة .

وهذا الصلح ، وإن جعل بيت المقدس مدينة مشتركة بين المسلمين والصليبيين ، إلا أنه لم يرض الفريقين ، وقام الاحتجاج عليه من جانب وآخر .

وما أن توفي الملك الكامل ، حتى عاد الانقسام في البيت الأيوبي إلى سابق عهده ، ولكن الملك الصالح نجم الدين ابن أخي الملك الكامل ، ملك مصر ، استعان بالقبائل الخوارزمية ، وبعد واقعة بينه وبين عمه الصالح إسماعيل وحلفائه الصليبيين ، انتصر فيها الملك الصالح نجم الدين (سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م) ، واسترد القدس بعد أن ظلت خمسة عشر عاماً بيد الصليبيين .

والحملة السابعة والثامنة قام بها ملك فرنسا التقي ، القديس لويس . كان هدف الحملة السابعة (١٢٤٨ ـ ١٢٥٤ م) مصر . بدأت بأخذ دمياط ، ولكن الصليبيين فوجئوا بفيضان النيل ، وأصابهم وباء مميت ، وحاصرهم المسلمون واضطروهم للاستسلام . ولم يحصل القديس لويس على حرية فرسانه إلا بدفع فدية عظيمة ، وعلى حريته إلا بإرجاع دمياط .

أما الحملة الثامنة (١٢٧٠ م) ، فقد وجهها القديس لويس بناءً على نصيحة أخيه ملك نابولي ، شارل دانجو ، إلى تونس . ولكنه مات إثر الطاعون الذي أصابه تحت أسوار المدينة في ١٢٧٠ م ، ولم يستطع شارل دانجو ، بعد أن طالب بتاج القدس ، أن يتدخل ، بعد أن نشبت الثورة ضده في صقلية .

وهذا النزاع المتكرر في سبيل نصر حاسم لأي من الطريقين المتنازعين ، مع اللجوء إلى المهادنة والمصالحة بعد المعركة ، يدل ولا شك على ضعف الأيوبيين بسبب تنازعهم ، بالرغم من أنهم ما يزالون سادة الموقف ، وبالتالي ضعف الوحدة التي حققها صلاح الدين بالعناء والصبر ، بغية النصر والتحرير من العدوان الصليبي الغربي . كما يدل أيضاً على ضعف الحماسة الدينية والأطماع الاستعمارية التي كانت عند الصليبيين الأوائل ؛ لاسيا وأن الإمدادات بدأ معينها ينقطع أو

لا يجود إلا بالقليل ، وإن الواقع المحسوس أخذ يتغلب على الآمال الطامحة والنفوس التقية . وبذلك انتهت أخريات الحميات الدينية والورع الجماعي والطيش والطموح الذي أثار فرسان القرن الثاني عشر .

وقد صور الشاعر الفرنسي روتبوف ، بين ١٢٦٨ ـ ١٢٧٠ م ، هذا الوضع في (جدل بين صليبي متحمس) و (صليبي قانع ومؤمن) ، في الوقت الذي تجهز فيه الحملة الصليبية الثامنة . قال اللاصليبي : « أتريد أن أتخلى عن مالي وأترك أولادي يحرسون الكلاب . أنا لاأعتقد أن الله يوحي إلى الإنسان بأن يبذر ماله على هذا النحو ... ولِمَ الذهاب للبحث عن الله بعيداً ؟ وإذا كان موجوداً في كل مكان فهو موجود في فرنسا ولا شك » .

وذكر جوانفيل المؤرخ الفرنسي ، الذي صحب القديس لويس في حملته على مصر في ١٢٤٨ م في (مذكراته) ، أنه سمع فارساً يخاطب فارساً آخر بقوله : « إذا تصلب الملك ، أي إذا أصبح صليبياً ، فسيكون يوماً من أشد الأيام في أي وقت مضى في فرنسا ؛ لأننا إذا لم نتصلب يغضب الملك ؛ وإذا تصلبنا غضب الله ، لأننا لانتصلب من أجله ، وإنما خوفاً من الملك » (ذكر في سيرة القديس لويس) ؛ حتى أن جوانفيل نفسه ، بالرغم من ضغوط الملك ، رفض التصليب مرة ثانية .

وظل النضال بين المسلمين والصليبيين ، ومع هؤلاء وحلفائهم من المغول غير المسلمين ، في مصر وبلاد الشام ، في سبيل قضية أخذت تبدو خاسرة بالنسبة للصليبيين ، بعد أن استلم المماليك دور الأيوبيين وسيطروا على عكا عاصمة الصليبيين في ١٢٩١ م ، وسجلوا بذلك بداية النهاية للحروب الصليبية ، لأن مابقي للصليبيين على الساحل الشامي لايتعدى بضعة موانئ ، أخذت تسقط تباعاً الواحدة تلو الأخرى .

نتائج الحملات الصليبية

لم تؤد الحملات الصليبية التي جردها البابوات وفرسان الغرب إلى النتائج التي توخوها ظاهراً ، وهي : تحرير الأرض المقدسة . لأن الدولتين اللتين أسسهما الصليبيون في الشرق ، مملكة القدس والإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية لم يكتب لهما البقاء . أما في الغرب ، وبخاصة في البلاد التي انطلقت منها الحملات ، فرنسا ، ألمانيا ، إيطاليا ، فقد كان للحملات نتائج هامة ، بعضها اقتصادي ، وبعضها سياسي واجتماعي .

النتائج الاقتصادية ، كان منها أن الحملات الصليبية أفادت من التجارة المتوسطية ، وضاعفت الصلات البحرية بين مدن الغرب والشرق . وأثرى نقل الصليبيين والحجاج بحارة مارسيليا ، وجنوة ، وبيزا ، وبخاصة البندقية . فمن هذه الموانئ كانت الأساطيل تنطلق بصورة منتظمة نحو الأرض المقدسة . وفي الوقت الذي كان فيه المسيحيون الغربيون سادة البلاد ، كان تجار فرنسا وإيطاليا يأتون إلى الموانئ المشرقية ، ويشترون منتجات الصناعات الفاخرة التي اشتهرت بها بلاد المشرق ، مما أغنى في الغرب حياة البذخ والحضارة . فقد كانت بلاد المشرق العربية والإغريقية (البيزنطية) ذات حضارة متقدمة كثيراً على حضارة الغرب . هذا فضلاً عن أن رؤية البذخ الشرقي أيقظت عند الصليبيين تذوق البذخ : من اقتناء السجاد ، والمرايا ، والأثاث الجميل ، والأسلحة المرصعة ، والأقمشة الثمينة الحريرية والدامسكو (أي نسيج الحرير الدمشقي) ، والمخمل ، والحرير الموسليني ، كلها دخلت إلى الغرب في قسم عظيم منها عن طريق الحملات الصليبية . وقد يكون في القول مبالغة إذا وضع لحساب الحملات الصليبية كل ما اقتبسه الغرب عن الشرق في مضمار العلوم والفن والزراعة والصناعة . لأن الحضارة العربية كانت تشع في إسبانيا وفي صقلية كما في مصر وسورية . ولكن هذا لا ينفي أن هذه الحضارة العربية في الغرب الأوربي مشرقية الأصل .

فاختراع الورق والبوصلة ، على سبيل المثال ، عرف في أوربة قبل الحملات الصليبية ، وقد أخذه العرب عن الصين .

وللحملات الصليبية **نتائج اجتماعية** ، أهمها أنها أسهمت في كسر شوكة الأمراء الإقطاعيين ، وقضت على حياة الألوف منهم ، وأفقرت الأحياء . فقد كان الصليبيون يرحلون على نفقتهم ، ويجهزون أنفسهم ، ويتكفلون بطعامهم وإطعام من معهم من رجالهم وحيواناتهم . ولذا كان يلزمهم الكثير من المال . وللحصول عليه كانوا يضطرون لبيع قسم من أملاكهم ، أو للاستقراض ، وبالتالي إعطاء رهن على هذه الملكيات ، وكان الجميع ينطلقون على أمل الثراء والغنى . ومن كان يعود منهم ، يعود معدماً ويضطر للبيع أو الاستدانة من جديد . وهذا الضعف والفقر أفادا الملوك وتابعي الأمراء وبخاصة سكان المدن الذين وجدوا سادتهم على استعداد لمنحهم حرياتهم ، مما زاد في حركة تحرير المدن التي بدأت منذ ماقبل الحروب الصليبية .

وأخيراً ، إن الفرنسيين مدينون للحملات الصليبية بنفوذهم السياسي والتجاري المتفوق في المشرق خلال قرون طويلة ، وبجاههم الذي مازال تأثيره ظاهراً في انتشار اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية ، عن طريق المدارس التي تأسست في بلاد المشرق ، وترجع في أصولها إلى الحملات الصليبية . هذا إلى أن بعض الصليبيين طاب لهم العيش في الشرق فآثروا الحياة في بلاده وأصبحوا شرقيين ، وانحدرت منهم سلالات وأجيال .

الفصل العاشر

آسيا الوسطى والشرقية

المقدمة

إن تاريخ البلاد الآسيوية ، بين القرن السادس والعاشر ، لا يمكن أن يوضع إلا بصعوبة متوازياً مع تاريخ الغرب أو الشرق الأدنى . وذلك لأن تمازج الشعوب ، وتقلب الخارطة السياسية ، وتغير الحضارات ، في هذه المناطق الأخيرة ، أعطت لوناً خاصاً لهذه القرون . وما الكلام عن العصر الوسيط في الصين أو الهند إلا واسطة للمؤرخ لوضع تزامن الحوادث التي دارت في الشرق وفي الغرب في سياق هذه القرون الخمسة . والواقع ، في آسيا الشرقية ، أن التاريخ القديم امتد وطال ، وأن التطور استمر دون انقطاع . وأن الغارات البربرية لم تحول مجرى التاريخ . فما أن دحر الفرسان الرحل في السهول ، أو هضمتهم الشعوب المستقرة إلا وتشكلت ، من جديد ، دول منظمة ، كما في الماضي ، في المناطق الهندية والصينية ، بينما انقسمت إمبراطورية السهوب من جديد بين القبائل المتنافسة ، ولم تعد تهدد العالم المتمدن لعدة قرون . وما أن رفع الدمار إلا وشهدت الهند والصين تفتح حضاراتها القديمة التي بلغت أوجها آنذاك ، حتى أن إشعاع هذين المركزين للفن والثقافة استأنف تأثيره في مناطق نفوذهما التقليدية : التركستان ، التونكف ، ألانّام الشمالية ، بالنسبة للصين ؛ وجنوب - غربي شبه الجزيرة الهندية الصينية وأندونيسيا بالنسبة للهند ، وكان الجندي والإداري الصيني ، والتاجر الهندي الذي ينطلق في بحار الجنوب ليبحث عن التوابل والذهب رسل الحضارة ، وأكثر منهم أيضاً حجاج البوذية . نشأت هذه

الديانة في الهند وظلت تنمو ، وانتشرت في البلاد الهند صينية والأندونيسية ، وفي شمال وجنوب السيريند La Serinde (تركستان القديمة) وفي الصين ؛ وفي القرن السادس ، تغلغلت في اليابان التي دخلت أخيراً بالبوذية أيضاً ، وأصبحت هذه الديانة عندئذٍ سائدة وعامة في الشرق الأقصى كله ؛ وطبعت بنفوذها كل أشكال الثقافة والفن حتى النظم الاجتماعية ، ونسجت بين جميع البلاد الآسيوية روابط وحدة روحية واسعة ، لدرجة ، أنه ، خلال هذا العصر ، الذي لم ينته إلا في القرن العاشر ، يمكن أن نشبه دورها بدور المسيحية في الغرب . ولكنها ، في البلاد التي غرست فيها تحولت وتكيفت مع العبقرية الخاصة بكل شعب . وبالرغم من تيارات النفوذ التي تلاقت فيها ، بقيت عدة أصعدة ثقافية في المجال الآسيوي .

أما إمبراطورية السهوب فقد كان تاريخها ، في البدء ، تاريخ الهمل « هورد » التركي ـ المغولي الذي كانت جموعه تتدافع على أفضل المراعي ، وتجوب المفازات الواسعة عبر أواسط آسيا بحثاً عن الكلأ لقطعانها خلال قرون .

وآسيا ـ العليا تبدو بؤرة أمم .. مهيأة ، في صخب تجوال أممها ، لإعطاء سلاطين وأبناء سماء للإمبراطوريات المتمدنة القديمة . وانحدر همل هذه السهوب أصبح أحد القوانين الجغرافية في التاريخ . ولكن يوجد قانون آخر معاكس . وهو القانون الذي يعمل على امتصاص الغزاة الرحل ببطء من قبل البلاد المتحضرة القديمة . وهذا الحادث المزدوج هو ديموغرافي أولاً : لأن البرابرة المقيمين على حالة أرستقراطية منعزلة متفرقة ، غرقوا واختفوا في لجج تلك البشريات الكثيفة ، في تلك المناهل العريقة في القدم ؛ وحادث ثقافي بالتالي : فالحضارة الصينية أو الفارسية المغلوبة ، فتحت غالبها الفظ الشرس ، أثملته ، نومته ، وأزالته عن الوجود ... وكان البربري المتصيّن أو المتفرّس أول من دافع عن الحضارة ضد هجوم البربرية بأمواجها الجديدة .

إن التوازن الضعيف بين القبائل الرحل والشعوب المقيمة المستقرة ، الذي تمّ في آسيا الوسطى والشرقية ، انقطع من جديد انطلاقاً من القرن الحادي عشر ، وذلك لأن شعوب السهوب انثالت على الدول المتحضرة . فقد بدأ الأتراك بفتح الهند . ومن بعد ، بسط مغول جنكيز خان نفوذهم عبر القارة كلها ، من شواطئ البحر الأسود إلى شواطئ المحيط الهادي . وهددت الحضارات القديمة من جديد ، ولكن تراثها حفظ سليماً ولم يمس في المناطق الجنوبية (الدكن ، شبه جزيرة الهند الصينية والصين الجنوبية) ، أو في مناطق الجزر (اليابان) ، التي تجنبها الغزو ، وولد هذا التراث فيها ثقافات قوية . أما في المناطق الأخرى ، فإن استقرار البرابرة صحبته تخريبات لاشفاء لها . ومع ذلك ، فإن النفوذ السياسي الواسع ، الذي بسطه عواهل السهوب ، وبخاصة الأباطرة المغول ، الذين تبنوا جزئياً أخلاق وعادات ونظم الصينيين المغلوبين ، ساعد على توطيد مبادلات اقتصادية وتقنية ودينية بين الغرب وآسيا الشرقية .

آسيا

الحضارات المتهندة وتغلغل الإسلام

إن الخلافات السلالية والمنازعات ، بين الإمارات المتجاورة في الهند ، ألفت بعد العام (١٠٠٠ م) حوادث معقدة لا تتغير ظاهراً في التاريخ الهندي . ومن مجموع هذه الحوادث المضطربة ، ينفصل واقع عظيم ؛ وهو فتح الإسلام التركي ـ الأفغاني البطيء للبلاد . فقد أدى ، في القرن الثالث عشر إلى أول تقسيم بعد أن توحد الشمال ـ الشرقي تحت نفوذ سلطنة إسلامية حاولت السلالات الهندية في الدكن أن تقاومها .

الهند الشمالية الإسلامية

لم يكن المسلمون الذين اجتاحوا الهند ، انطلاقاً من القرن الحادي عشر ، من العرب والإيرانيين الذين أخذوا لأنفسهم موطئ قدم في السند منذ القرن الثامن ، وخلافة بغداد التي ظلت تدعمهم حتى ذلك الحين ، انهارت ولم تستطع أن تقدم لهم السند الضروري لتوسعهم . لقد اجتاحت الهند قبائل تركية كانت مستقرة في القرن العاشر في أفغانستان ، وأسست فيها إمارة غزنة . وهذه القبائل الرحل والحربية والحديثة العهد بالإسلام وجهت أطماعها نحو الشعوب المجاورة المستقرة في حوض نهر الأندوس الغني . وبررت الحرب المقدسة ضد البراهمانية عمليات النهب والسلب المستمرة . وكان هذا المشروع سهلاً عليها ، لأن الخصم كان منقسماً

سياسياً ، وغير قادر على الاتحاد في حالة الخطر . والهنود أناس مسالمون ، خصوا الحياة العسكرية واستعمال السلاح بطبقة تتفاوت قيمتها حسب المناطق . وجيش المشاة وجيوش الفيلة بدت غير ناجعة في القتال والنضال ضد وحدات الفرسان السريعة المتحدرة من السهوب . لذلك كانت المقاومة ضعيفة ، غير أن غياب خطة منظمة للفتح عند الأتراك يوضح بطء استقرارهم في الهند . وكان أول هجوم في بداية القرن الحادي عشر على يد محمود الغزنوي (٩٩٨ ـ ١٠٣٠ م) ، فاتح إيران ، ولكنه لم يؤد إلى توطيد دائم للأتراك . وخضع الشمال الغربي للهند دورياً للغزو ، وكان الزعيم التركي يدمر ما في طريقه ثم يعود إلى جباله بالغنائم والأسرى المهيئين للرق . ولم يفكر مطلقاً بتنظيم البلاد في إقليم محتل ومدار بشكل منظم . وعند موته انقسم الأتراك ، وكفوا عن غاراتهم ، وأخذت الهند فترة راحة دامت قرناً ونصف على يد أمير أفغاني استطاع أن يفرض نفسه على الأتراك . ثم عاد أتراك الشمال إلى توسعهم في آخر القرن الثاني عشر ، فقد فتح محمد الغوري (١١٦٣ ـ ١٢٠٦ م) ، السهل الهندي الغانجي واحتله عسكرياً كله حتى البنغال ، ونهبت المدن المقدسة : كانوج وبيناريس وأحرقت المكتبات والجامعات ، وقتل الرهبان البوذيون ، وتفتتت إمبراطورية محمد عند وفاته . ثم وفد على الهند زعماء مسلمون واستقروا في شمال الهند ، وكان أحدهم تركياً من قبيلة الباري ، واسمه إيلتوتميش ، جمع كل البلاد التي فتحها في الهند محمد الغوري ، وأخضع لسلطته الأمراء الهنود والمسلمين ، وأسس أول دولة مسلمة في الهند امتدت على كل السهل الهندي ـ الغانجي ، من السند غرباً حتى البنغال شرقاً ، ثم حصل على اعتراف خليفة بغداد بسلطته على البلاد المفتوحة . وبهذه المباركة الدينية أصبح نائباً للخليفة وتعززت سلطته . ويعتبر كتب مينار أول آبدة لفن العمارة الهندية ـ الإسلامية رفعت في دلهي عاصمة السلطنة الجديدة ، وبقيت كشاهد على عظمة إيلتوتميش . وقد نجح خلفاؤه ، سلاطين دلهي الأتراك ، في الحفاظ

على أثره وعمله طوال القرن الثالث عشر ، والإبقاء على سيطرة قبضة الفاتحين على الشعب الهندي ، ولكن التقدم الإسلامي نحو الجنوب توقف ، لأن الأتراك شغلوا كلياً بتشكيل جبهة في الشمال تجاه التهديد المغولي الذي أثقل على البنجاب .

وأكثر من هذا التقسيم السياسي العابر للتراب الهندي ، كانت النتيجة الحقيقية للغزو التركي فصم الوحدة الهندية التي كونتها الديانة الهندوسية طوال القرون ، وأعطت إلى الفكر الهندي مفاهيمه وإلى المجتمع بنيته . وهناك حركات دينية أخرى ، مثل البوذية ، استطاعت أن تنمو دون أن تؤثر في هذه الحالة . بيد أن أتباع بوذا أصبحوا قليلي العدد كثيراً في الآونة الأخيرة من الاستقلال الهندي . وبعد الفتح التركي ، زالت البوذية تماماً من الهند الشمالية . وحذف أواخر العواهل البوذيين من آل بالا وآل سينا البنغاليين ، في بداية القرن الثالث عشر . وقتل الرهبان أو هربوا نحو نيبال . وأتى المجتاحون الجدد معهم بدينهم الخاص بهم ، وهكذا وقفت الهند الإسلامية أمام الهند الهندوسية . وعظم المجتمعان جنباً إلى جنب ، وعظم عدد الهنود المسلمين بعد أن لمسوا الفوائد الاجتماعية التي يقدمها لهم اعتناق الإسلام . فقد استثنوا من دفع الضريبة وأصبح بإمكانهم الوصول إلى كل الوظائف ، وأفادوا من توزيع الأراضي على المؤمنين . وفي الشمال الغربي من الهند أصبح الإسلام دين الأكثرية ، وشيد مجتمع دون طبقات . ولم يعد التفاوت الاجتماعي مبنياً إلا على فوارق الثروة . ولكن عدد الأرقاء نما بشكل عظيم . ومع ذلك بقي المجتمع الهندي بتعزيز كوادره التقليدية في الحياة الهندية من حيث العائلة ونظام الطبقات ، والاقتباس عن فاتحيهم أعرافاً ساعدتهم على صيانة نقاوة عرقهم . ولزمت النساء الهنديات البقاء في دورهن ولا يخرجن إلا محجبات . وانطوت الحضارة الهندية على نفسها واتجهت نحو الماضي ، ولم تتطور .

وبالرغم من التباعد المتبادل بين فئتي السكان ، فقد قامت مع الزمن بعض اتصالات بين المجتمعين ، وارتسم بدء نوع من تعاون اقتصادي . فالأرياف الهندية ، التي اجتاحها الفتح عادت شيئاً فشيئاً تنتج الأفيون ، والنيلة ، والجنزبيل . وفي إطار الطبقات ، حافظت صناعة الحلي والورق والمنسوجات على أسرار صناعة النوعية الجيدة . وكان التجار المسلمون يأخذون هذه المنتجات الهندية ويوزعونها في العالم الواسع بطريق تجارتهم الخارجية ، وبذلك أسهموا في ثراء البلاد . وقربت هذه المساكنة والعلاقات الاقتصادية الطبقات الاجتماعية من بعضها . أما بالنسبة للأفكار الساذجة فقد ظل الدين يفرق بين المجتمعين . ولكن المؤمنين الجدد أدخلوا في الإسلام ممارسات ديانتهم القديمة . وكان (الپير) ، القديسون الحقيقيون ، محترمين من قبل الهنود والمسلمين على السواء . وعلى صعيد النخبات المثقفة بدأت الصوفية الهندية تتغلغل في الإسلام . وهذه التأثيرات ترى هنا وهناك في فن العمارة الدينية . فقد هدمت العمائر الهندية بانتظام ، وحلت محلها الجوامع والأضرحة ذات الشكل الشديد : عمائر مربعة الزوايا طويلة تعلوها قبة مثل ضريح إيلتوتميش في دلهي . أما في غوجرات ، في البنغال ، فقد أعطى النحاتون الأصلاء للجوامع أسلوباً هندياً . وعلى صعيد الثقافة ، من الصعب الكلام عن مبادلة . ومع ذلك فإن الأتراك تخلوا عن التعامل بلغتهم الخاصة ، وشيئاً فشيئاً تشكلت لغة شعبية خليطة من الهندي ، لغة المغلوبين ، ومن الفارسية والعربية ، سهلت العلاقات بين أبناء البلاد الأصلاء والدخلاء وهي (الأوردو) المخترعة في القرن الثالث عشر ، ودعيت إلى مستقبل سياسي وأدبي عظيم . وانتظاراً لذلك ، كانت الفارسية اللغة الدولية التي يستعملها جميع التجار في المحيط الهندي ، كما كانت لغة الثقافة والإدارة . وأسهم المسلمون في وضع البلاد على اتصال بالعالم الخارجي ، وبخاصة بالبلاد الإسلامية ، بفضل المبادلات التجارية وبممارسة عامة للغة الفارسية . ومنذ القرن الحادي عشر ، درس العالم والرحالة العربي ، البيروني أبو الريحان (٩٧٣ ؟ ـ ١٠٤٨ م) العلم الهندي ، وأخذ

الرياضيون العرب عنه اقتباسات عديدة ، وكذلك توطدت اتصالات مع العالم المسيحي ، فمن ذلك أن ماركو پولو ، الرحالة البندقي (١٢٥٤ ـ ١٣٢٤ م) استخدم اللغة الفارسية .

شبه الجزيرة ملاذ الحضارة الهندية

لقد عاشت الحضارة الهندية في شمال البلاد تحت النفوذ الإسلامي ، ولكنها ، في الجنوب المستقل ، عرفت تفتحها الحقيقي في الدكن وفي البلاد المتهندة في جنوب شرقي آسيا . وفي جنوب شبه الجزيرة الهندية ، ارتسم في القرن العاشر تجمع سياسي تحت إدارة دولة تامولية وهي دولة (شولا) وريثة دولة (البالاڤا) وحلت محلهم في القرن التاسع ، وأظهرت قوتها منذ بداية القرن الحادي عشر . إن جيوش راجاراجا (٩٨٥ ـ ١٠١٤ م) وابنه راجندرا الأول (١٠١٤ ـ ١٠٤٤ م) فتحت دول الدكن واحدة واحدة ومملكتي بانديا ، وكيرالا ، والهضبة الداخلية ؛ ولم يقف التوسع ، نحو الشمال ، إلا بمقاومة مملكة آل شالوكيا . وفي الوقت نفسه ، شيدت القوة البحرية للإمبراطورية الجديدة ، وأصبح شمال سيلان إقليماً تامولياً . وبعد فتحها ، التجأت المقاومة السيلانية في جبال الجنوب وغاباته . ثم ، إن مملكة سريڤيجايا التي جمعت شبه الجزيرة الماليزية ، وسومطرا ، وجاوا ، وسيطرت على الطرق البحرية بين الهند والصين ، أصبحت تابعاً لإمبراطورية شولا . ولكنها إمبراطورية ضعيفة . فمنذ آخر القرن الحادي عشر ، تداعت القوة البحرية التامولية ، وعلى القارة نفسها لم تجاوز هيمنة شولا آخر القرن الثاني عشر ، ففي القرن الثالث عشر تجزأت الدكن من جديد إلى عدة ممالك : هويسالا في الوسط ، وپانديا في الجنوب .

ولكن ، خلال قرنين ، فيما كانت الهند الشمالية منهكة بالغارات ، كانت بلاد التامول ، بفضل آل شولا تنعم بالسلام والاستقرار . فمن عاصمتهم

غانجايكانداشولابورام ، أخضع الأباطرة البلاد لإدارة مركزية ولضريبة صارمة شديدة ، وأشركوا بالسلطة العناصر المستنيرة من السكان في نطاق المجالس القديمة في القرية . واهتموا بازدهار رعاياهم ، وذلك بالعمل على حفر أقنية جديدة للري تغذي مزارع الرز في حوض نهر الكافيري ، كما أفادت من سياستهم التوسعية بلاد الجنوب ـ الغربي المنتجة والمصدرة للتوابل . وأخيراً ، تبنى المجتمع التامول نظام تسلسل الطبقات ؛ فهو يجهل الخلافات الدينية ، والاضطهادات ، وكانت البوذية فيه في تراجع واضح إلا في جزيرة سيلان . والإسلام الذي جاء به التجار العرب آمن به بعض الناس ، ولكن مسلمي الجنوب تهندوا بشدة ، وظفرت الهندوسية دون تقسيم تقريباً ، وتخلت عن المذاهب الفلسفية العالمة ، وأكثر فأكثر تغلغلت فيها التيارات الصوفية . وهذه الظروف الاستثنائية جعلت من الجنوب مركزاً من أنشط مراكز الحضارة الهندية . وفي اللغة التامول ، إحدى اللغات الدرافيدية[1] ، في الجنوب ، أصبح الشعر فناً عالماً جداً ، وأنتج في القرن الثاني عشر القصيدة الملحمية (رامايانا كامبار) وهي أعظم روائعه . والأدب باللغة السنسكريتية ، اللغة العالمة القديمة التي ألفت فيها النصوص المقدسة القديمة للهندوسية ، كان في عز نهضته ، ووسعت عدة مؤلفات على الصعيد الفلسفي الاتجاهات الجديدة للحياة الدينية ؛ وبالنسبة لرامانوجا (القرن الحادي عشر) كما بالنسبة لـ مادهفا ؛ ليس البراهما الحقيقة الوحيدة في الكون ، فقد جحد هذان الفيلسوفان المونية (الوحدانية) الدقيقة لأسلافها وألحا على الصفة الشخصية للإله الذي تستطيع الأرواح أن تتحد به بالعبادة والحب . وفي المدارس الحقوقية أعدت تفسيرات (قوانين مانو) التي هي حتى أيامنا أيضاً أسس الحق الهندي . وأخيراً ، وجد فن العمارة التامول ، من جديد ، في القرن الحادي عشر ، كل سناه وضياءه

(١) الدرافيديون Dravidiens : شعوب آسيوية من الهند إلى برمانيا (بورما) ، تبدي آثاراً من الدم الأسود .

وبلغ نضجه في أثرين نفيسين وهما معبد تانجور ومعبد غانجايكانداشولابورام ؛ وهذان المعبدان الواسعان يضمان في الداخل ساحات متعاقبة لعمائر عديدة جداً . وقابلاّت (كنائس صغيرة) ثانوية ، وأروقة ومسابح مقدسة تتدافع حول معبد أساسي . وهذا المعبد يأخذ مخططات متنوعة للغاية ، ولكنه على العموم مغطى بسطح هرمي ، رمز الجبل الكوني . وأبواب فخمة ممتدة على طول جدران الساحة تميز فن العمارة في الهند الجنوبية . وكل السطوح مغطاة بنحت كثير وفائض : جدران ، أعمدة ، وأغمية تنتعش بحياة عالم كامل من الحيوانات والآلهة منحوتة بالتفصيل في الحجر . وكذلك مشاهد غزلية عديدة ممثلة . وكما أن الصوفيين يستعملون عبارات مقتبسة عن الهوى المحب ، كذلك يسر النحاتون بتمثيل الأزواج المحبين الذين يرمز اتحادهم لاندفاع الخليقة الكونية .

ومع ذلك فإن الأعمال العظيمة أكثر من غيرها لفن الإلهام الهندي لم ترتفع أو لم تشيد في ذلك العصر على الأرض الهندية نفسها ، وإنما في شبه الجزيرة الهندية - الصينية ، في كامبودج (كامبوديا) .

عالم الخمير ، بلد الحضارة الهندية

منذ أن حرر الملك جايا - ڤارمان الثاني الكامبودج ، في سنة ٨٠٢ م ، من سيادة جاوا ، مافتئت قوة الخمير في تعاظم وازدياد . وانطلاقاً من العاصمة الجديدة المؤسسة في ٨٨٩ م ، أنغكور ، (المدينة الكبرى) عمل خلفاؤه ، الذين ينتسبون إلى عدة سلالات ، على بسط سلطتهم على القسم الأعظم من شبه الجزيرة الهندية الصينية ؛ وبنتيجة حروب طويلة وقاسية قاوم فيها الكامبوديون جيرانهم وبخاصة مملكة شامپا ، سيطرت الملكية الانغكورية في عصر أكبر توسع لها ، في عهد الملك جايا ڤارمان الثاني (المنتصر) (١١٨١ - ١٢٠١ م) على الأنام ، والتوكن ، والأراضي الحالية للأوس والتايلاند ، شبه الجزيرة

الماليزية حتى برزخ كرا وجنوب برمانيا . وكان المحاربون محميين بدرع وخوذة تزينها في أعلى تأخذ أحياناً شكل حيوان ، ومسلحين بأقواس ذات أوتار ومجانيق تشبه آلات الحرب الصينية ، ويؤلفون أدوات الفتح . ولكن الوحدة السياسية للدولة تكمن تماماً في السلطة الملكية التي هي من كنه إلهي . وسواء أكان عواهل الخمير أتباع البوذية أو البراهمانية الشيفايتية أم مهتدين بمذهب توحيد الآراء الديني ، فقد أنموا جميعاً عبادة الله ـ الملك التي أسسها محرر المملكة في بداية القرن التاسع . وشاد كل ملك في حياته معبداً ـ جبلاً ، هرماً مدرجاً أقيم في رأسه هيكل للإله شيفا ؛ والعبادة التي تقام إلى لينغا ، الرمز الذكري للإله ، يجمع اسم الملك إلى اسم الإله . والله على الأرض ، العاهل هو مركز طقس عبادة لكل واحدة من تجلياته للجمهور ؛ وقدمه لا تمس الأرض العراء أبداً ؛ يبسط تحت خطواته قطع قماش ، وعندما يخرج من القصر ينتقل على ظهر فيل أو في محمل . وبعد أن يموت الملك يتوحد مع الله الذي هو في ذروة الجبل : عبادة مأتمية توجه إلى تمثال ، (جسد مجيد) يمثل الأمير الراحل بملامح إله أو إلهة .

حول الملك ـ الله ، المملكة مع إدارتها ، وأقاليمها ، وتنظيمها الاجتماعي هي عالم صغير يوجد فيه ترتيب عالم إلهي . والمجتمع بني على نظام التسلسل بشدة : بعد الملك يأتي البراهمانيون ، ثم المحاربون وأعضاء الأسرة الملكية والبلاط ، وأخيراً عامة الناس ، بائسون ومحتقرون ، فلاحون وتجار . وتملك المعابد والأديرة أراضي وقرى تتمتع بحصانات عديدة جداً حقوقية وضريبية . وفيما عدا ذلك ، في كل مكان ، تعتمد الإدارة الملكية المنظمة بصلابة على شبكة طرق معبدة مبلطة مرتفعة كسدود ، تجانبها مآوي مراحل محطات يسير فيها الباعة الجوالون ، والفيلة المثقلة بالبضائع ، والعربات تسحبها الثيران ، وممثلو الملك محمولون على محفة أو في محمل . ومخطط العاصمة وأوابدها تضع على الصعيد العمراني المفهوم السياسي ـ الديني الذي يرأس جميع ظاهرات الحياة وهي محاطة بأسوار وخنادق ،

كالعالم محاط بالجبال والمحيطات ، وتنتظم حول المعبد ـ الجبل . وفي الواقع إن عدة أنغكورات تتتابع على مواقع تختلف قليلاً . وفي كل عصر ساعد أسلوب حدده علماء الآثار جيداً على وضع توقيت زمني للفن الخمير .

وجايا ڤارمان السابع الأكبر ، الذي ربما كان مصاباً بالجذام ، رفع إمبراطورية الخمير لقمة قوتها . لقد كان يريد أن يشجع البوذية بتكريس الهيكل المركزي في بايون إلى بوذا ـ الملك ؛ وبعد موته ، تمزقت البلاد بالمنازعات الدينية ؛ لأن العواهل ، الذين كانوا يرغبون بتوطيد الأرثوذوكسية الشيفايتية ، اضطهدوا البوذيين . ومن جهة أخرى ، اتضحت تهديدات خارجية . إن الأناميين ، وأصلهم من تونكن ، تحرروا من النفوذ الصيني ، واستولوا على شمال الشامبا ؛ والطائيون ، الذين جاؤوا من يونّان ، وكانوا ينزلون ببطء وادي مينام ، انتزعوا السيام من محتليها السابقين وهددوا إمبراطورية الخمير بغاراتهم . وأخيراً ، احتل مغول الصين ، بقيادة كوبيلاي ، برمانيا وجزءاً من الأنّام . وفي ١٢٨٢ م ، نجح ملك الخمير في إزاحتهم من كامبودج ، بعد أن أذعن ودفع ضريبة لهم . وأندونيسيا وحدها في جنوب شرقي آسيا نجت من هذه الغزوات ، فقد انهارت مملكة سريڤيجايا في القرن الحادي عشر ، وانتقلت الهيمنة على الأرخبيل عندئذ إلى أمراء جاوا الشرقية . وجرى هذا التطور على حساب النفوذ الهندي الذي طبع بعمق حتى ذلك الحين الحضارة الأندونيسية كلها .

الشرق الأقصى

الصين واليابان قبل الغزو المغولي

صين آل سونغ المسالمة والناعمة

بين بداية القرن العاشر والغزو المغولي لم تنجح الصين ، بالرغم من جهود أباطرة آل سونغ الأوائل ، في إيجاد قوتها السياسية والعسكرية . وتحول فيها المفكرون والفنانون عن سراب الإمبريالية ، ونهلوا إلهامهم من قيمهم التقليدية والقومية ، وبلغت الحضارة الصينية مرحلة النضج .

بعد سقوط آل تانغ ، وقعت الصين في النصف الأول من القرن العاشر ، في حالة اضطراب . والسلالات الخمس التي أعطت اسمها لهذا العصر (٩٠٧ ـ ٩٦٠ م) توالت بوتيرة متسارعة ، ولكنها لم تسيطر طوراً وطوراً إلا على شمال البلاد . وتجزأ الجنوب أيضاً بين عدة بيوت إقليمية . وأفادت هذه الفوضى الداخلية الشعوب المجاورة للصين . ففي ٩٣٩ م أعلن الداي ـ ڤيت استقلاله في تونكن وفي أنّام ؛ وفي الشمال عزز شعب الكيتان المغولي قوته واستولى على شمال هو ـ پي وشان ـ سي ؛ وفي ٩٣٦ م خضعت بكين لهجومه .

وعندما استولى الجنرال تاي ـ تسو على السلطة في كاي ـ فونغ ، في ٩٦٠ م ، بدا أنه يتمم سلسلة الانقلابات العسكرية الطويلة والاغتصابات التي سلمت الصين للتجزئة والفوضى . ولكن البلاد ملّت حكم الحكام العسكريين وتطلعت للسلام . وتأثر بحركة الرأي هذه تاي ـ تسو مؤسس سلالة آل سونغ (٩٦٠ ـ ٩٧٦ م) ثم أخوه تاي ـ تسونغ (٩٧٧ ـ ٩٩٧ م) ونجحا ، بفضل سياستهما الرشيدة في حذف

الممالـك الإقليميـة وتـوطيـد الـوحـدة الصينيـة . ولكنهما لم يستطيعـا القضـاء على الكيتان . فقد كان الجيش الصيني خالياً من فرق الفرسان ، ولذلـك أخفق مرتين في محـاولاتـه لاستعـادة بكين . ومن جهـة أخرى ، ظهر تهـديـد آخر على الحـدود الشماليـة لمملكـة سـونـغ وأجبرهـا على الـدفـاع . وفي آخر القرن العـاشر ،٠أسس التانغوت ، وهم شعب من عرق تيبيتي ، في الأوردوس والآلاشـان ، ولوكان ـ سو مملكة السيجيا التي تبنت الثقافة الصينية . ولما أذعن الأبـاطرة السونغ لفقـد هـذه الأقاليم الشمالية ، حكموا بهدوء خلال القرن الحادي عشر من عـاصمتهم كاي ـ فونغ (هونان) على كل بـاقي الصين . وحـاولوا أن يصلحوا فيهـا الإدارة ويرجعوا لهـا الازدهار . وأخذت حكومة سونغ صفـة مـدنيـة تمـامـاً ، واقتصر العسكريون على الدفـاع على الحـدود ، ويراقبهم موظفون مـدنيون . وكان هؤلاء الموظفون أنـاسـاً مثقفين ويساقون إلى وظائفهم بعد امتحانات أدبية . وكان هذا العصر الذهبي عصر المثقفين . وإذا أخذ هؤلاء المثقفون بقرض الشعر أو التعامل بالريشـة ، فقـد كانوا أيضـاً إداريين ممتـازين . ولكنهم اصطـدموا بكثير من الصعـوبـات ، لأن البـلاد دمرتها الحرب ، والأزمة الزراعية كامنة ومستوطنة في الأرياف الصينيـة ، وبلغت نقطـة خطيرة . وبطريـق النتيجـة ، كان جهـاز الـدولـة كلـه مهـدداً بـالشلـل ، والنفقـات في ازديـاد . والـواجب يقضي ، في الـواقـع ، بتعهـد رواتب البـلاط والموظفين وأعطيـات الجنود القـائمين على الحـدود ، ودفع ضريبـة لبرابرة الشمال . وهـذه الأعبـاء الثقيلـة كانت تقع في الجزء الأكبر منهـا على الفـلاحين المسحـوقين بالرسوم والسخرات . وكان دخل الضريبة العقارية سيئاً . ولكن التجـارة عرفت نهوضاً عظيماً بفضل تحسين السفن واستعمال البوصلة ، وكان عليها أن تجهز الـدولـة بـالموارد الهـامـة . وبسطت الـدولـة سيطرتهـا على النقـل والتجـارة الخـارجيـة ، واستغلت تحت حصرها إنتاج الملح وبيعه ، والشـاي ، والكحول . ولسوء الحـظ ، كانت هذه الحصور تغذي أيضاً جيوب الإداريين أكثر مما تغذي الخزانـة العـامـة .

لقد كان الفساد وصمة عار في جبين حكومة المثقفين ، لأن الموظفين ، الذين لا يستطيعون إشباع أذواقهم العامة برواتبهم القليلة ، كانوا يسمحون لأنفسهم بالتفاهم مع كبار التجار على المبالغ التي يقبضونها منهم على حساب أموال الشعب ، وخزانة الدولة .

ولمعالجة هذه الأزمة الآخذة بالتفاقم ، قام بعض المثقفين من أنصار مذهب تدخل الدولة الراديكالي في الصعيد الاقتصادي ، وأدخلوا الحكومة في سياق النصف الثاني من القرن الحادي عشر في طريق الإصلاحات ، وقام الزعيم وانغ نغان ـ شي أولاً بتخفيض النفقات ، ثم حاول أن يحسن مصير الفلاحين . فقد حذفت السخرات واستعيض عنها برسم سنوي ، ثم أعيد بناء مصلحة التحديد والتحرير (الكاداستر) فساعد على توزيع الضرائب بشكل أكثر عدلاً . وأخيراً شجعت الحكومة الإنتاج ، وقدمت للمزارعين قروضاً على محصولهم ، وللتجار سلفات على رهن عقاراتهم . على أن وانغ نغان ـ شي لم يكن ثورياً ، وكل مافعله هو أنه أجرى الإصلاح لغاية ضريبية ، ولتأمين أفضل دخل للضريبة . ولم يمس أي ضرر الملكيات الكبرى . وفي الحقيقة ، جرى تقويم مع تحسين للحالة ، ولكنه كان قصير الأمد . ولإمكان دفع القروض للحكومة ، كان على المزارعين أن يستدينوا من المرابين . ومن جهة أخرى ألقت المسؤولية على وانغ نغان ـ شي معارضة المثقفين المحافظين ، أنصار ترك الأمور على عواهنها ، وكان يوجههم المؤرخ الكبير سو ـ ما كوانغ . وانتهى النزاع بين الأحزاب بإبعاد المصلحين عن السلطة ، وضعف المقاومة القومية في وقت اتضح فيه تهديد خارجي جديد . فتحت حكم الإمبراطور هوي تسونغ (١١٠٠ ـ ١١٢٥ م) الرسام والعالم بالآثار ، ظهر شعب من الفاتحين في الشمال : أصلهم من منشوريا ، وهم الجورتشت ، من عرق تونغوز ، استولوا على مملكة الكيتانيين الذين لجأوا في تركستان (كاراكيتاي) . وأخذ زعيم الجورتشت اللقب الإمبراطوري ، واختار للسلالة الاسم كن ، وهو بالصينية

(الذهب) . ثم اجتيحت الصين الشمالية بدورها : ففي ١١٣٥ م ، وقع الإمبراطور كاي فونغ في أيدي الكن وأخذ أسيراً إلى منشوريا . واستطاع أحد أولاده أن يفر واستقر في نانكن ثم في هانغ ـ تشيئو ، فيما أنهى الكن فتح شمال البلاد .

ومنذ ذلك الحين ، وفي أكثر من قرن بقليل ، استطاع المثقفون والفنانون في مملكة الجنوب حيث أذعن آل سونغ لتقسيم الصين ، أن يذوقوا طعم السلام الذي وجدوه من جديد ، وحلاوة الحياة . وحمى الأباطرة ، الرسامون والشعراء في حينهم ، تفتح هذه الحضارة الناعمة الزاهية . وغطيت العاصمة بالمعابد والقصور ، والبساتين والأكشاك . وفتحت أكاديمية للرسم . والمجتمع المخملي الذي انصرف لتزجية أوقات فراغ جديدة ، واللعب بالورق ، والدومينو ، شكل فيها جمهور نخبة . وساعد تقدم الطباعة في الواقع على انتشار الثقافة بشكل واسع . وظل الناس يكتبون باليد على قرطاس من حرير مؤلفات فخمة . ولكن اللفافات الأسطوانية أو (برقانات) الورق المخطوطة استبدلت بمستلات أوراق مطبوعة . وظهرت المطبعة منذ القرن التاسع ، ويبدو أنها نشأت من تقنية ختم في حال الاستعمال منذ بداية العصر الميلادي . ومنذ هذا العصر تأرخ أقدم كتاب مطبوع للتاريخ البشري في ٨٦٨ م وهو : (كتاب الماس) ويضم مجموعة الحكم وقواعد الطقوس والأخلاق في الحياة اليومية . وفي القرن الحادي عشر ، أتى استعمال الحروف المتحركة بتحسين جديد . والمثقفون المفتوحون قبلوا بأن يطبع الأدب كله ، وتدخل فيه النصوص المقدسة ، وتأسست مكتبات عديدة في القصر الإمبراطوري وفي الأديرة ، ونظمت حسب نظام التصنيف المنظم . ونشط الأدب بواسطة الانتشار الجديدة هذه . فقد نشرت كتب موسعة تعالج فن العمارة والرياضيات والعلوم الطبيعية ، وإنسيكلوبيديات (معلمات) تبسط المعارف والطرق التقنية ؛ وعرفت الرواية الشعبية أيضاً نجاحاً كبيراً . ولكن ما يميز عصر آل سونغ إنما هو نهضة الفلسفة الكونفوشيوسية .

لقد أعطى الفيلسوف تشوهي (١١٣٠ ـ ١٢٠٠ م) طبعة نقدية مصحوبة بشروح للمؤلفات الكونفوشيوسية الكبرى ؛ ونقحت هذه النصوص وجددت وساعدت على نهوض الكونفوشيوسية ـ الجديدة ، التي ألهمت فكر المثقفين الصينيين حتى آخر الإمبراطورية . وفي الواقع ، إن مذهب تشو ـ هي يمتح من مصادر مختلفة جداً ، ويمكن أن تكشف فيه تأثيرات الطاوية ومؤثرات البوذية ، والقصد من ذلك مذهب توحيد الآراء الذي يؤدي إلى تحضير وتهيئة نوع من الوحدانية المتطورة ؛ فمن عدم الوجود يخرج الوجود الذي يخضع لعمل المبدأ ، (لي) بالصينية (أي قانون الطبيعة) ، الذي يحيي العالم ثم يميته . و « الإنسان واحد مع السماء والأرض ، مع كل كائنات الأزمنة كلها ، لأن قانون العالم وحيد ... » (شاؤ يونغ) . وهذا الإيضاح الدقيق يمنع توسيع البحث الفلسفي ؛ ويبقيه في مذهب محافظ شديد . ويرتبط الفن سونغ بشكل وثيق في هذه الفلسفة . وقد بلغ الكمال المصفى الناعم على صعيد الرسم والخزف . وأنتجت ثقافة الرسم بلون واحد أي الرسم الملون على الحرير المنفذ بالحبر الصيني مدرسة مدعاة للإعجاب ، وهي مدرسة رسامي المناظر . ففي أعمالهم تنمحي الطبيعة بالضباب ، وتقتصر على الأساسي ، خط أفق يحيط بالمجال النقي . وهذه الأعمال إنما هي قصائد صغيرة تعبر عن الحالة الروحية للرسام بواسطة رمزية كاملة يوسعها الأدب : الأوزات البرية تذكر بفرار الفصول ، الغياب ؛ وزوج عظيم من البط ، الحب الوفيّ ... وترك العصر سونغ أيضاً خزفاً عجيباً وحيد اللون غالباً أو في سُلّم لون على لون . وهذا الاعتدال أو التحفظ في استعمال اللون يصحب باعتدال عظيم في الشكل . ومع ذلك يسود تنوع عظيم من مشغل لآخر : أواني خزفية تنغ (هوبي) بلون أبيض قشدي (ضائر) ، أواني فخارية يو (تشوكنغ) بلون رمادي أخضر ، أواني فخارية كين (فوكين) ذات بريق معدني يشبه لون فرو الأرنب الأسمر أو ريشة الحجل الزرقاء ، أواني بلون أخضر باهت من لونغ

تسيوان ، وكلها تصدر ، في كل آسيا ، إلى اليابان ، إلى ماندشوريا ، وإلى الأنام الشمالية وإلى كامبودج . هذه هي صين آل سونغ المحرومة من المجد العسكري ولكنها بلا شك ، أسعد منها في أي عصر آخر ، وهي التي أثارت عجب ماركو بولو الرحالة البندقي .

اليابان الإقطاعية والعسكرية

لقد أيقظ المبشرون الإرساليون البوذيون والمثقفون والفنانون الصينيون أو الكوريون اليابان على الحضارة ؛ وساعدوها على أن تأخذ صفها بين الدول الآسيوية الكبرى . وانطلاقاً من القرن العاشر ، تحررت الإمبراطورية اليابانية من أوصيائها ، وبدأ تطور أصيل أمن للبلاد الازدهار والعظمة .

تنبئ ببشائر هذه التحولات منذ العصر الأول هيان (٧٩٤ ـ ٩٦٧ م) ، ففي ٧٩٤ م كان الإمبراطور كوامو قد نقل عاصمته إلى هيان (كيوتو) ؛ وأقام فيها بلاطه وجميع الدوائر المركزية التي أنشئت في العهد السابق على النمط الصيني . وفي هذه العاصمة الجديدة ، التي يقع مخططها بشكل رقعة الشطرنج ، كان شبيهاً بمخطط نارا عاصمة اليابان (٧١٠ ـ ٧٩٤ م) في العصر الذهبي الياباني المشهور بكثرة المعابد ، نضجت حضارة ناعمة مشربة تماماً بمؤثرات صينية ؛ ففي الأجنحة الرشيقة للمدينة الإمبراطورية بسطوحها من الآجرية الزرقاء والدعائم الملونة بالّلك الأحمر ، وتحت أشجار البساتين المزهرة ، عالم مترف من رجال الحاشية بألبستهم المزركشة ، وسيدات جميلات ببدلاتهن البراقة منهمكين باللذات الممتازة للموسيقى والمساجلات الشعرية والنزهات على ضوء القمر . وفي الأديرة البوذية الواقعة خارج المدينة تشارك الطبقة النبيلة في هيان بالاحتفالات الفاخرة التي يلاطف فيها البخور والمديح والمصانعة والموسيقى والرسم جميع الحواس . وبالرغم من الإعجاب بكل ما هو على الموضة من الصين ، فإن أوساط

العاصمة شعرت بأن عبقرية يابانية أصيلة قد استيقظت ؛ وأن الثقافة القديمة بدأت تتحرر من تقليد عبودي للنماذج الأجنبية . وشجعت الظروف هذا الوعي ؛ ففي ٨٩٤ م قطعت العلاقات الدبلوماسية مع الصين ؛ والمواصلات البحرية المطمئنة قليلاً لا تشجع على المبادلات . ومن جهة أخرى ، مهرت اللغة اليابانية في بداية القرن العاشر بنظام للكتابة أكثر سهولة . وحلت ، محل الكتابة الصوتية الآتية من الصين ، رموز ، الكانا ، وساعدت على تمثيل المقاطع . وبدأ الكتاب ، ولا سيا النساء ، لأنهن ملكات هذا المجتمع المخملي ، بتأليف قصائد عذبة وروايات ؛ وهجروا الأغراض (النماذج) التقليدية ، وسجلوا بدقة ونعومة الهياجانات العابرة والكآبة المحببة التي تسكن قلب معاصريهم . إن سي شوناغون في (مذكرات الوسادة) شاهد نبيه لعصره . ولكن ثقافة هيان ليست إلا ثقافة بلاط . والياباني الحقيقي هو في مكان آخر ، في المناطق المنعزلة بالجبال ، أو بالبحر ، هناك حيث بقي الناس أجلافاً ، ولكنهم يملكون أيضاً قوة سليمة ؛ وهو هذا الجمهور من الفلاحين المجبرين على تسليم قسم عظيم من إنتاجه من الرز بصفة ضريبة في سبيل بقاء بذخ رجال البلاط ، والملزمين بتأدية خدمة عسكرية ثقيلة . وهو أيضاً هذه الأرستقراطية الإقليمية القاسية والطموحة التي مافتئت قدرتها تتعاظم ؛ وشكل النبلاء شيئاً فشيئاً دومينات واسعة معفاة من الضرائب ، الشون . وبعضهم أفاد من الوظائف الرسمية التي يمارسونها ، وفي الواقع ، لقد اقتبس الأباطرة عن الصين إدارتها المركزية . ولكنهم لم يستطيعوا أن يؤسسوا في الأرض اليابانية نظام السوق بالامتحانات ؛ وكانت الوظائف الهامة محتكرة بشكل وراثي قليلاً أو كثيراً من قبل العائلات الكبرى . وهذه العائلات عملت على منحها دومينات واسعة حرة من الضرائب ، مقابل تقديم خدمات . وفي الغالب احتكر هؤلاء الملاكون الأقوياء ، بصورة غير شرعية جداً ، الأرض العامة ، هذه الأرض التي يعاد توزيعها كل ستة أعوام على الفلاحين وعليها أن تدفع الضريبة ؛ وبحجة

حمايتهم ضد عمال الضريبة ، اجتذبوا صغار الفلاحين في زبائنهم وأخذوا على عاتقهم رفع الرسوم ولا يخلو الأمر من إساءة الاستعمال . وأصبحت الضرائب وحدات اقتصادية ، تتهرب تماماً من رقابة الدولة . وفي الوقت نفسه ثبتت صفتهم العسكرية ، فقد اعتاد كبار الملاكين على إقامة رجال مسلحين ، الساموراثي ، أوفياء لهم ، ومقابل ذلك يمدونهم بأرض .

تشكلت إقطاعية شبيهة بإقطاعية الغرب . واستردت الأحزاب القديمة سلطتها . والأقوى بينها ، حزب الفوجيوارا ، استولى ، في النصف الثاني من القرن التاسع ، على السلطة الحقيقية ، ورد الأباطرة إلى دور تمثيلي محض . ولهذا العمل استخدم الفوجيوارات طريقة حاذقة ؛ وهي أن يزوج زعيم الحزب في كل جيل بنتاً أو عدة بنات من بناته إلى الإمبراطور ؛ وبصفته حمياً أو جَدّاً لوارث ما يزال قاصراً ، يمارس على الدوام وصاية حقيقية ؛ وأكثر من ذلك ، يعنى بوضع أقربائه في كل المراكز القيادية للحكومة ومنح حمايته وعطفه للطبقة النبيلة الإقليمية .

ومع ذلك ، منذ القرن العاشر ، بدأت قوة الفوجيوارات تضعف . فقد لان أعضاء الحزب بحياة البلاط وانقسموا ، وتنازعوا فيما بينهم للحصول على وظائف ومراكز وألقاب لا معنى لها . وفي الواقع ، تضاعفت الثورات الإقطاعية ، وفي أكثر من مرة ، في سياق القرن الحادي عشر ، كانت جيوش الرهبان ـ الجنود المؤسسة على دومينات الأديرة الكبرى تأتي وتحاصر العاصمة . ولا يستطيع البلاط إعادة توطيد النظام إلا بالطلب أو الالتماس من عائلة كبرى مثل عائلة آل تايرا أو عائلة آل ميناموتو ، وكلاهما متحدرتان من فروع ثانية من العائلة الإمبراطورية . وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، وقعت اليابان في حروب أهلية شرسة ؛ وتجابهت ثلاثة أحزاب متنافسة : فوجيوارا ، ميناموتو ، وتايْرا . وحذفت عائلة فوجيوارا نهائياً في (١١٦٠ م) وانتصر كيوموري من

عائلة تـايرا ، خلال بضع سنوات . ولكن ، في ١١٨٥ م ، وبعـد أربعـة أعوام من نزاع ملحمي احتل مكانة الشرف في الروايات والمسرح اليابـاني ، أخـذ يوريتومو ميناموتو محل آل تـايرا . وأصبح سيـد الوضع ولم يحـاول خلع الإمبراطور . وبقي هذا الأخير عاهلاً أسمى من أصل إلهي ، وحوله ، حافظ بلاط هيان على نظامه . أمـا يـوريتـومـو فقـد استقر في كامـاكـورا ؛ ولم يـدع إلا بـ (حكم الخيـمـة) ، الباكوفو ، وهو مكتب عسكري صرفاً ويتم نظرياً الحكومة المدنيـة ؛ وسعى لأن يعطيـه الإمبراطور لقب (شوغـون) أي قـائـد أعلى للجيش (جنراليسّيم) . وفي الواقع ، أصبحت كاماكورا مقراً لحكومة واحدة واقعيـة ، دكتـاتوريـة عسكريـة تستنـد على جيش قـوي . وفي كل إقليم ، بقي الأمراء أحراراً في إدارة ملكيتهم ، ولكن كان عليهم أن يدفعوا رسماً عسكرياً لممثل الباكوفو .

وما لبث توطيد النظام ، الذي عمل به النظام الشوغوني ، أن أتى بنتائجـه ، وبخاصة في الصعيد الاقتصادي . ففي السلام الذي وجد ثانيـة ، أصبح بـالإمكان استئناف أعمال الأرض ؛ وظهرت زراعة جديـدة في آخر القرن الثـاني عشر وهي زراعـة الشـاي الواعـدة بنمو هـام . ومع ذلـك لم يتغير مصير الفـلاحين . وتـأكـد وتثبت أفـول الرق ، ولكن الضرائب كانت تثقـل دومـاً كاهـل الشعب الريفي . وبالمقابل ، كان عصر كاماكورا عصر تجديد في التجارة : فقـد استؤنفت العلاقـات مع الصين . وظهرت طبقة تجار محترفين . والمعابـد التي تلعب دور بنوك الوديعـة والقرض تمول الحملات البعيدة ؛ وانتظم التجار في رابطات (أصنـاف ، طوائف ، نقـابـات) ؛ وحصلوا ، مقـابل دفع رسم متفـق عليـه ، على الاستثنـاء من رسـوم العبـور التي لا تعـد على طـول الطرق والأنهـار ؛ وأخيراً كان لهم حصر التجـارة . وتحولت العقلية أيضاً : ففي ذلـك العصر مجـدت الفضـائل العسكريـة ؛ وحـاول الفرسان أن يطبقوا قانون الشرف ، البوشيدو ، المثل الأعلى للولاء والشجاعة التي تلهم أبطال الروايات الملحميـة . إن الحوادث المـأسـاويـة التي سبقت الوصول إلى

الشوغونة أثارت تجديداً في الورع الديني . وظلت الشنتو دين الطبقة الأرستقراطية ، ولكن طقسها لا يوافق الجنود القساة ورجال الشعب الذين هم بحاجة لإيمان بسيط ومباشر : وتحولت البوذية ؛ واستجابت فرق جديدة لحاجات الأرواح . وأسس المصلح نيشيرن فرقة (نيلوفر الإيمان الصالح) المتعصبة والقومية ؛ وبشر راهبان ، هونن وشينران الشعب القلق من وعوظ قديمة منذ آلاف السنين ، بالتخلي لبوذا الرحيم ؛ وبشر رهبان آخرون بمذهب زين التأملي ، وهو شكل ياباني للصوفية تشان الآتية من الصين ، أعطى للبوشيدو لون رواقية وبدأ يمارس نفوذاً حاسماً على علم الجمال الياباني . ورفع الكثير من المعابد المهدمة أثناء الحرب الأهلية : ففي كاماكورا شيد عدد عظيم من الأديرة على المخطط المتناظر الذي كانت له حظوته عند الفرقة . ومن هذه المجموعة العمرانية بقي جناح البقايا وحده . والتماثيل العديدة التي يطلبها المؤمنون تدل على واقعية نامية نجدها في الرسم المعاصر . وهذه اليابان المتجددة كانت مستعدة لأن تصدّ منتصرةً هجوم مغول الصين .

الفصل الحادي عشر

آسيا الوسطى والمغول

في القرن الثالث عشر ، دخل التاريخ شعب من الفرسان الرحل ، شعب المغول ، تحت إدارة جنكيزخان ، ووطدوا سلطتهم على آسيا الوسطى العليا ، ثم انطلقوا لفتح الدول المجاورة المستقرة . وامتدت الإمبراطورية الواسعة التي شادها هذا الزعيم المغولي الشهير وأخلافه من بعده ، من شواطئ البحر الأسود إلى شواطئ المحيط الهادئ . وهذا التوسع المغولي جرى بواسطة تخريبات ومذابح فظيعة . ولكنه فتح للتجار والمبشرين الغربيين طرق الشرق الأقصى .

بين ١١٥٥ و ١١٦٧ م ، وبين همل غامض يرحل وينتقل عبر السهب المغولي ، نشأ غلام باسم تيموجين . وفي بضع عشر سنوات من حياة صاخبة سيصبح **جنكيزخان** (أو تشينجيوخان : ملك العالم) ، عاهل إمبراطورية واسعة ، وهذا المصير المذهل يتضح بالوضع الذي كان يسود في منغوليا في منتصف القرن الثاني عشر وبعبقرية الزعيم المغولي الشاب .

المغول قبل جنكيز خان

منذ تداعي إمبراطورية الكيتان المغولية الأولى (١١٢٢ م) عادت آسيا الشرقية إلى فوضى تامة شجعت كل المشاريع . وما من شعب من الشعوب قريبة العهد التي كانت تحاول تباعاً أن تقيم هيمنتها على السهوب المغولية ، استطاعت الحفاظ عليها بشكل دائم . فقد وجد أن جميع الفاتحين طرحوا على محيط العالم

المغولي ، الأتراك الأويغور الذين خرجوا منها منذ القرن التاسع ، ووجدوا ملجأ في الجنوب الغربي في واحات شمال نهر تاريم ، غير بعيد عن المناطق التي توطدت فيها شعوب تيبيتية ، وهم التانغوت سي ـ هيا ؛ والأتراك كاراكيتاي الذين هم أيضاً أسسوا في منغوليا الإمبراطورية كيتان وانطووا في الغرب . في التركستان . وأخيراً الجورتشيت الذين وطدوا سيادتهم على قبائل منغوليا الشرقية ، ولكنهم كانوا منهمكين شيئاً فشيئاً بنشاطاتهم ضد صين آل سونغ وفتحوا الجزء الشمالي من بلادهم . ولذا لم تمارس أي سيطرة حقيقية ومباشرة على منغوليا الأصلية من ألتاي إلى خنغان الكبير . أما القبائل العديدة التي كانت تنتقل في هذه المناطق فلم يكن بينها أي رابط ، حتى أنها تتشكل من شعوب ومن أعراق مختلفة : **الأتراك** ، المتحدرون من سادة البلاد القدامى . كانوا عديدين بشكل كاف بعد (نايمان ، كيرييت ، أونغوت ، وتتر) . ولكنهم تحملوا نفوذ رجل وصلوا حديثاً ، وهم **المغول** وقبائلهم (مركيت ، أويرات ، تومات) تمتد بين شمال ماندشوريا وبحيرة بايكال . ومن الصعب غالباً التمييز بين المغول الأصلاء والأتراك المتغولين لدرجة أن الرحالة الغربيين يدلون في الغالب بالاسم التركي **تتر** على مجموع الشعوب المغولية .

كانت كل قبيلة من هذه القبائل تنقسم إلى عدد من البطون التي تضم العائلات المتحدرة من جدٍ واحد ، وتؤلف أمة صغيرة مستقلة بأرضها . وهذا المجتمع القبلي منظم على الطريقة الأبوية ، والأسرة فيها عديدة جداً ، لأن تعدد الزوجات عندها هو القاعدة ، وتجمع كل الأولاد في المنزل الأبوي حتى زواجهم .

والمجتمع القبلي متسلسل أيضاً : الطبقة الأرستقراطية فيه تتألف من زعماء البطن وتنتخب للحرب أو للصيد زعيم قبيلة ، ويحاط هذا بمحاربين ، رجال أحرار يشكلون نوعاً من حرس متنقل ويتميزون عن عامة الناس . وفي أسفل السلم الاجتماعي يوجد جمهور الأرقاء الذي يحصل من الغزو أو الحرب . ولا تخلو

المنافسات بين القبائل والبطون : والقاعدة تقضي بأن يتزوج الرجل دوماً امرأة من خارج بطنه الخاص ، والمحاربون يفضلون في الغالب اللجوء إلى الخطف من أن يدفعوا صداقاً إلى أهل الفتاة ، وكان هذا مصدراً لخلافات يضاف لها قطع الطرق ، والمنازعات في موضوع أراضي العبور أو الصيد ، والمزاج الحربي بصورة طبيعية لهذه الشعوب البربرية .

ومهما يكن العرق الحقيقي والبطون التي تنتسب إليها الشعوب المغولية فهي ، بنوع حياتها وحربيتها التي تمارسها دون انقطاع ووحشيتها وحشية محاربين بالفطرة ، « أفضل من غيرها لفتح الأراضي والممالك » كما كتب الرحالة ماركو بولو . ونظراً إلى أن المغول يخضعون لظروف الحياة الشديدة في السهب ، حيث الصيف القائظ والجاف ، يتلوه الشتاء الجمدي ، لذلك كانوا رجالاً أشداء . قامتهم صغيرة ، وجسمهم ضخم وقصير ، ورأسهم مستدير ، وخدودهم ناتئة ، وأنفهم أفطس متباعد الفوهتين ، وعيونهم عند النظر تفتح شقاً ضيقاً تحت حواجب كثيفة وتعطي لوجههم مظهراً فظيعاً وهمجياً وملحوظاً أيضاً عند الرجال بوضة الرأس الحليق عدا ذؤابة في قمة الجمجمة . والوجه يزينه شارب ضخم وعثنون كثيف الشعر . ولباسهم يتكيف مع اختلاف الأقاليم ويتألف من بدلة فضفاضة ، وبنطال عريض مشدودين عند الرسغين والكعبين بسير من الجلد ، يتممها في الشتاء معطف ولباس رأس من جلد الحيوان . و « الشعب المغولي رائحته كريهة ولباسه أسود » ، كما يذكر بخبث مؤرخ صيني في (تاريخ يوان السري) . ولا يشتركون كلهم في نوع حياة واحد . إن بعض القبائل التي تسكن على حدود السهوب والتايغا السيبيرية تعيش من القنص والصيد . وفي الشتاء يرى أن الناس الذين يسكنون هذه المناطق يلاحقون الطريدة على الثلج أو الجليد باستعمال خشبة التزلج أو نعل من الخشب . ويستعملون عادة الخشب كمادة أساسية ؛ فهم يعرفون صنع البراميل وبناء الأكواخ من الأغصان ويغطونها بقشر الخيزران . ولكن القبائل

الكثيرة العدد تعيش بصورة أساسية من تربية الخيول والبقر والأغنام وحتى الإبل ، وتنتجع عبر السهب الممتد على حافة صحراء غوبي .

هؤلاء الرحل عندما يحطون رحالهم الموسمية الطويلة يجمعون خيامهم وعرباتهم بشكل دائرة ليحموا أنفسهم من هجوم ممكن دوماً . وهذه التجمعات المؤقتة هي رسم أولي لمدن المستقبل . ونشاطاتها تقتصر تقريباً على تربية الحيوانات وهي خاصة بالنساء اللائي يعرفن صنع الجلد المستعمل في السروج وأجهزة الخيول والسيور ، وصناعة اللباد لأجل الخيام ، وبعض صناعات الأواني الفخارية . ومن أجل الأشياء الأخرى يمارسون المقايضة مع الشعوب المجاورة .

والمغول فرسان قساة جفاة ، أشداء في الحرب ومتمرسون عليها . سلاحهم القوس والسهم والسيف والدبوس . رماة مهرة بل أمهر وأفضل رماة في العالم . سريعو الحركة ، يجيدون الكرّ والفرّ . وهذه الحركة تخولهم الحضور في كل مكان . ومهارتهم في استعمال القوس والسهم تؤمن لهم تفوقاً على جميع جيوش معاصريهم . واكتسبوا شهرتهم الهمجية بسرعة بسبب المذابح الفظيعة التي تبعث الرعب في قلوب أعدائهم . وهم برابرة لم يتأثروا كبعض قبائل الترك بالحضارة . وجرّ مجيئهم إلى منغوليا تخلفاً حقيقياً . واللغة المغولية أقل تطوراً من اللغات التركية . وزمنهم لا يؤرخ أي نقش كما في عصر سيطرة الإيغور . أما ديانتهم فبدائية . وإذا تسربت النسطورية أو المانوية إلى منغوليا وانتشرت بين بعض القبائل ، فقد تراجعت حتى مستوى الشامانية الفظة التي تؤلف العقيدة العادية للمغول الذين يعبدون السماء (تانغري) والأرض وعدداً لا يحصى من الآلهة أو الجن التي تسكن المياه والنار وتحيي جميع الحوادث الطبيعية . كما أنهم يعبدون الأسلاف الأموات والعفريت حامي القبيلة ، ويمثل على العموم بصار تعلوه طاقة مجدولة من شعر الحصان . والطقس العادي يقتضي بضع شفات من حليب الفرس أو تقدمات لبعض الأطعمة التي تستهلكها العائلة .

ومن الممكن أيضاً تضحية خيول ، بل وحتى كائنات بشرية في مناسبات رسمية خاصة وعلنية ، كما يجري ذلك مؤخراً عند موت عاهل . والسحرة أو الشامان ، الذين يلعبون أحياناً دوراً سياسياً هاماً ، يمارسون السحر والكهانة بواسطة عظام أكتاف الخراف .

ملحمة جنكيزخان

لقد كان همّ كل زعيم مغولي طموح إخضاع القبائل والتلاعب بمنافساتها وتوجيه عدوانيتها المتنقلة ضد الممالك المستقرة . فمنذ آخر القرن الحادي عشر ، جرت محاولة لمثل هذا المشروع : وذلك أن قائداً (قايدو) اشتهر بظفره على قبيلة منافسة ، وضم إلى رجاله عدداً من القبائل الأخرى وأسس منها أول مملكة مغولية . ومن الصعب هنا أن نميز نصيب كل من الأسطورة والتاريخ . غير أن ما يبدو أكيداً هو أن الملك المغولي وخلفاءه جابهوا عداء التتر وأيضاً عداء عواهل الجورتشت ، الملوك كين سادة الصين الشمالية . وناضل المغول بكثير أو قليل حظ حتى اليوم الذي أدى تألب أعدائهم إلى سحق الملك المغولي أوتولا (١١٦١ م) ، وعندئذٍ زالت الملكية في منغوليا . وعادت القبائل والبطون إلى تجزئتها الفوضوية .

في هذا العصر ولد تيموجين . وجعلت الرواية من أبيه زعيم بطن قوي ، ومن ابن أخ هذا الأخير ملكاً مغولياً . ومهما يكن فإن طفولة جنكيزخان المستقبل كانت بائسة للغاية ، فقد توفي أبوه وله من العمر تسع سنوات . وتفتتت القبيلة ، وأصبح تيموجين مشرداً ، دون موارد ، وطلب حماية ملك الكيرييت الذي ساعده على إيجاد زوجته التي خطفتها قبيلة منافسة . وعندئذٍ بدأ الحظ يدور لصالح جنكيزخان ؛ ومن حظه أنه استطاع بدوره أن يقدم مساعدته لملك الكيرييت ، عندما طردته ، خلال فترة ، من دولته ، مؤامرة

دبرت ضده في ١١٩٦ م . ومنذ ذلك الحين أصبح تابعاً وصديقاً للعاهل وأحرز أولى انتصاراته . انتصر على النيمان والتتر ، وهذا ما أمّن له السيطرة على كل منغوليا الشرقية . وما لبث ملك الكيرييت أن قلق من نجاحاته وقطع علاقته معه : وفي نهاية النزاع ضم جنكيزخان بلاد الكيرييت كلها ، وأصبح سيد منغوليا الوسطى . وأخيراً قام بإخضاع القبائل الغربية ، الأونغوت والميركيت .

وفي ربيع ١٢٠٦ م ، امتد نفوذه على منغوليا كلها ؛ وفي مجلس كبير عقد عند منابع نهر أونون ، قدم زعماء جميع البطون الخاضعة احترامهم واعترفوا بمنصبه خاناً سامياً . وعندما ذهب ابنه البكر لإخضاع قبائل غابات سيبريا الجنوبية ، كان جنكيزخان يتقبل احترام ملك الأويغور ، ثم أخذ يهتم بتنظيم دولته .

ولكن منغوليا لاتكفيه . ومنذ أن تأمنت سلطته فيها بشكل كاف ، انطلق لمهاجمة الممالك المستقرة المجاورة ؛ أولاً الصين التي اجتذبته ، أو بالأحرى المملكتان اللتان تأسستا في القسم الشمالي من البلاد . ثم قام بعدة حملات في الكان - سو أدت إلى إخضاع عاهل مملكة التانغوت ، سي هيا (١٢٠٩ م) . وبعد عامين قام بالحرب ضد الجورتشت الذين حكموا تحت اسم كين على باقي الصين الشمالية . وفي ١٢١٥ م ، دخلت الجيوش المغولية بكين . وخلال شهر كامل ، سلمت العاصمة للنهب ، والنار ورعب وفظاعة الرحل القاتلة . ومع ذلك راوح المغول أمام المواقع الحصينة التي أنشأها المهندسون الصينيون . ثم ترك جنكيزخان لنائب عنه أمر متابعة الفتح بجنود قليلة ، وحول معظم جيوشه نحو الغرب . فقد أقلقته الأخبار التي تلقاها من منغوليا : وذلك أن أحد أعدائه الشخصيين أصبح سيداً ، في تركستان الشرقية ، من إمبراطورية راكيتاي وحاول أن يحرض على الثورات في السهب المغولي ؛ وقد تحقق فتح هذه البلاد في سياق سنة ١٢١٨ م . ووجدت الآن إمبراطورية جنكيزخان الجار المباشر لسلطنة خوارزم : وهكذا أصبح النفوذ المغولي على تماس مع العالم الإيراني والإسلام التركي . حاول جنكيزخان

أولاً أن يقيم علاقات سياسية وتجارية طيبة مع الإمبراطورية الخوارزمية ؛ ولكن قافلة مغولية أوقفته على الحدود وقتل أعضاؤها (١٢١٨ م) . وأصبحت الحرب لا مناص منها ؛ ففي هذه البلاد التي هي بلاد ما وراء النهر وأفغانستان وفارس ، عبر الفتح الجنكيزخاني عن نفسه بشراسة فظيعة وتخريبات لا شفاء لها . فلأخذ مدينة كان المغول يصادرون شعب الأرياف المجاورة . ثم يدفعون هذه الكثرة الكثيرة المنزوعة السلاح والسيف في ظهرها لمهاجمة الأسوار حتى تملأ الجثث الخنادق . وأحرق الفرسان الرحل المدن ذات العمائر والأوابد الوجيهة : بخارى ، سمرقند ، مرو ، هرات ؛ وحولوا الحقول المروية بعناية إلى أراضي بور رعوا فيها خيولهم ؛ وقتلوا « جميع الكائنات الحية حتى الكلاب والقطط » . وعندما استسلمت مرو ، قطعت رؤوس جميع سكانها بشكل منظم باستثناء أربع مئة عامل يدوي محترف . وشيدت أهرام من الرؤوس البشرية أمام أسوار المدينة والدخان يتصاعد منها . على أن جنكيزخان ، الذي حول المنطقة كلها إلى حصن ضخم للحماية ، لا يبدو أنه يرغب بمتابعة زحفه نحو الغرب . واكتفى بإرسال نائبين عنه : جيبة وسوبوتاي للاستطلاع ، ونفذ هذان النائبان ، مع ٢٠٠٠٠ فارس ، غارة استطلاع واسعة حول بحر الخزر (١١٢١ ـ ١١٢٢ م) . وبعد نهب **الري وطهران** قاموا بغارة في مملكة جيؤرجيا المسيحية . وحاول الجيش الجيؤرجي المقاومة ولكنه مزق شر ممزق . ثم نزل المغول السهب الروسي . وهنا سحقوا الجيش الروسي . وأخيراً ، بعد أن نهبوا وكالات جنوة في القرم ، عادوا إلى آسيا بطريق نهر الفولغا الأدنى ، وبعد قليل من عودتهم ، قرر جنكيزخان أن يرجع على مراحل صغيرة نحو منغوليا (١٢٢٤ م) . غير أن ثورة في المملكة التابعة له ، مملكة التانغوت ، سي هيا ، أجبرته على الانطلاق ثانية في حملة (١٢٢٦ م) . وفي سياق هذه الحملة قضى زعيم المغول حتفه (١٢٢٧ م) . ودفن جثمانه بالقرب من منابع نهر الأونون . وحسب العرف قدمت الأطعمة خلال

ثلاثة أيام على أرواح أمواته . وأمر ابنه بانتخاب أربعين من أجمل فتيات عائلات الزعماء والجنرالات ، وزيّنّ بألبسة غنية وجواهر ثمينة ... وأرسلن لخدمة جنكيزخان في العالم الآخر » (ذكره غروسيه في إمبراطورية السهوب) .

« ويالها من جنازة بربرية جديرة بمن هو أكثر من أتيلا ، استحق ، بسعة تخريباته ومذابحه التي أمر بها ، اسم (بلاء البشرية) . لقد كان بدوياً وحشياً وشرساً ، وغير أهل لأن يفهم عالم المستقرين ، وكان فرحه الفائق أن يقطع أعداءه مزقاً ، ويطردهم أمامه ، ويتملك أموالهم ، ويرى دموع المخلوقات الأعزاء عليهم ، ويحتضن بذراعيه نساءهم وبناتهم » . (رشيد الدين . ذكره غروسيه) . ومع ذلك لم يكن كل شيء تدميراً في عمله . فقد كان هذا المغولي يشعر بخوف وسواس من السماء ومن كل إله ، على ما هو عليه من أخلاقية شديدة . ومجموعة القوانين التي فرضها على شعبه كانت صارمة للغاية .

ومع ذلك فقد كان بالغريزة لدى هذا الفاتح الهمجي الإحساس بالواقع وبمعنى الحكم العادل والإدارة الحسنة . ولمساعدته في هذا العمل استعان برجال مثقفين وجدوا بين الشعوب المقهورة ، من مثقفين صينيين وفي الغالب أويغور ، وأصبحت اللغة والكتابة الأويغورية لغة وكتابة الإدارة المغولية . « نسيت المجازر ، وظل العمل الإداري المدين لمؤازرة النظام الجنكيزخاني والمكاتب الأويغورية » . وهذا العمل ، بعد الكثير من التخريبات الأولية ، وجد أخيراً أنه يفيد الحضارة ... إن جنكيزخان ، بتوحيده جميع الأمم التركية ـ المغولية في إمبراطورية واحدة . وبفرضه حكم نظام حديدي من بكين إلى بحر الخزر ، حذف الحروب المستمرة من قبيلة لقبيلة وأعطى القوافل أمناً لا تعرفه ... لقد كان صورة من ألكسندر البربري الذي ، هو أيضاً ، فتح للحضارة طرقاً جديدة » (غروسيه) .

أوائل خلفاء جنكيزخان وإنجاز الإمبراطورية المغولية

لم يوقف موت جنكيزخان التوسع المغولي ، بل تتابع في عهد أخلافه . فقد كان لجنكيزخان أربعة أولاد . أخذ كل واحد منهم ، في حياة أبيه ، وقفاً خاصاً به :

الابن البكر : جوتشي ، توفي في سن مبكرة قبل الأوان . وأخذ ابنه باتو السهوب في شمال بحيرة آرال .

الابن الثاني : جاغاتاي ، أخذ منطقة نهر إيلي .

الثالث : أوغوداي ، أخذ الجنوب الغربي من منغوليا .

الرابع : تولي ، وهو الأخير ، أخذ قلب البلاد المغولية .

أما أوغوداي (١٢٢٩ ـ ١٢٤١ م) فقد عينه أبوه ، في حياته ، خلفاً له ، واعترف به ، دون صعوبة ، المجلس العام للأمراء المغول .

اتخذ الخان الجديد عاصمة ثابتة له وهي كاراكوروم على نهر أونون الأعلى ، حيث وسع الهيئات الإدارية التي أنشأها أبوه . وتتابع الفتح المغولي طوال حكمه في ثلاثة اتجاهات :

١ ـ في الصين ، بادئ بدء ، أنهى مملكة كين التي أخذت عاصمتها كاي ـ فونغ في ١٢٣٣ م . وأطلقت غارات ضد إمبراطورية آل سونغ القومية ، وفي مملكة كوريا .

٢ ـ نحو الغرب ، بقي استرداد إيران . وبفضل وفاة جنكيزخان استرجعت الإمبراطورية الخوارزمية جزئياً . إلا أن الحملة التي جردت في السنتين ١٢٣٠ و ١٢٣١ م سحقت نهائياً وأخضعت فارس كلها للغل المغولي .

٣ ـ وفي العهد نفسه ، قام جيش مغولي ثالث ، بقيادة باتو ، ابن أخ الخان الكبير ، بعملياته الحربية في أوربة : في السهب الروسي ، أعلن الأتراك القفجاق

خضوعهم ؛ ثم هوجمت الإمارات الروسية ، ريازان ، فلاديمير ، موسكو ، سوزدال ، كيف ، أخذها المغول وأحرقوها . وظلت روسيا خاضعة للنير المغولي أكثر من قرنين . ودخلت سهوب روسيا الجنوبية في وقف باتو (خانة القفجاق) . وفرض على الإمارات الروسية في الشمال دفع ضريبة . وأخيراً اندفعت الموجة المغولية في القتال حتى حدود أوربة الغربية : اجتيحت بولونيا وسيليزيا ، وفي هونغاريا سحق الجيش المجري في موهيّنْ (١٢٤١ م) ، ووصلت طلائع المغول حتى ضواحي ڤينّا . ومع ذلك لم يحاول مغول أوغوداي البقاء في هذه المناطق ، وحدد موت هذا العاهل توقف الفتح المغولي في أوربة .

لم تبق السلطة الإمبراطورية في بيت أوغوداي . وبعد سنتين من الصعوبات ، انتقلت إلى بيت تولي . فقد حكم ابنه البكر مونغكا من ١٢٥١ إلى ١٢٥٩ م ، وتابع شخصياً النضال ضد إمبراطورية السونغ في الصين الجنوبية التي شجعت التضاريس فيها المقاومة الصينية . وفي هذه الأثناء كان أخوه الذي يليه في الولادة ، هولاكو ، حاكم فارس ، يوسع وقفه بخضوع خليفة بغداد والعراق . فقد بدأ بمهاجمة الإسماعيليين في مكامنهم الجبلية وأهلكهم . ثم حمل الحرب ضد الخليفة العباسي في بغداد ، على ما هو عليه من ضعف وعناء ، وأخذ بغداد في ١٠ شباط ١٢٥٨ م . وأمر السكان بالخروج من المدينة وأعمل فيهم السيف ، ودام ينهب المدينة سبعة عشر يوماً . أما الخليفة ، فبعد أن أجبر على تسليم كنوزه المخبأة ، وضع في كيس وداسته سنابك الخيل . وأحرق الجزء الأكبر من المدينة . ثم تابع هولاكو الخطة التي رسمها له مونغكا ، وقام بإخضاع بلاد الشام واستولى على حلب وحماة وحمص ودمشق دون كبير صعوبة . وفي غضون ذلك وصله خبر وفاة الخان الأعظم مونغكا فأسرع بالعودة إلى الصين . وخلف وراءه جيش الاحتلال . أفاد السلطان المملوكي من هذا الظرف لاسترداد سورية ، ووقعت

الواقعة بينه وبين المغول ومن حالفهم من الصليبيين في معركة عين جالوت (١٢٦٠ م) التي أدت إلى سحقهم وهزيمة من تبقى منهم . وهكذا سجل التوسع المغولي نقطة توقف في آسيا الغربية .

وبالمقابل ، تتابع الفتح المغولي في الشرق الأقصى ، تحت حكم أخ لمونغكا ، وهو كوبيلاي آخر كبار الأباطرة المغول (١٢٥٩ ـ ١٢٩٤ م) . وأنهى هذا العاهل فتح مملكة سونغ ، هانغ ـ تشيؤ ، وسقطت العاصمة في ١٢٧٦ م ؛ ولجأ أواخر (الوطنيين) الصينيين مع آخر ممثل للعائلة سونغ إلى أسطول في عرض بحر كانتون ، فأغرقهم أسطول مغولي في أعماقه في ١٢٧٩ م . وأصبحت الصين كلها في يدي كوبيلاي ؛ وهذا مالم يحصل لأي فاتح تركي ـ مغولي قبله . وبادر الخان الأعظم وطلب ولاء الدول الأخرى ، في الشرق الأقصى ، التي كان أباطرة الصين يزعمون بممارسة الوصاية عليها . وفي كوريا سحقت المقاومة ضد احتلال المغول ، وأصبحت مملكة تابعة . ولكن كوبيلاي كان أقل حظاً في محاولاته لإخضاع اليابان والهند الصينية وجاوا . وجردت حملتا إنزال ضد اليابان وردتا (في ١٢٧٤ و ١٢٨١ م) . وفي سياق العملية الثانية دمرت عاصفة الأسطول المغولي وتخلى كوبيلاي عن بسط سيادته على الأرخبيل الياباني . ووجهت عمليات خلال عدة مرات ضد الهند الصينية ، ولتجنب التهديد بالغزو قبل عواهل شامپا ، والأنّام ، وبرمانيا ، وممالك الطاي الصغيرة ، الاعتراف بتبعيتهم لكوبيلاي ؛ وفي الواقع ، إن السيطرة المغولية لم تتأصل وترسخ بحق في شبه الجزيرة ، ولا أكثر في جاوا حيث اضطر جيش حملة مغولي على الإبحار ثانية بعد بضعة أشهر من النزاع (١٢٩٣ م) .

كوبيلاي والسلالة المغولية في الصين

لقد بلغ التوسع المغولي حدوده القصوى . إلا أن هذه الإمبراطورية ليست

إمبراطورية وحدوية ، لأن الأراضي الواسعة التي احتلها المغول تميل إلى التفكك في عدة خانات تطابق الأوقاف الأميرية التي كان قد أسسها جنكيزخان . وعندما استلم كوبيلاي السلطة ، انفجرت منازعات في داخل العائلة الجنكيزخانية وانقلبت إلى ثورات مكشوفة ضد الخان الجديد . وكان على هذا الخان خلال حكمه كله أن يناضل لفرض سيادته على أبناء عمه ، خانات فروع أو غوداي وجاغاتاي الذين كانوا يحكمون في الجنوب الغربي لمنغوليا وفي التركستان . وأقل منهم اختلاطاً مباشراً في هذه الخلافات ، كان خانات فارس وروسيا الجنوبية يتمتعون بواقع بعدهم باستقلال ذاتي واقعي حقيقي .

ولم تكن سياسة كوبيلاي غريبة على هذه الثورات وعلى هذا التقلب في الإمبراطورية المغولية . وفي الحقيقة ، أن كوبيلاي مافتئ يعلن عن نفسه بأنه خلف جنكيزخان ويطالب باسم وحدة الإمبراطورية طاعة الخانات المغول ، وقضى قسماً كبيراً من حكمه في المناوشة في منغوليا للاعتراف في سلطته . ولكن قاهر الصين انفتح على الحضارة الصينية . ومنذ ١٢٦٠ م ، هجر كاراكوروم ، واستقر في بكين . وفي الشمال الشرقي من المدينة الصينية القديمة ، أمر بإنشاء عاصمة جديدة ، مدينة الخان ، خانباليك ، وجعل الرحالة الغربيون منها كامبالوك . وأراد كوبيلاي ، الخان الأعظم لرعاياه المغول ، أن يصبح في الصين ، ابناً حقيقياً للسماء ، إمبراطوراً صينياً : وبعد زوال آخر أمير سونغ ، اعتبر نفسه مؤسساً لسلالة جديدة ، سلالة يوان (١٢٨٠ ـ ١٣٦٨ م) ، التي خلفت اثنين وعشرين سلالة حكمت الصين حتى ذلك الحين . وعلى هذا فالإمبراطورية المغولية جنحت لتصبح إمبراطورية صينية . وشتان ما بين المخيم العسكري حيث كان جنكيزخان يشارك حياة الرعاة القاسية في السهب ، والبلاط المترف الذي تبنى فيه كوبيلاي الأعراف والبذخ اللذين كان عليها العواهل الصينيون .

وفي بكين أمر كوبيلاي ببناء قصر فخم ، وكانت حياة الخان العظيم فيها منتظمة باحتفالات ومراسم دقيقة . والمغول ، الذين يحضرون الصيد والأعياد الفاخرة التي يقيمها كوبيلاي ، لا يشبهون الرحل الذين يلبسون جلود الحيوان التي تتصاعد منها الرائحة الكريهة التي كانت تصدم في بداية القرن أنوف الصينيين .

لقد أصبح زعيم القبائل المغولية عاهلاً وراثياً لا يقاسم حياة رفاقه . وكان هؤلاء في نظر الصينيين أمراء إمبرياليين ، وتابعين يمنحهم العاهل يوان إقطاعات واسعة ، ويخصصهم للحياة العسكرية والحرب . وتحول الجيش المغولي ، فقد هجر جزئياً تاكتيك مناوشة الفرسان ، وقبل المغول الآن المعركة المنظمة على شكل صف يقابل صفاً آخر ، وتبنوا آلات الحرب الصينية ، وتكيفوا مع حرب الحصار ، بل وحتى غامروا في البحار .

وحافظ كوبيلاي على النظم والمؤسسات الصينية ، وقبل الجهاز الإداري ، ولكنه لم يكتف بتقليد الأبهة والبذخ الخارجي لعواهل البلاد الإداري ، وصرف جلّ اهتمامه لحكم البلاد وإرجاع الازدهار الصيني بفضل سياسته الاقتصادية .

وللنضال ضد المجاعة ، وضع موضع التنفيذ تشريعاً قديماً : وهو أن يخزن الفائض من المحصول ، الذي تشتريه الدولة في أهراء عامة ، ويوزع مجاناً على المحتاجين ، وفي وقت الجدب ، على الشعب كله . وأصلح أيضاً القناة الكبرى التي تصل بكين بالصين الوسطى ، وشبكة الطرق الإمبريالية ، وزرع على طولها الأشجار . ونظم البريد على هذه الطرق ، مما كان مدعاة لإعجاب الرحالة الغربيين .

وعلى هذه الطرق المعتنى بها جيداً ، لا يسير الرسل الذين يحملون أوامر العاهل فحسب لجهات الصين الأربع ، وإنما عديد من التجار أيضاً . وشجعت

سياسة كوبيلاي المالية نحو الفاعلية التجارية أيضاً . وبفضل تعميم الورق النقدي ، كانت التجارة الصينية تتصرف بوسائل تبادل وافرة كانت مدعاة لإعجاب ماركو پولو .

إلا أنه ، انطلاقاً من ١٢٨٠ م ، وإثر إصدارات هامة جداً جداً ، انخفضت قيمة الورق النقدي ، وبدأ تضخم جامح تسبب في ضرر جزء من النتائج الطيبة لإدارة كوبيلاي الرشيدة . وبالإجمال ، كان حكم كوبيلاي دور ازدهار عظيم جداً ، بالنسبة للصين .

وأخيراً ، إن المغول ، في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، مع بقائهم أوفياء لديانة الأسلاف الشامانية ، أظهروا شيئاً فشيئاً تعاطفاً مع الديانات المتطورة للشعوب التي أخضعوها . وكان التسامح ، الذي أبداه جنكيزخان ، من قبل ، مزيجاً من حب الاطلاع ومن الخوف الوسواس . أما خلفاؤه فكانوا أكثر نشاطاً ، وجعلوا من أنفسهم حماة لعبادات عديدة ، ولا يستهينون ، في الاحتفالات التي تقيمها ، بالمشاركة بها . وصدرت مراسيم إمبراطورية تعفي من الرسوم جميع ممثلي الديانات ، من كهان نسطوريين ، ورهبان بوذيين أو طاويين ، وفقهاء مسلمين . ومع ذلك ، فقد أبدى مونغكا وكوبيلاي ، في سياق حكمها ، تفضيلاً واسعاً للبوذية التي شجعا انتشارها على حساب الطاوية . حتى أن كوبيلاي تقبل بأبهة عظيمة بقايا بوذا التي أرسلها له أمير من سيلان . وهذا لم يمنع هذين العاهلين من إبداء التعاطف مع الديانات الأخرى ، المانوية ولا سيا النسطورية التي كان لها العديد من المريدين عند الكرييت والأونغوت . وفي الأعياد الكبرى كان الإمبراطور يطلب بأن يقدم له الكهان النسطوريون الأناجيل : ثم يبجلها ويقبلها . وقد سبق أن طردت النسطورية من الصين منذ سقوط آل تانغ ، وعادت إليها بفضل النفوذ المغولي . وفي ١٢٧٥ م كان أشياعها عديدين بما يكفي ؛ حتى أن البطريرك النسطوري في بغداد قرر

أن يـؤسس بطريركيـة في بكين . وعلى مسـافـة من العـاصمـة أقيمت صـومعـة نسطـوريـة ؛ وقرر اثنـان من رهبـانهـا ، ربّـان صـومـا ومـاركـوس ، من أصـل أونغوت ، أن يـذهبـا إلى القـدس للحج : اجتـازا آسيـا كلهـا ، وزارا في طريقهما الطوائف النسطورية العديدة جداً في فارس ؛ ولكنهما ، إثر الحرب الجـائشة بين المغول والمماليك ، لم يستطيعا الوصول إلى القدس . ومع ذلك فـإن الموقف المرحب للعواهل المغول نادراً ماذهب حتى الاهتداء بالنسطورية .

عودة العلاقات بين الشرق والغرب

لقد أخضع جنكيزخان وخلفـاؤه آسيـا ، من كوريـا إلى البحر الأسود ، إلى سيطرة وحيدة . وانتهت المنازعـات بين القبـائل في كل هـذه المسـافـة الواسعـة . وعمل المغول على سيادة السلام بالإرهاب وحده بادئ بدء ، ثم شيئـاً فشيئـاً بفضل إدارة رشيدة .: وأخيراً تمدن الناس الهمج . وساعدت هـذه الظروف كلهـا النـاس والبضائع والسلع والأفكار على الانتقـال من جـديـد بحريـة من الغرب إلى الشرق الأقصى ، والإسـلام والمسيحيـة لعقـد روابط مـع الحضـارات الآسيـويـة . وشعر المسيحيون بادئ بـدء بـإرهـاب شـديـد من مجتـاحيهم المغول . ومع ذلـك ، بعـد قليـل ، ولـدت السيطرة المغـوليـة آمـالاً كبرى في الغرب على الصعيـد الـديني والتجاري .

وفي العصر الـذي كان من الممكن فيـه أن يحكم على الحمـلات الصليبيـة بـالإخفـاق ، وتقـاوم بعنـاء آخر الـدول الفرنجيـة في سـوريـة ، كانت المسيحيـة الرومـانيـة تغـذي لبعض الوقت وهمـاً : وهو أنـه من الممكن أن يصنع من المغول حلفاء ، وأن يعتنقوا المسيحية ، وأن يضربوا الإسلام بمساعـدتهم . ففي ١٢٤٥ م ، أرسل البـابـا إينوسـان الرابـع لـدى الخـان الأعظم الفرنسيسكاني جـان دو پـلان كارپن ، الـذي أتى من رحلتـه بـ (تـاريخ التتر) الثمين . وبعـد بضع سنـوات ،

أرسل القديس لويس بدوره سفيرين : آنـدره دو لونجومو (١٢٤٩ م) ، ثم غليوم دو روبروك (١٢٥٣ م) . وقبـل العـواهـل المغـول الإصغـاء للمرسلين المسيحيين حتى أنهم نظموا نقاشات متضاربة في قضايا لاهوتيـة بين هؤلاء وممثلي الـديـانـات الأخرى . ولكنهم ، جواباً لطلب التحـالف العسكري ، طـالبوا ، قبل كل شيء ، بأن يعترف ملوك الغرب والحبر الأعظم بأنهم تابعون للمغول . على أن أخذ بغـداد من قبل المغول في (١٢٥٨ م) ، الذي جاء بعد هذه التعاملات الـدبلومـاسيـة غير المثمرة ، أعطى ثانية أملاً جديداً للمسيحيين . وكان خـان فـارس هولاكو ، الـذي وجه الحملة المغولية ، متعاطفاً كثيراً مع المسيحية ، وأعطى الأمر بأن تصان في كل المدن المفتوحة أرواح جميع العنـاصر المسيحيـة في السكان . وعنـدمـا حمل هولاكو الحرب ضـد سـوريـة ، ارتسم تعـاون حقيقي بين المسيحيين والمغـول : وعلى هـذا شارك ملك أرمينية الصغرى وصهره أمير أنطاكية ، بوهيمونـد السـادس ، في أخـذ دمشق . ولكن هذا التفاهم تدمر بخرق بارونات عكا الذين كانوا يفضلون المسلمين على المغول البرابرة ؛ وهاجموا دورية مغولية . فرد هولاكو بـإعطـاء الأمر بـأخـذ صيدا ونهبها . وسمح الفرنجة لجنود السلطان المملوكي بالمصاقبة على طول السـاحل الفلسطيني ، وقدموا لهم التموين ، وبذلك ساعـدوهم على سحق المغول وطردهم من سورية (١٢٦٠ م) .

وحاول المغول أن يعقـدوا من جـديـد التحـالف مع الغرب . وكانوا يرغبون باستئناف النزاع ضد المماليك ، وأرسل أرغون (١٢٨٤ ـ ١٢٩١ م) ، أحـد خلفـاء هولاكو في خانة فارس ، إلى البابا هونوريوس الرابع رسالة في (١٢٨٥ م) يقترح فيها عليه هجومـاً مشتركاً على سوريـة وتقسيم البلاد بين المغول والفرنجـة . ولـدعم هذه المقترحـات ، أرسل ، في ١٢٨٧ م ، ربـان صومـا في سفـارة . ووقف الراهب النسطوري أولاً في القسطنطينية ، حيث استقبلـه الإمبراطور أنـدرونيـك الثـاني بكثير من الاعتبـار والإكرام ؛ ثم ذهب إلى عـدة مـدن كبرى في الغرب : رومـا ،

جنوه ، باريس ، وبوردو حيث يقيم ملك إنكلترا إدوارد الأول . وفي كل مكان ، استقبل بجفاوة ، حتى أن البابا نيقولا الرابع قبله في الاحتفال بسر القربان المقدس في كنيسة القديس بطرس . ولكنه لم يستطع الحصول على أي اتفاق عسكري واضح . وأرسل سفراء آخرون في السنوات التالية لدى البابا ، والملك فيليب الجميل ، وعادوا أدراجهم مكتفين بمجاملات تشريفية . وفاتت آخر فرصة على الغرب لسحق الأتراك المسلمين .

وعند المسيحيين ، ترك المثل الأعلى للحملة الصليبية أكثر فأكثر للبعثات التبشيرية . وانطلاقاً من آخر القرن يرى أن الفرنسيسكان الذين يذهبون إلى الشرق الأقصى كانوا مهتمين بالتبشير بالمسيحية . فقد انطلق ، في ١٢٨٨ م ، جان دو مونتوكورڤينو واستقر في بكين ، حيث شاد كنيستين وباشر بترجمة سفر المزامير . وفي ١٣٠٧ م ، أصبح رئيس أساقفة كامبالوك . وفي ١٣١٤ م ، وصل فرنسيسكاني آخر ، اسمه أودوريك دو بوردونون إلى بكين وأقام فيها ثلاثة أعوام بعد طواف عظيم في جنوب ـ شرقي آسيا . وبالرغم من أن بعض السكان اعتنق المسيحية ديناً ، فلم تتأصل المسيحية بصلابة في الشرق الأقصى ، حتى أن رد الفعل العنيف القومي ، الذي تبع سقوط مملكة يوان المغولية ، أفسد بعض النتائج التي حصل عليها التبشير الفرنسيسكاني بالإنجيل .

وساعد تأسيس الإمبراطورية المغولية أيضاً على توطيد الدورات الكبرى في المبادلات ، مع الشرق الأقصى ، بعد أن انقطعت جزئياً منذ آخر العصر القديم . وعقد السوق الصيني من جديد علاقات وثيقة مع الأسواق الهندية والماليزية ، وانطلقت السفن الصينية تبحث في جاوا وسيلان عن التوابل ، وفي الهند عن الحرير الموسيلي والأنسجة القطنية ، وتأتي إلى مواني جنوب شرقي آسيا بجرائر الصين . وبالطريق البرية ، عقدت المبادلات بين فارس المغولية التي تبيع سجادها ، وأملاحها ، وبين الصين التي تجهز بالحراير والبورسولين . وكان التجار

المسيحيون يختلفون أكثر فأكثر بأعداد عظيمة إلى المواقع التجارية في الصين، وشكلوا، لكسب الشرق الأقصى، قوافل تنطلق من سواحل البحر الأسود، وتسلك طريق الحرير القديم عبر آسيا الوسطى. بيد أنهم كانوا في الغالب يختارون الطريق البحري. فبعد اجتياز إيران، يبحرون للصين من ميناء هرمز. وفي العودة يأخذون من جديد الطريق نفسه. وبعد نقل بضائعهم عبر إيران يصلون إلى الموانى المسيحية مثل طريزون. وهؤلاء التجار المسيحيون إيطاليون في معظمهم. والجنويون منهم أقاموا وكالات في القرم، في تانا وفي كيفا، ومستعمرات تجارية في الهند، وتركستان، والصين. وكان البنادقة أيضاً حاضرين على طرق الشرق الأقصى. وأشهرهم الأخوان پولو، نيقولو وماثيو پولو، وعندما غادرا القسطنطينية في ١٢٦٠ م لأجل جولة آسيوية، كانا ينويان الذهاب إلى روسيا الجنوبية وتركستان فقط. وعندما كانا في طريق العودة، قررا أن يتبعا السفارة التي أرسلها خان فارس هولاكو إلى الخان الأعظم كوبيلاي، فاستقبلها هذا الأخير بحفاوة وكلفهما بأن يذهبا ويطلبا من البابا مئة دكتور عالم في الفنون السبعة. وأخفق التاجران البندقيان في مهمتهما هذه، ولكنهما قررا العودة إلى الصين. وفي هذه المرة جاء معهم ابن نيقولو الشاب، ماركو (١٢٧١ م)، وزاروا القسم الأعظم من آسيا الوسطى؛ وفي الصين نفسها كلف الإمبراطور كوبيلاي ماركو بولو بعدة مهمات إدارية قادته عبر أقاليم المملكة. وعندما أبحر البنادقة الثلاثة لأوربة في ١٢٩١ م، كان ماركو پولو قد حصل على معلومات عديدة عن آسيا الوسطى والشرقية كلها، وجمعها في كتاب أعطاه النساخ القدامى عنوانين مختلفين (حديث العالم) أو (كتاب العجائب).

وهذه الرحلات الكبرى التي قام بها تجار ومبشرون حضت حبّ اطلاع الأفكار في الغرب. واستيقظ تذوق للغريب، أي تذوق مآتي الأجانب: وذلك أن البلاد البعيدة بعالم نباتها وعالم حيوانها الغريبين المخالفين للمعتاد، وبالغيلان

التي تكثر منها قصص الخرافات التي جمعهـا المكتشفون حسب أذواقهم ، استحوذت على خيال الفنانين . فعلى لوحة جبهة كنيسة ڤيزليه مثلوا كائنات بشريـة غريبـة ذات آذان ضخمة . وعن التنينات والحيوانات الخرافية في الشرق ، اقتبس الخيـال الغربي طواعية ، رؤاه المؤذية الضارة . فالشيطان بـأجنحـة الخفـاش هو من أصل صيني . ولكن حبّ الاطلاع هو أيضاً من نوع علمي ؛ فبفضـل الـدلالات ، التي جمعها الرحالـة ، بـدئ برسم خرائـط أكثر دقـة عن البحر المتوسـط والبحر الأسود وجواريها ؛ حتى أن الأفكار الجريئـة خطر ببـالها إيجـاد الطريق الـذي يوصـل مباشرة إلى كنوز آسيا الأسطورية . ولم يكن عصر الاكتشافات عنها ببعيد جداً .

القسم الثاني

تاريخ العصر الوسيط في أوربة

القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر

الفصل الأول

العوالم الشرقية
في القرنين الرابع عشر والخامس عشر

المقدمة :

لقد حول إنشاء الإمبراطورية المغولية في القرن الثالث عشر بشكل جذري علاقة القوى بين الشرق والغرب . ففي دور قصير نسبياً ، ثلاثة أرباع القرن ، مدّ الصرح السياسي ، الذي شاده جنكيز خان وخلفاؤه المباشرون ، جسراً بين أوربة وآسيا يساعد ، بين هذين الجزأين من العالم ، على عودة العلاقات المباشرة ، وما رحلة ماركو پولو وسفارات المبشرين الفرنسيسكان إلا شاهداً على ذلك ومن أعجب الشواهد وأكثرها تأثيراً . ومن جهة أخرى ، إن المغول ، الذين امتدت هيمنتهم على بلاد مختلفة الإيمان جداً ، وكانوا قريبين إلى ديانات متنوعة ، ما كانوا ليهتموا بانتصار دين على الأديان الأخرى . وكان لموقفهم من الإسلام والمسيحية دلالته في هذا الاعتبار . وبالرغم من أنهم كانوا سادة جزء عظيم من البلاد الإسلامية ، فلم يشجعوا بصورة منظمة تقدم الإسلام إلا ربما في روسيا الجنوبية . كما إن توحيد آسيا تحت سيطرتهم لم يخدم بخاصة توسعاً جديداً للإسلام ، وما حصل هو استقرار بل وحتى تراجع لحدود العالم الإسلامي في القرن الثالث عشر . وبالمقابل إن المسيحيين ، الذين علقوا آمالهم على حلف مع الدولة المغولية لتطويق المسلمين (الكافرين) وسحقهم ، قد خاب رجاؤهم بسرعة . وفي الحقيقة ، لقد تأسست عدة أسقفيات إرسالية من البحر الأسود إلى الصين ، ولكن

المغول ، عبر غاراتهم في آسيا الوسطى ، كانوا يقتلون العديد من المسيحيين ولا يألون جهداً في النهب والسلب والخراب والتدمير .

وهكذا فإن الدولة ؛ الفوقمية (الفوق قومية) أو للقول (الفوق - دينية) ، الإمبراطورية المغولية ، تفتتت في آخر القرن الثالث عشر ؛ وإن تجزئتها وضعف الخانات الذي نجم عنها يسجلان منعطفاً جديداً في العلاقات بين الشرق وأوربة المسيحية . فقد انقطعت الطرق العابرة للقارات ، وأغلقت آسيا من جديد في وجه الغربيين ، وانطوى الشرق الأقصى على نفسه . وهذا الانطواء لبلاد الشرق الأقصى بخاصة ، الذي امتد حتى منتصف القرن التاسع عشر ، حادث من الحوادث العظمى في التاريخ العالمي . وأهم من ذلك أيضاً ، بالنسبة للغربيين ، يقظة التوسع الإسلامي انطلاقاً من القرن الرابع عشر . وبسعة وضخامة هذه الفتوحات ، وما نجم عنها من صبأ ، كان تقدم الإسلام ، في آخر العصر الوسيط ، شبيهاً بالتقدم الذي عرفه في سياق القرنين الأول والثاني من العصر الإسلامي . ففي آسيا الوسطى أسلم المغول ، وإن كان إسلامهم هذا يحتوي على نقاط ضعف كثيرة . وفي اتجاه الشرق والجنوب ، كان الإسلام على يد الفاتحين أو التجار ، في الهند الجنوبية وفي أندونيسيا ، وفي إفريقية السوداء . وأخيراً أدخل الأتراك العثمانيون الإسلام إلى أوربة الشرقية التي وقعت في أيديهم ، إلا بلداً واحداً في شمال - شرقي أوربة ، وهو روسيا الموسكوفية التي ورثت عن بيزنطة الحضارة الإغريقية والديانة المسيحية الأرثوذكسية .

١ ـ الشرق الأقصى

الصين

لم تكن بلاد الشرق الأقصى بالنسبة لعواهل المغول ، في القرن الثالث عشر ، غير إقليم من أقاليم إمبراطوريتهم الواسعة . وكانت الصين نواتها ، ومنها انطلقت حملات كثيرة لفتح اليابان وشبه الجزيرة الهندية ـ الصينية وأندونيسيا .

إمبراطورية اليوان الصينية ـ المغولية

عند وفاة الخان الأعظم كوبيلاي (١٢٩٤ م) تجزأت إمبراطورية المغول إلى خانات مستقلة . وأصبحت خانة الصين آنذاك من جديد إمبراطورية صينية مستقرة . وعندما ترك كوبيلاي العاصمة القديمة كاراكوروم وأصبحت بكين العاصمة الحديثة ثبت عاهلاً لإمبراطورية صينية . أما خلفاؤه الذين لم يستطيعوا السيطرة على كل المتلكات المغولية فقد تصينوا أي أصبحوا صينيين بسرعة . وأخذت سلالتهم الاسم الصيني يُوان .

وهذه الإمبراطورية الصينية ـ المغولية تماسكت أيضاً خلال ثلاثة أرباع القرن بمجد وعظمة ، وامتد الإشعاع السياسي للعاصمة الجديدة إلى كل آسيا . وكانت تتدافع على العاصمة بكين رعايا الإمبراطور من مغول وصينيين منضمين إلى النظام ، وأتراك رحل تصينوا كثيراً أو قليلاً باستقرارهم في شمال البلاد . وأقبل عليها تجار وعلماء مسلمون أتوا إليها من الشرق الأوسط ، ورهبان بوذيون من الهند أو من التيبت ، ورحالة أو إرساليون مبشرون جاؤوا من الغرب البعيد . ووزع الإمبراطور الإقطاعات والأوقاف الخاصة والوظائف الإدارية على كل من

تعهد بالولاء والوفاء مهما يكن جنسه أو دينـه . وأصبحت المـدن الصينيـة الكبرى أكثر من أي وقت مضى مراكز تـوزيـع للتجـارة العـالميـة الكبرى التي أفـادت من إعادة إصلاح الطرق والقنوات الذي قـام في عهـد كوبيلاي . وفي مـانزي (الصين الجنوبية) سيطرت هانغ ـ تشيئو ، وتسيوان ـ تشيئو على تجـارة بحـار الجنوب . وفي الخطاي (إقليم الخطا) أي الصين الشمالية كانت الطرق القاريـة تتجـه صوب بكين . وأخيراً تتابع النشاط الفني والفكري تحت النفوذ المغولي . وبني الكثير من العمائر ، وأنجز تزيين بكين . إلا أن السلالـة المغوليـة بقيت قليلاً من الـزمن ، ولم يطل عهدها جداً لتولد أسلوباً جـديـداً . فقـد سيطر تقليـد سلالـة آل سونغ على الإنتاج الفني . فمن ذلـك أن الرسـام مونغ ـ فو (١٢٥٤ ـ ١٣٢٢ م) ، الـذي والى النظام ، كان يحيط رسومه بالضغـط على ظل الفرسـان والخيول المغوليـة ليعطيـه لوناً أشد عمقاً . وبتذوقه لقيم حسن الخط هيأ على صعيد الرسم بـالحبر أكبر حركـة تجـديـد في المنظر . وفي فن الخزف مـدد عصر اليوان طرق تسونغ ، ولكنـه أدخل استعمال اللـون الأزرق (الإسـلامي) والأحمر النحـاسي . وبصـورة عـامـة شجـع ازدهار التجارة الإنتاج وتصدير الخزف (البورسولين) الصيني ، وكذلك السجـاد والحرائر . وعلى صعيـد الأدب ، وجـد فنٌّ ظـل حتى ذلـك الحين محتقراً ، ولكنـه اكتسب صفة النبل والتقدير ، ألا وهو (فن المسرح) . ولما ألغي نظام الامتحـان لسوق الموظفين ، اتجه كثير من المثقفين عندئذ بسبب البطـالـة نحو تـأليف القطع المسرحية .

وعرفت الرواية ، هي أيضـاً ، نجـاحـاً عظيمـاً . ووجـدت منـذ زمن طـويل رواية القصص التاريخية التي تتناقل شفهيـاً . وفي القرن الرابع عشر حررت هـذه القصص ونظمت في مجموعتين تؤلفان الروايتين الصينيتين الأوليين اللتين مـازالتـا شعبيتين حتى أيامنا هـذه أكثر من غيرهمـا ، وهمـا : (روايـة الممالـك الثلاث) ، و (رواية حافات الماء) .

وإلى هذه اللوحة المشرقة من حياة الصين في فاتحة القرن الرابع عشر التي وصفها لنا الرحالة الغربيون المعجبون بها ، يجب أن نضيف بعض الظلال التي تسمح بفهم الانهيار المبكر للسيطرة المغولية . إن أورديريك دو بوردينون مثل ماركو پولو نفسه تطورا غالباً في الأوساط المحظية في البلاط أو البورجوازية التجارية . وبهرا ببذخ هذه وغنى تلك دون أن يدركا أن الجمهور الصيني كان يتقاسم مصيراً آخر مختلفاً . لقد كان الفلاحون دوماً فقراء وتسحقهم الضرائب . وإذا هاجمهم الجوع فكيف لا يتجه غضبهم عندئذ ضدّ سادتهم الأجانب ؟ لقد صحب النهوض العجيب للتجارة تضخم نقدي أصبح مع الزمن خطيراً . وكانت السلالة المغولية غير مستقرة بصلابة في البلاد ، وأبقى العواهل على دعم الإدارة الصينية . ولكن الجهاز المغولي قليل كثيراً جداً وغير مؤهل بشكل جيد للوظائف الإدارية . ولذلك ترك اليوان الإداريين الصينيين في مكانهم ، وأطروهم بموظفين صينيين مختارين من بين أجانب عن البلاد : أتراك ، إيرانيين ، عرب . وماركو پولو نفسه شغل وظائف إدارية . وكثير من هذه الكوادر تصينت ولكن وفاءها لا يطمأن له . وبالمقابل ، كان الجيش مؤلفاً على سبيل الحصر من المغول واقتصر حمل السلاح عليهم ، أما القوات العسكرية القليلة العدد كثيراً جداً فكانت موزعة في حاميات منفصل بعضها عن بعض بمسافات كبيرة . وفقد الجيش نظامه متخلياً عن حياة الترحال القاسية التي كانت بالنسبة له تدريباً دائماً . وأخيراً ، إن خلفاء كوبيلاي في معظمهم كانوا غير أكفاء لمواصلة عمله . فقد استسلموا لحياة اللذائذ ، وانقسموا على أنفسهم بالمنازعات الأسرية . وبين وفاة كوبيلاي في (١٢٩٤ م) ووصول آخر عاهل مغولي طوغان تيمور (١٣٣٣ ـ ١٣٦٨ م) إلى العرش توالى لا أقل من ثمانية أباطرة يوان .

صين آل منغ القومية

انفجرت ، انطلاقاً من ١٣٥٢ م حركة عصيان في الصين الجنوبية ، في إقليم

هو ـ نان . فقد ثار الفلاحون الـذين هـددتهم المجـاعـة . ونصحهم المثقفون الـذين حرضـوهم على طرد المغـولي المحتـل ، ودعمتهم في حركتهم أمـوال الأغنيـاء الانتهازيين . فمن ذلك أن ابن فلاح ، تشو يوان تشـانغ ترأس الحركـة ، وحـذف جميع منافسيه ، واستولى دون صعوبة على نانكن ، ثم تقدم نحو الشمال ؛ ومـا كان من الحاميات المغوليـة المنقطعـة عن بعضهـا إلا أن استسلمت ، أو لاذت بـالفرار . وفي ١٣٦٨ م ، سقطت بكين في أيدي الثائرين ، ووصل العاهل اليواني فجـأة إلى منغوليـا .. وعنـدئـذ نودي بتشو يوان ـ تشـانغ إمبراطوراً تحت اسم هـوونـغ وو (١٣٦٨ ـ ١٣٩٨ م) ، وأقر نـانكن عـاصمـة لـه ، وأسس سلالـة صينيـة ، سـلالـة آل منغ التي حكمت حتى عام ١٦٤٤ م .

وتحت حكم أخـلافـه في القرن الخـامس عشر تـوطـدت في تـاريـخ الصين اتجاهات جديدة . ففي السياسة الخـارجيـة كان على هوونغ وو ، قبل كل شيء ، أن ينـاضل ، خلال الجزء الأعظم من حكمـه ، لطرد المغول نهـائيـاً . والإمبراطور يونغ ـ لو (١٤٠٣ ـ ١٤٢٤ م) كان أيضاً زعيماً عسكرياً عظيمـاً . وللحيلولـة دون عودة هجوم المغول ، قـاد شخصيـاً خمس حملات في منغـوليـا . ورمم سـور الصين العظيم بعنايته . وفي هذا المشهد الذي أعطاه إياه الترميم متوجاً بشرفـات ، يظهر في أيامنا . ثم عادت بكين القريبة من الحدود الشمالية عاصمة للبلاد .

واسترجعت الصين الشماليـة ، التي هجرت منـذ عصر تـانغ ، دورهـا منطقـة موجهة للإمبراطوريـة ، وجـذبت موجـة سكان كانت قـد انطوت نحو الجنوب في عهـد النفوذ الأجنبي . ولم يهمـل يـونـغ ـ لـو ، مـع ذلـك ، التـوسـع الصيني نحـو الجنوب : فبين ١٤٠٥ و ١٤٣٣ م انطلقت سبع حملات بحريـة طـوراً وطـوراً ضـد الهند الجنوبيـة ، وسيلان ، وأرخبيل الصونـد . وتغلغل الأسطول الصيني في ميـاه الخليج العربي ، وصاقب شاطئ إفريقيـة الشرقي . وقـامت حملات مشـاريع نهب بغية حصول البلاط على التوابل والعقاقير والتحف النادرة . وأقامت هذه الحملات

علاقات تجارية على طول طريق الجنوب ، وشجعت الهجرة الصينية في الأرخبيل الماليزي ، ولكن هذه السياسة الكبرى انتهت فجأة بوفاة يونغ ـ لو (١٤٢٤ م) ، واختار أخلافه السلام ، واكتفوا بحماية حدود الشمال ضد الهمل المغولي . ومنذ ذلك الحين انطوت الصين على نفسها . وتخلت بإرادتها عن كل حظ لتصبح دولة بحرية كبرى . وترك أسطولها ، المقيم في المياه الساحلية ، المحيط الهندي للعرب ، والمحيط الهادئ للقراصنة اليابانيين .

في السياسة الداخلية ، كان القرن الأول لإمبراطورية آل منغ مطبوعاً أيضاً بنقطة تحول هامة : فقد كان الأباطرة المنغ حريصين جداً على سلطتهم ، وأخذوا يديرون البلاد بمساعدة الخصيان . وكان هؤلاء من العوام ، وفي الغالب أولاد لقطاء ، وللسلطة آلات طيعة ، واهتم العواهل بإعطائهم تعليماً كافياً . وعلى هذا النحو فقد الموظفون المثقفون حصر التعليم ؛ حتى أنهم حذفوا من الإدارة . ولم يكن هذا دون مقاومة . وكانت البورجوازية التاجرة عديدة أكثر فأكثر ، ومنظمة في رابطة تعاون متبادل ، أي نظام الطائفة المهنية . ويبدو أنها دعمت حكم الخصيان لتلعب دورها السيء على طبقة المثقفين .

وعلى صعيد الفكر والفنون ، يعبر عن وصول أسرة آل منغ إلى العرش أيضاً بانطواء الصين على نفسها ، وبظفر الاتجاهات المحافظة ، ومنع الفرق التي أدخلها الأجانب الواحدة بعد الأخرى وفرض الكونفوشيوسية من جديد مذهباً رسمياً . ثم قام جهد يرتبط به اسم الإمبراطور يونغ ـ لو لجمع كل مؤلفات الأدب الصيني القديم في مكتبة واسعة . وفي الإنتاج المعاصر ، عرفت الرواية والمسرح عصرهما الذهبي ، بفضل ذوق البورجوازية الصاعدة . فمن ذلك أن مؤلفين انتهوا من وضعهم كتابة (مسرد القصاصين القدامى) . وبلغ تنوع الموضوعات المعالجة حده الأقصى : قصص الرحلات ، والمغامرات ، والقصص العاطفية أو الواقعية . وقد وضعت بفن يجلب الانتباه وينشط حب اطلاع القارئ . وفي المسرح تغلب

كتاب الجنوب : فالقطع المكتوبة ، في القرن الخامس عشر ، كان بناؤها أقل صرامة من قطع عصر يوان . فقد أخرجت بطول عشرة فصول ، وبأسلوب متكلف متصنع جداً ، تسلسلات معقدة خصبة بطفرات غير منتظرة . ونما الجزء الغنائي ، وذلك بأن يعهد إلى عدة ممثلين لا إلى ممثل واحد بمقطوعات غنائية : ثنائية ، ثلاثية ، وكوارس تختلط بالحوار الكلامي .

وظهرت في الفن أيضاً عودة إلى تقاليد الأسلاف القدامى . فقد أمر يونغ ـ لو بتعمير بكين حسب مخطط هندسي يرجع إلى أقدم تقاليد الهندسة المعمارية الصينية : من ذلك بناء عدة أسوار مشتركة المركز تفصل المدينة الأرجوانية ، مقام الإمبراطور ، في الوسط ، عن المدينة الإمبراطورية ، الحي الإداري ، المنعزل نفسه عن أحياء السكن المحيطية . والأوابد المرممة أو التي أعيد بناؤها في القرن السابع عشر وفي القرن الثامن عشر ، حافظت حتى أيامنا على مشهد عاصمة آل منغ بسقوف الآجر المسطح والأعمدة المصبوغة باللك الأحمر ، وتزيينها الثقيل قليلاً ، منقوش في الحجر أو الخشب . وأنتج فن آل منغ باحتكاكه بالفن الأكاديمي ، آثاراً عظيمة في القرن الخامس عشر ، في الرسم وفي الخزف . ففي الرسم ازدهرت في سو ـ تشيئو مدرسة وو . وفنانوها ، ولا سيما ألمعهم شن ـ تشيئو ، كانوا منظري الفن الصيني القديم . وإذا بحثوا عند كبار أسلافهم عن موضوعات وطرق ، فلم يكتفوا بتطبيق وصفات فنية مستوردة ، ولكنهم عرفوا كيف يتفننون بتغيرات شخصية فنية عالمة خاصة بهم . وتأسس معمل إمبراطوري لفن الخزف في آخر القرن الرابع عشر في كنغ ـ تو ـ تشن في الكيانغ ـ سي . وخرجت منه قطع فنية أكثر كثافة من خزف سونغ أو تانغ الأنيق . وظلت الألوان جميلة جداً أيضاً . وظفر في ذلك الحين : (الأزرق والأبيض) ؛ والتزيين على أساس فلذ الكوبلت كان يرسم على مينا شفافة . ولا شيء ينبئ بفقر التقنيات والموضوعات التي سيشكو منها فن آل منغ انطلاقاً من آخر القرن السادس عشر .

جيران الصين

بالرغم من أن العواهل المغول في بكين مازالوا يؤكدون حقوقهم على بلاد الشرق الأقصى التي تعتبرها السياسة الصينية تابعة لها تقليدياً ، فإن سفاراتهم وحملاتهم العسكرية قد منيت فيها بالخيبة نهائياً .

اليابان

وكانت هذه بخاصة حال اليابان . فقد عرف الوصي هوجو خلال مرتين ، في ١٢٧٤ م وفي ١٢٨١ م ، كيف يقاوم جيوش المغول التي أرسلها كوبيلاي . وهذه الهجومات المغولية كان من نتيجتها زعزعة شجونة كاماكورا نهائياً . واستطاع هوجو بهذا النصر أن يكون شعبياً أي متمتعاً بمحبة الشعب . ولكنه لم يقدر على مكافأة المحاربين الذين ساعدوه ؛ ولأول مرة في التاريخ العسكري الياباني كان المغلوبون أجانب أتوا من ماوراء البحار ؛ ولم توضع على بساط البحث قضية مصادرة أراضيهم لتوزيعها على الغالبين . وهكذا نما استياء أصم عند الأمراء اليابانيين ، الذين تشجعوا بعدم الكفاءة السياسية التي كان عليها خلفاء هوجو . ولذا ، عندما اعتلى العرش في ١٣١٩ م الإمبراطور القوي غو ـ دايغو (١٣١٩ ـ ١٣٣٨ م) وقرر إرجاع السلطة الإمبراطورية ، قام عدد من الأمراء ، مثل زعيم حزب الآشيكاغا القوي ، وتحزبوا للسلطة الشرعية ضد دكتاتورية الشوغون العسكرية . وإثر حرب مدنية طويلة ، سقط كاماكورا في ١٣٣٣ م في أيدي أنصار الإمبراطور . وكان هذا النصر عابراً بالنسبة للسلطة المدنية : لأن اليابانيين اعتادوا جداً على دكتاتورية الجيش ، ولأن كبار الإقطاعيين نمّوا جداً قدرتهم ، ولم يكونوا على استعداد لقبول الخضوع للسلطة الإمبراطورية . وبعد ثلاثة أعوام على نصر غو ـ دايغو ، قامت الحرب المدنية من جديد بين الأمراء الجشعين لكسب أكبر نصيب ممكن من الغنيمة . وأخذ هذا الخلاف الجديد صورة مقاومة بين الشمال الخاضع للمتمردين ، والجنوب حيث التجأ العاهل الشرعي .

وتنازل هـذا أخيراً عن العرش . ورفع البيت الإقطـاعي في حزب الأشيكاغـا ، في شخص زعيمه تاكوجي ، على العرش إمبراطوراً لم يكن غير اسم مستعار ، ومـارس البيت الإقطـاعي السلطـة الحقيقيـة وتصرف بلقب الشـوغـون الـوراثي . وامتـد الانحاء الإمبراطوري عندئذ حتى ١٨٦٨ م ، وظلت السلطـة الشوغونيـة في أيـدي الأشيكاغا حتى ١٥٧٣ م .

لم يستطع الشوغـون الجـدد منـع اليـابـان من الألم الـذي أصـابهم من تجـزئـة إقطـاعيـة لصـالح الـدايميـو . إلا إنهم نجحـوا في الحفـاظ على سـلام نسبي في القرن الخـامس عشر . واستؤنفت العلاقـات التجـاريـة مع صين آل منغ ومع كوريـا . وبفضل هذه الاتصـالات امتزجت البوذيـة زين بـالكونفوشيوسيـة ـ الجـديـدة . وكان الشوغون ولعين بتذوق الحيـاة النـاعمـة والبـذخ منهم بـالفضـائل البوذيـة . ولذلك حموا الفنون والآداب ، فيا ظل رسامو مدرسة توزا يمثلون مشاهد تقليدية من الأسطورة أو التاريخ القومي . فقد أنتج رسامو المناظر مثل سسشو وسيسّون وسوآمي ، على مثال الأسـاتـذة الصينيين ، روائع حقيقيـة . وانطلاقـاً من القرن الخامس عشر ، تألفت أيضاً درامة نو الغنائية : فالرقصات القديمة المقدسـة ، التي كانت تمثل بالإيماء الأساطير اليـابـانيـة ، تضـاعفت فيهـا بحوار . وهكـذا أخـذت الثقافة اليابانية الحديثة تتحضر وتهيأ ببطء .

شبه جزيرة الهند الصينية

إن شبـه جزيرة الهنـد الصينيـة التي لم تستطع حمـلات المغـول أن تخضعهـا ، كانت في سياق الرابع عشر والخامس عشر مسرحاً لتقلبـات عميقـة . فقـد أخـذت البلاد قليلاً قليلاً شكلها العرقي والسياسي الحديث . والحادث الأسـاسي كان انهيـار القوة الخميريـة وأفول الحضـارة الأنغكوريـة . وفي الأصل فرضت سيـاسـة عواهل بداية القرن الرابع عشر : عُبّاد شيڤا الذين اضطهدوا البوذيين رغم أنهم أكثر عـدداً في البلاد ؛ الأمر الذي أدى إلى انفجار ثورة سياسيـة ودينيـة في ١٣٣٩ م وإقـامـة

سلالـة جـديـدة . والملـك الجـديـد ، شـاي ، الـذي ظل حتى ذلـك الحين رئيس البساتين الملكية ، لم يستطع أن يزعم بأن له أصلاً إلّهياً : ولم يكن للعواهل صفـة مقدسة وسلطتهم ليست إلّهية (مشيئية) . ولذا ألغيت عبادة الملك ـ الرب نهائياً وحلت الهندوسية محل البوذية (الناقلة الصغيرة) التي أصبحت الديانة الرسميـة . وبصورة موازية لم تستعمل السنسكريتيـة وانقطعت لصالح البـالي التي أصبحت منذ الآن اللغة المقدسة .

لقد تجاوزت النتائج نتائج تغير أسرة بسيط : لأن الملوك ، الـذين ليسوا غير أموات بسطاء ، فقدوا جزءاً عظيماً من نفوذهم ؛ ومكايد القصر أخـذت تصنع منـذ الآن الأمراء وتخلعهم . وزالت المركزية الإدارية التي فرضها الملوك ـ الأربـاب ؛ ومعها أيضاً التنظيم العجيب للحياة الاقتصاديـة ، وبخاصـة الري الـذي يسـاعـد بفضل منظومـة الصهـاريج والأقنيـة والسـدود على توزيع المـاء بصورة عقـلانيـة والحصول على ثـلاثـة أو أربعـة محـاصيـل من الرز في العـام . وسقـط الإنتـاج إلى محصول واحد في العام . وجرّ هذا إلى سقوط ديموغرافي سريع . وفي البلاد المنهكـة ماتت الحضارة الأنغكورية .

وهذا الأفول الداخلي لكامبودج (كامبوديا) شجع تقـدم الطـائي المجتـاحين الغزاة . ففي القرن الثالث عشر نزل الطائيون من أطراف يونّان في تقـدم بطيء نحو الجنوب ، واستقروا في لاؤس وفي وادي مينان وأطلقوا اسمهم عليـه التـايلانـد (سيام) . ونحو الغرب ، بسطوا نفوذهم أيضاً على برمانيـا (بورمـا) . وفي ١٣٥٠ أقاموا عاصمتهم في أيوثيا ، غير بعيد من حدود كامبودج . وبدأ نزاع طويل الأمد عندئذٍ بين الطائيين وجيرانهم . وفي ١٣٥١ م ، نجح الملك السيـامي رامـاد هيبـاتي في الاستيلاء على أنغكـور ونفى معظم السكان كأرقـاء .و استقر فيهـا الطـائيـون نهائياً في ١٣٩٤ م . ولزم في هـذه المرة نصف قرن من المنـازعـات ليستطيع أنصـار الخمير الخلاص من الاحتلال الأجنبي (١٤٣٢ م) . ولكن العـواهـل الخمير رأوا من

العقل أن يهجروا أنغكور المعرضة جداً للخطر وأقاموا عاصمتهم في فنوم ـ بينه (١٤٣٤ م) . وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر . قام في الغالب مطالبون بالعرش طردوا إثر منازعات سلالية ودعوا السياميين لنجدتهم وأمسكوا بكامبودج في حالة نوع من محمية سيامية .

وفي الجزء الشرقي من شبه الجزيرة ، جاء شعب آخر أيضاً من الشمال ووطد نفوذه في سياق هذا الدور : وهو شعب أنّامي تونكن الذين كانوا منذ القرن العاشر يناوؤن الوصاية الصينية وشكلوا أول إمبراطورية فيتنامية مستقلة . وفي القرن الثاني عشر انطلق العواهل الأنّاميون في سياسة توسع وكانت مملكة شامبا أول ضحية . وقرب التهديد المغولي الشعبين خلال بضع سنوات . وفي ١٢٨٥ م هزمت جيوش كوبيلاي وعبرت الحدود من جديد . وهذا النصر ساعد الفيتناميين على استئناف سياسة الفتح باتجاه الجنوب . وفي آخر القرن الرابع عشر امتدت الفيت ـ نام حتى توران ومارسوا حماية على بقايا مملكة شامبا ، وفي القرن الخامس عشر دفع العواهل الأناميون حدودهم حتى جنوب رأس ڤاريللا .

لقد توطدت السيام والفيت ـ نام إذن ، في آخر العصر الوسيط ، دولتين مسيطرتين في شبه جزيرة الهند الصينية .

٢ ـ الإسلام في آسيا وإفريقية

لقد عاود الإسلام توسعه ، انطلاقاً من القرن الثالث عشر ، في جنوب آسيا وفي غربها . وأصبح هذان الجزآن منقطعين منذ الآن عن الشرق الأقصى وعن إفريقية .

ظهرت استعادة القوة بخاصة في البلاد الإسلامية التي أصبحت تحت حكم المغول . فقد اعتنق الفاتحون الإسلام تباعاً بعضهم إثر بعض ، وعملوا على نشره ؛ ومن هذه المناطق ، وعلى وجه الدقة البلاد الواقعة بين نهري سيحون وجيحون ، أي بلاد ما وراء النهر ، انطلق في آخر القرن الرابع عشر تيمورلنك وحاول أن يشكل من جديد إمبراطورية إسلامية كبرى .

أ ـ تفتيت الإمبراطورية المغولية إلى خانات مستقلة

إن نجاح الإسلام وانتصارات تيمورلنك تتضح أولاً بتجزئة إمبراطورية جنكيزخان . فقد شعر هذا قبل وفاته بضرورة تقسيم إدارة فتوحاته الواسعة بين أولاده . ولكنه احتفظ بسلطة الخانة العليا لصالح ابنه الثالث أوغوداي ، وظل إخوته تابعين له . وفي سياق النصف الأول من القرن الثالث عشر ، تراخت الروابط التي كانت تضم وتوحد أعضاء الأسرة الجنكيزخانية . وسبق أن أخذ كوبيلاي وجه إمبراطور صيني أكثر منه خاناً أعظم ، ولم يؤمن له هذا اللقب الأخير إلا سلطة اسمية على الخانات الآخرين . وكان أقربهم إليه خان تركستان وخان مونغوليا ، حيث يمكنه التدخل بالسلاح . وقد ثارا مراراً على وصايته .

أما خانا فارس وروسيا الجنوبية فكانا بعيدين ونجوا من سيطرته . وكانت الأطماع الأرضية والمقاومات السياسية أو الدينية ، بين الخانات الملحقين ، تثير في الغالب خلافات مسلحة . ولما كان الموجهون المغول منفصلين عن بعضهم بألوف الكيلومترات ، وباختلاف المصالح ، فقد شغلتهم شؤون الأوساط المحيطة بهم ، ولم يؤلفوا في الواقع إلا أقلية محتلين أمام كتلة أبناء البلاد الأصلاء . وعندما تتشكل هذه الكتلة في شعب له حضارته القديمة ودين أكثريته الإسلام ، كان مصير البرابرة المغول يؤول إلى الذوبان في الأوساط التي يوجدون فيها . ومن جهة أخرى ، كان في وسط الجيوش المغولية نفسها ، عدد كبير من الأتراك المنتمين إلى قبائل متخلفة بخاصة ، كالتركمان ، في شرق بحر الخزر ، الذين أسلموا وكانوا يشاركون المغول في حياتهم ويمارسون عليهم نفوذاً كبيراً أيضاً .

١ ـ خانة مونغوليا

بين مختلف الخانات الناجمة عن تفتيت الإمبراطورية المغولية ، لم تكن خانة مونغوليا لتمارس إلا حياة عابرة مؤقتة . فقد حاول كوبيلاي خلال حكمه إبقاءها تحت سيادته ، إلا أن رد الفعل القومي ، الذي رفع آل منغ إلى السلطة في الصين ، أرجع لمونغوليا استقلالها الذاتي لبضع سنوات . ولكن الأباطرة الصينيين جاؤوا يشعلون الحرب في البلاد ، وفقد سليلو كوبيلاي اللاجؤون في كراكوروم حظوتهم نهائياً مع الهزيمة . وعادت مونغوليا في آخر القرن الرابع عشر إلى الفوضى القبلية التي انتزعها منها جنكيزخان . وستتحمل الخانات الثلاث الأخرى ، القائمة في الغرب ، مصيراً مماثلاً .

٢ ـ خانة فارس

في ١٢٥١ م ، عهد مونغكا الأكبر لابنه الثاني هولاكو بنيابة الملكية في إيران . وأخذ هذا اسم إيلخان أي (الخان التابع أو النائب) الذي انطبق على

خلفائه . وقد تابع الإيلخانيان أباغا وأرغون ، في القرن الثالث عشر ، سياسة هولاكو الدينية . وكانا معاديين للإسلام ويحميان المسيحيين النساطرة في دولهما ويحاولان مع الغربيين عقد حلف ضد المماليك المسلمين . وفي آخر القرن الثالث عشر ، حدثت ثورة في السياسة الإيلخانية : وذلك أن ابن أرغون ، قازان ، الذي اعتلى العرش في ١٢٩٥ م ، دان بالإسلام وتحت إدارته أسلمت رسمياً دولة فارس المغولية . وتبنى المغول وضع العمامة على الرأس . وأخذت الحياة الدينية بسرعة عند هؤلاء المسلمين الجدد ، طابعاً صوفياً ، وأحاطت التقوى الشعبية بعض الشخصيات بهالة القداسة . وحاول الدراويش الدوارون والدراويش الصارخون ممارسات غريبة للاتصال بالذات الإلهية . وانفجر رد فعل إسلامي عنيف ، بالرغم من العاهل ، على ما يبدو ، ودمرت الكنائس المسيحية والكنس اليهودية والمعابد البوذية . ومزقت صور القديسين واضطهد الكهنة المسيحيون والكهنة البوذيون .

وعندما كان المغول يدينون بدين المغلوبين ، كانوا في الوقت نفسه يتبنون نوع حياتهم . وكان دور قازان في هذا الاعتبار حاسماً أيضاً . فقد حاول هذا العاهل القوي أن يصلح اقتصاد البلاد ، ولقي في هذا المضار مساعدة المؤرخ الفارسي الكبير رشيد الدين (١٢٤٧ - ١٣١٨ م) . ألف هذا المؤرخ « تاريخ المغول » ولعب دور وزير لدى العاهل . وظل الكثير من المناطق في حالة براح بسبب اجتياح الحرب وتدميرها . وسحقت سيطرة القبائل الرحل المزارعين الفرس .

حمى قازان الفلاحين والمزارعين ، وقام بأعمال عظيمة في البناء والعمران . ووسع المدن وبخاصة العاصمة توريس (تبريز) ، وغطاها بالعمائر العظيمة . وهكذا فإن المغول ، الذين لم يكن منهم إلا التدمير ، شرعوا في البناء والتعمير . وباختصار لقد استقر المغول في فارس ، وما لبثت نتائج هذا التطور أن ظهرت . وعند وفاة الخان أبي سعيد (١٣٣٥ م) كانت قوة المغول قد ضعفت وانهارت . وانقسمت الخانة إلى عدة إمارات مؤقتة في أيدي الأسر المغولية

الكبرى ، وبخاصة الإيرانية . أضف إلى ذلك أن بعض المناطق ، التي يسيطر فيها التركمان ، كانت ترجع إلى الفوضى القبلية . وبين هذه القبائل المتجمعة في اتحادات كونفدرالية ، كانت قبيلة الخروف الأسود شيعية ، وقبيلة الخروف الأبيض سنية ، في حرب عوان لا هوادة فيها . وأخيراً تركت الأناضول التركية لمصيرها الخاص . ومنذ ١٣٠٢ م ، انطفأت السلالة السلجوقية ، ولم يمارس فيها نواب الملوك المغول سلطتهم فيها إلا بصعوبة على الأمراء الأتراك ، مثل الكرماني في الجنوب الشرقي ، والعثماني في الشمال الغربي . وهذا الأخير بدأ نجمه السياسي في صعود بطيء ، ولكنه صعود ثابت وواعد .

٣ ـ خانة روسيا الجنوبية

إن الفوضى ، التي تخبطت فيها فارس المغولية ، أثارت أطماعاً جديدة في الخانات المجاورة ، وبخاصة في خانة القفجاق (كيبتشاق) . فقد شكل أحد أولاد جنكيز خان هذه الخانة الواسعة التي تغطي سهوب روسيا الجنوبية وتمتد نحو الشرق حتى تالاس . ووطد أيضاً سيادته على الإمارات الروسية في الشمال . وهذه الخانة التي أخذت اسمها من شعب قديم أقام في هذه المناطق ، القفجاق ، تسمى غالباً قبيلة الذهب . وهذا التعبير الأخير من فائدته أنه يشير إلى نقص التنظيم السياسي لهذه القبائل . وفي هذه المفازات الواسعة ، في الواقع ، كانت ترحل القبائل المغولية أو بالأحرى الجنود التركية التي تقودها عناصر مغولية . وتحت تأثير هؤلاء التركمان كان الخانات القفجاق ، المقيمون في ساراي ، على نهر الفولغا الأدنى ، أوائل الزعماء المغول الذين اعتنقوا الإسلام . وهذا الخيار يتضح جزئياً بضرورات سياسية : وهي أن الديانة الإسلامية ، التي فتحت هذه البلاد السهبية وأسلم العديد من أهلها قبل وصول المغول ، كان بإمكانها أن تؤلف نوعاً من مقوّ لوحدة الخانة الجديدة . وقد جذب الخان الجديد بركة (١٢٥٧ ـ ١٢٦٦ م) لبلاطه فقهاء مسلمين عجلوا بإسلام البلاد ونشره في ربوعها ، وكان حليفاً لحاملي

لواء المقاومة الإسلامية ، مماليك مصر ، حتى أنه حارب العواهل المغول في فارس عندما كان هؤلاء يضطهدون الإسلام . وفي بداية القرن الرابع عشر ، عرفت قوة خانات القفجاق كسوفاً ملحوظاً . وأفاد الأمراء الروس من هذا الضعف للخلاص من المغول . غير أن توكتاميش القوي عندما وصل إلى السلطة في ١٣٧٨ م قلب الحالة ؛ ووضع الروس من جديد لأكثر من قرن تحت سيطرة قبيلة الذهب . ويبدو أن توكتاميش فرض نفسه زعيماً للجنكيزخانيين ، وقادراً على إعادة بناء إمبراطورية أجداده في عصر وقعت فيه خانات إيران ومونغوليا في الفوضى . ولكن وقفت ، أمام أطماع الزعيم المغولي ، قوة فاتح تركي جديد خرج من خانة جاغاتاي القديمة وهو تيمورلنك .

٤ ـ خانة تركستان

هذه الخانة الأخيرة كان جنكيزخان عهد بها إلى ثاني ولد له وهو جاغاتاي البطل الذي أعطى اسمه للخانة التي تنطبق على المنطقة التي أطلق السكان الأتراك اسمهم عليها وهي **التركستان** . ولكن المغول لم يكن عندهم تقليد سياسي يقدم إطاراً لسيطرتهم ، ولذلك لم يؤسسوا دولة حقيقية في هذه المنطقة . وكانوا يفهمون قليلاً فائدة الاقتصاد المدني . حتى أن الخان **بَرَق** لم يتردد ، للحصول على موارد ، في نهب المدن التي كانت تابعة له ، مثل بخارى وسمرقند ! ومع ذلك فحتى منتصف القرن الثالث عشر ، كان الموجهون المغول ، تحت وصاية الخانات العظام ، يطبقون سياسة متسامحة ، ونجحوا في صيانة سلطتهم . وتغير كل شيء عندما قرر بَرَق ، في ١٢٧٠ م ، اعتناق الإسلام ، وقلده في ذلك رجاله . وعندئذٍ ذاب الفاتحون المغول في كتلة أبناء البلاد الأصلاء المسلمين ، وأفلت سلطة الخان لصالح سلطة الإقطاعيين الأتراك ، ووجد في عدادهم أمير من بلاد ماوراء النهر (ترانزوكسيان) ، **حاجي بارلاس** وابن أخيه تيمور . غير أن حزباً مغولياً من منطقة الإيسيق كول حاول أن يناضل ضد هذا التطور ورفع إلى السلطة خاناً

جديداً ينتمي إلى الأسرة الجنكيزخانية أيضاً ونجح هذا الزعيم توغلوك (١٣٤٧ ـ ١٣٦٣ م) في وضع جاغاتاي كلها من جديد تحت نفوذه . وخضع له الأمراء الأتراك . وبين هؤلاء ، عرف تيمور كيف يجذب انتباه السيد المغولي ويكسب ثقته ، حتى أنه وضعه بصفة مشاور لدى نائب ـ ملك بلاد ماوراء النهر ، ابنه الخاص . وهكذا بدأ الصعود السياسي لتيمور المعروف باسم تيمورلنك (تيمور الأعرج) الذي ذاع ذكره على مدى الأجيال تحت هذا الاسم .

مشروع تيمورلنك الدموي

أ ـ مزيج من الفظاظة والنعومة

ولد تيمورلنك في تركستان في كيش ، في الجنوب من سمرقند ، في ١٣٣٦ م . كان تركياً من أسرة نبيلة . ولأسباب سياسية حاول مؤرخو حياته تقديمه سليلاً لجنكيزخان . وكشف أول عمل عام له ، بخضوعه للخان توغلوك ، وهو في سن الخامسة والعشرين عاماً ، أن الانتهازية الخالية من كل وسوسة ضمير لا تنقصه . فقد ساعدته على حذف عمه ، وأصبح أمير كيش مكانه ، ومن ثم احتل مكاناً مرموقاً في الإدارة الجاغاتية . ولكن طموح تيمورلنك كان واسعاً لا يقف عند حد . وما لبث أن قطع علاقته مع الخان وقام بمساعدة أمير بلخ وكابول ، ميرحسين ، عديله ، بتشكيل جيش له . وترافقا معاً وجابا فارس ، وأفادا من منازعات العواهل المحليين ، المدعين بالسلطة لسوق جيش من المرتزقة لخدمة هؤلاء وأولئك . ثم ضخما عدد جنودهما عن طريق تطوع جنود جدد من أفغانستان ، حوذة حسين . وفي معركتين أصبح تيمورلنك وحسين سيدي بلاد ماوراء النهر التي انتزعاها من السيطرة المغولية في ١٣٠٣ م . وأعطى الزعيمان الفاتحان لنفوذهما ظاهراً من الشرعية ، ورفعا إلى السلطة أميراً من جاغاتاي ، أفادهما ستاراً حكما من ورائه . وما عتم الشقاق أن ظهر بين الشريكين : كانت ممتلكات حسين أهم من ممتلكات تيمور ، ولذلك قدر أن السلطة تعود إليه بحق .

فثار تيمورلنك ، ولكنه اضطر إلى الفرار ، وانتظر من جديد فرصة مناسبة . وانتهى بعقد ميثاق مع الخان المغولي ، ابن توغلوك ، الذي كان قد بحث عن ملجأ له في منطقة إيلي ، وعرض عليه أن يضع نفسه على رأس جيشه لاستعادة بلاد ماوراء النهر . فخاف حسين بدوره ، واقترح مصالحة مع تيمورلنك . فقبل هذا برياء كوميدي . ولما حان الوقت المناسب ، حاصر منافسه في بلخ ، واستسلم حسين . ولكن تيمورلنك ، تكرم عليه وأنقذ حياته ، كما يقص التاريخ الرسمي (السفرنامة) . ولكن حاشيته (على غير علم منه) ذبحت الفارّ . وفي ١٠ نيسان ١٣٧٠ م ، نودي بتيمورلنك ملكاً على بلخ ، وأصبح سيد الموقف .

هذه البدايات تذكر بشباب جنكيزخان . وقد أعلن تيمورلنك أنه متمم ووارث له . وفي الواقع ، إن الرجلين يختلفان تماماً بطبعهما وبمفهومهما للسلطة . كان الزعيم المغولي موهوباً بحس فطري للفن العسكري ، ومحارباً شرساً فظّاً ، وماكراً محتالاً . وفظاعته فظاعة بربري بردود فعل بدائية تخرب وتدمر كل ما تجده في طريقها دون رحمة ، ودون ضير . أما تيمورلنك فكان أكثر تعقيداً ، وحصيلة تمازج بين الهمجية التركية ونعومة الحضارة الإيرانية ، وجندياً مفعماً بالحماسة ، ولا يتردد في الكفاح والوقوف في الصف الأول لجيشه ، وزعيماً مجرباً وعاقلاً يعرف كيف يتراجع وحتى يهرب عند اللزوم ، عندما يشعر بأنه مغلوب . ولكنه في الوقت نفسه كان رجلاً مثقفاً وهاوياً للأدب الفارسي يسره أن يحيط نفسه بالفنانين والكتاب . ومع ذلك لا يشفي غليله إلا عندما يحرق المدن ويقتل سكانها ويكدس رؤوسهم في أبراج ضخمة عظيمة . وهو مسلم تقي يحب النقاش مع فقهاء الشريعة ويعتبر نفسه محامياً عن الإسلام ، ولكنه لا يوفر العالم الإسلامي من التدمير . وهذه الإرادة ، في التخريب المنظم ودون مقابل ، تجعله يختلف أيضاً عن الجنكيزخانيين . وفي الحقيقة ، لقد ارتكب هؤلاء الكثير من الشراسات وأعمال التخريب ، ولكن ذلك لم يكن منهم عن تعصب ديني أو عن تذوق مذابح

مجانية . لأن جنكيزخان وخلفاءه من بعده كانوا يستعيضون عن كل ما هدموه وخربوه بإنشاء إمبراطورية واسعة . وهذه لم تكن حال تيمورلنك .

ب ـ الفتح الفوضوي

إن الصفة السلبية والمدمرة لعمل تيمورلنك تظهر بوضوح من عدم تلاحم المشاريع العسكرية ومن عدم إنجاز الفتح ، كغياب البناء السياسي . وعندما يتخلص من منافسيه ويستولي على المنصب الأعلى ويمكنه أن يعلن نفسه خاناً أعظم ، كان يكتفي بأن يبقى زعيم عصابة . ونراه انطلاقاً من ١٣٨٨ م يعطي لنفسه شهرة دينية بتسميته سلطاناً . ولكنه لم يجرؤ ولن يجرؤ على التخلص من الخانات الشرعيين ، من هؤلاء الجاغاتاي ، اللعب ، الذين يخدمونه كستار : إن كل الفرمانات الصادرة عن الحكومة التيمورية كانت موقعة بأسماء أعقاب هذه السلالة الشهيرة . أما حملات الفتح التي خولت هذا الزعيم التركي شهرته المشؤومة ، فتعطي انطباعاً لفاعلية مضطربة ينقصها الوضوح في الأفكار : فقد انتقل تيمورلنك دون خطة موضوعة من شواطئ نهر الفولغا إلى سورية ، ومن أزمير إلى وادي نهر الغانج ، مدخلاً حملة غزو في روسيا بين حملتين فارسيتين ، وحملة في آسيا الوسطى بين غارتين في القوقاز . وعلى هذا النحو لا ينجز أبداً فتح بلدٍ بالتمام والكمال ، وإخضاعه نهائياً ، بل يقوم فيه بمذابح إجرامية ، ومنه إلى بلد آخر . ولذا كان يبدأ من جديد ودون انقطاع بفتح المنطقة نفسها : مرتين في روسيا ، ثلاث مرات في فارس ، سبع مرات في بلاد نهر إيلي ، أي بلاد آسيا الوسطى .

ولوضوح الرؤية ، على المؤرخ أن يحاول تصنيفاً جغرافياً للعمليات انطلاقاً من المناطق المجاورة لبلاد ماوراء النهر لينتهي بالحملات البعيدة . وكان تيمورلنك يدخل في حسابه في الشمال الغربي مملكة خوارزم (بلاد كيفا) ، المجرى الأدنى

لنهر سيحون (أموداريا) . وهذه المملكة التي احتواها جنكيزخان في إمبراطوريته ، استردت استقلالها نحو ١٣٦٠ م . ولزم لتيمورلنك ثلاث حملات لإخضاعها نهائياً في ١٣٧٩ م . وما أن أصبح سيد بلاد ماوراء النهر حتى تدخل أيضاً في الشرق ، في تركستان الشرقية التي وقعت في أيدي الإقطاعيين الأتراك المشاغبين الكثيري الحركات . وكان عليه أن يضع مملكته في منجى من غارات هؤلاء الرحل . ولزم ست أو سبع حملات للقضاء عليهم . وبعد أن وطد سلطته بصلابة في هذه المنطقة (١٣٩٠ م) أقام عليها خاناً مسلماً حازماً من أسرة جاغاتي وجعل منه تابعاً له وحميه . وكان تيمورلنك مستعداً لإقامة علاقات طيبة مع سليل آخر لجنكيزخان ، وهو جاره القوي في الشمال ، خان القبيلة الذهبية توكتاميش . وقد أثار هذا الأخير العداء ، بمهاجمة بلاد ماوراء النهر (١٣٨٧ م) ، فيما كان تيمورلنك يقوم بحملة في فارس . ولم يكتف الزعيم التركي بدحر خصمه ، بل قرر عندئذٍ أن يحاربه في عقر دياره . وفي شتاء (١٣٩١ م) ، توغل في مفازات سيبريا المنعزلة دون أن يجد عدواً يترك فراغاً أمامه . وأخيراً نجح في إجباره على القتال عندما كان يعود نحو نهر الفولغا ، وسحق جيش توكتاميش . واكتفى تيمورلنك بهذا النصر ولم يفعل شيئاً لتنظيم سيطرته . واستعاد توكتاميش عرشه بسرعة ، واستأنف سياسته العدوانية . وقام تيمورلنك في ١٣٩٥ م بحملة ثانية عبر القوقاز وأحرز نصراً جديداً على خان القفجاق ، وتابع طريقه حتى حدود روسيا السلافية . ولكنه عاد أدراجه دون أن يهاجم موسكوفيا . وفي العودة من هذه الحملة دخل تانا (آزوف) على مصب نهر الدون ، وفتح له العديد من التجار الجنوبيين والبنادقة في هذا المركز موانئ المدينة ، ووثقوا بوعوده . واسترق تيمورلنك جميع المسيحيين ولم يوفر المسلمين . ولم تستطع النهوض من هذه الضربة التجارة بين المستعمرات الجنوية في القرم وآسيا الوسطى . وانقطع الطريق الكبير العابر للقارة نهائياً .

ولم يهاجم تيمورلنك الإمبراطوريات الرحل المجاورة لبلاد ماوراء النهر فحسب ، وإنما قادته حملاته إلى أبعد بكثير ، إلى فتح البلاد القديمة في الحضارة ، كل المناطق التي أسلمت بعمق ، إيران ، الهند الشمالية ، وممتلكات المماليك السورية وآسيا الصغرى العثمانية . وفي ١٣٨١ م ، وجه تيمورلنك أفكاره نحو إيران الشرقية . ولقد انقسمت هذه المنطقة ، منذ سقوط الخان الهولاكي بين أربع أو خمس سلطات مختلفة ، في الشرق ، خراسان ، سجستان ، وأفغانستان فتحت بسرعة . ولكن ماأن ذهب الفاتح ، حتى انفجرت ثورة وبادر تيمورلنك لإخمادها بشكل مضرب للمثل ، في سبزكسار ، عاصمة خراسان الشرقية .

وفي ١٣٨٦ م ، قام تيمورلنك بفتح فارس الغربية . والحجة التي استند عليها في هذه المناسبة لتبرير الحرب ضد هذا البلد المسلم كانت لقصاص جبليين من أرمينية الكبرى . فقد جاء هؤلاء فعلاً وهاجموا قافلة حجاج متجهة صوب مكة المكرمة . ثم قام بغارة أخرى في جيورجيا أعطت للحملة هيئة حرب مقدسة ، على اعتبار أن الجيورجيين مسيحيون . ومع ذلك ، ففي فارس ، ذبحت جنود تيمورلنك في أصفهان وفي شيراز مدنيين مسلمين وديعين وأتقياء . وهذا يعني أنه لا يوفر أحداً من شره . ولكنه أشفق على الأدباء والفنانين . فقد ذهب بهؤلاء إلى سمرقند للعمل على تجميلها وتزيينها . وأخيراً ، في ١٣٩٣ م ، دخل تيمورلنك بغداد التي فتحت له أبوابها . بيد أن جنوده انقضت على العراق كجيوش النمل والجراد المنتشر ، وغطت الأرياف ، وأقبلت من جميع الجهات تنهب وتسلب وتفتك وتدمر .

أما المدينة فقد عوملت باعتدال . ولكن عندما عاد إليها تيمورلنك في ١٤٠١ م ، كان الثأر بالرأس ، لأن المدينة وضعت خلال فترة غيابه ، تحت سيطرة السلطان السابق . ونظمت فيها المذابح ؛ وتوجب على كل جندي أن يأتي برأس ساكن من سكانها . ودمرت فيها العمائر باستثناء الجوامع .

على أن المغري للنهب أكثر من إيران ، كانت الهند الشمالية ، لما فيها من ثروات خرافية ، موضع جذب لتيمورلنك . وأهلها مسلمون ولكن تيمورلنك اتخذ حجة تسامح سلاطين دلهي حيال الرعايا الهندية ليبرر حملته وتحويلها أيضاً إلى حرب مقدسة . وفي الحقيقة وقعت سلطنة دلهي في حالة انحطاط ، وتجزأت إلى ممالك مستقلة ذاتياً . ولذلك كانت غنيمة سائغة لطمع الفاتح التركي . ففي أيلول ١٣٩٨ م ، اجتاز تيمورلنك نهر الآندس . وبعد شهرين ، في ١٧ كانون الأول ، أحرز نصراً حاسماً على السلطان بالقرب من حدود جمنا . ولم تستطع الفيلة على مقاومة الفرسان الأتراك العنيفة ، ودخل تيمورلنك دلهي ظافراً . وبالرغم من وعوده لم يوفر المدينة ، واستشرى فيها الذبح والنهب في هذه المرة أيضاً . وفي كانون الثاني ١٣٩٩ م غادر الفاتح الهند بعد أن ضرب الإسلام فيها ضربة فظيعة ، وترك البلاد وراءه في عز الفوضى .

وفي الحقيقة لقد أضعفت الانقسامات الداخلية فارس والهند الشمالية ، فلم تستطيعا مقاومة الفتح . أما إمبراطورية المماليك والمملكة العثمانية فيبدو أنهما كانتا خصمين لدودين ، ومن الصعب كثيراً غلابها . فقد أوقف المماليك ، سادة مصر وسورية الغزو المغولي في القرن الثالث عشر ، ودحروا جيوش هولاكو إلى شرقي نهر الفرات . وفي آخر القرن الرابع عشر بدأت قوتهم العسكرية تشكو من المنازعات المتكررة التي لا تنقطع بين قادة الجيوش على الإقطاعات أو العرش . وفي سنة ١٤٠٠ م ، دخل تيمورلنك سورية على رأس جيش ضخم ضمّ فيلة أتى بهم من الهند واستولى على حلب ، وأخذ حماة وحمص وبعلبك عنوة . أما دمشق التي هرب منها السلطان المملوكي بسرعة فقد فضلت أن تفتح أبوابها ، وتحت حجة قصاص الدمشقيين بسبب تجاوزهم وعدم احترامهم لعلي بن أبي طالب في ٦٥٩ ، ترك تيمورلنك جنوده ينهبون المدينة . وغادرها في آذار ١٤٠١ م خرائب يتصاعد منها الدخان ، وسورية مدمرة دون أن يحاول إبقاء سلطته عليها . ثم عاد المماليك

واحتلوها مباشرة . إلا أن هنالك دولة في آسيا استطاعت تحدي تيمورلنك وهي الدولة العثمانية .

لقد نمت قوة الدولة العثمانية بشكل عظيم في بداية القرن الرابع عشر . وعندما انطفأت السلالة السلجوقية ، لم يكن العثمانيون بعد غير بيت من البيوت التركية التي تتقاسم الأناضول . وفي آخر القرن الرابع عشر ، وتحت حكم بايزيد ، امتدت الإمبراطورية العثمانية على جميع الأناضول ، وصربيا ، وبلغاريا وماكيدونيا وعلى جزء من تراكيا . وبقي عليها أن تستولي على القسطنطينية التي بدا من قبل أنها لا تقدر على الفرار من قدرها المحتوم . هاجمها تيمورلنك في ١٤٠٠ م واكتفى بمحاصرة وأخذ سيواس حيث دفن ٤٠٠٠ جندي أرمني ، رجال الحامية ، وهم أحياء . غير أن ثورة قامت في بغداد دعته للتوجه نحو الجنوب . ثم ، في حزيران ١٤٠٢ م ، عاد بقوة والتقى جيش بايزيد بالقرب من أنقرة (٢٠ تموز) . ولكن قسماً من جنود هذا الأخير خانه ، وغلبه تيمورلنك وأخذه أسيراً وجره وراءه في قفص . ومات بايزيد بعد بضعة أشهر من اليأس . أما فتح بقية الأناضول فكان مطبوعاً بأخذ بروسة ونيقية دون صعوبة . واستولى تيمورلنك أيضاً على أزمير التي كانت تابعة لفرسان رودس (كانون الأول ١٤٠٢ م) .

وأرجع تيمورلنك ، لصالح البيزنطيين ، مختلف الإمارات التركية لإبقاء الأناضول مقسمة وغادر البلاد . وكانت هذه الحملة آخر نصر له . وتهيأ لمهاجمة الصين في عهد آل منغ ، ولكنه سقط مريضاً ومات في أوتري في ١٩ كانون الثاني ١٤٠٥ م ، عن عمر يناهز الواحد والسبعين عاماً .

جـ ـ تداعي النفوذ التيموري

هذه الإمبراطورية ، التي بدأ بتشكيلها تيمورلنك ، لم تعش بعده زمناً طويلاً . وفي حياته خصص لكل من أولاده جزءاً منها . وبعد موته لم يحصل

التقسيم دون نزاع ودون ضربات قوة بين الإخوة . وأخيراً انقسمت الإمبراطورية التيمورية إلى قسمين :

١ ـ **فارس الغربية** ، أذربيجان والعراق كانت حصة ميران شاه ، الابن الثالث لتيمورلنك . غير أن الاضطرابات العقلية التي كان يشكو منها هذا الأمير ، والكراهية التي كانت بين أولاده ، شجعت عودة أحد سابقي سادة البلاد ، زعيم الهمل التركماني من قبيلة الخروف الأسود . وبعد ثلاثة أعوام على وفاة تيمورلنك ، طرد ورثته من هذه المناطق ، وفرض **قره يوسف** سيطرته من أذربيجان إلى البصرة . ثم نازعته قبائل تركمانية أخرى ، جماعة الخروف الأبيض ، على مملكته وانتصرت عليه ، واستقرت في فارس حتى وصول سلالة الصفويين القومية إلى الحكم في (١٥٠٢ م) .

٢ ـ أما **إيران الشرقية** ، وبلاد ما وراء النهر ، فقد بقيت زمناً أطول في أيدي الأسرة التيمورية . وكانت هذه البلاد حصة الابن الرابع لتيمورلنك وهو **شاه روخ** (١٤٠٧ ـ ١٤٤٧ م) . وكان هذا الأخير أعظم العواهل التيموريين . ورث الصفات العسكرية التي كانت لوالده ، ولكن دون فظاعة . وكان حامياً للمثقفين ورجال الآداب والفنانين ، ولعب دوراً حاسماً فيما سمي (النهضة التيمورية) ، العصر الذهبي للآداب والفنون الفارسية . وكانت هرات عاصمته وسمرقند عاصمة ابنه أولوغ بك نائب ملك بلاد ما وراء النهر ، المركزين الرئيسيين لهذه النهضة . ففي سمرقند شيدت عدة عمائر ، ومن بينها غور ـ أمير ضريح تيمورلنك كان من أوائلها . وفي هرات نمت مدرسة المنمنين ، وكان معلمها الكبير **بهزاد** (١٤٧٩ ـ ١٥٢٥ م) . ولكن الاضطرابات بدأت حين موت شاه روخ . ثم أعاد آخر عاهل من الأسرة السلطة التيمورية لبضع سنوات . ولكنه سقط في معركة مع قبائل **الخروف الأبيض** (١٤٦٩ م) . ومن بعده ، استطاع بعض صغار المدعين بالعرش من التيموريين التماسك أيضاً والبقاء محلياً في سمرقند

وفي هرات اللتين ظلتا مركزين لامعين للحياة الفكرية . وقد اشتهرت النهضة الإيرانية بالشاعر جامي ، وتضاعفت بظهور أدب تركي شاب ، وأخيراً وقعت بخارى وسمرقند ، في عام ١٥٠٠ م ، في أيدي قبيلة مغولية وهي قبيلة الأوزبيك . وعرفت هرات المصير نفسه في ١٥٠٧ م ، ثم حدثت عودة غير منتظرة للأمور : وهي أن عرق جنكيز خان غلب نهائياً عرق تيمورلنك . وكان آخر التيموريين بابور ، استطاع فتح الهند وأسس فيها إمبراطورية وأخذت هذه الإمبراطورية اسماً كان إجلالاً لمجد جنكيز خان وهو : (إمبراطورية عظماء المغول) ، فيما كانت ذكرى تيمورلنك لعينة إلى الأبد .

وهكذا انتهت الملحمة التيمورية الدموية بموازنة سلبية ، بالإفلاس ، لأن تيمورلنك لم يعرف كيف يؤسس إمبراطورية ، وترك في طريقه مدناً مهدمة بكاملها ، وأريافاً مهجورة ، لعدم أعمال الري ، وصحارى خالية إلا من تنقل القبائل الرحل . وأكثر من ذلك ، أن الفاتح ، الذي يزعم أنه يقاتل في سبيل الإسلام ، كسر طفرة البلاد الإسلامية التي استأنفت توسعها منذ بداية القرن الرابع عشر : لقد كان من ضحايا الحرب المقدسة ، المدن المقدسة في الإسلام : بغداد ، دلهي ، دمشق . أوقفت مؤقتاً سلطنة دلهي ، والقبيلة الذهبية ولا سيما الإمبراطورية العثمانية في هجومها ضد الهندوسيين أو ضد المسيحيين . وساعدت انتصارات تيمورلنك موسكوفيا المسيحية على كسر غل القبيلة الذهبية ، ومنحت بيزنطة مهلة نصف قرن لم تكن لتأمل فيها .

الإسلام في الهند

لقد عرفت سلطنة دلهي نهضة لامعة في النصف الأول من القرن الرابع عشر بدفع عاهلين عظيمين : الأول علاء الدين (١٢٩٦ ـ ١٣١٦ م) وكان من أصل أفغاني . وهو وإن كان مسلماً متشدداً إلا أنه كان يخرق المبادئ الإسلامية . فقد أمر بقتل جميع أعضاء أسرته وكل من حاول مقاومة ظلمه . ومن جهة أخرى ،

كان يقتطع الضرائب من البلاد لإرضاء حاجاته إلى المال . ولكنه كان فاتحاً عظيماً : ففي الشمال حما بلده بإيقافه غزو المغول في ١٢٩٧ م . ووسع السلطنة على حساب الممالك الهندية المجاورة : ففي أربعة أعوام (١٣٠٠ ـ ١٣٠٣ م) استولى على غوجرات التي دافع محاربو الراجبوت عنها بفظاعة . وفي شيتور أهم حصن في البلاد . وقد أحرق هؤلاء الراجبوت قبل خسارتهم الحرب جميع النساء ليصونوهن من الأسر ومن كل دنس . وفي ١٣٠٥ م سقط حصن مالوا بدوره . وهكذا أصبحت الهند الشمالية تحت النفوذ الإسلامي . ثم انطلق علاء الدين بدءاً من ١٣٠٧ م بسلسلة حملات ضد الدول الهندية في الدّكّن . ووقعت الواحدة تلو الأخرى في تبعيته . وتوصل حتى أقصى جنوب شبه الجزيرة الهندية . ولكنه في العودة إلى دلهي لم يستطع الحفاظ على سيطرته على مناطق بعيدة ، لعدم وجود وسائل مواصلات كافية .

وتبع موته دور اضطرابات . وأخيراً حمل الجيش إلى السلطة زعيماً له قيمته ، وهو غازي مالك توغلوك (١٣٢٠ م) . استأنف هذا التركي المثقف سياسة علاء الدين ، فتحت حكمه وحكم أعقابه ، بلغت سلطنة دلهي أكبر أبعادها : فمن هيالايا حتى حوض الكافيري خضعت الهند بكاملها تقريباً لسيطرة وحيدة . وسعة الفتح توضح بأنها أخفقت نهائياً ، فلنجاح الفتح ثم إدارة هذه الإمبراطورية ، اضطرت سلالة آل توغلوك أن تضغط على رعاياها ، فأثارت استياء شديداً . وهناك محاولة شبيهة بتلك التي جرت قبل قرن في الصين لإدخال عملة (نقد) صورية أدت هنا إلى التضخم النقدي أيضاً ، وأفقرت الدولة . ولذلك أعوزها الجنود والموظفون للإشراف على شبه الجزيرة كلها . وتصور محمد بن توغلوك (١٣٢٥ ـ ١٣٥١ م) عندئذ أن ينقل عاصمته إلى ١٠٠٠ ك.م في الجنوب ، إلى دولتأباد ، واضطر سكان دلهي إلى الهجرة . وبعد إخفاق المشروع ، اضطروا للعودة إلى العاصمة القديمة . وهكذا شجبت سياسة محمد بن

توغلوك الطموحة جداً . وأدى حكمه في النهاية إلى تجزئة سلطنة دلهي ، وإلى تقدم المقاومة الهندية في الجنوب . وقبل موته ، انفجرت ثورة تمرد في البنغال ، في مالاوا ، في غوجرات ، وتشكلت إمارات مستقلة . وفي الشمال الغربي من الدكن ظهرت مملكة بهماني التي ظلت حتى آخر القرن الخامس عشر أقوى الدول الناشئة عن تجزئة إمبراطورية التوغلوكيين . أما سلطنة دلهي الخاصة ؛ التي اقتصرت على جزء من البلاد الغانجية ، فقد ضعفت بغزو تيمورلنك . وهكذا ، كان الإسلام ، في القرن الخامس عشر ، في حالة أفول في البلاد الهندية . ولم تتفتح الحضارة الإسلامية إلا في مناطق محيطية ، وخاصة في كشمير ، حيث اعتنق السكان الإسلام في القرن الرابع عشر تحت تأثير سلالة مسلمة . وبقيت هذه السلالة وفية لسياسة التسامح . وهذا ماساعد البلاد على أن تصبح في القرن الخامس عشر ألمع مركز للحضارة في شبه الجزيرة كلها . وحمى السلطان **زين العابدين** (١٤٢٠ ـ ١٤٧٠ م) المثقفين الهنود ، وشجع الترجمات ، والمبادلات الثقافية بين الطائفتين ، وأمن الازدهار الاقتصادي لمملكته بتوسيع أعمال الري وتنمية الحرف اليدوية وبخاصة صناعة الشالات الشهيرة .

وعلى العموم ، لقد أفل نجم الإسلام في الهند انطلاقاً من آخر القرن الرابع عشر على يد قوة هندية جديدة ، وهي إمبراطورية ڤيجاياناغار . ففي ١٣٢٩ م ، انفجرت حركة تحرير في الجنوب تحت إدارة زعماء تيلوغو . وفي ١٣٣٦ م ، أسست فيجايانـاغـار ، (مدينة النصر) ، واستعادت بلاد جنوب التونغابهادرا استقلالها . وتحت إدارة سلالة حربية ، سلالة السانغاما (١٣٣٦ ـ ١٤٨٥ م) قامت الإمبراطورية الجديدة بنزاع دام قرابة قرنين ضد المملكة البهمانية الإسلامية المجاورة . أما الفيجايانـاغار ، التي كانت في حالة حرب دائمة ، فقد عرفت كيف تمهر نفسها بقوة عسكرية عظيمة : جيش مؤلف من أكثر من مليون محارب أمن لها التفوق العددي ، وجيش فرسان مؤلف بفضل استيراد

خيول عربية ، ومضاعف بوحدة فيلة ساعدت الهنود على النضال بسلاح متكافئ مع المسلمين . ولكن الحرب امتصت كل قوى الدولة الجديدة ، فاضطرت إلى التخلي بسرعة عن السيطرة على البحار . وظلت التجارة البحرية نشيطة ، ولكنها تركت للملاحين والقراصنة . ولذا كانت مملكة فيجاياناغار دولة قارية أساساً . والموقع الذي اختير لتأسيس العاصمة برهن على ذلك ، فقد وجدت (مدينة النصر) على الحدود الشمالية للمملكة ، على الشاطئ الجنوبي لنهر التونغابهادرا ، تجاه تهديد العدو . وكانت عاصمة دولة حربية أنشئت في مكان برّي قفر انتخب لفوائده الدفاعية .

هذا وتحمل الحضارة الهندية طابع هذه الإرادة الممتدة بالمقاومة ، فقد انطوت على نفسها ، وأحيا رد فعل التقوى الفكرة القديمة وهي أن الرحلات خارج الأرض الهندية لا يمكن إلا أن تدنس هندياً . ومع ذلك فإن مملكة ڤيجاياناغار ساعدت الفن والآداب الهندية على العيش والبقاء في الجنوب ، وحتى على معرفة نهضة حقيقية . إن الدراسات السنسكريتية التي أحياها رجال الآداب الذين فروا من شمال الهند اشتهروا بعمل **سايانا** (في القرن الرابع عشر) ، وبدأ عصر عظيم للآداب بلغات شعبية : تيلوغو ، وكانّارا ؛ وازدهر شعر ثمين في البلاط . وأنتج الفن الدرافيدي معابد عظيمة وفية لأسلوب الماضي . ووجدت الشواهد الثمينة لهذه النهضة الفنية في ڤيجاياناغار . ومن هذه المدينة الواسعة المحصنة ، التي كان سكانها في القرن الخامس عشر ، أكثر من نصف مليون نسمة ، بقيت المجموعة العظيمة من القصور الملكية ، وكذلك معابد بامباباتي وراماسوامي .

وهكذا ، تحقق في آخر القرن الخامس عشر ، توازن بين الهند الهندية والهند الإسلامية . ولكنه انقطع في القرن التالي بإنشاء إمبراطورية مغولية في الشمال ، أسسها تركي متحدر من تيمورلنك وبوصول البرتغاليين .

مصر المماليك

في العصر الذي اجتاح فيه الغزو التيموري الشرق الأوسط ، وجابهت فيه سلطنة دلهي المجزأة المقاومة الهندية ، ولم تتوطد بعد الإمبراطورية العثمانية ، كانت مصر تؤلف أكبر دولة سياسية للإسلام ، وملجأ للحضارتين العربية والإسلامية . فمنذ ١٢٥٠ م ، أي منذ أن قتل آخر سلطان أيوبي في المنصورة على يد ضباط المليشيا التركية ، المماليك ، انتخب من بين هؤلاء سادة البلاد . وسيرأس هؤلاء المماليك مقدرات مصر حتى ١٥١٧ م ، وهؤلاء الجنود المرتزقة الذين كانوا في الغالب من قدامى الأرقاء ظهروا في معظمهم ملوكاً عظاماً . أقاموا في مصر وسورية نظاماً عسكرياً دقيقاً أعطى لدولتهم قوة تلاحم عظيمة . وكانت البلاد كلها والسكان جميعاً حقلاً مستغلاً من قبل الجيش ولأجل الجيش : فالأرض مع فلاحيها ملك للدولة . قسمت إلى قطع ، وخصص دخلها للوظائف العسكرية الأساسية . غير أن هذا التنظيم لا يبدي مخاطر النظام الإقطاعي المعروف في أوربة ، لأن الضباط لم يكونوا مطلقاً أمراء ولا يسكنون في دومينهم ، كانوا يكتفون بجباية المداخيل التي يتعهدون بها إعاشة الجنود . إلا إن هنالك خطراً يهدد هذا النظام : وهو أن زعماء المليشيا كانوا يتطلعون جميعاً إلى العرش ، والسلطان في مكانه ، وفي كل حين تحت خطر أن يكون ضحية انقلاب يطيح به . وكل خلف له يمكن أن يفتح أزمة خطيرة . ومع ذلك فإن عظماء السلاطين المماليك استطاعوا أن يبقوا في السلطة بتحويل أمزجة ضباطهم الحربية نحو الأعداء في الخارج . لأن هذه الدولة العسكرية كانت متوترة في نزاع ضد تهديد الغزو الغربي والتهديد المغولي اللذين يمكن لانضمامها في النصف الأول من القرن الثالث عشر أن يكون محتوماً ومدمراً . وقد خشيت مصر أن تقع بين فكي كماشة لو تحققت مشاريع التحالف بين الصليبيين والخانات المغول في فارس ، وجندت كل قواها ضد هولاكو ، وأحرز السلطان المملوكي قطز في معركة عين جالوت

نصراً مبيناً على المغول واضطرهم إلى ترك سورية .

وخلفه بيبرس العظيم الذي وصل إلى السلطة بمؤامرة . وبدأ النزاع لحذف الفرنجة من سورية . وتم ذلك في آخر القرن الثالث عشر . ثم جاء دور الأرمن في كيليكيا في القرن الرابع عشر . وظلت قبرص وحدها في أيدي الفرنجة . وفي القرن الرابع عشر كانت مصر الدولة المسلمة الوحيدة التي نجت من المد التيموري الفظيع . وفي الحقيقة أن السلاطين المماليك اضطروا أن يتخلوا خلال بعض الوقت عن سورية لجيوش الفاتح . وكان النزاع قاسياً ، ولم تنهض سورية تماماً من التدميرات والتخريبات التي تحملتها . ولكن القوة المملوكية ظلت سليمة لم تمس .

وأمام الغزاة من الغرب والشرق ، وفي عالم إسلامي منهك وممزق ، ظهرت مصر في آخر العصر الوسيط ملاذاً للإسلام . تقبلت إرث العرب وإيران ، وأصبحت للفريقين دليلاً وموجهاً . واعترفت السلالة التي تحدرت من بيبرس بسليلي الخليفة العباسي واستقبلتهم في ديارها .

والخلافة العباسية ، التي ألغيت في بغداد على يد المغول ، أرجعت في القاهرة ، وأمنت لمصر جاهاً دينياً جديداً دون أن يضايق سياسة **السلاطين البحرية** الذين تحدروا من بيبرس (١٢٥٧ ـ ١٣٨٢ م) ومن أخلافهم من **السلالة البرجية** (١٣٨٢ ـ ١٥١٧ م) الذين عرفوا كيف يحددون بدقة سلطات الخليفة . وهذه السلطة السياسية والدينية تعتمد على نهضة الفاعلية الاقتصادية . وفي الحقيقة ، إن أفول الدول الفرنجية في المشرق ، وأفول الإمبراطورية المغولية أعادا إلى مصر دورها كوسيط في التجارة الكبرى الدولية ، بعد أن انطوت الهند والصين على نفسيهما . وكان التجار المصريون يتمتعون في البحر الأحمر وفي المحيط الهندي بحصر حقيقي واقعي لتجارة المنتجات الثمينة ، وبخاصة التوابل التي كانوا يبحثون

عنهـا حتى الشرق الأقصى ، لإعـادة توزيعهـا في بلاد البحر المتوسـط . وفي أسواق القاهرة كانت تتكـدس البضـائع المستوردة وإنتـاجـات الحرف المحليـة : النحـاس المرصع ، الزجاج المذهب ، والجلود المـدبوغـة . وبـالرغم من أن سـادة مصر الجـدد كانوا في حرب ضد مسيحيي الغرب فلم يحتقروا التعامل معهم : ففي الإسكندريـة نجد التجار الإيطاليين ، الجنويين بخاصة ، وأيضاً البيزانيين والبنـادقـة وكـذلـك التجار المرسيليين والكاتـالانيين . وكان تجـار الغرب ووسطـاؤه يـأتون إلى الموانئ المشرقية ويتمونون بالمنتجات الشرقية لتوزيعها وبيعها في موانئ بلادهم .

إلا أن صعـوبـة وحيـدة كانت تعيـق نـوعـاً مـا هـذه التجـارة ، وهي نفـاد الاحتياطيات المصرية من الذهب . وهذا العوز أوجد للبلد ضائقة نقـديـة . ومع ذلك ، ظل النشاط التجاري لمصر مزدهراً حتى آخر القرن الخـامس عشر ، أي إلى اليوم الذي ذهب فيه البرتغاليون إلى البلاد المنتجة للتوابل وذلـك بـالطواف حول القارة الإفريقية من الجنوب .

وفي حـال الانتظـار ، ظلت مصر قـويـة وغنيـة بنشـاطهـا الأدبي والفني ، ومركزاً مضيئـاً لامعـاً بل ألمع مركـز للحضـارة الإسـلاميـة . وحثّ حب اطـلاع العـــديـــد من القراء المثقفين على نشر الكتب اللغـويـــة ، والمعلّمات (الإنسيكلوبيديات) ، والمؤلفات التاريخية . وكان للإنتـاج الأدبي في هـذا العصر صفـة تعليميـة بخـاصـة . وفي مصر المماليـك نجـد أن قصصـاً نشـأت في فـارس قبل الإسلام ، وأعدت فيما بعد في أقاليم مختلفة من العـالم الإسلامي ، ثم جمعت وشكلت مجموعة (قصص ألف ليلـة وليلـة) . ومن جهـة أخرى ، كان السلاطين يستقبلون الفنـانين الـذين يفرون من السيطرة المغـوليـة أو التيمـوريـــة ، ويعهـــدون إليهم بالأعمال . وهكذا تغطت القاهرة بالجوامع ذات القبـاب المـدورة أو البصليـة مثل جـامـع السلطـان حسن (١٣٥٦ ـ ١٣٦٢ م) . كما شـاد الـزعمـاء المماليـك لأنفسهم أضرحـة عظيمـة سميت (أضرحـة الخلفـاء) . واستعمـل التزيين في خـارج العمائر

مختلف الأحجار الحمراء والبيضاء . وفي داخل الجوامع والقصور طبق الخزف الملون ، والرخام المستعمل في التلبيس ، والنحاس المرصع ، والتزيينات الخشبية على الجدران والسقوف المنقوشة بدقة ونعومة ، وشباك الحديد المصنوع ذات المشبكات (التزيينات المتداخلة) التي تدل على المهارة والذوق ؛ والسجاد المطرز بتزيينه المترف ببذخ .

وهكذا يتضح الإشعاع الروحي للإسلام في مصر حتى في المناطق النائية : في إفريقية ، على طول الشاطئ الشرقي ، حيث تقدم الإسلام وقطع أشواطاً سريعة وبعيدة ، وترك الأثيوبيون (الأحباش) له شاطئ البحر الأحمر ، ولجأوا في جبال الداخل تحت إدارة سلالة تقول عن نفسها أنها متحدرة من الملك سليمان وبلقيس ملكة سبأ ؛ وحافظوا مع ذلك على الطقس القبطي القديم . وإلى الجنوب أكثر ، أسلمت أيضاً الشعوب الإفريقية المجاورة للمحيط الهندي . وأخيراً أسهم التجار المصريون في نشر الإسلام في الأرخبيل الأندونيسي البعيد .

أندونيسيا

في هذه المنطقة من جنوب ـ شرقي آسيا ، في أندونيسيا ، يرى أن فتوحات الإسلام جرت بشكل سلمي تماماً ، وكانت في القرن الرابع عشر والخامس عشر أعظم مما في الهند . وتهيأ نجاح انتشار الإسلام ، في هذه الأصقاع ، بتشكل إمبراطورية بحرية كبرى في آخر القرن الثالث عشر : ومملكة المودجوباهيت هذه التي عرفها ماركو پولو أثناء إقامته في سومطرا (١٢٩١ م) كان مركزها في شرق جاوا . والعواهل الذين يقيمون في مودجوكرتو ، بالقرب من سورابايا فرضوا سيادتهم على سلسلة من الدول الشاطئية الصغيرة في سومطرا ، وفي كاليانتان وفي بالي . وقد عقدت الدولة المودجوباهيت البحرية اتصالات عديدة شجعت على أول تغلغل للنفوذ الأجنبي . كذلك يؤرخ في هذا العصر استقرار عدد عظيم من الصينيين في الأرخبيل ، بعضهم تركوا في مكانهم أثناء الحملة البائسة التي قام بها

الخـــان العظيم كـوبيـــلاي ، والآخرون جـــاؤوا مهـــاجرين . وفي آخر القرن الثالث عشر أيضـاً ، عقـد كثير من تجـار مصر وفـارس والجزيرة العربيـة والهنـد الغربيـة ، وكلهم مسلمون ، عـلاقـات نشيطـة مـع المـوانئ الأنـدونيسيـة . إلا أن الإمبراطورية الأندونيسية كانت ذات بنيـة سيـاسيـة رخوة جـداً لتـدوم طويلاً . ولـذلـك استطـاع الإسـلام ، بعـد أن بـدأت تتفتت في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، أن ينتشر عن سعـة . وكـذلـك الملاحـون المسلمـون الـذين كانـوا ينصرفون حسب الظروف للتجارة أو القرصنة استقروا على الشواطئ الأندونيسية للسيطرة على المضـائق وشكلوا فيهـا دولاً صغيرة . ونشر هؤلاء المغـامرون الإسلام بسهولة بين سكان الأرخبيل . والأسر الأميريـة من أبنـاء البلاد ، التي اتحـدت فيما بينها عن طريق الزواج بعائلات التجار المسلمين ، كانت أول من اعتنق الإسلام . وأخذت الجماهير بفكرة المساواة التي أعلن عنها الدين الجـديـد الـذي يزيل نظـام الطبقات . وأخيراً ، إن الإسلام ، الذي أخذ موطئ قدم على شـاطئ الأرخبيل ، تمثلـه السكان بسهولـة ، وحـطَّ طويلاً في الغوجيرات (الشـاطئ الشمالي ـ الغربي للهند) و (تهند) فيها لحد مـا بتبني عـدد من طقوس الـديـانـة الهنـديـة . ومن مـالاكا التي يحكمهـا أمير مسلم ، منـذ ١٤١٤ م ، انتشر الإسلام في الجـزر المجـاورة ، جـاوا ، سومطرا ، وكاليمانتـان . وفي آخر القرن الخـامس عشر بلغ جزر الفيليبين والملوك . أما الديانة الهندوسية فقد دحرت في الشرق والتجأت في بالي التي ظلت حتى أيامنا (معهد العبادات الهندية التي أبعدت من أندونيسيا الغربية) .

وأدى نمو الإسلام إلى نهضـة جـديـدة للتجـارة ؛ فبواسطـة التجـار الهنـود أو العرب وصلت التـوابـل الأنـدونيسيـة حتى أوربـة . أمـا الأوربيـون فقـد أغرتهم السيطرة المباشرة على هذه التجارة ، ومن هـذا المنطلق سيعطون سيـاقـاً جـديـداً لتاريخ الأرخبيل الأندونيسي .

٢ ـ الإسلام في أفريقية وآسيا

الإسلام في المغرب العربي

لم يقاسم الإسلام في الغرب البلاد الإسلامية الأخرى أهوال الفتح التيموري. فقد عاش في القرن الرابع عشر والخامس عشر منطوياً على نفسه دون علاقات كبيرة مع بلاد البحر المتوسط الشرقية. واستطاع الموحدون، في القرن الثاني عشر، توحيد إفريقية الشمالية كلها تحت إدارتهم، ولكن المغرب تجزأ في النصف الثاني من القرن الثالث عشر. فقد انفصلت تونس والجزائر الشرقية (قسنطينة) في عهد السلالة الحفصية التي استقرت في تونس وقاومت بشكل مجيد، في ١٢٧٠ م، القديس لويس في حربه الصليبية. وفي تلمسان، على الهضاب العليا، توطدت السلالة التي أسسها بنو عبد الواد، بين القبائل الرحل. وأخيراً، في مراكش، تأسست مملكة بربرية على يد المرينين الذين حلوا محل الموحدين. وظلت هذه الممالك المغربية الثلاث تقيم فيا بينها، ومع ما بقي من إسبانيا الإسلامية، مملكة غرناطة، علاقات وثيقة. فإلى المبادلات الاقتصادية الهامة دوماً تضاف الاتصالات البشرية. وتجهز بلاد إفريقية الشمالية ملوك غرناطة بالجنود لتساعدهم على مقاومة الهجوم المسيحي. وبعد أن انتصر الملوك الكاثوليك نهائياً في آخر القرن الخامس عشر، طرد المسلمون واليهود من قشتالة، وجاء معظمهم إلى إفريقية الشمالية يبحثون عن ملجأ. وذلك لأن المذهب المالكي يسود على جانبي مضيق جبل طارق، ولأن الطرق الصوفية لها فيهما النجاح نفسه. ولأن الحضارة نفسها، وهي الحضارة الإسلامية، ازدهرت في الغرب، في إسبانيا كما في المغرب. وتاريخ ابن خلدون الكاتب الكبير (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦ م) يشهد على هذه الوحدة: لقد ولد في تونس من أبوين عربيين فرّا من إسبانيا. وأثره أثر مؤرخ نبيه (تاريخ العبر)، وفيلسوف، والتاريخ بالنسبة له مادة

للتفكير . وفي مقدمته درس المجتمع المغربي كعالم اجتماع حقيقي وواع بـأنـه اخترع علماً جديداً (علم الاجتماع) ، وأن كل مسار الإبداع والانحطـاط للـدول العربيـة يتضح بعلاقة القوى بين المقيمين والرحل . وحدة هذه الرؤية التـاريخيـة في ذلـك العصر تعتبر وحيـدة في كل أدب الإسـلام كما في أدب الغرب . وللقرن الرابـع عشر أيضـاً دور نشـاط فني كثيف . ففي ذلـك العصر شيّـد قصر الحمراء ، مقرّ أمير غرناطـة ، وهو من أفخم وأشهر أوابـد إسبـانيـا الإسلاميـة ، ومن الأبنيـة المـدنيـة النـادرة التي حـوفـظ عليهـا . وفي فـاس ، عـاصمـة المرينيين ، وجـد مهنـدسـون معماريون استلهموا من فن إسبـانيـا وعملوا على تـزيين المـدينـة ، ورفعـوا مسجـد المدينة الجديد ومدرسة العطارين .

كان وضع الإسلام ضعيفاً في الغرب ، بـالرغم من إنجـازاتـه الرائعـة ، وذلـك يرجع لأسباب عـديـدة لا مجـال لـذكرهـا الآن ، وهـذا مـاسبب في دحر العرب المسلمين قليلاً قليلاً من إسبانيا ، ومهاجمتهم حتى على شواطىء إفريقيـة الشماليـة . ولكن الإسلام في المغرب ، في الـوقت نفسـه ، عرف في اتجـاه إفريقيـة السـوداء ، توسعاً كبيراً : وهيـأت سيـاسـة الفتح التي سلكهـا المرابطون والموحـدون الطريق لـذلـك . ولكن الـدور الرئيسي يعـود للتجـار . فقـد تقـدم الإسـلام على طـول الطريق التي يبادل فيها ذهب السودان لقاء ملح إفريقية الشمالية . تبناه الزعمـاء الزنوج المحليون وفهموا منه أنه يشجع على تجمع القوى السيـاسيـة وتـأسيس دولـة كبرى . وهكـذا تشكلت مملكـة مـالي . وبعـد أن كانت مشمولـة في إمبراطـوريـة غانا ، استعادت استقلالها في ١٠٧٦ م أثناء انهيار هذه الأخيرة . ومنذ ذلـك العصر بدا أن العواهل الماليين ، الذين مازالوا أقوياء ، قد اعتنقوا الإسلام . وانطلاقـاً ، من ١٢٣٠ م قامت مالي ، تحت إدارة الملك سونديـاتـا (١٢٣٠ ـ ١٢٥٥ م) الـذي أصبح بطلاً تحت اسم ماري جـاتـا ، بإخضـاع جيرانهـا . أخـذت مـدينـة غـانـا وقوضتها في ١٢٤٠ م . ثم امتدت من الغابة العـذراء إلى الصحراء ، وأمنت لنفسهـا

السيطرة على مناجم ذهب السودان وطرق الشمال التجارية . وفي عهد خلف ماري جاتا ، خضع التوكولور والصنهاجة في غاو بدورهم وبلغت مالي في بداية القرن الرابع عشر الأوج في قوتها تحت حكم أعظم عاهل لها ، مانساموسى (١٣٠٧ ـ ١٣٣٢ م) . فقد أقام علاقات مع البلاد الإسلامية الأخرى ، وتاجر بخاصة مع مراكش ومصر . وفي ١٣٢٤ م ذهب بصحبة ٦٠٠٠٠ شخص إلى الحج في مكة المكرمة . وبهر كرمه المعاصرين ، وبفضل هذه الاتصالات مع بلاد توصلت إلى أعلى مستوى من النمو ، انفتحت مالي للحضارة . وفي بلاط مانسا موسى ، وفي المدن الكبرى للمملكة أقام الفقهاء المسلمون . ونظم هؤلاء الدراسات في تومبوكتو ، وأسسوا جامعة في سانكور . واستقبل العاهل في قصره شاعر غرناطة ومهندسها المعماري ، الساحلي ، وكلفه ببناء جوامع في المدن التي افتتحت حديثاً : غاو وتومبوكتو . ولكن ، بعد موت مانسا موسى ، بدأ المالي أفول بطيء . لأن دولة أخرى ، منافسة خطرة ، قامت في المشرق : ففي ١٣٣٥ م نادى أمير صنهاجي بنفسه ملك غاو وحرر بلده من السيطرة المالية . ومنذ ذلك الحين ، ماانفكت هذه الدولة الجديدة تكبر حتى بلغت أوجها تحت حكم أسكيا (الشيخ) محمد الأول (١٤٩٣ ـ ١٥٢٨ م) . وأسكيا الأعظم ، كسابقيه ، كان يميل ، على ما يبدو ، في سرّ قلبه إلى وثنية الأجداد القدامى . ولكن عواهل غاو فهموا بدورهم أهمية الإسلام ، لأنه يساعد في الحصول على مساندات إخوتهم المسلمين ، ويعطي للفتوح شكل حرب مقدسة ويسهل بفضل تطبيق الشريعة الإسلامية حكم البلاد . ولذا أخذ الشيخ اللقب المعاصر (سلطان) في ١٤٩٨ م .

ومصر وممالك المغرب مع نشرها إيمانها وحضارتها ، حافظت حتى آخر العصر الوسيط على استقلالها السياسي . ولكن هذا الاستقلال كان مهدداً بتأسيس إمبراطورية إسلامية كبرى ، الإمبراطورية العثمانية التي كانت تزعم وتريد أن تجمع تحت لوائها كل قوى الإسلام .

٣ ـ الأتراك ومسيحيو أوربة الشرقية

نهضة بيزنطة وموتها

صعوبة إرجاع الإمبراطورية البيزنطية

في آسيا الصغرى والبحر الأسود لعبت إمبراطورية القسطنطينية الإغريقية ، منذ قرون ، وبنجاحات مختلفة ، دور الحصن الأوربي أمام الأتراك . بيد أن الضربات ، التي وجهها إليها مسيحيو الغرب في الحملة الصليبية الرابعة ، زعزعتها بعمق . وفي الحقيقة ، إن جيوش الشاب جان الرابع (١٢٥٨ ـ ١٢٦١ م) ، وارث بازيلوسات نيقية ، وميشيل باليؤلوغ الذي كان ، منذ ١٢٥٩ م ، مساعداً للإمبراطور ، قد دخلت في ١٢٦١ م ، القسطنطينية ظافرة ، وطردت الإمبراطور والبطريرك اللاتينيين . ولكن ميشيل الثامن مؤسس سلالة آل باليؤلوغ ، بقي وحده سيد السلطة في ١٢٦١ م ، وحكم إمبراطورية لم تكن غير ظل إمبراطورية آل كومنين . وفي آسيا ، لم ترتبط بالإمبراطور إلا إمبراطورية نيقية القديمة ؛ وفي أوربة ، إلا جزء من ماكيدونيا وتراكيا مع القسطنطينية ، التي كانت رأساً ضخماً لجسد نحيل بشكل فريد . أما الأقاليم الأخرى ، التي كانت تابعة سابقاً للقسطنطينية ، فقد ظلت مقسمة بين سيطرات مختلفة . ولما نظمت المقاومة والنضال ضد الفرنجة حسب الخطة المحلية ، تشكلت دول إغريقية مستقلة ذاتياً ، ولم يستطع آل باليؤلوغ أن يضعوها من جديد في تبعيتهم : إمبراطورية طربزون على البحر الأسود حيث بقيت

وتماسكت سلالة آل كومنين ، وإمارة تسالونيك واستبدادية إيبيروس على الشاطئ الغربي للبلقان . واللاتين في بعض مناطق إغريقية ، في دوقية أثينة وإمارة مورة . وبقي شمال شبه جزيرة البلقان في أيدي الصرب والبلغار الذين استقروا فيه بفضل الاضطرابات السياسية التي كانت القسطنطينية مسرحاً لها . وأخيراً ، هناك أمكنة ساحلية مثل دورازّو وتقريباً كل الجزر : زانتا ، وأوبيه ، وكريت ، وليمنوس ورودوس كانت في سلطة الإيطاليين ، البنادقة بخاصة . وعلى هذا فإن إمبراطورية آل باليؤلوغ البيزنطية لم تتناقص أرضياً فحسب ، وإنما طوقت أيضاً بعدة دول ترى بأن تفيد من ضعفها لتكبر على حسابها : الأتراك في آسيا ، السلاف على الحدود الشمالية ، واللاتين في الغرب .

ميشيل الثامن والنهوض السياسي

وبالرغم من كل هذه المصاعب ، فإن ميشيل الثامن (١٢٥٩ - ١٢٨٢ م) ، آخر عاهل عظيم لبيزنطة ، حاول جهده لإرجاع الإمبراطورية ونجح جزئياً . فقد قام أولاً بالقضاء على بقايا السلطة اللاتينية في إغريقية : هاجم ، في المقام الأول ، إمارة أكاي الفرنجية . وانتصاره في بيلاغونيا ساعده على الاطمئنان من شخص الأمير غليوم الثاني ڤيلهاردُوَنْ (١٢٥٩ م) . وبعد أن تحرر هذا الأخير مقابل فدية كبيرة ، اعترف به بموجب معاهدة القسطنطينية (١٢٦٢ م) تابعاً للبازيلوس ، وأعاد إليه ثلاثة مواقع : ميسترا ، مونيمڤازيا ومايناً ، ولكنه ما أن عاد إلى أكايي ، إلا وتنصل على يد البابا من يمين التبعية ؛ الأمر الذي اضطر ميشيل الثامن أن يشكو السلاح ضده . فتح أركاديا ولاكونيا : وهذه الأراضي توسعت على يد خلفائه وألفت استبدادية مورة (أو استبدادية ميسترا) ، وقفاً للابن الثاني للإمبراطور . وهذا النجاح الذي لاقاه لم يجنب التهديد بعودة اللاتين إلى القوة . ففي الغرب ، كان أعداء البازيلوس كثراً ، وكانت البابوية تحبذ إرجاع إمبراطورية لاتينية تؤمن الحفاظ على اتحاد الكنائس ؛ والبندقية التي

ترغب بتعويض خسارة مراكزها في سورية كانت مستعدة تماماً للانضمام إلى هذا المشروع الذي يفيد مصالحها الاقتصادية في البحر المتوسط الشرقي . وأخيراً إن عاهل الصقليتين الجديد ، شارل دانجو ، أخو القديس لويس ، تابع حلم الهيمنة المتوسطية التي تؤلف بالنسبة لبيزنطة أخطر تهديد ؛ وفي معاهدة ڤيترب (١٢٦٧ م) تنازل له غليوم الثاني عن أكاي ، والأمير بودون الثاني ، الإمبراطور اللاتيني الساقط والمنفي ، عن حق السيادة على الدومينات التي كانت في السابق في حوزتها . وملك تسالونيك ، الذي لم يكن له ولد ، أسماه وارثاً له . وعلى هذا فإن شارل دانجو قد كسب الألقاب الضرورية للمطالبة ، تجاه آل باليؤلوغ ، الذين يعتبرهم مغتصبين بالسيطرة على الإمبراطورية الإغريقية . واكتفى في البدء بإرسال بعض الجيوش إلى إبيروس وإلى شمال موره فهزمها ميشيل الثامن . ولكن شارل دانجو لم تفتر همته ، فقد عقد ضد بيزنطة تألباً عظيماً ضمّ البندقية وقواها البحرية ، والدول السلافية في البلقان وكل الإمارات الإغريقية واللاتينية في الشرق التي قلقت قليلاً من أن تعود وترجع تحت سيادة القسطنطينية . وفي الحملة العظيمة التي أعدها حاول أن يعطي صورة حرب صليبية ضد المنشقين ممثلاً نفسه بطلاً للكنيسة الكاثوليكية . ولم تكن البابوية لتجهل العوامل الحقيقية لسياسة شارل دانجو ، فأعدت نفسها لهذه اللعبة ؛ استخدمت تهديد صقلية لتضغط على الإمبراطور البيزنطي ولتحصل على خضوعه الكنسي . ورأى ميشيل الثامن أنه مهدد بالسحق من قبل أعدائه نظراً لعددهم وقوتهم ، فاستعمل الدبلوماسية ليخفف من شدة التألب الذي يهدده . وأخطره البابا غريغوار العاشر ليضع نهاية لدور طويل من الوعود والتأجيلات بقرار واضح وسريع ، فامتثل في ١٢٧٣ م بالرغم من معارضة قسم كبير من الأكليروس الإغريقي للاتحاد مع روما . وفي مجمع ليون ، في ٦ تموز ١٢٧٤ م ، اعترف لوغوتيت الكبير رسمياً باسم الإمبراطور بالتفوق الحبري والإيمان الروماني . وضد البندقية ، لعب ميشيل الثامن بالتنافس الاقتصادي الذي تقف فيه كل من الجمهوريتين التاجرتين

الإيطاليتين وتحالف مع جنوة : ففي ١٢٦١ م ، خولت معاهدة نيمفوم الجنويين امتيازات تجارية واسعة جداً في الإمبراطورية كلها ، والتمتع بحي من ضاحية القسطنطينية ، غالاطة على القرن الذهبي . ومقابل تنازلاته ، حصل على مساندة الأسطول الجنوي . إن جنوة ، التي أقامت مراكزها من قبل على شواطئ آسيا الصغرى ، في أزمير وفي جزيرتي كيو ولسبوس ، وحصلت في ١٢٦٧ م من الخانات المغول على السماح بتأسيس مؤسسة في كافّا في القرم ، كانت في وضع مناسب لتصبح أول دولة تجارية إيطالية في البحر المتوسط الشرقي . وكان البنادقة قلقين من تنافس جنوة ، فوقعوا بدورهم معاهدة مع بيزنطة . وانطلاقاً من ١٢٧٦ م أرجعت عدة انتصارات بحرية للبيزنطيين تملك عدد عظيم من الجزر ، ومنها أوبيه ، وأمنت لهم السيطرة على بحر إيجه . واستخدم ميشيل الثامن أيضاً الأسلحة الدبلوماسية ضد الإمارات البلقانية .

ومع ذلك بقي شارل دانجو مهدداً جداً وخطط الإمبراطور الدبلوماسية ضعيفة جداً . لأن سياسة اتحاد الكنائس أثارت في الإمبراطورية مقاومة عنيفة ، ومع الدول الأرثوذوكسية تعقيدات خطيرة . وأخيراً إن الانتخاب الحبري في ١٢٨١ م وضع على عرش القديس بطرس بابا مخلصاً كاملاً لسياسة ملك صقلية ، مارتن الرابع . وقد بادر هذا الأخير وشجب الإمبراطور ، وأدانه ، بأنه هرطقي وحكم بخلعه ، وأنكر سياسة الاتحاد التي أرادها أسلافه . وفي الحال انعقد التألب من جديد مع البندقية والعواهل الصربيين والبلغاريين ، وفيما كان الملك الصربي ميليوتين يجتاح ماكدونيا ويستولي على سكوبيا ، كان شارل دانجو يحضر حملة بحرية كبرى . وفي آخر لحظة ، أنقذت الإمبراطورية البيزنطية بالجزرة الصقلية : إن العصيان ضد النفوذ الفرنسي الذي انفجر في بالرم في ١٢٨٢ م ، احتكر كل قوات شارل دانجو . ولم يكن ميشيل الثامن غريباً بالكامل عن هذا الأمر : فقد عرف كيف يحرض استياء الصقليين ويقدم لهم المساعدات . ووضع

أيضاً تحت تصرف منافس شارل دانجو ، بيير آراغونه ، أموالاً ساعدت هـذا الأخير على تشكيل أسطول هام للنضال ضد الـدولـة الآنجفيـة . واضطر شـارل دانجو أن يتخلى عن مشاريعه الطموحة . وأسرعت البندقية في توقيع معاهدة جـديـدة مع بيزنطـة . وعنـدمـا توفي ميشيـل الثـامن في آخر ١٢٨٢ م ، كان الخطر الغربي قـد جنب نهائياً .

النهضة البيزنطية الثانية

وبفضل هـذا النهوض السيـاسي بـدأ مـا يمكن أن يسمى (النهضـة البيزنطيـة الثانية) التي أمنت لحضارة الإمبراطورية الإغريقية أيضاً مـا يقرب من قرنين من الإشراق والضيـاء . ولكنهـا لم تكن نهضـة قسطنطينيــة : لأن الحيــاة الفكريــة والفنيــة مـالت إلى هجر العـاصمـة المهـددة كثيراً جـداً . وفي الحقيقــة ، إن القصر والكثير من أحياء القسطنطينية قد تهدمت أثناء الحملة الصليبية الرابعة ، وحـاول عواهل آل بـاليؤلوغ رفـع الأنقـاض ؛ واشتغـل الفسيفسـائيـون في كنيسـة كـورا (كاهريي كامي) ، ورممت الجـامعـة . ولكن مراكـز أخرى جـذبت الكتــاب والفنـانين . وكانت أديرة جبـل آتـوس ملجـأ للمثقفين في هـذا العصر المضطرب . ومعظم البطاركة كانوا منهم وكذلـك اللاهوتيون الأسـاسيون . وفي طربزون على البحر الأسود ، أسست سلالة آل كومنين أكاديميا ، وشجعت دراسة العلوم وشادت قصوراً فخمـة . وأكثر أيضـاً ، أن ميسترا في البيلـوبـونيز ، أخـذت وجـه عـاصمـة روحية في العـالم البيزنطي . فـالرابيـة التي ترتفع عليهـا المـدينـة الجـديـدة ، غير بعيـدة عن أسبـارطـة القـديمـة ، تغطت بـالكنـائس والأديرة والقصور . وبـلاط المستبـدين الـذي كان أكثر ضيــاءً من بــلاط الأبــاطرة ، كان ملتقى العلمـاء والفلاسفة . إذن فعلى تراب إغريقية القديمة وجدت الحضارة البيزنطية من جديد إشراقاً جديداً . وكذلـك أيضـاً كانت تبحث عن نماذج في المـاضي الهلليني . فقـد درست النصوص الكلاسيكية للعصر القديم بطرق نقد صـارم شـديـد . وفي القرن

الخامس عشر نمت إنسانية (أدب إنساني) بيزنطية موازية للإنسانية الإيطالية . وكان جورج جيميستوس المسمى افليطون أعظم ممثل لهذه الحركة . كان معجباً متحمساً لأفلاطون والأفلاطونيين الحديثين ، فقد نهل من مذهبهم مشاريع إصلاح مخصصة لبعث وتجديد الهيلاد (الأقاليم الوسطى من إغريقية) وكان أحد تلاميذه بسّاريون ، نصيراً للاتحاد مع روما ، وقرر أن يستقر في إيطاليا ، حيث أصبح كاردينالاً (١٤٣٩ م) ، وكان محركاً وباعثاً لنهضة الدراسات الإغريقية . وفي الأصعدة الأخرى ، بقيت بيزنطة أيضاً وفية لتقاليدها : فعلم الفصاحة والتاريخ ازدهرا من جديد . إن نقفور غريغوراس في تاريخه (التاريخ الروماني) الذي يغطي الدور من ١٢٠٤ إلى ١٣٣٩ م يهتم خاصة بالمنازعات اللاهوتية ، والبازيلوس جان كانتاكوزين ، المغتصب والمنعزل في دير ، ألف مذكرات فاتنة تروي الحوادث التي كان شاهداً لها . والعلوم الحقوقية ، والشعر العالم كانا أيضاً موضع اهتمام جداً . والأدب الشعبي وحده لم ينهل من مصادر الماضي الهلليني : فقد قبس موضوعاته وبحوثه من الروايات المهذبة ومن القصص والحكايات الشعرية الفرنسية (من القرن الثاني عشر والثالث عشر) .

إن العود إلى التقاليد القديمة كان أيضاً محسوساً لدى الفنانين . ففي ميسترا بنيت كنيسة القديس - تيؤدور (آخر القرن الثالث عشر) على مخطط صليب يوناني وغطيت بقبة تعتمد على عقد زاوية ؛ والپانتاناسّا زينت في واجهتها برواق خارجي ذي طوق (رواق مقنطر) . وظهرت الاتجاهات نفسها في كنائس أرتا ، عاصمة مستبدي إيبيروس وفي قصور طربزون . ويبدو أن موضوعات الفنون التشكيلية قد اقتبست غالباً ، هي أيضاً ، من الماضي الإغريقي . فالذوق للموضوعات الواقعية ، وتمثيل مشاهد الحياة اليومية تذكر كثيراً بالفن الإسكندري . وفقر الإمبراطورية يوضح بأن الفسيفساء ، وهي تقنية مكلفة جداً ، لم تعد مستعملة كثيراً . والفسيفساء العظيمة في كنيسة تورا

(كاهرية كامي) إنما هي رائعة منعزلة . وبالنسبة للجزء التزييني المحض ، قلد الفنانون تزيينات أوائل المسيحيين في رافينا . فالبحث عن الفن الفاتن في الصور الجميلة يسيطر على المشاهد المثلة . وعدا ذلك نجد في كل مكان تفوق الفرسكة (الرسم الجداري) على غيرها : فبين المدارس الإقليمية ، نجد أن مدرسة ميسترا تنتج أنقى الروائع الفنية : فانعكاس الألوان وتقلبها ، والرسم الملتوي المنعطف في تمثيل اللباس ليسا رسماً آبدياً ولكنهما يعطيان إلى هذه الرسوم الجدارية (الفرسكات) سحراً وعذوبة لاتنسى . وتوجد هذه الصفات في الإنتاجات المحفوظة بعدد كبير جداً ، للفنون الصغرى ، والمنمنمات ، والأقمشة ، ومنتجات الجوهرات . وقد وسع الفن البيزنطي منذ زمن طويل صعيده إلى ماوراء حدود الإمبراطورية التي لاتؤلف فيه أكثر من إقليم من أقاليمه . وبفضل النفوذ الفني نجت من الأفول الذي جرَّ الإمبراطورية الإغريقية حتماً إلى ضياعها .

نضوب القوى البيزنطية

إن النجاحات التي أحرزت بفضل سياسة ميشيل الثامن الحكيمة لم يكن منها إلا أن أخرت زوال إمبراطورية في حالة نزاع من نضوب داخلي كما من ضربات وجهها إليها أعداؤها . لقد تأكد وثبت أفول بيزنطة أولاً على الصعيد الاقتصادي . فالتجارة الخارجية كلها انتقلت إلى أيدي الأجانب : بنادقة أو جنويين . فرجال الأعمال من أبناء البلاد قد دمروا ومُنوا بالخراب والخسران . وأصبح الفنانون تابعين للطلبات الأجنبية . وكانت الدولة أكبر ضحية لهذا التطور . ولكثرة مامنحت أو خولت فوائد اقتصادية لهؤلاء وآخرين ، لم تفد شيئاً من جماركها . والموارد الأخرى ، التي يحصل عليها من إمبراطورية حرمت من أغنى أقاليمها ، غير كافية . والأباطرة أنفسهم كانوا متضايقين ؛ فالإمبراطور جان الخامس ، في رحلة له إلى الغرب أوقف في البندقية كمدين غير مليء ؛ وابنه مانويل جمع بمشقة المبلغ المطلوب لتحريره . ونظراً لعدم وجود موارد كافية ، لم

يستطع الأباطرة إقامة موظفين إلا بالتنازل لهم عن أراضٍ وجباية موارد على هذه الأراضي . وبعد أن نشطت إقطاعية المجتمع البيزنطي في فترة الحكم اللاتيني ، تقدمت بسرعة : فمن ذلك أن أرستقراطية عقارية قوية جداً أزالت من الأرياف ، الفلاحين الأحرار ؛ وهكذا استقرت العبودية (الرق) في الشرق في العصر الذي تحررت فيه الطبقات الريفية في الغرب . فالإقطاعيون الذين يقيمون في المدن احتكروا أيضاً حكم المدينة وأبعدوا عنها الطبقة الكادحة المدنية البائسة . ومقابل هذا الانحدار المتدرج نحو الانحطاط في الحالة الاقتصادية والسياسية ، كان خلفاء ميشيل الثامن عاجزين عن النضال . وكانت السلطة الإمبراطورية تشكو من زوال عطف عام : فالطبقات المستعبدة ما كانت لتهتم مطلقاً ببقاء سلطة سياسية لم تعرف كيف تصون حريتها . وفي الحد الذي توجد فيه وطنية ، فهي إغريقية وليست بيزنطية . لقد أخذت شكل تعلق بالكنيسة الأرثوذكسية أكثر من تعلق بسلالة أخذت صورة سلالة أجنبية بالنظر لسياستها الخارجية . إن مشاريع اتحاد الكنائس بخاصة أثارت ضد الأباطرة مقاومة عنيفة جداً . إن ميشيل الثامن الذي يساعده البطريرك جان بكوس فرض بالقوة الاتحاد مع روما . وعندئذ انفجرت حيدة (انشقاق) في الكنيسة الإغريقية ، وتمثل بالمعارضة التي يوجهها الرهبان المدافعون المتحمسون للأرثوذكسية ، والزيلوطيون ضد الإمبراطور (الناطق باللاتينية) .

وأخيراً ، لم يكن بالإمكان تطبيق اتفاق ليون . وكانت هذه حال كل المحاولات اللاحقة : ففي ١٣٦٩ م ، ذهب جان الخامس باليؤلوغ إلى روما على أمل أن يرى فيها نجدات وقبل المجاهرة بالإيمان الكاثوليكي . وما لبث أن خلع . وفي ١٤٣٠ م ، قبل جان الثامن بدوره ، في مجمع فلورنسا ، الاعتراف بالتفوق الروماني . وعبثاً حاول الإمبراطور المساعدة العسكرية التي يؤملها من الغرب ، فأثار بذلك غضب الأكليروس والشعب الإغريقي اللذين رفضا قبول قراره .

ولم يتخل عن الدولة البيزنطية الشعب والرهبان فحسب ، وإنما أيضاً من كانوا يظنون أنهم حماتها . إن المعمرين (المستعمرين) العسكريين ، الذين ضربوا بضرائب ثقيلة ، أخلوا الحدود . والأمراء التابعون للإمبراطور وكبار الإقطاعيين ما كانوا ليفكروا إلا بالاستفادة من ضعف الإمبراطورية . وفي هذه الظروف ، لم يستطع الأباطرة الاعتماد أبداً إلا على المرتزقة أو على التعزيزات المخولة من الغرب بتقتير مفرط لمجابهة الأخطار الخارجية . وهؤلاء المرتزقة الذين يساء دفع أعطياتهم ، كانوا خالين من وسوسة الضمير ، ولذلك كانوا على استعداد دوماً للقيام بالثورة . وتاريخ الحملة الكاتالانية يقدم أفضل مثال على ذلك . فقد دخل هؤلاء الكاتالانيون في خدمة الملك فريديريك آراغونة عندما كان يناضل ضد الآنجفيين في صقلية . وعندما اضطرت السلالة الآنجفية في صلح كالتابللوتا للتخلي عن صقلية ، وجد المرتزقة الكاتالانيون دون عمل . فاستنجد الإمبراطور أندرونيك الثاني بهم ، وفي ١٣٠٣ م ، وصل روجه دو فلور ، رئيس الحملة المجيد ، إلى القسطنطينية مع ٦٥٠٠ رجل ، سمي الدوق الأكبر ، ثم القيصر ، وأبحر إلى كيزيك وسحق الترك الذين كانوا يحاصرون فيلادلفيا . ولكن المرتزقة الكاتالانيين ، بعد النصر ، أخذوا ينهبون البلد ويهاجمون على سبيل المثال مدينة مانيزي البيزنطية . واستطاع الإمبراطور أن يقيمهم في شتاء ١٣٠٤ ـ ١٣٠٥ م في شبه جزيرة غاليبولي . بيد أن الاستياء أخذ يزداد أكثر فأكثر في القسطنطينية ضد هؤلاء الجنود الأجانب المستعلين . وهؤلاء ، من جهتهم ، كانوا يشتكون من عدم دفع أجورهم . وفي نيسان ١٣٠٥ م ، قتل الإمبراطور المشارك ميشيل التاسع في قصره على يد روجه دو فلور . وقامت الحرب منذ الآن بين الإمبراطورية والحملة الكاتالانية . وخلال عامين ، وبالرغم من جهود الإمبراطور لإزاحتهم عنها ، فتك الكاتالانيون بأرياف تراكيا . وفي ١٣٠٨ م انتقلوا إلى تسّاليا ونهبوها ووضعوا أنفسهم في خدمة غوتيه آثينة ضد البيزنطيين . بيد أنهم اختلفوا مع

سيدهم الجديد وسحقوا الفرنجة في سيفيزوس بيوتيـا (آذار ١٣١١ م) . وفي أثينـة وطيبة حلت أمارة كاتالانية محل النفوذ الفرنجي .

وهذه المغامرة الخارقة للعادة من قبضة جنود تكشف كم كانت حالـة التفتيت في الشرق اللاتيني والإغريقي متقدمة في وقت اتضح فيه خطران خارجيـان : في الشمال الدفع السلافي ، وفي الشرق خاصة التهديد التركي .

تشكيل الأمم البلقانية

إن مصـاعب الإمبراطـوريـة البيزنطيـة في آخر القرن الثـاني عشر ، ومن ثم الفتـح الفرنجي ، قـد سـاعـدت شعـوب البلقـان على التحرر من وصـايـة القسطنطينية . وفي القرن الثـالث عشر ، كانت المملكـة البلغـاريـة التي يسميها المؤرخون (المملكة البلغارية الثانية) مقابل المملكة التي أوجدها قـديماً بوريس وسيميؤن ، تمتـد بشكل عريض في البلقـان تحت إدارة سـلالـة آل آزن ، وقـد حكم جان آزن الثاني (١٢١٨ ـ ١٢٤١ م) أحد عظماء عواهل هـذه الـذريـة ، على بلاد تضم ألبانيا وماكدونيـا ، وتسـاليـا ، وتراكيـا وجزءاً من صربيـا . حـالف مملكتي صربيا وهونغـاريـا وحصل على الاعتراف بـالاستقلال الـذاتي الـديني لبلغـاريـا . ولكنه أخفق فيما بعد في محاولة لنزع مدينة القسطنطينية من يـد اللاتين . وكانت عـاصمتـه ترنوڤو آنـذاك من ألمع عـواصم البلقـان . ومـع ذلـك ، فمنـذ آخر القرن الثالث عشر ، دخلت الدولة البلغـاريـة في حـالـة انحطـاط ، فقـد استعـاد منهـا ميشيل باليؤلوغ ماكيدونيا وألغى الاستقلال الذاتي الديني في المملكة البلغـاريـة . وفي القرن التـالي ، وقعت (مملكـة بلغـاريـا الثـانيـة) في الفـوضى وأكثر فـأكثر خضعت للضغوط الخـارجيـة . ولم تمكنهـا (الحمـايـة) البيزنطيـة من الخلاص من الإمبريـاليـة الصربيـة . وفي ١٣٣٠ م ، أبـاد الصرب الجيش البلغـاري في فيلبوزد (كوستانديل) . ومنذ الآن فصاعداً أصبح تطور البلقان يصنع تحت شارة الهيمنة الصربية . وتثبتت هـذه الهيمنـة تحت حكم دوشـان (١٣٣١ ـ ١٣٥٥ م) وبفضل

الخلاف الذي وضع مطالبين متنازعين في الإمبراطورية البيزنطية : جان الخامس وجان كانتاكوزين ، استولى دوشان على كل ماكيدونيا ، وألبانيا وإبيروس وتساليا . وانتزع على هذا النحو من عاهل القسطنطينية نصف إمبراطوريته . وشعر بنفسه أنه أصبح قوياً وأعلن نفسه إمبراطور الصرب والرومان (أي الإغريق) . وتوج في ١٣٤٥ م في سكوبيا ولكنه مات في (١٣٥٥ م) قبل أن يحقق حلمه وهو الاستيلاء على القسطنطينية . وبعد موته ، بدأت الإمبراطورية الصربية بدورها تميل إلى الأفول . وكانت غير قادرة على مقاومة هجوم الأتراك الذين أحرزوا في ١٣٨٩ م على نصر حاسم في كوسوفو . ووقع الصرب والبلغار تحت السيطرة التركية . وهكذا فإن الدول التي أسستها الشعوب المنتسبة إلى جماعة شعوب (سلاف الجنوب) لم يكن لها في العصر الوسيط إلا وجود سياسي عابر ومتقطع . وإن القرب من جيران أقوياء جداً كثيراً يوضح جزئياً إخفاقها ، ولكن أيضاً عدم كفاءة هذه الشعوب لمهر نفسها بنظام سياسي مستقر . وفي الحقيقة أن البلغار والصرب اقتبسوا عن بيزنطة نظمها ، من ذلك : أن العاهل الذي يسمى (القيصر) يقلد البازيلوس في بلاطه ، وفي حكومته وإدارته . ولكن قوة الدولة محدودة ببنية المجتمع السلاقي الإقطاعية تماماً . والاقتصاد مؤسس على الحياة الزراعية ، والأرض تابعة لطبقة نبيلة قوية تمسك بالفلاحين في نوع من الرق وتعارض السلطة الملكية بثورات عديدة .

وبالمقابل ، إذا كانت الدول عابرة ، فإن الأمم تشكلت واستيقظت تحت التأثير الإغريقي ، ولكنها عرفت كيف تبدع تراثها الثقافي الخاص . كانت الكنائس إغريقية وأرثوذكسية ، ولكن تنظيمها كان ذاتياً وحيد الرأس . واللغة المختصة بالطقوس الدينية هي السلاڤونية . وفي الأديرة ترجمت عن الإغريقية مؤلفات دينية وتاريخية . وتألف الأدب الشعبي من أغاني وقصص حماسية تمجد الأبطال القوميين . وقد كان في آخر العصر الوسيط شفهياً . وقليلاً قليلاً دوّن

ونسخ في القرون التالية . والفن الصربي والبلغاري مدين كثيراً لبيزنطة . ولكنه غير خال من كل أصالة . ففي بلغاريا نجا القليل من أوابد العاصمة القديمة ترنوڤو في الحرب العالمية الأولى . ولكن في فرسكات كنيسة بوايانا بالقرب من صوفيا (في القرن الثالث عشر) وفي رسوم الكنيسة الصخرية في إيڤانوڤو (مقاطعة روسّيه) يرى أن الوجوه ، التي أعطاها الفنان للشخصيات المقدسة ، تضرب بواقعيتها . وفي غرب بلغاريا ، تقدم كنيسة دير زيمين ، وكنائس نسّيبر رسومات جدارية تدل شدتها التعبيرية على وجود فن شعبي . ويلاحظ في صربيا تطور مماثل : ففيما نرى أن رسومات كنائس أوهريد ونيريزي (في القرن الحادي عشر والثاني عشر) مدينة لريشات الفريسكيين (رسامو الفرسكات) الإغريق ، نجد أن جدران دير ميليزيڤا مزينة في القرن الثالث عشر من قبل فنانين صرب ؛ « لقد كانوا حساسين بقيمة وزن الكائنات والأشياء ... فأبدعوا صوراً كثيفة ضخمة ، ثقيلة ثابتة دوماً تقريباً » (غرابار) . وفي كنيسة سوپوكاني ، حيث يتجلى على الجدار الغربي لصحن الكنيسة موت العذراء ، يرى أن الصفة الآبدية العظيمة والتشكيلية للمشهد تعود إلى مزج سعيد من الإلهام القديم والواقعية الصربية .

وإلى جانب شعوب الصرب والبلغار التي اشتهرت في تاريخ العصر الوسيط ، بدأت أمم أكثر غموضاً تثبت وجودها : الألبانيون ، في جبال الليريا ؛ والرومانيون الذي بقي أصلهم موضع نقاش . وكل هذه الشعوب ستغرق مثل بيزنطة بالموجة التركية ، ولكن تقاليدها في آخر العصر الوسيط قد توطدت وثبتت وتأكدت لتساعدها على اجتياز خمسة قرون من الاحتلال العثماني دون أن تفقد وعيها القومي .

٤ ـ نمو السلطة العثمانية ونشأة روسيا الموسكوفية

لقد نمت السلطة العثمانية ببطء في سياق القرن الرابع عشر ، ولكنها توصلت ، في آخر القرن الخامس عشر ، للسيطرة على البحر المتوسط الشرقي كله .

الزخم الأول للفتح العثماني

في شبه جزيرة آسيا الصغرى التي احتل الأتراك القسم الأعظم منها ، منذ آخر القرن الحادي عشر ، أدى زوال السلطان السلجوقي ، في بداية القرن الرابع عشر ، إلى تقسيم شعبها إلى عدة بيوت تركية محلية . واستيقظت الحمية الحربية عند القبائل التي لم تحتوها سلطة مركزية ، على حساب الممتلكات البيزنطية الأخيرة في آسيا : فقد أفلت ساحل بحر إيجه من أيدي الإغريق بالرغم من تدخل الشركة الكاتالانية ؛ وعلى الشواطئ الآسيوية للبحر الأسود ، استطاعت إمبراطورية طربزون الإغريقية وحدها أن تتماسك وتبقى . وبين الإمارات التركية في آسيا الصغرى ، كانت إمارة عثمان أبعد من أن تكون أهم من غيرها . ولكنها كانت حسنة الموقع الجغرافي في شمال غربي شبه الجزيرة ، بالقرب من الإمبراطورية البيزنطية . وهذا ما شجع توسعها . فتحت حكم عثمان الأول (١٢٨١ ـ ١٣٢٦ م) وحكم ابنه أورخان (١٣٢٦ ـ ١٣٦٠ م) توسعت الرقعة العثمانية في آسيا الصغرى ، ومنذ ١٣٢٦ م أصبحت بروسا عاصمة الإمارة وبلغت شواطئ مرمرة . وفي سياق السنوات التالية ، فتحت نيقية (١٣٢٩ م) ثم

نيكوميديا (١٣٣٧ م) . وأفاد أورخان من المنازعات الداخلية في بيزنطة حيث وقف جان الخامس وجان كانتاكوزين في وجه بعضهما ، وخول مساندته لهذا الأخير للاستيلاء على العرش وحصل مقابل ذلك على حصن على الشاطئ الأوربي للمضائق . واستقر الأتراك وعززوا قواهم في شبه جزيرة غالّيبولي . وتأكدت السلطة العثمانية في عهد السلطان مراد الأول (١٣٦٠ ـ ١٣٨٩ م) : فقد فرض نفوذه على السلالات التركية الأخرى في الأناضول . وانطلق في فتح أوربة ؛ واحتل تباعاً تراكيا والروميلي وماكيدونيا . وفتحت أدرنة وأصبحت في ١٣٦٣ م عاصمة العثمانيين الجديدة . وتابع بايزيد بن مراد ، سياسة التوسع في أوربة . وكانت إمارات البلقان السلافية منقسمة جداً ولا تستطيع أن تؤلف جبهة أمام العدو المشترك : ففي كوسوفو (١٣٨٩ م) سحق الصرب نهائياً . وأصبحت صربيا وبلغاريا دولتين تابعتين للسلطان العثماني . وهذا الفتح جعل من الأتراك جيراناً لهونغاريا . وطلب الملك سيجيسموند النجدة من دول أوربة الغربية ؛ وبالرغم من وصول جنود من الصليبيين البورغونيين ، وهم قلة ، سحق الجيش الهونغاري في نيكوبوليس في ١٣٩٦ م . غير أن جيشاً صغيراً مؤلفاً من ١٢٠٠ رجل أرسلهم ملك فرنسا شارل السابع ، بناء على طلب الإمبراطور ، مانويل الثاني ، كان أسعد حظاً . وكان رئيسه الماريشال دو بوسيكو . وأحرز نصراً على الأتراك بالقرب من القسطنطينية . ولكن جنوده كانوا قلة قليلة لتأمين دفاع عن القسطنطينية محكوم عليه بالإخفاق أمام عودة هجوم تركي . وفي الحين الذي ذهب فيه مانويل الثاني يشحذ من أوربة المساعدات والجنود ، حدث حادث طارئ عنيف أوقف التوسع العثماني : ففي ١٤٠٢ م غلب السلطان بايزيد وأخذه تيمورلنك أسيراً .

فتح البلقان وأخذ القسطنطينية

خولت هذه الضربة المسرحية الإمبراطورية البيزنطية مهلة قصيرة جداً . ولم

يتوقف التقدم العثماني إلا عشرين سنة . وفي الواقع ، أن تيمورلنك ، حسب عادته ما كان ليهتم باحتلال ولا بتنظيم البلد المغلوب . وتجزأت الإمبراطورية العثمانية إلى إمارات مستقلة ذاتياً : فالسلالات التركمانية في آسيا الصغرى أمسكت بالسلطة من جديد . وانفصلت بلاد أوربة عن بلاد آسيا وقسمت بين أبناء بايزيد ، ولم تحاول الشعوب المسيحية أن تثور ضد السلطة التركية . وهكذا كفت عشر سنوات أحد أولاد بايزيد ، محمد الأول ، لطرد إخوته وتوطيد النفوذ العثماني في آسيا الصغرى . واستطاع خلفه مراد الثاني (١٤٢١ ـ ١٤٥١ م) أن يعاود الهجوم في أوربة . وفي ١٤٢٢ م جاء يحاصر القسطنطينية ولكن دون نجاح . وللنجاح ، كان عليه قبل كل شيء أن يحذف عدة خصوم وقفوا في طريقه . وإذا استطاع أن يستولي دون مشقة على تسالونيكا (١٤٣٠ م) والبوسنة والأفلاق ، فقد اصطدم في الواقع بمقاومة هونغارية فظيعة . وتوصل البطل الهونغاري جان هونيادي إلى تحرير صربيا بفرض هزيمة مزدوجة على مراد . والبابا الذي التمسته بيزنطة ، وتشجع بهذا النجاح . جهز جيشاً صغيراً مؤلفاً بخاصة من بولونيين ورومانيين ووضعه تحت قيادة ملك هونغاريا . ولكن في ١٤٤٤ م سحق الهونغاريون وحلفاؤهم في فارنا من قبل الجيوش التركية . ومنذ الآن ترك الغرب البلقانيين لمصيرهم . وفي هذه الشبه الجزيرة التي أصبحت تحت السلطة التركية قاومت ألبانيا بزعامة رئيس محلي ، جورج كاستريوتا الملقب بـ سكاندربغ ، ومدينة القسطنطينية وحدها .

وأعد محمد الثاني منذ توليه العرش (١٤٥١ م) حصار المدينة . وكانت القسطنطينية منعزلة عن البحر الأسود ببناء حصن على الضفة الأوربية لمضيق البوسفور . وأرسل حملة تركية إلى مورة حالت دون وصول كل تعزيز . وفي نيسان ١٤٥٣ م ، حوصرت العاصمة بكاملها . ودافع عنها الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر ببسالة . ولكن الأتراك وهم أكثر عدداً كان تحت تصرفهم مدفعية

قوية وفتحوا ثغرات واسعة في سور تيؤدوس ، بينما استطاع أسطولهم أن يمر من بحر مرمرة إلى قرن الذهب .

كان الهجوم النهائي في ٢٩ أيار . وفي العشية احتفل بآخر قداس رسمي في كنيسة آيا صوفيا . وقتل الإمبراطور في الكفاح الأخير . وانتصر محمد الثاني ودخل ممتطياً صهوة الجواد إلى آيا صوفيا : وتعرضت المدينة خلال ثلاثة أيام للنهب والقتل قبل أن تصبح عاصمة جديدة للإمبراطورية العثمانية . والمقاومات الأخيرة سقطت في السنوات التالية وهي : في ١٤٦٠ م استولى محمد الثاني على ميسترا ؛ وفي السنة التالية استسلمت طربزون بدورها ولم يبق شيء من الدولة البيزنطية ولا من الممالك السلافية في جنوب نهر الدانوب . ومن الممتلكات اللاتينية في البحر المتوسط الشرقي لم يبق غير رودوس حيث استقر فيها فرسان المستشفى حتى بداية القرن السادس عشر . أما كريت البندقية وقبرص فقد وعدتا ببقاء أطول قليلاً .

ويبقى أن نشرح هذا الحظ العجيب لما لم يكن في البدء غير قبيلة تركية غامضة . إن هذا الفوز يرجع أولاً إلى ضعف الخصوم الذين قابلهم الأتراك : الدولة البيزنطية كانت ملغومة بمنازعات داخلية ، ومحرومة من دعم غربي جاد . ولذا كانت غنيمة سهلة . وسكان البلقان من إغريق أو سلافيين ، فضلوا في الغالب قبول الاحتلال التركي دون كفاح ليجتنبوا النهب والاجتياح اللذين قد تجرهما المقاومة عليهم . ويبدو في نظرهم أن النفوذ العثماني كان أقل خطراً من وصاية اللاتينيين . وكالعرب سابقاً في آسيا وفي إفريقية المسيحيتين ، جاء الأتراك بالنظام والسلام ، واحترموا الدين الإغريقي وأوجدوا لأبناء البلاد الأصليين مكاناً في الإدارة المحلية .

ولكن أهمية وسرعة التوسع تعودان إلى قيمة الأتراك أنفسهم في الفتح وإلى تنظيم المناطق المفتوحة أيضاً . لقد عرف السلاطين العثمانيون كيف يؤلفون

لأنفسهم قوة عسكرية عظيمة . وأفادوا من تقاليد الغزاة القديمة ، من جنود الحرب المقيمة منذ قرون على الحدود البيزنطية وألحقوا بهؤلاء المحاربين الأتراك (جيوشاً جديدة) ، بالتركية يني تشري ، المعروفة باللغة العربية (الإنكشاريين) . كان هؤلاء الجنود ينزعون منذ طفولتهم من عائلاتهم المسيحية في البلقان ، ويربون تربية إسلامية ويرتبطون بالعاهل كأرقاء ، وهؤلاء الإنكشاريون يؤلفون جيش المشاة الدائم ، القوة الأساسية للجيوش العثمانية . ويستمدون قوتهم القتالية الأسطورية من حماستهم الدينية ، وكانوا نظاماً دينياً قتالياً حقيقياً ، ومعادلاً إسلامياً لفرسان المعبد أو المستشفى . وكان الفقهاء في الشريعة والدراويش (رجال دين) يوجهونهم .

ولم يكن تنظيم هذه الإمبراطورية الواسعة ، وليدة الفتح ، أقل وجاهة : لقد تأمن النفوذ التركي بمركزية قوية . والإمبراطورية كلها ملك للسلطان . والحكام وكبار الضباط الموظفين الذين يمثلونه في الأقاليم المختلفة يرتبطون به بصورة وثيقة ، ويأخذون مقابل خدماتهم موارد معينة على أراضي دومينات ، ولما كانت هذه الدومينات لا تخصهم ، فلا تتشكل إقطاعية خطرة دوماً على السلطة المركزية . ومع ذلك فإن السلاطين أبعدوا عن الحكم والإدارة الأرستقراطية المسلمة في آسيا الصغرى التي يعتبرونها مشاغبة كثيراً . ولذلك فضلوا للحكم أن يحيطوا أنفسهم بأرقاء أصلهم كأصل الإنكشاريين : ومنذ فتوتهم كانوا يسكنون في القصر ويشكلون مجموعة خدم شخصية طيعة جداً لأوامر العاهل . لقد كان النظام العثماني سلطوياً ومركزياً ومع ذلك بقي مرناً بكفاية ومتسامحاً للتكيف مع تنوع الشعوب التي يسودها . والحياة اليومية لأبناء البلاد لم تضطرب . فقد أبقى العثمانيون على الأنظمة الضريبية السابقة القديمة . وقبلوا في الإدارات المحلية مسيحيين مهتدين صابئين . وبالرغم من أن السلاطين يحكمون كأمراء مسلمين ، ويشيدون في كل مكان مساجد ومدارس ، فإنهم لم يقوموا بأي ضغط للحصول على

صبأ جماهير الشعوب البلقانية . وهذا التسامح نجده في الحياة الاقتصادية والفكرية . فقد قبل السلاطين وجود تجار غير مسلمين في الإمبراطورية واكتفوا بإخضاعهم للضريبة . وكان الفلورانسيون والبنادقة يختلفون إلى القسطنطينية . وترك العواهل أيضاً حرية تفتح حضارة البلاد المفتوحة : فإلى جانب الأدب التركي الذي يبحث أيضاً عن طريقه ويكتفي بترجمة مؤلفات مكتوبة بالفارسية والعربية ، وجد إنتاج لغة إغريقية ؛ وتابعت فلسفة افليطون ميدان عملها في القسطنطينية . ووجد إغريقي آخر وهو كريستوبولوس مؤلف حياة (ترجمة) محمد الثاني . وعلى الصعيد الفني ، كان النصيب التركي أكثر أهمية . فالسلاطين لم يكتفوا بتحويل الكنائس المسيحية ، مثل آيا صوفيا ، إلى مساجد ؛ ففي القسطنطينية بدأ محمد الثاني بتشييد المسجد المسمى مسجد (الفاتح) . ودعا إلى بلاطه رسامين إيطاليين : مثل البندقي جانتيل بيلليني وكلفه برسم صورة شخصية له .

ومنذ آخر القرن الخامس عشر ، ظهرت الإمبراطورية العثمانية دولة من أقوى دول البحر المتوسط الكبرى . ارتقى بها فتح سورية ومصر والعراق ، وهونغاريا في أوربة ، في النصف الأول من القرن السادس عشر ، إلى الأوج .

نشأة روسيا الموسكوفية

لم يبق في الشرق الأرثوذكسي في آخر القرن الخامس عشر إلا روسيا الموسكوفية .

محاولة نوفغورود

نشأت إمارة موسكو من عمل غامض لجمع الأراضي بدأ في العصر المغولي . فقد تدخل الغزو المغولي (١٢٢٣ - ١٢٤٠ م) في عصر كانت فيه روسيا كييف في حالة انحطاط وانقسمت إلى إمارات عديدة ، ولعب دوراً قطعياً في مقدرات البلاد . ولم

يكن هذا البلد مع ذلك محتلاً من قبل المجتاحين ؛ لأن المغول ، بعد أن اجتاحوا البلد ودمروا كييف (١٢٤٠ م) ، اكتفوا بوضع الإمارات الروسية في سيادة الخان ؛ وكان على الأمراء أن يقدموا احترامهم وولاءهم له لتسلم تقليد دولتهم . وفرضت ضريبة من الفرو ثم ضريبة مالية يجب أن تدفع كل عام ، وجهزت جنود مرتزقة للحملات البعيدة . وفي الحد الذي يؤدون هذه الالتزامات يستطيع الروس أن يحافظوا على أمرائهم وقوانينهم وإدارتهم . ولم تضطهد الكنيسة الروسية . ولكن الواقع المغولي حول تاريخ البلاد الروسية عن مجراها القديم : وبتدمير كييف يرى أن المناطق الجنوبية والغربية في روسيا القديمة ، روسيا كييف ، لم تعد تلعب دور المركز الموحِّد ؛ واتجهت نحو الغرب الكاثوليكي . وانفصلت غاليسيا عن الإمارات الروسية وآلت ، في القرن الرابع عشر ، إلى السقوط في أيدي البولونيين ، وشملت أقاليم الفولهينيا ، والبودوليا ، ومنطقة كييف في (دوقية ليتوانيا الكبرى) . والقبائل الليتوانية التي لا تنتسب للجماعة السلافية توحدت في الواقع نحو منتصف القرن الثالث عشر . وجذب الأمراء الليتوانيون إليهم الروس الغربيين على هذا النحو وانتهوا بتشكيل إمارة واسعة روسية ـ ليتوانية امتدت في القرن الرابع عشر من البالطيك إلى البحر الأسود ، ومن البوغ ، في الغرب ، حتى ضفاف نهر الأوكا رافد نهر الفولغا ، في الشرق . وهكذا فإن كل الجنوب ـ الغربي لروسيا القديمة نجا نهائياً من الوصاية المغولية ، ولكن لينتقل تحت النفوذ الليتواني أو البولوني . وبطريق النتيجة ، انتقل مركز ثقل البلاد الروسية نحو الشمال ـ الشرقي . وكانت هذه المناطق مقسمة إلى إمارات نشأت من تداعي روسيا كييف وانتقلت تحت سيادة الخانات . وكان منها اثنتان : إمارة نوفغورود وإمارة سوزدال ، وكانتا مدعوتين لأن تلعبا تباعاً دوراً قطعياً . وكانت نوفغورود في القرن الثالث عشر أهم من سوزدال ، فقد نجت من التدمير المغولي بفضل الموقع الجغرافي وهي مدينة على بحيرة إيلمن وامتدت

سيطرتها ونفوذها إلى مدن مجاورة : بسكوف ، لادوغا ، وإلى أراضي يسكنها الفنويون على سواحل البحر الأبيض وعند قدم جبال الأورال . وشجع موقعها نهضة تجارية : فقد أقامت نوفغورود علاقات مع بلاد البالطيك وبحر الشمال ؛ وأسس فيها تجار الهانس مركزاً . وكانت أيضاً محطة على الطرق التي تأتي من بحر الشمال والأورال . وهذا النشاط التجاري أعطى للمدينة بنية اجتماعية خاصة ، فمن ذلك أن نبلاء من كبار الملاكين العقاريين ومتعهدي التجارة معاً ، قد سيطروا على شعب مؤلف من الحرفيين وصغار التجار ، واحتكروا حكم المدينة . وفي الأصل ، كان مجلس الشعب (فيتشه) يمتاز بانتخاب الحاكم الذي لم يكن آنذاك غير ممثل لأمير كييف الكبير . ثم أصبحت نوفغورود جمهورية مستقلة ذات نظام أوليغارشي (حكم أقلية) . وكان الأمير ينتخب من قبل النبلاء خارجاً عن كل قاعدة وراثة ، وعليه أن يقسم اليمين (إلى عاهل نوفغورود الأكبر) . وقد عرض موقع نوفغورود المتطرف الملائم للتجارة المدنية إلى تهديدات خارجية . فالأمة الجرمانية في توسعها نحو الشرق اقتربت بصورة خطرة من المدينة : فمن ذلك أن نظام حملة ـ السيوف ، بعد أن نصّر الشعوب البالطية وأسس ريغا (١٢٠٠ م) انصهر مع الفرسان التوتونيين وهدد مباشرة نوفغورود . وفي الشمال ـ الشرقي ، كادت السويد سيدة الأراضي الفنلاندية أن تضع إمارة نوفغورود بين فكي كماشة النفوذ الأجنبي . ولكن سكانها صمموا الدفاع عن أنفسهم : ففي ١٢٤٠ م ، أحرز أمير نوفغورود ، ألكسندر ، على السويديين ، غير بعيد عن ضفاف نهر النيفا ، نصراً مبيناً حاسماً خوله لقب نيفسكي . وفي ١٢٤٢ م ، هزم على جليد بحيرة بيبوس الفرسان الجرمانيين . وأصبح ألكسندر بطلاً قومياً ومنح اللقب « أمير فلاديمير الأكبر » الذي خوله سلطة أمير على الإمارات المجاورة في سوزداليا (١٢٥٢ م) . ووجدت كل روسيا الشمال الشرقي إذن موحدة تحت إدارته التي تحترم السيادة المغولية . ولكن موته في (١٢٦٣ م) أتبع بتفتيت

جديـد للقوى السيـاسيـة ، وبفضل هـذا التفتيت استولت السوزداليـا على الـدور الرئيسي .

السوزداليا وموسكو تفرضان نفسيهما

في هـذه المنطقـة الواقعـة بين الڤولغـا والأوكا غمر الروس قليلاً قليـلاً الشعب الفينوي القديم . ونمت إمارة في سياق القرن الثاني عشر ، وذلك أن جمـاعـات من المعمرين قد أحيوا الأرض ، ورسموا طرقاً ، وبنوا أدياراً ومدنـاً ؛ فـإلى المـدينتين القـديمتين في سـوزدال ، رستـوف وريـازان ، أضيفت مـدن فـلاديمير : تڤير ، كوسترومـا ، تولا ، وموسكو (١١٤٧ م) ؛ وحلت فـلاديمير أخيراً محـل سـوزدال كعـاصمـة . وتحت السيـادة المغـوليـة ، عرفت السـوزداليـا هي أيضـاً التجـزئـة السياسية . وذلك أن التقسيمات الوراثية ضاعفت الإمـارات . ولقب أمير فلاديمير ليس إلا نعتاً شرفياً أعطي حسب رغبة الخانات المغول الطيبـة إلى أمير أو آخر من صغار أمراء سوزداليا . وأعطاه ألكسندر نيفسكي ، خلال فترة ، بعض الوجاهـة . ولكن الأراضي التي جمعها انفصلت عند وفاتـه . وأخـذ الابن الثـاني لـه ، دانيل ، في التقسيم ، إمـارة موسكو . وحول هـذا المركز ، الـذي كان آنـذاك صغيراً وتحت إدارة آل دانيلوڤيتش ، ستعود الوحـدة الروسيـة من جـديـد . ولم تستطع كييڤ ونوفغورود ، وسوزدال ، وڤلاديمير إلا تشكيل إمـارات عـابرة . وهيـأت الـدولـة الموسكوڤية روسيا الحديثة .

كان نمو السلطـة الموسكوڤيـة بطيئـاً . وعمل آل دانيلوڤيتش بصبر على توسيع منطقة نفوذهم على حساب الإمارات المجاورة . وكان لأوائل خلفـاء دانيل ، ابنيـه جـورج (١٣٠٣ ـ ١٣٢٥ م) وإيڤـان الأول (١٣٢٥ ـ ١٣٥٩ م) من المهـارة مـا سـاعـدهمـا على الاعتماد على المغـول . إن إيڤـان الأول الملقب بـ كاليتـا[1] أي

(١) الكاليتا : كيس يعلق بالحزام في العصر الوسيط .

الكيس لكفاءته المالية ، كان مكلفاً بفرض ضريبة للخان على كل الأرض الروسية ، وأخذ لقب **الأمير الأكبر** . وفي منتصف القرن الرابع عشر كبرت إمارة موسكوفيا إثر الحروب أو المعاملات التجارية وشملت مدن كولومنا وتفير ، وريازان ، وسوزدال . وفي هذا العصر أصبحت موسكو عاصمة روسيا الدينية : ففي ١٣٢٦ م ، استقر رئيس أساقفة فلاديمير في موسكو . ولكن عند وفاة إيفان افتتح بالنسبة لموسكوفيا قرن مشاكل خطيرة : فقد خضعت مراراً لهجومات تألب جمع الأمراء الليتوانيين والمغول وقبيلة الذهب والمدن الروسية المنافسة ، وتجزأت الإمارة الموسكوفية تحت حكم سيميون المتغطرس ، وإيفان الثاني . فقام عندئذ بطل قومي ديميتري دونسكويْ (١٣٦٢ ـ ١٣٨٩ م) الذي تمجده ملحمة الزادونشتشينا ووطد الحالة . جمع معظم الأمراء الروس وقام ضد المغول وسحقهم في **كوليكوفو** (١٣٨٠ م) ولم تكن هذه غير هدنة في النزاع الذي قامت به موسكوفيا في سبيل بقائها . وفي فترة تراخ ، بنتيجة تدخل تيمورلنك ، أثقل النير المغولي من جديد في بداية القرن الخامس عشر . وفي الوقت نفسه كانت القوة أو السلطة الليتوانية أخطر منها في أي وقت مضى ؛ فقد أحرز الأمير الليتواني ڤيتولد نصراً حاسماً على الفرسان التوتونيين في تاننبرغ في ١٤١٠ م ، واستأنف دسائسه ضد موسكو . وبالرغم من جهود ڤاسّيلي الأول ، احتل مناطق الأوكا الأعلى . ولحسن الحظ فإن موت فيتولد (١٤٣٠ م) أغرق ليتوانيا في الحرب الأهلية في الوقت الذي ضعفت فيه بسبب المنازعات الداخلية ، وكان على ڤاسّيلي الثاني (١٤٢٥ ـ ١٤٦٢ م) أن يجابه مزاعم أعضاء أسرته . وسقط في أيدي أحد منافسيه الذي أعماه ، ولكن فاسّيلي الأعمى انتصر أخيراً في (١٤٥٣ م) ، واستطاع أن يعاود ، في السنوات الأخيرة لحكمه ، سياسة التوسع . فقد فرض سيادته على جمهوريات نوفغورود ، وبسكوفي وريازان . وفي عهده وضعت حوادث حاسمة لمستقبل موسكو : ففي ١٤٣٩ م ، في مجمع فلورانسة ، كان

بطريرك القسطنطينية قد قبل اتحاد الكنائس ، ورئيس أساقفة (متروپوليت) موسكو ، إيزيدور الإغريقي ، تبعه في هذا السبيل . ولكن ڤاسّيلي الأعمى لم يعترف به وأمر بخلعه . ومنذ الآن فإن رؤساء أساقفة موسكو لا يعينهم بطريرك القسطنطينية . وهم روس ، وليسوا إغريقاً . وأصبحت الكنيسة الروسية كنيسة قومية . وعندما زالت أو سقطت بيزنطة في ١٤٥٣ م تحت ضربات الترك ، استطاعت موسكو ، آخر حصن للأرثوذوكسية ، أن تطالب شرعاً بوراثتها .

حكم إيڤان الثالث الحاسم

جنى إيڤان الثالث (الكبير) (١٤٦٢ ـ ١٥٠٥ م) ، ثمار جهود طويلة غامضة ، وكان أول عاهل كبير لموسكو . وأفاد من التفتت الداخلي لخانة القوم الذهبي . فقد اعتمد على خان القرم المنشق منغلي جيريْ . ورفض أن يدفع الضريبة لأحمد الخان الكبير . وزحف هذا على موسكو وأخذ موقعه أمام جيش إيڤان على الأوغرا ، وخلال عدة أيام راقبت الجيوش بعضها . وأخيراً لم يجرؤ أحمد على القيام بالقتال وفضل الانسحاب . وهذه الحملة دون قتال حررت إذن نهائياً روسيا من السيطرة المغولية (١٤٨٠ م) . وكانت هذه السيطرة في عز أفولها ، فقد عاشت قبيلة الذهب حتى اليوم الذي سحق فيها آخر خان لها في ١٥٠٢ م من قبل خان القرم . ولم يبق من الحضور المغولي في هذا التاريخ في روسيا الجنوبية إلا ثلاث خانات صغيرة انفصلت عن القبيلة وهي خانات : **القرم** ، **وقازان** ، **واستراخان** . وانطلاقاً من ١٤٩٢ م وجه إيڤان الثالث جهوده ضد ليتوانيا التي اضطرت إلى التخلي عن ماضمته من مناطق تحققت على حساب الأراضي الروسية . وحرمت نوفغورود من هذا الدعم الأجنبي بعد أن حاولت أن تجد ثانية استقلالها الذاتي ، وضمتها موسكو إليها : إن ٨٠٠٠ من أغنى سكانها نفوا إلى موسكوڤيا ، وطرد تجار الهانس من المدينة التي تدمرت تجارتها . وفي آخر القرن الخامس عشر شملت موسكوڤيا : ياروسلاڤ ، روستوڤ ، برم ، نوفغورود ،

بسكوف ، تفير ، وريازان . وأرسلت حملات إلى سيبريا . واستطاع إيفان الثالث الذي تزوج أميرة بيزنطية ، صوفيا باليؤلوغ ، أن يتطلع ليكون (عاهل روسيا كلها) وخلف قياصرة القسطنطينية أي قيصراً . وأصبحت موسكو روما الثالثة وتعامل إيفان مع كل الدول الغربية العظمى .

إن العواهل الموسكوفيين في جهودهم لتوسيع إمارتهم ، شادوا ملكية تسلطية مستبدة ، ولم يتوقف نمو السلطة المركزية بأي عائق عظيم . ولم تكن لمدن سوزداليا ، والمدن الجديدة مثل فلاديمير وموسكو ، تقاليد سياسية ونشاط تجاري هام ، وما كانت لتملك مثل نوفغورود مجلساً يمكن أن يعارض إرادات الأمير . وكانت سلطة الأمراء ، البويار ، عظيمة : ففي مناطق إحياء الأراضي الحديث ، كانوا المنظمين لعمل المعمرين . وسلطتهم على الفلاحين تعززت بدورهم في جمع الضريبة العائدة للمغوليين . وهكذا تشكلت دومينات كبرى شبيهة بدومينات الغرب الكارولنجي ، وكان الفلاحون الأحرار يطلبون مساعدة كبار الملاكين ، ولذلك وقعوا وأصبحوا تابعين لهم . واستطاعت الملكية الموسكوفية ، الغنية والقوية بفضل مكاسبها الأرضية أن تبعد البويار عن الأعمال الإدارية . وأسست جماعة من الموظفين يأخذون ، بصفة امتياز مؤقت وغير وراثي ، حق التمتع بدومين يبقى ملكاً للأمير ، البوميستيه . وهذه الأرستقراطية من الموظفين تؤمن للعواهل النصر على نبل البويار . أما الفلاحون الخاضعون للأمراء المالكين أو واضعي اليد على البوميستيه ، فقد انزلقوا قليلاً قليلاً في حالة تجاور العبودية . وفي آخر القرن الخامس عشر ، لم يكونوا بعد متعلقين بالأرض . ولكن كان من الصعب عليهم أن يغيروا الدومين ، ونزعت السلطة المركزية إلى شراء وفاء الأمراء ، وذلك بأن تركت لهؤلاء السيطرة والنفوذ على الفلاحين .

روما الثالثة

لقد طالب قياصرة موسكو السلطويين المستبدين ، ورثة أباطرة القسطنطينية ، بتراث بيزنطة الروحي . وانطلاقاً من القرن الرابع عشر عرفت الكنيسة الروسية تجديداً قوياً . وفي أصلها ترتفع صورة القديس سرج . فقد ولد ، في روستوف حوالي ١٣١٣ م ، الشاب بارتلمي ، ووقف نفسه منذ فتوته للدين . وبعد وفاة أبويه انعزل مع أخيه في غابة رادونيج ، وبالقرب من كنيسة الثالوث الأقدس الصغيرة التي بناها بيديه ، قضى حياة ناسك منعزل وأخذ اسم سرج . ولقبه في القداسة جذب إليه بسرعة رفقاء وبنيت خلايا حول الكنيسة . وقبل بأن يصبح كاهناً وأباً للطائفة ، ثم ، بناء على أمر بطريرك القسطنطينية ، أن ينظم الحياة المشتركة بتبني القاعدة المتبعة في دير القديس - تيؤدور في كييف . وقد أفادت الخوارق العديدة ، التي نسبت إلى سرج ، في نمو الدير (الأبوية) . والتمس أمراء إرسال رهبان ليؤسسوا في دوميناتهم أديرة . وهكذا أنشئ دير المنقذ (المخلص) في موسكو وأديرة كولومنا وسيربوخوف . وبعد موت سرج (١٣٩٢ م) تابع تلاميذه عمله . وأصبح نيكون أباً لكنيسة الثالوث ، وعمر كامل الدير الذي دمره الخان توكتاميش ، واستدعى لتزيينه الرسام أندريي روبليوف . وتأسس أكثر من ثلاثين ديراً جديداً في سياق القرن الخامس عشر . وأصبح الرهبان رسلاً : فرهبان القديس - إيتين في برم بشروا شعوب الشمال الذين مازالوا وثنيين . وهكذا أعطى القديس سرج ثانية للحياة الديرانية ولكل الحياة الروحية في روسيا انطلاقة جديدة . وهذه الانطلاقة أفادت النشاط الفكري والفني . وكانت الأديرة أيضاً وفي الواقع مراكز (بؤراً) تشع منها الحضارة . وفي المشاغل ، حيث تنسخ المخطوطات ، استيقظ التفكير السياسي والديني . وقد كتب رفيق إيتين دو برم ، إيبفاني الفيلسوف ، سيرة إيتين وسيرة القديس سرج . وحررت حوليات تشتمل على الحوادث التي طرأت

على روسيا . ودفعت حركة شرح وتفسير لمتن الكتـاب المقـدس ، شبيهـة بـالأدب الإنساني البيزنطي أو الإيطالي ،الرهبـان المثقفين إلى مراجعـة الترجمـات القـديمـة السلافونيـة للنصوص المقـدسـة . ونجم عن هـذه الحركـة (المرطقـة المتهودة) التي تتـابع عـادات اليهـود واحتفـالاتهم ، وبـدأت تظهر في نـوفغـورود في آخر القرن الخامس عشر . وهؤلاء المراطقة الذين ينكرون الثـالوث الأقـدس ويرفضون كل قيمـة لـلأسرار ، شجبـوا وأدينـوا في ١٤٩٠ م ولكنهم على الأقـل ظلـوا يبـاشرون نشاطهم .

وأثار تأسيس الأديرة والكنائس تجديداً للحياة الفنية . وتأكـد الفن الروسي وارثـاً للتقـاليـد البيزنطيـة . ولكن مـؤثرات أخرى دخلتـه وتغلغلت : مـؤثر الهندسة المعماريـة الشعبيـة من الخشب ، وخـاصـة في منطقـة نوفغورود ؛ وأيضـاً مؤثر الغرب الـذي أتى بـه المهنـدسون المعماريون الإيطـاليون . والمخطـط الكنسي الذي يميز الكنـائس الروسيـة عن الكنـائس البيزنطيـة ذات الصليب الإغريقي ، والقبب البصليـة لكاتـدرائيـة رئيس الملائكـة القـديس ميشيـل ، وكنيسـة مـوت العـذراء ، وكنيســة البشـارة في داخـل قصر الكرملن في مـوسكـو تميز فن العمارة القومية لروسيا الجـديـدة . والتزيين بـالصور قريب من النماذج البيزنطيـة . فقـد جاء العديد من الفنانين من الإمبراطورية البيزنطية واشتغلوا في موسكوفيـا . من ذلـك أن مـاكسيم الإغريقي رسم فرسكات كنيسـة تجلي الرب في نوفغـورود ورسم إيقونات عديدة . وتيؤفـان الإغريقي اشتغل في موسكو وخـاصـة في نوفغورود . وإن نمو الحـاجز الإيقوني ، هـذا الحـاجز الملبس بـالإيقونـات الـذي يعـزل المعبـد (الهيكل) ، واستعمال الألـوان الحيـة أعطى مـع ذلـك لهـذه المـدرسـة (مـدرسـة نوفغورود) بعض الأصالة . وأبرزت مدرسة موسكو أسلوباً روسياً خاصـاً . وكان ممثله الأكبر في بـدايـة القرن الخـامس عشر أنـدريي روبليوف ، فوجوهـه المفعمـة بالرشاقة الرخصة الناعمة تسبح في ظلام منير سري .

إن روسيـا المـوسكـوفيـة الـدولـة الـوحيـدة المستقلـة ، في الشرق الإغريقي والأرثـوذوكسي ، كانت مهيـأة في آخر القرن الخـامس عشر لتخلف بيزنطـة ، وتتابع عملها في جميع المجالات .

الفصل الثاني

مصاعب أوربة

المقدمة

لقد كان من نتائج الحملات الصليبية تشكل ممالك مسيحية في إسبانيا وإمارات فرنجية في سورية وفلسطين ، وخضوع الكنيسة الإغريقية لروما خلال فترة من الزمن ، وإمبراطورية لاتينية محل الإمبراطورية البيزنطية ؛ وتجار بنادقة وجنويون في وكالات ومؤسسات تجارية في البحر الأسود ، وعلى طرق آسيا الوسطى ، وشاطئ الصين . هذه هي نتيجة قرنين من الزمن عرفت فيهما المسيحية الرومانية والدول الغربية المنتصرة توسعاً خارجاً عن صعيدهما الخاص ، حتى الشرق . ومع ذلك ، فقد ظهرت منذ آخر القرن الثالث عشر المؤشرات الأولى للجزر بعد المد : فقد أعيد بناء الإمبراطورية الإغريقية ، وبدأ هجوم الاسترداد يلهث في إسبانيا . وتقلصت الإمارات الفرنجية بشكل خطر في سورية . وانطلاقاً من العقود الأولى للقرن الرابع عشر ، أصبح الانطواء عاماً ؛ لأن الأتراك العثمانيين الذين غلبوا بيزنطة اجتاحوا أوربة الشرقية ؛ ومن ثم ضعفت بلاد البلقان ، وهددت المناطق الدانوبية ، وأصبحت هونغاريا وبولونيا حصناً أمامياً للمسيحية الرومانية تجاه الأتراك المسلمين . ومن جهة أخرى ، انقطعت العلاقات المباشرة مع الشرق الأقصى . وفي حوض البحر المتوسط الشرقي قام القراصنة الأتراك بصيد السفن الإيطالية . وهكذا تقلصت آفاق أوربة السياسية والاقتصادية والدينية .

ومقابل هذا الانطلاق الجديد للإسلام على أيدي العثمانيين ، أظهر التراجع الأوربي الصعوبات الداخلية الخاصة بالعالم الغربي بين ١٣٢٠ و ١٤٥٠ م تقريباً . فمنذ بداية القرن الرابع عشر ، في الواقع ، ولأكثر من قرن ، تغير الجو الذي كانت تدور فيه الحياة الأوربية . فمن النصوص المعاصرة ، تواريخ ، مذكرات ، ومواثيق ، ترتفع شكوى الآلام : ففي كل مكان جاشت الحرب ممزقة المسيحية ؛ والمصائب المتكررة ، والأوبئة ، والجدب تحصد السكان ، وتحدث الاضطراب في الحياة الاقتصادية ، واستولى الاضطراب والقلق على العقول .

١ ـ الصعوبات المادية

١ ـ عصر النوائب

الطاعون والمجاعات

« نجنا ، ياإلهي ، من المجاعة ، ومن الطاعون ، ومن الحرب ! » . هذه الضراعة القديمة ، التي تتوجه بها البشرية إلى الله في زمن الشدة ، كانت سائدة في القرن الرابع عشر على أفواه الناس . وفي الحقيقة من الصعب التفريق بين الطاعون والمجاعة مادامًا مختلطين في الواقع : لقد ضعف الناس تحت وطأة سوء التغذية وأعيتهم الأوبئة بسهولة . وهذه الأوبئة بدورها أوقفت كل عمل في الحقول وفي المشاغل وتسببت في جدب جديد . لقد كانت المجاعة أول نائبة في أوربة الغربية منذ بداية القرن الرابع عشر . وتهديدها لم يزل بكامله أبداً . ففي كل سنة ، في الربيع ، في وقت اللحمة الموسمية ، وعلى آماد طويلة ، كانت السنوات العجاف توقظ القلق والخوف من العوز إلى القوت والغذاء . ومع ذلك فإن التواريخ لاتذكر كوارث كبرى منذ منتصف القرن الحادي عشر . وبالعكس ، انطلاقاً من بداية القرن الرابع عشر ، انفتح دور مجاعة بمنتهى الشدة الخطيرة . وفي الأصل ، بدأ يظهر بعدة سنوات رديئة المحصول جداً ، ورطبة كثيراً . حتى أن بعض المؤرخين المحدثين خاطروا بفرضية (ثورة مناخية) ، بدليل قرائن ، مثل تراجع الغابات في الكتل المحرجة في ألمانيا الوسطى (السوديت) ، والتخلي عن زراعة الحبوب في أيسلاندا ، وتراجع الكرمة في إنكلترا ، يبدو أنها تدعم هذه النظرية . ومهما يكن ، فإن صعوبات التموين ظهرت في ألمانيا ، منذ ١٣٠٩ م ، ثم تعممت في أوربة الشمالية كلها ، وبلغت أقصى شدتها في السنوات ١٣١٥ ـ ١٣١٧ م .

في يبر ، على سبيل المثال ، بين الأول من أيار و ٣٠ تشرين الأول ١٣١٦ م ، قضت المجاعة على ١٠٪ من السكان . وفي أقل من عشرين عاماً فيما بعد ، شكت بلاد البحر المتوسط بدورها من الجدب والقحط : فأكيتانيا ، واللانغذوك . والبروفانس ، وإسبانيا عرفت مصاعب خطيرة . ومنذ الآن ، أخذت محفوظات البلديات تشير دورياً إلى عودة المجاعات . وفقراء الناس ، من عمال المدن الفلاماندية ، ومن يعملون بسواعدهم من أبناء الأرياف الإنكليزية كانوا ضحاياها الأساسيين : لقد بلغت الحنطة مثل هذه الأسعار : (في تولوز ، بين تشرين الثاني ١٣٧٤ م ، ونيسان ١٣٧٥ م ، كانت الزيادة ٣٠٠٪) ، ومات الناس من الجوع . ومن جهة أخرى ، كانت الموانئ أقل بلاءً من مناطق الداخل : لأن الحبوب ظلت تسير عبر الطرق الدولية الكبرى ، على البحر ، أو على طول الأنهار ، لأن العوز إلى الحنطة لم يحصل ، في آنٍ واحد إلا استثناءً ، في كل أوربة . وعلى هذا النحو ، كان بإمكان بوردو أن تتمون من إنكلترا . أما في داخل منطقة واحدة ، فإن أسباب العيش ، من طعام وغذاء ، كانت تنتقل قليلاً . وكان بورجوازيو تولوز ينتجون قمحهم في الحقول المجاورة للمدينة ؛ وهكذا يتضح أن سكان يبر التابعة لسطح البلاد المجاورة ، ماتوا من الجوع في ١٣١٦ م ، على حين أن بروج الواقعة على بعد (٥٠) ك.م ، كانت أقل ألماً لأنها كانت تأخذ تموينها من موانئ المصب . وكانت الأرياف في الغالب مهددة بالمجاعة أكثر من بعض المدن .

في ١٣٤٧ م ، صاقبت سفن جنوية آتية من البحر الأسود شاطئ صقلية : وأتت معها بمرض فظيع عاث في حينه في القرم وجعل جسم ضحاياه أسود تماماً ، ومن هنا أتى اسمه الطاعون الأسود . فقد اختلطت بالطاعون الغددي ، الذي وصفه جان دوفينيت ، وينتقل عن طريق الفئران ولا ينتشر إلا في الصيف ، أشكال رئوية للطاعون أكثر خطورة لأنها تنتشر أيضاً في الشتاء . لقد انتشر

الوباء بسرعة مذهلة . ففي ١٣٤٨ م أصيبت بلاد البحر المتوسط وفرنسا ؛ وفي ١٣٤٧ م ، أوربة الوسطى ، البلاد المنخفضة ، إنكلترا ؛ وفي ١٣٥٠ م ، إيكوسيا والبلاد الإسكندناقية . وساعدت على انتشار الطاعون حالة سوء التغذية التي أضعفت الأجسام وجعلتها عرضة للمرض . يضاف إلى ذلك حفظ الصحة الرديء . لقد كانت المنازل بحالة يعوزها النور والهواء . وفي المدن ، حجم عدد النوافذ لأنها تسمح بدخول البرد ، وسدت في الغالب بورق مطلي بالزيت . وفي الريف ، لا ترى المساكن النور إلا من الباب . وفي هذا الجو العفن الراكد وغير المتجدد ، في تجاور المدن واختلاطها ، تركد القمامات ، النفايات من كل نوع ، أمام المنازل ، وتجتذب الخنازير التي تتشرد حتى في شوارع باريس ، وأخطر من ذلك ، الفئران ، ناشرة الطاعون الغددي .

وحاول سكان المدن عبثاً بشكل دائم ارتياد الحمامات العامة ، والريفيون التمتع بنسمات الطبيعة ، فكيف ، في غياب الماء الجاري ، ومصلحة رفع القمامات ، يمكن تأمين حفظ صحة جيدة ؟ إن النصوص المعاصرة أقوى معبر عن هذه الحالة ، ولا سيا ، الإرادات الملكية في باريس ، التي تتكرر دون كلل أو ملل في سياق القرن ، وعبثاً تلقي المسؤولية على قذارة الشوارع .

أما الطب فقد تجاوزته تماماً سعة الوباء . لقد حقق التشريح بعض التقدم في الكليات ، في إيطاليا وفي إسبانيا ، التي دخل إليها العلم العربي واليهودي . ولكن الأطباء ، في معظمهم ، وحتى مشاهيرهم ، عندما يدعون لزيارة المرضى من الأمراء ، يكتفون بمعرفة علمية مما في الكتب ، مستقاة عن المؤلفين القدامى ، ومشوهة بالمدرسية ، وإذا تباحثوا بأسلوب العلماء عن أصل الضرر عزوه أحياناً إلى لقاء الكواكب ، في جزء من السماء ، وأحياناً إلى تأثير المريخ الخبيث إله الحرب ، ولا يعرفون إلا تفضيل الأدوية المسكنة كالتطهير بالبخار . لقد كانوا مفعمين بنظرية فساد الهواء ، وينكرون أخطار العدوى . وتكشف عن عجز فن

الجراحين ومهارة الحلاقين الذين يحتقر نشاطهم ويقتصر على الضمادات والفصاد والمسهلات . إن فتك الأوبئة مرعب . ولم يكن جان دوفينيت الوحيد الذي صور لنا لوحة عن هذه المدن التي كانت تتراكم فيها الجثث ولا يقدر حفارو القبور دفنها بسرعة ، وفي بضعة أسابيع تأخذ المدن منظراً أو مشهداً حزيناً مخرباً .

وبعد فهل من الممكن حساب الخسائر البشرية ؟ إن المعلومات الدقيقة ، التي يمكن أن تعطيها بعض السجلات النادرة لكنائس القرى أو المستشفيات الباقية ، هي متناثرة جداً . فقد علم ، على سبيل المثال في قرية جيفري ، في بورغونيا ، أن ٦٤٩ وفاة حدثت في ١٣٤٨ م ، مع العلم بأن سكانها كانوا يتراوحون بين ١٢٠٠ و ١٥٠٠ نسمة . وأن مزرعة ، في سري ، في إنكلترا ، سجلت أكثر من خمس عشرة مرة للوفيات في هذه السنة بالنسبة للحالة العادية . ومن الصعب الحصول على نتائج : لأن بعض المناطق نجت من الأوبئة : كما في ألمانيا الجنوبية ، والفلاندر الغاليكانية ، وبيارن . وأكثر من ذلك ، على مسافة بضعة كيلومترات ، أن سكان قرية بكاملها قد أودوا ، على حين أن القرية المجاورة قد نجت من الوباء تقريباً . ومن جهة أخرى ، يبدو أن المدن في الغالب قد تألمت أكثر من الأرياف . ففي مونبيليه ، كان عدد الإخوة المبشرين ١٤٠ قبل الوباء ، وأصبحوا سبعة بعد بضعة أشهر . وأظهرت دراسات حديثة على وادي ريان في البروفانس أن قرية سان - بول - دو - دورانس ، على سبيل المثال ، نزلت بيوتها من ٩٢ إلى ٤٠ بيتاً . ويبدو من الممكن الاتفاق على أن ثلث السكان ذهب ضحية الوباء في ١٣٤٨ م .

وهذا الوباء الفظيع لم يزل تماماً . وطوال القرن الرابع عشر والخامس عشر ، يخمد ثم يظهر هنا أو هناك على مسافات متقاربة كما لاحظ ذلك جان دوفينيت .

إن سجل جيفري يؤكد هذا الشاهد : فقبل الطاعون ، كان عدد حالات الزواج يتراوح في كل سنة بين ١٠ و ٢٠ ؛ وفي ١٣٤٩ م بعد مرور المرض يذكر ٨٦ زواجاً ، وفي ١٣٥٠ ، ٣٣ زواجاً ، ومع ذلك فإن الدفعات الدورية للوباء تحول دون سد الفراغ الحاصل بسرعة .

وهذا العجز الديموغرافي ، بتطاوله ، ولد بدوره ، اضطرابات جديدة ، ولا سيما على الصعيد الاقتصادي . فقد قلّ عدد الشغيلة ، وغلت الأجور ، كما يتضح ذلك من ديباجة الميثاق الإنكليزي لعام ١٣٥٠ م .

ولكن عدد المستهلكين ، من جانبه ، قد هبط بشكل رصين ، فأحدث الاضطراب في الأسواق . واختلت الأسعار . وساءت عودة الحياة الاقتصادية ، لا سيما أن الاضطرابات الناجمة عن الحرب جاءت تضيف إلى فتك الأوبئة والمجاعات .

حرب المئة عام

خلال القرن الرابع عشر كله وفي النصف الأول من القرن الخامس عشر ، تمزق الغرب الأوربي بالخلافات المسلحة . وفي الحقيقة ، إن أوربة الإقطاعية ، في القرون السابقة ، قد تألمت من حالة عداء مزمن تقريباً . وهذا العداء ، في الغالب ، كان منازعات بين أميرين متجاورين . ولكن سرعان ماتنطفئ بعد اشتعالها ، هذا فضلاً عن أنها كانت تجند أعداداً قليلة ولم تكن قاتلة جداً ولا مدمرة جداً ، حتى أن الحرب الطويلة التي نشبت بين الكابسيين والبلانتاجونية كانت استثنائية . أما في القرن الرابع عشر وفي القرن الخامس عشر ، فقد كانت الخلافات على قدر المتحاربين - إمارات أو ملكيات في عزّ نهضتها - وبسعة مخيفة عظيمة . لقد دخلت أوربة بكاملها في عصر عدم الأمن المعمم والدائم : إن فرنسا ، مسرح الخلاف الفرنسي - الإنكليزي ، الذي أطلق عليه المؤرخون اسم (حرب

المئة عام) قد آلمتها الحرب أكثر من غيرها ؛ أما في الإمبراطورية ، فبسبب خور السلطة الملكية ، كان الأمراء يتنازعون ، والأسلحة في أيديهم ، على السلطات الملكية ، بينا أصبح الفرسان أشقياء وقطاع طرق ، وأفادوا منها ليفرضوا على البلاد اقتطاعات دورية مفرطة . ففي إيطاليا ، قامت مدن الشمال بعضها ضد بعضها الآخر : ميلانو ضد البندقية ؛ پيزا ضد فلورنسا ، على حين أن جنوب شبه الجزيرة كان متنازعاً منذ زمن طويل بين بيت آل آنجو وبيت آل آراغونه . وكانت الشقاقات والاختلافات التي لاعد لها ، والمنازعات السلالية تمزق الدول الإسكانديناڤية ، كدول شبه الجزيرة الإيبرية . وأخيراً ، تضاعفت الخلافات من جديد على هوامش الدول المسيحية ، فقد كان الإنكليز يناضلون دوماً ضد الجبليين الإيكوسيين ، وفرسان النظام التوتوني ضد السلافيين ، والإسبان ضد العرب ، والهونغاريون ضد الأتراك .

وكانت العمليات تجري بوسائل عظيمة في الغالب تحت تصرف التشكيلات السياسية المتعاظمة وتستعمل قوى تدمير أعظم بكثير مما في القرون السابقة : لقد كان الجنود أكثر عدداً وأفضل تسلحاً . ولم يكن الجنود الإقطاعيون الشبان المدعوون للخدمة العسكرية الإقطاعية ليكفوا الأمراء والملوك . وإذا ظل هؤلاء يجندونهم ، فقد كانوا يستنجدون أيضاً بالجنود المرتزقة ، ومنذ القرن الثالث عشر ، ظهر أن تجنيد الإقطاعي لتابعيه بخدمته المحدودة بأربعين يوماً ونظامها القاسي ، غير كافٍ . ولذلك فإن الملوك الإنكليز أولاً ، ثم الملوك الكابسيين ، بدؤوا بإعطاء الأعطيات للجنود الذين يبقون في الخدمة العسكرية إلى ما بعد الوقت الإقطاعي المخصص للخدمة العسكرية ، وسوق جنود مرتزقة بغية تجهيز الجيوش للحملات البعيدة وللحروب الطويلة الأمد . أما أبناء الأسر النبيلة من غير الأبكار ، الذين أخذت مواردهم تتناقص ، فقد قدموا أنفسهم طواعية للخدمة العسكرية . وحتى في هذا العصر أيضاً ، كان أعداد منهم يبحثون عن موارد

لهم في الذهاب إلى ما وراء البحار ، إلى الأرض المقدسة ، مثلاً . ومنذ آخر القرن الثالث عشر ، أخذ هذا الميل يزول . وفي الحقيقة ، أن السرية الكاتالاتية الشهيرة وضعت نفسها في خدمة الأباطرة البيزنطيين ، وانتهت باقتطاع إمارة لها في اليونان . ولكن مثل هذه المغامرات أصبحت استثنائية ؛ الأمر الذي اضطر الفرسان دون موارد أن يبحثوا لهم عن عمل في أوربة الغربية نفسها . وبصورة دقيقة ، إن الملكيات التي زادت مواردها ، منذ القرن الثالث عشر ، كان بإمكانها أن تجند جنوداً مرتزقة بأعداد كبيرة . وهكذا ، في سياق حرب المئة عام ، جندت سرايا من أوساط النبلاء الفقراء أو من ولادة غير شرعية ، ومن عالم المغامرين الساقطين ، ودخلت في خدمة ملك فرنسا أو دوق بورغونيا .

وأكثر من فرنسا ، كانت إيطاليا أرض انتقاء للجنود الملكيين : إن السرية التي يتعهدها رئيسها بعناية ، تضع نفسها في خدمة الحزب أو المدينة التي تقدم شروطاً أفضل من غيرها : وإن إحياء الخلافات المستمرة لا يتركها زمناً طويلاً دون استخدام ، وإن زعماءها ، مثل جيوڤاني ديل أوبالديني ، ومالاتيستا أو كولليونه ، اكتسبوا شهرة عسكرية تتجاوز حدود إيطاليا . ومثل هذا التنظيم كان لأسطول الحرب : فقد كان ملوك القرن الرابع عشر يتصرفون أولاً بأسطول أنشؤوه بخاصة لهذه الغاية . ولكنهم في زمن الحرب يلجؤون أيضاً لخدمات السفن المرتزقة . وكان أمراء الأزمنة الإقطاعية يعيشون للحرب ، ولكن الدومين الأساسي لهم يؤمن طعامهم وغذاءهم ، أما المرتزقة والقراصنة فيعيشون في القرن الرابع عشر من الحرب التي هي عملهم وشغلهم . ألم يجب الكوندوتيير (الطاغية) جون هوكوود إلى رهبان تمنوا له السلام : « أتريدون من الله أن يميتني جوعاً ، إنني أعيش من الحرب كما تعيشون من الصدقات » . وإن وجود فئة آخذة بالتوسع من ممتهني الحرب ، همهم أن تدوم ، إنما هو نتيجة الخلافات الأوربية كما هو أحد أسبابها أيضاً .

كانت الجيوش العديدة والمتخصصة ، في القرون الأخيرة من العصر الوسيط ، مجهزة بعتاد أكثر نفاذاً ينمي قوة تدميرها . فالأسلحة النارية بدأ ظهورها في المعارك : وخليطة ملح البارود ، والفحم والكبريت التي كان يستعملها الصينيون منذ القرون الأولى للعصر المسيحي لأجل الألعاب النارية ، ثم ابتداءً من القرن الثالث عشر ، لغايات حربية ، إنما هي مركب يعلم البيزنطيون أولاً سره ، فمنذ القرن السابع طبقوه على صنع « النار الإغريقية » أي التي سميت بوجه عام « السهم الناري الملتهب فوق الماء » . وانطلاقاً من بداية القرن الرابع عشر ، استعمل الغربيون بدورهم البارود لإطلاق القذائف . فالقطع الخفيفة ، المدافع الصغيرة ذات الفوهة الدقيقة والطويلة أو الثقيلة ، المدفع القصير ، تعطي صوتاً مدوياً في المعارك . وكانت صعبة الاستعمال اليدوي ، وقليلة العدد أيضاً ، ومع ذلك فإن المدافع الأولى تخيف العدو أكثر مما تسبب له الضرر . أما جيش المشاة الجديد فقد بدا أكثر نفاذاً : ففي الحرب لعب المشاة منذ الآن دورهم الحاسم بفضل تحسين السلاح وكماله . وكان الإنكليز أول من تعلم بالحروب الإيكوسية المديدة ، واستعملوا القوس الكبيرة الغالوية من خشب السرو أو الشربين (طقسوس) بطول مترين ، (قوس طويلة) . وهذه القوس تسمح بإطلاق اثني عشر سهماً في الدقيقة ، بينما كانت القوس القديمة النموذجية ، القوس الثقيلة الجنوية لا تطلق إلا أربعة ، والقوس الفولاذي ذو المقبض يشد بنابض يطلق حجرين . وهي قدرة إطلاق مضروبة بثلاثة ، هذا ما يوضح التفوق الإنكليزي على جيش الأتباع الذي ما زال إقطاعياً عند ملوك فرنسا في بداية حرب المئة عام . وأحياناً أيضاً ، يرى أن قسماً من المشاة المسلحين بنوع من حربة طويلة ؛ وفي القرن الخامس عشر ، كان الرمح الطويل سلاحاً مخيفاً لدى الكتائب السويسرية . وكان التكتيك يتكيف مع الشروط الجديدة ، النبالة الموجودون في الوسط يمطرون العدو بوابل السهام الذي يحمل عليهم . وفرقة الفرسان الخفاف ، التي تحيط بهم ويمكنها أن تنزل على الأرض ، تقوم عندئذٍ بحركة دائرية ، بينما فرقة الفرسان الثقيلة

الموجودة على الخطوط في الوراء يمكن أن تدعم الصدمة . وبتآلف هذه القوى المختلفة ، كان الرؤساء الإنكليز والطغاة الإيطاليون يجددون دخول الاستراتيجية المناورة في المعارك . وكان لهذه المعارك صفة حاسمة أكثر بكثير من الصدمة الجبهوية للجيوش الإقطاعية ، كما أنها أكثر إماتة بكثير .

وأخيراً ، الحرب الجديدة ، وبهذا تثقل بشدة على مقدرات الغرب ، هي حرب شاملة . وفي الحقيقة ، إن الخلافات تبقى منقطعة بهدنات مؤقتة كثيرة والقوى المتحاربة ، بالمقارنة إلى أعداد الجنود الحديثة ، تظل ضعيفة ، ولا يمكنها أن تمد الحرب إلا في نقاط محدودة من (الجبهة) . ولكن وراء المحاربين ، توجد كل قوى الأمة المحاربة التي تخضع للمجهود الحربي . فما من ثروة اقتصادية ، ولا طبقة اجتماعية موفورة أو مراعاة . إن المنطقة التي تكون مسرحاً للحرب ، تفرض عليها دورياً اقتطاعات مفرطة من قبل الجنود ، والربح الأساسي من النصر يكون غنماً يؤخذ من أرض العدو ويقسم حسب قوانين الحرب . ويضاف إليه الأسرى من الصف العالي الذين يكونون مصدر موارد لمن يأسرهم ويقبض عليهم ؛ والعرف يحدد مقياس الفديات . ومن جهة أخرى ، إن (التلف) أو التخريب المنظم للمحاصيل ، والقطعان ، والقرى إنما هو تكتيك عدوان أو استعراض .

أما ضحايا الخصوم ، وهم غير المحاربين ، هم أيضاً جنود حزبهم الخاص ، المرتزقة ، الذين يسيء الأمراء مكافأتهم ، فكانوا يعيشون على حساب البلد .

والهدنة المؤقتة ، وإن كانت دور سلام ، لا تأتي بأي راحة للسكان ، بل بالعكس . وفي الواقع ، إن العواهل يكفون حالاً عن دفع أجور المرتزقة ، لأن إعاشتهم تثقل بشدة موازنتهم . عندئذٍ تصبح السرايا المسرحة السرايا الكبرى ، والجنود يصبحون قطاع طرق أو رجال عصابات مسلحة ؛ ويطلبون من قطع الطرق واللصوصية ، الموارد التي يرفضها السلام لهم . وكذا الحال ، على البحر ،

تصنع عمائر القرصان من نفسها قرصاناً وقد وصف أحد هؤلاء المغامرين ، واسمه أميريغو مارشيز إلى المؤرخ فرواسار إنه يأسف كثيراً لحياة المغامرات هذه ، بعبارات لاتترك مجالاً للشك في المصير المحزن لهؤلاء البائسين الذين يطلب منهم بالقوة مالا يجب عليهم .

وانتهى الفلاحون بتنظيم أنفسهم للنضال ضد رجال السلاح من أي حزب كانوا ، أو للهرب منهم في الوقت اللازم عندما يقتربون منهم . وحتى لو كان السكان غير موجودين في القطاع الذي تقع فيه المعارك وتتقاتل فيه الجنود وتقيم ، فإن الحرب لاتراعيهم ولا ترحمهم ، لأنها تأخذ في الواقع أشكالاً جديدة . فالعدو يستعمل أسلحة اقتصادية : حصار السواحل ، إغلاق الأسواق ، هجوم النقد الذي يحاول بواسطته أن يجتذب إليه قطع النقد الجيدة . كما أن تدمير اقتصاد بلد من البلدان يمكن أيضاً أن يكون حاسماً كالتغلب على الجيوش في معركة منظمة يتقاتل فيها جيشان وجهاً لوجه . والحرب ، بالنسبة للسكان أكثر من أي شيء آخر ، مرادف البؤس . وذلك لأن ما يوفره العدو أو الشقي من قطاع الطرق ، يأخذه عمال الملك أو الأمير : إن الضريبة المتفاقمة بواقع الحرب تؤول إلى سحق الشعب . ففي خطاب مؤثر ألقاه أمام الملك شارل السادس (١٤٠٤ م) مدير جامعة باريس ، جيرسون ، ذكر كل هذه الآلام والشرور والأضرار الناجمة عن حالة الحرب ، والتي من شأنها أن تضرب بصورة خاصة فقراء الناس .

الأجاجون والجلادون

إن الأفكار « التي ضربتها الأوبئة المتتابعة » استسلمت للاضطراب العميق وعدم سير الأمور بانتظام . فمن ذلك أن بعضهم ، مثل الملك شارل السادس ، تاهوا بسبب الجنون الذي أصبح مرضاً كثير الوقوع . وبالنسبة للبعض ، كان

فورة لـذة يبحثون فيهـا عمـا يشغلهم دون طـائل ، ونسيـانـاً للموت الـذي يصول ويجول ويراقب : ففي البلاطات الملكيـة والأميريـة ، كان لهو الحفلات الراقصـة المقنعة واللوحات الحية شـائعـاً ، بـالحـادث الشهير للحفلـة الراقصـة التي قـام بهـا الأجـاجون . فـالحفلـة التي قـدمت من قبل الملكـة إيزابل بمنـاسبـة زواج إحـدى مرافقـاتهـا ، انتهت بشكل مفجع . فقـد كان دوق أورلئـان وأمراء آخرون متزيين بزي (الهمج ، المتوحشين) ، وظهروا يهزون مشـاعل ملتهبـة ، وكانت سراويلهم من نسيج القنب الخشن المطلي بالزفت والمغطى بالريش ، وما لبثت أن أحرقتهـا النـار وأهلكت عـدة شخصيـات متخفيـة ، ونشرت الـذعر في الحضـور . وذوو البـدلات العـاديـة لم يكونـوا أقـل منهم طيشـاً في الألبسـة التنكريـة : فقـد كان الرجال والنساء يلبسون ألبسة فضفاضة ، بألوان فاتحة وشفافة ، ومزدانة بالفراء . وألبسة الرأس عالية بشكل مبالغ فيه إن بلباس رأس السيدات العالي والمخروطي ، أو الخوذ ذات الريش التي يلبسها الفرسان ؛ والأحذية (الحادة الرأس) للغاية .

وإلى لذائذ الحفلة الراقصة والزينة ، تضاف لذائذ المائدة : فقـد كتب الكثير من كتب المطبخ ، والمآدب ، في عصر كان الناس يموتون فيـه من الجوع ، ويرون تتابع سلسلة صحون لاعد لهـا . كانت الأبهـة في حب الظهور فيهـا تغلب على كل شيء ، كما في بلاط دوق بورغونيا الذي يذكر في مذكرات العصر .

وهذا البذخ الذي يتجلى في حياة البلاط ظهر أيضاً في زواج الدوق .

وبين هذه اللذائذ ، لم تنس التقاليد الفروسية ، ولكنها أخذت وجهاً جديداً للفخر : وهو الصيـد الـذي ترك عنـه الكونت دوفوا ، غـاستون فوبوس ، كتـابـاً مطولاً موثقاً جداً ، بـالمبـارزات خـاصـة ، التي لم تعـد تـدريبـاً على الكفـاح بل أصبحت تسلية . وإن المنمنات الموجودة في كتـاب « المبـارزات » ، الـذي ينسب إلى الملك رونيه دانجو ، تظهر الأمراء متجابهين ولابسين ملابس طائشـة تتنـاسب مع السروج الفاخرة التي توضع على الخيول في بعض الحفلات .

على أن هنالك ، بالعكس ، آخرين ، عن طريق التقشف وإماتة الجسد والتوبات الشديدة المفرطة ، يحاولون تخفيف الغضب الإلّهي الذي يجرّ على البشرية المذنبة كل هذه الآلام والشرور . وكان المبشرون الشعبيون يحضون الجماهير على التوبة . وكانت الظاهرات التي نظمها الجلادون الشكل المسرحي لهذه الحالة الفكرية وذلك بجلد الراغبين بالتوبة للتكفير عن ذنوبهم .

وفي التوبة ، كما في وسط اللذائذ ، كان الناس يبحثون عن ملجأ ضد الموت . وكان الفنانون ، هم ، أيضاً ، تخامرهم رؤى الموت ، فخلف الشخصيات التي يمثلونها من مختلف الطبقات تظهر هياكل عظمية مقلقة . وكان الموت يوجه الحفلة الراقصة ، ويترأس المأدبة ، ويقود الجيوش ؛ وانتصاره ، موضوع تراكيب عديدة ، كان عاماً .

هل هذا يعني أفولاً لمجتمع منهك مضنى يمزق نفسه ويشعر بتلذذ مشاكس لفكرة نهايته الخاصة ؟ في الواقع ، إن أعراض الاضطرابات العنيفة تطلب أن تحلل وتوضح . أما أن يكون القرن الرابع عشر عصر أزمة ، فهذا مما لا شك فيه . ولكن في وسط الخلافات والمصاعب والقلق ، ألا يوجد عالم جديد آخذ بالنشوء ، وفي حال ولادة ؟

في الصعيد المادي ، كانت الأزمة أعمق وأقل خطراً معاً مما يمكن أن تظهر . كانت أعمق ، لأنها لم تكن نتيجة بسيطة لسلسلة كوارث طارئة غير متوقعة ، ولكنها حركة أعماق ، وأصلها يكمن في التطور الاقتصادي للقرون السابقة . وأقل خطورة ، لأنها لم تكن غير أزمة نمو وتكيف في حياة أوربة الغربية ، ولكن كوارث لم يتنبأ بها جعلتها مؤلمة جداً للمعاصرين .

الخلل الاقتصادي وانقلاب الظروف

بدت أوائل الصعوبات منذ الربع الأخير للقرن الثالث عشر : فقد كان

التوازن ضعيفاً ، سريع العطب بين السكان وأسباب عيشهم ، ولذلك قطع . وفيما كان النهوض الديموغرافي (السكاني) مستمراً ، بلغ إحياء الأرض ، في أوربة ، توسعاً لم تُصن بعده المدخرات الاحتياطية من الغابات وأراضي البور الضرورية للاقتصاد الريفي . وأكثر من ذلك أيضاً أن أراضي فقيرة كثيراً قد زرعت ، ونضبت من بعد بعض المحاصيل ، ولذلك أهملت وتركت . وكان الفلاحون الفقراء ضحايا هذا التزايد السكاني في الأرياف . إن صغار المستأجرين الذين كانت تحت تصرفهصرفهم أرض آخذة بالصغر بسبب التقسيمات العديدة ، وكذلك العمال اليديون (رجال السخرة) المفتقرون إلى الأرض ، عرفوا أيضاً مصيراً مفجعاً . فبعضهم حاول أن يفر محاولاً أن يجد عملاً في المدينة . ولكن معظمهم وجدوا مستوى حياتهم قد ضغط بعامل القوى الاقتصادية القاسي : إن سعر الحبوب التي كان إنتاجها أدنى من الطلب ، ما يزال في ازدياد ؛ وبالمقابل ، كانت اليد العاملة الريفية فائضة ، ولذلك تدنت الأجور . ومنذ ذلك الحين ، بدأ انقلاب في المنحنى الديموغرافي ، وأصبحت الوفيات مرتفعة جداً بين الطبقة الكادحة الدنيا ، حتى أنها في سنة ١٣٠٠ م ، تفوقت في عدة مناطق على الولادات . وفي الوقت نفسه ضاق اقتصاد المبادلة ، الاقتصاد المدني ، بمجاعة نقدية حقيقية . فقد نضبت مناجم الغرب ، في وقت أصبح فيه وصول ذهب السودان وآسيا عسيراً إلى الغرب ، بعد أن اعترض سبيله المغول والأتراك والدول المغربية .

ففي ذلك الحين كان الاقتصاد الغربي في عز ضائقته لما حل به من كوارث طبيعية وتدميرات بشرية ، محاصيل رديئة ، منذ بداية القرن الرابع عشر ، بداية حروب ، ثم الطاعون الأسود في ١٣٤٨ م ، التي بزجها الآثار المدمرة فاقمت الأزمة وأمدت في عمرها . ففي هؤلاء السكان الذين ضعفوا بسبب سوء التغذية والولادة غير الكافية ، تحولت الخسائر الناجمة عن الحرب والمجاعة والوباء إلى نكبة . ومن

الممكن أن يفكر على الأقل وبصورة مباشرة وجذرية بأن السوق قد نظف من اليد العاملة . وفي الواقع كان النزيف قوياً جداً جداً . وأخذ الاقتصاد منذ الآن يشكو من نقص السكان بسببين : عجز في اليد العاملة يضايق التعمير الاقتصادي ويؤدي إلى ارتفاع عام للأجور . وظروف السوق المضطربة تماماً . فكيف يمكن للإنتاج المتناقص بالتدميرات ونقص العمال أن يتكيف دفعة واحدة مع استهلاك قد تحول نفسه ؟ لقد كان المستهلكون أقل عدداً ، وغيروا في الغالب أمكنتهم باحثين على سبيل المثال ، عن عمل في المدينة أفضل ربحاً أو عن الأمن ؛ وأحياناً ، لم يعد بالإمكان التوصل إليهما عندما تؤدي الخلافات السياسية إلى إقامة الملوك الحواجز الاقتصادية على حدود مملكتهم .

ومن جهة أخرى ، إن العجز النقدي ، الذي ظهر منذ آخر القرن الثالث عشر ، قد تزايد بسبب الحروب والتطور السياسي . فقد ازدادت حاجات الدول التي كان عليها أن تحتفظ بالعديد من المرتزقة . والضرائب الثقيلة أفقرت البلاد دون أن تملأ بصورة كاملة الخزانات العامة . يضاف إلى ذلك أعمال النهب والفديات . وقد حذا الملوك حذو المثل الذي ضربه فيليب الجميل في آخر القرن الثالث عشر ، ولكن بكثير من السعة والضخامة ، فلجؤوا إلى وسائل سميت آنذاك (التغييرات) . وذلك بإنقاص كمية المعدن الثمين التي تدخل في الخليطة التي تعمل منها قطع النقود .

هذا الانخفاض في القيمة يساعد على زيادة كمية النقد المتداول ، وقد يعطي ، على الأقل من حيث المبدأ ، دفعاً للحياة الاقتصادية . وفي الواقع لا شيء من هذا . لأن الحياة التجارية عاكسها عدم الاستقرار المالي الذي أضر بمصالح المنتجين . وظهر أن ارتفاع الأسعار قد بدأ ، وأن الجماعات الاجتماعية ، التي تتصرف بإيرادات ثابتة ، شعرت بالضرر لنقص قدرتها الشرائية . وبالرغم من ارتفاعات الأسعار المدوخة والمرنحة ، ولكنها لم تدم طويلاً ، التي كانت نتيجة

أزمات مناخية جوية ، فإن الميل الأساسي كان ، حسب القطاعات ، إلى الركود أو إلى انخفاض الأسعار ، لأن جمهور المستهلكين كان أقل عدداً وأكثر فقراً . واصطدم المنتجون بالمتطلبات المتزايدة من قبل الأجراء والدولة ، ورأوا أن هوامش أرباحهم قد قلت وتضاءلت . غير أن مصالح طبقات معاكسة بعنف تسببت بخلافات اجتماعية لا يمكن تجنبها . وخلال هذا التطور بدا أن حياة الأرياف قد تضررت أكثر من حياة المدن التجارية .

٢ ـ بؤس الأرياف

الأرياف مجتاحة وبلاقع

في هذه الحالة الصعبة ، منذ آخر القرن الثالث عشر ، تألمت الأرياف أكثر من المدن من النوائب التي حلت بالغرب في سياق القرن الرابع عشر . وبالرغم مما يمكن أن يفكر به ، لم تسلم لا من الأوبئة ولا من المجاعات . وبالمقابل اجتاحها الجنود وقطاع الطرق ، أكثر من المدن التي تكون أحياناً محمية بالأسوار .

كان الفلاحون يموتون أو يفرون . وهجرت الحقول ، واستردت الغابة أحياناً كل امتداد الأرض التي ربحتها الزراعات في سياق القرون السابقة . وكان الوضع على مثل هذه الحال في ألمانيا الوسطى ، وكذلك في منطقة تولوز وكرسي في فرنسا ، حيث أخذت الذئاب والخنازير تظهر ، واضطر بعض الأحياء إلى طلب السماح بصيدها . وفي الغالب حلت الأرض البور محل الأراضي المزروعة ؛ والأحياء التي في محيط منطقة إدارة الأمير أو المدينة تركت بوراً أيضاً . ونزعت الزراعة إلى التركز على الأراضي الملائمة أكثر من غيرها . ولكن ، في بعض المناطق ، زالت قرى بكاملها مع كل أرضها الصالحة للزراعة والخصبة . ففي إنكلترا ، ساعد استعمال التصوير الفوتوغرافي عن طريق الطيران على رصد هذه القرى الضائعة ، وتقدير النسبة التي تمثلها وهي $\frac{1}{5}$ التجمعات الريفية التي كانت

توجد قبل الأزمة . وفي ألمانيا الشرقية والجنوبية بلغت نسبة الأراضي المهجورة ٣٠ ٪ . وفرنسا التي اجتاحتها حرب المئة عام قد تضررت كثيراً أيضاً ، ففي منطقة بوردو المتنازع عليها بشدة بين الفرنسيين والإنكليز ، القائمة لاتنتهي للأماكن (الشاغرة) ، (الخالية) ، (المخربة) ، في قلب منطقة الكروم . ويرى المنظر نفسه في البروفانص وفي الحوض الباريسي . لأن كثيراً من الفلاحين كانوا يهجرون قراهم هرباً من الموت ويذهبون إلى التجمعات المدنية ويستقرون فيها طلباً لأمن نسبي ، وحياة أفضل ، وأجور مرتفعة .

وحتى عندما عاد السلام والصحة الملائمة ، تتابع الرحيل الريفي . لقد وجد الأجلاف قليلي العدد كثيراً في كل قرية ، ومحرومين من الحيوانات والأدوات للقيام بالتعمير الزراعي ؛ ودفعهم فتور الهمة والشجاعة إلى تجريب حظهم في المدينة المجاورة . وللحيلولة دون هذا الهرب وضع أمراء ألمانيا الشرقية والعواهل الإسكاندينافيون نظاماً شديداً جداً يمنع الفلاح ، ولو كان حراً ، من مغادرة الأرض دون ترخيص . وفي فرنسا سمح الملك لبعض القرى بتسلم رسوم ريفية لئلا يجر سكانها اليائسون إلى مغادرتها بسرعة .

النهضة الزراعية البطيئة

في هذه الظروف الضعيفة المتفاقمة بعودة دورية للأوبئة والاجتياحات ، كانت العودة إلى الأعمال الزراعية بطيئة وعسيرة . ورافقها بعض التغيير والتبديل في الإنتاج الناجم بصورة أساسية عن الانقلاب الديموغرافي : فلقد كان المستهلكون أقل عدداً وموزعين بصورة مختلفة عن الأخرى . وشعب المدن الذي تناقص أقل بكثير من شعب الأرياف ، ووجد في الغالب متضخماً بالرحيل الريفي ، لعب دوراً متزايداً ونامياً في أسواق المنتجات الخاصة بالغذاء ، وقد تبنى سكان المدن في القرن الرابع عشر (سجلات حسابات كليات أو مستشفيات ، عقود عمل أثبتت

جدارتهم بهم) نظاماً غذائياً أكثر تنوعاً تكون فيه حصة الأغذية المرفقة على حساب نصيب الخبز .

وهذا يوضح بأن الحبوب نسبياً لا تجد في الأراضي المخصصة للزراعة ، مكاناً واسعاً ، كما كان في القرون السابقة . وفي الحقيقة أن هذا التحجيم في الأراضي المزروعة حبوباً قد عوض جزئياً بتحسين مردود المحاصيل : إن تركيز العمل على الأراضي الغنية أكثر من غيرها ، وانتشار المحراث ، ونمو تربية الأبقار الذي أسهم في تخصيب الحقول توضح هذا التقدم . ولكن مؤشراً آخر يدل بصورة أوضح على أن الطلب على سوق الحبوب قد انخفض كما يظهر من منحنى الأسعار . والنصوص المعاصرة توضح في الغالب ارتفاعات الأسعار الخرافية للحبوب . وفي الواقع ، في دور المحصول الرديء أو في دور اللحمة ، يرى أن سرعة ازدياد الأسعار بالمفرق تحدث بعنف فريد لم يسمع مثله . فالأسعار تصل أحياناً إلى العشرة أضعاف ، وتغني بعض المستغلين الماهرين . ولكن هذه التقلبات القصيرة الأمد لا تغير في الصفة العامة للمنحنى الملاحظ على دور طويل ، فقد ظلت أسعار الحبوب مجمدة دون ارتفاع أو انخفاض أو انخفضت بين ١٣٠٠ م والربع الثاني من القرن الخامس عشر . ولم يتشجع المزارعون على تنمية زراعة الحنطة . وهذا يوضح الجدب المفاجئ في حال الطقس الرديء . إلا أن هناك منطقة وحيدة نجت من هذا التطور ، وهي : شرق أوربة ، أي السهول الممتدة ماوراء الأيلب التي حافظت على صلاحيتها لزراعة الحبوب . وزراعة الحنطة فيها كانت تشجعها التجارة الهانسية ، تجارة رابطة مدن الهانس .

وإلى جانب الحبوب التي ظلت موجودة في كل مكان ، نمت محاصيل أخرى حافظت على أسعارها ، بل إنها ارتفعت : فزراعات الفاكهة والخضر امتدت بالقرب من جميع المدن الكبرى ، وبخاصة في إيطاليا ؛ فحول المدن التوسكانية ، في بساتينها (كونتادو) كانت تنمو مختلطة ، حسب نظام (الزراعة المختلطة) :

الخس ، الملفوف ، البطيخ الأصفر ، الأرضي شوكي (أنكنار) ، الهليون ، مع الكروم والأشجار المثمرة . وفي الحانات والمطاعم الراقية أو على الموائد العائلية ، كان سكان المدن يطلبون الخمر أكثر فأكثر : وكسبت الكرمة أراضي جديدة في أودية الراين والأيلب . فكروم بورغونيا ، وسانتونج ، ومنطقة بوردو التي تمون بلاد الشمال تعمرت من جديد . وأفادت من ذلك جميع الزراعات الصناعية من نهوض واسع منذ توطد النظام على ما يبدو ؛ فزراعة حشيشة الدينار لصنع الجعة (البيرا) تقدمت في ألمانيا . وأصبحت منطقة تولوز منطقة كبرى لإنتاج العظلم ، الوسمة ، لاستجابة طلب صناعة النسيج ، ولنفس الأسباب ، زراعة الكتان والقنب امتدت في پيكارديا وفي البلاد المنخفضة .

ولكن تربية الحيوانات ظلت بحق النشاط الأكثر ربحاً . وتقدمها سبَّب جزئياً تراجعاً في الأراضي الصالحة لزراعة الحبوب . لأن تسمين البقر والأغنام يأتي بربح أوفر من إنتاج الحبوب ، حتى أن كثيراً من الحقول انقلبت لتربية هذه الحيوانات إلى مراعي . فالخلو من السكان ، وفقدان الأيدي العاملة شجعا في الغالب هذا الاتجاه . وهذا الاتجاه كان ملحوظاً حول المدن بخاصة : فقد ازداد الطلب على اللحم حتى انطلق اللحامون في المضاربة غالباً ، يسلفون الأموال للمربين ، أو يقومون بأنفسهم مباشرة بتربية القطعان . وبدأت بعض المناطق الريفية ، هي نفسها ، بالتطور نحو تخصص نسبي في إنبات الأعشاب ، وهذه كانت بخاصة حال الجبال مثل الكانتال التي أصبحت آنذاك أكبر منتج للجبن واللحم ، أو الهضاب الداخلية في إسبانيا التي انصرفت ، كما هي الحال في جزء من الأرياف الإنكليزية ، إلى تربية الأغنام في سبيل الحصول على الصوف .

ضعف النظام الدوميني

لقد كان للانقلاب الاقتصادي الواسع انعكاساته على بنية الأرياف الاجتماعية . وخرج منها النظام الدوميني مزعزعاً كثيراً . فمن ذلك أن القيم

المعنوية والاجتماعية وضعت من جديد موضع تشكيك كما في كل دور عنف واضطراب . فمن ذلك أن طعن في نفوذ الطبقة النبيلة . وبرهنت الحرب في أشكالها الجديدة بوضوح تفوق جيش المشاة والمرتزقة على الفروسية القديمة . والأمير الذي لا يسوق رجاله للحرب يفقد جزءاً من سلطته .

وأسهم بعض النبلاء أيضاً ، بسلوكهم ، في فقدان اعتبار كبارهم من أتباع التاج : فمن ذلك أن بعضهم أصبحوا أشقياء على طريق كبير . وكان ذلك عصر آل راوبريتر (فرسان قطاع طرق) ، الذين يبذرون الإرهاب في ألمانيا ، والعصر الذي ارتفعت فيه ، في كل مكان في إيطاليا ، كما في فرنسا ، حصون تراقب الوديان والطرق . وقد فرض مالكوها على المارة والمسافرين رسوماً باهظة على المعابر والطرق ، عندما لا ينهبونهم بكل بساطة بلا شرط ولا استثناء . حتى أن حياة الأبهة والبذخ والفسق التي كان عليها بعض الأمراء الموسرين وسط البؤس العام كانت تثير الاشمئزاز والغضب .

وفي الغالب يزداد الازدراء والكره اللذان كان يشعر بهما الأجلاف تجاه الأمراء إلى درجة ينظرون فيها إليهم نظرهم إلى أجانب . وكثيراً ما كان النبلاء ، سواء ممن يرتبطون ببلاط ملك أو أمير ، أم ممن يتذوقون لذائذ الحياة المدنية ، يكفون عن الإقامة في دوميناتهم . ومن جهة أخرى ، في المناطق المتنازعة بين نفوذين سياسيين ، كانت الأراضي تغير مالكيها حسب الانتصارات أو الهزائم : وهذه بخاصة حالة منطقة بوردو . وأخيراً ، وحتى خارج حوادث الحرب ، ملائمة كانت أو غير ملائمة ، يضطر كثير من الأمراء الذين تضرروا أن يتخلوا عن دوميناتهم في الغالب إلى بورجوازيين ، من محامين أو نواب في البرلمان ، أو تجار أثرياء .

وكانت طبقة الأمراء تشكو أيضاً من الأفول الاقتصادي العام ، بينما ظلوا ينفقون أموالهم في سبيل الحرب ، لدعم مجرى حياتهم ومضاعفة المساعدات لصالح الكنيسة التي تقيم (القداسات لراحة أرواحهم) مع عدم التبصر الذي يعتبر مؤشراً

لدماثة أو لطف حقيقي ، ويجبون موارد قليلة جداً . ويرجع سبب دمار الطبقة النبيلة أيضاً إلى الحرب أولاً ، لأن الأراضي بعد مرور الجنود والأشقياء تصبح خالية من الرجال ، وليس لها أي ارتباط مع أحد مباشرة .

وكان تعمير الدومين يجري بظروف ضارة للأمراء ، فلإبقاء الفلاحين أو جذبهم ، كان عليهم أن يقبلوا بتضحيات هامة : فالأقنان الذين قلّ عددهم في القرن الثالث عشر ، أفادوا من ندرة اليد العاملة للحصول على تحديد أعبائهم أو إنقاصها أو طلب تحريرهم . وكذلك المستأجرون ، فعندما لا يحولون أرضهم إلى ملكية تامة ، في الظروف الملائمة ، كانوا يحصلون على تخفيف أتاواتهم . وإذا قاموا مباشرة بإحياء الأراضي البور في الدومين أو فقط في أراضي الاحتياطي ، فإن الأمير يصاب بخيبة أمل أخطر أيضاً . وإذا أراد أن يؤمن لنفسه خدمات العمال المياومين ، وهم نادرون كثيراً جداً ، فعليه أن يقبل بأن يدفع لهم أجوراً عالية . وهذه التضحيات كان يشعر بها بقساوة في موازنة الأمراء في الوقت الذي كانت الموارد التي تتأتى عن بيع الحبوب في حالة انخفاض .

وهذه الظروف العسيرة توضح أن كثيراً من الأمراء ، ولا سيا بعد ١٣٥٠ م ، عدلوا عن إحياء الأرض مباشرة ، وفضلوا نهائياً بأن يكتفوا بدخول متواضعة ، ولكنها أكيدة ، من أن يتحملوا المشقة واليأس والغم من الإدارة الشخصية . وإن إلقاء العبء على الآخرين بهذا العمل كان يوافق بخاصة الأمراء الذين يقيمون قليلاً في دومينهم . وهذا اللجوء كان من كثير من الملاكين النبلاء أو الأكليركيين ، كما يبرهن على ذلك أكثر من ميثاق في مقدمته .

وإذا تم التنازل عن العديد من قطع الأرض مقابل ضريبة سنوية ، فمن الملاحظ أيضاً ، في القرن الرابع عشر ، تقدم المزارعة في المناطق الجنوبية والتأجير في الشمال . وباختصار ، لقد نزع الأمراء إلى أن يصبحوا أكثر فأكثر ،

حسب تعبير الأستاذ بلوك (أصحاب دخل من الأرض) . وإذا احتفظوا ، من أجل تموين أفراد عائلتهم ، ببعض الأرض كـ (احتياطي) ، وإذا استمروا أيضاً بجباية عن حق ارتفاق ، فإن الأساسي من هذه الموارد كان يجهز منذ الآن فصاعداً من دخل عقاري . وهذه الموارد المحددة منذ الانطلاق بسعر ضعيف القيمة والأهمية ، كانت تصغر دون انقطاع بانخفاضات العملة ، بالرغم من تجديد الضرب الدوري للنقود بوزنها الشرعي . لقد كان الأمراء يسيطرون دوماً على المجتمع الأوربي ، ولكن هذه السيطرة « على اقتصاد الأرياف قد تراخت بشكل محسوس » (الأستاذ دوبي) .

بؤس الفلاحين وغضبهم

وبعد فهل تحسن مصير جمهور الفلاحين ؟ للنظرة الأولى ، بدا أن وضع الأجلاف أقل عناء ، فالأرض لا تخلو بل وتوجد ، والأجور ازدادت ، والدخل الأميري انخفض ، وأخيراً تراجعت القنانة (الفدادية) . وفي الواقع ، إن هذه الظروف الحسنة قد أفاد منها الفلاحون الذين كانوا يتصرفون بموارد شخصية كافية يستطيعون بها استئجار أرض بدلاً من أن يخضعوا إلى عقد مزارعة أو ضريبة سنوية . وظلت ثروات الفلاحين تختلف في سياق القرن الرابع عشر . إلا أن فريقاً صغيراً وحيداً من المستغلين قد أثرى . ومن حيث الجمهور الكبير ، فإن تخفيف الدخل الاقطاعي قد عوض بالثقل المتزايد للضرائب الملكية أو الأميرية . ففي الكثير من المناطق وجد أن تزايد الأجور قد كبح بسياسة السادة الإقطاعيين والأمراء الذين كانوا يحاولون وضع حد أعلى للأجور . وفي الوقت نفسه ، منع الفلاحين من مغادرة الأرض ، والأعمال الخاصة (مهور ، وصيات) وسيطرة المرابين على الأرياف تبدو بأنها تشهد على الفقر العظيم جداً الذي كان الفلاحون يعانونه . ومثل هذه الحالة تشاهد حتى في ١٤٦٥ م أي في عصر تم فيه الإعمار .

وللخلاص من الشقاء والبؤس ، ولقطع دابر الاستغلال ، قام بعض الفلاحين وجعلوا من أنفسهم مستغلين . فإلى جانب قطاع الطرق والراوبريتر قامت عصابات المتسولين المعوزين المسلحين ـ عمامات (قبعات) بيضاء في نورماندیا ، شحادون في بورغونيا ، أو جلود تماسيح في جزيرة فرنسا ـ ينشرون الإرهاب في الأرياف حيث يمرون . أما الجمهور الأعظم من الفلاحين ، فلا يوجد من حل آخر لهم غير التحمل بإذعان واستسلام لهجمات الجوع ونهب الأشقياء والضرائب الملكية . وحتى اليوم الذي لا يعلم فيه دوماً لماذا انفجرت هنا أو هناك ثورة ؟ . وفي هذا الرد الفظ اختلط الخوف والغضب ، لقد كان القرويون يعيشون في خوف دائم من الوباء أو من مجيء الجنود ، وفي اضطراب من الأخبار المغلوطة ، ويبحثون عن مسؤولين قابلين للتضحية بغية دفع الخطر . وكان اليهود في الأرياف كما في المدن ، أوائل الضحايا التكفيرية المعينة لهذا الغرض . وتلوّن الهياج الشعبي الموجه ضد الأغنياء بكره اجتماعي : فقد نهبت الحوانيت وأحرقت ، وقتل السادة الإقطاعيون . وبين حركات الثورة هذه ، كان أشهرها حركة اليعقوبيين التي كان إطارها في ١٣٥٨ م منطقة بوفيه . ولذلك سميت ، الثورة اليعقوبية وهي مأخوذة من جاك (يعقوب) وهو الاسم الشعبي الذي أطلق على الفلاحين .

ولم تكن هذه الثورات إلا سورات غضب قصيرة الأمد دون تنظيم حقيقي ، ودون برنامج . وعلى نقيضها وجد عدد من الحركات التي انفجرت في مناطق مختلفة من أوربة ، في الفلاندر البحرية (١٣٢٣ ـ ١٣٢٨ م) ، وفي إنكلترا (١٣٨١ م) ، وفي البلاد الإسكاندينافية وفي مملكة آراغونة (في النصف الأول من القرن الخامس عشر) ؛ لقد ثار الفلاحون بمحرضين وقادة ينتمون في الغالب إلى أوساط أكثر حظاً من غيرها ، ويريدون الحصول على حذف الضرائب الملكية ، وسحب المراسيم التي تحدد الأجور ، وتمنع الفلاحين من مغادرة الأرض .

واختلطت بهذه المطالب الاقتصادية النظريات الصوفية من نوع الشيوعية الإنجيلية . والحركة المعروفة أفضل من غيرها هي الحركة التي أهاجت جنوب شرقي إنكلترا في منتصف القرن الرابع عشر . ففي أصل الثورة ، كانت جهود الأمراء الإقطاعيين لدفع أزمة النظام الدوميني : لقد طلبوا من مستأجري أراضيهم سخرات خففت في الغالب إلى أتاوات في عهد الرخاء والازدهار ، وعندما أهلك الطاعون الأسود أعداداً كثيرة من اليد العاملة ، حصلوا من الملك على تشريع عمل كله لصالحهم . وقد نشر نظام العمال هذا في ١٣٥٠ م في براءة ملكية واضحة .

إن ضريبة الرأس الثقيلة بخاصة التي قررها الملك في ١٣٨١ م ، رفعت استياء الفلاحين إلى القمة وفجرت الثورة ؛ فقد أعطى قرويون من كونتية الإسيكس المؤشر لطرد الجباة الملكيين بضرب الحجارة . ثم تشكلت عصابات مسلحة في الكونتية كلها وفي كونتية كنت المجاورة ، وهاجمت القصور . وكان على رأسها زعيان فرضا نفسيهما : الأول جندي مسرح اسمه **وات تايلر** ، استلم إدارة العمليات العسكرية ؛ والآخر كاهن تائه ، **جون بول** ، كان داعية الحركة ، يبشر بإصلاح اجتماعي وزارعي ينشده أكثر الثائرين فقراً ، وهم العمال المياومون المعدمون ممن لا أرض لهم . وأخذ عدد الفلاحين يزداد أكثر فأكثر ورفضوا الخضوع للقهر الدوميني ، ووجدوا من يدعمهم لدى الحرفيين (الصناع) وعمال المدن .

وأصبح الثائرون بالفعل سادة لندن وتوصلوا حتى الملك ريتشارد الثاني الذي استسلم للقوة ، ووافق على إلغاء القنانة وتحويل جميع الفلاحين إلى أحرار مستأجرين . وبعد بضعة أيام ، أخذ على عاتقه قيادة الجنود وألقى القبض على بول وتايلر ونفذ فيهما حكم الإعدام ، وألغيت جميع الامتيازات .

وهكذا سحقت الثورات في كل مكان بسرعة ، ووطد النظام الاجتماعي .

٣ ـ التكيف البطيء للاقتصاد المدني

مصاعب الاقتصاد المدني

هل أصابت الأزمة المدن كالأرياف ؟ مامن شك في أن التجار والحرفيين (الصناع) قد لاقوا في ممارسة نشاطاتهم مصاعب رصينة جداً في سياق القرن الرابع عشر ، فقد كان للحوادث السياسية والعسكرية انعكاساتها الأليمة على حياة المدن . فأكثر من مدينة كان من سوء حظها وبؤسها أنها أخذت ونهبت من قبل الجنود أو قطاع الطرق . فمن ذلك أن مدينة كن أخذت في ١٤١٧ م ودمرت جزئياً ، وقتل سكانها أو نفوا . ومثل هذه الحالة من التخريب والدمار كان في فيكامب .

وكان بإمكان المدن ، وهي في مأمن من أسوارها ، أن تأمل على الأقل في الغالب ، بأن تنجو من مصير فيكامب المحزن . ولكن التجار الذين غامروا على الطرق ، كانوا أكثر تعرضاً للنهب أو الفدية . حتى أن بعض الطرق هجرت ولم يسلكها أحد . فمن ذلك أن الأسواق الموسمية في إقليم الشامبانيا في فرنسا كانت واقعة في منطقة عديمة الأمن كثيراً ، فخلت وتدمرت . وعندئذ سلك التجار وادي الراين ، وما كانوا يسلكونه فيه دوماً بسلام .

ولم يكن الطريق البحري آمناً أكثر أيضاً ، حتى أن دوق بروتانيا تظلم لدى بلدية لوبيك ضد تاجر ألماني .

وكان بعض النقالين يحصلون من قطاع الطرق على إجازة مرور يدفعون ثمنها غالياً جداً .

وفي بعض الأحيان كانت العلاقات التجارية تنقطع . وبصورة عامة كان ذلك لزمن قليل . لأن المشروع مدمر كثيراً جداً لكل من المنتجين والتجار الذين

يحرمون فجأة من المنافذ التي يصرفون فيها المنتجات ، وكذلك المستهلكين الذين يحرمون من الأغذية والمواد الأولية .

إن الحرب الفرنسية ـ الإنكليزية قدمت الكثير من الأمثلة على استعمال الأسلحة الاقتصادية التي كان العالم المدني وعالم الحرفيين والتجار ضحيتها . وهكذا في ١٣٣٦ م ، فرض الملك الإنكليزي إدوارد الثالث ، لقصاص الفلاندر ، التي بقيت وفية للمعسكر الفرنسي ، وإجبارها على التحالف مع إنكلترا ، الحظر على صادرات الصوف بالتخصيص إلى المدن الفلاماندية . وقد تضايقت كثيراً هذه المدن من نقص المادة الأولية والبطالة التي نجمت عنها حتى أنها ثارت ضد الكونت في ١٣٣٨ م وكان زعيم التمرد من مدينة غانت واسمه جاك ڤان آرتفيلد الذي قبل بالانتقال إلى المعسكر الإنكليزي . وكسب إدوارد الثالث على الصعيد السياسي ، ولكنه دمر ، في إنكلترا نفسها ، أكثر من منتج ومن مصدر للصوف .

وإلى أضرار الحرب تضاف أضرار المالية التي ترتبط بها بصورة وثيقة . إن الثقل المالي لإرجاع الحصون إلى حالتها الأولى ، والغرامات التي يجب دفعها لقطاع الطرق ، أرهقت سكان المدن . وطوال القرن الرابع عشر والخامس عشر كانت الأموال المدنية محملة بالديون الثقيلة . كما كان رجال المصارف والتجار مضايقين بتعديلات مستمرة للعملة وعليهم أيضاً أن يسهموا طوعاً أو كرهاً بالمجهود الحربي لأميرهم بتقديم الإعانات . وأحياناً تأخذ العملية شكل (قرض) إجباري قليلاً أو كثيراً ، ولا يتأمن دفع هذا القرض إلا في حالة النصر . وإثر إخفاق العمليات العسكرية الإنكليزية الأولى على القارة ، وجد أن الكثير من الشركات الإيطالية ، وبخاصة شركات بيروزي وباردي ، التي كانت قد قبلت ، باعتمادات كبيرة إلى إدوارد الثالث ، قد منيت بإفلاس مدوٍ (١٣٤٣ ـ ١٣٤٦ م) .

وكانت الاقتطاعات الملكية تجري أيضاً بالطريقة المباشرة للضريبة التي أصبحت أحياناً ثقيلة جداً وانتهت بدمار تام للتجار . وأشهر مثال لهذه الممارسات

المدمرة هو (عرف الأصواف) الذي أسسه العواهل الإنكليز . ويراد بذلك رسم على الأصواف الإنكليزية المصدرة : أسس منذ ١٢٧٥ م ، ثم طرأت عليه زيادة شديدة في النصف الأول من القرن الرابع عشر حتى أنه مثل اقتطاعاً نحو ٣٥ ٪ ولذلك استحق اسم مالتوت (أي الطلب السيئ المستحق أو غير المستحق) . وكانت الرسوم تدفع في ميناء على القارة يراقبه الإنكليز . وابتداء من ١٣٥٣ م ، ثبتت محطة الصوف في كاليه . وأدت هذه الممارسات إلى انحطاط بطيء لتجارة التصدير هذه : وقبل منتجو الصوف بصعوبة تخفيض أسعارهم في البيع الذي كان المصدرون يرجونه للحفاظ على هامش مربح كاف . وعلى القارة جاءت أصواف بديلة من ألمانيا وإسبانيا فغزت السوق . وبالمقابل ، في الحقيقة ، إن قسماً من البورجوازيين قد أفاد من نمو الضريبة ؛ وذلك أن عدداً من البورجوازيين قد أثروا كمراقبين أو ملتزمي ضريبة المساعدات ، أو أمناء صندوق الخزينة . ومن جهة أخرى ، إن النفقات الحاصلة من نتاج هذه الضرائب ويراد بها نفقات البذخ والأبهة ، كانت تنشط فاعلية بعض المشاغل .

ومع ذلك فإن الفاعلية التجارية في مجموعها تشكو ، هي أيضاً ، من انقلاب الظرف الاقتصادي والديموغرافي (السكاني) . وفي عصر التقلص الاقتصادي ، الذي بدأ في فاتحة القرن الرابع عشر ، قلَّ في الغالب مجموع زبائن الحرفيين والمصدرين بعد أن أهلكته النوائب وافتقر . وفي الحين الذي يحقق فيه المتعهدون أرباحاً قليلة ، كانوا مضطرين لإعطاء العمال ، القليلي العدد أيضاً ، أجوراً مرتفعة .

نمو الخلافات الاجتماعية

إن الأزمة الاقتصادية التي ضربت المدن كانت مولدة للخلافات الاجتماعية . وفي الحقيقة ، إن البنية المدنية معقدة ؛ فقد تصادمت فيها مصالح متباعدة ومختلفة زادها الركود تفاقماً . لقد كان النزاع أولاً بين رجال الأعمال والصناعات . ورجال الأعمال هؤلاء كانوا يشاركون في التجارة الدولية الكبرى . ويؤمنون

تموين المدن بالمنتجات الغذائية والمواد الأولية . وهم أيضاً يصدرون إلى الخارج الإنتاج الفائض عن المدينة : فهم يحكمون إذن على عالم العمل كله . وبعضهم كان يعمل أيضاً بتجارة المال . فقد كانوا صرافين ، وأصحاب بنوك ، وهم الذين يلتزمون الضرائب ويقرضون المال للعواهل ، ويأخذون على عاتقهم تموين الجيوش . وفي القرون السابقة ، أمنوا لأنفسهم الرقابة على الإدارة البلدية ، وهذا يساعدهم على تعيين السياسة الاقتصادية في المدينة . وعلى هذا فإن مصالحهم تتجاوز في الغالب الأعم نطاق المدينة الضيق . وكانوا يرتبطون في عملياتهم التجارية بالأمراء ، ويحققون ربحاً من الحرب وتقدم السلطة الملكية ؛ وأعمالهم ذات الطابع الدولي أدت بهم إلى الرجاء بحرية التجارة . وأخيراً إن هؤلاء الرأسماليين يحاولون أن ينموا الصناعة الريفية التي يمكنهم بسهولة أكثر أن يملوا عليها شروطهم . وهذا البرنامج كله لا يمكن إلا أن يقلق الصناعات ، (الفنون) . ولدفاع هذه الصناعات عن مصالحها الخاصة حاولت الحصول على الأقل على المشاركة بحكومة المدينة . ومثل هذا الشيء قد تمّ في إيطاليا منذ آخر القرن الثالث عشر . وفي الفلاندر ، وألمانيا ، وسويسرا ، حصلت الصناعات في الكثير من المدن في القرن الرابع عشر على تمثيلها في المجالس بشكل أكثر أو أقل عرضاً حسب الحالات .

وتحت نفوذها اتخذت تدابير أقرت حماية مدنية شديدة . فالأجانب الذين يرغبون في الإقامة في المدينة لم يحصلوا على حق البورجوازية إلا بشروط دراكونية ؛ ودخول المنتجات الأجنبية التي يمكن أن تنافس إنتاج المدينة ممنوع بشدة . وفي الغالب تحرم المدن على المناطق المجاورة كل نشاط حرفي منافس ؛ وهكذا فإن صناعة الأقمشة منعت في ١٣١٤ م حول مدينة غاند وحول يبر . وكان بورجوازيو المدينتين المسلحون يجوبون الأرياف ويدمرون كل الصناعات التي يمكن أن يجدوها في طريقهم . وهكذا دمرت صناعة الأقمشة الريفية في ترموند

وبوبرينغ . وفي داخل المدن وضع تنظيم أشد أكثر فأكثر : ويراد بـه إعطـاء جميع الحرفيين الحظوظ نفسهـا في الأسـواق ، وذلـك بمنـع تركيز الإنتـاج لصـالـح عـدد صغير ، وتحديد إنتاج كل صناعة لتجنب دمار الجميع والبطالة . وتوضح الأنظمـة عدد الصناعات التي يمكن أن يملكها مشغل من المشـاغل ، وعـدد الخـدم والصنـاع الذين يمكن استخدامهم ... وتحدد أيضاً وبدقة جـداً النشـاطـات التي يكون لكل فن الحق في حصرها : ففي غاند ، في القرن الرابع عشر ، لا شيء إلا للجلد . يميز محضرو الجلود ، ودباغو الجلد الأسود ، ودبـاغو الجلـد الأبيض ، والفراؤون الـذين يعالجون جلود البلاد ، والفراؤون الذين يعالجون الجلود المستوردة .

إن سياسة المساواة هذه التي تسلكها الصناعات سيدة حكومـة المـدينـة يجب ألا تضللنا أو توهمنا ، فليس فيها شيء من الديموقراطيـة . إن من يقول (تمثيل) الصناعات يقول تمثيل (المعلمين) (السادة) . ففي داخل الفنون (الصناعـات) لا يقبل بأن يلعب العمال دوراً نشيطاً في الواقع : فالتنظيم الذي تمليه البلديات أو بنـاء على طلب هـذه بـأمر من الأمراء ، يجب أيضـاً أن يسمـح لبعض معلمي الصنـاعـات (الحرف) بـالحفـاظ على امتيـازاتهم والإبقـاء على نفوذهم على جمهـور العمال ، ويقصـد بـذلـك أولاً قضيـة الأجـور التي يضعهـا بـوضـوح جـداً أب سـان ـ مـارتن دو تـورنيـه : « إن وفيـات ١٣٤٩ م أهلكت ... الكثير من العمال من جميع الحرف حتى أنه وجد فيهم نقص كبير ... إن جميع العمال وعـائلاتهم كانوا يطلبون أجوراً مفرطة » .

لقـد حـاول المعلمون إذن وضع تعرفـة قصـوى لـلأجـور بـإجبـار العمال على العمل . ونظام العمال الذي أعلن في إنكلترا في ١٣٥١ م يتعلق أيضاً بعمال المدن .

وفي السنة نفسها اتخذت تـدابير مشـابهـة في بـاريس وفي قشتـالـة ، ولمـا كان الكثير من العمال الذين ثبطت عزائمهم وفضلوا الانصراف للتسول أو أعمال الشقاوة

والعصابات ، (والمدن أيضاً كان لها متسولوها) فقد حددت براءات ملكيـة مـدة يوم العمل .

وفي المدن الإيطالية وجد المعلمون ، أربـاب العمل ، وسيلـة لتنظيم عبوديـة حقيقية لكثير من العمال : فقد قبل المستخـدِم بسلفـة مـاليـة للعـامل شريطـة أن يتخلى هـذا الأخير عن حقـه في ترك العمل حتى التحرر الكامـل من دينـه . وفي ١٣٧١ م ، أعلن قانون فلورنسي أن العامل المدين حيـال رب عملـه لا يمكنـه منـذ الآن فصاعداً أن يوفي دينه بالمال وإنما بالعمل فقط .

أما الخـدم الموضوعون في حـالـة تبعيـة فلا يستطيعون الخروج منهـا . ومن يرغبون منهم بأن يكونوا (معلمين) ، قامت أمامهم عوائق يصعب التغلب عليهـا أكثر فأكثر . ومنذ آخر القرن الرابع عشر ، كان على من يتطلع إلى (المعلمية) أن يقـدم (رائعـة من الروائع) أي (عملاً نفيسـاً) . بيـد أن إنجـاز مثل هـذا العمل يتطلب كثيراً من الوقت وفي الغالب مواد أولية مكلفـة جـداً . ويضـاف إلى هـذا الشرط الأول الصعب القيام به أو إنجازه ، تضاف ضرورة دفع أتاوة ، إقامة مأدبة على شرف المعلمين الآخـرين أو تقديم هديـة إلى أخويـة (رابطـة) الشمع من أجل مشعل الكنيسة الذي يستعمل لخدمة الرب ، وأحياناً ، أخيراً ، في بعض الحرف ، دفع مبلغ لضمان التنفيـذ : فكم من الخـدم كانوا في حـالـة تمكنهم من جمع كل هـذه الشروط ؟ وبالمقابل ، إن أبنـاء المعلمين الـذين كانوا في بعض الحـالات معفين من (العمل النفيس) وكانوا على كل حـال يستفيـدون من دعم مـالي من قبـل آبـائهم ومن تعاطف لجنة مؤلفـة من المعلمين الآخرين ، كانوا متـأكـدين من الوصول إلى المعلمية .

وفي الخلافات بين رجـال الأعمـال الكبـار ورجـال الحرفـة ، تضـاف إذن في القرن الرابع عشر ، المعارضة العنيفة بين المعلمين والخدم . وقد بـدأ هؤلاء الأواخر بـ (التألب) والتفـاهم بغيـة نضـال مشترك . وللحصول على الاعتراف بتجمعـاتهم

نظموا في الغالب هـذه التجمعـات تحت شكل (أخويـات) (طوائف) منفصلـة مخصصة للقيام بعبادة قديس شفيع رب للعمل ، أو جمعيات معونات متبادلة .

وهذه الأخويات التي تملك صندوق ماليتها وحق انتخاب رؤسـائهـا ، كانت تؤخر العمال بصلابة . وهؤلاء ، من جهـة أخرى ، كانوا يرون عـالمهم يتسع ، وفي الواقع ، في القرن الرابع عشر ، بـدأ عـدد من الخـدم يرحلون من مـدينـة لأخرى لتحسين ثقافتهم التقنية .

وهكـذا توطـدت اتصـالات بين الخـدم من صنـاعـة واحـدة ، ومن مـدينـة لمدينة ، كما من جهة أخرى بين المعلمين الذين يرغبون في التفاهم فيما بينهم ليدافعوا عن أنفسهم بشكل أفضـل . وفي الغـالب تنفجر إضرابـات ، وكان رؤســاء الصنف المهني أو السلطات المدنية تحكم في الخلافات التي تنشأ بمناسبة الأجور . وفي الغالب يطرد المضربون ، ويبعدون عن المدينـة ، لأن هـذه التـألبـات في نظر الحقوقيين المعاصرين (جريمة حصر رئيسية) . وأحياناً ، يـأخـذ الخلاف شكل ثورة داميـة كما كانت الحال في آخر القرن الرابع عشر ، عندما اختلطت الاضطرابات المدنية في عدة مناطق بالثورات اليعقوبية (الجاكية) . وكان أحد الأحداث الشهيرة حركة ثورة الشحـاذين التي جرت في فلـورنسـا في ١٣٧٨ م : فقـد ضمت الثـورة الفنـون الصغرى (اللحامين ، الحذائين ، الحدادين ، عمـال البنـاء ، والنجـارين ، وتجـار رخصة الألبسة) الذين يريدون توسيع إسهـامهم في الحكومـة المـدنيـة ، والعمال ، وبخاصة عمال الصوف الذين يؤلفون فئة الشحاذين البائسـة . وكان يوجـه هؤلاء الأواخر أحـد موجهي العمال ، ميشيل دو لانـدو ، وشكلوا جنود الصـدام في هـذه الثورة الشعبية . فقد انطلق الجمهور يهاجم قصر الإمارة ، وطرد رؤسـاء الأديرة ، وأقام حكومة شعبية . وانتخب ميشيل دو لاندو حـامل رايـة العـدالـة (٢١ تموز ١٣٧٨ م) وأحـدثت ثلاثـة فنون جـديـدة بعنـاصر شعبيـة (فن الشعب الصغير ، ويتـألف بكاملـه من العمال غير المهرة) وأسهمت في الحكـومـة الجـديـدة . إلا إن

انتصار الثوار كان قصير الأمد : فقد عجزت الحكومة بسرعة . ولما لم يعد كبار أصحاب المصانع الفارين ولم يعطوا عملاً ، فإن العمال دون عمل ودون مال لم يغادروا الساحات والشوارع ، وحثهم المحرضون الشعبيون على زيادة مطالبهم . وقلق رؤساء الفنون الصغرى ، وذوو الميول المعتدلة ، وألفوا جبهة مع رؤساء الفنون الكبرى ضد الثورة . وفي الأول من أيلول ١٣٧٨ م تفرق المتسولون في حرب الشوارع . وأعدم زعماء الثورة . أما ميشيل دو لاندو فقد كان موقفه غامضاً واستطاع الفرار . وعندئذ أمكن حذف الفنون الثلاثة الجديدة وأبعد ممثلو العمال عن الحكومة . وأخيراً ، وفي حرارة رد الفعل ، قضي أيضاً على الفوائد التي حصل عليها الصغار . وهكذا أخفقت المحاولة الديموقراطية نهائياً في فلورنسا . وبعدئذ أصبح آل الميديتشي سادة المدينة .

وفي العصر نفسه قامت مظاهرات مشابهة في الفلاندر : في غاند ، في ١٣٧٩ م ، حيث ثار الملاحون والحياك ضد الكونت . وهنا تدخل الجيش الملكي الفرنسي بناء على دعوة كونت فلاندر ، وأخمدت الثورة : ففي ويست ـ روزبك سحق الحرفيون الفلاماندیون (في ٢٧ تشرين الثاني ١٣٨٢ م) .

وفي فلورنسا ، كما في غاند ، وسيين (١٣٥٥ ـ ١٣٧١ م) كما في ميتز (١٣٤٦ م) ، وفي إشبلية كما في ستراسبورغ (١٣٣٢ م) ، أخمدت الحركات الشعبية بسرعة . ويتضح إخفاقها بنقص التلاحم بين (البوبولاني) : لأن الشعب كان مؤلفاً من عناصر مختلفة من صغار المعلمين الحرفيين حتى العمال اليدويين البائسين . ولم يستطيعوا التفاهم زمناً طويلاً على برنامج مشترك . ومن جهة أخرى ، كانت المعارضات الاجتماعية تستعمل في الغالب لغايات خاصة . وهكذا ، في فلورنسا ، أعطيت الإشارة لثورة الشحاذين بموقف سيلفستر دو ميديتشي الذي حاول استخدام نجدة الحرفيين الشعبيين ليحذف من الحكومة الحزب الغلفي . وفي فرنسا أيضاً يلاحظ أن النزاع بين الأرمانياكيين

والبورغونيين قد أخذ ، في بعض المدن طابعاً اجتماعياً ؛ وعلى العموم ، انضمت الأحزاب الشعبية إلى البورغونيين ، لأن هؤلاء ، في المعارضة ، اتخذوا موقفاً سهلاً لمقاومة الضريبة ، بينما كبار البورجوازيين كانوا يعتبرون كالأرمانياكيين . ومنذ ١٣٨٢ م ، قبل أن تنفجر الحرب الأهلية ، حدثت ثورات ضد السلطة الملكية في المدن حيث كانت (العامة) تشكو من الأزمة الاقتصادية وتتحمل الضريبة بصعوبة . وهذا ما كان في أصل ثورة المايّوتين[1] (المطرقيين) في ١٣٨٢ م في باريس .

كان القمع شرساً ، وتبنى الشعب الباريسي المغتاظ إثر ذلك القضية البورغونية .

تكيف الاقتصاد المدني

وبالرغم من كل هذه الصعوبات التي استطاعت أن تضايق الفاعليات المدنية ، فإن هذه الفاعليات لم تشك من انخفاض طويل وعام كالزراعة . وإذا شدت الحزام بعض أسواق الإنتاج والاستهلاك ، فقد ظهرت أسواق أخرى . وإذا خلت بعض الطرق التجارية ، فإن طرقاً أخرى انتظمت لأن القصد ، بالنسبة للحرفيين كما للتجارة ، توزيع جديد ـ صعب غالباً ـ للنشاطات أكثر بكثير من أزمة دائمة . ومن جهة أخرى ، إن صعوبات المنافسة ونقص اليد العاملة نشطا نهائياً التقدم التقني والطرق الصناعية .

أ ـ التنظيم الجديد للإنتاج

وبالنسبة للحرفية كان المثال المقنع عن هذا التكيف صناعة النسيج . ففي القرن الرابع عشر ، كانت أقمشة الصوف الإنكليزية تنسج في الفلاندر وتباع في

(١) المايوتيون : اسم أطلق على الباريسيين الثائرين في عهد شارل السادس ، لأنهم كانوا مسلحين بالمايه les Maillets (١٣٨٢ م) أي المطارق ذات الرأسين المصنوعة من الخشب القاسي جداً .

أسواق الشامبانيا ، وفي الغالب تصبغ في المدن الإيطالية ، إلا أنها فقدت تفوقها القديم ؛ لأن هذا التنظيم انقلب كله : لقد منعت الحرب الفلاندر من أن تستورد بصورة منتظمة مادتها الأولية من إنكلترا . وأفل نجم أسواق الشامبانيا الموسمية مع عدم الأمن ؛ وأخيراً كانت الزبائن تطلب صفات أخرى للمنسوجات ، وكان الجمهور الفقير يفضل أقمشة أخف وأقل كلفة ، نسيج من صوف غليظ أو معطف قصير من الصوف . أما المتازون بالثروة فكانوا يبدون استياءهم هم أيضاً ، من الأقمشة الثقيلة ويفضلون أقمشة أكثر فخاراً ومكلفة مثل الحرير أو القماش الرقيق المبطن بالفرو . وتطور الموضة يعبر عن هذه التحويلات في الطلب . وانطلاقاً من منتصف القرن الرابع عشر رجعت موضة الذكور إلى البدلات المنطبقة على الجسم . إلا أن المعاطف القصيرة المشدودة على القامة وتغطي الجسم من العنق حتى النطاق (الحزام) والسراويل اللاصقة بالجسم وتغطيه من الحزام إما إلى الركبتين وإما إلى القدمين ، لا يمكن قصها من القماش الغليظ .

وتكيفت المشاغل : فقد انتظم الإنتاج على الصعيد العام . وفي الفلاندر نفسها ، لم يكن الدمار عاماً . وفي الحقيقة ، إن مراكز صناعة الأقمشة الكبرى : غاند ، يبر ، بروج ، كانت في ضائقة . ولكن الصناعة الريفية ، المعتادة على إنتاج أقمشة أكثر خفة من غيرها انتهت بأن تغلبت على غيرها ، كما هي الحال في هوندشوت . ومن جهة أخرى ، فتحت إلى جانب المدن القديمة المختصة بصناعة الأقمشة في الفلاندر نفسها ، مراكز إنتاج جديدة في المناطق المجاورة : هينوت ، وبرابان ، هولاندا . وفي خارج هذه المناطق القديمة التي استيقظت على النشاطات النسيجية ، نمت صناعة الصوف في عدة مناطق أخرى من أوربة : في إنكلترا ، أولاً ، كان الصوف الإنكليزي ، الذي تضرر على القارة بضريبة تزيد سعره بـ ٣٠ إلى ٤٠ ٪ ، يغذي ، انطلاقاً من منتصف القرن الرابع عشر ، مشاغل محلية : صناعة الأقمشة الخفيفة ولكن من النوع الممتاز (كوستولدز ،

وورستودز ، كوفنتري بلو) غزت منـذ النصف الثـاني للقرن الرابع عشر ، أسواقـاً عديدة ألمانيـة وفرنسيـة . وهـذان البلـدان لهما صنـاعتها الأهليـة الأصليـة : ففي الإمبراطورية ، فريبورغ ، وفي فرنسـا ، الشـامبـانيـا ، والنورمـانـديـا ، والبرّي والـلانغـدوك ؛ وفي إسبـانيـا ، الآراغـونـة والكاتـالـونيـا تعمـلان الصـوف . وفي إيطـاليـا ، عرفت صنـاعـة الصوف بعض المصـاعب في فلـورنسـا ؛ ولكن صفتهـا العالية احتفظت لهـا دومـاً بـأسواق حتى الشرق ، بينمـا ميلانو ، مـانتو ، كريمون تخصصت بفضل المادة الأولية التي تأتي من إسبانيا ، في إنتاج الأقمشة الناعمة .

وهذا الانتشـار لصنـاعـة الصوف لم يمنع معـامل أخرى من استعمال القطن ، والكتان ، والقنب والحرير من النماء . إن أقمشة الكتان من اللورين والشامبـانيـا تنافسها الآن أقمشة البلاد المنخفضة وألمـانيـا الجنوبيـة . وأقمشـة القنب أو الكانوفـا ازدهرت بها البريس وبلاد الغرب ، نورمانديا وبروتـانيـا ، اللتين تصـدرانهـا إلى إنكلترا وكذلك إلى شبـه جزيرة إيبريـا . والقطن المستورد من المشرق عن طريق البندقية يمون صناعة الأنسجة القطنيـة الكتـانيـة الجـديـدة في إيطـاليـا الشماليـة (كريمون) وفي ألمـانيـا الجنوبيـة . والحرير أخيراً ، ظـلّ اختصـاصـاً إيطـاليـاً ، ونسيجاً على الموضة ، وأمن ثروة حرفيين من لوكا والبندقية .

ولمجابهة منافسة متعددة ، حاولت المشاغل تحسين تقنيات الإنتاج . وهكذا ، في صناعة النسيج ، استعمل دولاب المغزل الـذي ظهر في آخر القرن الثـالث عشر ونما ، بينمـا تحسنت الآلـة : لأن دواسـة الآلـة تسمح بـأن تطبع على المغزل حركـة دوارة ، بينما تحتفـظ العـاملـة بيـديهـا الحرتين لسحب أو فتل الخيـط ؛ وفي القرن الخامس عشر حصل تقدم جديد بمغزل ، مجهز بـأجنحـة صغيرة ، يمكنـه أن يفتل الخيط على كركر بصورة آلية . ولعمل الحرير بخاصة وجـدت اختراعـات أفـادت من بعـد المنسوجـات الأخرى : النول الميكانيكي لانحراف الحرير ، وهو نول محسن للنسيج يسمح بتنفيذ رسومٍ معقدة . وتقدمت قطاعات صناعية أخرى . إن أسرار

الصناعة التي طبقها مورانو على الزجاج انتشرت في اللانغدوك ، وفي بوهيميا . واستعمل الزجاج أكثر فأكثر لتغطية الشبابيك في المدن ، ولصنع أواني ، ومرايا (زجاج مبطن بالرصاص ثم بالقصدير) . وفي الصناعة المعدنية التي تطلبتها حاجات الحرب (الدروع المصفحة ؛ المدافع) ، كان التقدم أيضاً محسوساً كثيراً . فقد أمكن عزل المعدن وإنتاجه بكمية أكبر : إن الطرق الجديدة المطبقة على الفلذات الثمينة (الفضة) سمحت بمعالجة كميات هامة من فلذات الحديد : إن الفرن الكاتالاني في جبال البيرنيه ، وفرن القطع في أوربة الوسطى يجهز من ١٥ إلى ٥٠ طن من الحديد في العام . ومن جهة أخرى ، ظهر الفرن العالي . وفي هذا الفرن الذي يبلغ ارتفاعه من ٤ إلى ٥ أمتار توضع بصورة متوالية طبقات من الفلذ والحجر الكلسي وطبقات من فحم الحطب متوالية ، ثم يرفع الكل إلى درجة حرارة عالية ، ليعطي الصلب بالانصهار . وهذه المادة الجديدة تستعمل مباشرة لصنع المدافع ، والقنابل والصفائح أو تحول إلى حديد في فرن . وهذه الطريقة المخترعة أولاً في ألمانيا انتشرت في القرن الخامس عشر في اللورين ، وفي الشامبانيا ونورماندیا .

ولكن نمو هذه الصناعة الجديدة مالبث أن كبح بالاستعمال العظيم للأفران العالية ، التي سماها المعاصرون (هَوّات الغابات) .

ب ـ التحولات الجغرافية التجارية

إن الظروف الاقتصادية الصعبة حثت التجار على التنظيم من جديد ودون انقطاع لطرقهم التي يسلكونها وتحسين طرق البيع . وظل البحر المتوسط والبحار الشمالية الملتقين الكبيرين للتجارة البحرية ؛ ولكن المبادلات ليست من الطبيعة التي كانت في القرن الثالث عشر . لقد بقي البحر المتوسط نشيطاً جداً وأثرت الموانئ الإيطالية بفضل التجارة مع الشرق . وحتى آخر القرن

الرابع عشر ، كانت المحطة الأساسية لهذه التجارة تتألف بالبحر الأسود . وتجابهت جنوة والبندقية في كافا في القرم ، في طرابزون ، وتانا في أعماق بحر آزوف : وتجارها يأتون إلى هذه الموانئ يبحثون عن منتجات المناطق المجاورة ، حنطة السهول الأكرانية ، فراء وخشب روسيا ، الملح والأسماك المملحة والكاڤيار من الساحل . وفيها ينتظرون أيضاً وصول منتجات الشرق الأقصى الآتية من الهند أو من الصين : حرير ، توابل . غير أن انهيار الإمبراطورية المغولية وغارات تيمورلنك المدمرة ضربت الضربة القاضية هذه التجارة في آخر القرن الرابع عشر . واضطرت المدن الإيطالية ، من أجل المنتجات البعيدة ، أن توسط المسلمين وتتمون في بيروت أو في الإسكندرية . وهذا هو الاتجاه الذي اختارته تجارة البندقية المتخصصة في استيراد المنتجات المكلفة ، الفلفل ، الزنجبيل ، القرفة ، جوزة الطيب (جوز بوّا) . وانتهى الأمر بالبندقية فحصلت على نوع من حصر الفلفل (البهار) . وكان الأساسي في سفن الشحن الجنوية ، بالعكس ، يتألف من منتجات آتية من العالم التركي في آسيا الصغرى : حجر الشب من تركيا (فوسيه . كارابيسڤار) الذي يعاد تصديره إلى بروج ، والملونات ، والقطن التركي . وفي جزيرة كيو أسس الجنويون مستودعاً ضخماً حيث يأتون ويتمونون . وبدأت أيضاً البندقية وجنوة تتجهان نحو المتوسط الغربي حيث توطدت علاقات مع جزر وشاطئ إفريقية الشمالية وحيث ، من جهة أخرى ، نابولي وبالرمو في إيطاليا ، بارشلونة وڤالانس ومايوركا في شبه الجزيرة الأيبرية ، استيقظت على تجارة قصيرة المسافة تتناول بخاصة المنتجات الغذائية . وفي الطرف الآخر من العالم الغربي ، كان بحر الشمال والبالطيك إطاراً لتجارة كثيفة تسيطر عليها الهانس الألمانية . إن الهانسات أو الأصناف الحرفية كانت ، في الأصل ، رابطات بسيطة لتجار من مدينة واحدة ، أخويات دينية وجمعيات نجدة متبادلة معاً . ومنذ القرن الثالث عشر ، في لندن كما في الأسواق الفلامندية ، أسس تجار من عدة مدن رابطات أوسع لحصر جزء من التجارة . وفي ألمانيا عرفت هذه المنظمات

نجاحاً أكثر من غيرها وأخذت طابعاً جديداً . ودون أن تصبح اتحاداً (كونفدرالياً) سياسياً ، كان بإمكان الهانس الألمانية المؤلفة من أغنى تجار ألمانيا الشمالية ورينانيا وأعظمهم نفوذاً ، التصرف بالنفوذ الدبلوماسي وبالحقوق العسكرية لهذه المدن لتفرض نفسها . وكانت الهانس التوتونية قوية بسبعين مدينة تسيطر عليها لوبيك وهامبورغ ، وانتصرت في القرن الرابع عشر : وبالقوة وضعت نهاية في إسكاندينافيا للمنافسة الدانماركية ؛ ومعاهدة شترالسوند ، التي أبرمت ، أنهت حرباً طويلة أمنت لها حصر التجارة عبر المضايق التي تصل البالطيك وبحر الشمال ؛ وبصورة سلمية نجح التجار الهانسيون في موانئ إنكلترا والبلاد المنخفضة . ويتناول نشاطهم المبادلات شرق - غرب من المنتجات المصنوعة أو الثمينة مقابل منتجات خامية . وفي موانئ بحر الشمال يحملون الأصواف والأقمشة الإنكليزية في لندن ، هلّ ، بوستون ؛ وفي بروج ، الأقمشة الفلاماندية يضاف لها التوابل المجلوبة على يد التجار الإيطاليين . وعلى سواحل البالطيك ، يأتون للبحث عن الحديد ، والحرير ، والفراء ، وأسماك إسكاندناڤيا ؛ والحبوب والأخشاب ، والزفت و (القطران) والعنبر من ألمانيا الشرقية وبولونيا . ويموِّنون البلاد الشرقية بالمنتجات المصنوعة وأيضاً بالملح الذي يصدرونه من ممالح لونيبورغ . وفي جميع المراكز الاقتصادية الكبرى ، في نوڤغورود ، ولندن ، وبروج ، وبرغن أو أوسلو ، كان للهانسيين مؤسساتهم التجارية : والتجار الألمان الذين استقروا فيها كانوا متجمعين في شارع أو في حي ويلتحق بهم الحرفيون الآتون من ألمانيا . وانطلاقاً من بداية القرن الخامس عشر بدأ الهانسيون يصطدمون بمنافسين جدد ، التجار الإنكليز ، الذين دفعوا بنهوض صناعة الصوف . وظل التجار الألمان يختلفون إلى لندن ، ولكنهم كانوا فيها ضحايا ، في الغالب أكثر فأكثر كالإيطاليين أو الفرنسيين ، الحركات المعادية للأجانب التي ضاعفت ضدهم المزعجات والمنكدات . وانتقل الأساسي من تجارة الإنكليز لأيدي التجار المغامرين : وكان هؤلاء يصدرون إلى جميع الأسواق

الأقمشة الإنكليزية ؛ ويذهبون حتى آيسلاندة للبحث عن السمك المملح الذي يبادلونه مقابل الحبوب وقماش بروتانيا ونورماندیا . وتغامر سفنهم أيضاً في البالطيك وتأتي إليه بالملح ، والقصدير والأقمشة وتشتري فيه الأخشاب . والخلاف المحتم مع الهانس كان ملحوظاً بحرب القرصنة والاستيلاء على السفن ، والأخذ بالثأر . وفي ١٤٤٧ م حذف امتياز الهانسيين في لندن . وسيتوطد في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، عندما اضطرت الهانس المغلوبة إلى التخلي عن وضعها الممتاز في بحار الشمال ، وبدأت دولة اقتصادية ثالثة آنذاك تثبت فيه أقدامها : وهي دولة هولاندا . وكانت صناعة الأقمشة فيها أيضاً في أصل النمو التجاري . فقد كانت سفن أمستردام وروتردام تختلف إلى أنفرس وبروج بل وحتى موانئ البالطيك .

إن كل هذه التحولات لم تغير مع ذلك تفوق ميناء بروج في شمالي أوربة . وحتى منتصف القرن الخامس عشر ، بالرغم من مصاعب الصناعة الفلاماندية وتراكم الرمال في مصب زوين فقد ظلت المدينة المضاعفة بالميناء الأمامي للسد ، أكبر ملتقى تجاري للشمال . وهذه الثروة الدائمة مرتبطة بتجارة المرور الناشئة في النقطة التي تلتقي فيها تجارة البحر المتوسط والتجارة الشمالية . فعلى أرصفة الميناء تصاقب السفن الإيطالية ، حاملة البضائع الشرقية التي يعاد توزيعها أيضاً في إنكلترا وعلى القارة . وفي بروج أيضاً تحافظ الهانس على أهم مركز لها . والتجارة الأطلسية التي تعيش منها بروج أفادت من أفول أسواق الشامبانيا . ولكن الظروف السياسية لا توضح وحدها نهضة بروج : ففي ١٢٧٨ م ، منذ أن نظمت الرحلات الأولى المنظمة بمضيق جبل طارق ، دخلت التجارة البحر المتوسط وتحولت الفلاندر . فالأقمشة والتوابل الخفيفة كان بإمكانها أن تسلك طريق الشامبانيا بسهولة . وفي القرن الرابع عشر كانت المنتجات المتبادلة بين البلاد الفلاماندية وإيطاليا ، منتجات ثقيلة يناسبها النقل بطريق الماء وحده .

وأقمشة وأصواف إنكلترا والفلاندر ، والتوابل ، والحرائر ، والقطن الآتية من الشرق تحتل في الواقع مكاناً ضيقاً في سفن الشحن . وكان حجر الشب يحمل بشكل ثقيل على السفن الجنوية . وكذلك المنتجات الزراعية من جنوب فرنسا .

لأي حد أسهمت البلاد الواقعة على السواحل في نهضة الطريق الأطلسية ؟ لقد ظلت أنڤرس زمناً طويلاً ضحية تنافس بروج ، بيد أنها رأت انطلاقاً من فاتحة القرن الخامس عشر تدويل تجارتها . وعرفت الواجهة البحرية الفرنسية نشاطاً حياً ولكنها لم تدمج في التجارة الإيطالية : لقد كانت تجارة انتقال بين الموانئ تربط الموانئ الفرنسية بالموانئ الإنكليزية أو الفلامانديـة . وتصدر بوردو وبايّون عظلم لوراغيه ، ولاروشل حنطة پواتو والشارانت ؛ وبوردو ولاروشل ، الخمور الأكيتانية . وفي جون بورنيوف تأتي سفن الشمال للبحث عن الملح . وبالمقابل ، البرتغال ولا سيما القشتالة أفادت عن سعة من نمو التجارة الأطلسية . كانت السفن الإيطالية تحط في إشبلية وفي قادس ، وتحمل فيها المنتجات الزراعية لشبه الجزيرة : حنطة ، خمور ، زيت ، وسمك الطون والفلذات المعدنية مثل الزئبق . وفيها استقر العديد من التجار الإيطاليين للإسهام في تجارة الأندلس مع إفريقية . وكانت إشبلية السوق الأساسي للذهب السوداني . والملاحون القشتاليون والباسك بدورهم انضموا إليهم : فقد وضعوا سفنهم في خدمة المدن الإيطالية الكبرى ، فلورنسا وجنوة ، لنقل الحبوب والصوف المخصصة لإيطاليا . وعلى هذا النحو تهيأت الثروة الأيبرية .

وأمنت طرق برية أيضاً محطة أسواق الشامبانيا ، ثم انتقلت نحو الشرق متبعة حدود مملكة فرنسا أو سالكة بين لومبارديا والفلاندر جبال الألب ووادي الراين . وبوادي الرون تنتقل « الأقمشة الخام » ولا سيما الزعفران ، التابل الغربي الذي ينعش مطبخ الفقير . وفي أسواق ليون وجنيڤ ، يبيع التجار الإيطاليون الحرير ، وخيوط الذهب والفضة ، والمخمل والبروكار . ولكن ألمانيا الجنوبية

بصلتها مع بلاد الهانس ومع لومبارديا ، عرفت تجارة نشيطة أكثر من غيرهـا : إن نورامبرغ الواقعـة على مقربـة من منـاجم بوهيميـا ، تسيطر على تجـارة المعـادن : النحاس . القصدير ، الفضة خاصة ، والمنتجـات الصنـاعيـة المعـدنيـة (البرونز ، المدافع ، الأسلحة ، الدروع المصفحـة) . إن تجـار مـدينـة الفضـة هـذه هم أيضـاً ماليون ؛ راڤنسبورغ توجه عمل نسيج القطن والكتان والقنب في المنطقة كلها من بحيرة كونستانس وسؤاب العليا ، وتبسط شبكتها التجارية على الغرب كله . وفي ثلمها ، أوغسبورغ ، وفرانكفورت ولايبزيغ نمت بوتيرة سريعة . والتجـار الألمـان حاضرون في إيطـاليـا ، في البنـدقيـة ، حيث ، يتقـايضون في مؤسسـة تيـديشي القطن الشرقي مقـابـل الفضــة ؛ وفي جنـوة حيث يسيطرون على تجــارة صـوف إسبانيا . وفي بروج وفي لوبيك يبيعون المنسوجات والمعادن .

جـ ـ تحسين التقنيات المالية

وللتكيف بشكل أفضل مع الظروف الجـديـدة للتجـارة الـدوليـة ، كان على التجار أن يحسنوا تقنياتهم . ولقد بدا بعض التقدم في صعيـد النقل البحري . ففي الموانئ الكبرى ، كان الذين منهم على رأس النقل إلى مسـافـات كبرى قـد أنشؤوا سفناً قويـة أكثر فـأكثر . ففي بحر الشمال ، يمكن للسفينـة (لاهولـك) في القرن الخـامس عشر أن تنقـل شحنـات أضخم من السفينـة (الكـوج) . وفي البنـدقيـة صنعت السفن التجـاريـة ، وهي ذات سعـة أعلى من سعـة السفن (الغــاليرات) البسيطة ومجهزة بمجاديف تنوب مناب الشراع في المنـاورات الـدقيقـة . ولتجـارة الأطلسي ، تبنت جنــوة السفينــــة (النيف) أو (كارّاك) وهي أيضـــاً أهم : فجوانبها المستديرة ، وغشاؤها المرتفع تسـاعـد على تحميلهـا حجر الشب عـاليـاً . وكل هذه السفن تجابـه شـدة الشتـاء ، ولكنهـا تظل تتـابع السواحل التي تجهزهـا الخـارطـات البحريـة برسمهـا (في آخر العصر الوسيـط وعصر النهضـة وتـدل على موانئ السواحل) . وكان إنشاء هذه العمائر الضخمة ، خاصاً بالورشات البحريـة

في بعض الموانئ الفخمة ، الغنية بخاصة . وفي الواقع ، يجب أن يؤتى من الشمال أو من الجبال بكميات ضخمة من الخشب ؛ وإلى نفقات البناء تضاف نفقات التسلح وأخطار القراصنة . وهذا أيضاً من شأن الرأسمالية : رؤوس أموال الدولة كما في البندقية ، رؤوس أموال خاصة كما في جنوة . وكما في العصر السابق ، تقسم السفينة في الغالب إلى حصص قابلة للتفاوض . واستغلال السفينة كان موضع مضاربة بالنسبة للمساهمين الذين يعهدون بسفينتهم إلى قبطان . وبالمقابل ، تركت المساحلة للأساطيل الصغيرة في الموانئ الصغيرة : فقد كانت المراكب الصغيرة البروتانية والباسكية والكاتالانية تنقل المنتجات الأصلية للبلاد أو تؤجر خدمتها في الموانئ الكبرى .

وتقدمت (التقنيات الفكرية) في التجارة بسرعة جداً ، وتثقف تجار المستقبل في الغالب بثقافة متخصصة ، ولا سيما في إيطاليا ؛ فبعد المدرسة الابتدائية ، كانوا يختلفون إلى دروس الحساب (مدارس تعليم الحسابات بالخطوط البيانية) التي تفتحها البلديات أو الأصناف المهنية : وتدرس فيها النقود ، وقضايا القطع (الصرف) ومسك دفاتر الحسابات . وحررت كتب يدوية مثل (الكتاب العملي في التجارة) الذي كتبه ممتهن من عائلة باردي ، بالدوتشيو بيغولوتّي (١٣٥٠ م) حيث وصف كل النشاط التجاري لعصره . ومنذ القرن الرابع عشر ، يرى ، في المشاريع الكبرى التجارية ، ظهور اهتمامين جديدين : الاهتمام بالاستعلام السريع والاستعلام بوضوح الحسابات . وكان على مديري الفروع والمستخدمين في المحال التجارية ، في الواقع ، أن يوجهوا بصورة منتظمة إلى أرباب عملهم رسائل تعلمهم في أصغر التفاصيل عن الظروف الاقتصادية والسياسية مع قوائم أسعار مطبقة ، وبضائع مصدرة أو مستوردة .

وكان متعهدو التجارة يهتمون دوماً بمجرى جميع الحوادث الخارجية ، وبالمعرفة التامة ، وفي كل لحظة ، لوضعهم المالي الخاص . وبذلت جهود لتحسين

الكتابة الحسابية . وعلم مسك الدفاتر التجارية المزدوج جزئياً ، ويطبقه تجار فلورنسا منذ آخر القرن الرابع عشر ، ووصل في القرن الخامس عشر مدناً إيطالية أخرى ، يستجيب لهذه المتطلبات . ففي القرن الثالث عشر يكتفى بأن يسجل ، على دفتر يمسك حساب نظام زمني ما يخرج من الصندوق وما يدخل إليه ؛ ولكن مع نمو الاعتماد وتأسيس الفروع ، أصبح من الصعب جداً رقابة هذه العمليات بسرعة . ولذا فإن شركات الأعمال الكبرى بدأت تمسك سجلاً ، حيث ، باسم كل زبون أو شريك ، يسجل على صفحتين متقابلتين ماعليه ، وماله . وهذا القسم المزدوج يسمح بعمل موازنة حساب في كل حين .

وأخيراً تقدمت التقنيات المالية أيضاً في اتجاه التبسيط الخاص لمعالجة نقص العملة . وكان نمو البنوك في أصل هذه التحسينات . إن الصرافين اليدويين الذين تلقوا ودائع من زبائنهم ويستطيعون إعطاء قروض ، أو رجال الأعمال الأغنياء ، هؤلاء هم أصحاب المصارف الخاصة . وفي إيطاليا وجدت مصارف عامة منذ القرن الرابع عشر . وقد تألفت بمشاركة دائنين من المنطقة قبلوا بتقديم قروض إجبارية كثيراً أو قليلاً . ثم قويت هذه البنوك ، وكان أهمها (بنك القديس جورج) في جنوة . وهذه البنوك ، خاصة أو عامة ، تقبل الودائع ، وتخول القروض ، وتسهل المعاملات التجارية الهامة . وبنظام التحويل ، ينتقل مبلغ من المال ، دون تعاطي النقد باليد ، من حساب زبون إلى حساب زبون آخر . ولهذه العمليات تكون وحدة النقد مرتبطة بقيمة القطعة الذهبية وثابتة . ويشترك بالنشاط المصرفي أيضاً استعمال الشيك ، وهو أمر بدفع محرر ، أي مكتوب لصالح شخص آخر ، بسند حوالة (سفتجة) ، كما يدل اسمه ، يضيف عملية تحويل العملة لأمره بالدفع . مثال ذلك : تاجر مسافر يرغب في ألا يحمل معه مبالغ ضخمة ، يجهز نفسه بشيك مسحوب على المكان الذي يذهب إليه وبعملة هذا البلد . وإلى عمليات الاعتماد هذه ، يضاف أخيراً ظهور التأمينات البحرية في جنوة .

وهـذا التطـور جرى لصـالـح بعض شركات الأعمـال الكبرى التي كانت كلهـا أيضاً إيطالية تقريباً . وعقود الشركة أو المشـاركـة تختلف حسب المـدن . وتجرى دوماً عقود غير مقبولة إلا لعملية تجارية واحدة ورحلـة واحـدة . ولكن في جنوة وفي البنـدقيـة ، وفلورنسـا بخـاصـة ، تـأسست شركات تجـارة تبـدي مـواصفـات جـديـدة : مثـل البيـوتـات الفلـورنسيـة الكبرى : بـاردي ، بيروزي ، ثم بعـد اضطرابـات آخر القرن الرابـع عشر ، الميـديتشي وستروزّي ، وهي هيئـات ذات طابع عائلي وثابت . والاسم الاجتماعي هو اسم عائلـة موجهـة ويتجـدد العقـد كل ستة أو سبعة أعوام . والأربـاح توزع حسب رؤوس الأموال . وأخيراً ، تهتم هـذه الشركات بكل أنواع الأعمال ، وتقيم لها فروعاً في الخارج .

وبالإجمال ، وعبر الصعوبات والأزمات ، يرى ظهور أشكال جديدة للإنتاج والمبادلات ، وتوزيع مختلف للنشاط الاقتصادي تنبئ وتهيئ قلب أوضاع المجتمع في آخر العصر الوسيط .

الفصل الثالث

عصر الاضطراب والقلق

الأجيـال التي عـاشت في القرن الرابـع عشر وفي النصف الأول من القرن الخـامس عشر ، وعرفت دون انقطـاع النكبـات العسكريـة ، ونهب قطـاع الطرق ، وفتـك وبـاء الطـاعون ، وأهوال الجـوع ، كانت تسـاورهـا اضطرابـات عميقة . ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يبدو فيها الغرب في حالة ضياع : ففي القرن العاشر ، كادت الحضارة أن تبيد تحت ضربات الهونغاريين والنورمـانـديين والمسلمين . ولكن أمواج الخوف التي كانت تهز الضمائر آنذاك كانت ردود فعل فظـة وبدائية على الأخطار الخارجية التي فسرت أحياناً كمؤشرات لنهاية العالم . وما أن أبعدت هـذه التهـديدات ، إلا وقـام النـاس ، مفعمين بـالحيويـة والأمل ، برفع الدمار . أما الأفكار الأكثر تطوراً في القرن الرابع عشر ، فإن القلق كان بـالنسبـة لها أكثر ختلاً وأكثر خطورة : لأن المجتمع الغربي يبدو أنه كان يشكو ألماً داخليـاً ؛ ففي هياج الحروب ، كان المسيحيون يقاتل بعضهم بعضـاً ؛ وفجـأة ، ودون سبب ظاهر ، وفي عزّ الوفرة ، انفجرت أزمة اقتصادية .

وهذه الأوبئة التي تحل دورياً على البشريـة ألا تنضب نسغ الحيـاة ؟ ويشير المـؤرخـون بشكل يلفت النظر إلى أن الجنس البشري بـدأ ينحـدر طبيعيـاً ومعنوياً .

كان لدى معاصري حرب المئة عام انطبـاع في أنهم يعيشون في عـالم هرم بـدأ الزمان فيه ينخر البناء الذي شاده رجال القرون السالفة . لقد خمدت الهمة ، وعمّ

التشاؤم ، وسيطر لوناهما على أدب العصر : كان بترارك ينهل كآبته من عاطفة تقول بأن جميع الأشياء قريبة من نهايتها . وذوق الفنانين المرضي ، الذي يرسم فترة الموت على وجوه الأحياء ، كان ذوق عالم يعتقد بأنه يشهد نزاعه الخاص .

وتأثر المؤرخون المحدثون بهذه الشواهد العديدة وطاب لهم الإصرار على أفول العصر الوسيط المنتهي ، والإشارة إلى شلل الحياة الفكرية ، واضطراب العاطفة الدينية ، وعجز الأسلوب الغوطي الذي يكرر الصيغ نفسها بتعقيدها . وليس ذا إلا وجهاً من وجوه ذلك العصر المعقد . وكان القلق فيه أيضاً مصدر تجديد عميق . ففي الأسئلة التي تعرضها بعض الأفكار على نفسها ، تبحث عن الأجوبة في اتجاهات جديدة ، و (الحساسية) ـ هذه الكلمة ظهرت بدلالتها في اللغة الفرنسية في القرن الرابع عشر ـ أثرت بألوان جديدة . ووضحت آمال نهضة ..

وحول مصير الكنيسة ، التي كانت حياتها مهددة بصورة خاصة ، تعقد هذه الهموم وهذه الآمال .

تجشمت حياة الكنيسة بين ١٣٠٠ و ١٤٥٠ م انعكاس مختلف الأزمات التي عانت منها حياة القرن . فأمام التقدم العثماني ضاق المدى الجغرافي على العالم المسيحي ، وأخذ ينطوي على نفسه بعد ضياع الدول اللاتينية في فلسطين ، وبعد إغلاق طرق البعثات التبشيرية في آسيا الوسطى . لقد انفصمت الوحدة المسيحية بالحروب التي أقامت الأمراء المسيحيين ورعاياهم بعضهم على بعض . فهل يمكن للقيم الروحية ، التي تحاول الكنيسة تشييدها أن تظل سارية بعد في عصر يكون الأساسي فيه بالنسبة للمؤمنين كما للأكليروس العيش على المجاعة ، والأوبئة وشراسة الجنود وقطاع الطرق ؟

وأكثر من ذلك أن بنية الكنيسة ، المعتبرة كصرح زمني ، ومحتوى العقيدة طرحا على بساط البحث . أولاً ، إن الأحبار العظام ، بإقامتهم في مدينة

آفنيون ، هجروا روما العاصمة التي خصصها التقليد الرسولي للمسيحية : فهل الكنيسة بعد أن عدلت عن كونها رومانية يمكن أن تبقى عامة ؟ وفضلاً عن ذلك وضعت بجدة ، لأن كل تطور القرون السابقة جعل من أسقف روما زعيم العالم المسيحي بعد أن أصبحت الكنيسة ملكية في القرن الثالث عشر . ولكن عقب النفي في آفنيون ، والانتخاب الحبري في ١٣٧٨ م ، الذي كان في أصل (حيدة الغرب الكبرى) ، اتجهت هيئة الكرادلة ، والجامعات ، وأخيراً المجمع الديني شطر تحويل حكم الكنيسة إلى نظام أقلية (أوليغارشية) . وبصورة موازية ، إن نشأة الدول الوطنية وضعت بشكل جديد قضية علاقات الروحاني والزمني ؛ حتى أن الجهود التي بذلها الإمبراطور لتوكيد تفوق سلطته على سلطة البابا أصبحت منذ الآن للماضي . فلا هذا ولا ذاك استطاعا تحقيق وحدة العالم المسيحي .

وظهرت كنائس وطنية ، مثل الكنيسة الغالّيكانية ، والكنيسة التشيكية ، طالبت بالاستقلال الذاتي . لذا اقتضت الضرورة القيام بإصلاح عام . فهل البابوية التي نوزعت سلطتها على صعيد نظام الكنيسة ، بل وعلى صعيد العقيدة ، قادرة على أن تأخذ بيدها زمام المبادرة لهذا الإصلاح ؟

١ ـ الفاترون والنشيطون

دمار الكنيسة

لقد اجتازت الكنيسة أزمة معقدة جداً في سياق القرن الرابع عشر وفي النصف الأول من القرن الخامس عشر . فمن جهة ، شجعت الفتن والاضطرابات ، شأنها دائماً ، تراخي الأخلاق وتدني النشاط الفكري عند قسم من الأكليروس والمؤمنين ؛ ولكن المحن ، في الوقت نفسه ، التي كانت تثير الحساسيات ، أسهمت في الإبقاء على توتر روحي عظيم : فقد شعر العديد من المسيحيين بنقص الممارسة الدينية وأعربوا عن تمنياتهم بإصلاح جديد للكنيسة .

نقص الإطار الأكليركي

إن حالة الحرب المزمنة ، والأزمة الاقتصادية والسكانية أضرت بـالكنيسـة : على الصعيد المادي بادئ بدء . فقد أفقرت كالقسم الأعظم من الأمراء العلمـانيين ، بخفض الموارد الدومينيـة ، وأعمـال التخريب وخلو السكان . ومن المؤكـد أنـه من غير الممكن التعميم : لأن بعض المناطق قد توفرت وسلمت وكذلـك بعض عنـاصر الأكليروس . فقد أفادت أنظمة المتسولين ، والكنائس المدنيـة من هبـات عريضـة ومن تراث تقي أوحى به الخوف من الجحيم إلى الأثرياء ساعـة الوفـاة ، وتوصلت في الغالب أيضاً إلى زيادة رأسمالها العقـاري . ولكن كم من الأديرة كانت تطـالب بتحجيم عـدد رهبـانهـا لأنهـا لاتستطيع إطعـامهم . وكم من المؤسسـات الـدينيـة ، وبخاصـة بين الأنظمـة القـديمـة ، كانت تتوسل لإعفـائهـا من الرسوم ؛ ولمقـاومـة الضـائقـة المتعـاظمـة ، حصلت في الأغلب كنيستـان ريفيتـان متجـاورتـان على ترخيص بالاتحاد وعـدم إقـامـة أكثر من خـادم واحـد . ولا محـالـة من أن نظـام الأكليروس وأخلاقه قد شكت من حالة الأمور هذه . ولما كانت الموارد التي يحصل عليها بانتفاع واحد لاتساعد على تأمين حياة صاحب الحق في أكثر الحالات ، فقد أصبح تراكمـه ممـارسـة جـاريـة . وقـد احتـج ويكليف في إنكلترا ، في آخر القرن الرابع عشر ، على هذه المساوئ واضطر ليعيش أن يمتلـك لنفسـه كثيراً من الموارد والدخول . والفضيحة تكون أعظم عندمـا يكون القصـد أحبـاراً سمانـاً يجمعون ، دون أن يكون لهم نفس العذر ، عدة انتفاعات هـامـة . وبـاعتبـارهم من الطبقـة النبيلة التي يشاطرونهـا ذوق البـذخ ، كانوا يحـاولون احتكار أغنى الموارد ، بـالرغم من تعـدد ثروتهم المـوروثـة . وهكـذا كان رينيـول دو شـارتر ، الرئيس الأعلى للعدلية لدى شارل السابع ، رئيس أساقفـة رنس وأسقف مـانـد معـاً . وفي الوقت نفسه ، اعتاد عديد من الأساقفة على تمديد زيارتهم ، (على عتبـة) القصر الحبري حيث انتهى بعضهم بممارسة وظـائف دبلومـاسيـة وإداريـة بصفـة دائمـة ، وبمـا أن

آخرين منهم كانوا أعضاء في المجلس الملكي أو البرلمان ، فإن الغياب كان مفسدة من أعظم مفاسد العصر . وأفضل أسقف لا يمكن أن ينقسم بين أبرشيتين أو بين وظيفتين . ولذا يصل به الأمر إلى التخلي عن واجبات وظيفته التعليمية لدى قطيع المؤمنين ، ويتخلى عن أكليروس الأبرشية دون إشراف ودون موجه ؛ إن مشاكل الإدارة تكفي لاستيعاب القليل من الوقت الذي يستطيع تخصيصه لكنيسته . وماذا يقال عندئذ عن الأحبار السيئين ، والأكليركيين الذين ، حسب نيقولا دو كلامانج ، مؤلف كتاب ربما يكون متشائماً بمبالغة من (دمار الكنيسة) ، لا يخضعون بشيء للقانون الإلّهي ، ولا إلى فقه الروح الذي يجب أن يتعلم به الشعب في سبيل خلاصه الأبدي ؛ إن الدراسة بالنسبة لهؤلاء الناس سخرية واستهزاء .

وفي الحقيقة عندما لا يستطيع الأسقف القيام بوظيفته بنفسه ، يندب نائباً عنه حسب نظام التكليف . ولكن هذا النائب ، الذي لا يقبض إلا جزءاً من الموارد ، كان في الغالب يقوم بعمله بغيرة معتدلة جداً . ولا عجب إذا اقترحت بعض الأفكار ، حذف منصب الأسقف بكل بساطة .

إن اللوحة التي يمكن رسمها عن إكليروس الخورية ليست أكثر لمعاناً وإشراقاً . ومع ذلك فمن الضروري التمييز بين الخوريات المدنية والخوريات الريفية . فالأولى منهما أكثر تفضيلاً : لأن المدن بأسوارها ، التي تقدم الحماية للنشاط الاقتصادي والفكري ، تجذب وتحتفظ بأفضل عناصر الأكليروس ؛ والزمنيون منهم الحاصلون على درجات جامعية قلما تغويهم الوظيفة الريفية ؛ فهم يفضلون على المؤمنين ، غير المثقفين من الأرياف ، الوسط البورجوازي المثقف . وفي المدن أيضاً استقرت في القرن السابق ، أنظمة المتسولين ، ففيها ، يسجل مؤرخ معاصر ، جيل الأعمى ، « توجد كل كليرجية (أي كل علم) ، دكاترة خبراء وحكماء في اللاهوت » . وإذن فالقطيع المدني أفضل رعاية . إن

ظهور كراسي ثابتة خشبية أو حجرية في آخر القرن الرابع عشر في الكنائس الخورية يوحي بأن الخوارنة أو الوعاظ ، الذين يدعون يهتمون بعناية كبرى في تعليم المؤمنين بوعظهم . أما الحالة في الأرياف فأضعف من ذلك بكثير : لأن الأكليروس كان فيها في الغالب مبعثراً بسبب الحرب ؛ أو أن الخورية ، التي تكون مواردها مخصصة لإعاشة طالب في اللاهوت ، يقوم عليها نائب قليل الكفاءة . وفي الواقع ، إن الأكليركيين القليلي الموهبة ، الذين لم يستطيعوا في المدرسة الأسقفية أن يتعلموا إلا بعض مبادئ اللغة اللاتينية وبعض الصيغ الليتورجية ، هم الذين يمارسون وظيفتهم بين الأجلاف . وللعيش ، كانوا في الغالب مضطرين إلى ممارسة حرفة مثل حرفة كاتب العدل أو مساق (مستأجر) على دومين أميري . لقد كان هؤلاء يعيشون في ظروف مادية ضعيفة ، معزولين وسط مؤمنين أكثر جهلاً منهم أيضاً ، ولذا كانوا ينسون بسرعة المتاع الفكري الهزيل الذي استطاعوا كسبه .

تقدم السحر

وبعد أن حرم القسم الأعظم من المؤمنين من أدلاء روحانيين في الوقت الذي فقدت السلطة الزمنية للسادة والأمراء حظوتها بالهزيمة والدمار ، تركوا وحبلهم على غاربهم ، فاستسلموا لأقبح غرائزهم . لقد أدامت الحرب مناخ العنف وأنعشت روح الانتقام التي نجحت أنظمة السلام في تهدئتها . وما نزاع الأرمانياكيين والبورغونيين إلا أفضل صورة لذلك . لقد حضت الضائقة والمجاعة على الطمع والجشع عند المعدمين ، والرغبة بالتمتع عند الأغنياء المالكين .

ونظراً لعدم وجود ثقافة فكرية ودينية كافية ، انصرف العلمانيون بعدد كبير إلى الأباطيل والخرافات بل وإلى السحر . فقد كانت طقوس الكنيسة في الغالب غير مفهومة ، فحملت صفة شبه سحرية . وهكذا كان المؤمنون يجهلون في الغالب قيمة التعميد الفادي ؛ ولكنهم يحافظون بصورة ثمينة على الضمادات التي

كانت تفيد في مسح الزيت المقدس عن جبين المعمد . والمقلق أكثر من ذلك ، منذ آخر القرن الرابع عشر ، هو تكاثر حالات السحر . إن ممارسات الرقى وعبادات الشيطان ليست جديدة ، ولكن أفكار من يقوم عليها وأشياعهم ، عكرتها مصائب العصر ، وأصبحوا كثراً . وتأثرت الكنيسة باتساع هذا الشر وكافحته وشبهت السحر بالهرطقة الفودوازية . وكان المفتشون ، المكلفون بالتحقيق في الدعاوى ، يضعون لوحة عن كل هذه الاعترافات المنتزعة بالتعذيب . وكان السحر مؤسساً على الاعتقاد بسلطة الشياطين . فالساحر ، وفي الغالب الأعم ، الساحرة ، كان ينكر الله ، ويقدم الاحترام للشيطان ، وهو نفسه الذي ضحى أحياناً بأحد أولاده . وكان السحرة يعقدون اجتماعاتهم في مجالس ، في منتصف ليل السبت ، تحت رئاسة الشيطان ؛ وفيها يعبدون الشيطان ، ويصنعون مساحيق وعقاقير سحرية معطرة ويستسلمون للإفراط في الطعام والشراب والفجور .

وفي حال اقتناعهم وإيمانهم بهذه الأضاليل ، يسلمون للنار كالهراطقة . هكذا كانت الحال في جبال الألب بين ١٤٢٠ و ١٤٣٠ م حيث كان القمع شديداً لا يعرف الرحمة . ولكنه لم ينجح دوماً في استئصال شأفة الشر . وهذه العقائد المضللة نجحت لدى أناس فقراء وغير مثقفين . وأحياناً كان الأكليركيون ، ممن أسيئت ثقافتهم ، يتعاطون السحر . حتى أن هذا الأخير بلغ الطبقات العالية في المجتمع .

ويجب أن نترك أيضاً مجالاً للإعلام عن المبالغة التي تحمل دوماً على شبهة عنيفة في (تصيد الساحرات) . إن بعض الحالات تبرهن ، مع ذلك ، على أن السحر لم يكن وقفاً على الأجلاف والأفكار الساذجة . وأشهرها حالة جيل دو ريه أمير إقليم فانديه ، رفيق جان دارك . نودي به ماريشال فرنسا عند تقديسها . وفي النصف الثاني من حياته أصبح الشخصية التي أوحت إلى

الكاتب الأديب بيرو بقصة (اللحية الزرقاء) ، وأخذ يحيا حياة السكر والفجور ، وأكب على ممارسات سحرية ، أرفقها بقتل مئة وخمسين طفلاً ، وقد أوقف أخيراً هذا الغول ، الذي يجسد أقتم مظهر لهذا العصر المضطرب ، وحوكم ، وأعدم في ١٤٤٠ م .

نضوب الحياة الفكرية والفنية

لقد انعكس انحراف الانطلاقة الدينية على الحياة الفكرية والفنية التي ظل الإيمان بها ، حتى ذلك الحين ، المحرك الأساسي . وترجم هذا الانحراف باضطراب مفسد في الغالب وببعض جفاف في الفكر وعلم الجمال .

أفول الحياة الجامعية

إن النشاط الجامعي المرتبط بصورة وثيقة بالوضع الأكليركي كان أول ما مسه هذا الأفول . ومع ذلك فإن القرن الرابع عشر وبدايات القرن الخامس عشر شهدت في كل مكان في أوربة ، ازدهار جامعات جديدة . ولكن هذه اللامركزية تبدو أنها تستجيب بصورة أقل إلى ضرورات فكرية وتربوية منها إلى مشاغل سياسية . كانت الكبرياء الوطنية أو الوطنية البلدية تحضان الأمراء والبلديات على مطالبة البابا بهذه الإبداعات الجديدة . والنية الثابتة هي أن تحقق ، على الصعيد الفكري أيضاً ، الاستقلال الذاتي للدولة ، وذلك بإبقاء طلاب البلاد في مكانهم ؛ وأن يؤمن لهذه الدولة عنصراً جديداً من الحياة بجذب الأساتذة والطلاب الأجانب . فعقب استرداد وتثبيت الممالك الإيبرية ، افتتحت مراكز دراسات في لشبونة ، وبربينيان ، وبارشلونة ، وسرقسطة . وما أن حصل شارل الرابع على تأسيس جامعة براغ لمملكته ، مملكة بوهيميا (١٣٤٧ م) ، إلا ونسج على منواله كازيمير الأكبر في كراكوفيا (١٣٦٢ م) وأرشيدوق النمسا في فيينا (١٣٦٥ م) . وفي القرن الخامس عشر ، مهر الملوك الإسكانديناڤيون

بدورهم مملكتهم (ستوديات) أنشئت في كوبنهاغن وفي أبسـال . ولم يكن القصد تنافساً سلمياً فحسب : لأن إنشاء جامعة أصبح سلاحـاً في الخلافـات السيـاسيـة . فقد أضافت بيزا وفلورنسا إلى تنافسهما القديم تنافس جامعـاتيهما . وفي فرنسـا التي قسمتها الهزيمة ، أجاب المحتل الإنكليزي على مؤسسة بواتيه (١٤٣١ م) التي أقامها ولي العهد ، بإنشاء جامعـة بوردو (١٤٤١ م) ؛ وكـذلـك كان تجهيز مـدينـة كنْ (١٤٣٧ م) مخصصاً لمنع النورمانديين ، رعـايـا ملـك إنكلترا ، من الاختلاف إلى باريس التي استردها شارل السابع . وكانت المنازعات الدينيـة أيضـاً في أصل أكثر من مؤسسة جامعية جديدة : فمؤسسة آفنيون ارتبطت بإقامة الأحبار المنفيين على ضفاف نهر الرون . والحيدة الكبرى ، بتقسيمها المسيحية إلى عـدة طـاعـات ، أدت إلى ظهور مراكز دراسات لاهوتية جـديـدة كانت البـابويـة ، حتى ذلـك الحين ، مترددة في إكثـارهـا ؛ ورفض الطـلاب والأسـاتـذة الألمـان حبر آفنيـون فغـادروا بـاريس وأقـامـوا في تريـڤ ، ومـاينسْ وتـوبنغن . وبنفس الشكل ، أنشـأ الأيكـوسيـون ، الـذين طردوا من أوكسفـورد ، جـامعـات سـانت ـ أنـدروز ، وغلاسكو وأبردين .

وكلما تقـدمنـا في سيـاق القرن الخـامس عشر ، كلمـا ظهرت النعرة المؤديـة أحياناً إلى الإقليمية : فليحرر دوق بورغونيا فيليب الطيب ، رعايـاه من وصـايـة بـاريس ، أسس جـامعـات دول Dole في ١٤٢٢ م ولـوڤنْ في ١٤٢٥ م . وتبنى السيـاسـة نفسهـا لـويس الثـاني دوق بروڤـانص في أيكس (١٤٠٩ م) ودوق بروتانيا ، في نانْتْ في (١٤٦١ م) . وأريد من معظم هذه المراكز أيضاً أن تكون دولية ؛ وظل الطلاب من (أمم) مختلفة متقاربين فيها . وفي براغ اندفع التطور حتى نهـايتـه : فـالجـامعـة عنـد تـأسيسهـا فتحت للأمـة الألمـانيـة كما هي لـلأمـة التشيكية ؛ ولكن مالبث الأساتذة والتلاميذ الألمان أن فاقوا بعددهم . وردّ الفعل القـومي ، الـذي أثـار الرعـايـا التشيكيـة ضـد العنصر الجرمـاني ، دفـع الملـك

فانسيسلاس الرابع ، لأن يقرر في ١٤٠٩ م بأنه يتوجب على جميع أعضاء الجامعة أن يقسموا يمين الولاء لتاج بوهيميا . وعندئذ هاجر الألمان إلى ليبزيغ ؛ وأصبحت جامعة براغ أحد حصون القومية التشيكية في الصعيد السياسي والديني .

وبتبعثر العالم الجامعي وانقسامه فقد جزءاً من حيويته . حتى أن بعض المؤسسات تناقصت أهميتها وعاشت ضعيفة لعدم وجود طلاب عديدين فيها بشكل كاف . وهكذا فإن الاتصالات المثمرة بين الأساتذة من أصل مختلف ، التي جعلت من الجامعات الكبرى ، في القرن الثالث عشر ، جمهوريات فكر حقيقية ، انقطعت وتناثرت الجهود الفكرية دون فائدة . ووجد ماهو أخطر : فالجامعات ، القديمة كالحديثة ، فقدت كل استقلال حيال السلطة السياسية . فكيف أن الأمراء الذين شادوا مؤسسات وأسهموا بفضلهم في الحفاظ على وجودها ، وكيف أن العواهل الذين اعتبروا الجامعات كنوع من خدمة كبرى للدولة ، لا يغرون بتسمية الأساتذة ومراقبة مذهبهم ؟ وعلى هذا النحو أجبر شارل الخامس ، في ١٣٧٩ م ، الجامعيين الباريسيين ، رغم أنهم كانوا مترددين جداً ، أن يقرروا لصالح أحد البابوين ، كليمنت السابع . وقليلاً قليلاً جرَّ الأساتذة في العرين السياسي وقبلوا أخيراً الدخول في كفاحاته وكانوا يرجون أن يلعبوا فيه دوراً من الصعيد الأول . فقد تخلوا عن الصفاء الذي يتفق والنشاط النظري ، وآل بهم الأمر إلى اعتناق مواقع حزبية . والمثال الباريسي في هذه النقطة ما يزال أكثرها برهاناً . إن قسماً عظيماً من الأساتذة انتقل إلى المعسكر البورغوني وقبل الخضوع لإرادات المحتل الإنكليزي : فالجامعة هي التي وجهت الدعوى وصاغت الحكم ضد جان دارك . وكثرت الاتهامات التي كانت نتيجتها أن أفقدت العالم الجامعي حظوته وشككت به .

فقدت الجامعة اعتبارها بألاعيب السياسة وأصيبت أيضاً بالأزمة الاقتصادية . ولرد الفعل أخذت تنغلق على نفسها . وأمام ارتفاع الأسعار المستمر

بدا أن الموارد ، التي كان الأساتذة يجنونها من الانتفاعات الكنسية التي خولت لهم ، غير كافية بالرغم من ممارسة الجمع بين الوظائف . وأكثر فأكثر أخذ الأساتذة يطالبون تلامذتهم بدفع أجور دروسهم . وكانت الهدايا التي تفرض على الطلاب في زمن الامتحانات ، لها تعريفات مطابقة للشكل المفروض .

والمستثنون وحدهم من رفع الرسوم : أبناء وإخوة وأبناء إخوة الدكاترة . وهكذا شكل وسط الجامعة طبقة وراثية . ولتثبت هذه الأرستقراطية الجديدة نفسها تبنت نسق حياة نبيلة . فالرداء الطويل ذو الحاشية من فرو السمور ، والقلنسوة م والخاتم الذهبي ، والقفافيز أصبحت منذ الآن تميز الدكاترة . ووجد كتاب من القرن الخامس عشر يكشف بوضوح عن الفكرة التي كونوها عن طبقتهم في المجتمع .

« لقد أقرت إرادة الله شيئين ، كدعامتين لبسط نظام القوانين الإلهية والبشرية . هاتان الدعامتان هما الفروسية والعلم اللذان يتفقان معاً كثيراً » .

ووضع المؤرخ فرواسار مقارناً بشكل أوضح أيضاً فرسان الأسلحة و (فرسان القانون) . ولم يكن للعالم الجامعي ما يكسبه في هذا الانطواء .

وفي الواقع ، إن أزمة الكنيسة لم تكن مادية فحسب : إن العمائر الفكرية الكبرى للفلسفة المدرسية (السكولاستيكية) في القرن الثالث عشر ، والمؤسسة على تحالف الإيمان والعقل والمعتمدة على سلطة أرسطو ، هوجمت منذ بداية القرن الرابع عشر ، وبخاصة في أوكسفورد على يد دونز سكوت وأوكام . فقد انطلقا في نقد العقل وإمكانياته . وكانا في أصل تيار الشك الذي كان بيير دايّي أحد ممثليه في باريس .

أما حديث القديس آنسلم في (الإيمان في البحث عن العقل) فقد هجر لصالح فلسفة الإيمان التي تمدح الجهل . على أن طرح هذه المذاهب المقررة على

بساط البحث له في ذاته قيمة لاتنكر وبالتالي تتكشف خصبة ، ولكنها نفذت في الغالب كثيراً إلى القرن الرابع عشر على الفلسفة المعادية للعقل التي تعقم التفكير . ومن هذا الفصل بين الإيمان والعقل ينتج بالمقابل تيار فكري آخر : وهو أن نورتون أوكسفورد وارث غروسوتست وروجه بيكون ، وفي باريس جان بوريدان ، ونيقولا أوريسم وألبرت دو ساكس ينزلون ممارسة العقل إلى صعيد التجربة . ويحاول هؤلاء العلماء أن يؤسسوا علماً للحوادث الطبيعية . ولكن دراساتهم على التثاقل وعلى الحركة التي تبدو تبشر بدراسات العصر الحديث لم تهيؤهم بحق . فالحدوس العبقرية أحياناً لم تستطع ، لعدم وجود المفاهيم والصيغ العلمية الواضحة بكفاية وأيضاً لعدم وجود التقنيات القادرة على وضعها موضع التطبيق ، وعلى تقدم العلم بحق . ومع ذلك ، وبالرغم من الهجومات التي كانت الفلسفة السكولاستيكية هدفاً لها فقد تابعت مهنتها في الجامعات . وانغلقت في دراسة المنطق الصوري ، واقتصرت على اللعب العقيم بالتعاريف والتصنيفات والدعابات الباطلة كهذه : لماذا الرهبان أضخم من غيرهم من الرجال ؟ وهكذا شل التعليم الجامعي تماماً .

جفاف الأدب والفن

في فرنسا كما في إنكلترا عاش الأدب المهذب الناعم الذي ظهر في القرنين الحادي عشر والثاني عشر في البلاطات الأميرية في جنوب فرنسا ومجد الحب والمغامرات الفروسية ، وظل طيلة القرن الرابع عشر . فمن ذلك أن شعراء البلاط المأجورين كانوا يجهزون الجمهور النهم إلى هذه الأنواع من اللطف بنصيب وافر من الصور الرمزية والمناقشات المهذبة ويكررون دون انقطاع وملل (رواية الوردة) لمؤلفها غليوم دو لورّيس ، وهي قصة رمزية لمغامرة حب .

وقدم فن الشعر أيضاً أمثلة عديدة لجفاف مشابه ، فقد كان الفصحاء (هكذا يسمى شعراء هذا العصر) ينصرفون إلى أعمال شجاعة لفظية وإلى

التلاعب بالقافية في قصائدهم الصغيرة ذات الأدوار وفي قصائدهم الغنائية ذات الثلاثة أدوار المتساوية مع دور أقصر منها ولازمة في آخر كل دور ، وفي القصائد الوصفية أو الغنائية ذات الأبيات القصيرة ، ويمنون صوراً رمزية متحذلقة لا يرى فيها شيء من الانطلاقة الشعرية الحقيقية . وكان اسم غليوم دو ماشو (١٣٠٠ - ١٣٧٧ م) ، زعيم المدرسة يشارك أيضاً في بحوث العصر الموسيقية المعروفة تحت اسم (أرس نوڤا) . وقد ترك ماشو بعض أعمال مدعاة للإعجاب مثل (قداس نوتردام) ، (قداس السيدة) ؛ ولكن موسيقيي العصر ، بمحاولتهم التحرر من القسر التقني ، كانوا منقطعين في الغالب جداً إلى مهارة خالصة تحل محل حركات الأورغ الغنائية . والنتيجة هي « نوع من الانخلاع العام لنغمة الميلوديا ... ، والبحث عن موضوعات تنيب ، عن تعبير العواطف المرتفعة ... نوعاً من هزل مفرط ، يعارض باستمرار المدد الأكثر اختلافاً والأكثر تعارضاً ، ويجري ، على سبيل المثال ، في الميلوديا ، ألحان غناء مخالفة بعد مدّات طويلة غير قابلة للإيضاح ، تقطع النص الذي يراد غناؤه بفترات صمت غير مفهومة تقطع كلمة إلى كلمتين ، وتوقف الميلوديا بطريقة نغمية لاسمها الفني دلالته : الشهقة » . وفي الحقيقة ، إن هذه البحوث تدع مجالاً لإمكانيات تقنية جديدة ، ولكن ينقصها الهدف المباشر على الصعيد الجمالي . وهكذا فإن ماشو في قطعته الصغيرة باسم واعد : (نهايتي هي بدايتي) يمكن أن تقرأ الميلوديا دون تمييز بشكل ملائم أو بالعكس . ولكن هذه الشعوذة الموسيقية المجانية لا شيء فيها يستشف للسماع .

وفن العمارة الغوطية يعطي في القرن الرابع عشر الانطباع نفسه لتقنية عديمة الروح . فبعد قرن من الإبداع المتجدد دون انقطاع ، بلغ نقطة إنجازه الكامل ، سقط بعد ١٣٠٠ م في نوع من الرتابة . وفي الحقيقة ، لقد شيدت بعض الكنائس الجميلة ، مثل كاتدرائية ميتز والقديس أوربينو في تروا ، ولكن

المهندسين المعماريين في غيرها في كل مكان ، كانوا يكتفون بتكرارها وتعقيدها بأشكال وصيغ سابقة دلت على كفاءتها وعلمها . فصحون الكنائس المحمولة على نضد ترتبط فيها حزم وحيدة الشكل من العميدات ، التي تزين تيجانها بأوراق رقيقة ، تتطاول بشكل متفاوت في الارتفاع ، والتخفيف المبالغ في البناء لصالح فتحات يسهم في إعطاء الارتفاع مظهراً على الغالب دقيقاً ونحيلاً ، لاتوجد فيها حمية القرن الثالث عشر الصوفية .

الحساسية والفكر الجديدان

العاطفة والتعبير عنها : وهذه اللوحة التشاؤمية لاتقدم من الحياة الدينية والروحانية ، في القرن الرابع عشر ، إلا وجهاً واحداً ، وجه الظلال . ولكن نور الإيمان لم ينطفىء ، بل ظل يلتهب في النفوس ، وازداد ضياؤه كثافة . لأن دين الناس ، في ذلك العصر ، كان مشبعاً بالعاطفة . فإلى الممارسات الخارجية ومشايعة روح حقائق الوحي ، تضاف عاطفة ولدت في أعمق الحياة الباطنية ؛ إنها وثبة قلب يستطيع في شدته القصوى أن يذهب بها حتى الصوفية . وهذه الروح الجديدة تتضح بحوادث العصر الدرامية . وإذا بادر بعضهم إلى التمتع بأسباب الحياة لينسى التهديد المستمر الذي يخيم فيه الموت على البشرية فريسة الجوع والحرب والطاعون ، فإن آخرين كانوا يفكرون فيه دون مهادنة ، بغية تهيئة أرواحهم ، بحياة التقشف إلى المثول أمام المحكمة الإلهية في كل لحظة . لقد كان الاهتمام بالحياة الآخرة يسيطر دوماً على الحياة الدينية . ولكن الملفت لأنظار المسيحيين ، في هذه الغايات الأخيرة ، هو مصير الروح الماثلة أمام محكمة الله ، هل صفح عنها أو حكم عليها . ومنذ الآن فصاعداً ، كان الوقع على الموت الجسدي الذي هو مقدمة للغايات الأخيرة . وكان الأدب المقدس وبخاصة الفن يعكسان جيداً هذه الفكرة الملازمة التي استحوذت على النفوس . فبواقعية فجة خاصة بإحداث صدمة على الحساسية ، يذكران دوماً كلل أو ملل بأن الغشاء اللحمي

مصيره الفساد ، وأن الأحياء أموات مع وقف التنفيذ . فعلى أضرحة الكنائس لم يكن النحاتون يمثلون راقدين نائمين بهدوء في سلام الرّب ، وإنما جثثاً عارية وجافة ، مثل جثة الكردينال دو لا غرانج في آفنيون (المتوفى في ١٤٠٢ م) . وتعرض أعمال التقوى في منمناتهم على تأمل القارئ صورة الموت وجنازة المسيحي ؛ وكتاب الصلوات لأسرة روهان (نحو ١٤١٤ م) من أشهر هذه الأعمال . وإلى موضوع يوم الدينونة (يوم الحساب الأخير) المعالج بكثرة ، دوماً ، يضاف موضوع أكثر حداثة وهو (رقص الأموات) الذي ألهم عدداً من الرسامين : ففي ١٤٣٤ م رسم رقص الأموات لمقبرة الأبرياء في باريس ؛ ورجال ونساء من كل أصل تجرهم في رقصة جماعية جثث تصور ماسيكونون بعد الموت .

لقد قلق معاصرو حرب المئة عام بفكرة الموت فبحثوا أولاً في الدين عن عزاء وسلوى . ولم يروا في المسيح القاضي الفظيع الذي ينتصب على البوابات الرومانية ، ولا (الرب الجميل) الجالس بمجده على العرش (رغم أن علم الأيقونات الجيد لم يزل تماماً) ، وإنما رأوا الإنسان الذي عاش على الأرض وتألم في لحمه (جسده) وفي قلبه وخشي مثلهم التداني من الموت . إنه الرفيق المؤلم والأخوي الذي فتح للإنسان دخول العالم السماوي . وينبه علم الإيقونات كالليتورجيا (نظام الطقوس والصلوات) إلى هذا التعلق بإنسانية يسوع . ويكتشف من جديد ، في القرن الرابع عشر ، الطفل يسوع ، يسوع (الصغير) : معبراً عن نوع من حنان للطفل - الرب الضعيف والمهدَّد - وصور ، وتماثيل ، أو منحوتات تمثل مولد يسوع المسيح ، وعبادة الملوك الفرس الذين أتوا ودليلهم نجم لعبادة يسوع في بيت لحم ، وبخاصة العذراء والطفل . وبصورة موازية جرت العادة ، في آخر القرن الرابع عشر ، على بناء مِذْوَد (مهد) بمناسبة عيد الميلاد ؛ ورعاة وملائكة ، يقوم بدورهم أطفال ، يفسرون المشهد بنوع من حوار شبيه بأسرار وقت عيد الفصح . ولكن الموضوعات ، التي يعالجها الفنانون

في الغالب ، تتعلق بآلام وموت المسيح : هوذا الإنسان ، وتل الجلجلة (المسمى تل الجمجمة ، بالقرب من القدس) ، والذي غرز فيه صليب المسيح ، تمثيلاً للصلب ، ودفن المسيح . وكذلك الصليب الموضوع على المذبح لم يكن ، انطلاقاً من القرن الرابع عشر ، رمزاً مجرداً لفداء البشر على يد المخلص ، بل يمثل المصلوب ، بينما رسمت مختلف مراحل آلام المسيح على جدران الكنيسة بـ (طريق الصليب) الذي اعتاد المؤمنون سلوكه مصلين . إن كل هذه الصور لا تظهر المسيح منتصراً على الموت في جسده المجيد ، بل جثة فظيعة في واقعيتها : فقد أفاد الرسامون والنحاتون من أفضل الملاحظات الطبية والتشريحية وعرفوا كيف يردون الشحوب الخالي من الدم في الجسد والجروح الدامية للأعضاء ، والأسارير النحيفة من الألم ، والوجه الذي يسقط جامداً على الصدر . والجدير بالذكر هو أنه في ذلك العصر أُلِّفت حياة يسوع الأولى على يد سيمون فيداتي دا كوستشيا ولودولف لو شارترو اللذين استلها من العهد الجديد .

وتوجد الاتجاهات نفسها في إيقونات العذراء والقديسين . إن مريم التي نمت عبادتها في القرن الثالث عشر ، تمثل في الغالب عذراء حنوناً تصغي إلى بشرى الملاك في حديقة مغلقة ومزهرة . ولكنها أيضاً الأم الرحيمة التي تتوسط للمذنبين . ففي طيات ردائها تلجئ جميع الفئات الاجتماعية . وهي أيضاً الأم المؤلمة : إن (الستابات ماتر) يذكر آلامها على يسوع المصلوب ويمثل الفن (عذراء الآلام) تعطف على جسد ابنها الجامد . ونشأ موضوع (الشفقة) أو (الرحمة) . ووجدت عبادة مارية تتويجها عندما حكم مجمع بال (بازيل) ، في جلسة كانت حائدة ، لتعريف عقيدة (الحبل بلا دنس) . وعبادة القديسين أصبحت إنسانية أيضاً . فالقديس كائن قريب منا ، قوي وأليف معاً . ومن الممكن الحصول على شفقته أو معروفه بتخصيص شيء له يخلد ذكرى الفضل الذي منحه . فاحترام القديس أنطوان في پادوا وكذلك القديس إيڤ اللذين يسعفان

الضعفاء ، وبخاصة احترام القديس كريستوف الذي تبعد صورته (الموت المفاجئ) تشهد على هذا التعامل المألوف مع القديسين .

وهذا الإيمان الحنون والقلق نفخا روح الحياة في الفن والأدب اللذين ، على ما يبدو ، قد جفّا في بحوث صورية صرفاً . وللتعبير عن واقعية الوجوه ، مما يؤثر في النفس وما فيها من تعابير مؤثرة ، وجد فن التمثال ، في القرن الرابع عشر ، قوة جديدة اتضحت بصورة خاصة في جمع (العذارى المجنونات) في مدينة إرفورت ، في التمثال النصفي الأعلى لجسم شارل الخامس في متحف اللوفر ، أو في أضرحة مدينة القديس ـ دوني وآفنيون . وهذا الاحترام الجديد أثار التماثيل فتكاثرت واجتاحت داخل العمائر المقدسة . والعذارى المعلقة على دعائم صحن الكنيسة ، والمحتمية في كوات على طول الجدران الجانبية تبدو مستندة على ساق واحدة بعذوبة ، وصور القديسين التي لا عدَّ لها ، والتماثيل الراقدة على الأضرحة كانت أعمالاً معالجة من أجل ذاتها ؛ ولم يعد فن النحت في خدمة العمارة ، أو يخضع لضغوطه وقيوده . فالوجوه المنحوتة في الحجر تريد أن تكون صوراً فردية وواقعية للأشخاص . وكذلك الفنون الخطية عرفت أيضاً تجديداً كبيراً : فعلى الزجاج ترسم شخصيات عظيمة تشبه شخصيات فن التمثال ، مثل أنبياء كنيسة القديس أوربينو في مدينة تروا ، تنفرد على أرضية بلون أشهب أو رمادي . ورشاقة الجسم ، وسطوع الألوان الشفاف على اتفاق مع خفة العمارة تسهمان في جعل خورس كاتدرائية إيفرو أكمل إنجاز معبر للرسم على زجاج القرن الرابع عشر . وتدخل براعة الرسم أيضاً في تزيين النسيج ، ففي نسيج مذبح ناربونّ الذي نفذ لأجل شارل الخامس ، يظهر عنف درامة آلام يسوع في تطاول الوجوه . وفي عهد حكم شارل الخامس تأرخت أيضاً أقدم الأنسجة المطرزة الغوطية التي نجت من تلف العصر بالرغم من أن تقاطع خيوط السدة غير الملونة بخيوط اللحمة الملونة قد طبق في الغرب منذ زمن طويل . إن قطع رؤيا يوحنا

المعمدان السبع في آنجيه (١٣٧٥ ـ ١٣٨٠ م) التي أنجزها النساج الباريسي نيقولا باتاي ، عن كرتونات جان دو بروج ، إنما هي روائع لا تعادل بقوة الرسم وشدة الحياة الباطنية . وبعد أن أبعد فن الرسم الآبدي من كنائس فرنسا الزجاجية ، اتجه في إيطاليا ، حيث أدخل العمارة الغوطية قليلاً قليلاً ، نحو طرق جديدة تتمثل بالفلورنسي جيوتو والسييني سيمون مارتيني . ففي فرسكات كنيسة آسيز العليا ، التي ينسب جزء منها له ، كما في عرين بادوا وعلى جدران قابلة آل باردي الخاصة في سانتا كروس فلورنسا ، أعطى جيوتّو للحب الفرانسيسكاني للطبيعة وللصوفية الحنون ، في بوفيريللو ، وللعاطفية الدينية لعصره ، أكمل تعبير تشكيلي . ولكن جيوتو ، هو أيضاً ، وبخاصة (رجل الأسلوب) الذي يبشر ببحوث عصر النهضة . « الرسام يستحوذ على الجدار بكامله ، وينظمه حسب هواه ... المكان ينفتح ، ولكنه ليس مكاناً لمنظور يحفر مجالاً ضيقاً وهمياً تحت الصور ، وإنما هو نوع من مشهد ضيق وممتد تتطور فيه الأشكال المكعبة والكثيفة »[١] . وهذا الأسلوب يعطي المشاهد الدينية تبجيلاً وأهمية عظيمة . وأعطى سيمون مارتيني ، معاصر جيوتو للفن الغوطي السييني (السينوازي) أعلى تعبير له . وفي (البشارة) في (متحف الأوفيس في فلورنسا) ، حقق بشدة الدقة الفائقة ولذائذ الألوان ، أثراً خاصاً يهيج القلب والحساسية العصبية . إن الطاعون العظيم الذي ظهر في توسكانا في ١٣٤٠ م وقضى في ١٣٤٨ م ، على ثلثي سكان سيين ، والنصف في فلورنسا . كان من نتيجته بعض الفتور والتراخي في الفن الإيطالي في النصف الثاني من القرن الرابع عشر . ومع ذلك فإن درس الأستاذين العظيمين لم يضع ، فقد أوحى بتجديد القرن الخامس عشر ، ولم يبق إشعاعه قاصراً على إيطاليا . فقد أقام سيمون مارتيني في آفنيون ، ورسم فيها عذراء الدوم . وكانت المدينة الحبرية تؤلف أول مرحلة بين فرنسا وإيطاليا ؛ والبلاط

(١) A. Chastel, LArt italien, Larousse

الآنجفي ، في نابولي ، حيث اشتغل سيمون مارتيني أيضاً ، يفتح طريقاً آخر إلى هذه المبادلات التي تغلغل بواسطتها التأثير الإيطالي في الغرب كله .

ووجدت الحساسية الجديدة تعبيرها أيضاً في الأدب ، في إطار جنسين : المسرح الديني والشعر الغنائي . ففي القرن الرابع عشر ، خرجت الدرامة الليتورجية من الكنيسة لتستقر على الفناء الذي أمامها أو في المقبرة . وتشكلت أخويات (فرق) علمانية من بورجوازيين أخذوا على عاتقهم أن يلعبوها ، أي يمثلوها ، فمنذ ١٣٠٠ م ، يمثّل بورجوازيو باريس كل عام درامة (سر الألم) (آلام يسوع) . وفي آخر القرن ، بلغت الدرامة الليتورجية شكلها النهائي ، الدوري ، من الذنب الأصلي إلى البعث . وكذلك الحوارات المؤثرة بين مريم ويسوع ونزاع المسيح في بستان الزيتون ، أشركت جمهور المشاهدين (النظارة) الذي اهتز لهذه الدرامة المقدسة ، بينما تأتي فترات استراحة هزلية أو واقعية وتقطع التوتر عندما يصبح قوياً جداً . إن العاطفة التي أوقظت في الكنائس أو على أفنائها (ساحاتها الخارجية) رافقت أناس القرن الرابع عشر في حياتهم الباطنية ، وسط مشاغلهم اليومية ، حتى في منازلهم . وهم لا يهتزون فقط عندما يثارون باندفاعات الجمهور الجماعية ، فحياتهم الباطنية أغنى وأكثف . كانوا يتذوقون بعض الشعراء البارعين في القافية والنغم ، الذين يعلمون أيضاً ، على طريقتهم الباطنية الخاصة كيف يجعلون من أنفسهم معبرين عن اضطراب العصر وحزنه .

إن أوستاش ديشان (١٣٤٦ ـ ١٤٠٦ م) الشامباني (من منطقة شامبانيا في فرنسا) الذي عاش في بلاط شارل السادس ، وجد لهجات واسعة وجليلة ليرثي حال مصائب فرنسا (مثل الأغنية المأتمية) على شرف دو غيكلن ، ونبرة كآبة رومانتية (إبداعية) ليشكو آلام حبه :

« أيها القلوب الحزينة ، المتألمة
العاشقة الفاترة
ضعي نفسك تحت رايتي
ولنذهب لقطاف عوسج
لأن شهر أيار غير مفرح لي »

وشارل أورلئان (١٣٩٤ ـ ١٤٦٥ م) الأمير الشاعر الكبير ، خفف عن أسره في لندن بتأليف أشعار عبّر فيها عن الأسف على السلام والحنين للوطن .

وهذه العاطفة الدينية أخذت أيضاً لون تقوى شخصية . فقد استجاب فن النحت على العاج لحاجات هذه التقوى الفردية ، وعرف ، في القرن الرابع عشر ، نهضة عظيمة : وأخذت التماثيل الصغيرة ، واللوحات المتعددة الصفاق (الدرفات أو المصاريع) ، وخزائن القربان المقدس مكانها إلى جانب صناديق المعادن الثمينة لحفظ بقايا أجساد القديسين وأشيائهم في الكنائس الصغيرة (المصليات) الخاصة . ووضع الرسم على خشب رافدات المذابح أو على هامش مخطوطة ، فأنتج بذلك روائع فنية صغيرة من منمنمات جان بوسيل . وأخيراً غذى اختراع جديد ، انطلاقاً من القرن الرابع عشر ، التقوى الفردية . وإذا كانت التماثيل ، والرافدات ، والتزويقات الثمينة بالألوان الثمينة قد خصصت لمنازل الأغنياء ، فإن الصور التقية كانت وسيلة عاطفة تقوى شبه شعبية ، أقل ثقلاً وإزعاجاً وأقل كلفة . فقد طبعت أولاً على النسيج ، ثم على الورق بواسطة قالب خشبي منوّضٍ (مصبوغ) بالحبر ، وانتشرت انطلاقاً من إقليم بورغونيا حيث اخترعت ، على ما يبدو ، بتأثير من دير (بيعة) كلوني . ورافقت المسيحي في كل مكان ، مرصوصة بين صفحات كتاب أو محفورة في صندوق أو في مداليا . واستعملت لحماية من يحملها أو للاستفادة من (الغفران) .

الأفكار الجديدة : الإنسانية الأولى والأدب

كانت الحياة الفكرية أبعد من أن تجمد في مكانها تماماً . وعرفت ، هي أيضاً ، تجديدات . ففي المدن بخاصة ، الجمهور المثقف أو على الأقل المتعلم اتسع أفقه بعض الشيء . ومع ذلك فإن الأكليركيين ما يزالون يؤلفون فيها القسم الأعظم . لقد برهنوا على أعظم المتطلبات الفكرية . ومن بينهم كان يساق في إيطاليا وفي فرنسا أوائل الأدباء الإنسانيين المهتمين بالعودة إلى النصوص . وفي الواقع ، بينا كان السكولاستيكيون (الفلاسفة المدرسيون) في ظل الجامعات لامبالين بتطلعات عصرهم ، ويتابعون منازعاتهم العابثة ، بحث بعض الرجال ، في تماسهم المباشر مع القدامى ، دروس التفكير والحياة . ففي إيطاليا ، حيث حفظ تقليد الآداب القديمة خير حفظ ، وحيث أراد كل أمير أن يكون حامياً (ميسين) لرجال الفكر ، ارتسمت الحركة أولاً . وكان بترارك فرانشسكو دي بتراكولو (١٣٠٢ ـ ١٣٧٤ م) أول ممثل لهذا الروح الحديث . كان ابن كاتب عدل فلورانسي ، ويتمتع بفوائد انتفاعات كنسية ، تجعله في غنى عن الحاجة ، جاب أوربة من إقليم البروفانص إلى روما ، ماراً بباريس وآفنيون . وقد تحطم قلبه بحبه الذي لم تشاطره فيه لورا الجميلة التي التقى بها ، في ٦ نيسان ١٣٢٧ م ، في كنيسة القديسة ـ كلير في آفنيون . واضطرب بالطاعون الأكبر الذي عرفه في فلورنسا ، فكان معبراً عن اضطراب العصر بإعطائه أكمل تعبير في مجموعة قصائده الغنائية . وكان الأدب عزاءه الوحيد .

وجد في تراث القدامى ، دون أرسطو الذي كان يكرهه ، من أمثال شيشرون وسينيك ، عوناً وارتياحاً . وانطلاقاً من ١٣٥٠ م ، تاريخ التقائه بها ، شاطر إعجابه بالآداب اللاتينية صديقه الجديد جيوفاني بوكاشيو (١٣١٣ ـ ١٣٧٥ م) . وكان هذا ابن عميل لشركة آل باردي المالية القوية ، وعرف في شبابه في نابولي ، حيث ذهب ليتعلم ، تجارب حياة بلاط كلف باللذات وسهل نجد صداها في

قصص ديكامرون . غير أن إفلاس آل بـاردي أوقعـه في الفقر والعوز واضطره إلى الانعزال في بيت عائلة سرتالدو الذي أصبح أحد مراكز الأدب الإنسـاني النـاشئ . وعقد مع بترارك مراسلة لا تنقطع : تبادل كتب ، أخبار أدبية ؛ وتعلم الإغريقيـة على يـد صـديقـه ليونزيـو بيـلاتـو . وفي مـدرسـة بـوكاشيـو تثقف العـديـد من الإنسـانيين الذين نشروا ، عبر إيطـاليـا وأوربـة ، اكتشـافـات أدبيـة جـديـدة ، ڤارّون ، مارسيال ، تاسيت ، آبوليه . وانتشرت هذه الإنسـانيـة الأولى في فرنسـا بصورة أسـاسيـة : وذلـك لأن وجـود أمراء من أصـل فرنسي على عرش نـابـولي ، والإقامة على أبواب المملكة ، في آفينيون ، للبلاط الحبري ، المأهول بـالإيطـاليين يوضحان الاتصالات العديدة التي كانت تعقد آنـذاك بين فرنسـا وإيطـاليـا : فمن ذلـك أن پيير برسويت ، الـذي ترجم تيت ـ ليـڤ ، وفيليب دوفيتري ، تعرفـا ببترارك أثنـاء إقـامتها البـاريزيـة . ومن جيل أفتى من أولئـك نرى أن (جـان دومونترويْ) رئيس مجلس كهنة مـدينـة ليل وغونتيـه كول ، وهو أكليركي أصبح أمين سر شارل الخامس ، ونيقولا دوكلامـانج رئيس جـامعـة بـاريس خلال فترة من الزمن ، ظلوا مطبوعين بالبتراركيـة بعمق . غير أن عود حرب المئـة عـام على بـدء حوّل ، منـذ بـدايـة القرن الخـامس عشر ، الأدبـاء الفرنسيين نحو اهتمامـات خارجة عن الأدب الإنسـاني . ومع ذلـك فـإن هـذا الأدب الإنسـاني الأول أعطى وثبة جديدة للحياة الفكرية .

إن ترجمـة مطـولات القـدامى كانت مـدرسـة مرونـة ودقـة لأجـل اللغـات الشعبية التي أصبحت قادرة على التعبير عن كل أفكارهـا وكل عواطفهـا . وهنـاك أثران يصوران بخاصة هذا التقدم . في الفرنسية ، بادئ بدء ، أثر جان فرواسار : التواريخ (التقاويم) . كان شاعر مهذباً في حينه ، ولكنـه مؤرخ طواعيـة أكثر . ولد ولا شك في ١٣٣٣ م في فالانسيين . وتبعاً للأمراء الذين يحمونه تباعـاً ، رحل في أوربـة كلهـا . ارتبـط أولاً بملكـة إنكلترا ، ثم انتقـل إلى خـدمـة ڤـانسيسـلاس

دولوكسمبرغ ، ثم غي دو بلوا وأقام معه في بلاط آل فالوا (١٣٨٤ ـ ١٣٨٦ م) ؛ وزار أخيراً جنوب فرنسا قبل أن يعبر بحر المانش ثانية إلى إنكلترا . واختار بشكل طبيعي تماماً تمجيد مغامرات حماته ، وهذا ماقاده إلى عمل أثر تاريخي . وقد استلهم أثره في القسم الأعظم منه من أثر مؤرخ آخر وهو جان الجميل . ولكنه اعتمد أيضاً على ذكريات شخصية وشواهد عديدة . لقد كان مخبراً بارعاً ، وتنوع سادته الذين خدمهم كان عدا ذلك ضماناً لبعض الحياد . و (التواريخ) تقتصر في الغالب على قصة الأحداث السامية لبعض الفرسان . وصفات الكاتب تفدي ضعف المؤرخ . وطوراً وطوراً يكون نثر فرواسار زاهداً عفيفاً ، وقوياً شديداً عندما يصف مشاهد معركة ، وملوناً وساطعاً عندما تذكر حياة البذخ في البلاطات الأميرية . وهكذا كان نثره أداة كاملة . وقضى معاصره الإنكليزي تشوسر (١٣٤٠ ـ ١٤٠٠ م) حياة شبيهة بحياته . فقد تحدر من أسرة تجار ، وارتبط ، وهو حدث السن ، مرافقاً لفارس بالبلاط . وساح ، هو أيضاً ، في القارة ، وشارك في حملة إدوارد الثالث في فرنسا ، وعرف الأسر . ومن ثم كلف مراراً بمهات دبلوماسية في فرنسا وفي إيطاليا . وهذا الأديب الناعم الذي ترجم بلغته (رواية الوردة) وأثرى بالاتصال بالأدب الإنساني الإيطالي ، أثرى اللغة الإنكليزية بواحدة من روائعه وهي (قصص كنتربري) .

التقوى الحديثة

لقد أسهم تجديد الحساسية وتوسع الحياة الفكرية في إعطاء أشكال جديدة للتقوى الدينية . وأكثرها شدة كان حب المسيحيين للمسيح الفادي ، وأكثرها حرارة رغبتهم في اتباع الطريق الذي دلّ عليه في ممارسة الفضائل المنقذة ، الفقر والطهارة الإنجيليين « إن دخول الغني في ملكوت الله أصعب من انزلاق جمل في سَمِّ الخِياط » . وأكثر من ذلك أن الفقر في القرن الثالث عشر ظهر ضماناً للسعادة الأبدية ، عقيدة تعزي الضعفاء وتقلق البورجوازيين والأمراء . وكان هؤلاء

يحاولون افتداء أنفسهم عندما يكونون على شفا الموت ، في اللحظة الأخيرة من الحياة : والوصايا في القرن الرابع عشر تحتوي حبوساً عديدة تقية مخصصة لطرق المتسولين ولأعمال الإحسان ، أو الاحتفال بالقداسات لروح المتوفى . وكان مبلغها مرتفعاً جداً أحياناً حتى أنه يجبر الورثة على بيع الملك . ويسهم بذلك بشكل محسوس في الأزمة النبيلة . وبعضهم يهتمون على الأكثر بالتخلي عن نعم هذا العالم بغية الكسب أو الحصول على ثواب في العالم الآخر : ويشهد على ذلك نجاح حركات الفقر الشعبي ؛ وتحت ظل (الإخوة الصغار) ، أبدى بعض العلمانيين بعض التمنيات وألفوا النظام الثالث الفرنسيسكاني . وتشكلت رابطات تقوى لتساعد على الصلاة والتأمل معاً : وجمعت أخويات (جمعيات تقوى) أعضاء حي واحد أو حرفة واحدة لعبادة قديس شفيع ولأجل الأعمال الخيرية ؛ ففي وادي الراين والبلاد المنخفضة بحث أناس أتقياء وتقيات عن سلام الروح في حياة تقوى ونسك منظمة بقاعدة . وفي ١٣٧٤ م ، هجر أستاذ الفنون في دفنتر ، هو ، جيرارد دوغروتْ ، حياة البذخ ووقف نفسه للتبشير . وفي ١٣٨١ م ، أسس رابطة إخوة الحياة العامة (المشتركة) التي تبنت ، في الدير الذي أسس في فيندسهايم قاعدة القديس أغسطينوس .

وفي الأوساط الشعبية ، حيث قلة الغذاء المنضمة لحوادث العصر الدرامية تغذي هياجاً شبه مرضي ، كانت نار الحماس الصوفية غالبة كثيراً . فما أن يعلن أشراقي نهاية العالم القريبة إلى هذه الأفكار السريعة التصديق إلا ويفلت زمام التجاوزات المرضية عند المطاوعة المتعصبين (الذين يضربون بالعصى والسياط) إن كلام مبشر شعبي يكفي لإثارة هياج عنيف في الجمهور . ولسد عوز أكليروس الخورية ، نمت في الواقع ممارسة الوعظ والتبشير الاستثنائية ، وغرضها الأساسي التوبة ، وينظمها عموماً الرهبان الدومينيكان والفرانسيسكان الذين يعرفون جيداً تكييف أنفسهم مع من يسمعهم من أفراد الشعب . وفي الغالب لا يترددون في

اللجوء إلى إخراج درامي ليهيجوا الجمهور المستمع بشكل أفضل : ففي باريس أراد راهب فرنسيسكاني ، وهو الأخ ريشار ، أن يؤثر في الجمهور بشكل أفضل ، فبشر في (مقبرة الأبرياء) . وتابع أربعة أو خمسة آلاف شخص دروسه التي كانت تدوم عدة ساعات غالباً . وآخرون يعلنون صوراً مؤثرة ، وللتأثير على الأفكار بشكل أفضل يدعون الحضور إلى التخلي عن جواهرهم وشعورهم أو كتبهم الثمينة . إن الفصاحة الفجة والساذجة لهؤلاء الرهبان الذين يتناولون الذنب والجحيم ، تأخذ أحياناً طوراً مرائياً (ديماغوجياً) ، يثير المؤمنين ضد أكليروس الخورية المتهم بالجهل وعدم الأخلاق ، وضد الأمراء ، وأثاروا بذلك ، على سبيل المثال ، في بداية القرن ، الثورة الفلاماندية ضد فيليب الجميل أو ضد سيدات الطبقة العليا .

وبعضهم كانوا دجالين يسيئون تصديق الجمهور ليبيعوا بقايا مقلدة للقديسين أو صوراً للحماية . وقد نوه دانتي في (فردوسه) بهذا الغش والمخاتلة .

وعلى العكس كان وجه فانسان فرّيه ، وجه مبشر متحمس ، قديس أصلي . ولد في فالنس في ١٣٤٠ م وتتلمذ في جامعة تولوز . وهذا الدومينيكي كان لاهوتياً وفي الوقت ذاته أخلاقياً حكيماً . جاب إسبانيا وإيطاليا الشمالية وسويسرا وقسماً من فرنسا : ومن ١٣٩٩ إلى ١٤٠٥ م دحر الهرطقة في بلاد الألب . ومن ثم نجده في بورغونيا ، وفي الوسط ، وأخيراً في بروتانيا حيث جاء وتوفي في فانّ في ١٤١٩ م . فحيث مرّ كانت فصاحته التي تكونت في المدارس ، ولكنها مصطبغة بكلمات واقعية شعبية ، تثير حماسة ألوف السامعين الذين كادوا يخنقونه يوماً في إسبانيا من كثرة تهافتهم على تقبيل يديه .

لقد أخذت العاطفة الدينية ، مع متطلباتها الجديدة في بعض الأوساط المتازة ، طوراً فكرياً . فالكتاب ، وقراءته والتأمل فيه لعبت فيها دوراً هاماً . وبالفعل ، إن تجديد الحياة الفكرية في القرن الرابع عشر لم يقتصر على حلقة صغيرة من الأدباء الإنسانيين والكتاب . فقد امتد على كافة العلمانيين الأثرياء

وأعطى لعقليتهم الدينية صفات غير مجهولة حتى ذلك الحين . إن كثيراً من النبلاء والبورجوازيين يعلمون القراءة الآن بفضل تقدم التعليم الابتدائي في المدن . وقد بدأت الفكرة بالظهور في أن تربية الأطفال الدينية يجب أن تستند على تكوين فكري حقيقي . وقد دلّ لويس التاسع بـ (تعليمات إلى ابنه) ، على الطريق ، ونسخت في الغالب مؤلفاته في القرن الرابع عشر . وظهرت بعض المؤلفات الجديدة أيضاً ، فمن ذلك أن جنرال الإخوة الصغار كتب في القرن الرابع عشر ، أول درس للتعليم الديني الذي مازال قاصراً والحق يقال على الأمير وهو أندره هونغاريا . واهتم الأمير الآنجفي الصغير ، الفارس دو لاتور لاندري أيضاً بتربية أطفاله .

ويجب أن نشير إلى أن البنات أفدن أيضاً من هذا التعليم الذي انتشر بصورة واسعة .

وفي الحقيقة ، كان القصد هنا حالات منعزلة ، لأن الاهتمام بالتعليم الديني لم يظهر بحق إلا في القرن السادس عشر .

على أن تذوق القراءة وإن كان محدوداً منذ الطفولة فهو دائم وأصبحت الكتب وسائل عائلية للإلهيات الدنيوية كما هي للحياة الدينية . وكانت كريستين دو بيزان ابنة مستشار شارل الخامس مثالاً شهيراً على ذلك . ففي القراءة ومن بعد بتحرير المؤلفات حاولت أن تنسى فقد زوجها العزيز ، المبكر قبل أوانه ، وذكرياتها الحزينة .

وكان كل هؤلاء العلمانيين المثقفين مهتمين بأن يجدوا في الكتب أفضل معرفة لحقائق الدين وواجبات المسيحي . فمن أجلهم ألف عدد عظيم من الأعمال بلغة عامية : كتب تدعو إلى الفضيلة والتقوى مثل (**طريق جهنم والجنة**) ، وهو أثر لشاعر طواف من ليل ، واسمه جان دولاموت ، بناء على طلب بورجوازي من

باريس ؛ ومجموعة سير قديسين من بينها (**الأسطورة الذهبية**) التي كتبها في آخر القرن الثالث عشر دومينكي ، جاك دوڤوراجين ، ولاقت نجاحاً دائماً . وأخيراً مطولات عقائدية تضع في متناول العلمانيين مفاهيم (أفكاراً) عن اللاهوت والأخلاق الخاصة حتى ذلك الحين بالأكليركيين . والايلوسيداريوم المنسوب إلى هونوريوس دوتن (القرن الثاني عشر) هو أيضاً تكيف بالفرنسية تحت اسم (لوسيدير) أو « نور الحق » ، ثم ترجم بلغات عديدة ، الفلاماندية ، الإنكليزية ، الإيطالية ، وهو يعطي مبادئ حقيقة الناموس ، والله ، والخلق ، والافتداء ، والفضل (العون الإلهي) ، القداسات ... عرض مبسط ولكنه وضع بعناية . والاهتمام بالتبسيط يعبر عنه بوضوح .

وهذا الدور المتعاظم للكتاب يعطي لتقوى العلمانيين مجرى (مساقاً) آخر . وهو أن إيمان المؤمنين لا يدعم فقط بكلام المبشر الواعظ والممارسات التي تعمل معاً في الكنيسة : إنه يعتمد على القراءات الشخصية الخاصة ليساعد على التأمل والتفكير الداخلي . إن قراءة النصوص المقدسة أولاً ، كان الأكليروس في مجموعه معادياً لها . وقد عبر جرسون عن حذره من الناس غير المتعلمين الذين يناقشون بعد الطعام بالكتاب المقدس . وقد جهز القرن الرابع عشر أكبر عدد من مخطوطات الكتاب المقدس باللغة الفرنسية .

على أن الوصول إلى نص الكتاب المقدس ظل صعباً على الكثير من العلمانيين المثقفين . ولذا فإن السيدات وكبار الأمراء اعتادوا بأن يطلبوا تأليف كتب الصلوات الكنسية التي تزوق أحياناً بشكل يدعوا إلى الإعجاب بالصور والألوان والنقوش . وتتألف هذه (الكتب) من نصوص مختارة ، ومجموعة حسب هوى القارئ وعلى نيته تنسخ لينهل منها ارتياحاً معنوياً وروحانياً خاصاً . ويوجد فيها ، كيفما اتفق ، مقتطفات من الإنجيل ، وبخاصة قصة آلام السيد المسيح ، بضعة مزامير ، مجموعة صلوات واحتفالات ليتورجية (طقسية) ، وبصورة خاصة

قداس العذراء ، وصلوات ألف بعضها مالك الكتاب بل وحتى أغاني دنيوية . وأخيراً يرجح مؤمنون آخرون عديدون جداً أن يسلموا أنفسهم إلى دليل روحي له لقب أو صفة . ويقصد أحياناً كاهن معرف يصغي إلى اعتراف المؤمن . وتعممت العادة بأن يكون للإنسان موجه لضميره . ولكن كثيراً من الأرواح كانت تبحث عن نجدة في الحوار مع كتاب ، محاولة (تقليد) التجربة الروحية التي خطها المؤلف في ما كتبه . وانطلاقاً من النصف الثاني للقرن الرابع عشر ، انتشرت وكثرت دونما ملل أنواع من اليوميات الخاصة المنسوخة ، وفيها يصف رجال ونساء نوازعهم المعنوية . وحالاتهم الصوفية . وكانت هذه الآثار المؤلفة تأتي من كل البلاد المسيحية ، من إنكلترا ، من إيطاليا ، حيث كتبت كاترين دوسين محاوراتها (١٣٤٧ ـ ١٣٨٠ م) وكانت معتبرة في حياتها كقديسة من قبل عدد من معاصريها ، ولكن بخاصة المناطق الرينانية والفلاماندية التي كانت آنذاك مركزاً كثيفاً ، للحياة الروحية . إن أوعاظ الأستاذ إيكاردت (١٢٦٠ ـ ١٣٢٧ م) ، وأوعاظ جان تاولر (١٢٩٠ ـ ١٣٦١ م) ، وكتاب الحكمة الأزلية لمؤلفه هنري سوزو (١٢٩٥ ـ ١٣٦٥ م) ، ورسول الحب الإلهي الذي ترجم إلى كل اللهجات الألمانية ، تحتفل باتحاد الروح بالله .

وإشعاع جان دو رويسبروك (١٢٩٣ ـ ١٣٨١ م) أوسع أيضاً ، ولا سيا في فرنسا . ففي آثاره (مرآة الخلاص الأزلي) أو (تزيين الأعراس الروحية) يمجد تقوى الاستسلام لإرادة الله ، والإحسان ، والخضوع الباسم . ولكن ، من كل هذه التآليف الصوفية ، نرى أن المؤلف الذي بلغ أعظم شهرة وأعظم دوام لها هو (تقليد يسوع المسيح) . وهذا الأثر الذي ألف في النهاية القصوى للقرن الرابع عشر أو في بداية القرن الخامس عشر ، ينسب إلى توماس دو كمبن الذي ينتمي إلى جمعية فيندسهايم . ويتألف « التقليد » من أربعة أجزاء تشكل المراحل الأربع للطريق الروحي : **الأولى** : تقترح أن ينفصل الإنسان عن ذاته وعن

العالم ؛ **الثانية** : العون على النزول في قلبه الخاص ؛ **الثالثة** : تدربه على أسرار الحب الإلهي ؛ **الرابعة** : أخيراً ، توحده مع الله في قداس (**سر القربان المقدس**) . وكان مع الكتاب المقدس الكتاب الأكثر ترجمة والأكثر نسخاً في آخر العصر الوسيط .

والتصوف الريناني والفلاماندي ، كما كان التصوف الفرنسيسكاني في القرن السابق ، يمثل اتجاهاً معادياً للفلسفة العقلية ومعادياً للتفكير اللاهوتي ، ويشدد على القيمة الأساسية للخضوع : على العقل البشري أن ينحني أمام السر الإلهي . هذه هي النصيحة التي يعطيها جان تاولر .

وهنا يلتحق التصوف الأكثر سمواً بالدين الغريزي للشعب . التقوى يجب أن تكون سفك قلب ، عاطفة ؛ وهي ماتسمى (التقوى الحديثة) . إلا أن بعض الأفكار تحاول أن تجد ثانية التوفيق بين العقل والعاطفة . جان جرسون (١٣٥٣ - ١٤٢٩ م) أشهر ممثل لذلك . وبرغم أنه أستاذ في اللاهوت ورئيس لجامعة باريس ؛ فقد تأثر بنفوذ التقوى الحديثة : ففي مطولاته ، (جبل التأمل) يدعو إلى تجارب الحياة الداخلية والمحاكمة المنطقية معاً . وبالنسبة لجميع المسيحيين الأتقياء تم الاتفاق على نقطة وهي : من الضروري أن تصلح الكنيسة نفسها . والجميع ينتظرون من البابا هذا الإصلاح . ولكن هل كان لبابوية القرن الرابع عشر إمكانية توجيه مثل هذا المشروع ؟!

الفصل الرابع

آفنيون أو روما

من ١٣٠٩ إلى ١٣٧٦ م ، ولأول مرة في تـاريـخ المسيحيـة ، هجر البـابـوات بشكل دائم رومـا ، مـدينـة القـديس بطرس . وظل كرسي حكومـة الكنيسـة في آفنيون نحو ٦٧ سنة . ويتفق هذا التغيير في الإقامة مع مرحلة جديـدة في تـاريخ الكنيسـة . أولاً ، إن أخـذ مـدينـة عكا (١٢٩١ م) سجـل إخفـاق الحروب الصليبية ، الفكرة الكبرى للبابوية في القرون السـابقـة ؛ ودلّ انتخـاب العـاصمـة الجـديـدة ، آفنيون ، على انتقـال مركـز ثقـل المسيحيـة نحـو الغرب . ومن جهـة أخرى ، إن توقيف البابـا بونيفـاس الثـامن في أنـايني ، في منطقـة لاتيوم ، بـأمر الملك فيليب الجميل ، على يد رسوله نوغاريـه وسيـارّا كولونّـا ، وموت بونيفـاس الثـامن (٢٠ تشرين الأول ١٣٠٣ م) ، ورفـق خلفـه بنـوا الحـادي عشر (١٣٠٣ ـ ١٣٠٤ م) الذي سـامح فيليب الجميل ، أظهرت كلهـا كيف نمت سلطـة الملوك أمام سلطة زعيم المسيحية . وفي رأي إينوسان الثالث ، في مغادرة إيطـاليـا التي (لها التفوق على كل بلاد العالم) أن الأحبار العظـام قـد تخلوا عن نظريـات التيؤقراطيـة (الحكم الإلّهي) . وسيرى أن البـابوات الـذين هم من أصل فرنسي ، يعيشون على مقربة من مملكة فرنسا ، وسيجابهون هذه الظروف الجديدة التي كان على الكنيسة أن تتكيف معها . وعملهم هذا يدل على أن له صفة خاصة .

الإقامة في آفنيون

الاستقرار التدريجي

لقد بدا اختيار آفنيون مقاماً حبرياً في بداياته كقرار أملته الظروف ، وله صفة مؤقتة تماماً . فعند وفاة بنوا الحادي عشر ، كان الكرادلة منقسمين منذ حادث آنايني ولم ينجحوا في الاتفاق إلا باختيارهم حبراً أجنبياً في مجمع الكرادلة وقدرتهم على لعب دور الموفق بينهم ، رئيس أساقفة بوردو الذي توج في ليون تحت اسم كليمان الخامس (١٣٠٥ ـ ١٣١٤ م) . وساعد كل شيء على التمسك بالبابا الجديد ، الغاسكوني الأصل وإبقائه في جهة جبال الألب . كان من رعايا ملك فرنسا وتابعاً لملك إنكلترا ، دوق أكيتانيا . ويشعر بأنه مقلد بمهمة خاصة ، ويقصد بذلك تسوية الخلاف الفرنسي ـ الإنكليزي في أكيتانيا بغية إطلاق العاهلين المتصالحين في حرب صليبية جديدة ؛ ومن جهة أخرى ، إن الشؤون الفرنسية ، وبخاصة دعوى فرسان المعبد (نظام عسكري وديني أسس في ١١١٩ م ، وتميز أعضاؤه بخاصة في فلسطين) الذين احتلوا فيا بعد المقام الأول من اهتماماته . وبالمقابل ، إن الأخبار التي يتلقاها من إيطاليا قلما تجذب الحبر الأعظم لشبه الجزيرة : ففي روما ، كان البونيفاسيون وأعداء البونيفاسيين متجمعين حول أسرتين ، أسرة غيتاني وأسرة كولونا ، وما فتؤوا يتصادمون في منازعات دامية تجعل الإقامة في المدينة الخالدة غير مؤمنة إلا قليلاً . وانطلاقاً من ١٣١٢ م ، كانت إيطاليا كلها في حالة هياج واضطراب بحملة الإمبراطور الجديد هنري السابع . أما البابا ، فبعد أن جاب أولاً أكيتانيا زمناً طويلاً ، وتفاوض مع فيليب الجميل ومع ملك إنكلترا ، قرر في ١٣٠٩ م أن يبقى بعض الوقت بالقرب من مدينة فيين : وهنا انعقد المجمع المكلف بتسوية قضية فرسان المعبد . ووقع اختياره على آفنيون . وكانت هذه المدينة منذ ١٢٩٠ م لتابعه ملك صقلية ، كونت بروفانص ، الذي يستطيع أن يمنحه حمايته . وكانت قريبة من المملكة

الكابسية ، وواقعة على حدود الأراضي التي تنازل عنها ريمون السابع كونت تولوز إلى البابوية في ١٢٢٩ م ، وتؤلف منطقة الكونتا فينيسّان . وفي آفنيون استقر الحبر الأعظم بشكل مؤقت تماماً طالباً الضيافة من دير للدومينيكيين . وفي نيسان ١٣١٤ م ، تهيأ للذهاب إلى أكيتانيا مسقط رأسه ، لولا أن وافته المنية .

وبالنسبة لكليمان الخامس ، لم تكن آفنيون إلا مقاماً أو موقفاً ممدداً قليلاً . وبعد وفاته ، جرت عدة حوادث غير متوقعة ساعدت على تمديد دور آفنيون كمقام حبري . وفي الواقع ، كان الحبر الجديد ، جان الثاني والعشرون (١٣١٦ ـ ١٣٣٤ م) في السابق أسقف آفنيون . وانتخب بصورة طبيعية منزله في القصر الأسقفي للمدينة ، حيث يشعر أنه في منزله ، وليؤمن نفسه بألا يصطدم بحبر مستاء ، احتفظ لنفسه بالأسقفية . ومع ذلك ، فإن هذا الشيخ الهرم القوي ، بالرغم من أصوله الكرسينوازية (من منطقة كرسي) في حوض أكيتانيا والارتباطات العديدة التي حافظ عليها في كونتية بروڤانض حيث قضى الجزء الأكبر من حياته الكنسية ، كان عازماً على عودة البابوية إلى روما . لقد كانت آفنيون بالنسبة له مقاماً مستحسناً وسهلاً ، لأنه ، باعتباره منهمكاً كسلفه في قضية الحرب الصليبية ، حاول عبثاً ، أن يهدئ الخلاف الناشئ بين فرنسا وإنكلترا . ولكن القصر الأسقفي في روشيه ديه دوم ليس إلا مقاماً مؤقتاً في نظره . واقتصر على إصلاحه وتزيينه بعض الشيء دون التفكير ببناء مسكن أكثر سعة منه ، وبخاصة ، منذ ١٣١٩ م قرر جان الثاني والعشرون أن يفتح لنفسه بالقوة طريق روما ، وإذا كان يعتمد على الحلفاء التقليديين للبابوية ، ملك صقلية وكومون فلورنسا ، فقد كان عليه ، بالمقابل ، أن يجابه القوى الجيبلية في شمال شبه الجزيرة ، آل فيسكونتي في ميلانو ، وآل سكاليجر في فيرونة وكومون لوك وپيزا ، وإعادة النظام إلى روما وفي إيطاليا الحبرية . وعلى رأس الحملة ، وضع البابا الكاردينال برتران دو بوجيه الذي حاصر ميلانو . ولكن ، بدأت

المشاكل بعد ذلك : فقد جاء ملك جرمانيا الجديد ، لويس بافاريا لنجدة ماثيو فيسكونتي وأجبر الجيش الحبري على رفع الحصار (١٣٢٣ م) . ثم جاء لويس بافاريا إلى روما وتوج إمبراطوراً على أيدي **سنديكات** الكومون (أعضاء المجلس البلدي) (كانون الثاني ١٣٢٨ م) وأقام عدواً للبابا . وفي الحقيقة ، كان مضطراً أخيراً للرجوع إلى ألمانيا (١٣٣٠ م) . ولكن جان الثاني والعشرين لم يعرف كيف يفيد من الحالة التي كانت تتطور لصالحه : لأن مشروعه في تشكيل مملكة تابعة للكرسي الأقدس في إيطاليا الشمالية ، أقام ضده جميع المدن وكل الإمارات ، والغلفيين والجيبليين ؛ وفي ١٣٣٤ م ، طُرِدَ برتران دو بوجيه من بولونيا . وكان ذلك إخفاقاً لسياسة جان الثاني والعشرين الذي توفي بعد قليل (في ٤ كانون الأول ١٣٣٤ م) . وأصبحت آفنيون مقاماً طبيعياً للبابوية .

في حبرية جان الثاني والعشرين الطويلة أفادت آفنيون ، هذه المدينة الصغيرة الرودانية (القائمة على ضفاف نهر الرون) من مقر حكومة الكنيسة فيها . فقد وضعها موقعها في مركز الغرب الوسيطي الذي لا يتطابق في القرن الرابع عشر مع الغرب الروماني . وهذه الفائدة تعززت لوجود آفنيون في ملتقى طرق المواصلات الكبرى البرية والنهرية والبحرية في أوربة الغربية : فعلى المحور الكبير الذي يربط المركزين الاقتصاديين الكبيرين المعاصرين لإيطاليا الشمالية وبلاد الفلاندر ، احتفظت آفنيون ، منذ تدمير جسر مدينة آرل الروماني بآخر جسر قبل مصب نهر الرون الذي يساعد على وصل الطرق الألبية والأكيتانية . وفوق ذلك أفادت المدينة من قربها من موانئ الرون ـ الأدنى التي تقيم علاقات بحرية مع حوض البحر المتوسط كله ومع المحيط الأطلسي . ومن جهة أخرى ، إن موقع المدينة يبعث الأمن والمسرة : ففي النقطة التي يتقلص فيها الوادي تؤلف صخرة الدوم حصناً طبيعياً ؛ وفي التلال المجاورة ، يجد البابا النسيم العذب في إقامته الصيفية . والمدينة نفسها تبدي الكثير من السهولات . وباعتبارها أهم من

المدن المجاورة بإمكانها أن تتكيف مع دور عاصمة . وبعد أن كانت مدينة أسقفية بسيطة في الأصل ، تمتعت منذ القرن الثاني عشر بنهضة اقتصادية ترجع إلى تأسيس طواحين الطحين وآلات كبس اللباد ، على نهر السورغ رافد الرون . ومنذ ١٣١٧ م جذبت فوائد هذا الملتقى التجاري ووجود البابا الشركات الفلورانسية وأقامت فيها مراكز لها ؛ وحلت بالحال آفنيون محل مارسيليا التي دمرتها سياسة الآنجوڤيين الحربية ، وأصبحت عاصمة تجارية ومصرفية لإقليم بروفانس . وأخيراً أصبحت المدينة بإنشاء جامعة فيها (١٣٠٣ م) ، مركزاً فكرياً . ومع ذلك فإن هذا النهوض كان حديث العهد ، وسكان آفنيون لم يكن وراءهم أي تقليد ، ولذا اكتفوا بهذا الازدهار غير المؤمل وتطلعوا إلى لعب دور سياسي ، وأمكن البابا أن يجد هنا في هذه المدينة السلام والأمن المفقودين في روما .

وهذه الفوائد جميعاً تضافرت لصالح استقرار دائم للبابوية في آفنيون في الوقت الذي دلَّ فيه إخفاق الحملة التي أطلقها جان الثاني والعشرون على أن عودة خلفاء القديس بطرس يجب لها جهد عسكري عظيم . ولم يكن البابا بنوا الثاني عشر (١٣٣٤ ـ ١٣٤٢ م) بالرجل الذي يستطيع متابعة سياسة سلفه . كان راهباً سسترسياً أي ينتسب إلى دير سيتو ، وأصله من كونتية فوا . امتهن اللاهوت ، وكان معادياً للعمليات العسكرية المكلفة للكنيسة ، وساءته دبلوماسية الأمراء الإيطاليين المراوغة ، ورأى أن يكرس نفسه لتعريف العقيدة وتقويم أخلاق النظم الدينية . وقرر البقاء في آفنيون . ورغب البقاء حيث هو دون أن يعكر الإدارة الكنسية في المدينة . ووطد أسقف آفنيون ، وأسكنه قصراً آخر . وقرر في ١٣٣٦ م أن يشيد في مكان القصر الأسقفي القديم مسكناً جديداً متكيفاً مع حاجات البابا وحكومة الكرسي الأقدس ، يحتوي على أجنحة وكنيسة صغيرة (قابلّة) ورواق للحبر ولأعضاء حاشيته (بطانته) ، ومكاتب لجميع المصالح الإدارية وبخاصة للمحفوظات التي أتى بها بنوا من أسّيز في ١٣٣٩ م ،

وأحيط هذا المركب من العمائر بحصن صلب قادر على مقاومة أي هجوم محتمل .

وكان خلف بنوا الثاني والعشرين أبعد من أن يفكر بمغادرة آفنيون ، وأنجز مقام البابوية . كان كليمان السادس (١٣٤٢ ـ ١٣٥٢ م) من إقليم ليموزن وينتسب أيضاً إلى الأسرة البندكتية . ولكنه كان يجمع إلى علم اللاهوت معرفة عميقة بالقضايا السياسية والحقوقية . وقد اكتسب هذه المعرفة عندما كان قيماً على أختام ملك فرنسا (١٣٣٠ ـ ١٣٣٨ م) . لقد اهتم أولاً بتأمين الاستقلال السياسي للبابوية في آفنيون : ففي ١٣٤٨ م اشترى المدينة من ملكة نابولي وحصل من ملك الرومانيين على تخليه عن حقوقه في السيادة . وأصبح البابا منذ الآن عاهل آفنيون كما هو عاهل الكونتا فينيسّن . ومن جهة أخرى ، عرف هذا الحبر أبهة وبذخ بلاط الملك فيليب السادس ، وأراد أن يكون البلاط الحبري ، بلاط أول عاهل في العالم ، ألمع البلاطات جميعاً . ولإلجاء جمهور موظفيه ، وإعطاء إطار للحفلات الدينية كالأعياد الدنيوية ، لم يكفه قصر بنوا الثاني عشر المتقشف ، ولذلك قام ببناء قصر ثان إلى جانب الأول . ويعطي خارج القصر دوماً مظهراً شديداً وقاسياً لحصن . ولكنه في الداخل ، كان يضم فرسكات ومنحوتات عديدة تزين صالات الاستقبال الواسعة . وفيها أقيمت الأعياد الفخمة والمآدب العظيمة .

آفنيون عاصمة جديدة للمسيحية

أصبحت آفنيون آنذاك عاصمة حقيقية ، وأهلاً بقصرها وبلاطها للجلالة الرسولية ، وقادرة على تأمين حكم الكنيسة بنفاذ .

وفي الحقيقة ، إن حضور الحبر الأعظم أدى إلى تحويل سريع في المدينة . فقد شهدت هذه القرية الهادئة على ضفاف الرون عدد سكانها في بداية القرن يتضخم بصورة عظيمة بإقامة البلاط الحبري الذي ضم نحو ثلاثة آلاف شخص وبمجيء الحرفيين والتجار المرتبطين بهؤلاء الزبائن الأثرياء . ودون عد الكتلة

العائمة للأحبار والأمراء والسفراء في زيارة رسمية ، كان الزوار مشدودين إليها بسنا الأعياد الدينية . وبعدد سكانها ٣٠٠٠٠ نسمة في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، كانت تعادل مدينة بروج أو لندن . وفي فرنسا ، كانت باريس وحدها تتجاوزها بسكانها الذين بلغ عددهم ١٠٠٠٠٠ نسمة . ورافق هذا النمو في السكان نمو النشاط المدني . ولتدارك حاجات البلاط الحبري وحاجات ضيوفه ، كان تجار المدينة ، ولا سيا اليهود ، أقوياء بالحماية الحبرية ، ويمدون سوقها بالحبوب والخمور والخضار وفواكه وادي الرون ، ولحوم وأخشاب جبال الألب ، بل وحتى السمك من الشاطئ الأطلسي . وجاء الحرفيون كثراً من المناطق الألبية واشتغلوا دون بطالة ولا سيا في حرف البناء والنسيج . ولكن آفنيون كانت أكثر من سوق إقليمي هام ، فلإرضاء أذواق الأحبار الرقيقة الناعمة توجب أن يؤتى على المائدة بخمور بورغونيا الصافية ، وحلويات الشرق ، وتجهيز ألبسة الأبهة والزينات الكهنوتية بالحرائر الشرقية ، والأقمشة الناعمة من الفلاندر وتوسكانا ، وبالفرو من البالطيك . وكانت المراكز التابعة للشركات الفلورانسية الكبرى تسيطر على هذه التجارة كما تشرف في آفنيون على جميع الفاعليات المصرفية : فقد تكفلت بجميع حركات الأموال الواردة أو الصادرة لجميع بلاد المسيحية ، وبالتالي أمنت عمليات الودائع والقطع والقرض .

وكما كانت آفنيون عاصمة دولية ، كانت أيضاً عاصمة على صعيد الفنون والآداب . ولعب أحبار آفنيون في معظمهم عن ضرورة أو عن ذوق ، دور الحماة ، وقلدهم في ذلك الكرادلة . لقد جمعوا على ضفاف الرون الفنانين والكتاب من جميع مناطق الغرب . وأصبحت آفنيون أحد المراكز الأوربية التي تلتقي فيها وتنتشر أهم الاتجاهات الفكرية والجمالية في القرن . كانت المدينة مشغلاً سرمدياً معروضاً على المهندسين المعماريين والبنائين : فإلى القصرين الحبريين أضيفت دور للكرادلة ، وأديرة وكنائس وقابلات بعدد عظيم أسسها أغنياء ومشاهير الزوار

الذين يرغبون بأن يؤمنوا لأنفسهم أفضالاً بعد وفاتهم . إن المهندسين المعماريين ، من أمثال مهندسي القصور ، بيير پواسّون وجان دو لوبيير ، كانوا من جنوب فرنسا . ولكن لتزيين جدران المحاريب (الخوارس) والأجنحة ، دعي في وقت مبكر الفرسكاتيون الإيطاليون ، ومن بعد الفنانون الكاتالانيون . فقد جاء الرسام السييني العظيم سيمون مارتيني إلى آفنيون في ١٣٣٩ م وظلّ فيها حتى وفاته (في ١٣٤٤ م) . وعلى لوحة جبهة بوابة كنيسة نوتردام دي دوم ، رسم إحدى روائعه (السيدة ترضع الطفل) ، التي أسهمت بشكل قطعي في نفوذ المؤثرات السينية في الفن الفرنسي . ثم جاء أحد تلاميذه من إيطاليا أيضاً وهو ماتّيو جيوڤّانيللي من فيترب واشتغل في أجنحة كليمان السادس . ومع جمع من الفنانين الباريزيين ، والبورغونيين والبروفانسيين يعملون تحت توجيهه ، ربما أسهم في رسم مشاهد للقنص والصيد على جدران غرفة الأيل . وكان في الغالب مؤلفاً لفرسكات قابلة القديس ـ يوحنا وقابلات الشارتروز دو ڤال دو بندكسيون ، في فيلنوڤ ليزافينيون . وإلى فخامة الأشكال والألوان ، يضاف في الاحتفالات الدينية وفي حياة البلاط ، الجمال الرصين للموسيقى المتعددة الأصوات : فقد كان مغنو وموسيقيو القابلة الحبرية يساقون من بين أشهر فناني أوربة .

ولم يكن النشاط الفكري أقل أهمية . لقد جذبت آفنيون وفي الغالب ، أمسكت بأشهر أكليركيي المسيحية في العالم ، وبالأحبار ، والفقهاء في الحقوق الكنسية ، والجامعيين وأمناء دائرة الختم الرسولي (الإدارة الرسولية) .

ولمعت جامعة آفنيون بخاصة في صعيد الحقوق ، وضمت مشاهير الأساتذة ، مثل الحقوقي الإيطالي الكبير بييرو بالدي ديغلي أوبالدي ، الذين بادر إليهم جمهور من التلاميذ . وكان تحت تصرف الأساتذة والطلاب مكتبات غنية جداً أسسها الأحبار والكرادلة . فإلى جانب المؤلفات اللاهوتية ، والحقوقية والليتورجية (الطقسية) ، وجدت مجموعة مخطوطات انطلاقاً من حبرية كليمان

السادس ، تضم أهم أعمال القديم اللاتيني ، وترجمات لمطولات عربية ، ومؤلفات بالعبرية . وتكشف فهارس كاتالوغات هذه المكتبات عن اهتمامات غير دينية : لقد أصبحت آفنيون ، على نمط المدن الإيطالية الكبرى ، أحد مراكز الآداب الإنسانية الناشئة . وكانت لغة هذا العالَم العالِم ، بالبداهة ، اللاتينية التي ساعدت الأدباء العالميين ، مثل أكليركي مختلف الأمم ، على التفاهم فيما بينهم ومنافسة القدامى على أرضيتهم الخاصة . وإذا كان بترارك (١٣٠٤ ـ ١٣٧٤ م) ابن كاتب العدل الحبري قد استقر في آفنيون ، واشتهر باللغة اللاتينية كمؤلف لكتب مطولة عالمة ، ففي اللغة الإيطالية خلدت أشعار حبه للورا . ومن آفنيون ، شعَّ أثره في فرنسا الشمالية كلها .

العودة إلى روما

لقد أصبحت آفنيون الآن عاصمة دولية ومركزاً توجه منه البابوية كل حياة الكنيسة . ولكن روما ظلت المدينة المقدسة الممتازة والمركز الروحي للمسيحية . ومن أجل يوبيل ١٣٥٠ م ، لم يتزاحم الحجاج على شواطئ نهر الرون ، وإنما على شواطئ نهر التيبر التي يوجد بقربها ضريحا القديس بطرس والقديس بولس . فكيف لا يقلق المسيحيون لهذا الانفصال ؟ يبدو أن خلف القديس بطرس الذي تريث في آفنيون ، لا يتصور مطلقاً العودة لدى زوجته الصوفية ، كنيسة روما . وقد اختلط لوم بترارك الحاد في مدينة آفنيون بتوسلات القديسة بريجيت السويد (برايت) التي استقرت في المدينة الخالدة في ١٣٥٠ م . وفي الواقع ، إن كليمان السادس لم يكن له خيار أكثر من سابقيه بين آفنيون وروما ، واضطر إلى الخضوع وقام به بكثير من الواقعية ، تحت ضغط الأحداث . وكانت الحالة في إيطاليا ، في حبريته ، أكثر من أي وقت مضى ، تمنع عودة البابوية إلى روما . إن قوى الغلفيين ، في فلورنسا ومملكة نابولي ، التي تعتمد عليها تقليدياً السياسة الحبرية ، أضعفتها المشاكل الداخلية . فقد مزقت المنازعات السلالية جنوب

إيطـاليـا ، حتى أن الملكـة جـانّ الأولى اضطرت إلى اللجوء في بروفـانص وهزت عدة إفلاسات تجارية ومصرفية الاقتصاد الفلورنسي . وفي الـدول الحبريـة ذاتهـا ، كانت سلطـة العـاهـل مـوضـع سخريـة . وحـاول كليمـان السـادس تنظيم حملـة عسكرية ، ولكن هـذه توقفت فجـأة دون نتيجـة ، لعـدم وجود المـال الضروري لـدفع أعطيـات المرتزقـة . وأخيراً ، بلغ سيل الاضطراب الـزبى : حـاول الحـزب الشعبي أن يفرض نفسه تحت إدارة كولا دي رينزو . وكان هذا يطالب صـارخـاً بعودة الحبر الروماني لدى « مدينته ، زوجته ... في ثلم روماني رومـا المعطر » ؛ ولكنـه كان أول من استـولى على سلطـة الأب الأقـدس على دولـه . وقـد شجبـه كليمـان السـادس ، وطرد أخيراً ، ولكن الشيـع النبيلـة التي يـوجههـا آل أورسيني وآل كولونا ثارت من جديد في المدينـة . وفي ١٣٥٠ م فرَّ منهـا القـاصـد الرسولي قبل الاعتداء عليه بقليل .

وبموت كليمان السـادس المفـاجئ ، في كانون الأول ١٣٥٢ م ، بـدأ في تـاريخ النفي الآفنيوني ، دور ثـالث ، وهو دور العودة التـدريجيـة إلى مـاهـو طبيعي . هيـأت البـابـويـة دخـولها إلى رومـا . ومـع ذلـك فـإن إينـوسـان السـادس (١٣٥٢ ـ ١٣٦٢ م) الفرنسي ، من لانغـدوك ، هو أيضـاً ، ظل في آفنيون طوال حبريته كلها ؛ ولكنه كلف قاصداً رسوليـاً أن يضع من جـديـد دول الكنيسـة في إيطاليا تحت سلطته . وعهد بالمهمـة إلى الكاردينـال البورنوز ، وهو حبر إسبـاني اشتهر أثناء حرب الاسترداد القشتالية . وقـد استعمل البورنوز طوراً وطوراً القوة والإقنـاع ، ونجـح في أقـل من عشرة أعـوام (١٣٥٣ ـ ١٣٦٢ م) في إدخـال جميـع الأقاليم في طاعة الكرسي الأقدس . وأكثر من ذلـك مهرهـا بتشريع واحـد يشجع فيها الإدارة ، وتحت اسم **الدستور الرعوي** أخذ يسير حياة الـدولـة الحبريـة حتى بداية القرن التاسع عشر . واستطاع أب سان فيكتور في مارسيليـا ، الـذي اعتلى العرش الحبري في ١٣٦٢ م ، تحت اسم أوربينو الخامس ، أن يتصور الأمل بالعودة

إلى المدينة الخالدة . ودعته الظروف إليها . وفيما عاد الهدوء إلى روما ، لم تعد آفنيون منذ عدة سنوات مقاماً أميناً : هددها قطاع الطرق ؛ أي المرتزقة الذين تركتهم الهدنات الفرنسية ـ الإنكليزية دون عمل ودون موارد . ففي ١٣٥٧ م ، حاول آرنود دو سرڤول أن يستولي على المدينة حيث كانت الصناديق الممتلئة للحكومة الحبرية وأصحاب المصارف الفلورنسية تعد بغنيمة غنية ؛ وفي ١٣٦٠ م ، من جديد ، استقرت عصابة أخرى في پون ـ سن ـ إسبري (جسر الروح القدس) وعزلت آفنيون . ولم تغادر أخيراً إلا بعد دفع فدية كبيرة . وشيد سور لحماية مدينة آفنيون . ولكن هل سيكون كافياً لمقاومة هجوم جديد ؟ ومن جهة أخرى ، وعقب **معاهدة كاليه** (١٣٦٠ م) بدا أن مشكلة العلاقات الفرنسية ـ الإنكليزية قد حلت جزئياً . وبالمقابل ، إن تقدم الأتراك في البحر المتوسط الشرقي ، وضرورة نجدة ملك قبرص ، وضعت على جدول الأعمال الاتحاد مع الكنيسة الإغريقية . وفي هذا الظرف الجديد استعاد الوضع الجغرافي لروما قيمته كلها .. وأوربينو الخامس الذي كانت حياته كلها ديرانية ، ولم يخدم أبداً ملك فرنسا ، قرر بسرعة أن يوطد في روما الإقامة الحبرية . انطلق في ٣٠ نيسان ١٣٦٧ م ودخل روما في ١٦ تشرين الأول وذهب ليستقر في الفاتيكان ورافقه بضعة أعضاء من حكومته . وليجنب بقاء الكنيسة دون إدارة أثناء مدة الرحلة وعمليات الانتقال ، ترك أوربينو الخامس ، في آفنيون ، قسماً من البلاط الحبري ، وأخذ قسماً منه ؛ وما أن انقضت سنتان على عودته إلى روما إلا ووصلته أخبار مقلقة تخبره باستئناف الحرب بين الفرنسيين والإنكليز . وقرر أوربينو الخامس أن من واجبه العودة إلى آفنيون ليكرس نفسه لرجعة السلام . ودون أن يعلم الرومانيين بنواياه ، غادر روما ، واستقر من جديد مع حكومته كلها على ضفاف الرون . وصل في آخر أيلول ١٣٧٠ م ومات فيها بعد ثلاثة أشهر .

وبدا الدليل على أن آفنيون يجب أن تفضل على روما لحكم الكنيسة ،

وحسب عادة مقررة سابقاً ، انتخب مجمع الكرادلة من جديد بابا فرنسياً ، ابن أخ كليمان السادس ، وأخذ اسم غريغوار الحادي عشر . وفي الواقع ، كان البابا الجديد في الكنيسة يعرف بشكل أفضل من غيره إيطاليا ومشاكلها ، وكان مقتنعاً بضرورة استقرار البابوية ثانية في روما . اعتمر وهو فتى يافع قلنسوة الكاردينال ، أي كان كاردينالاً ، وأقام طويلاً في شبه الجزيرة الإيطالية . ففي بيروزة حيث حصل ثقافة الحقوقي ، وكون لنفسه عدة أصدقاء بين الأدباء الإنسانيين ؛ ومن بعد ، في روما ، كلف مراراً عديدة بمهات دبلوماسية . وكان غريغوار الحادي عشر مقتنعاً بضرورة توطيد البابوية بشكل نهائي في روما ، لصالح المسيحية جمعاء التي يجب عليها إيقاف تقدم (الكافرين) وحماية الدولة الحبرية المهددة ، في غياب الأب الأقدس ، بطمع جيرانها وبمرارة الرومانيين .

ولكن المشاكل لاتخلو مع ذلك . فمن ذلك أن الخزينة الحبرية نضبت بالأعمال التي قام بها أسلافه ، ومن الصعب مجابهة نفقات رحيل جديد . ومورست ضغوط في محيط الحبر لصالح الإقامة في آفنيون : ضغط ملك فرنسا الذي كان بحاجة لمساعي البابا الحميدة في مفاوضاته مع إنكلترا ، وضغط كثير من أعضاء الحكومة الحبرية من أصل فرنسي ، الذين يعتبرون روما مكان نفي . وأخيراً في إيطاليا نفسها ، كانت فلورنسا تطمع بالتوسع ، بعد أن كسرت الحلف الغلفي وبدأت تناضل الدولة الحبرية . وحقق الموظفون الفلورانسيون الثمانية (القديسون الثمانية) الذين يوجهون العمليات ، نجاحات كبيرة دفعة واحدة ودون جهد ؛ وذلك بقيام المدن الرئيسية في الأقاليم الحبرية .

ولكن غريغوار الحادي عشر كان رجلاً مصماً : جَنَّدَ المرتزقة البروتانيين والغاسكونيين ، وتحت إدارة نائب عن البابا استردوا الدولة الحبرية . وإذا كان قراره ضرورياً ، فإن رجاء كاترين دوسيين الحار التي جاءت إلى آفنيون ، عزز هذا القرار . وفي أيلول ١٣٧٦ م أبحر البابا ورجال حكومته إلى مارسيليا ، وفي ١٧

كانون الثاني ١٣٧٧ م ، دخلوا روما . وبعد ذلك ببضعة أشهر توفي غريغوار الحادي عشر (في ٢٧ آذار ١٣٧٨ م) ، بعد أن استنزفته جهوده . ولكن البابوية في روما مرةً أخرى .

تحول البابوية بالنفي في آفنيون

لقد عادت البابوية متحولة من آفنيون إلى روما . إن نفي سبعين عاماً على ضفاف الرون ، والأصل الفرنسي ، وبشكل أدق اللانغدوسي للباباوات السبعة الذين تعاقبوا خلال هذا الدور على عرش القديس بطرس ، قد طبعا على إدارة الكنيسة أسلوباً وصفات خاصة .

ملكية مركزية على رأس الكنيسة

وبفضل الإقامة في آفنيون وجد أن مركزية الكنيسة تحت إدارة البابا ، التي بدأ بها الأحبار الرومانيون في القرن الثالث عشر ، قد تسارعت . ففي آفنيون حققت حكومة الكنيسة استقراراً جديداً . وفي السابق ، كان الأحبار يهربون بانتظام كل صيف من المناخ غير الصحي لوادي نهر التيبر إلى مقاماتهم البعيدة في جبال أليان أو سابين ، آخذين معهم ، كيفما اتفق ، قسماً من المكاتب والمحفوظات . وفي الغالب كانت اضطرابات شارع روما أو الأشواط الإمبراطورية على ظهور الخيول تضطرهم إلى البحث عن ملجأ لدور طويل في مدينة أخرى من دولهم الإيطالية . فالأمن الذي يسود في آفنيون ونقاوة الهواء الذي يستنشق فيها ، والقرب الكبير جداً من مقامات الصيف وضعت حداً لهذا الترحال للبلاط الحبري . ومنذ الآن أصبح من الممكن ، في قصر شيد لهذا الغرض ، توسيع المصالح ، ومضاعفة عدد الموظفين : الغرفة الرسولية تسير الشؤون المالية للبابوية ، والديوان حيث يوجد أكثر من مئة ناسخ وكاتب عدل يدرسون الملتمسات (العرائض) الآتية من كل بلاد المسيحية ، ويرسلون الرسائل الحبرية ،

وأخيراً المحاكم التي تخفف عن البابا قضايا لا عدّ لها من نفعية أو روحية لا يستطيع أن يبتّ بها وحده . وكما هي الحال في الملكيات العلمانية ، مهرت البابوية نفسها بهيئات إدارة حديثة ، تساعدها على ممارسة سلطتها بشكل ناجع على مجموع الكنيسة ، فضلاً عن أن وضع آفنيون الأقل بعداً عن المركز من وضع روما ، يشجع علاقات مباشرة أكثر من جميع مناطق المسيحية مع عاصمتها .

وعززت البابوية بخاصة سلطتها على مجموع الأكليروس . وبتطبيق الإصلاح الغريغوري كانت قد حررت في السابق هذا الأكليروس من نفوذ العلمانيين ، وحصلت على انتخاب الأساقفة من قبل الكهنة القانونيين ، والآباء من قبل الرهبان . وانطلاقاً من منتصف القرن الثالث عشر ثبتت السياسة الحبرية ، في قضية الانتفاعات الكنسية ، هدفاً جديداً عبر عنه بوضوح في مرسوم ١٢٦٥ م : وهو أن البابا ، خليفة القديس بطرس ، له ملء التصرف بجميع المناصب الكنسية . فهو الذي يعين الأساقفة والآباء . وفي الواقع ، اكتفى أحبار آخر القرن الثالث عشر بتطبيق هذا المبدأ في بعض الحالات فقط : في الانتخابات المتنازعة ، أو المناصب الكنسية مع فوائدها التي تحتفظ البابوية بمنحها حصراً وصراحة . وإلى باباوات آفنيون الأوائل ، ولا سيا جان الثاني والعشرين يعود الفضل في توسيع استعمال (الاعتراض) قليلاً قليلاً ومضاعفة التدخلات المباشرة . وفي ١٣٦٣ م استطاع أوربينو الخامس أن يوسع (الاعتراض) على مجموع المناصب الكبرى وعلى بعض المناصب الصغرى .

أما وإن الأكليركيين يسميهم البابا ويرتبطون به من أجل منحهم منصباً آخر أكثر غنى ، لذلك خضعوا له بشكل وثيق ودعموا سياسته . وقبل الأساقفة بصفة خاصة الالتزام بحلف يمين الولاء للبابا وزيارته .

وبصورة موازية أنمى باباوات آفنيون الضريبة الحبرية التي يجب أن تؤمن

لهم وسائل سياسة كبرى . وحتى القرن الثالث عشر كانت البابوية تكتفي بموارد دومين الكنيسة تضاف لها ضرائب تجبى من الأمراء التابعين للكرسي الأقدس ، وحصائل القضاء الروحي الذي يمارسه الحبر ، وأخيراً الهبات ، والحبوس والأوقاف . وكان إينوسان الثالث أول من وضع مبدأ الضريبة الحبرية ، وحصل على أن يسهم المستفيدون الكنسيون في الحرب الصليبية بتقديم $\frac{1}{10}$ مواردهم . ولكن هذا العشر يبقى ضريبة استثنائية . وانطلاقاً من الوقت الذي احتكر البابوات فيه منح المناصب ، حصلوا ، أولاً بشكل هدية ، ثم بشكل رسم إجباري ، على أن يدفع المستفيدون ، إلى الكرسي الأقدس ، بعد تسميتهم ، مبلغاً ثابتاً يتناسب مع موارد المنصب المستفيد . وللسبب نفسه أمسك البابوات بإرث الحبر المتوفى وقبضوا موارد المنصب مادام هذا المنصب شاغراً . وأخيراً ، جرى تعامل يقضي بأنه يتوجب على الأساقفة والآباء الذين يأتون لزيارة خليفة القديس بطرس ، أن يدفعوا له مبلغاً صغيراً ، وهذا المبلغ حددت تعرفته أيضاً حسب الأصول بالشكل المطلوب .

وهكذا أصبحت المبالغ المتأتية من مختلف الضرائب على المناصب الكنسية ، تؤلف منذ الآن المورد الأساسي للبابوية : وهي التي تساعد على تمويل الحملات إلى إيطاليا وإلى الشرق ، وأعمال الإنشاء في آفينيون وفي روما ، وأخيراً أعمال الإحسان .

وعاود أحبار آفينيون عمل أسلافهم ووسعوه وتوصلوا إلى أن جعلوا من البابا ملكاً حقيقياً ، فهو مصدر الحق الكنسي ، وحامي الجامعات . وهو الوحيد الذي تكون له سلطة إنشائها ، والقاضي الأعلى في الصعيد الروحي ، ويتخذ قرارات لها قوة القانون بالنسبة للمسيحية جمعاء ، وهو على قمة التسلسل الكنسي ، ويتصرف بموارد هامة ، ويقرر ، باعتباره سيداً ، سياسة الكنيسة .

ونمت نظرية حقيقية للملكية الحبرية في سياق القرن ، واتخذت نقطة انطلاقها المناداة بـ بونيفاس الثامن بابا ، بخاصة في المرسوم « أونام سانكتام » .

وانتهى لاهوتيون بتوحيد الكنيسة مع البابا الذي هو رئيسها القدير . وقد عبر عن هذه الفكرة ، بشكل أخاذ ، فقيه فرنسي في الحقوق الكنسية ، في جدله مع أكليركيين إيطاليين بقوله : « حيث يكون البابا تكون حكومة الكنيسة الرومانية أيضاً » ومن غير الممكن القول بشكل أفضل من أن البابا يمثل بشخصه كل حكومة الكنيسة .

وأمام هذه المركزية الحبرية أخفقت كل المحاولات التي أجريت في القرن الرابع عشر لتفرض على الكنيسة إدارة جماعية . فقد حاول مجمع الكرادلة ، في ١٣٥٢ م ، عند وفاة كليمان السادس ، أن يقتطع لنفسه دوراً أكثر أهمية . فمن ذلك أن الكرادلة ، قبل القيام بالانتخاب الحبري ، وقعوا تسوية (اتفاقاً وسطاً) يتعهد بموجبه كل منهم ، بأنه في الحالة التي يصبح فيها بابا ، أن يحصل على موافقة مجمع الكرادلة في كل قرار هام . ولكن إينوسان السادس ، عندما انتخب ألغى هذه التسوية . أما المجمع الديني فلم يقدم له باباوات آفينيون إمكانية معاكسة سياستهم ، لأنهم ، بعد مجمع ڤيين الذي عقده كليمان الخامس (١٣١٠ م) ، لتسوية مشكلة فرسان المعبد ، لم يدعوا إليه أحداً لغاية في نفوسهم .

على إثر ذلك ، اضطرت المعارضة لمفهوم البابوية الملكي ، أن تلجأ إلى النقد في رسائل . وكانت من عمل الروحانيين الذين تطوروا أكثر فأكثر نحو الحيدة (الانفصال) والهرطقة . وقد أطلق عليهم أولاً اسم « فراتيسيل » أو اسم صوفيين أو مهووسين . وشجبهم جان الثاني والعشرون وبنوا الثاني عشر ، فتحالفوا مع الحزب الإمبراطوري في الوقت ، الذي نوزعت فيه حقوق لويس باڤاريا في الإمبراطورية من قبل البابوية ، وأنكروا على نظام التسلسل الكنسي ، الذي

هجر الفقر الإنجيلي ، كل حق في ممارسة السلطة . واتهموا جان الثاني والعشرين بالهرطقة ودعوا إلى مجمع مسكوني . وقريب من موقف الروحانيين ، كان موقف غليوم أوكام . وهو أخ صغير تثقف في أوكسفورد قبل أن يأتي ليدرس ويعلم في باريس . كان يتصور ويفهم كنيسة روحانية فقط رئيسها المسيح لا البابا . وهذا التفكير يحجم بصورة فريدة السلطة الحبرية ، عدا عن أنه لا يعترف بعصمة إلا بفضل الكنيسة المجتمعة في مجمع . ولم يذهب غليوم أوكام حتى الطرح بالرئاسة الحبرية كما فعل مؤلف عمل أساسي « محامي السلام » (١٣٢٤ م) : مارسيل بادوا الذي كان خلال بضع سنوات رئيساً لجامعة باريس ، وصديقه جان دو جاندن أستاذ طلبة الفنون في كلية ناڤار ، اللذان اصطفا في الخلاف الذي وضعها ضد البابوية إلى جانب الإمبراطور والروحانيين . فهما يريان أن (الكنيسة ليست إلا الجسد العام للمؤمنين) .

وإذا كانوا يقبلون بالأصل الإلهي للكهنوت ، فذلك بفضل الكهان السواسية بدقة . لقد طرحوا نظام التسلسل الكنسي كمؤسسة بشرية بصورة محضة ويأتي في البدء التفوق الحبري باسم جماعة الحواريين . وهم يؤكدون أيضاً أن السلطة الوحيدة ، في قضية الإيمان ، هي المجمع العام . ومن البديهي أن كل هذه النظريات طرحت آنذاك وشجبت . ومع ذلك تركت في فكر العديد من الجامعيين بذوراً وستنمو هذه البذور في عصر الحيدة الكبرى .

ولكن ، كلما عززت بابوية آفنيون سلطتها الزمنية في داخل الكنيسة ، فقدت قليلاً من إشعاعها السياسي والروحي على مجموع المسيحية .

أفول الإشعاع السياسي والروحي للبابوية

في السابق ، كانت البابوية تستعمل جاهها المعنوي الذي أعاده إليها الإصلاح الغريغوري ، واستطاعت بذلك أن تأخذ على عاتقها توجيه العالم

المسيحي في النضال ضد الكافرين . أما في القرن الثالث عشر ، من إينوسان الثالث إلى بونيفاس الثامن ، فما فتئ الأحبار ينادون بحقهم في سيادة العالم وتفوق سلطتهم ، في الصعيد الروحي والزمني ، على سلطة الإمبراطور والملوك : ففي مجتمع قائم على نظام التسلسل ، وضع البابا نفسه في القمة ، فوق العواهل العلمانيين . وفي الحقيقة ، في عهد آفنيون ، لم تهجر نظرية التيؤقراطية تماماً : فباسمها حاول البابوات تهدئة الشقاق بين الأمراء المسيحيين . ولكنها أفرغت قليلاً قليلاً من كل محتواها الواقعي . لقد اصطدمت سلطة البابوية ، في الواقع بالسلطة النامية للدول الزمنية التي تدفع كل تدخل في شؤونها ؛ وتشهد علاقات بابوات آفنيون مع ملك فرنسا ومع الإمبراطور بوضوح على هذا التطور . فمنذ حادث الاعتداء في أنايني تمسك العاهل الفرنسي ، بنجاح ، بزاعمه في الاستقلال الزمني ؛ وحصل بكل بساطة على إلغاء مرسوم أونام سانكتوم وعلى حذف نظام المعبد . وتجاه الإمبراطور ، استسلم بابوات آفينيون بسرعة أقل . وتمسكوا بالمبدأ القديم : وهو أن منتخب الأمراء لا يكون إلا المرشح للإمبراطورية ؛ ولا يصبح ملك الرومانيين إلا بعد أن يقبله البابا .

أما منافسة المدعين بالعرش الإمبراطوري : لويس باڤاريا وفريديريك النمسا ، فقد ساعدت الامتياز الحبري على صيانة المظاهر على الأقل ، لأنه رفض تتويج كل منهما . وأما النزاع الذي افتتح بعد ذلك مع لويس باڤاريا وشدد بإحكام الخلع والحرمان ، فيبدو أنه عاد إلى أجمل عصر النزاع بين الكهنوت والإمبراطورية .

وفي إطار هذا الخلاف ، بدا الدفاع عن السلام ، المذكور آنفاً كرسالة لصالح السلطة المدنية ؛ وفي رأي مارسيل بادوا وجان دو جاندن ، الكنيسة مصلحة عامة يجب أن تعمل في تبعية الدولة . وهذه الأخيرة هي في الواقع ذات سيادة في جميع الأصعدة بما فيها الصعيد الروحي ؛ وإذن لها كل السلطة لإدارة الكنيسة .

وأما الانتخاب بناء على طلب الكرسي الأقدس لمرشح جديد للإمبراطورية يعترف به كليان السادس ويتوجه (١٣٥٥ م) تحت اسم شارل الرابع ، فيمكن أن يظهر كنصر للمذهب التيؤقراطي . وفي الواقع ، إن الخلاف ، كرهانه ، كان في غير زمانه ، وليس لظفر البابا أهمية . فعندما قنّن شارل الرابع كيفية انتخاب ملك الرومانيين في المرسوم الذهبي (١٣٥٦ م) ، لم يقم بأي تلميح للمصادقة عليه من البابا . وكان البابا إينوسان السادس بحاجة إلى الإمبراطور ليظفر على أعدائه الإيطاليين ، ولذا لم يحتج ، وهكذا تم انفصال الكنيسة والإمبراطورية في التطبيق . وبنفس الشكل ، تراخت رويداً رويداً الروابط التابعية التي تضم عدداً من الممالك المسيحية إلى الكرسي الأقدس وانتهت بالقطيعة : فمن ١٣٢٠ إلى ١٣٢٧ م ، ثم انطلاقاً من ١٣٣٣ م ، كفت إنكلترا على سبيل المثال ، عن دفع الضريبة السنوية التي كانت رمزاً لتابعيتها . وعندما طالب أوربينو الخامس ، في ١٣٦٦ م ، بدفع المتأخرات ، أحلَّ البرلمان الإنكليزي العاهل من جميع الالتزامات التي اتخذها جان دون أرض (لا أرض له) حيال البابوية ، من رابطة التابعية هذه التي اعتبرها دوماً غير شرعية أي غير قانونية .

إن تحرير الأمراء من الوصاية الحبرية كان حركة قوية دونما رجعة إلى الوراء ، لأنها تعتمد على إرادة الأمم التي كانت في عز تشكيلها . ولم تستطع بابوية آفنيون كما لم تعرف أن تحسب حساب العواطف الجديدة التي حولت الشعوب المسيحية في مجموعة قومية . إن بابوات آفنيون الذين ولدوا جميعاً في مملكة فرنسا قبل اعتلائهم عرش القديس بطرس لا يمكنهم ولو أرادوا أو رغبوا أن يأخذوا وجه حكام محايدين في خلافات القرن الرابع عشر . هذا فضلاً عن أن معظم الكرادلة الذين يدعونهم (أي يكونونهم) كانوا هم أيضاً فرنسيين . فكيف لا يشتبه بهم بأنهم يريدون نجاح فرنسا في نزاعها مع إنكلترا ؟ ألم يدعموا علانية العواهل الآنجفيين في نابولي ، الذين هم أقرباء الثالويين ، في سياستهم الإيطالية ؟ لقد

كان البابا أبعد من أن يكون زعيماً غير منـازع للمسيحيـة ، وأخـذ بـالعكس وجـه زعيم حزب . ومنذ ذلـك الحين الـذي أصبحت فيـه الضرائب لا تخـدم مطلقـاً خير المسيحية العام ، لم تبد هذه الضرائب ، التي يجبيهـا الكرسي الأقـدس من أكليروس كل أمة ، ثقيلة فحسب ، وإنما غير محتملـة . وكـذا حـال امتيـاز الأحبـار في منح الرتب الكنسية . وكل هذه المظالم تتضح بجلاء في الاعتبارات التي وسعها البرلمـان الإنكليزي عند قطع علاقات التابعية بين إنكلترا والكرسي الأقدس .

وهذا الريب المتعاظم لقسم من المسيحية حيال أحبار آفنيون يوضح في الجزء الأعظم منه بطلان ، عبث ، جهودهم لإعداد حرب صليبية جديدة .

وإذا كان زعيم الكنيسة القدير لا يستطيع أن يدعي بحكم ممالك هـذا العـالم ، فهذا لا يمنعه مطلقاً من القيام بالمهمة التي عهد بها إلى بطرس . وأخطر من ذلك ، بـالمقـابل ، أن بـابـوات القرن الرابـع عشر كفـوا قليـلاً قليـلاً عن أن يلعبـوا دور المرشدين الروحيين للمسيحيـة . ومن المؤكـد أن الإجلال الشـديـد دومـاً من قبل العديد من المؤمنين ، والطاعة المعززة من قبل الأكليروس يرتبطان أيضـاً بشخص الأب الأقدس (البـابـا) ولكن كان ينقص البـابوات ، الـذين تعـاقبوا في آفنيون هذه الحمية الرسولية ، إشعـاع القـداسـة التي سـاعـدت غريغوار السـابع على انتزاع الكنيسـة من الضغوط الزمنيـة ، وأوربينـو الثـاني على قيـادة الجمـاهير إلى الحرب الصليبية . وقد أثارت الحروب والمجاعات والأوبئة آنذاك في النفوس المسيحيـة مع القلق بنهاية العـالم ، تيـاراً عظيمـاً من الصوفيـة جعلهـا تتطلع إلى إصلاح أخلاقي وروحي . وبابوات آفنيون الذين كانوا كلهم تقريبـاً حقوقيين ، همهم بنـاء نظـام إداري نـاجع ، وفرض ضرائب ، وإعـداد جيوش ، كانـوا غير قـادرين على تقنيـة هذه العواطف التي تجـاهلوهـا على وجـه التـأكيـد . وفيما كان التبشير (الوعـظ) الفرنسيسكاني يجد صدى عظيماً في الجمـاهير الشعبيـة ؛ والفقر ، والطهـارة يبـدوان للكثير من المسيحيين الطريقين الوحيدين للسعادة الأبديـة ، جـدد جـان الثـاني

والعشرون الشجب ضد (الروحانيين) تلاميذ القديس فرانسوا الحارين المتحمسين ؛ وأحاط نفسه في قصر الدوم ببذخ لا يصلح لنائب يسوع ـ المسيح . وطبق أخيراً التفضيل العائلي أي منح الأفضال الخاصة لأفراد أسرته ، وسمح بجمع عدة وظائف تؤمن للكرادلة والأحبار موارد هامة ، ولكنه حرم المؤمنين من حضور راع . وبدأت الانتقادات الحادة تنتشر هنا وهناك . ولم تكن انتقادات بترارك أقلها عنفاً . وكان ينتظر من البابوية الإصلاح العظيم الذي يدفع المسيحية إلى الأمام في طريق السعادة الأبدية . ولم يأت بابوات آفنيون إلا بتنظيم إداري جديد للكنيسة المرئية .

وبالتجاهل الكثير جداً للعاطفة القومية ، جازفت البابوية برؤية المؤمنين والأكليروس يتشكلون في كل بلد في كنائس وطنية . والتجاهل الكثير جداً للرغبة في الإصلاح جازفت بخطر آخر : وهو أن المجمع الديني يمكن أن يظهر لعدد من المسيحيين كمحكمة عليا ، أي المحكمة التي تستطيع ، عندما يكون البابا عاجزاً أو متغيباً ، أن ترد الكنيسة إلى طريقها الحقيقي . ألم يدل فيليب الجميل على الطريق التي يجب اتباعها ، عندما اتهم بونيفاس الثامن بالهرطقة ، وطلب إلى أعضاء المجمع الديني الانعقاد ؟ وهذه التهديدات قد أغفلت أيضاً . فهل ستعرف البابوية في العودة إلى روما كيف تواجهها ؟

الفصل الخامس

حيدة الغرب الكبرى

كنيسة أو كنائس

لم تضع عودة البابوية إلى روما حداً لشدائد الكنيسة . فما كاد نفي آفنيون ينتهي إلا وانفجرت الحيدة الكبرى التي نشرت الاضطراب والشقاق في المسيحية بكاملها وزعزعت السلطة الحبرية .

الانتخاب الثنائي في ١٣٧٨ م

عقب وفاة البابا غريغوار الحادي عشر المفاجئة بعد بضعة أشهر على دخوله المدينة الخالدة ، انعقد مجمع الكرادلة في الفاتيكان ، في ٧ نيسان ١٣٧٨ م ، ودارت المناقشات في جو مضطرب : ولأول مرة منذ بداية القرن (١٣٠٣ م) ، قرر مصير الكنيسة من جديد في روما . أما الرومانيون ، الذين انتعشت كبرياؤهم حديثاً بـ(كولادي رينزو وبترارك) ، فقد عزموا على أن يحتفظوا لمدينتهم بدورها عاصمة مسيحية . وكانوا في هذا الموضوع قلقين : لأن وجود أكثرية من الكرادلة الفرنسيين في داخل مجمع الكرادلة (١١ على ١٦ حاضراً) جعلهم يخشون مرة ثانية من أن ينتخب حبر من ماوراء الجبال ، أي من فرنسا ، وأن يقرر هذا ، مثل أوربينو الخامس ، العودة إلى آفينيون ، ولحماية وجاهة مدينتهم ، وازدهارها المادي ، قرروا الحصول على (بابا روماني أو على الأقل إيطالي) . وهذه هي الصيحة التي صاحوا بها في سياق مظاهرة ضوضائية تحت نوافذ القصر

الحبري . وخاف الكرادلة ، ولكنهم انتهوا بالاتفاق على اسم حبر إيطالي ، خارج عن مجمع الكرادلة ، أسقف باري ، بارتولوميو برينيانو . وكان يشتهر بتقواه الكبرى . ولكن يجب انتظار قبول المنتخب للإعلان الرسمي عنه . أما الجمهور المحرض بإفراط بصخب متناقض فكان يزمجر ويهدد باقتحام حرس الفاتيكان . ولتهدئته تصور الكرادلة المضطربون خدعة أو حيلة استثنائية فوق العادة : تظاهروا بانتخاب كردينال روماني عجوز شعبي جداً وقدموه للشعب مرتدياً الزينات الحبرية . وهذا لم يمنع ، حسب بعض الشواهد ، من مهاجمة عدة كرادلة عند خروجهم من الفاتيكان واضطرارهم إلى الالتجاء في قصر سانتانج . وأخيراً ، وبعد بضعة أيام هدأت الجلبة . فقد قبل برينيانو المهمة الحبرية باحتفال واعتلى العرش تحت اسم أوربينو السادس (١٨ نيسان) . وبالرغم من الحوادث المؤسفة التي حدثت ، لاأحد يفكر في منازعة صحة انتخابه : إن الكرادلة الستة الذين لم يشاركوا في مجمع الكرادلة ، لأنهم كانوا في ذلك الحين في آفنيون ، قدموا تهانيهم لأوربينو السادس . واعترف الأمراء أيضاً به . حتى أن ملك فرنسا ، شارل الخامس ، الذي أعرب عن رغبته بتلقي (تأكيد آخر) للانتخاب ، ترك الرأي الفرنسي يعتبر أوربينو راعياً صاحب سيادة على الكنيسة .

غير أن الموقف الأخرق للحبر الجديد طرح كل شيء على بساط البحث . كان متسلطاً وعنيفاً ، ودخل بسرعة في خلاف مع أكثرية مجمع الكرادلة وأخذ على الكرادلة نوع حياتهم التي لا تطابق المثل الأعلى الإنجيلي . فمن ذلك أن الكردينال دولاغرانج ، مثلاً ، أحد مستشاري شارل الخامس الذين يصغي إليهم ، عنفه البابا علناً . واستاء الكرادلة الفرنسيون وغادروا روما وأخذوا في متاعهم التاج البابوي والزينات الحبرية . وفي أنايني ، حيث التقى الكرادلة الفرنسيون والإيطاليون (آخر تموز ـ آخر آب) ، تملكتهم الشكوك والوساوس التي لم تستيقظ قبل شقاقهم مع البابا : إن الانتخاب الذي يجري تحت التهديد الروماني

ألا يكون ملطخاً بالخروج على النظام ؟ وأخيراً أعلنوا بطلان القرار المتخذ في روما وأخبروا بالحال الأمراء المسيحيين .

لم يشعر الكرادلة بالأمن في الدول الحبرية ، فلجؤوا إلى الأراضي النابولية ، في **فوندي** . اجتمعوا كلهم ، وقرروا أن يعقدوا من جديد مجمعهم وانتخبوا الكردينال روبير دوجونيف (٢٠ أيلول ١٣٧٨ م) وأخذ اسم **كليمان السابع** ، ولما كان المنتخب الأول ، أوربينو السادس مستقراً في روما من قبل ، ولم يكن بالإمكان إزاحته مباشرة عنها ، فقد أخذ كليمان السابع بشكل طبيعي طريقه إلى آفنيون (أيار ١٣٧٩ م) . وهكذا وجد حبران ، في عاصمتين يطالبان منذ الآن بتوجيه المسيحية .

المسيحية منقسمة

إن تطور الانقسام ، الذي فتحه نكوص الكرادلة ، يتعلق الآن بموقف الأمراء . وقد لعب موقف ملك فرنسا دوراً حاسماً : فعندما بلغ نبأ انتخاب **فوندي** شارل الخامس ، لم يخف رضاه حتى وإن لم يكن صحيحاً بشدة ، لأن الكلمة التي نسبت إليه - « الآن أنا بابا » - لها دلالتها مع ذلك ومعبرة . كان كليمان السابع ، ابن كونت جونيڤ وكونتس بولون ، في الواقع حليف البيت الفرنسي ، وقام بالقسم الأعظم من حياته الكنسية في فرنسا ، رئيساً لكهنة باريس ، ثم أسقفاً في تيرووان ، بالقرب من كامبريه . واستأنف من جديد تعاقب البابوات الفرنسيين ؛ واستقراره في آفنيون وضع الكرسي الأقدس يدور ثانية في الفلك الفرنسي . حتى أن الاسم الذي اختاره لنفسه يظهر بوضوح نيته في إتمام سياسة كليمان السادس الذي يشبهه بتذوقه الأبهة والعمل . وفي فكر شارل الخامس ، أن كل هذه الاعتبارات لا يمكن أن تعدل كفة الميزان لصالح

منتخب فوندي . وأخيراً ، ضغط لويس دآنجو بشدة على أخيه الملك للاعتراف بـ (كليمان السابع) . وكان يأمل على هذا النحو أن يحقق طموحاته الإيطالية . ولما خلع أوربينو السادس الملكة جانّ دونابولي التي انحازت لكليمان السابع ، وقدمت مملكتها لابن عمها المبعد ، شارل دودورا ، ردت العاهلة بجعلها لويس دآنجو وارثاً لها ، بموجب صكوك صادق عليها كليمان السابع .

وأيضاً ، منذ شهر تشرين الثاني ١٣٧٨ م عقد شارل الخامس مجلساً مؤلفاً من مستشاريه العاديين ، ومن بضعة لاهوتيين وأحبار ، وصدر قرار الاعتراف بكليمان السابع اتخذ بصورة شبه رسمية وصدق عليه رسمياً مجلس فانسينّ ، في ٧ أيار ١٣٧٩ م . ووجهت براءة ملكية في هذا المعنى إلى أساقفة المملكة لتقرأ في جميع الكنائس . وجامعة باريس ، التي بقيت مترددة ، اضطرها الملك إلى الاعتراف بدورها بكليمان السابع في (٢٦ أيار ١٣٧٩ م) .

إن قرار ملك فرنسا ، منذ أن عرف ، يعين الموقف الذي اتخذه العواهل الآخرون . إن جاه الملك ، الذي كان أقوى ملك في الغرب وأخذت مباركته صفة شبه دينية ، منح موقفه قيمة مثل يحتذى ، ولكن اختيار الأمراء العديدين استلهم من اعتبارات سياسية لها علاقة بالخلاف الكبير الذي تتجابه به فرنسا وإنكلترا ويقسم أوربة بكاملها . ففي المعسكر الكليمانتي اصطف ، إلى جانب شارل الخامس وجانّ نابولي ، جميع حلفاء فرنسا : القشتالة ، النافار ، الآراغون ، البرتغال ، إيكوسيا ، كونتية ساڤوا ، ومملكة قبرص . وبالمقابل ، إيطاليا الشمالية والوسطى أخذتا جانب البابا الروماني . أما الإمبراطور ، فنظراً لعدائه للمركزية الحبرية التي عززها بلاط آفنيون ، فقد صرح أيضاً لصالح أوربينو السادس ، وتبعه ملكا بولونيا وهونغاريا ؛ وأخيراً إنكلترا التي تفضل قليلاً ، من حيث المبدأ ، حبراً من آفنيون ، ارتمت بصورة شبه ضرورية في المعسكر الأورباني بقرار فرنسا . وهكذا تحقق الانقسام الديني .

وخلال مرات عديدة ، في سياق القرون الماضية ، كان انتخاب عدو للبابا يقسم المسيحية بشكل عابر . ولذا فإن معاصري الانتخاب المزدوج لعام ١٣٧٨ م ، وبخاصة الأمراء ، على ما يبدو ، لم يكونوا قلقين لدرجة تتجاوز الحد من هذا الشقاق الجديد الذي استاء له المؤرخ فرواسار كثيراً .

وحقيقة القول ، إن العواهل من كل طاعة ظلوا يعتبرون القضية تحت زاوية سياسية ، ويفكرون بأن قراراً على ساحة المعركة يؤمن بسرعة ظفر البابا الذي تشيعوا له . وهكذا كان الهدف ، بالنسبة للكليمانتيين ، إزاحة أوربينو السادس من روما ؛ وبالنسبة لكليمان السابع ، لا تستطيع آفنيون ، في الواقع ، أن تكون إلا مقام (انطواء) ؛ وإذا أعاد تنظيم حكومة الكنيسة على ضفاف نهر الرون وأعطى لبلاطه سنا لامعاً بإحاطة نفسه بالكتاب والفنانين فهو يعلم جيداً بأن حيازة المدينة الخالدة تستطيع أن تؤمن فوزه النهائي . ولم يبدُ المشروع مستحيلاً : لقد كان من حظ كليمان السابع أن كان في طاعته فرنسا ، البلد الذي ظل في الغرب أكثر سكاناً وأكثر ازدهاراً في القرن الرابع عشر ؛ وإذن يمكنه أن ينتظر سنداً مالياً وعسكرياً لحملاته الإيطالية . وفي الواقع ، وعلى التوالي ، تباعاً ، ذهب لويس دأنجو (١٣٨٢ ـ ١٣٨٤ م) وابنه لويس الثاني (١٣٩٠ م) يحاربان في ما وراء الجبال ضد شارل دودورا الذي تقلد من أوربينو السادس حكم مملكة نابولي وحمى الحبر الروماني . وحتى في ١٣٩٠ م ، كان من الممكن لكليمان السابع أن يأمل ، على ما يبدو ، أن يترأس ملك فرنسا شارل السادس شخصياً حملة مكلفة بإعادته إلى روما . أما الأوربينيون ، من جهتهم ، فلم يبقوا متوانين : فقد وضع مشروع ضد البروفانص ، يهدف إلى آفنيون مباشرة ، وتخلي عنه ، ولكنهم تصوروا أن ينتزعوا من بابا آفنيون البلاد التي يعتمد عليها . وترأس دوق لانكاستر ، في ١٣٨٦ م ، حملة ضد قشتالة بغية إظهار حقوقه في هذا البلد وارثاً والدفاع عن قضية أوربينو .

اضطراب الحياة الدينية

بعد مضي عشر سنوات على بداية الانقسام ، اعترف العواهل بأنه ما من مشروع من مشاريعهم العسكرية أدى إلى قرار . ومن الممكن أيضاً الأمل بحكمة الكرادلة المسؤولين الآخرين عن انقسام المسيحية . ولو أرادوا لأمكن حل الأزمة من نفسها عند وفاة أحد البابوين . ولكنهم ، عندما زال أوربينو السادس في ١٣٨٩ م ، عوضاً عن أن ينتخبوا كليمان السابع ، انتخبوا واحداً منهم وأخذ اسم بونيفاس التاسع . وبعد بضع سنوات ، في ١٣٩٤ م ، فعل مجمع الكرادلة في آفنيون الشيء نفسه بإعطائهم خلفاً لكليمان السابع المتوفى ، وهو الكاردينال الآراغوني بدرو دولونا ، الذي أصبح بنوا الثالث عشر . وإذن استقر الانشقاق وبامتداده أحدث اضطراباً خطيراً في الحياة الدينية في المسيحية كلها . وبالنسبة للمؤمنين والأكليروس ، في كل بلد ، الذين لم يشايعوا بالضرورة القرار السياسي تماماً لعواهلهم . وضعت قضية وجدانية : من هو البابا الحقيقي ؟ إن كل واحد منهما يبدو أن له نفس الضامنين في النظام الروحي : فمن ذلك أن أحد الكرادلة الأوائل الذين ساهم كليمان السابع مات في ١٣٨٧ م في حالة قداسة وضريحه في آفنيون أصبح مكان خوارق وحج . ولكن بالمقابل ، صرحت القديسة كاترين دوسيين أنها لصالح البابا الروماني . وفرنسا ، مثلاً ، لم تكن مجمعة وراء حبر آفنيون : ولسبب ما استطاع أوربينو السادس أن يعلن بأنه يستند على كل نساء وكل أطفال فرنسا . وبقيت جامعة باريس مترددة سراً ومنقسمة : فكثير من الأساتذة من أصل أجنبي فضلوا مغادرة ضفاف نهر السين على أن يشايعوا قرار شارل الخامس . وجامعات تولوز وأورلئان ، ومناطق بكاملها مثل النورمانديا والبروفانس مالت إلى الأوربانيين . وفي بعض المناطق المتنازعة بين الطاعتين ، أخذ الاضطراب نسباً مقلقة : فأحياناً يوجد اثنان من أصحاب الرتب والمقامات ، أحدهما مسمى من روما ، والآخر من آفنيون ، في حالة تنافس على نفس الوظيفة : فقد حافظت

داكس على أسقفين حتى ١٤٢٠ م ؛ وفي الفلاندر ، كان أسقف بروج كليمانتياً بينما أكثرية الدوائر الكنسية التابعة لأبرشيته أوربانية : وفي تورنيه ، رفض جميع السكان الاعتراف بالأسقف الكليمانتي وحدث أن النزاع بين حبرين متنافسين وصل إلى اليد المسلحة ، بينما أحكام الحرمان أو (المنع الكنسي) تمطر بوابلها القطيع البائس المحروم من الوظائف الدينية والأسرار . وهكذا فإن الكنيسة التي أثخنتها الخلافات والحروب ، أخذت تشكو مصيرها وسوء حالها .

الجامعة في نجدة الكنيسة

لم يبق العواهل صماً لهذه الشكوى . فقد أملت عليهم مصلحة مملكتهم ، حتى ذلك الحين ، سياسة منحازة . ولكنهم وعوا منذ الآن أن القوة لا يمكن أن تغلب ، وأن مصير الكنيسة نفسها أصبح موضع رهان ، وجنحوا إلى وضع القضية من جديد على أرضيتها الحقيقية ، الأرضية الدينية . وترك أمر البحث عن حل إلى اللاهوتيين . وجاءت المبادرة من فرنسا أيضاً . فقد أُسمع صوت جامعة باريس فيها بسلطة ، ومنذ بداية الحيدة كان الأساتذة الباريزيون منصرفين إلى تأملات وإلى مناقشات كانت نتيجتها الملموسة كتلة عظيمة من المؤلفات والرسائل .

ولكن هذا التخمر الفكري ظل دون نتيجة أمام تشدد شارل الخامس . بيد أن عكس ذلك جرى في ١٣٩٤ م : فقد شجع المجلس ، الذي يحكم باسم شارل السادس المريض ، الجامعة على تقديم تقرير له عن قضية الحيدة . وبعد مشاورة الرأي والمناقشة الطويلة ، اقترح الجامعيون على الحكومة ثلاثة حلول ممكنة : والحلان الأولان ، حسب نظام التفضيل ، يتركان للحبرين المتنافسين الأمر ليضعا بنفسيهما نهاية للحيدة : فإما أن يستقيلا معاً في آن واحد (طريق التخلي) ؛ وإما أن يتوصلا إلى تفاهم (اتفاق) . وفي آخر الأمر ، أوحت الجامعة ، ولكن بتردد ، عقد مجمع يفصل بشكل فائق .

كانت الحكومة الفرنسية في البدء الوحيدة التي شايعت هذا البرنامج وقررت أن تحاول (طريق التخلي) . وكانت الفرصة مواتية للحصول على تنازل البابا الآفينيوني : بدرو دولونا ، قبل انتخابه ، فقد تعهد ، كسائر الكرادلة ، بأن يعمل بكل قواه ، إذا أصبح بابا ، على إنهاء الحيدة ، حتى بالتخلي عند الحاجة عن المنصب الرسولي . ولكن كل هذا الرجاء الملح من الجامعة والملك اصطدم برفض عنيد من بنوا الثالث عشر : فقد رفض البابا الجديد أن يستقيل من وظيفة يشعر بأن الله قلده إياها . لذا وجب استعمال القسر . وعقد مجمع قومي ، في باريس في ١٣٩٨ م ، أوحى بوسيلة ضغط جديدة لا سابق لها وهي : طرح الطاعة ؛ ففي تموز ١٣٩٨ م ، أعلنت براءة ملكية بأن كنيسة فرنسا لا تعترف إلا بالروحي لسلطة بنوا الثالث عشر ولا تطيعه مطلقاً من وجهة النظر الإدارية . وبالتالي يتصرف الملك منذ الآن فصاعداً بالوظائف وبالرسوم الكنسية التي لا تدفع إلى آفنيون . أما الدعاوى المعروضة أمام المحاكم الكنسية فيستأنف بها أمام البرلمان . وهذا الموقف الفرنسي قلدته صقلية وقشتالة والناڤار . وهكذا حجمت سلطة بنوا الثالث عشر : لقد تخلى عنه عدة كرادلة ، حتى أن سكان آفنيون ثاروا عليه . واضطر بنوا الثالث عشر أن يتخندق ، يحتمي في القصر الحبري مع بعض الخدم الأوفياء وقبضة من الجنود الكاتالانيين . كان البابا سجيناً ، أسيراً إطلاقاً ، وظل يقاوم أكثر من أربعة أعوام بشجاعة تثير الإعجاب ، حتى أنه نجح في دفع هجومات زعيم عصابة ، جوفروا دو بوسيكو ، الذي لم يتردد ملك فرنسا في رشوته ، والذي حاصر خلال ستة أشهر قلعة صخرة الدوم (تشرين الأول ١٣٩٨ ـ آذار ١٣٩٩ م) وفي آذار ١٤٠٣ م ، أخيراً ، توصل إلى الهرب ولجأ في أراضي كونت بروڤانص . وملت الحكومة الفرنسية من سياسة غير مثمرة فقررت عندئذٍ ، مقابل بعض الوعود الغامضة ، أن تعيد الطاعة لبنوا الثالث عشر . وتمّ التوصل إلى التعامل الدبلوماسي : ولكن لا بنوا الثالث عشر الذي لم يعد إلى آفنيون ، ويقضي حياة تائهة بين بروفانص وروسيون ، ولا الحبران اللذان تعاقبا

في رومـا ، إينـوسـان السـابـع (١٤٠٤ ـ ١٤٠٦ م) ، غريغـوار الثـاني عشر (١٤٠٦ ـ ١٤١٥ م) ، قبـلا التخلي بحريـة عن منصبهما . واستـأنفت الجـامعـة الفرنسيـة الكفـاح ، يـدعمهـا في ذلـك الحـزب البـورغـوني والبرلمـان : وقررت (١٤٠٧ ـ ١٤٠٨ م) من جديد طرح الطاعة .

مجمع بيزا

ظل الحبران في عنادهمـا . ويبـدو أن الوسيلـة الوحيـدة الممكنـة كانت دعوة مجمع مسكوني تكون له سلطـة خلعهما . وبشكل أوضح لم تكن الحكومـة الفرنسيـة الوحيدة التي اهتمت بتمديـد الحيـدة وتبني موقف الحيـاد بين رومـا وآفنيون . ففي كل مكان تقريباً ، في إنكلترا ، في ألمانيـا ، في إيطـاليـا نفسهـا ، ارتسم تيـار رأي معـادٍ أيضـاً للبـابويين ومفضل لفكرة المجمع . وفي حزيران ١٤٠٩ م ، أخـذ بهـذا المشروع خمسة كرادلة من آفنيون وثمـانيـة كرادلـة من رومـا ، التقوا وقرروا عقـد مجمع مسكـوني . واجتمع الآبـاء المجمعيـون في پيزا في ١٤٠٩ م ، واتخـذوا تـدابير جذرية : لقد اتهموا البابويين بالهرطقة والسحر وفرضوا عليهما المثول أمامهم . ولما رفضـا الخضوع لهـذا الحكم ، خلع الاثنـان بعظمـة وأبهـة . ثم انتخب المجمع مكانهما رئيس أساقفة ميلانو وأخذ اسم **ألكسندر الخامس** . ولم تـأت قرارات مجمع بيزا بحل الحيدة . ولم تعمل غير تفاقم حـالـة الكنيسـة . وبـالرغم من أن البـابوين قـد تخلى عنهما قسم من كرادلتهم واضطرا إلى اللجوء ، أحدهما في الأرض النـابوليـة والآخر في دول تـاج آراغونـه ، فقـد رفض غريغوار الثـاني عشر وبنوا الثـالث عشر خلع التـاج البـابوي . وأصبح للكنيسـة ثـلاثـة بـابـوات عـوضـاً عن اثنين ، وانقسمت المسيحية أكثر من أي وقت مضى ، لأن كل واحد منهم احتفظ بأنصـاره : كان مع بنـوا الثـالث عشر : إسبـانيـا والبرتغـال ، إيكـوسيـا ، وفي فرنسـا دعم كـونت أرمانياك ؛ وحافظ غريغوار الثاني عشر في طاعته على جنوب إيطاليـا وعلى قسم من ألمانيا ؛ أما باقي المسيحية كله فقد اعترف ببابا بيزا . ولكن ألكسنـدر الخـامس

لم يحكم إلا بضعة أشهر . وكان لخلفه ، جان الثالث والعشرين ، شهرة يشك بها (ألم يتهم بأنه عجل بنهاية سلفه) ، ولا تشجع على التفاف المسيحية كلها حوله . ويوجد ماهو أخطر : لأن المنصب الحبري نفسه تعرض للخطر والارتباك بشكل جاد . وفي الحقيقة ، بقي مجمع بيزا معتدلاً جداً ، لأن الآباء فضلوا ، لخلع البابوات ، اللجوء إلى الاتهام بالهرطقة أكثر من المناداة بتفوق المجمع على البابا . ولكن إخفاق القرارات المتخذة في بيزا لا يمكن إلا أن يؤدي إلى نجاح هذه النظرية الأخيرة .

مجمع كونستانس

لم يكن جان الثالث والعشرون وحده قادراً على أن ينهي الحيدة الثلاثية الرأس ، وشعر أنه في حالة حرجة . فقام نفسه بلعب لعبة خصوم الملكية الحبرية ، وتصور دعوة مجمع جديد ، ولما لم يكن له من الجاه الشخصي للوصول إلى ذلك ، فتوسل مساندة ملك الرومانيين سيجيسموند دولوكسمبورغ . وكان الملك مرشحاً للتاج الإمبراطوري ، وسعيداً جداً باغتنام فرصة تعيد للوظيفة الإمبراطورية دوراً عالمياً يفر منه أكثر فأكثر . وبلغ العواهل دعوة الآباء إلى هذا المجمع في مدينة واقعة ، حسب رغبته ، في أرض الإمبراطورية ، في مدينة **كونستانس** . وافتتح المؤتمر في تشرين الثاني ١٤١٤ م ، وظل يوالي جلساته حتى نيسان ١٤١٨ م ، وضم عدداً كثيراً من الأعضاء ، وممثلين عن كل البلاد المسيحية . ولأول مرة في تاريخ الكنيسة ، قبل في النقاش وفي التصويت ، دكاترة في اللاهوت ، وجامعيون ليس لهم رتبة في التسلسل الكنسي . وكانوا يؤلفون مايقارب نصف المشاركين في المجمع . وهناك تجديد رئيسي : أخذ الآباء مكانهم في المجمع حسب الأمة . وجمع المجمع كما في الجامعات رجالاً يقربهم أصلهم ولغتهم . وكانت كل أمة من (الأمم) الإيطالية ، الفرنسية ، الإنكليزية ، الألمانية تناقش منفصلة تحت إدارة رئيسها ، وتتصرف بصوت وحيد في الجلسات

العـامـة . وهـذا التنظيم القومي للآبـاء ، بـانضامـه إلى حضور العواهل أو ممثليهم العلمانيين ، كانت نتيجته إدخـال المنـافسـات السيـاسيـة إلى المجمع . فيرى فيـه ، مثلاً ، الفرنسيون والإنكليز يقف بعضهم ضد بعض بينما الإمبراطور يحـاول فرض سلطته على المجمع .

اقترح هذا المجلس العديد والمنقسم على نفسه عملاً مزدوجاً : كان قصده أولاً إنهاء الحيـدة ؛ ولكنـه زعم أيضاً أن يحقق هـذا الإصلاح للكنيسـة الـذي يرجـوه الكثير من المسيحيين ولم تستطع البـابـويـة أن تنجحـه : ومـع ذلـك كان هم آبـاء كونستانس أن يصلحوا حكومة الكنيسة أكثر من النظام أو الأخلاق . لقـد جـاء المؤتمر بعد دور دمغ بفساد المركزيـة في آفنيون وبـاضطرابـات الحيـدة ، وانسـاق بصورة طبيعية وصنع لنفسه قضية تناقش كثيراً في الأوساط الجامعيـة واللاهوتيـة منذ قرن وهي : هل على الكنيسة أن تبقى ملكية عاهلها البـابـا ؟ ألا يجب على حكومته ، بـالعكس ، أن تتطور في اتجـاه إدارة جمـاعيـة ؟ لم يكن أنصـار بقـاء السلطة الحبرية غائبين عن المجمع . وهذا الاتجاه المحافـظ لم يكن مـدعومـاً إلا من أمتين ، الأمة الإيطـاليـة ، والأمـة الإسبـانيـة التي تشكلت أخيراً (تشرين الأول ١٤١٦ م) ، وكان يدعمه بخـاصـة الكرادلـة . ولكن هؤلاء الأخيرين لا يمكنهم أن يلعبوا إلا دوراً من الصعيـد الثـاني في القرارات المجمعيـة . ومجمع الكرادلـة ، وهـو تجمع كرادلـة عينوا من قبل ثـلاثـة أحبـار مختلفين ، تعـوزه السلطـة الضروريـة ليأخذ على عاتقـه حكم الكنيسـة وتوجيـه أعمـال المجمع . وبشكل دال ، إن نظـام العمل والتصويت الـذي تبنـاه الآبـاء يمنـع الكرادلـة من كل عمـل شخصي ، لأن أصواتهم لا تتميز عن أصوات الأمة التي ينتمون إليها . وأكثر من ذلـك ، أن أكثريـة أعضاء المجمع تعتبرهم عناصر رجعية ، وذهب بعض المشـاركين حتى اقتراح حـذف مجمع الكرادلة بكل بساطة . ومن جهة أخرى ، إن خلع البابـاوات الثلاثـة من قبل المجمع ليس عملاً من طبيعته أن يرفع جـاه السلطـة الحبريـة : وقـد قبل غريغوار

الثاني عشر بكل كرامة أن ينسحب (تموز ١٤١٥ م) ؛ ورفض بنوا الثالث عشر أن يخضع لشجب ثانٍ (تموز ١٤١٧ م) ، وتحدى المجمع من صخرة (قلعة) بينيسكولا (كاتالونيا) حيث اعتزل وظل ينادي بنفسه خليفة الحواري حتى وفاته (١٤٢٣ م) ، غير أن كبرياءه ، على الأقل ، لا تخلو من بعض العظمة . وبالمقابل ، أذل جان الثالث والعشرون (١٤١٠ ـ ١٤١٥ م) بشخصه المنصب الحبري . ولما كثرت الهجومات على حياته الخاصة ، طلب المجمع إليه أن يتنازل عن العرش البابوي . فاختار عندئذٍ الفرار : ولكنه أوقف ، وقبل بأن يعترف به مجرماً ، وأن يخلع التاج ، ويبكي ، ويتوسل ليحصل من المجمع على حكم رحيم (أيار ١٤١٥ م) . وأخيراً حكم عليه بالسجن .

وفي التطبيق كان الكرسي الحبري شاغراً (تموز ١٤١٥ ـ تشرين الأول ١٤١٧ م) . إن أنصار النظام المجمعي كان طريقهم حراً . وأكثرهم حماسة كان الجامعيون المنتسبون إلى الأمة الألمانية وإلى الأمة الإنكليزية ، واحتفظوا بذكرى سيئة جداً عن مركزية آفينيون . وامتد انقسام الفرنسيين إلى المجمع كما في بلدهم : كان الأرمنياكيون مجمعيين إلى الحد الأقصى ؛ وكان موقف البورغونيين ملائماً للبابوية . وبالإجمال ، كان الجامعيون الفرنسيون منقسمين بين النظريات المجمعية وعدائهم السياسي لإنكلترا وللإمبراطورية ، وتبنوا موقفاً مصالحاً اتضح في خطاب جان دالي ؛ فقد تناول المقارنة التقليدية الفلكية التي تكون فيها الشمس والقمر يمثلان الإمبراطور والبابا ، وشبه آباء المجمع بالنجوم : وقال : « إن دورها ليس فقط مرافقة الكوكبين الآخرين ؛ إن لها معها عملاً للممارسة » .

وأخيراً ، انتهت أعمال المجمع بظفر النظرية المجمعية . ونادى المجمع بنفسه مجلساً ذا سيادة وقرر أن لاجتماعاته صفة إلزامية ودورية .

وهكذا دخل نوع من مبدأ تمثيلي في بناء الكنيسة تأخذ الحكومة منه ، بهذا الواقع ، صفة جماعية بوضوح . ومن جهة أخرى ، نسب المجمع لنفسه سلطة

تشريعية لاتتعارض مع تقاليد الكنيسة ، وإنما تعززه بصورة فريدة ، وذلك بإعلانه عن نفسه ، بشكل ثوري ، بأنه معصوم . وكان جان الثالث والعشرون أول من قبل الاعتراف بأن مجمع كونستانس (مقدس ولا يمكن أن يخطئ) .

والنتيجة هي أن للمجمع سلطة الإشراف على ممارسة السلطة الحبرية : على البابا أن يطيعه في كل ما يهم الإيمان ويراعي القوانين المجمعية . وكان المجمع يريد أن يجبر البابا على تحديد عدد كرادلته وسوقهم لا من إيطاليا بصورة أساسية وإنما من بلاد المسيحية بكاملها .

هذا ويستطيع المجمع أن يخلع الحبر ـ ومجمع كونستانس توسع في استعمال هذا الحق ـ وله حق الإشراف على انتخاب البابا الجديد ؛ وتشكلت هيئة انتخابية تضم ، عدا الكرادلة ، ثلاثين حبراً بمعدل ستة عن كل أمة . وتبعاً لهذا النظام ، انتخب في ١١ تشرين الثاني ١٤١٧ م ، أوتو كولونا وأخذ اسم مارتن الخامس .

انتصرت النظرية المجمعية . ودعمها عواهل أوربة ورأوا فيها فرصة لتعزيز سلطتهم على كنيسة مملكتهم . وقد أعطاها عالم كبير ، وأديب إنساني ، نيقولا دوكوس صياغة قوية بتعريفه الكنيسة : (مجموعة مؤمنين يمثلهم المجمع) ، ولكن هذا الظفر سيكون قصير الأمد . وتأكد أيضاً في حبرية مارتن الخامس (١٤١٧ ـ ١٤٣١ م) . وكان هذا الأخير منتخب مجمع كونستانس والكرادلة سواء بسواء . ولم يكن مطلق اليدين ، وعليه ، من جهة أخرى ، مواجهة آثار الحيدة الكبرى : إن بنوا الثالث عشر الذي لم يمت إلا في ١٤٢٣ م في بينيسكولا ، والخلف الذي أعطاه الكرادلة اسم ، كليمان الثامن ، الذي تنازل عن العرش البابوي في ١٤٢٩م ، حافظا في طاعتها على آراغونة وعلى قسم من جنوب فرنسا ، وبخاصة كونتية أرمانياك . وعلى البابا إذن أن يقبل الامتثال لقرارات مجمع كونستانس ، وهذا الشرط قبل البابا أخيراً أن ينفصل عنه (نيسان ١٤١٨ م) . واضطر بعد خمسة أعوام ، أن يدعو ، طبقاً للقرارات المتخذة في

كونستانس ، أول مجمع في باڤيا (١٤٢٣ م) ، ولم ينعقد ، بسبب وباء ، إلا قليلاً من الزمن ، وبعد سبعة أعوام ، مجمعاً آخر في بال أي بازيل (١٤٣١ م) ، وحاول أن يلعب بالمنافسات بين (الأمم) ، ولكنه لم يستطع معارضة إرادات (الآباء) الذين حاولوا تحديد موارد البابوية المالية وتحجيم سلطتها على الأساقفة.. وتوفي في بداية المجمع ، ولم يملك الوقت للذهاب إلى بال .

مجمع بال وإخفاق النظرية المجمعية

كان لخلفه أوجين الرابع (١٤٣١ ـ ١٤٤٧ م) بالمقابل ، موقف أكثر صلابة . ولم يأخذ على عاتقه شخصياً أي تعهد . وتمتع بجاه تعزز بإبرام اتحاد الكنائس (١٤٣٩ م) . ومنذ بداية حبريته ، حاول ـ عبثاً ـ الحصول على حل مجمع بال الذي افتتح قبل انتخابه بقليل ولا يضم إلا عدداً ضئيلاً من المشاركين ، في غالبيتهم جامعيين وبخاصة كهان بسطاء . وكذلك كان مجبراً على قبول قرارات المجمع ؛ ولكنه كان دوماً يبدي تحفظاته باستعمال صيغ ماهرة . وانطلاقاً من ١٤٣٤ م ، دخل علناً في خلاف مع آباء بال : فقد تطلب هؤلاء من القاصدين الحبريين الاعتراف بيمين بتفوق المجمع على البابا . ونادى أوجين الرابع أن الكرسي الأقدس لا يمكن أن يلزم القاصدين بيمين ، واستنجد بالعواهل ضد المجمع (١٤٣٦ م) . وفي السنة التالية ، قرر نقل القسم (الأكثر قداسة) من المجمع إلى فرارة . وعندئذٍ خلع متشددو بال أوجين الرابع واختاروا الدوق آميديه الثامن ، دوق ساڤوا ليجعلوا منه (عدو البابا) ، فيلكس الخامس (١٤٣٩ م) . ولكن هذا الأخير ، الذي لم يكن له غير طاعة قليلة جداً ولا سيما بعد انفصال مجمع بال (١٤٤٣ م) ، انتهى بالخضوع (١٤٤٩ م) . ومنذ (١٤٤٧ م) ، التاريخ الذي زال فيه أوجين الرابع ، خسر أنصار النظرية المجمعية اللعبة . وكانت السنة ١٤٥٠ م مطبوعة بيوبيل جذب إلى روما العديد من الحجاج ، وبنشر كتاب . جان دو توركومادا الذي يمجد الامتيازات الحبرية ، كانت سنة الظفر القطعي

للبابوية . وخلال أكثر من نصف قرن حتى آخر العصر الوسيط لم تكن قضية عقد مجمع مسكوني موضوع بحث .

نشأة كنائس قومية

يقظة القومية الدينية

لم تصبح الكنيسة ، كما كان يرجو آباء كونستانس وبـال ، ملكيـة برلمـانيـة . ومع ذلك فإن السلطة الحبريـة لم تخرج من الأزمـة سليـة معـافـاة : لقـد جنحت الهيئة الكنسية إلى تنظيم نفسها على شكل فدراسيون كنائس قوميـة وسلطـة الحبر عليهـا محـدودة بشكل وثيق . وفي الواقع ، إن التطلعـات القـوميـة ، التي ظهرت انطـلاقـاً من القرن الرابـع عشر في كل أوربـة ، نمت بفضـل تقلبـات الأحـوال في الكنيسة العامة على صعيد الحياة الدينية . وهـذه القوميـة الـدينيـة هي في البـدء قومية الكنسيين أنفسهم . لقد ألهمت أعضـاء الأكليروس في كل بلـد من طرف إلى آخر في التسلسل الكنسي . وأملت ، منذ عصر آفنيون ، على الأكليركيين الألمان ، وبخاصة الإنكليز ، الاحتجاج على مركزية إدارية ومـاليـة تفيـد بـابـا وأصحـاب مقامات كنسية متهمين بـأنهم فرنسيون ، وأنهم يسلكون سيـاسـة ملائمـة لفرنسـا ؛ وأرشـدت أيضـاً سلوك كرادلـة يتجـابهـون في داخـل مجمـع الكرادلـة ، في فريـق فرنسي ، وفريق إيطـالي ، كان الخلاف بينهما ، في الجـزء الأعظم منـه ، مسؤولاً عن الحيدة ، واتضحت أيضـاً في التجمع في (أمم) الآبـاء الـذين حضروا المجمع . وقاد نمو الاتجاهات القومية المتعاديـة في الكنيسـة الأوسـاط الجـامعيـة إلى التفكير بأن كنائس كل بلـد لهـا (حريـاتهـا) الخـاصـة التي يجـدر الحفـاظ عليهـا حسب الأحوال ضد تجاوزات بابا (فرنسي) أو (إيطـالي) . إن الاضطرابـات التي أدت إليها الحيـدة في الحيـاة الـدينيـة ، توحي من جهـة أخرى بنتيجـة مماثلـة وهي : لتجنيب متنافسين ، أحـدهمـا سمتـه آفنيون ، والآخر رومـا ، من النزاع فيما بينهما على وظيفة واحدة ، ألا يكون الحل الأفضل سحب منح الوظـائف من البـابويـة

وتنظيم إدارة مستقلة ذاتياً لكل كنيسة ؟ وهكذا حدث بنتيجة الضرورات العملية ، كما باسم مبدأ (الحريات) انفصال في الكنائس حيال البابوية : وهذه النزعة (الاستقلالية ذاتياً) أخذت في فرنسا الاسم الخاص وهو : (الغاليكانية) . ولكن هذا التعبير ، لعدم وجود تعابير موازية ، يمكن أن يطبق على البلاد الأخرى .

شجعت السلطات السياسية هذه النزعة بقوة : إن العواهل الذين كانوا يحاولون دوماً مراقبة إدارة الأكليروس ، رأوا فيها فرصة لتوطيد إشرافهم في اختيار الوظائف الكنسية وفرض الضرائب المتزايدة على أكليروس مملكتهم . ودعمت الأوساط البرلمانية ، التي جعلت نفسها منظرة للغاليكانية ، هذه السياسة الملكية . فإذا نسب للملك التصرف بالوظائف ، فإن البرلمانات بخاصة تكون مهمتة بتوسيع صلاحياتها القضائية على كل القضايا الكنسية . وانضمام هاتين القوتين ، من جهة الغاليكانية الكنسية ، والغاليكانية الملكية من جهة أخرى ، لا يمكن اجتنابه ، والأكليروس القومي لا يستطيع أن يجد أفضل مدافع عن هذه الحريات غير الملك . وتم ذلك بفضل الجامعيين ، فقد كانوا مهيئين لتقبل هذه الأفكار بشكل ملائم بقراءة مارسيل بادوا أو غليوم أوكام . وهذان الأخيران ينتسبان ، في الواقع ، إلى نفس الأوساط البرلمانية ، واختلفا إلى نفس المدارس . وكثير من الأكليركيين يأخذون مقاعدهم في البرلمان . وظهرت هذه العملية بوضوح في إنكلترا بادئ بدء . لأن البرلمان الذي أحل ، منذ ١٣٦٦ م ، إدوارد الثالث من التزام دفع الضريبة السنوية للكرسي الأقدس ، وقطع بهذا العمل التابعية الإنكليزية حيال روما . وجاء من بعد جامعي آخر ، جون ويكليف المستشار الكنسي للتاج ، ودافع عن الحقوق الملكية على الأموال الكنسية والقضاء الملكي على الأكليركيين . ويمكن أن يشاهد التطور نفسه في فرنسا : ففي سياق القرن الرابع عشر ، حصلت خلافات عديدة في قضية السلطة بين البرلمان والكرسي الأقدس تنازع

فيها (المشرعون) وممثلو البابوية . وبطلب من شارل الخامس ، ألف أحد مستشاريه ، وهو أكليركي على ما يبدو ، كتاب (حلم البستان) (١٣٧٦ م) دعم فيه ، باسم (حقوق وحريات) كنيسة فرنسا ، أن الملك (نائب عن الله في الزمني) وله حق الإشراف على الحياة الكنسية . وأخيراً ، إن طرح الطاعة الذي أوحت به الجامعة هو أول وضع في حيز التطبيق لهذه النظريات الغاليكانية من أجل الكنيسة الفرنسية : فقد انتظمت كنيسة قومية تحت مسؤولية الدولة وبدا التحالف بين البرلمانيين والجامعيين بوضوح في هذه المناسبة : اتجهت جامعة باريس شطر البرلمان وجرّت أمامه جامعة تولوز المعادية لطرح الطاعة .

كونكوردات وغاليكانية

في الكنائس القومية التي تشكلت على هذا النحو ، تعرض النظرية المجمعية إمكان تحجيم سلطة البابا على الأساقفة ولجم المركزية الحبرية . وإذا أخفق المجمع نفسه في نزاعه ضد البابوية ، فإن جزءاً من المبادئ التي ثبتها عاشت في الغاليكانية الظافرة . إن (الأمم) الممثلة في مجمع كونستانس أجبرت مارتن الخامس ، كما لو كان ممثلاً لحكومة أجنبية ، على أن يوقع مع العواهل اتفاقات تنظم دور الدولة في الإدارة الكنسية أي (**كونكوردات**) . إن آباء كونستانس ميزوا في الواقع إصلاح الكنيسة العام ، الذي هو من صلاحية المجمع ، عن تنظيم التعاملات الخاصة في كل بلد ، الذي يجب أن ينتج عن اتفاقات خاصة بين الكرسي الأقدس والأمم . إن الكونكوردات التي وقعها البابا مع الإمبراطورية ، وفرنسا ، وإسبانيا ، وإنكلترا ومع الأبرشيات الإيطالية ، كان من نتيجتها تعيين الحقوق العائدة للبابوية والملوك في إدارة الكنائس : فلمنح الرتب الكنسية حددوا حق تحفظ البابا ووطدوا مبدأ الانتخابات الكنسية ؛ وثبتوا بالغ (مبلغ) الرسوم التي يمكن للكرسي الأقدس أن يطلبها من المستفيدين من المناصب ؛ وعينوا أخيراً حالات وكيفيات استئناف الأحكام في محكمة روما .

لم تكتف فرنسا زمناً طويلاً بنظام الكونكورداتو ، بل ذهبت إلى أبعد من البلاد الأخرى في اتجاه الاستقلال الذاتي لكنيستها بالنسبة للبابوية . إن كونكورداتو ١٤١٨ م كانت قد وقعت في عصر كانت فيه فرنسا منقسمة بالإخفاق وبنزاع الأرمانياكيين والبورغونيين ، وطبقت بخاصة في البلاد الواقعة تحت سيطرة الآنغلو بورغونيين الذين كانت سياستهم إزاء البابوية مطبوعة بالاعتدال . وإن ظفر شارل السابع كان ، بالتالي ، ظفر الغاليكانية الحارة المتحمسة . ففي ١٤٣٨ م ، دعا الملك إلى بورج مجلس أكليركيين ليفحص فيه قرارات مجمع بال . وهذا المجمع القومي ، مع قيامه بإصلاحات تتعلق بالطقوس والأخلاق ، اهتم بخاصة بتحجيم حقوق البابوية بكل دقة . ومنذ الآن فصاعداً لا يستطيع البابا مطلقاً أن يحتفظ لنفسه بمنح الوظائف الكنسية ولا مباركة المنتخب إلا في الحالة التي يوجد فيها هذا المنتخب في روما .

والاستئناف في روما لا يمكن أن يمارس إلا بعد المرور بالمحاكم المتوسطة . وحذفت الأتاوات السنوية .

رفض الكرسي الأقدس الاعتراف بقرارات بورج المجموعة تحت اسم (المؤيد الذرائعي) . ومع ذلك لا توجد قطيعة بين فرنسا وروما ، لأن الأحبار ما يزالون بعد في حالة غير مستقرة كثيراً . ومن جهة أخرى يعرف الملك كيف يستعمل حقوقه بكثير من الاعتدال . والمؤيد الذرائعي ، كالكونكوردات ، أعيد فيه النظر في النصف الثاني من القرن ، في اتجاه أكثر ملاءمة للبابوية ، ولو بقليل . فبكونكوردات أمبواز (١٤٧٢ م) اتفق لويس الحادي عشر وبيوس الثاني على تقاسم تسمية الوظائف الكنسية . وفي آخر الأمر ، اضطرت البابوية إلى القيام بتنازلات هامة للتطلعات القومية وإلى التخلي عن مفهوم وحدوي للمسيحية التي يوجهها البابا بصورة كاملة ومطلقة .

الهرطقات القومية

وبعد ، هل الكنيسة صانت على الأقل سلطتها المعنوية والروحية ؟ لقد تصاغرت هذه السلطة أولاً بإخفاق اتحاد الكنائس . إن العمل (الصك) الذي وقعه أوجين الرابع في ١٤٣٩ م مع الإمبراطور البيزنطي جان الثامن ظل حرفاً ميتاً . وأخيراً ، تركت المسيحية الغربية الأتراك يستولون على القسطنطينية في ١٤٥٣ م دون أن تقوم بأقل رد فعل . وسياسة التسامح التي سلكها الفاتحون ساعدت المسيحيين الأرثوذوكس الإغريق على متابعة السير في طريقهم الخاصة والبقاء مستقلين عن روما . وكان ذلك انهياراً قطعياً للآمال التي أثيرت في سياق القرون الماضية بالحروب الصليبية وبالتعاقدات مع القسطنطينية . وأخطر من ذلك على البابوية في الغرب نفسه ، في إنكلترا وفي بوهيميا ، نمو هرطقات (بدع) جديدة . وكما في القرن الثالث عشر ، كان الهراطقة ينتقدون ثروة الكنيسة ويجدون صدى في الجماهير الشعبية المستعدة دوماً لاعتناق مذاهبهم . ولكن هذه المذاهب كانت مجالاتها أكثر خطراً على الكنيسة الكاثوليكية من مذاهب الكاتاريين أو الفودوازيين . فقد تهيأت وتمخضت في أوساط جامعية مشبعة بضرورة إصلاح الكنيسة ، وألفت نقداً حسب الأصول للعقائد الأساسية للمسيحية الرومانية ؛ واستندت ، من جهة أخرى ، على العواطف القومية ونزعت إلى تأسيس كنائس قومية منفصلة .

أ ـ إنكلترا : ويكليف واللولارديون

استيقظت الهرطقة أولاً في إنكلترا بدفع من جون ويكليف . كان هذا الجامعي متأثراً منذ شبابه بأفكار الفرنسيسكان الروحية . دعي لخدمة الملك ليسوي بصفة خبير منازعات العاهل مع الكرسي الأقدس . وتوصل إلى دعم الحقوق الملكية على الأموال الكنسية ، والسلطة الملكية على الأكليركيين . وهذه

الأفكار التي نودي بها علناً أثارت قلق غريغوار الحادي عشر الذي فاتح بـه أسقف كانتربري .

ولكن الـدعوى التي أقيمت عليـه أمـام محكمـة كنسيـة انتهت بتحـذير بسيـط أسقفي (١٣٧٧ م) بفضل الحمايات السيـاسيـة التي يتمتع بهـا . وعنـدمـا انفجرت الحيدة الكبرى (١٣٧٨ م) توصل بهـا ويكليف إلى إدراك إمكانيـة الاستغنـاء عن البابا من أجل الكنيسة .

وأكثر من هـذه القـوميـة الكنسيـة ، أن (الإنجيليـة) غلبت ، على فكر ويكليف منـذ زمن طـويـل : فقـد نصب نفسـه مصلحـاً روحيـاً . وفي الكنيسـة الإنجيليـة التي يسميهـا حسب رغبتـه ، الكهـان سواسيـة ويضربون المثل في الفقر (الكهنة الفقراء أو اللولارديون) وعليهم أن يقتصروا على التبشير والوعـظ . وفي الواقع ، إن الحيـاة الـدينيـة كلهـا يجب أن تؤسس على قراءة وعلى تفسير الكتـاب المقدس الذي بـدأ بطلب ترجمتـه إلى الإنكليزيـة . وعبـادة العـذراء والقـديسين ، كالحـج ، هي أشكال تقـوى زائـدة وقـابلـة للشجب والـذم .. وفي مـوضـوع الأفخارستية ، عَلَّم ويكليف مذهباً قريباً من المذهب الذي سيعلمه مـارتن لوثر : وهو أن حضور يسوع المسيح في الأفخارستيـة يتعـايش مع جوهري الخبز والخمر ؛ أو بتعبير آخر إن الجوهر الإلهي يتعايش مع جوهري الخبز والخمر .

وعند ثورة الفلاحين ، الـذين قـادهم وات تيلر (١٣٨١ م) ، دافع ويكليف عن المتمردين . وهـذا المـوقف حجب عنـه أفضـال التـاج . وحكم من جـديـد على مـذهبـه بـالبطـلان ، وفي هـذه المرة بشـدة قـويـة جـداً من قبـل مجمع إنكليزي (١٣٨٢ م) . ولكنـه توفي في ١٣٨٤ م دون أن يقلـق . وجـدد مجمع كـونستـانس الشجب ، وأمر بأن تنبش رفاته وتلقى خارج الأرض المسيحية ١٤٢٨ م .

استؤصلت الهرطقة بسرعـة من الأوسـاط الجـامعيـة ، ولكنهـا انتشرت تحت

شكل مبسط في جماعـات صغيرة من الفلاحين أو من الحرفيين وأخـذوا اسم الفقراء (اللولارديين) .

ولاحق البرلمان والملك هؤلاء اللولارديين الـذين يحلمون بـإنجيليـة وبكنيسـة إنكليزيـة منشقـة . وأوقف كبـار زعمـائهم وأحرقـوا قبـل ١٤٢٧ م . ولكن فكرة كنيسة إنكليزية لم تمت معهم .

ب ـ بوهيميا : جان هوس

وفي بوهيميا كان زعيم الحركـة الهرطقيـة جـامعيـاً أيضـاً ، جـان هوس ، من براغ . وأفكاره قريبة تقريبـاً من أفكار ويكليف ، وتـأثر بهـا بواسطـة صـديقـه جيروم دو براغ . ومع ذلك كانت أقل هرطقة بصراحة . كان هوس ينتقد بخاصة مفاسد الكنيسة ، ويرجو العودة إلى الطهارة الإنجيليـة ، وقراءة الكتـاب المقـدس الذي طلب ترجمته إلى التشيكية يجب أن تكون وسيلتها . أمـا المنـاولـة بعرضيهـا الخبز والخمر (الأتراكية) فهي الرمز الذي سيطالب به تلاميذه بخاصة .

وشجب أحد البابوات الثلاثة القائمين على الوظيفة آنذاك ، وهو جان الثالث والعشرون ، الأستاذ البراغي ، فما كان منه إلا أن استغاث بالزعيم الحقيقي الوحيد للكنيسـة ، يسوع . وقبل أن يـأتي ويـدافع عن أفكاره أمـام مجمـع كـونستـانس ، ودون مراعاة تصريح المرور ، الـذي منحـه إيـاه الإمبراطور سيجيسمونـد ، أدين وأحرق في كونستانس في الوقت الذي أحرق فيه جيروم دو براغ (١٤١٥ م) .

أثار موته قيام غالبية الشعب التشيكي . واتضح عنف النزاع بالصفة القوميـة والاجتماعية التي أخذها في الحال . قـام التشيكيون ضـد الألمـان المقيمين في بوهيميـا حيث أصبحوا سادة قسم من الأراضي والتجارة . وطرد الهوسيون الأساتذة الألمـان من جامعة براغ ، وأعطوا لمذهبهم صفة قومية . وثـار الحرفيون والفلاحون أيضـاً

ضد الملاكين وكبار التجار تحت قيادة زعماء مثل جان زيسكا وپروكوب الكبير وكانا ثوريين حقيقيين .

وضد الثائرين التشيكيين ، وبخاصة الطابوريين[1] الذين انتظموا في جمهورية مساواة وطهرانية ، أطلقوا هجومات حتى ألمانيا الوسطى ، وكان على البابوات والأباطرة أن يقوموا بكفاح طويل وصعب . وأخيراً غلب الهوسيون على امرهم ، ولكن مجمع بال أخذ طلباتهم بعين الاعتبار .

سمح آباء بال بممارسة الأتراكية في الكنيسة التشيكية .

ويبدو أن وحدة الكنيسة الكاثوليكية قد رجعت تحت إدارة روما الروحية . ولكن الإصلاح لم تحققه البابوية . ولا يمكن أن يتحقق نهائياً إلا خارجاً عنها وضدها ، في إطار الكنائس القومية المنشقة .

---

(١) بالنسبة إلى حصن طابور في بوهيميا .

الفصل السادس

الحرب تمزق أوربة

أمام قوة الفتح التي كان عليها الأتراك العثمانيون الذين انتزعوا قسماً من البلقان ، كانت أوربة ، بين بداية القرن الرابع عشر ومنتصف القرن الخامس عشر ، فريسة تشنجات سياسية فظيعة تنذر بأفولها . وبالرغم من التهديد الذي أثقل به إسلام آسيا على الغربيين ، كانوا غير قادرين على الاتحاد فيما بينهم . فلم تكن لديهم عاطفة الانتماء لأسرة أو مجموعة . وأي فكرة ، وأي سلطة يمكن أيضاً أن تجمعهم ؟ الإمبراطورية منفصمة منذ سقوط فريديريك الثاني ، ولم تكن أكثر من حلم حنين عند بعض الطوبائيين . والبابوية ، في مسيحية مزقها الانقسام ، لا يمكنها أن تلعب دور الحكم الأعلى . وكانت قوى الانقسام متفوقة ، والحروب تشن بين البلاد الأوربية . وفي داخل كل منها كانت الحروب تتضاعف بالمنازعات الأهلية : من ثورات كبار الإقطاعيين ، والفتن البورجوازية ، وقيام الفلاحين يبدو أنها كانت تفسد دونما شفاء الجهود التي قام بها العواهل في الي القرون السالفة لتوطيد السلطة الملكية ، وبدت الفوضى ظافرة .

في هذا التاريخ المنكوب ، بتشابك حوادثه المبهمة ، والمتناقضة في الغالب ، تقرأ ، مع ذلك ، الخطوط الكبرى لتطور أوربي . لأن الاضطرابات التي هزت أوربة ، في القرن الرابع عشر ، لم تكن آخر تشنجات النزاع قبل الموت ، ولكن آلام استحالة أصبحت بموجبها الأمم والملكيات الإقطاعية دولاً حديثة . لقد شعر

الغرب ، في الصعيد السياسي ، بأزمة تكيف شبيهة بالأزمة التي أحدثت الاضطراب في حالته الاقتصادية .

وفي عمل التجمع السياسي الذي قام به ، منذ القرن الثاني عشر ، الأمراء والملوك كانت نبتة فكرة جماعة قومية واقعة في منتصف الطريق بين الآفاق المحدودة في الحياة اليومية ، وأرض سلطة القصر أو أسوار المدينة ، والآفاق الواسعة جداً ، للمسيحية بكاملها . إن المحن التي حلت بأوربة ، منذ بداية القرن الرابع عشر ، وأظهرت تضامناً ومعارضة لم تعين أسباباً جديدة للخلاف فحسب ، وإنما ساعدت أيضاً العاطفة القومية على التبلور ، وأعطتها محتوى محسوساً مشخصاً . ففي أوربة التي يعيث فيها الركود ، وحدت المصلحة سكان البلد الواحد لحماية الإنتاج القومي أمام التجار الأجانب الذين ظهروا على مسرح الحياة منافسين . وهكذا رافق النهوض الاقتصادي ، في إنكلترا ، حركة تكره البشر : ففي لندن نهبت حوانيت الإيطاليين والألمان ؛ وطالبت رسائل الحكومة برصد وثيق للفاعليات التجارية ، بل وتدمير الأسطول البروتوني والنورماندي « ليتمكن التجار الإنكليز من السيطرة على البحار » .

وفي داخل المسيحية المنقسمة ، كان على الأكليركيين والمؤمنين ، هنا وهناك ، أن يختاروا بين بابا وآخر . وفي هذا الخيار أيضاً ، كان البلد يتجمع في الغالب . وهكذا نشأت نعرات دينية ، وأصبحت الكنيسة الأجنبية تقاوم الكنيسة القومية ككنيسة حائدة . وأخيراً أنجزت اللغات القومية تشكلها . وانتهت فرنسية باريس بفرض نفسها على كل الأرض الفرنسية ، في الوقت الذي بدأت تهجر من قبل الطبقات الموجهة في إنكلترا . وفي الحقيقة إن التكلم بلغة ، كأن تكون ألمانية ، تشيكية أو إيطالية ، إنما يعني مشاركة كل الذين يستعملونها وسيلة واحدة للتعبير في أشكال واحدة في الحس وفي التفكير .

وفي كره واحتقار الأجانب في الحروب التي تغذيها هذه العواطف ، وفي وسط النوائب والآلام ، ترى إيجابية العواطف القومية .

ومن يقظة التضامنات القومية إلى تشكيل الأمم ، تبقى خطوة يجب اجتيازها . ولكن الحركة لم تبدأ إلا في بعض بلاد أوربة ، واصطدمت فيها بقوى معاكسة ، ولم تظفر عليها إلا بمشقة : لأن الحرب الأهلية ليس لها أصل آخر غير البلد الذي تنشأ وتحدث فيه . ولتوجد الأمة ، عليها أن تثبت وجودها في إطارها الجغرافي وفي ظرفها السياسي . وفي بداية القرن الرابع عشر ، ظهرت الكلمة (حدود) لأول مرة ، مستعملة في معناها الحالي . ولم يتضح ترسيمها بعد . ومع ذلك وجد من المستحسن الإشارة إليها بصلبان وبأحجار كيلومترية . وزالت الثغور ، هذه المناطق غير المستقرة التي كانت تفصل قديماً البلاد المتجاورة . حتى أن الفكرة نشأت من تحديد دومينات بحرية ؛ وكان الفلاماندييون أول من فرضوا الاعتراف بمياههم الأرضية بنطاق عرضه عشرون كيلومتراً على طول السواحل .

وهكذا أمكن نصب حواجز حول كل بلد ، وأصبحت حواجز جمركية بسيطة في زمن السلام ، وخطوط دفاع في زمن الحرب .

وهذه الحدود التي تطبع حدود النفوذ السياسي للدول ، لاتنطبق دوماً ، مع مانسميه أمماً ، بل بالعكس ، في كل أوربة الوسطى والجنوبية ، توجد نعرات سياسية مندفعة جداً تقاوم التجمع القومي . إن ألمانيا وإيطاليا المنقسمتين إلى عدة إمارات صغيرة ، لاتعرفان في الواقع من القومية إلا ميلاً عاطفياً يعبر عنه أحياناً في الأدب وبعض ردود فعل الكراهية حيال السلاڤيين والفرنسيين . وأقوى من ذلك بكثير في الأفكار وفي القلوب ، تكون الأطماع والمنافسات التي تقيم المدن بعضها ضد بعض في إيطاليا الشمالية . وتثير في ألمانيا الأمراء بعضهم على بعض . وكذلك لاتوجد قومية واحدة وإنما قوميات إيبرية تطرح بعضها ضد بعضها الآخر من كاتالانيين ، آراغونيين ، قشتاليين ، ناڤاريين .

وفي أوربة الغربية ، بالمقابل ، يبدو أن التطور أكثر تقدماً : ففي فرنسا كما في إنكلترا ، تمت الوحدة القومية حول سلالة . واختلط الولاء حيال العاهل مع الوطنية (حب الوطن) ، كما يبرهن على ذلك هذا الصراخ من الألم الذي انتزع من قناصلة مدن إقليم كيرسي عندما علم هؤلاء التخلي عن إقليمهم إلى ملك إنكلترا (١٣٦٠) .

إن الخلاف السلالي الذي تقابلت به فرنسا وإنكلترا كان خلافاً قومياً . ومع ذلك ، وحتى في هذين البلدين ، يرى أن الوحدة التي يجسدها العاهل لم تظفر دون صعوبات . وفيما الحرب تنعش ، في قلوب العديد من الرعايا ، الولاء حيال ملوكها ، نراها تجبر الأمراء على اتخاذ تدابير غير شعبية عندما تكون الموارد التقليدية التي يتصرفون بها غير كافية : مثل الخدمة العسكرية الواجبة على الأتباع إزاء أميرهم للدفاع عن البلد (الجيش) ، أي الخدمة العسكرية الإقطاعية ، وموارد الدومين ، لا تسمح لهم بتحقيق انتصارات حاسمة ، والعمليات تتباطأ طويلاً ، ولذلك كانوا يلجؤون عندئذ إلى تدابير استثنائية وجديدة ، كالضريبة ، والقرض الإجباري ، الواسطة الوحيدة لتجنيد المرتزقة المتطوعين . ولكن البنيات الاجتماعية التي تتحول ببطء لا تتكيف مع هذا النمو المفاجئ للسلطة الملكية . ولم تزل الإقطاعية : ولذا يرى نبلاء جزعون من هذه السلطة يستنجدون بعاهل أجنبي وبقدر من السهولة حتى أن الملك ليس في نظرهم رئيس الدولة بل سيداً ومن حقهم تحديه . وأكثر خطراً أيضاً على الوحدة القومية المغامرة الشخصية لبعض الأمراء ، فقد كانت شوكتهم (سلطتهم) قديمة وعظيمة بشكل كاف لمقاومة الأزمة الاقتصادية ، التي دمرت الطبقة النبيلة الصغيرة ، أو أنها تشكلت بكاملها على يد ملوك أوجدوا عن طيش إقطاعات وقفية . وحاول هؤلاء الأمراء خلق دول منفصلة في داخل الأمة : ففي فرنسا قام أدواق بورغونيا بإعطاء دومينهم قوة وتلاحماً ونجحوا في ذلك حتى أن اللفظ (بورغونيون) توصل إلى مقاومة (فرنسيون) . وكان على السلطة الملكية أن تحسب حسابها

أيضاً تجاه قوة أخرى ، وهي البورجوازية . فالملوك الذين كانوا بحاجة إلى الدعم المالي وخبرة البورجوازيين ، لم يترددوا منذ القرن الثالث عشر في أن يؤمنوا لأنفسهم مساعدة هؤلاء البورجوازيين لإدارة البلد ، ولكن بفضل المصاعب المالية والخسائر العسكرية ، كان البورجوازيون ، المثلون في مجلس المملكة العام في فرنسا ، وفي البرلمان في إنكلترا ، يريدون السيطرة على الملكية وإصلاحها : فإلى الثورات الإقطاعية المتجهة نحو الماضي تجيب الثورات المدنية التي كانت خطرة أيضاً على سلامة الوحدة القومية .

وعبر أزمات وحروب هذا القرن ونصف القرن ، تحولت أوربة . وكانت نتائج هذا التطور بخاصة محسوسة في فرنسا وإنكلترا : ففي حرب المئة عام ، حلَّ البلدان بمشقة الروابط الإقطاعية التي تربطهما وتشكلا في ملكيتين قوميتين . وفي باقي أوربة تتابع عمل بطيء وتحتي من التنظيم السياسي ظهرت نتائجه في الآجل البعيد .

١ ـ فرنسا وإنكلترا : حرب المئة عام

لقد اعتبر المؤرخون المحدثون أن الخلاف الذي افتتح في ١٣٣٧ م بين ملك فرنسا وملك إنكلترا لم يجد حله إلا في معركة كاستيون ، في ١٤٥٣ م ، ولذلك نحتوا التعبير (حرب المئة عام) .

وحقيقة القول إن الأسباب لا تعوز لنقد هذه التسمية : مئة عام ، هذا قليل كثيراً ، إذا رأينا أن الحروب التي دارت في القرن الرابع عشر وفي الخامس عشر ليست إلا خاتمة خلاف إقطاعي قاوم فيه ، منذ القرن الثاني عشر ، العواهل الإنكليز سيدهم ، ملك فرنسا . وبالمقابل إذا تصورنا العمليات من وجهة نظر عسكرية دقيقة ، وجب الاعتراف بأنها لم تمتد على قرن ، ولكنها لولا الهدنات ومعاهدات السلام ما كانت لتمتد ، أكثر من خمسين سنة .

ومع ذلك ، فإن التعبير (حرب المئة عام) له الفضل في الإشارة خلال قرن إلى أن تطور فرنسا وإنكلترا كان يسيطر عليه خلاف لم يعبر عنه باستمرار بأعمال أسلحة ، ولكنه انعكس ، بشكل مستمر ، على الحياة الداخلية في البلدين : بالنسبة لفرنسا كانت المشكلة حياتية . فهل ستكون تحت نفوذ سلالة إنكليزية ولا تؤلف إلا دولة واحدة مع بريطانيا العظمى ؟ وارتهن مصير إنكلترا أيضاً أكثر مما يبدو : لأن المملكة الجزيرية الصغيرة اضطربت بعمق بجهود الحرب في بنيتها الاجتماعية والسياسية .

وكان هذا الخلاف خصباً بالخسائر والنكبات المسرحية ، وبالإصلاح غير المنتظر ، وبالنهوض غير المتوقع . وغير الفوز المعسكر أكثر من مرة ، كما أن الأزمات الداخلية تأتي في الغالب فتفسد النصر المؤزر على ساحة المعركة .

ومن الممكن أن نعتبر أن الدرامة مثلت بثلاثة فصول :

المرحلة الأولى : بدأت الحرب بالنسبة لفرنسا تحت مؤشر هزيمة عسكرية ، ويخيل أنها انتهت في آخر حكم شارل الخامس ، المتوفى عام ١٣٨٠ م ، بنصر فرنسي ، شامل تقريباً .

المرحلة الثانية : امتدت من ١٣٨٠ إلى ١٤٢٢ م ، وفيها مزقت الحروب الأهلية كلاً من البلدين ، وسيطرت بادئ بدء ؛ ولكن إنكلترا بعد أن تجاوزت أزمتها الداخلية ، سحقت فرنسا التي زالت ، كوحدة قوية من الخارطة السياسية .

المرحلة الثالثة : وفيها انتظمت المقاومة الفرنسية للسيطرة الإنكليزية بفضل جانّ دارك وظفرت مع شارل السابع بينما وقعت إنكلترا في حرب الوردتين الأهلية الفظيعة .

فرنسا وإنكلترا في مطلع القرن الرابع عشر

أ ـ أسباب الخلاف

في أي الظروف اشتعلت الحرب من جديد بين فرنسا وإنكلترا بعد أن تقاتلتا مراراً في القرون السابقة ؟ هل السبب الأساسي للخلاف هو السبب نفسه الذي تحارب من أجله الفرنسيون والإنكليز مرات عديدة ، منذ أن اعتلى هنري بلانتاجونه المالك للجزء الأكبر من غرب فرنسا ، عرش إنكلترا في ١١٥٤ م ؟

بين التابع والسيد اللذين أصبحا منذ الآن متساويين في السلطة وفي المنصب ، من الصعب أن تبقى علاقات الارتباط التبعي كما كانت من قبل : لقد كان ملك إنكلترا يحاول أن يزحزح رابطة التبعية التي كانت تثقل على دوميناته القارية ؛ وكان ملك فرنسا مهتماً بانتزاع الممتلكات الفرنسية من العواهل الإنكليز . ومع ذلك ، وبعد قرن ونصف من النشاط العسكري والدبلوماسي (الحرب الأولى للمئة عام) ، على عتبة القرن الرابع عشر ، لم تتغير أحوال المشكلة بالرغم من أن المعطيات قد تبدلت نوعاً ما بعض الشيء . وفي الحقيقة ، إن انتصارات فيليب أوغست انتزعت من السيطرة الإنكليزية إقليم آنجو ، والتورين ، والمين ، والنورماندىا ، ولكن ملك إنكلترا يملك دوماً على القارة منطقة الغويّن التي أضيف لها إقليم بونتيو التي كسبها الملك إدوارد الأول بزواجه .

وفي الواقع لا القديس لويس ، ولا فيليب الجميل وصلا بسياسة أوائل الملوك الكابسيين حتى نهايتها : لقد كانا غالبين أيضاً على ساحة المعركة ، ولكنهما اختارا موقف المصالحة . وفي معاهدة باريس (١٢٥٩ م) حاول لويس التاسع أن ينهي الخلاف ، ولكن على أساس العلاقات التابعية نفسها : فقد أرجع إلى هنري الثالث الغوين شريطة أن يعترف هذا الأخير بأنه تابعه ؛ وقلده فيليب الجميل ، في

١٣٠٣ م ، وحاول أن يعزز الروابط التابعية بروابط زواج ، فقد زوج ابنته إيزابل الملك إدوارد الثالث في المستقبل . وهذا الحل يتطابق وعقلية العصر ، ولكنه لا يمكن أن يأتي إلا بمهلة مؤقتة . فمنذ حكم شارل الرابع الجميل (١٣٢٢ - ١٣٢٨ م) استؤنفت الحرب إثر حادث حدود في الغوين ، وفي ١٣٢٧ م ، اضطر الإنكليز إلى التنازل عن منطقة البازاديه والآجنيه .

وابتداء من ١٣٢٨ م ، أضيفت ، إلى الخلاف الإقطاعي ، عناصر خلاف سلالي . فمن هوغ كابت (٩٨٧ م) إلى الماحك المشاجر (١٣١٤ م) ، كان من حظ الملوك الكابسيين أن يكون لهم ولد يخلفهم على العرش ، ويبدو أن ذريتهم بدأت تنضب منذ ١٣١٦ م . وفي هذا التاريخ توفي لويس العاشر الماحك ولم يترك غير بنتين . غير أن أخاه البكر أبعدهما واعتلى العرش تحت اسم فيليب الخامس (الطويل) . واعترف مجلس من البارونات والوجهاء ، مجلس المملكة ، وبارك الأمر الواقع . وهكذا وجدت سابقة تجنب النساء عن عرش فرنسا . ومن بعد في الآجل أتي على ذكر قانون قديم للفرنجة الساليين ، **القانون السالي** ، لتبرير مالم يكن ، في الواقع ، إلا قراراً ذرائعياً . وعلى كل حال خلف شارل الرابع (الجميل) ثالث أولاد فيليب الجميل أخاه في ١٣٢٢ م . ولكن عندما توفي في ١٣٢٨ م ، إذا استثنينا الرجاء الخائب بسرعة لولادة وارث بعد وفاة أبيه ، لا يوجد ولد ولا أخ ليكون خلفاً . وكان من الممكن لثلاثة وارثين بعيدين أن يدعوا بالعرش . وكان أقربهم حفيداً لفيليب الجميل من أمه ، وهو ملك إنكلترا الشاب إدوارد الثالث . وكان لأخ فيليب الجميل ، ولدان : فيليب دو فالوا وفيليب إيفرو ، الأول أكبر سناً وموقعه في الخط الوراثي أفضل ، وهو الوحيد الذي يمكن أن يكون بحق منافساً لإدوارد الثالث . هذه هي القضية التي يجب أن يفصل بها البارونات والوجهاء المجتمعون في ١٣٢٨ م .

وهكذا احتفل بفيليب دو فالوا ملكاً ، وانتقل تاج فرنسا من الكابسيين

المباشرين إلى الڤالويين . إن تقويم جان دو فونيت يرينا بوضوح ماالذي قرر اختيار البارونات : لقد وضعت الحجة الحقوقية في الأمام ؛ ولكن العاطفة العميقة التي أملت القرار القطعي ظهرت ، لقد سمي الفالوي (لأنه ولد من المملكة) .

استاء ملك إنكلترا لسببين . فقد كان من المنتظر أن يرفض الاعتراف بفيليب السادس وسيده والملك الشرعي لمملكة فرنسا . ومع ذلك لم يحدث شيء مباشرة : لأن إدوارد الثالث الذي كان آنذاك شاباً واصطدم بمشاكل خطيرة في حكومة إنكلترا ، قدم احترامه لفيليب السادس عن الغوين ، في ٦ حزيران ١٣٢٩ م ، في كاتدرائية آميَنْ . حتى أنه اعترف في رسالة ١٣٣١ م بأن الاحترام الذي يربطه هو احترام طاعة وثيقة وولاء وليس ولاءً بسيطاً . وهل كان ذلك منه سياسة تخل وتنازل أو تدبيراً مؤقتاً خاصاً لكسب الوقت ؟ من الصعب معرفة ذلك . وفي الواقع ، إن المبادرات الفرنسية هي التي دفعته إلى الدخول في الحرب : لقد استأنف فيليب دوڤالوا التدخلات في الغوين ، مثل أواخر الكابسيين ؛ ومن جهة أخرى ، كان يكيد مع أعداء إدوارد الثالث ، وهم الإيكوسيون . وعندما قرر فيليب القبض على الإقطاعة الأكيتانية (أيار ١٣٣٧ م) ، أرسل إليه ملك إنكلترا تحدياً ، وهذا يعني في اللغة الإقطاعية ، إعلان القطيعة وحرب التابع للسيد . ولكن في الوقت ذاته ، كان عنده من المهارة ماجعله يطرح على بساط البحث قضية الإرث في ١٣٢٨ م ، مطالباً بعرش فرنسا لنفسه (تشرين الأول ١٣٣٧ م) . فهل كان يزعم بحق أن يلبس التاج الفرنسي ؟ لقد كان يأمل أن يطالب بالتنازل عن العرش مقابل سيادته التامة على الغوين .

ب ـ القوى العتيدة

أ) المالك

إذا تردد ملك إنكلترا طويلاً قبل أن يعلن الحرب ، وإذا انتظر أيضاً عدة أشهر قبل القيام بالعمليات العسكرية ، وإذا ، بالعكس ، بدا ملك فرنسا قليل الاهتمام بمداراة تابعه ، فذلك لأن فرنسا ، في بداية القرن الرابع عشر ، ظهرت أقوى من إنكلترا . كان فيليب السادس سيد مملكة عدد سكانها من ١٢ إلى ١٥ مليون نسمة ، ويمكن أن تجهز ما يقارب ١٥٠٠٠ رجل لجيشه ، والاقتصاد الفرنسي مزدهر أيضاً . فإلى إنتاج الأرياف التي زالت الغابات منها جيداً ، يضاف نشاط المدن الجوخية (المنتجة للأجواخ) في الفلاندر والآرتوا ، وتجارة الموانئ الأطلسية التي تجهز ، مثل بورغنوف ، بالملح بلاد أوربة الشمالية وموانئ البحر المتوسط ، التي تستورد إنتاجات شرقية ، دون أن تنافس موانئ إيطاليا .

وشع تأثير الأدب الفرنسي والفن الغوطي ، وجامعة باريس في كل أوربة المسيحية التي كانت فيها باريس ، بنحو ١٠٠٠٠٠ نسمة تمثل أكبر مدينة . وإلى جانب فرنسا القوية والغنية ، كانت إنكلترا وجهاً صغيراً جداً : كانت مملكة إدوارد الثالث تقتصر على القسم الجنوبي وحده من بريطانيا العظمى . وبلاد الغال ، الخاضعة منذ آخر القرن الثالث عشر فقط ، بقيت ملحقاً خارجياً يحافظ على نظامه في أسر وقبائل ، وعلى أعرافه في إطار وقف خاص تشكل منذ ١٣٠٠ م لصالح ابن بكر للملك ، أمير بلاد الغال (ويلز) . وعادت إيرلنده مستقلة عملياً إذا استثنيت منطقة دبلن . وبخاصة إيكوسيا الثائرة تحت إدارة روبرت بروس الذي توج ملكاً في ١٣٠٦ م ودحر ، منذ ذلك الحين ، جميع الحملات الإنكليزية . ولذا امتدت سلطة إدوارد الثالث على صعيد جغرافي أقل

من مساحة فرنسا بمرتين ، وسكانه من مليونين ونصف إلى ثلاثة ملايين ونصف نسمة ، وهذا يعني أقل بثلاث أو أربع مرات من سكان فرنسا . ومن جهة أخرى ، هي بلد شبه زراعي حصراً . وتجارة الصوف ، ثروتها الكبرى ، في الجزء الأعظم ، في أيدي الأجانب ، إيطاليين وهانسيين . ولندن هي المدينة الكبرى الوحيدة ولم يكن سكانها أكثر من ٤٠٠٠٠ نسمة .

ب) العواهل

والفرق في السلطة بين عاهلي البلدين كبير أيضاً كما تشهد على ذلك بداية الحكم .

توصل إدوارد الثالث إلى السلطة في ظروف حرجة (١٣٢٧ م) ، ففي ١٣٢٦ م ، أجبر البارونات الثائرون أباه الملك إدوارد الثاني ، على التنازل عن العرش ، ووجدت على رأسهم أسرة اللانكاستر ، وأيضاً زوجة الملك الخاصة ، إيزابل فرنسا وعشيقها مورتيمر . وبعد هذه الحوادث ، توج إدوارد الثالث ولكن واقعية السلطة خارجة عنه . ولحسن حظه ارتكب خصومه أخطاءً . منذ أمر مورتيمر بقتل إدوارد الثاني العجوز في سجنه وجعل منه شهيداً وضم أنصاراً مخلصين متفانين لقضية ابنه . وسئم آل لانكاستر من جشع المحظي فتقربوا من إدوارد الثالث . وفي تشرين الثاني ١٣٣٠ م ، أوقف مورتيمر ، وحوكم وأعدم . ونفيت إيزابل . وأصبح بإمكان إدوارد الثالث أخيراً أن يأخذ الحكم بيده .

وفي هذه الظروف يفهم أن العاهل الإنكليزي لم يقدم ترشيحه لتاج فرنسا في ١٣٢٨ م ، لأن سلطته في ذلك التاريخ في إنكلترا نفسها لم تتأمن بعد . ولما أصبح سيداً غير منازع لمملكته لم ينته من المشاكل الداخلية . لأن الإيكوسيين ، الذين أبرمت معهم هدنة في ١٣٢٣ م ، أفادوا من الاضطرابات لمعاودة الحرب . وإن سياسة مورتيمر التي يرثى لها اضطرت الملك الشاب إلى التخلي ، في ١٣٢٨ م ، عن

كل حق سيادة على إيكوسيا ، وإلى الاعتراف بـ (روبرت بروس) ملكاً لهذا البلد . وفي ١٣٣٠ م ، قرر إدوارد الثالث أن يأخذ من جديد الوضع على عاتقه . كان عمر هذا الشاب ١٨ عاماً ولا يتكلم الإنكليزية ، ويشبه كثيراً ابن خاله الفالوي : وهو مثله مأخوذ بالمثل الأعلى الفروسي ولم يكن أيضاً عاهلاً واقعياً ، كما وصف غالباً ، إلا في آخر حكمه . كان يسر بتنظيم مباريات في بلاطه ، ويحلم غالباً بالحروب والمغامرات البعيدة . وسنحت له الفرصة بحوادث إيكوسيا . فعند وفاة روبرت بروس الذي ترك ابناً عمره خمس سنوات ، ثار أنصار إنكلترا وتوجوا إدوارد بوليول (أيلول ١٣٣٢ م) الذي قدم ولاءه لإدوارد الثالث . ولكن بوليول (ملك شتاء واحد) طرد بعد بضعة أشهر . وابتداء من ١٣٣٣ م ، استشرى إدوارد الثالث ، في عدة حروب ، لاسترداد إيكوسيا . وفي آخر ١٣٣٦ م استطاع أن يؤمن لنفسه السيطرة على الأراضي الدنيا والساحل الشرقي ، أي على المناطق الحيوية . ومع ذلك تخلى عن البلاد ، واحتلها المنشقون ثانية ، وكان هذا التخلي منه لانشغاله في شؤون القارة : لأن التدخل الفرنسي في الشؤون الإيكوسية جعله يخشى حلفاً خطيراً بين المتردين الإيكوسيين وفرنسا . وللدفاع عن فتوحاته الإيكوسية ، كان عليه أولاً أن يجنب الخصم الفرنسي . وجرَّ بلده في نزاع لم يتصور أبداً مدى سعته .

أما فيليب السادس فقد كانت بداياته ألمع بكثير . كان فارساً مندفعاً . وقد قال عنه المؤرخ فرواسار : إنه يعتقد أن النصيحة جنون . وبدا أنه سعيد في أعماله السياسية الأولى . ودشن حكمه بجولة منتصرة في الفلاندر ؛ فمنذ حكم فيليب الجميل ، كانت هذه الإمارة التابعة بؤرة اضطراب : فمن ذلك أن المدن الفلاماندية زبونة الصوف الإنكليزي من أجل مشاغلها اضطرت أن توحد مصالحها مع إنكلترا كما في ١٣٠٢ م . ومن جهة أخرى ، إن سياسة ملك فرنسا ، حليف الطبقة النبيلة والبورجوازية العليا ، أثارت أيضاً غضب الشعب الفلاماندي الذي كان قد دلَّ في

كورتره على ما يستطيع عمله ضد الفروسية الفرنسية . ومنذ ذلك الحين ، وطّد ملك فرنسا الوضع في الفلاندر ، ولكن الشعب سحقته الغرامات الثقيلة التي يجب عليه دفعها . وفي ١٣٢٨ م ، ثارت أيضاً ضد الكونت لويس الذي دعا لنجدته سيده ملك فرنسا . وضد من يسميه الفلاماندبون (ملك موجود) ، دافع الفلاماندبون بشجاعة . وسحق الثائرون في ٢٣ آب ١٣٢٨ م في كاسّل وقتلوا دونما رحمة . وحقق الملك بذلك جاهاً عسكرياً أكيداً ، ولكنه أثار إلى الأبد نفور المدن الفلاماندية . وكما ظهر فيليب السادس فارساً منتصراً فقد ظهر أيضاً في مجد الملك قاضياً عادلاً بمناسبة دعوى روبير دآرتوا . فقد طرد هذا الأمير بموجب عرف إرث آرتوا ، وبدسائس في البلاط نال ثقة الملك ، وظهر بأنه يستطيع توطيد وضعه : وبوثائق منتحلة من كل نوع ، ومساندة شهود زور أقام دعوى على عمته ، الكونتس ماهو . غير أن هذه ، عندما لاحظت التدجيل ، دست له السم سراً . ومع ذلك لم يكف هذا لتجنب الفضيحة . فقد استطاع روبير أن يهرب ولكن ملك فرنسا استشرى على أسرته البائسة بشدة عاطفية أكثر منها عاقلة . وهنا أيضاً ، كان النصر ، الذي أحرزه العاهل ، نصراً مسرحياً للعدالة على الجريمة ، ومليئاً بالمرارة ؛ لأن الطبقة النبيلة التي رفعته إلى السلطة انقسمت بقضية آرتوا .

عندئذ ضغط روبير آرتوا على إدوارد الثالث لتثبيت حقوقه على تاج فرنسا .

ولكن حقد الفلاماندبين ، حقد جماعة روبير دآرتوا ، كان في حساب فيليب السادس شيئاً قليلاً . فبين ١٣٣٠ و ١٣٣٦ م ، أخذ وجه حكم في أوربة . وفي ١٣٣٢ م جمعت أعياد كومبين فرساناً أتوا من كل أوربة .

وفي الوقت ذاته ، فكر فيليب السادس أن يترأس حرباً صليبية دولية في الشرق . ولذا يمكنه أن يذل ابن عمه الإنكليزي وإجباره على أن يعترف بأنه تابع

له تبعية ولاء وتفان ، وأن يطلب في ١٣٣٣ م من إدوارد الثالث أن يجنح للسلم مع الإيكوسيين ، وأمام رفضه ، أن يعد هجوماً على إنكلترا بنقل الأسطول المعبأ للحرب الصليبية من مارسيليا إلى نورمانديا .

جـ) الجيوش

كيف يشك ، في هذه الظروف ، بأن قدرة فرنسا العسكرية المتفوقة اقتصادياً وسياسياً على منافستها لاتستطيع الغلاب والنصر في هذا النزاع ؟ ولكن إذا كان ملك فرنسا يستطيع أن يضع في خط القتال عشرة أو خمسة عشر ألف رجل ، فإن جيشه يكون دوماً جيش فرسان ، بأجهزة ثقيلة ، يقاتلون بطرق تقليدية ويحتقرون جيش المشاة . وبسرعة نسيت كورتره بعد نصر كاسل السهل . وبالعكس ، إن المشاكل التي لاقاها أدت بملك إنكلترا إلى إعادة النظر في طريقته التعبوية (تكتيك) : فقد أخذ عن خصومه الغاليين والإيكوسيين طرقهم في الكفاح . وبنبالته وفرسانه المسوقين من بين الجبليين الغاليين ومرتزقة البلاد المنخفضة الذين أضيفوا إلى فرقة المجندين الإقطاعية ، شكل الجيش الإنكليزي جيشاً حديثاً .

د) الأحلاف

وبفضل إهمال فيليب (الذي أمن لنفسه فقط تحالف قشتالة والمساندة الحبرية) استطاع ملك إنكلترا أيضاً أن يتم إعداده الدبلوماسي : حاول إدوارد الثالث أولاً الحصول على مساعدة الإمبراطور لويس بافاريا . وفي ١٣٣٧ م ، وقع لويس ، الذي حرمه بابا آفينيون الفرنسي ، والذي يرى الآن فرصة ليلعب عليه لعبة خبيثة ، وقع معاهدة مع إنكلترا اعترف فيها بحقوق إدوارد بالتاج الفرنسي . وقوي إدوارد بهذا الحلف ، ونزل في تموز ١٣٣٨ م في أنفرس ، وأخذ في كوبلانس لقب نائب الإمبراطورية ، وتقبل ولاء تابعيه الجدد . ولكن حملة الاجتياح التي

أطلقهـا في تيراش ، في ١٣٣٩ م منيت بـإخفـاق تـام ؛ فـالإمبراطـور وأمراء الإمبراطورية ، الذين لم يكن في نيتهم العزوف عن حيـادهم ، لم يـأتوا بـأي عون عسكري للملك الإنكليزي .

عندئذ اتجه إدوارد نحو الفلاندر : فمنذ ١٣٣٧ م ، كان يمارس ضغطـاً أصم على البلاد بمنع تصـدير الصوف الإنكليزي إلى السوق الفـلامـانـدي . والكـونت روبير دآرتوا ، اللاجئ في البلاط الإنكليزي بيّن له أهمية الحصول على الاعتراف بـه ملكاً لفرنسا من إقطاعة فرنسيـة . وكللت كل هـذه الجهود بـالفوز ، عنـدمـا تصـالحت المـدن الفلامـانـديـة تحت إدارة تـاجر أجـواخ غني من غـانـد ، رئيس عـام لهـذه المـدينـة ، جـاك ڤـان آرتوڤيلـد ، وطردت الكونت لويس ، التـابع الوفي الأمين لملـك فرنسـا ، ووقعت حلفـاً عسكريـاً مع إنكلترا (كانون الأول ١٣٣٩ م) . وفي السنة التاليـة ، جـاء إدوارد الثـالث إلى المـدينـة للاعتراف بـه سيـداً . و (الملـك الموجود) أنكره الفلامانـديون ، ونودي بـإدوارد ملـك فرنسـا . وفي الحقيقـة كان هذا النصر الـدبلومـاسي مكلفـاً : فقـد تعهـد إدوارد الثـالث بـدفع عون مـالي من ١٤٠٠٠٠ جنيه إلى حليفه الجديد .

وأخيراً بعـد بضعـة أشهر ، ذهب إدوارد الثـالث ليتصرف ، مـع الغـوين والفلانـدر بثـالث رأس جسر في داخل مملكـة فرنسـا ، وهو بروتـانيـا . ففي ٣٠ نيسان ١٣٤١ م ، توفي جان الثالث كونت بروتانيا التابع الأمين لملك فرنسـا دون أن يترك ولداً . وتنازع على إرثـه ابنـة أخيـه جـانّ دو پـانتيڤر ، زوجـة شـارل دو بلوا وأخيها النصفي جان دو مونفور . استولى هذا الأخير على الإقطاعـة دون طلب التقليد من ملك فرنسا الذي يدعم شارل دو بلوا ؛ لأن نجـدة جيش فرنسي ساعـدت شـارل دو بلوا على دخول نـانت منتصراً بينمـا أخـذ مونفور أسيراً . ومع ذلك قدم جان ولاءه لملك إنكلترا . وأصبحت فرصة التدخل مرة جديدة في أرض

تـابعـة للتـاج الفرنسي لا أمـل بهـا . ولم يتركهـا إدوارد الثـالث تفر منـه ، ومنـذ ١٣٤٢ م نزل جيش إنكليزي في بروتانيا .

وهكذا ، منـذ البـدء ، اشتعلت الحرب في عـدة نقـاط من الأرض الفرنسيـة حيث أقام ملك إنكلترا عليها رؤوس جسر : وهكذا أضيف إلى الغوين ، الرهـان التقليدي للنزاع الفرنسي ـ الإنكليزي ، الفلاندر وبروتانيا .

خسارة فرنسا معركتين وكسبها الجولة الأولى

هزائم فرنسا في عهد فيليب السادس

أ ـ العمليات الأولى

كانت لقاءات السلاح الأولى ، في حرب المئة عام ، عمليـات مختصرة تقطعهـا هدنات لم تأت بقرار لأي من الخصمين : فبعد غـارة تيّراش (أيلول ١٣٣٩ م) التي أوقفت بطلب البابا بنوا الثاني عشر دون أن يدخل الجيشـان العـدوان في تماس ، دارت الحرب الحقيقيـة الأولى على البحر : فـاجـأ الإنكليز الأسطـول الفرنسي ودمروه ووحـدات حليفـة للأسطـول القشتـالي في مينـاء إيكلـوز (٢٤ حـزيران ١٣٤٠ م) . وللـوهلـة الأولى ، حققت إنكلترا السيطرة على بحر المـانش ؛ وحيـا البرلمان إدوارد بلقب (ملـك البحر) واستطـاع الإنكليز مـاطـاب لهم الإنزال على شـاطئ قريب . ومـع ذلـك ، ففي خـلال ستـة أعـوام كانـوا غير قـادرين على الاستفادة من هذا التفوق . وأخفقت حملاتهم القارية بشكل يرثى له الواحدة بعـد الأخرى . وفي ١٣٤٠ م ، لم يستطـع جيش إنكليزي ـ فـلامـانـدي بقيـادة روبير دارتوا الاستيلاء على تورنـه أو سـان ـ أومير ووقعت هـدنـة في إسبليشين (أيلول ١٣٤٠ م) وعلقت القتـال في الشمال ؛ وبعـد عـامين ، في بروتـانيـا ، أصبحت جيـوش الإنـزال الإنكليزيـة سـادة هـانبـون ؛ وهـدنـة مـالستروا (كانـون الثـاني

١٣٤٣ م) أوقفت تقدمها . وامتدت هذه الحرب طويلاً وكلفت غالياً : في فرنسا اضطر فيليب السادس أن يطلب من رعاياه مجهوداً مالياً متزايداً وأن يلجأ إلى تبديل العملة . ولكن حالة إدوارد الثالث كانت أحرج أيضاً ؛ لأن الحظر على الصوف ، الذي صادره الملك وأمل بيعه بربح كبير على القارة ، لم يعط النتائج المرجوة ؛ واضطر إدوارد إلى إكثار الضرائب النقدية ، والقرض من أصحاب البنوك الإيطاليين . وفي ١٣٤١ م ظهرت في البرلمان معارضة البارونات الشديدة لسيادة العاهل المالية . وأخيراً ، فيما كان ملك إنكلترا يخسر بشكل قطعي حلف برابان ، وهينوت والإمبراطورية ، حصلت الدبلوماسية الفرنسية على نجاحات طيبة : فبينما احتلت مونپليه في (١٣٤١ م) ثم اشتريت من ملك جزيرة ماجوركا ، هيأ اتفاق كشبَ الدوفينه : وكانت هذه الإمارة تشكل جزءاً من مملكة آرل القديمة ، وتنوزل عنها لوارث عرش فرنسا الذي أخذ يحمل منذ الآن لقب دوفن أي ولي العهد .

ب ـ كريسي وهزيمة الفروسية الفرنسية

وفي ١٣٤٦ م ، وخلافاً لما كان منتظراً ، افتتح لفرنسا عصر كوارث عسكرية ومنازعات مدنية . ففي هذه السنة ١٣٤٦ م ، نصح أمير نورماندي ، جوفروا دآركور ، كان فيليب السادس قد حكم عليه بالنفي بشكل أخرق (في ١٣٤٤ م) ، ملك إنكلترا بمهاجمة نورماندیا السيئة الدفاع ، ولكنها تقدم منظورات غنية للنهب والسلب . نزل الإنكليز في شبه جزيرة كوتنتن في سان ـ فاست ـ لا ـ هوغ . أخذت كَنْ وسلبت ونهبت . وصعد الجيش الإنكليزي وادي نهر السين باحثاً عن خداع يقظة الفرنسيين المرابطين على الضفة اليمنى وعن اجتياز النهر لتحقيق الاتصال مع الفلاماندیین أكثر من بحثه عن إثقال العاصمة بالتهديد . ومع ذلك ففي سياق هذه الحركة ، تقرب من باريس .

استطاع إدوارد الثالث أخيراً اجتياز السين ورفض الكفاح دوماً ، وانطوى نحو الشمال في كونتية بونتيو . وهنا اختار انتظار الخصم في موقع محصن بالقرب من قرية كريسي الصغيرة . وبعد أن تبين له أن الصدام أصبح الآن حتمياً ، اختار الوقوف على الدفاع ، لأن عدد جنوده كان أقل من جنود الفرنسيين وأعياها التعب . كما علم من جهة أخرى بأنه لا يستطيع الاعتماد على مساندة الفلاماندبين الذين رفعوا الحصار عن بيتون وانطووا على أنفسهم . وفي هذه الظروف نشبت المعركة في ٢٦ آب ١٣٤٦ م . وكانت نكبة للفرنسيين . فقد بهر فرسان فرنسا بسراب مثل أعلى فروسي زالت موضته أكثر من بهر الشمس . إن السرعة التي أشعلوا بها الحرب تدل على حمية كريمة ، ولكنها متهورة أمام عدو هيأ قواه بكل عناية . إن الاحتقار الفظيع الذي نال جيش المشاة « اقتلوا كل هذه الفلول ، اقتلوا ، اقتلوا المشاة الذين يسدون الطريق دونما سبب » .. هكذا كان فيليب السادس يصرخ إذا أخذنا بقول فرواسار . وهذا الاحتقار ينسب أيضاً إلى مفهوم للحرب تجاوزه الزمن . وأخيراً إن عدم انصياع جيش الفرسان للنظام حوّل هذه الحرب التي أسيء الدخول فيها إلى كارثة : وبين هؤلاء المحاربين الفرنسيين الذين يلقون بأنفسهم بغير نظام على مواقع العدو ، ربما كان أقلهم عمى جان دو لوكسمبورغ الذي ، حرم النظر ، وغطي بالمآثر قبل أن يجد الموت على ساحة القتال .

ج ـ كاليه وهدنة ١٣٤٧ م

وفي هذه الحال البائسة ، استطاع فيليب السادس أن يفر من ميدان القتال ، بينما خصمه ، بعد هذا النجاح غير المتوقع ، عاود الزحف نحو الشمال باحثاً عن ميناء للإقلاع . وقع اختيار إدوارد الثالث على كالييه ووضع الحصار أمام المدينة بإنشاء منظومة هائلة من التحصينات والخنادق . ولم يعرف فيليب السادس كيف يفيد من سقوط آرتفلد ، ضحية نعرة المدن الفلاماندية الذي

أعدمتـه الغوغـاء بعـد أن اتهمتـه بتسليم إنكلترا خزينـة الفلانـدر (١٣٤٥ م) ، كما انتظر فيليب السادس عاماً قبل محـاولتـه تخليص المـدينـة . وفي ٢٧ تموز ١٣٤٩ م وصل إلى سانغاتّ بغية معسكر للعدو . وخمدت شجاعته بمتاريس الإنكليز الـذين رفضوا عرضـه للحرب في سـاحـة مكشـوفـة أو تسليم كاليـيه لمصيرهـا . وفي ٤ آب ١٣٤٧ م ، استسلمت المدينـة في ظروف دراميـة . طرد السكان من المـدينـة وحلّ الإنكليز محلهم . وأصبح هؤلاء منـذ الآن يتصرفـون على القـارة أمـام دوفر بمـوقـع استراتيجي وتجاري من الدرجة الأولى .

وهذه الهزائم المتكررة لم تحث ملك فرنسا على محاولة مجهود جديد . وفي سنة كريسي ، انطلقت حملـة إنكليزيـة من الغـوين ونهبت بـواتيــه . وفي ١٣٤٧ م ، تضاعفت خسارة كالييه بهزيمة شارل دو بلوا والقبض عليـه في لا روش ـ درّين . وفترت همـة فيليب السـادس . وفي المجلس الـذي عقـد بعـد كاليــه لم يــأل نـواب الكومونات في توجيه اللوم له .

أما من جهـة ملـك إنكلترا ، ومهما يكن نجـاحـه لامعـاً ، فقـد كان في أقصى موارده المالية . ورغب العودة إلى مملكته . ولذا لم يلق البـابـا أي عنت في دعوتـه إلى تعليق الحرب : إن هدنة كالييه (٢٨ أيلول ١٣٤٧ م) تركت المدينة لإنكلترا . وستدوم الهدنات ما يقارب سبعة أعوام ، ممتدة إلى مـا بعـد حكم فيليب السـادس : ففي ١٣٤٨ م اجتاح الطاعون الأسود فرنسا ، وفي السنة التاليـة إنكلترا ، ومـا جرَّ موكبـه من اضطراب مـادي ومعنوي . ولم تنج الأسرة الفـالـويـة من شره ومـات فيليب في ٢٢ آب ١٣٥٠ م .

تكرار النكبات في حكم جان الطيب

أ ـ خرق جان الطيب

وفي عهد خلفه ، جان الطيب (١٣٥٠ ـ ١٣٦٤ م) يبدو أن التـاريخ يعيـد

نفسه بفظاعة . لأن تسلسل الأخطاء والعناد ساق فرنسا للمرة الثانية إلى نكبة ، ولكن بنتائج أخطر بكثير . كان شغفاً كأبيه بمثل أعلى فروسي . وقد وصف المؤرخ جان الجميل الملك الجديد بقوله : « بطيء في الإعلام وقاس في انتزاع الرأي » ، وكان أيضاً أقل قابلية للحكم . وتشهد على ذلك أعماله الأولى . راكم الأخطاء السياسية ، وأخطرها أنه جعل ملك ناڤار أخطر عدو له . كان شارل ناڤار طموحاً ، وخالياً من وسوسة الضمير وقد أطلق عليه رعاياه لقب (الرديء) . وهو أمير فرنسي يملك كونتيتي إيڤرو وموررتن في نورمانديا ويعتبر في عداد شيوخ المملكة . ينظر عالياً ، وباعتباره حفيد لويس العاشر الماحك لأمه ، كان يرى بأن له حق في التاج الفرنسي كإدوارد الثالث بل وحتى كالڤالوي . وكان مستعداً لاهتبال كل الفرص التي تساعده على توسيع دوميناته . وشجع جان الطيب بضعفه دسائسه . فقد عهد إليه أولاً بنيابة اللانغدوك ويد ابنته . ولكن الرديء قلق للأفضال التي يغدقها الڤالوي على محظيين آخرين ، مثل شارل دو لا سردا فأوعز بقتله في كانون الثاني ١٣٥٤ م . وعوضاً عن معاقبته ، حاول الملك جان ، الذي يخشى خيانة ملك ناڤار ، أن يكسبه لقضيته ، فمنحه دومينات جديدة في نورمانديا . وتشجع شارل الرديء بعدم العقوبة وقدم لإدوارد الثالث عونه شريطة أن يقطعه نورمانديا والشامبانيا واللانغدوك ؛ ثم حاول أن يحرض ولي العهد ، دوق نورمانديا على أبيه . وعندئذ قرر جان الثاني أن يقوم برد فعل : وفي ١٣٥٦ م أمر بتوقيف شارل الرديء في روان . ولكن بعد فوات الأوان ، حين أضيفت حرب ناڤارية إلى الحرب الإنكليزية .

ولم تكن سياسة جان الطيب المالية أفضل ، فلمجابهة نفقات البلاط الجنونية وتأمين فن زخرفة فاخرة للملك ، لجأ المستشارون مرة أخرى إلى التلاعب بالنقد . ففي السنوات الخمس الأولى للحكم ، فقد النقد ٧٠ ٪ من قيمته . والأخطر

من ذلك أيضاً عدم الاستعداد العسكري ؛ لأن الملك لم يعرف كيف يفيد من أي درس مفيد من إخفاق كريسي ، بل بالعكس ، وضع سلامة فرنسا أكثر من أي وقت مضى في الفروسية التي فكر بتنظيمها من جديد . وأحدث نظاماً للفرسان العلمانيين ، وهو (نظام النجم) الذي ضم نخبة من الشجاعة والنبل ، أي من الشجعان ومن الطبقة النبيلة . وفي الحقيقة لم يكن العاهل الوحيد الذي فتن بموضة القصص الآرثورية[1] . ففي ١٣٤٨ م أنشأ إدوارد الثالث (نظام رباط الجوارب) ، وكان شعاره : « يا لعار من يفكر به سوءاً » ، ويحمل الفرسان هذا الشعار على الركبة اليسرى ، والملكة على الذراع . ورئيسه العاهل نفسه . ولم يتجاوز عدد أعضائه ٢٦ عضواً .

ولكن على نقيض العاهل الإنكليزي ، قصر الڤالوي على هذا الإجراء كل استعداده لاستئناف الحرب .

ب ـ الغويين مسرح جديد للحرب : كارثة بواتيه

ولم تتوقف الحرب تماماً ، بالرغم من الهدنة . ففي بروتانيا استمر الإنكليز في النهب والسلب . وفي الجنوب ـ الغربي خلص الفرنسيون بواتيه ولوزينيان ، وحرروا سان ـ جان ـ دانجيلي . وإخفاق مفاوضات السلام التي بدئ بها ، في نيسان ١٣٥٤ م ، قرر عودة عامة للنزاع وأصبحت الغويين في ذلك الحين أهم مسرح للحرب . وعادت مبادرة العمليات لابن إدوارد الثالث ، أمير الغال ، الملقب **بالأمير الأسود** ، بسبب لون درعه . كان رجل حرب حاذقاً ، وكان تحت تصرفه ٥٠٠٠ رجل ورؤساء أخيار مثل تشاندوس ، وانطلق في ١٣٥٥ م ، من بوردو إلى ناربونه بجولة اجتاحت إقليم اللانغدوك كله .

وفي ١٣٥٦ م ، قام الأمير الأسود بعملية من نفس النوع ، ولكن هذه الجولة ، في هذه المرة ، أخذت جهة بورج . وفي طريق العودة ، لاحقه

(١) الملك أرثور أو أرتوس ، ملك أسطوري في بلاد الغال (ق . ٦ . ب . م) اشتهر بمغامراته .

الفرنسيون وكانوا أكثر عدداً ، وحوالي بواتيه دارت كريسي جديدة . وألقت سهام النبالة الإنكليز الاضطراب والذعر في صفوف جيش الفرسان الفرنسي ، حتى أن كثيراً من عناصره لاذت بالفرار . وحول ملك فرنسا ، المحاط بربع من الأوفياء جرت من بعد عدة معارك فريدة يائسة .

الثورة في فرنسا : إيتين مارسيل

أخذ جان الطيب أسيراً إلى لندن ، وعومل بكل رعاية وأكرمت وفادته . وكان مقتنعاً بأنه أنقذ شرفه . وكلف عناده البطولي المملكة غالياً . وهزت فرنسا أزمة قومية خطيرة ، فاضطرت إلى توقيع السلام المسبب للمحن والمصائب .

وفي غياب الملك ، من يأخذ على عاتقه إدارة الشؤون ؟ إن ابن الملك البكر ، شارل ، الذي فرَّ إلى بواتيه كان دون سلطة . وأمام خور السلطة الملكية ، بدا أن الوقت قد حان للمجالس أن تأخذ بيدها حكم البلاد . وبدت الأخطاء المتكررة للملكية تبرر وضعها تحت الوصاية : وكان هذا رأي قسم من البورجوازية الباريزية . ولكن يمكن أيضاً الحكم بأن النظام لم يخر عزمه ، وإنما الرجل ؛ لأن عدم قدرة الفالوي بررت مزاعم شارل دو ناڤار إلى التاج وعززت عدد أنصاره . وفي مجالس لغة الأويل (لغة أهل الشمال في فرنسا) التي دعيت في خريف ١٣٥٦ م ، ثم في ١٣٥٧ ، لمنح المعونات ، تجابهت نظريتان في شخص رجلين مصممين : الأول روبير لو كوك ، أسقف لان الذي يدعم قضية ملك ناڤار . وقد استطاع هذا أن يفر من السجن حيث كان حبيساً ؛ والثاني إيتين مارسيل وهو تاجر أجواخ غني ورئيس التجار ، يمثل تطلعات البورجوازية الباريسية التي يمارس عليها نفوذاً حقيقياً . وتفاهم الرجلان لمطالبة المجالس بالإصلاحات : عقاب مستشاري جان الطيب السيئين ، إعادة النظر في النظام الإداري . وفي ١٣٥٦ م ، تهرب شارل ، ولكنه في السنة التالية ، اضطر إلى دعوة

المجالس للحصول على معونات ، وإلى التطهير المطلوب ، والقيام بإصلاحات إدارية واسعة بموجب البراءة الملكية الكبرى في أيار ١٣٥٧ م . وفي الواقع ، عندما انفض المجلس ، بقيت السلطة الملكية سليمة لم تمس . أما خصوم الملك فأمام إخفاق الأصول القانوني سيحاولون منذ الآن العنف . وحاول إيتين مارسيل أن ينقل إلى الصعيد البلدي الثورة التي لم يعرف مجلس المملكة العام القيام بها .

نظم إيتين مارسيل باريس على نسق المدن الفلامانديـة ، كما نظم البورجوازية ، وألبس أنصاره القبعة الزرقاء والحمراء دليلاً على الانضمام والتألب .

وفي ٢٢ شباط ١٣٥٨ م ، عرفت باريس أول يوم ثوري لها . ولما رفض شارل المسمى وصياً على المملكة أن يضع نفسه تحت الوصاية ، اجتاح أنصار إيتين مارسيل المعتمرون بالقبيعة الحمراء والزرقاء ـ ألوان باريس ـ قصر المدينة وقتلوا أمام أنظار الوصي اثنين من مستشاريه اعتبروا مسؤولين ، وهما ماريشالا شامبانيا ونورمانديا . وكان على شارل أن يعتمر قبعة ألوان باريس . وهكذا أصبحت المدينة في يدي رئيس التجار .

وهبت ريح الثورة أيضاً على المدن الأخرى والأرياف . ففي منطقة بوڤيه ، في شهر حزيران ١٣٥٨ م ، قتل الجاكيون (اليعقوبيون) ـ الاسم الشعبي الذي كان يطلق على الفلاحين ، ومنه كلمة الجاكية (اليعقوبية) أي ثورات الفلاحين في فرنسا ، وأشهرها هذه الثورة التي قامت بعد هزيمة بواتيه ـ النبلاء ونهبوا القصور . وكانت الفرصة مناسبة لشارل الرديء . وعلى رأس جيش من النبلاء أخذ بيده قمع ثورة الجاكيين (اليعقوبيين) . ودخل باريس منتصراً ونودي به رئيساً عسكرياً للمدينة . وأراد إيتين مارسيل أن يزعج ولي العهد ، فتحالف مع الناڤاري . ولكن الوصي تحت مظاهر شاب ضعيف وخجول ، نضج

بسرعة تحت تأثير المصائب : هرب من باريس وجمع مجالس الشامبانيا فمنحته معونة وألف جيشاً صغيراً ، وأصبح الآن يجسد الوحدة القومية ؛ هذا فضلاً عن أن خصومه بدأوا يفقدون ثقتهم ببعض . وبعد أن عرف الجميع التفاهم بين ملك ناڤار والإنكليز ، اضطر ولي العهد إلى مغادرة باريس . وشعر إيتين مارسيل شيئاً فشيئاً أنه معزول فلم يتردد بالخيانة هو أيضاً : وترك المسلحين الإنكليز يدخلون المدينة . ولكن الشعب طردهم ، وعندئذ تهيأ لإرجاع الناڤاري من جديد . وفي رعشة الوطنية والولاء لولي العهد أيضاً ، قتل جان مايّار رئيس التجار إيتين مارسيل (٣١ تموز ١٣٥٨ م) ، وانتصر الوصي ، وعاد إلى العاصمة يهتف به الباريزيون مهللين مرحبين .

معاهدة بريتيني[١]

وبعد كل هذا تطلعت فرنسا إلى السلام . وفي لندن أراد جان الطيب إطلاق سراحه وحريته ، وقبل عن خفة أن يوقع مقدمات السلام التي تتنازل للإنكليز عن نصف فرنسا (١٣٥٩ م) . واجتمعت مجالس اللانغدوك واللانغدويل لأول مرة في جلسة مشتركة ، ورفضت هذه المعاهدة (غير المقبولة ولا يعمل بها) ، وصوتت على اعتمادات للإعداد لحملة جديدة تدور رحاها في شتاء ١٣٥٩ ـ ١٣٦٠ م . وكانت إخفاقاً . ولكن الفرنسيين ، الذين أنضجت المحن عندهم حب الوطن والعاطفة الوطنية ، قاوموا في كل مكان . فقد أظهر فلاح بسيط من ريفكور ، في منطقة كومبين ، واسمه فيريه العظيم ، إرادة لمقاومة الأجنبي ، وأخذ مكانه مع فلاحين آخرين بالقرب من دير القديس ـ كورمي ونجح في رد الإنكليز على أعقابهم .

(١) قرية في منطقة البوس قريبة من شارتر .

ومن جهة أخرى ، إن الوصي ، وقد حنكته التجربة ، اضطر أيضاً تحت نقص الجنود أن يتبنى تكتيكاً جديداً : أعطى الأمر للسكان بأن يغادروا البلاد المسطحة بمحاصيلهم وقطعانهم ويلجؤوا إلى المدن المحصنة ليحدثوا الفراغ أمام الإنكليز . وعندما نزل إدوارد الثالث في كالييه قام بنهب بورغونيا ولكنه أخفق أمام أسوار رنْس وباريس وبدأ انسحابه باتجاه بروتانيا . وهبت عاصفة فظيعة دمرت في يوم (الاثنين الأسود) قسماً من قافلته العسكرية ، وانتهت بإقناعه بأن يعتدل في شروطه ليحصل على السلام . وفي بريتيني تم الاتفاق على بنود معاهدة السلام (٨ أيار ١٣٦١ م) وهي : تشكيل أكيتانيا الكبرى الإنكليزية من جديد بالتخلي عن الآجونيه ، وكيرسي ، وررووبرغ ، وغاسكونيا وبيغور . وقدرت فدية الملك ٣٠٠٠٠٠ ليرة ذهبية . وحرر العاهل بعد أن سلم كثيراً من الرهائن . وأخيراً إن تخلي ملك فرنسا عن سيادته على أراضي الجنوب ـ الغربي ، وسيادة ملك إنكلترا عن حقوقه بتاج فرنسا ، يجب أن تكون موضوع عمل منفصل ، عند تنفيذ المعاهدة . وظاهراً انتهى النزاع بهذا التقسيم الجذري للأراضي والنفوذ . ولكن العاطفة القومية التي استيقظت في فرنسا بالحرب هل يمكن أن تقبل بهذا الاقتطاع ؟

شارل الخامس ونهوض فرنسا

عاد جان الثاني ووجد فرنسا لقليل من الزمن : لقد أفقرت البلاد كثيراً والملك مسرف كثيراً لتدفع الفدية الموعودة بسرعة . والبارونات الموقوفون في لندن رهائن جزعون ، ودوق آنجو الأسير ، بناء على قول بسيط في كالييه ، هرب . وجان الطيب القلق دوماً والمهتم باليمين الذي أقسمه قد قفل راجعاً إلى الأسر ، ومات في لندن في نيسان ١٣٦٤ م . وكان قد وزع بكرم على أولاده غير البكر أوقافاً : الآنجو والمين إلى لويس ، والبرّي والإفيرني إلى جان ، وإلى فيليب بورغونيا التي كان دوقها فيليب دو روڤر ، آخر متحدر من ذرية طويلة من

أصل كابسي ، وقد توفي دون وارث في (١٣٦١ م) . أما الابن البكر ، الوصي ، فقد كانت له تجربة طويلة بالسلطة عندما توفي جان الثاني ، واعتلى العرش في ١٣٦٤ م تحت اسم شارل الخامس . وبدأ حكم مصلح في فرنسا .

شارل الخامس (العاقل)

يشبه الملك الجديد على قدر الإمكان أباه وجده . فالمرض والعجز - يداه نصف مشلولتين - أبعداه مبكراً عن الحياة العسكرية وميادين القتال . إن حسه السليم الصلب ، وذوقه المعتدل ، وفكره (العاقل والثابت) كما تقول مترجمة حياته (كريستين دو بيزان) تتناقض مع الكرم الجنوني لأسلافه الفالويين . ذكاؤه متوسط ، ولكنه واضح جداً . كان شارل العاقل ملكاً سياسياً خلف عواهل - فرساناً ؛ وإذا كان يملك حساً حاداً للجلالة الملكية واليقين بأن المباركة تخوله سلطة صانع المعجزات . فمن دراسة الكتاب المقدس أو أرسطو كان يطلب التوجيهات ليقيم حكماً (صالحاً) . وهكذا كان يقيم عدة مفكرين لخدمته : ومكتبته الغنية بالكتب الثمينة شكلت الرأسمال البدائي للمكتبة الوطنية في باريس . وفي بلاطه ، الذي يريده لامعاً مشرقاً ، لأنه يرى أن الأبهة والبذخ لا غنى عنهما للسلطة والجاه الملكي ، كان يستقبل الفنانين ويجمع روائع الفن في قصور : بوتيه - على - المارن (الجمال على نهر المارن) ، وفانسين واللوفر . ويحيط نفسه خاصة بمستشارين مختارين لعلمهم : إن المستشارين جان وغليوم دو دورمان ، بيير دورجمون الذي ترجم (مدينة الله) وأوحى بتحرير (تقاويم فرنسا الكبرى) ، وحاكم باريس ، هوغ أوبريو ، كانوا مستشاريه السياسيين ؛ ونيقولا دوريسم ، رئيس الجامعة ، الذي ترجم عدة أعمال لأرسطو وحرر : (كتاب العملات) الذي كان أول عمل في الاقتصاد السياسي ، أوحى بقراراته في الصعيد المالي . فأي ملك آخر غير هذا العاهل الانتهازي والعاقل الفطن أوفق بشكل أفضل لفرنسا ، التي بعد الطاعون الكبير ، والثورة الباريزية ، وثورة

الفلاحين (. الجاكية) ، بعد النكبات العسكرية ، بدأت تنهض ؟ ذلك لأن الظرف كان مهيئاً لعمل التعمير ؛ وبعد الجرح الديموغرافي الكبير لسنوات ١٣٤٨ ـ ١٣٥٠ م بدأ النهوض وإصلاح ماأفسد الدهر .. فمن ذلك أن باريس التي كانت تضيق كثيراً في سور فيليب أوغست ، امتدت على ضفة السين اليمنى حيث أنشئ حي جديد (حي البستان) . وبعد أن ملّ الفرنسيون من المنازعات الداخلية ، تطلعوا إلى النظام ؛ ولكن الرغبة في الثأر من الإنكليز رقدت في قلوبهم اليقظة بالعاطفة القومية .

توطيد النظام في المملكة

إن أول عمل أخذه شارل الخامس على نفسه هو تصفية جميع أسباب الفوضى التي مازالت موجودة في مملكته . كان يجب أولاً رد شارل ناڤار إلى حظيرة الطاعة . وعهد بمهمة توجيه الحرب الناڤارية إلى نبيل بروتاني ، برتران دو غيكلن وسماه كونيتابل أي قائداً أعلى للجيش الملكي (دام اللقب في فرنسا من القرن الثاني عشر إلى ١٦٢٧ م) نظراً لصفاته العسكرية . وأحرز دو غيكلن النصر تلو النصر في نورماندیا الدنيا . وبعد أن أخذ مانت ومولان أحرز فوزاً جاسماً في كوشرل حيث سحق (في ١٣٦٤ م.) الأمير ، دو بوش ، أفضل نقيب لدى شارل الرديء . وفي معاهدة آفنيون (آذار ١٣٦٥ م) ، كان على ملك ناڤار أن يتخلى عن أراضيه في النورماندیا . وفي العصر نفسه ، سويت لحسن الحظ قضية بروتانيا : ففي أوريه ، قتل شارل دو بلوا ، في أيلول ١٣٦٤ م . وانحنى شارل الخامس أمام قضاء الله الذي خول الدوقية إلى مونفور . ولكن في **معاهدة غيراند** قدم الدوق جان الرابع إليه ولاءه وطرد الحاميات الإنكليزية . وبقيت قضية صعبة الحل كثيراً وهي قضية العصابات الكبرى : فمنذ معاهدة بريتيني ، كون الجنود المرتزقة بعد تسريحهم ، عصابات قطاع طرق ؛ وهم أناس لا إيمان لهم ولا قانون . وهؤلاء المغامرون من كل أصل ، الذين سماهم الشعب للتبسيط

(الإنكليز) اجتاحوا بفظاعة أقاليم بكاملها . وأخفق المشروع الذي أريد منه تحويل هؤلاء المغامرين إلى محاربين صليبيين . وفكر شارل الخامس باستخدام هذه العصابات المخيفة في النزاع الذي شغل به ، لأجل عرش قشتالة ، كل من هنري دو تراستامار وأخيه النصفي بيير الشرس وكلف دو غيكلن بأن يؤدي خير الأداء هذه المهمة الدقيقة ، وأن يعمل على نصرة قضية هنري دو تراستامار . وكانت إسبانيا مسرحاً لمجابهة جديدة فرنسية ـ إنكليزية . وفي الواقع استنجد بيير الشرس بجنود أمير غال . وفي معركة ناجيرا (١٣٦٧ م) أسر الأمير الأسود دو غيكلن . وكانت نهاية النزاع لصالح فرنسا أخيراً . ففي قتال فريد ، انتصر هنري دو تراستامار بعد قليل ، وأمن لفرنسا حلف قشتالة ؛ ولكن فرنسا بخاصة ، تخلصت من العصابات الكبرى التي هلكت في النزاع . واستحق دو غيكلن ، لدفع فديته ، أن تبدأ كل نساء بروتانيا بفتل مغازلهن ، وأن ينهل ملك فرنسا من خزينته عن سعة .

وعندئذ لم يفكر شارل الخامس بغير عودة النضال ضد إنكلترا . ولكن يجب ، قبل كل شيء ، إعداد فرنسا : وهذا هو معنى التدابير الأساسية التي اتخذها في السياسة الداخلية . فقد اقتضت الضرورة في المقام الأول الحصول على موارد ثابتة للمملكة . فمن ذلك أن التحول الذي اتخذته الحوادث شجع على تأسيس ضريبة دائمة : فمنذ أسر الملك جان الطيب فرضت ضريبة منتظمة لدفع الفدية اعتبرها الشعب غير قانونية . و (حالات الضرورة) التي سمحت المجالس من أجلها بفرض أتاوة تدفع على الدار (أو النار) حصّلت كل سنة ، وأخيراً بدأ يفرض على المكلفين شراء كمية من الملح الملكي (ضريبة الملح) . ولتوزيع الرسوم وجبايتها أبقى شارل الخامس (المختارين) الذين أنشأتهم المجالس ، ولكنه جعل منهم ممثلين عن الملك . ومقابل المجهود الضريبي الذي فرضه شارل الخامس على رعاياه ، تخلى عن تغييرات العملة التي انتقدت كثيراً ، وحاول توطيد العملة

الصالحة . وهذه النية التي تستحق المدح لم تتوج بالنجاح ، وذلك ، بموجب قوانين العملة التي ماتزال تغيب عن العاهل ومستشاريه ، العملة الرديئة تطرد العملة الطيبة . وبفضل الموارد الجديدة التي يتصرف بها الملك انطلق في تنظيم عسكري ، يساعده فيه دو غيكلن وأخوه دوق آنجو ، الرئيس العسكري الممتاز . وتوقع دفع منتظم لأعطيات فصائل الجنود المجندة ، وحتى في زمن السلام . وتبنيت أسلحة جديدة ، من قوس طويلة ، ومدفعية ، ورممت الحصون وأعيدت إلى حالتها السابقة ، وأنجز سور باريس مع حصن (باستيل) القديس - أنطوان . وأخيراً فكر شارل الخامس تعمير أسطول ؛ وبدئ العمل في ترسانة كلو دي غاليه بالقرب من روانّ . وأنجزت ترتيبات دبلوماسية هذا الإعداد ؛ فقد شدت أواصر الحلف مع إيكوسيا وقشتالة ؛ ولتجنب قضية فلاماندية جديدة أعاد الملك للكونت لويس دو مال المدن التي أخذها فيليب الجميل . وخطبت وارثة الفلاندر مارغريت لأخ الملك ، دوق بورغونيا فيليب الجريء .

شارل يعاود الكفاح منتصراً

قدر شارل أنه على استعداد لاستئناف النزاع ، وتكفيه الآن حجة للقيام بالحرب : ففي ١٣٦٨ م ، رفض الكونت جان دارمانياك ، تابع أمير الغال ، أن يدفع لهذا الأخير أتاوة الدار (النار) التي فرضت حديثاً واستنجد بملك فرنسا « باعتباره أميراً صاحب سيادة على الدوق وعلى دوقية الغويين كلها » . وفي سياق الدعوى اكتشف برلمان باريس بالمناسبة عيباً في الأصول يلغي التخلي عن السيادة الذي أجري في بريتيني . ووجه شارل الخامس دعوة للمثول أمام البرلمان لأمير الغال وحكم بمصادرة الإقطاعة . وكانت الحرب قد استؤنفت ودارت رحاها في أكيتانيا وفي شمال فرنسا معاً . وفي **الجنوب - الغربي** ، ساعدت خمس سنوات من النزاع الفرنسيين ، بتوجيه من لويس آنجو ودو غيكلن ، يساعدهما الأسطول القشتالي ، على تحجيم السيطرة الإنكليزية على جيبين ، أحدهما حول بوردو ،

والآخر حول داكس وبايّون ، كما اعترف المتحاربون بذلك في هدنة لا ريؤل في ١٣٧٤ م . وفي الشمال ، كانت الحرب أقل ملاءمة للفرنسيين : إن تكتيك الأرض المحروقة التي استخدمها دو غيكلن أنهكت العدو ، ولكنها دمرت سطح البلاد والفلاحين أيضاً وكذلك الجولات والصولات الإنكليزية الفظيعة أيضاً . ولكن الإنكليز احتفظوا بكاليه وكسبوا من جديد رأس جسر في بروتانيا وفي شبه جزيرة كوتانتن : فقد ثار الدوق جان الرابع ضد الملك وتركهم يستقرون في برست ، وسلمت إليهم شربورغ بخيانة شارل الرديء .

في ١٣٨٠ م ، دخلت العمليات العسكرية من جديد في إغفاءة . بيد أن الحرب لم تنته بعد . وإذا كانت الوحدة الفرنسية قد أعيد بناؤها تقريباً ، فإن الوجود الإنكليزي ، مهما كان محجماً على القارة ، لا يمكن إلا أن يؤدي إلى عودة النزاع . ولكن صفحة من تاريخ فرنسا وإنكلترا قد قلبت ؛ لأن كل الذين كانوا حتى الآن يناصرون النزاع قد زالوا أو يزولون : ففي ١٣٧٧ م مات إدوارد الثالث ، وبعد بضعة أشهر أمير الغال . وفي فرنسا ، دو غيكلن المكلف مرة جديدة بالقضاء على قطاع الطرق المقيمين في الإقيرني ، مات في حصار شاتونوف ـ دو ـ راندون في ١٣٨٠ م ، وتبعه إلى القبر بعد بضعة أسابيع ، ملك فرنسا ، شارل الخامس .

هل ستقضي الملكية الإنكليزية على الأمة الفرنسية ؟

في الربع الأخير من القرن الرابع عشر ، بدأ لفرنسا كما لإنكلترا دور قصور شرعي . فهنا وهناك وقعت السلطة الملكية في أيد ضعيفة كثيراً وزعزعتها المنافسات الأميرية بشدة ، والأزمات الاقتصادية والاجتماعية والأزمة الداخلية التي أضنتها أجبرت المتحاربين على وقفة طويلة . ولكن فيما كان فساد الحالة في فرنسا يضعف البلد شيئاً فشيئاً ، نهضت إنكلترا بهزة رفعت إلى السلطة سلالة

جديدة . وظلت فرنسا ثلاثة أرباع القرن بعد كريسي مسحوقة من جديد على ساحة القتال . ولكن في بداية القرن الخامس عشر هذا ، كان وجودها كأمة موضع تساؤل .

أ ـ فرنسا ممزقة : أرمانياكيون وبورغينيون

بين ١٣٨٠ و ١٤١٥ م كانت الحالة في فرنسا ماتزال في تدهور وتدمير ، وحتى آخر القرن الرابع عشر مع ذلك يمكن الاعتقاد أنه كان يفكر بأن المصاعب عابرة ومرتبطة بشباب العاهل الجديد . فعند وفاة شارل العاقل لم يكن لابنه شارل السادس غير اثني عشر عاماً . وأكثر من الحكم ، وهذا الأمر لا يمكن أن يفاجئ ، أن الملك الفتى كان يهتم بالجولات والمبارزات والحفلات الراقصة . وفي الحقيقة ، كانت تظهر عليه علائم العصبية المرضية ، ولكن الشعب كان يشعر تجاهه بالعطف وأطلق عليه اسم شارل الحبيب .

ب ـ حكم الأعمام

لقد توقع شارل الخامس ببراءة ملكية تنظيم الوصاية وبموجبها على معاونيه الأساسيين تأمين استمرار الحكم . ولكن السلطة الملكية التي تركت في أيدي كائن ضعيف ، أثارت كثيراً من الأطماع . وأعمام الملك الفتى حين افتتحت قضية قصوره ، كانوا بعمرهم وقوتهم في أفضل موقع في المنافسة . أبعدوا مستشاري الملك الراحل باتفاق مشترك ، وتقاسموا السلطات والمكاسب . ولكن (حكومة الأعمام هذه) لم تنطلق دون صدامات أكيدة : لأن هؤلاء الأمراء الإقطاعيين الذين كانوا على رأس دول صغيرة حقيقية ، ونصف مستقلة ، كانت لهم أطماع شخصية تضع بعضهم ضد بعض . كان **لويس الثاني دو بوربون** خال الملك شخصية ممحية . **وجان دو برّي** كونت بواتيه عمه يأمل بزيادة موارده بغية إشباع ذوقه المسرف في الجمع : كان حاكم لانغدوك ونهب البلد دون تحفظ أو رادع ومانع ، واستطاع أن يعمل من قصره نوعاً من متحف للفن . والأطماع السياسية المفرطة نصبت

دوق آنجو ودوق بورغونيا ، الواحد ضد الآخر . أما دوق آنجو فقد تبنته الملكة جانّ دو نابولي (١٣٨٠ م) وعينته وارثاً لها ، لذا لم يفكر إلا في حيازة مملكته الإيطالية : وقبل مغادرته (١٣٨٢ م) حاول طلب جزية من خزينة ابن أخيه الملك . وفي هذه المحاولة ، كان له منافس في شخص دوق بورغونيا ، **فيليب الجريء** « الذي ينظر إلى بعيد » كما يقول فرواسار . وله خططه الخاصة . ففي ١٣٦٩ م تزوج مارغريت الفلاندر : وكان يهتم قبل كل شيء بالدفاع عن الإرث الذي يعود إلى زوجته ، وعندما ثار الفلاماندبون ، بقيادة ڤان آرتڤلد ضد عمه أبي زوجته ، لم ير الراحة إلا عندما جرد الجيش الفرنسي لقمع الثورة واقتضى الأمر حملتين ضروريتين لضرب المتآمرين ، ووطد انتصار روزبك (٢٧ تشرين الثاني ١٣٨٢ م) سلطة لويس دو مال . وبعد أخذ كورتريه نقل فيليب بورغونيا إلى ديجون شعار جاكومار لوضعه على برج كنيسة نوتردام رمزاً للاتحاد الغريب للإمارتين . وفي ١٣٨٤ م ، حصل في الواقع على إرث ابن حميه : كونتية فلاندر ، هينوت ، آرتوا ، روتيل ، نوفير والكونتية أي الفرانش ـ كونته . لقد امتد النفوذ الفرنسي ، ولكن في الوقت نفسه ، تشكلت قوة بورغونية يخشى خطرها على الملك . كما حاول فيليب أن يزيدها أيضاً : ففي حرب الغلدر ، حيث جرّ ملك فرنسا ، حصل لأخيه أنطوان ، على ليمبورغ والبرابان اللذين تخلت له عنهما جانّ دو لوكسمبورغ معترفة بفضله . وفي ١٣٨٥ م ، زوج ابنه ووارثه ، جان ، من مارغريت باڤاريا ، فأتت لزوجها بهولاندة وزيلاندة والفريز . وهكذا فإن القسم الأعظم من مملكة لوتيرانجيا القديمة وجد معمراً لصالح البيت البورغوني . ولتفضيل دبلوماسيته في الإمبراطورية ، ضم فيليب ملك فرنسا إلى ترتيباته الزواجية ، ففي ١٣٨٥ م ، زوجه إيزابو باڤاريا أخت مارغريت .

وبسلوك هذه السياسة الخاصة ، ظلّ فيليب الجريء فرنسياً معادياً جداً

لإنكلترا ؛ حتى أنه هيأ في بولونيا أسطول إنزال . ولكن عاصفة هبت فدمرت (مدينة الخشب) وأرجئ المشروع .

ولدعم سياسة الأعمام الطموحة ، وجب ، مرة أخرى ، إرهاق الشعب بالضرائب ، فكان الاستياء عظيماً ؛ حتى أن شارل الخامس أخذه الندم ، وعلى سرير نزاعه الأخير حذف علناً كل الرسوم والضرائب التي أحدثت من جديد . وجرت الآمال الخائبة الثورات في الأرياف : ففي لانغدوك قامت عصابات (التوشن) ، التائهة على الأرض البراح ، البور ؛ وفي نورماندیا رجال القبعات البيضاء . وفي المدن زمجرت الثورة : فإلى ثورة البؤس ، في روانّ ، أجابت ثورة المايّوتن (المطارقة ، لأنهم كانوا مسلحين بالمطارق الخشبية ذات الرأسين) في باريس .

وبعد انتصار روزبك ، يرى أن الأمراء الذين صبروا حتى الآن ، قد استشروا في القمع دونما رحمة .

في باريس ، ألغيت رئاسة التجار ؛ ووضعت المدينة تحت إشراف حاكم ملكي . وكل هذه الصعوبات زعزعت ولا شك حكومة الأعمام : فقد قامت ثورة قصر أبعدتهم عن السلطة في ١٣٨٩ م ، وشكرهم الملك وأعرب عن نيته بأن يحكم بنفسه . وفي الواقع كان الملك دوماً لا يهتم بالحكم ، وهذا العمل السلطوي أوحي إليه من قبل مستشاري أبيه السابقين ومن أخيه الشاب دوق أورلئان . فقد بدأ الأوائل بعمل إصلاح إداري وبفضله عرفت فرنسا نهوض بضعة سنوات . وهؤلاء المساعدين لشارل الخامس الذين عادوا للسلطة مسنين ، أطلق عليهم الشعب بخبث لقب (الأقزام) ، مستخدماً كلمة تدل على الصور المضحكة التي ترى على مطارق الأبواب أو المناصب المعدنية في المواقد . وسمي أوليفيه دوكليسّون قائداً أعلى واهتم بتنظيم الجيش . واهتم بورو دولا ريفيير ولوميرسيه بتحسين الإدارة المالية : فقد أحدث ديوان الضرائب غير المباشرة وديوان الخزينة . وأرسل

مفوضون مصلحون إلى الأقاليم لملاحقة التجاوزات التي ارتكبها جباة أو عمال الضريبة . ولمصالحة البورجوازية الباريزية أعاد الأقزام وظيفة رئيس التجار في شخص جان جوفنيل . ولكنهم لم يستطيعوا مس الأمراء الواقفين (المستفيدين من الوقف) الذين ظلوا يأخذون المعاشات ويحافظون على حيازة الضرائب الملكية التي تجبى من إماراتهم . وزادوا التكاليف التي أثقلت كاهل الشعب ، وهذا ما جعلهم لا يحظون بمحبة الشعب . أما لويس أورلئان أخو الملك ، فقد ترك (للأقزام) أعمال الإدارة التي تورث السأم والملل ، وخص نفسه بكل المتع المتعلقة بالسلطة وبفوائد السياسة الخارجية التي يوجهها . ووجد لويس أورلئان في الملكة إيزابو الشابة رفيقة مأخوذة باللذائذ مثله . وكلاهما جرا البلاط والملك في دوامة جنونية من الرقص المقنع والحفلات والموائد . ومع ذلك فإن لويس لم ينس أهدافه الطموحة ؛ فقد تخلى عن مشاريع الحرب ضد إنكلترا حيث تحرر ريتشارد الثاني الشاب من وصاية هيئة البارونات (البارونية) ، وكان مستعداً تماماً للتقرب من ابن خاله الفالوي ، ووقع في لولينغن في ١٣٨٩ م هدنة لثلاث سنوات قابلة للتجديد . وكعمه ، دوق آنجو ، اتجه نحو إيطاليا حيث كان عدم الوجود الإمبراطوري يشجع النفوذ الفرنسي . وتزوج فالنتين فيسكونتي وقدّر أن يقتطع لنفسه مملكة شخصية في رومانيو وفي المارش . ومنذ ١٣٩١ م ، بدأ يعبئ الجيش الملكي لحملة إيطالية كبرى .

جنون الملك

إن كل هذه المشاريع وكذلك دور العفو والصفح الذي عرفته فرنسا تحت حكم الشيوخ المسنين (الأقزام) انتهت عندما انفجر جنون الملك . إن ظروف الدرامة معروفة جيداً . إن القائد الأعلى للجيش أوليفيه دوكليسون ، محظي شارل السادس ، كاد أن يكون ضحية محاولة اغتيال كان ساعدها أمير بروتاني ، بيير كراون والموحي بها دوق بروتانيا نفسه ، جان الرابع دومونفور . وللأخذ

بثأر أوليفيه دوكليسون ، بمعاقبة بيير دوكراون ، جال وصال ملك فرنسا محاطاً برجاله في غابة مانس ، في ٥ آب ١٣٩٢ م . وفجأة هجم رجل وأمسك بلجام حصان الملك وصرخ ، لاتذهب إلى أبعد ، أيها الملك النبيل ، لقد خُنْتَ ، عندئذٍ أخذ الملك فرط جنون مخيف ، واستل الملك السيف على مرافقيه ، وجرح كثيراً منهم قبل التمكن من تجريده من سلاحه . والحادث الذي أثار الأزمة ، حتى ولا الحرارة العظمى لذلك النهار الصيفي لم تكفيا لشرح هذه الدرامة . لقد كان شارل السادس ضحية وراثة ثقيلة جداً ؛ فقد ظهر اختلاله العصبي قبل ١٣٩٢ م ، ولكن تحت أشكال أقل عنفاً . وإن حياة اللذائذ المرهقة التي مافتئ يسلكها في البلاط ماكان منها إلا تفاقم المرض . ومنذ الآن فصاعداً تعاقبت على العاهل البائس أزمات عنيفة وأدوار خور ؛ وعلى فترات نادرة أكثر فأكثر ، كان يتمتع بوضوح لا يفيده إلا في تحديد سعة بلائه . والأطباء ، بفصدهم ، والسحرة بأعشابهم السحرية ، كانوا غير قادرين على أن يأتوه بأقل مسكن أو راحة . والحج لجبل سان-ميشيل ، والقداسات ، والصلوات ، لم تنجح أيضاً . وفي حاشية الملك ، لم يستسلم أحد لقضاء الله بسرعة : فالحفلات الراقصة التنكرية ؛ مثل حفلة الأجاجين في ١٣٩٣ م ، واللعب بالورق ، والمآدب عاودت مساقها . أفلا يجب إلهاء الملك عن كآبته ؟ ولكن بالنسبة لفرنسا (المصابة برئيسها) ، كانت الضربة قاسية ، إن الطبيعة السرية والمتقطعة للضرر أبعدت فكرة وصاية رسمية : ولكن في الوقت نفسه ، فسحت مجالاً لانطلاق الطموحات والمنافسات لاستلام السلطة . وأكثر عنفاً بكثير من فترة القصور الشرعي ، نمت المنافسات الأميرية . وبالحال ، بعد درامة غابة مانس ، أخذ أعمام الملك ثأرهم من الشيوخ المسنين (الأقزام) الذين عزلوا ووضعوا رهن المحاكمة . ولكن لويس أورلئان لا يفهم بأن يستسلم لنزع ملكيته . وفي الواقع ، اندفع ، مثل **لويس الثاني دآنجو** ، لفتح مملكة نابولي التي تركت لأبيه ، كذلك دوق برّي اهتم بمجموعاته

الفنية العزيزة عليه والغالية أكثر من مصير فرنسا ، وعلى اعتبار أن دوق بوربون غير أهل للسلطة ، بقيا متنافسين وجهاً لوجه : دوق بورغونيا ، فيليب ، ودوق أورلئان . أحدهما مجهز بدومينات واسعة وبتجربة مديدة ، والثاني أقل ثراء بكثير ولكنه أكثر جشعاً ، يتنافسان بالدسائس والمكائد للسيطرة على الملك المريض ، وكلاهما كان أيضاً بحاجة للأموال الملكية لتحقيق طموحات أمراء يحبون تملك الأراضي . وكلاهما له أهداف أو تطلعات للتاج الفرنسي . وفي سنوات طويلة ، حتى ١٤٠٤ م ، تاريخ وفاة فيليب الجريء ، كان النزاع سرياً ومغطى : لويس أورلئان تغلب ، أثناء أدوار صحو الملك التي يسترجع فيها الملك كل عطفه على أخيه . وأفاد فيليب من أدوار الأزمة ليبسط نفوذه . ولما كانت مصالح المتنافسين في كل نقطة متعارضة ، فقد صدمت السياسة الفرنسية بشكل فريد : في إيطاليا ، أورلئان ، حليف آل فيسكونتي دعم ميلانو ، بينما البورغوني ، المرتبط بآل فيتّلسباخ ، شاطر سياستهم المعادية لميلانو والملائمة لفلورنسا . وفي ألمانيا انتصر فيليب لروبير بافاريا ، وأتى أورلئان بمساندته إلى فينسسلاس بورغونيا الذي عهد إليه بحكم دوقية لوكسمبورغ ، وفي ذلك تهديد مباشر لوحدة الممتلكات البورغونية . وكل واحد من الأميرين يدعم في قضية الحيدة الدينية الكبرى بابا يختلف عن الآخر . وتحت النفوذ المعتدل الذي كان عليه فيليب بورغونيا ، تحسنت العلاقات الفرنسية ـ الإنكليزية : فمن ذلك أن إيزابل فرنسا ، أخت الملك ، بزواجها من ريتشارد الثاني ، هيأت المصالحة بين البلدين . فضلاً عن أن ملك إنكلترا أعاد شربورغ في ١٣٩٤ م للشاب شارل الثالث دوناڤار التابع الوفي لملك فرنسا ، وأجلى عن برست . ولكن أورلئان ، في ١٣٩٩ م ، تنكر للنجاحات البورغونية وشجع هنري لانكاستر على ثل عرش ريتشارد الثاني .

مقتل لويس أورلئان

فتحت وفـاة فيليب الجريء (١٤٠٤ م) دوراً حـاداً في النزاع ، إذ لم يشعر لويس أورلئان بأنه ملتزم حيال ابن عمه « جان دون خوف » بنفس المراعاة تجـاه عمه . وخلال ثلاثة أعوام انطلق الأميران في حرب لا هوادة فيها كان فيهـا شخص الملك موضع رهان . وعلى هـذا النحو ، في ١٤٠٥ م ، زحف جـان على بـاريس : وعندما اقترب هرب لويس مع الأسرة الملكية . وعندما لحق به في جوفيزي فصيل بورغوني ، اضطر إلى الرجوع إلى العـاصمـة وتقبـل هتـافـات البـورغـوني المرائيـة والمـداجيـة . وبـالرغم من الجهود التي بـذلهـا بيرّي وبوربـون لمصـالحتهما ، لم يخف الخصمان حقدهما المميت الذي كان يحرضهما : اتخـذ لوَيس عصـا كرمز ، وبـالحـال اختـار جـان أن يـأخـذ منجراً رمزاً لـه . وفي ٢٣ تشرين الثـاني ١٤٠٧ م ارتكب مالا يمكن إصلاحه ، أمر جان دون خوف بقتل دوق أورلئان .

وغـداة القتـل بـدأت حرب أهليـة فظيعـة مـزقت البـلاد بـأكملهـا لسنـوات طويلة . أما جان دون خوف المعترف به مقترفـاً الجريـة فقـد فرّ أولاً إلى مـدينـة ليل ، وبعـد أقل من ثلاثـة أشهر ، بـدأ مفـاوضـات مع البلاط وقفـل راجعـاً إلى باريس . ولم يشعر بـأقل نـدم ، وتجرأ عنـدئـذٍ بتبرير جرمـه : فقـد كلف أستـاذ الجامعة جان بوتي ، أن يقوم بالدفـاع عن قتل الظلم . واتهم لويس أورلئـان بكل الجرائم وأدين بعنف ، وأثني على القـاتـل لأنــه أنقــذ المملكــة ، وهكــذا حصـل جان دون خوف على عفو الملك (٩ آذار ١٤٠٩ م) .

الأرمانياكيون والبورغينيون

الاشتباكات الأولى

لقـد عرف دوق بورغونيـا كيف يضم إليـه الملكـة إيـزابـو ، وحصـل في آخر ١٤٠٩ م على أن يوضع ولي العهد لويس تحت حراسته . وهـذه الجرأة المتعـاظمـة

لجان دون خوف حشدت ضده أنصار دوق أورلئان الراحل الذين لم ينسوا جميعاً ذكراه . وكان عمه أبو زوجته ، كونت أرمانياك ، برنارد السابع على رأسهم . وبموجب ميثاق جِيَنْ (نيسان ١٤١٠ م) انضم إليه بيري وبوربون ، وهكذا تألف **الحزب الأرمانياكي** واتخذ لنفسه رمزاً الوشاح الأبيض والقُرّاص ، بينما اعتمر **البورغونيون** القبعة الخضراء وصليب القديس ـ آندره . فأمام القوة البورغونية ، سيدة شمال وشرق فرنسا ، وقفت فرنسا الجنوبية الأرمانياكية . كانت رهانات النزاع شخص الملك ، دمية بسيطة في أيدي الأشياع ، ويد ولي العهد . وكان القتال أيضاً لامتلاك العاصمة . ولكن المعارضات السياسية ، في باريس ، أخذت مظهر نضال اجتماعي نصب البورجوازيين والشعب ضد الطبقة النبيلة . وعلى هذه الأرضية ، كان جان دون خوف ، الذي اعتاد على تسوية المشاكل المدنية في ممتلكاته الفلاماندية أكثرهم مهارة . فأمام الأرمانياكيين الذين يؤلفون حزب كبار الإقطاعيين ، عرف ، منذ عودته إلى العاصمة ، كيف يكسب بكلامه المتملق الشعب الباريزي ويجعله حليفاً له . ولم ينس الباريزيون إذلالات سنة ١٣٨٢ م : وكما في زمن إيتين مارسيل ، كانوا يريدون أن يديروا أنفسهم بأنفسهم ويمارسوا إشرافهم على تسيير الشؤون القومية . وفي الواقع ، كان وسط العاصمة يضم عناصر مختلفة : الجامعيون ، أعضاء البلاطات العاهلية ، لاهوتيون أو حقوقيون ، وكلهم منظرون يحضرون برامج عالمة للإصلاح الإداري ؛ وأصحاب البنوك ، وتجار الأجواخ كانوا بخاصة حساسين بالقضايا الضريبية . وأخيراً ، الأصناف المهنية المحتقرة من الجزارين وباعة أحشاء الحيوانات ، والدباغين ، ويؤلفون جمهور رماة بالمقلاع مستعداً للثورة والنهب .

وخلال أربع سنوات يتقاتل فيها الحزبان ، الأرمانياكيون والبورغونيون ، ويتصالحان طوراً وطوراً ويبدأ كل واحد من جهته بمفاوضات مع إنكلترا ، ظل جان دون خوف سيد العاصمة . ولكن في ١٤١٣ م ، طفح الكيل مع جان دون

خوف المتملق بالمزايدة ، وتجاوزته الحركة الشعبية التي شجعها : ورأى شعب المهن الصغير والمشاغب بأن الإصلاحات التي أعلن عنها تتطلب الانتظار . وفي ٢٧ نيسان انفجرت الثورة في ضاحية القديس ـ أنطوان . وكان زعيمها اللحام الغني سيمون كابوش . وفي بضع ساعات ، أصبح الكابوشيون سادة باريس . وشتموا ولي العهد والملكة إيزابو . وبدأ الجامعيون ، والنبلاء يخافون . وحاول جان دون خوف أن يناور أيضاً : فقد وعد بأن ينشر براءة إصلاحية ؛ ولتهدئة الجمهور ، قرر أن يعمل شيئاً ؛ ولئلا يقلق البورجوازية ، حدد الإصلاحات ماأمكن : فالبراءة التي تسمى البراءة الكابوشية ، هي ، في الواقع ، من عمل بعض الحقوقيين والدوق نفسه ، وأقل جرأة بكثير من عمل ١٣٥٦ م ، واقتصرت على بعض التنقيحات الإدارية . وقد لعب دوق بورغونيا اللعبة وخسرها : وبينما ظل الثوار يقتلون وينهبون ، تفاهم بعض كبار البورجوازيين مع ولي العهد وبدأوا مفاوضات مع الأرمانياكيين الذين استقروا في بونتواز . واضطر جان دون خوف إلى الفرار . وبينما كان برنارد السابع كونت دآرمانياك يدخل باريس ، استشرى القمع ، وأبرم الحزبان المتنافسان هدنة جديدة في أيلول ١٤١٤ م . وكان الأرمانياكيون والبورغونيون يراقب بعضهم بعضاً ، كانوا يحاولون كسب الوقت لأن هؤلاء وأولئك بدأوا من جديد بمفاوضات مع إنكلترا مفضلين الأحقاد الحزبية على مصلحة الأمة . كانت اللعبة خطيرة : فأمام فرنسا الممزقة دوماً ، خرجت إنكلترا من أزمة طويلة ووجدت تلاحمها وقوتها .

النهوض الإنكليزي السريع والفوضى الفرنسية

أ ـ آل لانكاستر والنهوض الإنكليزي

خلال العقود الأخيرة ، اجتازت إنكلترا أزمة شبيهة بالأزمة التي هزت فرنسا ؛ ولم تستطع ، بهذا الواقع ، كيف تفيد من الانقسامات الفرنسية للحصول على تفوق حاسم . وفي الواقع ، في ١٣٧٧ م ، عند وفاة إدوارد الثالث الذي سبقه

ابنـــه ، الأمير الأسـود ، إلى القبر ، افتتـح دور القصـور الشرعي : فلم يكن لريتشارد الثاني حفيد العاهل الراحل ، غير عشرة أعوام ، عندما اعتلى العرش . وتشكل مجلس مـؤلف من أعمـام الملـك ، وبخـاصـة جـان غـانـد ، وبعض كبـار البـارونـات ، واستـولى على السلطـة ، كما في فرنسـا . ونهبت الخـزينـة الملكيـة . ولملئهـا ، أكثر المستشـارون القـائمون على العمـل الضرائب : ففي ١٣٨٠ م ، تقرر دفع ضريبـة الرأس ، التي أعفي منهـا (المتسـولـون الحقيقيـون) وحـدهم . وهـذا الإفراط في الضرائب أدى في ١٣٨١ م إلى ثورة شعبيـة فظيعـة (الثـورة العماليـة) كانت أكثر عنفـاً من الثورة التي قـام بهـا في الوقت نفسـه المطرقيون : كانت ثورة الفـلاحين (اليعقـوبيـة) أولاً مـوجهـة ضـد جبـاة الضرائب والأمراء ، ثم وصلت لندن ، وهدد الثائرون الملـك . وأخيراً ، قضى النبلاء على الثـائرين بعـد مـذبحـة فظيعة . ومع ذلك فما زال الاستيـاء موجوداً ، وانتقل إلى الصعيـد الـديني . فقـد شـايع الفـلاحـون والحرفيـون بعـدد كبير المـذهب الهرطقي الـذي بشر بـه جـون ويكليف . وبدأت ثورة هؤلاء اللولارديين تثقل على البلاد وتقلقها كثيراً .

وعنـدمـا أصبح ريتشـارد راشـداً ، أبعـد في ١٣٨٩ م أعمـامـه عن السلطـة ، وتخلص من البـارونـات الـذين يضـايقـونـه ونفى ابن عمـه الأقرب القـوي هنري دو لانكاستر ١٣٩٨ م . وفي الحال ، بدأ سياسة سلام وتقارب نحو فرنسـا : ويبـدو أن هـدنـات لينغن تسمـح بتسـويـة نهـائيـة لجميع القضـايـا المعلقـة بين الخصمين (١٣٨٩ م) . وأفاد مذهب السلام ، الذي تبنـاه العـاهل ، أعـداءه في الـداخل ، فاتهموه بالضعف وأخذوا عليه بخاصة سلطته المستبـدة . أمـا لانكاستر المنفي فقـد جعل من نفسه زعيم المعـارضـة الإقطـاعيـة : وفي ١٣٩٩ م ، نزل في إنكلترا ، وضم إليه جميع المستائين واستطاع أن يستحوذ على شخص ريتشارد الثاني . وانتزع من أسيره تصريحاً بالتنازل عن العرش وصادق البرلمان على ضربة القوة هذه ، وفي شهر تشرين الأول ١٣٩٩ م ، نـودي بهنري لانكاستر ملكاً على إنكلترا تحت اسم هنري

الرابع . وبعد بضعة أشهر ، توفي ريتشارد معتضداً في زنزانته . ومنـذ ذلـك الحين بـدأ النهـوض الإنكليزي . وكان حكم هنري الرابـع قصيراً كثيراً (١٣٩٩ ـ ١٤١٣ م) ، والحالة الداخلية ما تزال متوترة ليستطيع العاهل الجديد ، بالرغم من رغبتـه ، ـ وقـد أضـاف إلى ألقـابـه لقب ملـك فرنسـا ـ استئنـاف الحرب على القـارة . إلا أنـه على الأقل هيأ استئناف الحرب بتوكيد السلطة التي سينقلها إلى ابنـه : انتصر على مورتيمر ، عم الملك المخلوع الذي قـام ضـده مطـالبـاً بـالعرش . وبوشر بحملات في بلاد الغـال وفي إيكوسيـا . وأخيراً نـاضل بشـدة ضـد اللـولارديين ولاحقهم وحكم عليهم بـالحرق . وعنـدمـا اعتلى هنري الخـامس العرش ، فكر بـاستئنـاف أطماع إنكلترا القـاريـة والإفـادة من الاضطرابـات الـداخليـة في فرنسـا . وكان العـاهل اللانكاستري الثـاني فكراً بـارداً ، واقعيـاً ، ومخـادعـاً . بـدأ عملـه أولاً بـالطريـق الدبلوماسي ، ليقسم ولا شك خصومه بشكل أفضل . وباشر بمفاوضـات مع جـان دون خوف وأراده حليفـاً ، ولكنـه كان بجواره كمنـافس . وفي الـوقت نفسـه بـدأ بتعـاقـدات مـع الأرمـانيـاكيين : وظـاهراً ، يبـدو أنـه قرر أن يقلب التخلي عن (حقوقه) بـالتـاج الفرنسي . ولكن مطـالبـه ازدادت في كل مؤتمر وأصبحت غير مقبولة حتى بالنسبة للحكومة الأرمانياكية الضعيفة . وبيد كاترين ، ابنـة شـارل السادس طالب في الواقع بكل إمبراطورية آل پلانتاجونيه ، بما فيها النورمانـديـا والسيادة على الفلاندر وبروتانيـا . وفي تموز ١٤١٥ م قطعت المفـاوضـات وبـدأت الحرب من جديد .

النكبة الفرنسية في آزينكور وعودة الحرب الأهلية

كان هنري الخامس مستعداً ، ترك إدارة الشؤون الإنكليزية إلى أخيه الـدوق دو بدفورد وسماه وصياً وأبحر في ١١ آب ١٤١٥ م بجيش معبـأ جيـداً نحو السواحل النورمـانـديـة . استولى على هـارفلور (١٨ آب ـ ١٨ أيلول) ، وكإدوارد الثـالث قبل قرن اتجـه بجولـة نحو الشمال واجتـاز نهر السوم (١٩ تشرين الأول) . ولكن

جيش هنري الخامس ، تضايق بسبب رداءة طقس الخريف ، وأنهكه عدو يفوقه عدداً : وإذا بقي جان دون خوف في حال انتظار وتوقع ، فقد جهز الأرمانياكيون جيشاً قوياً . وكان العاهل الإنكليزي في وضع سيء : فقد جدد الأمراء الفرنسيون خطأ كريسي وبواتيه ، وتنازلوا له عن نصر لا يمكن التنبؤ به . وأمام الإنكليز المتخندقين وراء سياج من الغابات ، كان الفرسان الفرنسيون محتشدين على هضبة آزينكور الضيقة ، ولا يمكنهم أن يحملوا على الإنكليز ، وترجلوا عن خيولهم وضاقوا بدروعهم الثقيلة ، وأمطرهم النبالة الإنكليز بوابل من السهام وأنهى عليهم ذود الدروع الدقيقة النسج (٢٥ تشرين الأول ١٤١٥ م) . وبين ضحايا المجزرة وجد القائد الأعلى للجيش دآلبريت ، أنطوان دو برابان وفيليب دو نوفير ، أخوا جان دو خوف . وأسر آرثور دو بروتانيا ودوق دو بوربون وكذلك شارل دورلئان الذي بحث في الشعر عن عزاء لأسره .

وعلى هضبة آزينكور ، أخفق الفرنسيون إخفاقاً جاداً ، ولكن نصر هنري الخامس أبعد من أن يكون حاسماً ، وبعد ثلاثة أسابيع على المعركة أبحر ثانية إلى كاليه بكل جيشه . كان الحادث خطيراً ولا سيا بانعكاساته الداخلية : فقد زاد قليلاً في الفرقة بين الفرنسيين . وغلب الأرمانياكيون وفقدوا الثقة . أما دوق بورغونيا الانتهازي فقد انزلق قليلاً قليلاً في المعسكر الإنكليزي . واستؤنفت الحرب الأهلية بأعنف مما في الماضي بينما باشر هنري الخامس بفتح غرب فرنسا . وفي هذه المرحلة الجديدة من النزاع الذي قاوم فيه الأرمانياكيون البورغونيين ، خسروا تباعاً أفضل حظوظهم : ففي ١٤١٥ م ، توفي ولي العهد لويس قبل أوانه ، وتبعه بقليل أخوه الذي ولد بعده . وسمي ولي العهد الجديد شارل نائباً عاماً للمملكة ، وكان طفلاً خجولاً ودون وجاهة . أما إيزابو فقد اختلفت من جديد مع ابنها ومع الزعماء الأرمانياكيين ، وهربت لدى جان دون خوف ؛ وجرت الملك المريض معها ، ونظمت في تروا حكومة وعهدت بها إلى جان دون

خوف . وأخيراً ، فقد الأرمانياكيون دعم باريس . لقد كانت المدينة جائعة وفقيرة بسبب الرسوم والقروض الإجبارية ، وسئمت الإرهاب الذي نشرته عصابات برنارد السابع الغاسكونية .

وكانت العاصمة باريس حساسة بدعاية دوق بورغونيا . وكان هذا مسيطراً على الأرياف المجاورة ، عندما فتح فتى يافع لجنوده باب سان - جرمن - ديه - پريه (٢٨ - ٢٩ أيار ١٤١٨ م) . وفي باريس التي عادت بورغونية أفلت العنف الشعبي زمامه ، واستطاع ولي العهد شارل الفرار إلى بورج حيث أقام حكومته . ولكن الزعماء الأرمانياكيين الأساسيين ، وبخاصة برنارد السابع قتلهم الجمهور الذي استشرى على جثثهم .

قتل جان دون خوف ومعاهدة تروا

منذ آب ١٤١٧ م ، اطمأن هنري الخامس لحياد دوق بورغونيا ومشاركته في الجرم وللعجز الأرمانياكي ، وباشر بفتح نورماندیا . وفي الأشهر الأولى من عام ١٤١٨ م ، سقطت تباعاً بايّو ، كن ، وفاليز في يديه . وقاومت روان مقاومة فظيعة : حوصر السكان وأهلكهم الجوع ولم يستسلموا إلا في نهاية ستة أشهر (تموز ١٤١٨ م - كانون الثاني ١٤١٩ م) . ومنذ الآن ، أصبح ملك إنكلترا سيد نورماندیا كلها ، وتقدم حتى بونتواز . وقلق جان دون خوف لهذا التقدم الإنكليزي . وحاول التقرب من ولي العهد ؛ وفي ١٠ أيلول ١٤١٩ م نظم لقاء على جسر مونترو بين الرجلين يرافقهما بعض الخدم . وجرى تبادل السباب والشتائم . فهل يستل جان دون خوف سيفه ؟ إن ماحدث هو أن أحد أعضاء حاشية ولي العهد ، تانغي دو شاتيل ضرب دوق بورغونيا ببلطة . إن جريمة مونترو تذكر بالثأر ، لأنها جواب للاغتيال الذي جرى في شارع باربيت : إذ لم يفكر فيليب الطيب ، دوق بورغونيا الشاب ، بأكثر من فقد عدوه ولي العهد شارل . وكان مستعداً في سبيل الوصول إلى غاياته ، لأن يقبل بكل مزاعم هنري الخامس .

ووجد حليفة في الملكة إيزابو التي انجرفت بحياة طويلة من الفجور بصحبة زوج مجنون ولم تغفر لابنها لإبعادها عن السلطة . ولم تتردد باعترافها العام بسوء سلوكها الماضي وتركت إشاعة تنتشر بأن ولي العهد ولد غير شرعي . فكيف ، في عصر امتزجت فيه الوطنية (حب الوطن) المتلجلجة بعد مع الوفاء حيال عاهل شرعي ، لا يستولي الاضطراب على عقل الكثير من الفرنسيين ، المستعدين لقبول كل حل يأتيهم بسلام يرغب فيه بحرارة وشدة ؟ ففي هذا الجو تم التفاوض والتوقيع في ٢١ أيار ١٤٢٠ م على **معاهدة تروا** بين هنري الخامس من جهة ، وإيزابو وفيليب الناطقين باسم شارل السادس ؛ ومن جهة أخرى ، قبل هنري الخامس يد كاترين فرنسا ونودي به وارثاً لشارل السادس ومكلفاً بالقيام بالسلطة حالاً باسم حميه المريض . وأعلن أن فرنسا وإنكلترا متحدتان بصورة أزلية . ولكن باتحاد شخصي يترك لكل من البلدين قوانينه الخاصة .

وقبل شعب باريس والجامعة بما يشبه الإجماع المعاهدة . ووافق عليها مجلس الطبقات الثلاث وسجلها البرلمان وجعلها قانوناً أساسياً للمملكة . ومنذ توقيعها بدأت في حيز التنفيذ : وفي ٢ حزيران بورك زواج هنري وكاترين في تروا ؛ وفي الأول من كانون الأول ، دخل الملكان باريس : ووضع شارل السادس في دارة سان ـ پول ، بينما هنري الخامس أقام بلاطه في قصر اللوفر . وفي الوقت نفسه بدأت حملة ضد ولي العهد : واضطر هذا إلى التخلي عن بعض المواقع التي ظلت أمينة على عهده في (جزيرة فرنسا) وأن ينطوي نحو بلاد اللوار (١٤٢١ م) . ويبدو أن الصدفة نفسها شجعت الإنجاز السريع لبنود المعاهدة : ففي ٣١ آب ١٤٢٢ م ، مات هنري الخامس في فانسين . وبعد شهرين انطفأ البائس شارل السادس بدوره . وتقبل طفل لم تبلغ سنه العام الواحد ، هنري ، ولد من زواج كاترين فرنسا مع اللانكاستري ، ورث الإرثين ، وبعناية عمه دوق بدفورد الوصي ، أعلن ملكاً على فرنسا وإنكلترا . فهل تاريخ فرنسا وإنكلترا سيترك المكان لتاريخ الملكية المزدوجة ؟

النهوض الفرنسي

في هذه السنة ١٤٢٢ م ، كانت فرنسا مقسمة ، محرومة من كل وسائلها ، لاتعرف ماتقول وما تفعل ، وأصبحت على شفا الهاوية . وبعد سبعة أعوام جسدت فتاة ساذجة معجزة النهوض القومي . وأصبح ولي العهد شارل السابع ، وكان عليه استرداد مملكته .

فرنسا الثلاثية

أ ـ فرنسا البورغونية

ملكان ، ثلاثة نفوذ ، أربعة أنظمة إدارية : فرنسا ممزقة . إن هنري السادس ، ملك فرنسا بموجب معاهدة تروا ، لم يعترف به إلا في الشمال ـ الغربي من البلاد وغربها ، في الميراث القديم لملوك إنكلترا وفي قسم من المملكة الموروثة عن شارل السادس . وكان الشمال الشرقي كله ممتلكاً لدوق بورغونيا ، ويؤلف عملياً إمارة مستقلة . وأخيراً ، في وسط فرنسا ، في (مملكة بورج) ، ماأن علم ولي العهد بنبأ وفاة أبيه إلا ونودي به ملكاً .

في ١٤٢٢ م ، كانت الدولة البورغونية في حالة تشكل : فقد كان فيليب الطيب على رأس مجموعة ممتلكات ، بعضها واقع على الحدود النظرية لمملكة فرنسا ، والبعض الآخر في أرض الإمبراطورية ؛ دوقية وكونتية بورغونيا ، كونتية نوفير الواقعة على جانبي نهر الصون ، وفلاندر وآرتوا تؤمنان له سلطة عظيمة . والمناطق البورغونية ، التي أبقتها الحروب ، تنتج بوفرة الخمر ، والملح ، والصوف ؛ والبلاد الفلاماندية غنية بزراعتها المحسنة ، وبصناعتها النسيجية ، تجهز الدوق بموارد هامة وتساعده على إقامة جيش لا يمكن إهماله . وقد حاول فيليب بهذه الأراضي المتجمعة عن أسلافه أن يؤلف كلاً متجانساً ، دولة حقيقية . وليلحم جزأي دومينه ويوسعه ، سلك دبلوماسية طموحة : لقد هيأ

كسب هينوت وهولانده وزيلانده والفريز التي تخلت له عنها جاكلين باڤاريا في ١٤٢٨ م وكذلك كسب البرابان في ١٤٣٠ م ، وأخذ يحدث البلبلة في دوقية لوكسمبورغ وفي دوقية اللورين . ومن جهة أخرى ، عمل على تنسيق إدارة مختلف البلاد (الأراضي) : وفي الحقيقة ، اصطدم ببعض المقاومة في القومونات الفلاماندية ، وظفر بالحصول بمهارة على سند له على الشعب الصغير ، وباحترام الأصالة اللغوية للمنطقة . وأحدثت مؤسسات (نظم) مشتركة لكافة ممتلكاته : المجلس الأكبر ، والمستشار الذي أخذ وجه الوزير الأول ؛ مع جان دو توازي ثم نيقولا رولن . وهذه الاهتمامات الخاصة لم تحول الدوق عن السياسة الفرنسية . فقد كان فيليب يشعر بكامل أهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه فيها . وبين فرنسا اللانكاستريين التي يعتبر رسمياً حليفاً لها ، ومملكة بورج التي لم يقطع العلاقات معها نهائياً ، كان حكماً مستعداً ليكون في صف معسكر من يقدم أكثر من غيره ، حسب تطور الحوادث .

ب ـ فرنسا (الإنكليزية)

يبدو في ١٤٢٢ م ، تفوق اللانكاستريين في ميزان القوى : إن نصر أسلحتهم أصبح ، بفضل معاهدة تروا ، وبفضل تلاحم السلطتين المتشكلتين ، انتصار الحق والشرعية . وفرنسا اللانكاسترية تضم عناصر مختلفة : أولاً ، أراضي تنوزل عنها بكل سيادتها إلى ملك إنكلترا بموجب معاهدة ١٣٨٠ م : الغويين ، ملك إرثي قديم ، وكاليه التي أصبحت مستعمرة استيطان ؛ وأضاف لها النورماندیا مع أطرافها الحدودية ، ڤيكسن ، بلاد شارترن ، ومين ، وهي دومين قديم لآل بلانتاجونيه استرجع بالفتح ، وتعتبر السلالة الجديدة نفسها وارثته . ومن مملكة فرنسا الأصلية التي خلفها شارل السادس يشرف اللانكاستريون على بيكارديا ، والشامبانيا وأيل ـ دو ـ فرانس . وفي مجموع هذه الأراضي ، سلك الدوق بدفورد ، الرئيس العسكري والوصي الحاذق ، سياسة مرنة جداً . إن

الأموال الموروثة عن الأبوين ، بما فيها النورماندیا تتمتع بنظام إداري خاص : المصالح العامة ترتبط بلندن لا بباريس ؛ ولكن ، في الوقت نفسه ، ولضم السكان بشكل أفضل ، تنازل بدفورد عن بعض الاستقلال الذاتي المحلي وترك الجهاز الأهلي في مكانه . وهكذا ، في نورماندیا ، يرى أن روان ، مع مجلس كبير ، ومستشارية ووزارة مالية ، أخذت وجه عاصمة سياسية . ومهرت كنْ بجامعة (١٤٣١ م) . وشايع قسم من السكان النظام الإنكليزي . إن الأكليروس الذي يتطلع للسلام كان مطيعاً لأن الكونكورداتو أمنت للحكومة نفوذاً قوياً على سَوْقه . ورضيت البورجوازية التجارية في المدن عن حالة تفيد مصالحها المادية ، فلا شيء بعد الآن يعيق التجارة التي تربط تقليدياً هذه البلاد الغربية بإنكلترا . ولكن إلى جانب هؤلاء (الفرنسيين الجاحدين) أظهر (الفرنسيون الطيبون) معارضتهم : فقد ظلت الطبقة النبيلة النورماندية على العموم وفية لشارل السابع حتى ولو اقتضى هذا الموقف مصادرة أموالها ونفيها .

والفلاحون ، الذين كانوا في نورماندیا بخاصة يشكون الضرائب الثقيلة ، ومتطلبات أمرائهم ونهب الحاميات ، دعوا ضد المحتلين ، حرب أنصار حقيقية . والنضال الذي قام به الأنصار لم يكن دوماً نقياً جداً ولا خالياً من المنفعة ، ووجدت فيه عصابات قطاع الطرق حسابها .

وفي مملكة فرنسا الأصلية ، وعلى الأقل في القسم الذي يسيطر عليه الإنكليز ، كان هؤلاء يمارسون سياسة محافظة جداً : فلم يمس هنري الخامس ولا بدفورد المؤسسات الفرنسية (النظم) ، فقد تركاها كما وجداها مأهولة بالأنصار البورغونيين ؛ وفي حكومة الملك الإنكليزي وجد رجال مثل بيير كوشون ، أحد مؤلفي البراءة الكبرى لعام ١٤١٣ م ، مقرر مجلس الدولة في القصر وأسقف بوڤيه ، أو كاللحام الباريسي جان دو سان - يون الحاكم العام للمالية ، فقد ساعدت أعمالهم على حسن أعمال الإدارة . وكان التحالف البورغوني لا غنى

عنه هنا للحفاظ على النفوذ الإنكليزي . وهذا يعني أن هذا النفوذ كان قليل الصلابة ، هذا فضلاً عن وجود جزر مقاومة للمحتل ظلت قائمة ولا يمكن تحجيمها في منطقة الآرغون أو البارو . وإذا كان الأكليروس الأعلى وأساتذة الجامعة والبرلمانيون قد شايعوا النظام الأخير فإن كثيراً من الناس كانوا أنصار ولي العهد (قلباً وقالباً) أي أنصار شارل . وكان الحكام الإنكليز يستاؤون منهم .

جـ ـ مملكة بورج

كان على اللانكاستريين ، لتأمين سيطرتهم بصلابة ، أن يحجموا (مملكة بورج) . وهذه المملكة بالرغم من الاسم الذي أطلق عليها ، تمثل مجموعة أراضي عظيمة : جنوب فرنسا كله ، باستثناء الغويين . وبين الأقاليم التي اعترفت في ١٤٢٢ م بسلطة شارل ، كان بعضها ، التورين والدوفينه ، تابعاً له بصفة وقف ؛ والأخرى وصلت إليه بطريق أمراء ظلوا أوفياء ، آل آنجو ، آل أورلئان ، آل بوربون ؛ وفي غياب شارل دورلئان ، والشاعر الأسير في إنكلترا ، كان أخوه النصفي غير الشرعي ، جان كونت دو دونوا ، قد وضع نفسه في خدمة شارل السابع ، والدوقة ماريا ، وزوجها الدوق دو بوربون الذي كان أسيراً ، انضمت إلى ملك فرنسا . وفي الجنوب الغربي ، الكونت دو فوا والكونت دآرمانياك كانا أيضاً منضمين إليه . وأخيراً في ليون وفي تولوز ، فرضت البورجوازية الكبرى الوفاء لوارث آل ڤالوا الشرعي . وهذه المملكة ، مملكة بورج ، كانت إدارتها حسنة . وتشكلت فيها الهيئات الإدارية من جديد . وفي بورج ، مقام العاهل العادي ، أقيم المجلس الملكي ، والمستشارية وديوان المحاسبات . وفي بواتيه وجد برلمان وديوان المساعدات ، ووجد جهاز مختص وكفؤ ـ وإن لم يكن دوماً شريفاً كثيراً ـ وضع نفسه في خدمة شارل السابع : ويقصد به عملاء ملكيون عزلوا على إثر النصر البورغوني في باريس وتبعوا ولي العهد في منفاه مثل جان جوفنيل (أبو المؤرخ جوفينال) ، وهو حارس قديم لرئاسة التجار في باريس ، رئيس

ديوان المساعدات . أو هم خدم للأمراء المنضمين ، مثل جان لوفيه ، وهو عميل سابق لدوق آنجو ، وضع على رأس الإدارة المالية . وسعة الأراضي التي يشرف عليها ، وكفاءة الجهاز الإداري أمنا لشارل السابع موارد أعلى ثلاثة إلى أربعة مرات من موارد فرنسا اللانكاسترية ، بفضل الضرائب غير المباشرة ، وضرائب الشاي التي قبلتها المجالس وإلى تزييف العملة ذات التداول الشرعي . فإذن من أين أتى أن فرنسا الدلفينالية تظهر ضعيفة جداً أمام التهديد الإنكليزي ؟ لقد كان ينقصها الزعيم بصورة أساسية . إن شارل السابع الذي كان عمره عشرين عاماً في ١٤٢٢ م لم يكن له المظهر الجسماني الوجيه ولا السمو المعنوي اللذان يصنعان قادة الرجال . فجسمه النحيل والضعيف ، ووجهه الأحمر بعينين نصف مغلقتين هي لرجل يحمل وراثة ثقيلة . وجموده ، وحذره المرضي ليسا من طبيعة تثير التفاني العاطفي . ومع ذلك فشارل لم يكن مجرداً من الذكاء كما يبرهن النصف الثاني من حكمه . إن الثقة بالنفس هي التي تنقص ملك بورج ، الذي تراوده ذكرى مونترو ، وتقلقه قضية ميلاده . لذا كان لعبة الفئات المتآمرة التي تشكلت في بلاطه : الأرمانياكيون الذين يحركهم بخاصة روح الحزب ، وهم أمراء لم يتخلوا مطلقاً عن أن يلعبوا لعبة شخصية ، وكان يجب تغذية تفانيهم بالتنازل لهم عن جزء من المبالغ التي جبيت بصفة ضريبة ، وأخيراً ، محظيون مغامرون عن غير سعة ذكاء وإرادة . ولهذه الأسباب كلها ، بقي المجهود العسكري الذي بذلته مملكة بورج ضعيفاً : إن عصابات أرمانياكية يقودها زعماء مثل لاهير أو مثل آموري دو سيفيراك ، مرتزقة أجانب يعيشون باللصوصية وقطع الطرق ، هذا هو كل جيش شارل السابع . لقد كان ينقص الزعيم ، كما ينقص جنوده ، الإيمان بالقضية التي يدعمونها وهذا ماستأتي به جانّ دارك .

ملحمة جانّ اللورينية الطيبة

أ ـ من عمليات ضعيفة إلى حصار أورلئان

لم تنقطع الحرب ضد الإنكليز، بالنسبة لأنصار ولي العهد، بمعاهدة تروا. ولكنها حتى ١٤٢٧ م امتدت في أقصى اللبس والاضطراب. إن البورجوازي الباريسي الذي تعتبر يومياته بالنسبة للمؤرخ مصدراً ثميناً جداً يشير بكثير من الدقة إلى هذه الصفة: « في هذا الوقت بالذات لم يأخذ الإنكليز، في أي مرة، حصناً بيدهم من الأرمانياكيين، وإذا كان الأمر كذلك صباحاً، أضاعوا اثنين مساء » وهكذا دامت الحرب التي لعنها الله.

لقد انحل النزاع إلى مجموعة أعمال مبعثرة ودون مقياس واسع. وذلك لأن زمن المعارك الواسعة التي يتقابل فيها جيشان والجولات الكبرى قد مضى. وفرضت التجربة جيش المشاة على حساب جيش الفرسان وتكتيك الهجومات المفاجئة. وفي المعسكرين، عهد بالعمليات إلى ممتهنين: وذلك بأن تعقد الحكومة عقداً مع زعيم يتعهد بتطوع الجنود، وهؤلاء الزعماء الحربيون، عندما لا يقومون بالعمليات لحسابهم الخاص، يحاولون أن يداروا جنودهم القليلي العدد دوماً: إن ثلاثة إلى أربعة آلاف رجل يؤلف جيشاً عديداً. ولكن هذا لا يكفي للقيام بعملية واسعة للفتح أو الاسترداد.

إن كل نجاح محلي يلغى بنجاح معادل من الخصم. وهكذا، خلال السنتين اللتين أعقبتا معاهدة تروا، دارت عمليات نشيطة بكفاية، ولكن ما من واحدة منها كانت حاسمة: ضرب ولي العهد الحصار أمام كرافان ـ على ـ يونّ (١٤٢٢ م) ولكن بيرّينه غريسار الذي كان في خدمة اللانكاستريين، استولى على شاريته ـ على ـ اللوار؛ وفي نورماندیا، حقق جيش فرنسي نصراً في لاغراڤيل (أيلول ١٤٢٣ م) ولكنه سحق في ڤرنويْ (آب ١٤٢٤ م). ومن جهة

أخرى ، انقطعت الحرب بالمفاوضات : فقد وجد أمراء في المعسكرين مدفوعون بالمصلحة أو بروح الانتقام ، كانوا مستعدين في كل وقت للمفاوضة : فبين ١٤٢٤ و ١٤٢٧ م عززت عدة تعاقدات دبلوماسية موقف ولي العهد وانتزعت مؤقتاً من اللانكاستريين حليفين من أقوى حلفائهم : أولاً دوق بورغونيا نفسه : ففي أصل برودة العلاقات الآنغلو ـ البورغونية وجدت مغامرة جاكلين باقاريا الصاخبة وارثة هولانده وزيلانده وهينوت . تزوجت جان برابان ، ابن عم دوق بورغونيا الذي يعتبر آنفاً أراضي مهرها كامتداد طبيعي لإمارته الخاصة . وفي ١٤٢١ م ، تركت الدوقة الطائشة زوجها ، وكسرت زواجها وتزوجت الكونت غلوسستر ، أخ بدفورد (١٤٢٣ م) . ورأى فيليب بورغونيا بيأس الأقاليم التي طالما طمع بها تفر من يديه ، فضلاً عن أن غلوسستر نزل في كالييه ليتملكها . وعليه قرر أن يتقرب من ولي العهد ، وفي أيلول ١٤٢٤ م ، وقعت هدنة مؤقتة دامت ثلاثة أعوام . وفي الوثيقة يخلع فيليب للمرة الأولى على ابن عمه شارل اللقب الملكي . وفي الوقت نفسه ، اصطف كونت بروتانيا ، جان الخامس ، في معسكر ولي العهد . وإثر ثورة قصر حقيقية في بورج سمي الكونت ريشمون ، أخوه ، قائداً أعلى للجيش . ولم يبق التفوق الدبلوماسي طويلاً لشارل السابع : فقد عرف بدفورد كيف يطمئن بوعود دوق بورغونيا . وبإسقاط حظوة ريشمون لصالح دساس دون قيمة ، لاترموال ، حوّل ملك بورج عن نفسه التعاطف البروتاني بهذه المناسبة .

وفي ١٤٢٨ م حدث حادث وقطع فجأة التعاقب الرتيب للمراحل الصغيرة الدبلوماسية أو الحربية : فبعد أن أنجز جيش إنكليزي فتح مين والآنجو ، وضع الحصار أمام أورلئان . لقد وجد ثلاثة آلاف وخمس مئة رجل تحت أوامر سالسبري ، ثم تحت أوامر تالبوت ، حاصروا الموقع حيث تخندق الباسل دونوا مع بضع مئات من الرجال فقط .. وكان الجميع مقتنعين بأن نهاية الحرب متعلقة

بمصير المدينة : ومدينة أورلئان تقع على كوع نهر اللوار وتهيمن على واديه . وهذا النهر يؤلف ، بقصوره الأميرية ومدنه التجارية ، قلب فرنسا . وإذا ضاعت المدينة ، أصبح طريق الجنوب مكشوفاً للإنكليز . ولكن أورلئان أكثر من ذلك لكثير من الفرنسيين : إنها رمز . وفي الواقع ، وضعت المدينة في حالة حصار ، على حين أن أميرها ، الدوق دورلئان ، كان أسيراً في لندن ؛ ولم يتردد بدفورد في تجاوز كل التعاملات الفروسية والعدول عن الوعود الشخصية التي أعطاها للدوق . وإذا وقعت المدينة في أيدي الإنكليز بالرغم من الاعتداء على الحق ونكث العهد ، أفلا يكون ذلك دليلاً على أن الله قضى بذلك وانحاز لهنري السادس ؟ في هذا الاضطراب العام كان كل واحد ينتظر إشارة تخلصه من الشك . وفي محيط ولي العهد فهم رهان اللعبة : لقد بذل جهد عظيم لتخليص المدينة . فمن ذلك قطع التموين عن العدو لإجباره على رفع الحصار : ففي ١٢ شباط ١٤٢٩ م ، هاجم جيش فرنسي قافلة مؤن مخصصة للمحاصِرين . إن نهب (سمك الرنكة) ، الذي يؤلف الأساسي من الحمولة في دور الصوم الكبير أو الأربعيني ، مُني بإخفاق ذريع للفرنسيين . وبالرغم من المقاومة البطولية التي أبدتها أورلئان إلا أنها على ما يبدو قد ضاعت . وتصور ولي العهد أن يهاجر إلى إيكوسيا ؛ وكانت أخبار الحصار تنتظر بقلق في فرنسا كلها ، حتى على أطراف المملكة ، في قرية دومريمي الصغيرة . ومن هنا انطلقت راعية ساذجة . وتهيأت لتأتي باليقين والثقة إلى ولي العهد الذي يشك بحقه ، وإلى الفرنسيين الذين يشكون بالنصر .

ب ـ جان دارك تهب لنجدة فرنسا

ولدت جانّ نحو ١٤١٢ م في دومريمي ، القرية الصغيرة الواقعة في وادي نهر الموز ، على أطراف إقليم الشامبانيا واللورين ، في باروّا . أبواها ، جاك دارك وإيزابل روميه ، كانا فلاحين ميسورين . لهما خمسة أولاد ، ثلاثة غلمان ،

وفتاتان ، إحداهما جانيت قبل الأخيرة . لم تتلق أي تعليم ، متفرغة عادة للعنايـة بالمنزل ، وسوق الحيوانات إلى المرج . وهذه الراعيـة التقيـة جـداً ، كانت تشـارك بالمناولة غالبـاً ، وتحب الخشوع في قـابلـة بوا ـ شونو وتصغي طواعيـة إلى خوري الكنيسـة ، غليـوم فرون الـذي يبشر بـإيمـان مصطبـغ بـالحنـان الفرنسيسكاني . وكانت تسمع أيضاً الأخبـار الحزنـة التي تصل إلى القريـة بواسطـة الطريق الكبير الذي تقع عليه القرية ، وإلى المحادثات التي يرثى فيها بشفقة كبرى لحال المملكة . لأن دومريمي وجدت في إمارة ڤوكولور التي ظلت وفية لشارل السـابع . كان عمر الراعية ثلاث عشرة سنة تقريباً عندما رأت ، لأول مرة ، نوراً عظيماً في حـديقـة أبيهـا وسمعت صـوتـاً يحثهـا على حسن السلـوك . ومن ثم ، وعلى طـول السنين ، كانت الرؤى كثيرة ، والأصوات أكثر دقة : القديس ميشيل أحد شفعاء المملكة ، ترافقه قديستان ، كاترين ومارغريت يدفعونها للذهاب (لفرنسا) لمبـاركـة ولي العهد . وعندما حوصرت أورلئان أتاهـا الأمر لتخليص المـدينـة ، وبعـد أن مضى الإرهاب (الرعب) الأول ، ظلت جـانّ مترددة . وأخيراً قررت أن تطيع « لأن الله أمرها بذلك ويوافق على ذلك . فهل كان لها مئة أب ومئة أم ، هل كانت ابنة الملك ، لتذهب مع ذلك » . ولأول مرة يرافقها ابن عم أمها . ذهبت لتجـد روبير بودريكور الرئيس العسكري الملكي في ڤـوكـولـور (أيـار ١٤٢٨ م) . فهـزئ بهـا وردها ناصحـاً بصفعهـا . ومع ذلـك ، اقتربت الحرب من دومريمي : وكان حـاكم الشامبـانيـا مكلفـاً من قبل بـدفورد بـالقضـاء على المنطقـة المحصورة الموالية لولي العهـد ؛ ودمر الجنـود القريـة . وفي الـوقت نفسـه ، وصلت من أورلئـان أخبـار محزنـة أكثر فـأكثر . وعنـدمـا عـادت جـانّ لـدى بودريكـور ، وجـدت الرئيس العسكري أكثر استعداداً لتصديقها . وأرسلهـا أولاً إلى دوق اللورين الـذي سـألهـا وبعد أن أخضعهـا لليمين ، أرسلهـا لولي العهـد نفسـه . وفي آخر شبـاط ١٤٢٩ م ، غادرت جانّ فوكولور على حصان مرتديـة لبـاس جنـدي يرافقهـا حرس قليل . وسلمها بودريكور سيفاً ورسالة إلى شارل السابع . وبعـد جولـة دامت أحـد عشر

يوماً ، وصلت راعية دومريمي إلى شينون في ٦ آذار . وسبقتها إلى الملك ضجة عامة بأنها تحمل رسالة موجهة إلى الملك . ألم تخبر نبوءة بأن المملكة التي أضاعتها امرأة (إيزابو) ستنقذ على يد فتاة عذراء ؟ وكانت مشاكل تنتظرها أيضاً : كان عليها أن تناقش طويلاً لتقبل في القصر ، لأنها رفضت أن تتكلم إلى أي كان غير ولي العهد نفسه . وأخيراً استقبلت في الصالة الكبرى ، حيث كان شارل حذراً دوماً ومتنكراً بألبسة متواضعة وسط جمهور من الأمراء . ودون تردد ذهبت جانّ رأساً إليه وحيته بلقب ولي العهد اللطيف الحبيب . وتبع ذلك حديث سري خرج شارل منه يشع فرحاً ؛ لقد هدأت جانّ الروع الذي كان يعكر ولي العهد في مكان ميلاده .

شعر شارل بالثقة ، وأراد مع ذلك قبل أن يعهد بجيش إلى العذراء أن يحيط نفسه بضمانات . أخضع الفتاة لتحقيق كنسي . وعقدت لجنة برئاسة رئيس أساقفة رنس ، رينيول دو شارتر ، في مدينة پواتيه ، وحصلت من جانّ على أجوبة تبرهن على حسها السليم وتواضعها العميق وإخلاص إيمانها معاً : فهل كانت متأكدة بأنها في حالة فضل من الله ؟ « إذا لم أكن كذلك ، فإن الله يريد أن يضعني فيه ، وإذا كنت فيه ، فالله يحفظني ويرعاني » . وهل كانت متأكدة من الحصول على النصر ؟ « باسم الله يحارب الجنود وما النصر إلا من عند الله » . وصرحت اللجنة في ختام تحقيقها بأنها مشجعة لجانّ ، وجاء جواب اللاهوتيين الذين استشارهم شارل السابع بصفة شخصية مماثلاً ، مثل جان جرسون الذي نصح « بقبول العون الإلهي الذي يبدو بوضوح يدعو إلى الإعجاب » .

جـ ـ من حصار أورلئان إلى مباركة رنس

تهيأت جان منذ الآن للحرب ، وأسست (بيتها) الذي يدخل إليه اثنان من إخوتها ، بيير وجان ، ولونت راية ، وقبل المبادرة إلى السلاح ، أرسلت إلى ملك إنكلترا تهديداً بالانسحاب من فرنسا .

وفي آخر نيسـان ١٤٢٩ م ، غـادرت جـانّ بلوا إلى أورلئـان على رأس جيش عهد إليها به شارل السابع . وكان يرافقها الدوق دالنسون ، ابن عم الملك . المدينة محاصرة جائعة وانحطت معنوياتها . ولكن المحـاصرين أنفسهم ملوا هـذا الانتظـار الطويل ، وكانوا غير قادرين على إبقاء حصار كثيف حول المدينة . وهكـذا ، في ٢٨ نيسان استطاعت العذراء أن تدخل عن طريق النهر مؤنـاً إلى أورلئـان ، وفي اليوم التالي انطلقت بنفسهـا على الموقع ، وأعـادت للسكان شجـاعتهم ، وكهربت دونوا ورجاله ووجهت بنفسها مخارج المدينة .

ومن ٤ إلى ٧ أيار سقطت تباعاً ثلاثة حصون قائمـة على الضفـة اليسرى لنهر اللوار كان فيها الإنكليز حبيسين .

وثبطت همة تالبوت فأعطى في ٨ أيار الأمر بالانسحاب . وبعد حصـار دام تسعين يومـاً تحررت أورلئـان . وهكـذا قـالت الفتـاة العـذراء الحق ، ولم يشـك الفرنسيون بالصفة الإلهيـة لرسـالتهـا ، واستعـادوا ثقتهم بـالقضيـة التي يـدافعون عنها . وفي المعسكر الإنكليزي وصل فتور الهمة إلى بـدفورد واضطر أن يوجـه إلى إنكلترا نـداء « ضـد الجنـود والرؤسـاء العسكريين الـذين تخلـوا عن مـواقعهم برقى فتاة » . وبإنقـاذ أورلئـان حققت جـان دارك نصراً مبينـاً معنويـاً واسعـاً خلص الفرنسيين من اليأس الذي وقعوا فيه .

ومع ذلك لم يكن شارل بعـد ، في نظر الفتـاة العـذراء التي تعكس عواطفهـا على مـا يبـدو عواطف جـزء عظيم من الرأي العـام ، إلا (ولي العهـد الحبيب) . ولإنجاز رسالتها ، كان عليها أن تقود شارل إلى رنس وتباركه . وتردد ولي العهـد أمـــام صعـــوبـــات حملـــة تضطره إلى اجتيـــاز بـــلاد تحت سيطرة الآنغلـــو ـ بورغينيونيين . وكان لاترمـوال ، يحسـد جـانّ ، فحـدثـه بمخـاوفـه . ولكن إرادة الفتـاة تغلبت أخيراً ، لاسيا وأن الانتصـارات العسكريـة كانت تتعـاقب . وفي النصف الأول من شهر حزيران ، نظفت منطقـة اللوار بكاملهـا ، وانتزع الـدوق

دالنسون تباعاً مونغ ، جارجو ، وبوجانسي . وفي ٢٨ حزيران ، أحرز لاهير الرئيس العسكري بحملة شديدة نصر پاتاي . وهلك العديد من الأعداء . وبين الأسرى المرموقين ، وجد تالبوت . واحتشد جيش المباركة في جِيَنْ : ومن كل جانب ، توافد المتطوعون الذين انضموا لصالح ولي العهد . وفي عداد هؤلاء ، يمكن أن نحسب الكونت ريشمون . وعلى طول الطريق ، انكشفت المدن : تروا ، شالون ـ على ـ المارن وهتفت بولي العهد ، وقدمت للجنود المواد الغذائية الضرورية . وفي ١٦ تموز ، دخل شارل باحتفال مهيب رنس ، وفي الغداة ، ١٧ تموز ، باركه رئيس أساقفة رنس رينيول دو شارتر الذي ثبتته الحملة على كرسيه . وعند قدم المذبح ، حضرت جانّ والراية في يدها وشهدت إنجاز تمنياتها جميعاً .

د ـ اليأس والشهادة

يبدو أن كل شيء يدل على أن جان دارك كانت تعتبر آنذاك أن رسالتها قد انتهت ، وتفكر بالانسحاب إلى دومريمي . غير أن رفاقها في السلاح حصلوا على إذن لها لتظل في خدمة الملك . وبعد ظفر رنس ، بدأ لجان دارك دور شكوك وإخفاقات : لقد كانت قليلة الاستعداد للمناورات الواسعة ، وضايقتها دسائس البلاط وحسده ، وأساء الملك دعمها ، ووقع ثانية في جموده المتعارف ، وعرفت جان إخفاقات بَرّدت الرأي الطائش . فمن ذلك أن مغامرات ، مثل كاترين دو لاروشل ، ربما أثرن من قبل أعدائها ، زعمن هن أيضاً بأنهن مكلفات بمهمة إلهية ، وأدخلن الشك في الأفكار .

بدأ الزحف أولاً على باريس . وكانت الحملة تحت رعايات ملائمة : فمن ذلك أن مدن الحوض الباريسي ، لان ، سواسون ، بروفن ، كومبين ، سانليس ، سان ـ دوني فتحت أبوابها . ولكن باريس كانت بورغينية القلب كثيراً فلم تنضم للملك . ومحمية جيداً وكثيراً من قبل بدفورد حتى ليصعب أخذها عنوة : ففي ٨

أيلول ، وجه هجوم ضد باب سان ـ أونوريـه فردّ على أعقـابـه . وجرحت جـان دارك بطعنة سهم . ولم يظهر الملك في الكفاح ، بحجة أن هدنة أبرمت مع فيليب بـورغـونيـا ، حـاكم المـدينـة ، وكافـأ جـان بتنبيـل أسرتهـا وإعفـاء دومريمي من الضرائب ؛ ولكنـه فرض وقف العمليـات . وانكسرت حـدة الاسترداد . وكان مع الأعداء وقت لاسترجاع قواهم ، وبينما شارل السابع يعود لبورج ، حـاولت جـانّ أيضاً أن تناضل ، ولكنها أخفقت أمام شاريتـه ـ على ـ اللوار ، واستطـاع هجوم معاكس أن ينظم نفسه . وفي شهر أيـار ١٤٣٠ م حوصرت كومبين من قبل جنود فيليب الطيب . وفي ٢٣ أيار فكرت جان بأنهـا تستطيع تجـديـد فوز أورلئـان ، وألقت بنفسها على المدينة . وفي اليوم نفسه ، وأثناء خروجها ، انـدفعت بحماستهـا إلى بعيد ، وعندما اندحر رفاقها لم يكن لديهـا من الوقت مـا يمكنهـا من الـدخول إلى داخل سور المدينة . وأسرها الزعيم البورغوني ، التابع لجان دو لوكسمبورغ . وعاملها هذا الأخير بشرف . وما كان شارل السابع ليهتم بمصيرها الذي كان موضع مساومات ومناورات نشيطة : وأخيراً ، في تشرين الثـاني ١٤٣٠ م ، سلمت جـان إلى فيليب الطيب الذي سلمها إلى بدفورد مقـابل ١٠٠٠٠ ليرة ذهبيـة . ونقلت إلى روانّ ، وبدأت شهادتها .

لقد زجت جان في قصر روان الملكي ، في ظروف مادية قاسيـة جـداً ، وبين شتم الجنود . لقد كانت بالنسبة للإنكليز ، أسيرة حرب . ولكن بدفورد اقتنع بـأن تقاضى أمام محكمة كنسية ، فإذا مثلت أمـام محكـة التفتيش وأدينت ، أفلا تفسـد القضية التي تدافع عنها نهائياً ؟ لقد جاءت الفكرة من أكليركيي جامعة بـاريس : أرادوا أن يبرهنوا بأن لجنة بواتيه الكنسية التي أقرت الصفة الإلّهية لرسالة جانّ ، قد خـدعت وأن الفتـاة العـذراء سـاحرة . وتشكلت محكـة وترأسهـا كوشون لأن أسرها تمّ في أبرشيته . لقد كان محباً للإنكليز قانعـاً بـذلـك ومؤمنـاً ، ووجـد هنـا الفرصة لظفر طموحاته السياسية ، وفي الوقت نفسه إشبـاع أحقـاده الشخصيـة .

إن جولة المباركة ، في الواقع ، كانت قد طردته من أبرشيته . جلس إلى جانبه نائب المفتش جان استيفه محرضاً ، والحقوقي جان دو لا فونتين مشاوراً مع كهنة روان . وعدة آباء من نورماندیا وأساتذة من جامعة باريس قاموا بوظيفة مساعدين . وجنب كل من لا يؤمن لهم .

لقد خدم هؤلاء القضاة حزباً ، وأحياناً طموحاتهم الشخصية . ولكنهم كانوا مخلصين : ففي نظرهم تحزبت جان ودعمت الملك المزيف ، وشجعت على الحرب ، وقامت بعمل سيء ، ولا يمكن أن تكون غير ساحرة . إن الشيطان يختبئ فيها ، ولذلك كانوا يرغبون بطرده . ولبلوغ هذه الغاية كانت جميع الأصول شرعية : من تخويف ، وأسئلة مخادعة ، وأسئلة منهكة ولم يطبقوا التعذيب بعد . إن محاولة فهم وشرح حالة رأي الرجال الذين يحكمون بمعايير غير معاييرنا ، ليس فيها مطلقاً ما ينقص شجاعة جانّ النبيلة . وطوال المحاكمة كلها ، كانت بحسها السليم الصلب والمتين وحتى أحياناً ببشاشتها الخبيثة ، تعرف كيف تتجنب الفخاخ المنصوبة لها في بعض الأسئلة ، وبكل بساطة مثيرة للشفقة أعلنت عن إيمانها بالله الذي لا يتزعزع وبحبها لفرنسا . ولكنها فسحت مجالاً لمتهميها بإقامة تميز بين خضوعها المباشر لله والخضوع للكنيسة الذي يطلب منها . وتوالت الاستجوابات حتى ١٧ آذار ١٤٣١ م . وفي ٢٧ منه ، قرئ قرار الاتهام بحضور جانّ . وعندئذ سقطت مريضة . وما كادت تستعيد صحتها حتى أقتيدت إلى مقبرة سانتوان (٢٤ أيار ١٤٣١ م) حيث طلب منها أن توقع صيغة استدراك أي الرجوع عما صرحت به سابقاً . وإذا انتصر كوشون ، غضب بدفورد ، ولكن جان استدركت قولها . ولدى رجوعها إلى سجنها ، رجعت عندئذ عن جحودها . ومنذ الآن لا شيء يمكن أن ينقذها واعتبرت هرطقية ومذنبة وحكم عليها بالموت حرقاً .

وبعد أزمة يأس قصيرة ، تقدمت جان بشجاعة إلى كومة حطب المحرقة التي

رفعت في ساحة السوق ـ القديم : وفي ١٣ أيار ١٤٣١ م لاقت تعذيبها ، وهي تعلن حتى النهاية عن إيمانها . وألقي رماد جسمها المحترق بنهر السين . واعتقد أعداؤها أنهم نجوا منها ، ولكنهم جعلوا منها ، في نظر الشعب ، قديسة وشهيدة . لقد فتحت جانّ للمملكة طريق التحرير .

شارل السابع وتحرير المملكة

ولزم أيضاً أكثر من عشرين عاماً لطرد الإنكليز ، حسب أمنية جانّ ، خارج فرنسا .

أ ـ المصالحة الفرنسية ـ البورغونية

إن أول شرط ضروري للوصول بهذا العمل إلى نهاية طيبة والنجاح به ، كان في المصالحة الفرنسية ـ البورغونية . وفي ديجون كما في بورج ، كانت الظروف مهيأة : فمنذ حزيران ١٤٣٢ م ، تخلى لاتريموال الجريح عن موقعه لدى شارل السابع إلى ريشمون ، الذي كان يبشر منذ زمن طويل بتقارب مع فيليب البورغوني . وهذا الأخير ، من جهته ، شعر بأن الوقت حان للخيار بين المعسكرين بغية الإسهام في النصر . ومنذ موت الفتاة العذراء ، بدا أن ميزان القوى قد رجح لصالح شارل السابع . فلم ينطلق الرؤساء العسكريون الذين كانوا في خدمته بفوز التجريدات فحسب في أطراف نورماندیا أو حول باريس التي ضيقوا عليها تموينها ، وإنما في كل فرنسا . وما فتئت العاطفة المضادة للإنكليز آخذة في التعاظم شاملة في الشجب نفسه (الفرنسيين الجاحدين) . وفي الواقع ، لقد أصبح الاحتلال الإنكليزي غير شعبي : ففي باريس أمر بدفورد بمباركة الشاب هنري السادس في كانون الأول ١٤٣١ م ، ولكنه لم يستطع أن يمحو من الأذهان الانطباع القوي الذي حدث باحتفال رنس ؛ ثم طوى حكومته إلى روان ، وفي المدينة التي نفد مالها ، ازداد الاضطراب ؛ ولزم قمع المؤامرات .

وازداد الاستياء بالضرائب الثقيلة التي أثقل بها بدفورد منطقة باريس والنورماندیا لدعم هذه الحرب التي لاتنتهي . وفي هذه المنطقة الأخيرة قامت الثورات مرات عديدة بين ١٤٣٤ و ١٤٣٦ م .

واقتضت المصلحة الشخصية أيضاً من فيليب الطيب أن يتصالح مع شارل السابع : وفي الحقيقة ، منذ ١٤٣٣ م ، انتهت قضية جاكلين باقاريا تماماً ، وأصبح فيليب كونت هولانده وزيلانده ، وهينوت . أما في الأجزاء الأخرى من دوله ، في لييج ، وبرابان ، فقد كان ملك فرنسا ، بعد تحالفه مع الإمبراطور سيجيسموند ، يغذي ثورة خطيرة على سلطة الدوق .

وأتيحت فرصة التقارب بانعقاد مؤتمر عام للسلام في الغرب : لقد كان البابا أوجين الرابع منهمكاً في تثبيت جاهه ، ولذا حشد في آراس جميع المتحاربين في آب ١٤٣٥ م ، وحاول المصالحة بينهم . وفي ٣١ آب ، رفض مندوبو هنري السادس جميع التنازلات ، وانسحبوا . واستمر البورغونيون في المفاوضات دون الإنكليز ؛ وقدم المستشار الجديد لبورغونيا ، نيقولا رولن ، للدوق حجة لتغيير سياسته : وبهذه المناسبة ، عرف فيليب أن هنري الخامس توفي قبل أن يأخذ إرث شارل السادس ، ولذا لم يستطع نقل هذا الإرث بشكل مقبول إلى ابنه . والمحادثات التي كانت تساق بعجل وعزم وحماسة ، فيما شلَّ موت بدفورد ، في ١٤ أيلول ١٤٣٥ م ، العمل الإنكليزي ، أدت إلى توقيع معاهدة أرّاس في ٢٠ أيلول ١٤٣٥ م . فقد استنكر الملك رسمياً جريمة مونترو وقدم للدوق فيليب تعويضات : **حقوقية** . وذلك بأن يلاحق المسؤولون عن القتل ؛ **ومعنوية** ، مؤسسات ديرانية تشاد على حساب شارل السابع وتكلف بالصلاة على راحة روح الضحية ؛ **مادية أخيراً** ٥٠٠٠٠ ليرة ذهبية ، وأن تكون كونتيات ماكون وأوسير وقصور بار ـ على ـ السين ، ودير لوكسوي ، وقصور بيرون ، ومونديديه وروا ومدن السوم (سان ـ كانتن ، أمْيَن ، ابفيل) ، غرامات مادية يعطيها الملك تعويضاً عن

القتل . وهكذا صفي الماضي ، ونظم شارل السابع وفيليب علاقاتها المستقبلية ، وأعفي دوق بورغونيا شخصياً من أجل أملاكه كلها من كل ولاء للملك . وبالمقابل ، على ورثته أن يقدموا له ولاءهم ، وبإمكان شارل السابع أن يفتدي مدن السوم . ومن جهة أخرى ، أبرم فيليب والملك تحالفاً ، وذلك بأن يقطع الأول علاقاته مع الإنكليز ، والثاني مع الإمبراطور سيجيسموند ؛ فإذا هاجم هنري السادس بورغونيا ، يتعهد ملك فرنسا بأن يبادر لنجدتها .

ب ـ تحرير المنطقة الباريزية وهدنات تور

كان صلح آراس قاسياً على شارل السابع بسعة التنازلات التي أجريت للدوق ، ومخزية بالشكل الذي أخذته : كان على مستشار الملك أن يتوسل على ركبتيه عفو فيليب ، وعلى الملك أن ينفصل عن مشاوريه الأرمانياكيين . ولكن شارل السابع لم يعد وجهاً لرئيس حزب . واعترف به منذ الآن بأنه ملك فرنسا . ولم تدع نتيجة هذا التحويل مجالاً لانتظار : إن جزء المملكة كله الذي انضم إلى هنري السادس بعاطفة بورغونية ، أي بصورة أساسية باريس ومنطقتها ، استرجعها شارل السابع بعد قليل من الزمن . ومنذ الأشهر الأولى لعام ١٤٣٦ م ، استولى الرؤساء العسكريون الملكيون على جميع المواقع الحصينة في المنطقة الباريزية ؛ وبسد الطرق والأنهار ، وجدت العاصمة خاضعة لحصار . وزمجر الاستياء ، وفي ١٣ نيسان نشبت ثورة طردت الحامية الإنكليزية ، واستطاع ريشمون أن ينفذ دون كفاح إلى المدينة التي حررت نفسها .

وفي هذه الانطلاقة التي جرت السكان ، هل سينتهي تحرير الأرض في بضعة أشهر ؟ لقد حدثت ثورات في كل مكان في نورماندیا ، وفي بلاد الكو ، في منطقة ڤير ؛ وذهب ولي العهد لويس لنجدة أهل مدينة ديب الثائرين . ولكن كل هذه الثورات كانت عجلة وينقصها التنظيم ، وظل هنري السادس سيد الأرض كلها ويعتبرها إرثاً شخصياً له : كاليه ، النورماندي ، الغوبين . وفي

الواقع كان الفرنسيون ، كالإنكليز منهكين كثيراً ليستمروا في الحرب . واضطروا إلى توقيع هدنة . وفي الحقيقة ، إن الوضع الإنكليزي كان أبعد من أن يكون لامعاً : ففي حكم الملك الطفل هنري السادس عادت من جديد اضطرابات قصور ريشارد الثاني ؛ وقسم إنكلترا حزبان تشكلا حول عمين للملك أفادا من أوقاف واسعة . الأول **همفري دو غلوستر** ، أخو هنري الخامس وبدفورد ، وتجمع حوله أنصار الحرب حتى النهاية . وكانت إلى جانبه البورجوازية التي تكره الأجانب كثيراً . والثاني ، هنري بوفور ، الكاردينال وأخو جد الملك الشاب ، وقد جعل نفسه بطل السلام . وتبعه قسم من البارونات الذين يرغبون التمتع بالنعم المكدسة بفضل العمليات العسكرية . وبينهم ريشارد يورك ، وهو ينتسب من بعيد لريشارد الثاني ، وكان مكلفاً بأن يحل محل بدفورد في فرنسا ، ويميل على التوالي لهذا الحزب وللحزب الآخر . ولكن شارل السابع كان غير قادر على أن يفيد من هذه الحالة . فقد عرف في داخل مملكته كثيراً من المصاعب : أولاً ، إن وقف النضال الفرنسي ـ البورغوني حرر عصابات عديدة . وهؤلاء الجنود القطاع الطرق الذين سماهم الشعب (السلاخين) عملوا من جوار باريس صحراء حقيقية ، واجتاحوا الشامبانيا ، وبورغونيا والماسيف سنترال . ومن جهة أخرى ، تحرك الأمراء : لأن فديات الحرب التي يدفعونها دمرتهم تماماً ، ويريدون من الملك معونات مالية . وتحزب نبلاء مستاؤون لبعض كبار البارونات أو أمراء الدم الذين عادوا إلى دسائسهم . ففي عام ١٤٣٧ م ، أحبط شارل السابع مؤامرة أعدها الدوق دو بوربون . وفي ١٤٤٠ م ، كان الإنذار أكثر جداً : فقد ضم تألب دوق بروتانيا ، وكونت أرمانياك ودوق آلانسون ، وأفاد من مشاركة ولي العهد لويس بالجرم . وهذه (البراغرية) ـ اسم أطلق ذكرى لاضطرابات بوهيميا ـ ما كادت تقمع حتى بدأ فيليب بورغونيا يتحرك : اعتمد على شارل أورلئان الذي تحرر على يده بعد أسر خمس وعشرين عاماً وعلى جمع من الأمراء (١٤٤٢ م) . وفي هذه الظروف ، منذ سقوط باريس ، كانت متابعة

الحرب رخوة من هـذا الجـانب أو ذاك : لقـد أخفقت جميـع ردود الإنكليز ؛ ومن جهة شـارل السـابع ، لم يستطع أن يستولي إلا على بعض المواقع ، بعض مـدن نهر الواز (كريل وبنتواز) أو ، بعد حملـة في الغويين ، على تـارتـا وداكس . ومنـذ ١٤٢٩ م ، بوشر بمحادثات . وأخيراً في ١٤٤٤ م ، أبرمت في مـدينـة تور هـدنـات عـامـة لعشرة أشهر ، ومن تمـديـد لتمـديـد دامت حتى ١٤٤٩ م . وخطبـة هنري السادس لمارغريت دآنجو ، ابنة أخ شارل السابع كان هدفها الإعداد للمصالحة .

جـ - نهوض فرنسا

لقد كان تعليق الحرب مفيداً لفرنسا بخاصة : لقد تثبتت الملكيـة الفرنسيـة . وأدت سلسلة براءات ملكيـة كبرى إلى ترميم البلاد وإصلاح مـاأفسـدت الحرب . وتحقق هـذا العمل ارتجـالاً ، دون خطـة عـامـة ، ولم يجـد دومـاً تطبيقـاً مبـاشراً وعاماً ؛ ومع ذلك ، فـإن البراءات سهلت العودة إلى الحيـاة الطبيعيـة التي لا غنى عنهـا لعـودة النزاع المنتصر . لقـد أعيـد تنظيم الإدارة الملكيـة : ووطـدت عـودة الهيئات الأسـاسية في الدولة إلى باريس ، وحدة التوجيـه ؛ ولكن الجهـاز الإداري كان عديداً . وأفاد شارل من ذلك لتطهيره بفطنة وتعقل وحـذر في البـدء ، لأنـه وعد في هدنات آراس بأن يحافظ على عـدد من المستشـارين البورغونيين ، ومن ثم بكثير من الشـدة والقـوة . وهكـذا أصبـح تحت تصرفـه إدارة كفـؤ يطمئن لهـا . ولإعطائها الكثير من النفاذ ، شرع بدقة : من ذلـك أن مهلات العـدالـة يجب أن يقصر أجلها ، وسجلت الأعراف ، ودفع للمستشارين أجرهم بـانتظـام لئلا يطلبوا شيئاً من المتظلمين . وأخيراً ، إن التعقيد المتزايد للمشاكل حث شـارل السـابع على اللامركزيـة : قسمت فرنسـا إلى أربع دوائر عموميـة للمـاليـة ؛ ووزعت صلاحيـة المحاكم العدلية : أحـدثت محـاكم المـاليـة في مونبليـه وروان ، وبرلمـانـات في تولوز وبوردو وغرونوبل . وبصورة موازية ، بوشر بإصلاحات مالية : فـالعواهل منـذ بدايـات الحرب ، لم يعيشوا من دومينهم ، ومن أموالهم العـاديـة التي أصبحت غير

كافية . والأموال الاستثنائية ، أي الضريبة ، تؤلف الأساسي لمواردهم . ولفرض الضريبة ، كان على الملك أن يحصل على موافقة المجالس وتحمل ظلاماتها . واستغنى شارل السابع عن مساعدة المجالس في البلاد اللانغدويل وثبت بنفسه مبلغ ضريبة القامة (١٤٤٠ م) . وفي لانغدوك ، وفي الإقطاعات الكبرى التي انضمت أخيراً للمملكة مثل الدوفينه ، لم يجرؤ على الاستغناء عن دعوة المجالس . وظل الإصلاح إذن ناقصاً ولكن الموارد المالية تحسنت ، ونظراً للعناية بإدارتها لم يكن من الضروري اللجوء إلى تغييرات العملة .

وبفضل هذه الموارد ، استطاع شارل السابع أخيراً أن يباشر بعمل تنظيم عسكري جديد . كان من اللازم أولاً النضال ضد **السلاخين** المشلحين : إن الإجراءات الأولى التي اتخذت في ١٤٣٩ م والتي تخص الملك بحق **السَّوْق** لم يكن لها نتيجة ، بالرغم من بعض الأمثلة ، مثل إعدام بعض الرؤساء العسكريين ، مثل النغيل دو بوربون . وبفضل هدنات ١٤٤٤ م ، لم يكن الملك مباشرة بحاجة إلى جنود قطاع طرق لتعزيز جيشه ، واستطاع أن يتخلص منهم بإرسالهم إلى القتال في سويسرا ، والألزاس واللورين . وكان من اللازم تجهيز جيش يقبض أعطياته بانتظام بفضل فرض رسم لإمداد رجال الحرب ، ويخدم الملك بطاعة ونظام ، ويترك المكان للجيوش المتكيفة مع الحرب الحديثة .

ولم يجدد شارل السابع بشكل تام . فقد تناول جزئياً براءة شارل الخامس . ومع ذلك ، فإن تطبيق هذه التدابير أبعد من أن يكون تاماً . لأن قطع الطرق لا يزول بين يوم وآخر . وتجربة النبالة الأحرار اصطدمت بمعارضة شديدة من قبل السكان لأنها تعني لهم زيادة في الضرائب . هذا ويجب الاعتراف بأن هذه التدابير أدخلت في الجيش فكرة جديدة تماماً عن النظام وهيأته لاسترداد الأقاليم التي مازالت في أيدي الإنكليز .

د ـ عودة الكفاح والحرب الأهلية في إنكلترا

وبوشرت مفاوضات مع إنكلترا طبقاً لبنود هدنات ١٤٤٤ م : ولكن الإنكليز الذين وعدوا بتسليم إقليم المين لم يبد أنهم عازمون على التنفيذ . أما شارل فربما على ما يبدو أنه خرج أخيراً تحت نفوذ آنيس سوريل محظيته الرسمية ، من مراهقة غافلة جامدة ، وقرر استئناف النضال . وبفضل مستشارين مهرة مثل بيير دو بريزه استطاع أن يحبط دسائس الأمراء . وكان جيشه مستعداً . ثم نقح تكتيك جديد من قبل رؤسائه العسكريين منذ عصر پاتاي[1] والزحف على رنس . فقد عرف هؤلاء أخيراً بأنه كان من الواجب مهاجمة النبالة الإنكليز قبل أن يكون معهم وقت للاعتصام في الخنادق . وعلى أي حال ، إن نمو المدفعية الفرنسية جعل النظام الدفاعي الإنكليزي ضعيفاً . وأخيراً ، استطاع شارل السابع بدوره أن يفيد من أزمة داخلية شلت إنكلترا : إن شكوك السياسة الإنكليزية شجعت خططه التي رسمها . ففي لندن ، كان هنري السادس شاباً ضعيفاً وتقياً انزلق بهدوء في الجنون كجده لأمه ، وتخلى عن السلطة لزوجته مارغريت آنجو ومركيز سوفلك . وكان هذا نصيراً للسلام أوقف غلوستر دون أن يجرؤ أيضاً على مجابهة الرأي . أما على القارة ، فإن نائب الملك في نورماندیا ، الدوق دوسومرست ، طبق بالعكس سياسة إثارات : فنظراً لكونه مستاءً من دوق بروتانيا فرانسوا الأول الذي جاء وقدم ولاءه واحترامه لشارل السابع ، أطلق على مدينة فوجير ، زعيماً من زعماء قطاع الطرق (آذار١٤٤٩ م) . وأصبح منذ الآن للملك فرنسا حجة لاستئناف الحرب : ترك أولاً رؤساءه العسكريين يقاتلون في خدمة الدوق فرانسوا ، ثم ، في تموز ١٤٤٩ م ، صرح بكسر الهدنة وقطعها . ومنذ العمليات الأولى ، المعاكسة للإنكليز ، قامت الحرب الأهلية في إنكلترا . استدعي سوفولك وأعدم : فبين آل يورك أقرب الورثة لريتشارد الثاني ، وآل لانكاستر بدأت الحرب الفظيعة المسماة (حرب

(١) پاتاي Patay مدينة على نهر اللوار غلبت فيها جان دارك الإنكليز في ١٤٢٩

الوردتين) . فكيف تستطيع حاميات النورمانديا والغويين ، التي شعرت بأنها تركت وشأنها ، تستطيع أن تقاوم الهجوم الفرنسي ؟ لقد تم (استرجاع نورمانديا) بأقل من عام ، وسط حماسة السكان الذين ثاروا في كل مكان عند اقتراب الجنود الفرنسيين : وفي آخر تشرين الأول ١٤٤٩ م ، فتحت روانّ أبوابها بعد أن كانت مطوقة . وحاول الإنكليز أن يقوموا برد فعل : جرى الصدام في فورميني ؛ وتخندق النبالة الإنكليز . ولكنهم أخذوا تحت نار مدفعيتين فرنسيتين وسحقهم الفرسان الفرنسيون في (١٥ نيسان ١٤٥٠ م) وأبحرت الجيوش الإنكليزية على عجل . أما من لم يكن لهم وقت للهرب وصمدوا في جيب شربورغ فقد استسلموا في ١٢ آب .

وتبع ذلك أخذ الغويين ، ولكنه بدا صعباً . ففي هذا الإقليم المرتبط منذ ثلاثة قرون بإنكلترا ، كان السكان أقل تحبيذاً بكثير للفرنسيين . بدأت الحملة بانتصار في صيف ١٤٤٩ م بأخذ برجراك وبازا ، وانتهت باستسلام بوردو (تموز ١٤٥١ م) ، وأمر شارل السابع بمعاملة أهل بوردو بكرم . ولكن هؤلاء شكوا من الموقف المنهمك بأصغر الجزئيات والتفاصيل الذي وقفه رجال الإدارة الملكيون ، ومن مطالب رجال الحرب وبخاصة من بطء تجارتهم مع إنكلترا . واستدعوا الإنكليز ، فدخلوا بوردو في تشرين الأول ١٤٥٢ م بفضل ثورة شعبية . وفي ربيع السنة التالية ، دارت حرب حاسمة أمام كاستيلون (١٧ تموز ١٤٥٣ م) . وأبيد الفيلق الإنكليزي من قبل المدفعية الفرنسية وقتل تالبوت . وفي تشرين الأول ، اضطر أهل بوردو للاستسلام للمرة الثانية ، وعوقبوا ، بسبب تخليهم وانفصالهم ، بغرامة ثقيلة . وعاد الجنوب الغربي فرنسياً ، ولم يبق للإنكليز في فرنسا إلا مدينة كاليه ، وهي معسكر متخندق محاط بأرض بورغونية .

وانتهت الحرب ظاهراً ، وبالرغم من أن أي معاهدة لم تأت وتؤيد نهاية هذا النزاع الطويل ، وبالرغم من أن العواهل الإنكليز يحافظون على امتلاك كاليه على

القارة ، فلم يتخلوا عن لقبهم ملك فرنسا . وكانت راحة الشعب دون حدود .

وقدم الاحترام الرسمي إلى التي كانت الصانع الأول للنصر : فمنذ أن دخل شارل السابع روان ، وضع يده على أوراق دعوى جان دارك وأمر بالتحقيق الذي انتهى بإعادة الاعتبار لها (في ٧ تموز ١٤٥٦ م) . وإنها لخاتمة حروب متوالية انتهت بنصر فرنسا وظفر ملكيتها في الوقت الذي وقعت فيه إنكلترا في الفوضى .

لقد أخفق مشروع السيطرة الإنكليزية على فرنسا ، لأن العواهل اللانكاستريين لم ينجحوا في ضم ومشايعة رعاياهم من الفرنسيين . لقد بقي هؤلاء في أكثريتهم موالين للوارث الطبيعي للسلالة القومية . وهكذا ظهر في فرنسا التلاحم الناشئ لدولة .

لقد كان من نتائج حرب المئة عام أنها حولت تماماً وجددت البنية السياسية في أوربة الشمالية الغربية .

وعندما نشبت الحرب كانت فرنسا وإنكلترا ماتزالان ملكيتين إقطاعيتين : أي سيادة ملكية وروابط تبعية أوصالية تتداخل وتتناقض على القارة لتولد نزاعاً إقطاعياً .

إن العمليات العسكرية ، التي قامت بها فرنسا في الجزء الأول من الحرب ، ترجع ، هي أيضاً ، بأسلوبها ، إلى الماضي : فقد تأخر الفرنسيون في كفاح جيش الفرسان عن عصر بطل التعامل به وهذا مادفعها على خط مستقيم إلى نكبة .

أما النهوض ، الذي قام به شارل الخامس فكان قصير الأمد ، في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، وذلك بتشكيل إقطاعية جديدة أكثر خطراً على السلطة الملكية من الإقطاعية الأولى : وهي إقطاعية الأمراء الوقفيين . وهذه العملية التي دفعت إلى الحد الأقصى على القارة ، حيث تشكلت إمارات حقيقية في

داخل مملكة فرنسا ، أدت بهذه الملكية إلى الخسران والضياع .

وإن نشأة العاطفة القومية التي أيقظتها الهزائم وتبلورت حول شخصية جان دارك ، توضح في الجزء الأعظم منها سرعة الاسترداد في عهد الملك شارل السابع .

لقد خرجت فرنسا وإنكلترا من الحرب محولتين ، وأصبحتا منذ الآن دولتين قوميتين حققتا وجدتيهما حول الملكية ، وحلتا روابطهما الأوصالية البالية وفصلتا مصيريهما نهائياً .

الفصل السابع

الآفاق الأوربية الأخرى

إن تاريخ فرنسا وإنكلترا ، عبر حرب المئة عام ، له ، نوعاً ما ، قيمة شاهد يضرب به المثل على التطور السياسي لأوربة الكاثوليكية بين بداية القرن الرابع عشر ومنتصف القرن الذي يليه . وفي الواقع ، لقد اضطربت البلاد الأخرى أيضاً بنزاعات مماثلة ، ولكنها أكثر تعقيداً بكثير . والتحويل فيها إلى دول حديثة ارتسم بوضوح أقل ، لأنه تمّ بنغم أبطأ . لذا ينبغي الاكتفاء ، من أجل المناطق الجرمانية ، والإيطالية ، والإيبرية ، برسم الخطوط الكبرى للتاريخ .

١ ـ ألمانيا وهوامش الجرمانية

في ألمانيا ، كان أفول السلطة الملكية والإمبراطورية الموضوع الكبير في تطور هذا القرن والنصف الذي يليه . ومع ذلك ، ففي داخل هذه التجزئة السياسية ، تشكلت بتواضع بعض الدول ، مثل دولة آل هابسبورغ ، التي تهيأت لتعطي من جديد للعنصر الألماني مكاناً من الصعيد الأول في أوربة . ولكن ، في الواقع الحالي المباشر ، يلاحظ أفول النفوذ الجرماني في البلاد المجاورة لألمانيا حيث كان يمارس منذ عدة قرون . وفسر بانمحاء الملكية الألمانية .

أ ـ أفول السلطة الإمبراطورية

على عتبة القرن الرابع عشر لم تكن ألمانيا غير تعبير جغرافي : كانت مقسمة إلى إمارات بلاد صغيرة مستقلة عملياً . وكان هذا نتيجة السياسة الطموحة في

الهينة العامة التي سلكها عواهل القرون السابقة : فقد كانوا منهمكين بمنازعات منهكة ضد البابوية ، وتحولوا زمناً طويلاً عن مملكتهم الجرمانية التي استطاعت فيها المدن أن تتحرر وكذلك الأمراء . إن ملك جرمانيا ، بالرغم من اللقب الإمبراطوري الذي تقلده ، لم تكن له إلا سلطة اسمية . وهذا التطور ، لم يشعر به المعاصرون مباشرة ؛ ففي النصف الأول من القرن الرابع عشر ، في عهد لويس باڤاريا (١٣١٤ ـ ١٣٤٦ م) ، يرى ، كما في أجمل زمن قوة آل شتاوفن ، عودة اشتعال النزاع بين الكهنوت والإمبراطورية . فقد كانت كل من السلطتين الروحية والزمنية تدافع عن مثل عليا عفى عليها الزمن ، التيوقراطية لأجل بابا آفنيون ، والإمبراطورية العامة لأجل الملك الذي يسيء الجلوس على عرشه في ألمانيا . وكان المدافعون عن أفكارهم في كل جانب ، يكررون أعمالاً وأقوالاً في عصر ليست من أهله وفي غير زمانها دون كبير نفاذ .

لويس بافاريا والصوفية الإمبراطورية

غداة وفاة هنري السابع ، في آب ١٣١٣ م ، انتخب لويس باڤاريا في ظروف ضعيفة من قبل قسم من الناخبين فحسب ، بينما القسم الآخر من الهيئة الانتخابية رفع إلى السلطة المرشح الهابسبورغي ، **فريديريك الجميل** ، دوق النمسا (تشرين الأول ١٣١٤ م) . ولم يستطع لويس البقاء على العرش إلا بفضل فوز سلاحه في **مولدورف** (في أيلول ١٣٢٢ م) ، الذي ساعده على الاستيلاء على شخص منافسه . وبالرغم من بداياته الصعبة ، فقد التمس بالحال من البابا التتويج الإمبراطوري ، ولكن جان الثاني والعشرين لم يكن مستعداً لقبول طلبه . وبالرغم من أن الحبر الأعظم كان مضطراً للإقامة خارج إيطاليا ، في آفنيون ، كان يفكر بمشاريع سياسية كبرى . فقد ثبتت من جديد علناً المزاعم التي أعلنها سلفه ، كليمان الخامس ، بشأن سيادة البابا على الإمبراطورية ؛ وبهذه الصفة طالب للبابوية بحكم الإمبراطورية عندما يكون العرش شاغراً . واحترس

من التدخل في نزاع يضعف ألمانيا ويشجع مصالحه . وربما كان يفكر بحذف الإمبراطورية بكل بساطة . والأكثر توكيداً هو أنه كان يخطط ، للإفادة من شغور العرش الإمبراطوري ، وبمساندة تابعه روبير نابولي ، بوضع إيطاليا الشمالية تحت إشرافه المباشر . ومنذ ١٣١٨ م ، باشر فيها جان الثاني والعشرون ، مستعملاً طوراً وطوراً الحرمان والقوة المسلحة ، بالنضال ضد القوات الجيبيلية ، وبخاصة ضد آل فيسكونتي في ميلانو . غير أن النجاح غير المنتظر للويس باڤاريا في ألمانيا ، وإرادته الحازمة في لبس التاج الإمبراطوري ، والعودة إلى سياسة سابقيه الإيطالية ، جاءت جميعاً على نقيض مشروعات البابا .

لقد رفض جان الثاني والعشرون أن يعتبر أن النصر قد يكرس سلطة لويس ، وأن المليك أرسل نجدات إلى الميلانيين المحاصرين . لأن هذا يعادل إعلان حرب . ونشب النزاع على صعيد الأفكار وبنفس القوة التي كانت في زمن فريديريك بارباروسا أو فريديريك الثاني : الحرمان (الطرد من الجماعة) ، الدعوة إلى مجمع ، الاتهام بالهرطقة ، ولم يهمل أي سلاح روحي تقليدي . وأمام المزاعم الحبرية ، استعمل لويس حججاً سياسية وروحية .

بادئ ذي بدء ثبت النظرية الألمانية في الانتخاب : وهي أن منتخب الأمراء يملك كل السلطات بما فيها سلطة الحكم ، الإمبريوم ؛ والمصادقة على الانتخاب والتتويج الإمبراطوري على يد البابا ليس لها إلا قيمة إعلان رسمي . لقد انحاز لويس لصالح النظرية التي دعمها مارسيل بادوا وجان دوجاندن مؤلفا كتاب (حامي السلام) ، الذي صدر في باريس ، في ١٣٢٤ م ، ودعما فيه بأن الكنيسة تابعة للدولة بدقة وعليها أن تقصر دورها على الصعيد الروحي ، ووجدا ملجأ في بلاط لويس (صيف ١٣٢٦ م) . وفي الوقت نفسه ، حاول ملك جرمانيا التشكيك بأرثوذكسية الحبر الأعظم : عقد حلفاً مع الإخوة الصغار ،

وبخاصة الروحانيين ، الذين كانوا في ثورة ضد البابا في قضية فقر المسيح المطلق .

وأعلن عن نزاع عنيف ، ولكن الخصمين ، لم يكن لكل منهما القدرة الكافية للدفاع عن الأيديولوجيات التي يبشر بها . لم ينجح البابا في تحريض عدو ملك ضد لويس ، حتى ولا تشكيل حزب معارضين لسياسة العاهل في ألمانيا . ولويس ، من جهته ، لم يحصل على نتائج إيجابية : ففي سياق حملة إيطالية (١٣٢٧ ـ ١٣٢٩ م) استطاع أن يتوج إمبراطوراً في روما ودعا إلى انتخاب عدو بابا راهباً صغيراً وهو بيير دوكوربارا الذي أخذ اسم نيقولا الخامس ؛ ولكن الإمبراطور عندما غادر شبه الجزيرة في آخر ١٣٢٩ م ، لم يؤمن لنفسه أي سلطة حقيقية في إيطاليا ، ومنذ ١٣٣٠ م ، قدم نيقولا الخامس خضوعه لجان الثاني والعشرين . إن حل النزاع الذي تخلد في عهد خلف جان الثاني والعشرين ، وهو بنوا الثاني عشر ، جاء من الذين كانت لهم السلطة الحقيقية في صنع الأباطرة ، الأمراء الناخبين الألمان . غير أن الناخبين ملوا ترددات السياسة الخارجية للعاهل الذي انتقل من الحلف الإنكليزي إلى الحلف الفرنسي ، في النزاع الذي بدأت تتعارض فيه أمتان قلقتان غالباً من سياسته الأرضية التي تهدف إلى تعزيز سلطة بيته بإقطاعه لابنه البراندبورغ والتيرول وكارنتيا ، ولذلك تخلوا عن قضية لويس . وبموافقة البابا الجديد كليمان السادس الذي حرم لويس مرة أخرى ، قاموا بانتخاب **شارل مورافيا** (تموز ١٣٤٦ م) وساعد موت لويس المفاجىء ، بعد بضعة أشهر ، شارل الرابع على استلام السلطة دون كبير صعوبة .

سياسة شارل الرابع الواقعية

لقد كان إخفاق لويس بافاريا ضربة مميتة للصوفية الإمبراطورية ، فمنذ الآن فصاعداً يسود عند العواهل الجرمانيين حالة فكر واقعية ، ويقدم شارل

الرابع عنها أوضح مثال . كان جان دولوكسمبورغ ، ابن ملك بوهيميا ، عاهلاً شاباً تختلف شخصيته عن شخصية أسلافه . وفي بلاط فرنسا ، حيث أرسله أبوه ، تلقى التربية الفروسية التي كانت دارجة على الموضة ، وعلى ساحة القتال ، عرف كيف يعطي عن نفسه صورة طيبة : وعلى هذا النحو شارك في معركة كريسي إلى جانب أبيه الذي لقي فيها وجه ربه . ولكن أذواقه الشخصية وجهته نحو الدراسة بخاصة . وفي باريس تابع شارل دروس الجامعة ، وبخاصة دروس بيير روجه ، أب فيكامب ، كليمان السادس في المستقبل . وهذه الثقافة بشكلها التقليدي أثرت بمآتي الأدب الإنساني الإيطالي الناشئ : لقد كان العاهل صديق بترارك وأقام معه علاقة مراسلة متابعة ولذا كان بغريزته يفضل الوسائل الدبلوماسية على الحرب .

وفي هذا الفن السياسي ظهر شارل الرابع أستاذاً : كان ماهراً في حبك الترتيبات المحكمة ، ويعمل متفائلاً ، ولا يتردد أبداً في اختيار الوسائل . ففي ألمانيا التي أصيبت في عصر وصوله للحكم بوباء الطاعون الأسود ، وهزتها حركات الإبادة ومظاهرات المطوعين المتعصبين كان حكمه الرشيد والمعتدل حكماً مصلحاً لما أفسد الدهر .

وما أن تخلص من معارضة الحزب الباڤاري الضعيفة ، حتى سعى إلى ازدياد سلطته الشخصية . وفي هذا الاتجاه الذي يجب أن تفسر فيه حملاته في إيطاليا وفي مملكة آرل ، لم يستحسن العاهل التخلي عن اللقب الإمبراطوري . ولكن طموحاته كانت محدودة أكثر بكثير من طموحات أسلافه : فلم يكن قصده في هذه المناطق إحياء السلطة الإمبراطورية كما أوحى إليه بترارك ، حتى ولا أن يلعب فيها دور المصالح والموفق ، كما دعاه إلى ذلك وبشكل ملح كولا دي ريانزو . لقد كان لقب الإمبراطور ، في نظره ، مصدر موارد ثمينة ، وواسطة أيضاً لتأمين انتخاب ابنه ، وبالتالي ، مستقبل السلالة . وهذا ما ظهر

جيداً من الحملة الإيطالية الأولى الهامة أكثر من غيرها . إن إقامة شارل في شبه الجزيرة الإيطالية لم يتجاوز الوقت الضروري لتهيئة تتويجه ، في ٥ نيسان ١٣٥٥ م : أي أقل من عام . وفي خلال جولته ، لم يحاول التدخل في منازعات المدن أو الإمارات . وفي كل مكان اعترف بالأمراء أو الأحزاب القائمة على السلطة ، مكتفياً بسحب فوائد مالية عظيمة . والإيطاليون الذين عقدوا الآمال على تدخله يذكرون له شدته وصرامته . وهكذا ترجم المؤرخ الفلورانسي فيلاّني استياء مواطنيه بقوله :

« لقد عاد الإمبراطور إلى ألمانيا وكيسه مفعم بالذهب ، ولكنه مغطى بالعار لأنه حط من قدر الجلالة والإمبراطورية » .

وكان بترارك أكثر عنفاً إذ يقول :

« في الحقيقة ، كان حملتك الرومانية رحلة جميلة ؛ ونقلت إلى ألمانيا تاجين ، التاج الحديدي والتاج الفضي ؛ لم تنقل المجد ، لا ، وإنما فقط اللقب الإمبراطوري الخالي من كل محتوى . ومنذ الآن بإمكانك أن تسمي نفسك إمبراطوراً ، وفي الواقع ، لن تكون غير ملك بوهيميا » .

وعلى الأقل ، إن هذه الحملة الإيطالية حولت زمناً طويلاً الإمبراطور عن السياسة الألمانية . لقد كان شارل الرابع أمير بلاد ألمانيا ، قبل كل شيء ، وحاول أن يؤمن لسلالته سلطة استثنائية . وتتمثل نواة هذه السلطة بصورة طبعية بمملكة بوهيميا . ولذلك لزم فيها أيضاً توطيد السلطة الملكية ؛ فمنذ أن انطفأت سلالة آل برزميسليد القومية في ١٣٠٦ م ، تحررت الطبقة النبيلة التشيكية ؛ وسبق أن الإمبراطور هنري السابع كان قد أقطع المملكة في ١٣١٠ م إلى ابنه جان دولوكسمبورغ ، غير أن هذا ، خلال حكمه الطويل ، اهتم بالمغامرات والمفاخر الفروسية أكثر من اهتمامه بالإدارة . ومنذ وفاة أبيه ، وبخاصة بعد عودته من

إيطاليا (١٣٥٥ م) ، هيأ شارل مشروع مجموعة قوانين تحـدد بـدقـة تحكم النبلاء . وسياسته الاقتصادية ، التي تهدف إلى إخراج بوهيميا من عزلتها ، وتنمية استثمار مناجم الفضة وإنشاء صناعات حديثة ، أمنت ازدهار البلد وكانت بالنسبة للكثيرين في نجاح مشروعه السياسي . وأخيراً عرفت بوهيميا في حكمه حضارة براقة شعت في ألمانيا كلها : ففي براغ أنشأ شارل مدينة جديدة ، وشاد على مخططات قصر اللوفر في باريس قصراً ملكياً وبدأ ببناء كاتدرائية جديدة ، كاتدرائية القديس ـ فيت . وأسست فيها جامعة ، وهكذا جعل من براغ عاصمة فكرية وفنية .

وحول مملكة بوهيميا ، استطاع شارل الرابع أن يجمع كثيراً من الأراضي باستعمال وسائل سلمية دوماً ، مثل الاتحادات الزواجية : إن كسب البالاتينا الباڤارية وقسم من سيليزيا ولوزاس التي لم يضمها أبوه ، وأخيراً البراندبورغ ، يدل على الاهتمام بأن يحصل لمملكته على منافذ تجارية هامة . وأخيراً ، إن زواج ابنه الثاني من وارثة هونغاريا ، هيأ كسب هذه المملكة لآل لوكسمبورغ .

المرسوم الذهبي

وما أن تأمن جاه شارل الرابع بكسب اللقب الإمبراطوري ، وسلطته المادية النامية بسياسة أرضية حاذقة ، إلا وحاول أن يوقف تفتيت مملكة جرمانيا ، والحيلولة دون وقوعها في الفوضى . ولم يفكر هذا الأمير الواقعي مطلقاً باسترجاع السلطة القديمة التي كانت للملكية الجرمانية ولا بركوب التيار الذي يجر ألمانيا نحو الاتحادية (الفدرالية) . لم يبحث إلا في وضع السد أمام هذا التيار وصيانة ماتبقى من السلطة الملكية . فعلى هذه ألا تكون رهان التنافسات التي تزيد في ضعفها في كل انتخاب : ولهذا أعلن شارل الرابع أول عمل دستوري لألمانيا ، المرسوم الذهبي (١٣٥٦ م) ـ من اسم الظرف الذهبي الذي يضم الختم الملكي ـ وينظم هذا المرسوم بدقة الانتخاب الملكي بغية تجنب جميع المنازعات في

المستقبل . أولاً ، الحق الانتخابي ثبت نهائياً . وخفض التقليد شيئاً فشيئاً الهيئة الانتخابية إلى سبعة أعضاء : ثلاثة ناخبين كنسيين ، رؤساء أساقفة ماينس ، وكولونيا وتريف . وأربعة ناخبين علمانيين ، ملك بوهيميا ، وكونت بالاتينا الراين ، ودوق ساكس ومارغراف براندبورغ . ويؤمن المرسوم الذهبي لهؤلاء الأمراء امتيازهم الانتخابي ، ولكنه ينظم التعامل بالنسبة للناخبين العلمانيين : فمنذ الآن يمكن للابن البكر وحده أن يرث الصوت الانتخابي المرتبط بإمارة ؛ وهكذا ينبغي أن تجنب منذ الآن المنازعات بين فرعي أسرة واحدة والممارسة المتواجدة من أميرين لحق التصويت الذي ينجم عنها . وتوقع أيضاً ، في الحالة التي تنطفئ فيها عائلة ، أن يعود الصوت الانتخابي إلى الملك ليتصرف به كيف يشاء . ومن جهة أخرى ، ثبت أصول الانتخاب أيضاً وهو : إن من يحصل على أكثرية الأصوات في مجلس فرانكفورت هو منتخب . ومن ثم يتوج في إكس ـ لا ـ شابل . إن نص المرسوم صوري . فليس التتويج هو الذي يملك العاهل حقوقه الملكية ، وإنما الانتخاب . أما الموافقة الحبرية فلم يرد بها أي ذكر : لقد علمنت الإمبراطورية أي أصبحت علمانية .

وقبل إعلان هذا المرسوم شاور شارل الرابع ، في مجلس نورامبرغ ، الأمراء الناخبين . فقد كان يعلم بأنه لا يستطيع عمل شيء دون مساندتهم ، ولهذا يخول المرسوم الذهبي الأمراء الناخبين وضعاً ممتازاً بين الأمراء الألمان الآخرين : ففي كل عام يجتمعون للمناقشة مع الملك بشؤون المملكة ؛ واعترف لهم بخاصة ، في داخل إمارتهم ، بممارسة كل الرسوم الملكية في العدالة ، ورسوم الطرق والجسور والنقود . وهكذا حول المرسوم الذهبي الإمارات الانتخابية إلى دول صغيرة حقيقية . وبالمقابل ، ضحى عن عمد بمصالح المدن لمصالح الأمراء : ففي المرسوم الذهبي مادة تمنع كل رابطة بين المدن .

وبعد فهل بلغ شارل الرابع الهدف الذي اقترحه على نفسه بنشر المرسوم

الـذهبي ؟ إذا نظر إلى التطور الـلاحـق لـلإمـارات الألمـانيـة ، يمكن القـول إنـه أخفق : لأن الملكية الاتحادية التي أقامها شارل الرابع كشفت عن عجزهـا في عهـد خلفائه السياسيين : لأن الأمراء النـاخبين يعتبرون أنفسهم منـذ الآن حلفـاء أكثر منهم رعايا للملك الذي لا يؤمن لـه المرسوم الـذهبي لا جيشـاً ولا أموالاً متينـة . ومن جهة أخرى ، إن التجزئة السياسية لألمـانيـا لم تتوقف ولم تلجم : لقـد حـاول جميـع الأمراء الألمـان أن يحصلـوا على امتيـازات ممـاثلـة لامتيـازات (الأمراء الناخبين) ، وبالمقابل ، وبشكل متناقض جداً ، إن المرسوم الذهبي ، الـذي يعلن الصفة الانتخابية للملكية ، قد سمح أخيراً للمبادئ السلالية أن تظفر وتنتصر . إن الأمراء النـاخبين وقـد اطمأنوا بـالاعتراف الصريح بحقوقهم الانتخـابيـة قبلوا قليلاً قليلاً فكرة انتخاب ملك الرومـانيين من أسرة واحـدة . وقـد تم هـذا التطور على مرحلتين : لقد أفاد أولاً أسرة شارل الرابع ، أسرة آل لوكسمبورغ ، وفي الواقع لقد نجح العـاهل ، وهو على قيـد الحيـاة ، أن يحصل في الواقع ، على الاعتراف بـابنـه الخاص فنسـلاس وارثـاً لـه . غير أن فنسـلاس (١٣٧٨ ـ ١٤٠٠ م) كان ضحيـة الانقسامات الناشئة في ألمانيـا عن (حيـدة الغرب الكبرى) ، وخلع في ١٤٠٠ م ، ولكن بعد فاصلـة قصيرة لحكم روبير بـافـاريـا (١٤٠٠ ـ ١٤١٠ م) اعتلى العرش الملكي من جـديـد لـوكسمبـورغي ، أخ لفنسـلاس وهـو سيجيسمـونـد (١٤١١ ـ ١٤٣٧ م) عن طريـق النـاخبين وعرف كيف ينهي الشقـاق . وبـه انطفأت أسرة آل لوكسمبورغ . وطبقاً لاتفاق وقع في ١٣٦٤ م ، في برون، ورث بيت آل هـابسبـورغ كل أمـلاكهم الـوراثيـة وكان أيضـاً زعيم هـذا البيت صهراً للإمبراطور الراحل ، وانتخبه الناخبون ملك الرومانيين . ومنذ الآن فصـاعـداً ، وانطـلاقـاً من هـذا الحكم ، حكم ألبرت الثـاني (١٤٣٨ ـ ١٤٣٩ م) ، تـوالى آل هابسبورغ خلال أكثر من أربعة قرون دون انقطاع على عرش جرمانيا . وهذا الظرف لم يساعد على توحيد ألمانيا ، ولكنه شجع على استرجاع السلطة الجرمانيـة في أوربة الوسطى .

ب ـ تراجع النفوذ الجرماني في أوربة

الحدود الجنوبية والغربية : ومع ذلك ففي الظرف المباشر ، انتهت المشاكل الداخلية ، التي جابهتها الملكية ، بتراجع عام للجرمانية على كل الحدود . فقد انفصل مصير إيطاليا أكثر فأكثر عن مصير ألمانيا : ففي بعض مناطق إيطاليا الشمالية تماسكت السيادة الإمبراطورية ؛ ولكن بعد الحملتين الإيطاليتين ، اللتين شنهما شارل الرابع ، ظهر العواهل الألمان بشكل استثنائي جداً في شبه الجزيرة . فبين خلفائه المباشرين كان سيجيسموند الوحيد الذي ذهب إلى إيطاليا واعتمر في روما التاج الإمبراطوري (١٤٣٣ م) . وتراخت الروابط مع مملكة بورغونيا بشكل أوضح أيضاً ، فقد تشكلت إمارات مستقلة أو تدور في الفلك الفرنسي . وهكذا فإن القسم الجنوبي ، باستثناء الساڤوا التي بقيت في نطاق الإمبراطورية ، شكل (مملكة آرل) . وفي ١٣٧٨ م أقطعت هذه نهائياً إلى شارل دو ڤالوا . وكبروفانس وكونتية بالاتينا البورغونية (الفرانش ـ كونته) ، دخل الوادي الأوسط لنهر الرون على هذا النحو في منطقة النفوذ الفرنسي . وفي غرب ألمانيا نفسها شكلت منطقتان هيأتين مستقلتين ذاتياً : انتقلت إمارات البلاد المنخفضة ، إثر انطفاء السلالات المحلية ، إلى أيدي الأمراء الفرنسيين ، أدواق بورغونيا . وكان العواهل الجرمانيون عاجزين عن تطبيق الحق الإقطاعي للإمبراطورية الذي بموجبه يجب أن ترجع الإقطاعات الشاغرة إلى الإمبراطور . ومن جهة أخرى ، استطاعت طوائف الجيبليين في الألب أن تتحرر . ففي القرن الثالث عشر ، ناضل سكان الثلاث (كانتونات الغابية) ، أوري ، شويتز وأنترڤالدن للحصول على حق إدارة نفسهم بنفسهم ، وقضائهم بنفسهم . ومنذ ١٢٩١ م ، اتحدوا ضد تهديد دولة آل هابسبورغ الذين يملكون في المنطقة مختلف حقوق السيادة ومعرفيات عديدة كنسية . وفي القرن الرابع عشر انتصروا على أدواق النمسا بفضل سلسلة انتصارات عسكرية ودبلوماسية حاذقة ، وعلى هذا

النحو دعموا لويس باڤاريا ضد منافسه في الإمبراطورية فريديريك النسا ، وحصلوا على أن تسحب جميع الحقوق التي كان يمارسها آل هابسبورغ في الكونتونات الغابية . وهذه النجاحات جذبت إلى الاتحاد البدائي تلاحمات جديدة من قبل المدن أو الطوائف الجبلية (لوسرن في ١٣٣٢ ؛ زوريخ في ١٣٣٦ ؛ برن في ١٣٥٣ م ...) . وهكذا تشكل (الاتحاد السويسري) الكونفدرالي . وابتداء من الوقت الذي توصل فيه آل هابسبورغ بشكل شبه وراثي إلى الإمبراطورية ، كان من المحتم أن يتحول نضال الكانتونات السويسرية ضد السلالة القائمة على السلطة إلى نضال ضد الإمبراطورية نفسها .

وقف الزحف نحو الشرق

وشهد القرن الرابع عشر أيضاً وقف (الزحف نحو الشرق) نظراً لضعف السلطة المركزية وبطء حركة الاستعمار اللذين قضيا عليه .

لقد كان التطور بخاصة واضحاً في بولونيا . ومع ذلك ، ففي آخر القرن الثالث عشر ، كانت البلاد مسحوقة بالفرسان التوتونيين ، ومغمورة بالفيالق الألمانية ، ولذا كانت فريسة الفوضى لدرجة أن العواهل الضعاف من السلالة القومية ، سلالة آل پياست كانوا غير قادرين على الوقوف في وجهها . وقد حدث النهوض الأول في عهد كازيمير الكبير (١٣٣٣ ـ ١٣٧٠ م) الذي أعاد النظام وضم إلى الجنوب ـ الشرقي غاليسيا وقسماً من فولهيني . ولكن النبلاء البولونيين أعطوا له خلفاً ، أميراً أجنبياً ، لويس آنجو (١٣٧٠ ـ ١٣٨٦ م) الذي كان من قبل ملك هونغاريا ، ولم يكن له من خلف سوى ابنتين ؛ وكانت البنت البكر مخطوبة إلى لوكسمبورغي ، وهو سيجيسموند ، الأمر الذي جعل بولونيا تخاطر كثيراً بوقوعها نهائياً تحت السيطرة الجرمانية . غير أن رعشة قومية أبعدت هذا التهديد : فقد نودي بالبنت الثانية للملك لويس ، وهي الأميرة هدويج

(ملكة بولونيا) ثم فرض عليها النبلاء البولونيون زوجاً ، دوقاً ليتوانياً جاجلّون (١٤٣٤ م) . وألف اتحاد ليتوانيا وبولونيا في أوربة الشرقية ، دولة جديدة كبيرة قادرة على مقاومة الضغط الجرماني : وفي ١٥ تموز ١٤١٠ م حقق الجيش البولوني ـ الليتواني نصراً مبيناً في تاننبرغ (أو غرونيفالد) على فرسان النظام التوتوني وخلال نصف قرن ، توالى النزاع : واضطر الصليبيون الجرمانيون أن يتخلوا تباعاً على طول بحر البالطيك عن الساموجيتيا والبوميريليا ويقبلوا السيادة البولونية على بروسيا الأصلية . ونحو الشرق أصبحت بولونيا حصن الكاثوليكية : لأن الأميرة هدويج ، التي أصبحت قديسة ، صبأ زوجها جاجلون الوثني ودان بالكاثوليكية . وناضل خلفه لاديسلاس السادس (١٤٣٤ ـ ١٤٤٤ م) بشدة ضد الأتراك .

ويلاحظ تقهقر الجرمانية أيضاً في بوهيميا . فالسياسة الحاذقة ، التي سلكها شارل دو لوكسمبورغ (الإمبراطور شارل الرابع) لتقوية سلالته ، فسدت بسرعة على يد خلفائه . ففي عهد ابنه فنسيسلاس انفجرت الأزمة الهوسية الفظيعة : إن جان هوس وجميع الكهنة التشيكيين الذين كانوا يطالبون بإصلاح الكنيسة وينفجرون ضد مساوئ الأكليروس الأعلى من أصل ألماني غالباً ، وجدوا مستمعين مهووسين بين التشيكيين الذين يريدون تحرير بوهيميا من النفوذ الجرماني . وفي شهر تموز ١٤١٥ م ، عندما مثل جان هوس أمام مجمع كونستانس ليبرر نفسه ، طرح في غياهب السجن ثم أحرق على كوم من الحطب المشتعل . أما أخو فنسيسلاس ، ملك هونغاريا سيجيسموند الذي سلم المبشر بطاقة المرور فقد اتهمه التشيكيون بأنه كان سبباً في موته . وعلى وجه الدقة ، إن سيجيسموند هو الذي خلف في ١٤١٩ م أخاه على رأس بوهيميا . وانفجرت ثورة كبرى هائلة وحرم سيجيسموند من حقوقه . وخلال عشرة أعوام ناضل دون نجاح ضد جيوش الفرسان والفلاحين الصغيرة . وفي ١٤٣١ م ، قامت حرب صليبية يوجهها قاصد

رسولي ، ولكنها لم تنجح . واضطرت البابوية أن تفاوض : وترك اتفاق ١٤٣٦ م للتشيكيين استعمال المناولة بعرضيها الخبز والخمر ، رمزاً لفرديتهم الدينية . وعلى الصعيد السياسي غلبت المصالحة أيضاً : فقد استطاع سيجيسموند أن يعترف به ملكاً لبوهيميا . ولكن السلطة الملكية خرجت من هذا النزاع ضعيفة والعاطفة القومية التشيكية قوية . وفي ١٤٣٧ م تمكن سيجيسموند قبل وفاته أن ينقل ، طبقاً لمعاهدة برونّ ، بوهيميا مع كل أمواله الأخرى إلى رئيس بيت آل هابسبورغ ، ألبرت الثاني ؛ ثم انتقلت إلى ابنه الثاني لاديسلاس الضعيف (١٤٥٧ م) . ولكن ، في ١٤٥٨ م انتخب عاهل قومي وهو جورج دو پوديبرادي .

وخلال كل هذه السنوات ، عرفت هونغاريا مصيراً مطابقاً لمصير بوهيميا ، ماراً بلعبة الوراثة إلى أيدي العواهل الجرمانيين أنفسهم . وقامت ضد هؤلاء أيضاً معارضة قومية تحركها الطبقة النبيلة المجرية . ولكن في هونغاريا نقلت هذه المسألة إلى الصعيد الثاني بتهديد أكثر خطورة وهو أن الأتراك أثقلوا على البلاد منذ هزيمة نيكوبوليس (١٣٩٦ م) . غير أن رئيساً عسكرياً باسلاً ، جان هونياد حاول تنظيم المقاومة . وعندما توفي الملك لاديسلاس ، أعطيت هونغاريا هي أيضاً ملكاً قومياً في شخص ابن جان هونياد وهو ماتياس كورڤن . وفي كل مكان في أوربة الشرقية ، انتصرت ، في منتصف القرن الخامس عشر ، القوميات المعادية بعمق للهيمنة الجرمانية .

النفوذ الجرماني في البلاد الشمالية

لقد كان تطور البلاد الإسكاندينافية أقل وضوحاً . فهو يتصف أولاً ببقاء نفوذ جرماني قوي تغلغل عن سعة في الحياة الاقتصادية وحول قليلاً قليلاً النظم الاجتماعية ، وانتزع من هذه البلاد الشمالية جزءاً من أصالتها . وبالرغم من جهود الإسكاندينافيين للإشراف على البحر البالطيك ، كانت الهانس الجرمانية أقوى

وأقدر . لقد كان بإمكان الهانسيين أن يسمحوا لأنفسهم بإقامة ضريبة المرور على مضيق سوند ؛ وفي جميع الموانئ كان التجار من مدينة لوبيك أو إقليم وستفاليا يشكلون مستعمرة أجنبية عديدة تجرمن النظم المدنية . وتغلغلت العناصر الجرمانية بقوة في الطبقة النبيلة أيضاً ، وتبنت أعراف الإمبراطورية في الإقطاعية والنظام الدوميني : فقد كان الفلاحون معتصرين برسوم كبار الملاكين ، ودمرهم بشكل قطعي الطاعون الأسود ووقعوا في تبعية ظلت تجهلها البلاد الشمالية حتى ذلك الحين . وكان الأكليركيون يذهبون إلى ألمانيا لتحصيل دراساتهم في مدارسها .

والصفة الثانية للتطور الإسكانديناڤي هي الميل إلى تجمع البلاد الشمالية الثلاثة في وحدة سياسية واحدة . والاتحاد هنا ليس له نفس المعنى الذي له في بلاد أوربة الأخرى في نفس العصر : فلم يكن القصد حركة قومية برنامجها النضال ضد النفوذ الجرماني . لقد كان ، لكل من البلاد الإسكانديناڤية ، أصالته القومية ، والتوحيد يتفق وإرادة دولة واحدة من هذه الدول ، وهي الدانيمارك ، التي ترغب في الإفادة منه ، وإلى إرادة طبقة اجتماعية واحدة وهي الطبقة النبيلة التي كانت متضامنة اقتصادياً من طرف لآخر مع العالم الشمالي ، وترجح أن تؤلب مصالحها ضد عاهل وحيد . ولذلك حافظ الاتحاد على خصائص بناء مؤقت ، دون انصهار حقيقي في المؤسسات (النظم) ، وكان هذا الاتحاد يطرح على بساط البحث دون انقطاع بتأثير ثورات . ومنذ بداية القرن الرابع عشر ، جعلت صدف الوراثة لبضع سنوات من ماغنوس وارثاً لمملكة النورڤيج ومملكة السويد . ولما كان العاهل فتى قاصراً جداً ، فقد استطاعت الطبقة النبيلة أن تتذوق بعض الوقت فوائد فترة قصوره . وربما شجع هذا تجديد فكرة الاتحاد ابتداءً من ١٣٧٥ م : فقد تزوج هاكون السادس ملك النورڤيج وارثة الدانيمارك ، ووجد ابنه أولاف على رأس مملكتين ، ثم ثلاث ممالك ، إثر حملة فظة

قاسية في السويد . وعندما توفي أولاف انعقد مجلس من الوجهاء والأساقفة في البلاد الثلاثة ، في كالمار ، وقرر الإبقاء على الاتحاد ، وكلفت الملكة - الأم ، مارغريت ، بممارسة السلطة باسم حفيد أخيها إيريك بوميرانيا . وأقامت سياسة إيريك الخرقاء المفضلة كثيراً للعنصر الدانياركي ، ثورة فظيعة : فمن ذلك أن الفلاحين السويديين بقيادة إنجلبركت إنجلبركتسون ، طردوا الحاميات الدانيماركية . وفي بضع سنوات ، تراخت الروابط السياسية بين الدول الثلاث . وكان على ملك الدانيارك كريستيان الأول أن يعيد توحيدها بشخصه في منتصف القرن الخامس عشر . وفي ظل هذا العاهل القوي الذي حاول أن يخلص حكومته من نفوذ النبلاء والأحبار ، وأسس جامعة كوبنهاغن ليحد من هجرة الأكليركيين نحو المدارس الألمانية ، بدا أن إسكانديانافيا الموحدة في حالة تمكنها من أن تصبح دولة كبرى .

٢ ـ شبه الجزيرة الإيطالية

حروب وتحويلات الخارطة السياسية

لقد كانت إيطاليا أكثر من أي منطقة في أوربة الغربيـة ، بين بـدايـة القرن الرابع عشر ومنتصف القرن الذي يليه ، عرضة لمنازعـات معقـدة جـداً تتعـارض فيها المدن والإمارات ، وفي داخل كل منها الشيع والأحزاب . وطبيعة المعارضات (المقاومات) ليست من طبيعة التي كانت في القرن الثالث عشر : إن المنـازعـات بين البابوات والأبـاطرة ، التي مزقت خلال زمن طويل شبـه الجزيرة ، أصبحت في ذمـة المـاضي . فلا هـؤلاء ولا أولئـك قـادرون على دعم مـزاعمهم ، وإن ضعف السلطة الإمبراطورية ، بعد أن ظهر ، منذ آخر القرن الثـالـث عشر ، لم يسـاعـد العواهل الجرمانيين على ممـارسـة سلطـة حقيقيـة على مملكـة إيطـاليـا في الشمال ، وأيضاً ولو بصورة أقل ، التدخل في الجنوب . إن نزول هنري السابع إلى إيطاليـا (في ١٣١٢ م) ، وحملة لويس باڤاريا (١٣٢٨ ـ ١٣٢٩ م) كانتا آخر الظـاهرات المؤقتة العابرة للسلطة الإمبراطورية في شبـه الجزيرة . ومن جهـة بـابوات القرن الرابع عشر ، المنفيين في آفنيون ، كان عليهم ، بالرغم من بعض المحـاولات القويـة كالتي قـادهـا جـان الثـاني والعشرون ، أن يقتصروا على محـاولـة استرداد دولتهم الخاصة ؛ وبالتالي فـإن الحيـدة بـإضعـافهـا سلطتهم الروحيـة ، أعـاقت نشـاطهم الـزمني . وأخيراً ، إن الحليفـة التقليـديـة لـلأحبـار العظـام ، أي مملكـة نـاپـولي الآنجفيـة ، عرفت ، منـذ ثـورة صقلية في ١٢٨٢ م ، مشـاكل داخليـة شلتهـا . وبالتالي ، إن المعـارضـة التقليـديـة بين الحزبين الإيطـاليين الكبيرين ، الغلفيين والجيبيليين ، ضعفت بسرعة لتزول منذ النصف الثـاني للقرن الرابع عشر . ومنـذ

أول القرن يرى أن الغلفيين انقسموا على أنفسهم : وهكذا ، في فلورنسا ، في ١٣٠٢ م.، فإن الجزء المتشدد في الحزب ، السود ، طرد البيض من المدينة باعتبارهم معتدلين كثيراً واتهمهم بالميل لصالح الجيبيلينية . وبالتالي ، إذا ظلت المدن الإيطالية تعلن عن نفسها غلفية أو جيبيلينية ، فالقصد من ذلك آداب سلوك لا تؤثر في شيء على سياستها الخارجية : من ذلك أن فلورنسا خلال كثير من المرات عقدت حلفاً مع مدن اشتهرت بأنها جيبيلينية ، وفي ١٣٥٤ م هددتها ميلانو ، ولم تتردد بدعوة ملك الرومانيين شارل الرابع لنجدتها .

إن حروب القرن الرابع عشر لها أسباب جديدة : لقد كان الأمراء والمدن يناضلون لتحقيق طموحاتهم الأرضية . وقد أسهم حادثان في إعطاء صفة زمنية لهذه الحروب : عدم استقرار الأحلاف بادئ بدء ؛ والعصبات الوقتية العابرة ؛ وتتشكل حسب مصالح الحين ، وتنحل منذ أن يظهر حليف اليوم أقوى من عدو الأمس . ومن جهة أخرى ، إن عدم الأمن العام كان يغذى ، كما كل مكان في أوربة ، بوجود جيوش من المرتزقة الذين يؤجرون خدماتهم لمن يقدم أكثر من غيره .

وهذه العصابات المغامرة (كما تسمى في إيطاليا) تتألف أيضاً في القرن الرابع عشر من أكثرية أجنبية : فرسان ألمان أو هونغاريون يرافقون العواهل أو الأمراء الألمان في حملاتهم في وراء الجبال ، ويبقون بعد ذهابهم قطاع طرق فرنسيين وإنكليز محررين بموجب معاهدة بريتييني (١٣٦٠ م) ، ويبحثون في إيطاليا عن مستخدمين جدد . ولكن في القرن الخامس عشر ، كان الرؤساء العسكريون والجنود في معظمهم إيطاليين : يزجون أنفسهم بصورة وثيقة بالدسائس ومكايد السياسة الإيطالية . وهؤلاء الطغاة ينتقلون من معسكر لآخر ويعملون في الغالبون ليؤلفوا لأنفسهم إمارة . وهكذا كانت الحرب تتولد دون انقطاع .

وفي هذه المنازعات ، كان مركز ثقل إيطاليا ينزلق قليلاً قليلاً من الجنوب نحو الشمال وتتحول الجغرافيا السياسية بشبه الجزيرة بعمق . والتشكيلان السياسيان الهامان ، الدول الحبرية ومملكة صقلية ، المتشكلين في القرون السابقة في جنوب إيطاليا ، فقدا المبادرة في تسلسل السياسة الإيطالية : إن البابا المنفي أو الحاضر كان منشغلاً في حماية نفسه ضد أطماع جيرانه ليفكر أيضاً في بسط سيطرته ونفوذه ؛ ومملكة صقلية التي ردت إلى جنوب الجزمة الإيطالية تدخلت أيضاً وبصورة متفرقة في الشمال ؛ ولم يتخل عواهلها تماماً عن سلوك سياسة إيطالية كبرى . ولكن مملكة صقلية التي كانت ضحية مشاكل سلالية أصبحت بسرعة فريسة تتنازع عليها دول أجنبية في شبه الجزيرة : ملك هونغاريا ، وأسرة فرنسية من آل آنجو ـ فالوا ـ ولا سيما ملك آراغونة ، الذي كان سيد صقلية . وفي شمال إيطاليا ، بالعكس ، يجري تجمع سياسي هام : فعوضاً عن غبار الكومونات التي تجزأت بينها المنطقة في بداية القرن الرابع عشر ، حلت محلها ، بعد مئة وخمسين عاماً ، ثلاث إمارات تشكلت حول ثلاث مدن ، ميلانو ، فلورنسا ، والبندقية . وأصبح هذا التمركز السياسي ممكناً بتطور مزدوج : لأن تحويل الأنظمة السياسية الذي ظهر بنمو الإمارة المدنية ؛ وتشكيل إمارة من قبل أمير يتمتع بسلطة دكتاتورية على الكومون . إن هذه الدول ، التي كانت في حالة تشكل متنافسة في سياستها التوسعية ، انصرفت لحروب مستشرية حتى منتصف القرن الخامس عشر إلى أن بلغت أخيراً بعض التوازن .

إيطاليا الجنوبية

وكذلك الدولتان الجنوبيتان كانتا تتنازعان أيضاً بين كثير من المرشحين للسيادة ، واستسلمتا للفوضى وخرجتا منها ضعيفتين جداً في منتصف القرن الخامس عشر .

أ) الدول الحبرية

في الدول الحبرية كانت سلطة الحبر الأعظم معرضة للخطر بإقامة البابوية في آفنيون . وهذه السلطة ، والحق يقال ، هوجمت بشدة في آخر القرن الثالث عشر ، لأن حالة عدم الأمن التي غذتها المنازعات بين الأمراء العلمانيين وبين أشياع الكومونات التي دفعت كليمان الخامس إلى الإقامة والاستقرار في فرنسا مؤقتاً : وإن غياب الأحبار الطويل لم يكن منه إلا تفاقم الحالة . ففي كل إقليم من الأقاليم الحبرية الخمسة ، كلف رئيس بتأمين الإدارة والعدالة ؛ وفي عهد هؤلاء الموظفين الذين كانوا في الغالب غير أكفاء وأحياناً غير معتبرين بإزعاجاتهم ، كثرت المحاولات لهز وصاية الحكومة الحبرية . وكانت من عمل الأسر الإقطاعية القديمة التي تؤلف دوماً ، في توسيا وفي كامباني ـ البحرية ، العنصر السياسي الهام أكثر من غيره : مثل آل فرانجيباني وآل كولونّا ، وآل غيتاني ، أو آل أورسيني ، وأكثر من ذلك ، وبفضل غياب الأحبار ، يرى أن الاستقلال الذاتي الكوموني ، الذي ظهر متأخراً (في بداية القرن الثالث عشر) وخجولاً ، قد نما في المدن الأساسية ، في أورفيتو ، وفيترب ، وبيروز ، وسبوليت وبولونيا حيث وضع الشعب مؤسسات لنفسه . وروما نفسها ثارت عدة مرات في القرن الرابع عشر ضد السلطة الحبرية ؛ وفي ١٣٤٧ م ، وخلال بضعة أشهر ، أصبحت المدينة تقريباً شبه مستقلة تحت دكتاتورية كولا دي ريانزو . وهذا الكاتب العدل الرسولي ، صديق بترارك ، كان رأسه مفعماً بنصوص قديمة معروفة في المخطوطات أو على أحجار المدينة القديمة . وعندما حمل إلى السلطة إثر ثورة شعبية ، كان يحلم بأن يعيد للشعب الروماني حكم روما ، وحكم إيطاليا وحكم الإمبراطورية . ويرغب أيضاً بعودة البابا إلى روما لتستعيد المدينة دورها كعاصمة للمسيحية . وبعد أن استقبل في الكابيتول ، لقب عمدة المدينة ، ونودي به (الزعيم المبارك بإرادة يسوع ـ المسيح) . بيد أن كليمان السادس أطلق ضده

مرسوماً بالحرمان يشجب هذا التعدي الصريح على السلطة الحبرية . وفي ١٤٣٨ م ، طرد كولادي ريانزو من روما من قبل حزب البارونات الذي اعتمد عليه الحبر الأعظم . وبعد سقوط المحامي عن الشعب حافظت روما على مؤسسات ذات صفة شعبية ، مجلس (المحافظين) ومليشا دائمة .

وأكثر من هذه التجاوزات غير المنطقية التي كانت ترتكبها الكومونات ، كان يقلق السلطة الحبرية ظهور إمارات مدنية في ثغر أنكون ورومانيو : وذلك أن أمراء أعطوا لأنفسهم بطريق الكومونات كامل السلطات وشكلوا إمارات صغيرة حقيقية . وهذه حال آل مونتفيلتره في أوربن ، ومالاتيستا في ريميني ، وآل بولانتا في رافينه . وقوة آل إيست في فراره وكانت أكثر أهمية لأنها تجاوزت ، بامتدادها على مودينا نطاق الدولة الحبرية . وقامت محاولة أولى للاسترجاع بوشر بها انطلاقاً من منتصف القرن الرابع عشر ، وإثرها ، جاء الأحبار للاستقرار في روما ، ولم تحصل إلا على نتائج جزئية : ففي ١٣٥٣ م ، عهد البابا إينوسان السادس إلى الكاردينال البورنوز بسلطات واسعة لتوطيد النظام . والعمليات العسكرية المشتبكة لم تساعد الكاردينال على إخماد نأمة الأمراء ، واضطر أن يقر بشرعية سلطتهم بالتنازل لهم عن لقب نواب الحبر الأعظم . وإثر هذه المهمة ، خيل لأوربينو الخامس أنه يستطيع العودة والاستقرار في روما (١٣٦٧ م) ؛ ولم يقم بها إلا بضعة أشهر ، وكان مهدداً بجنود قطاع الطرق التي دخلت في خدمة بيروز الثائرة ، واضطر أن يعود إلى آفنيون في ١٣٧٠ م . وبعد قليل امتدت الثورة إلى المدن الأخرى في الدولة ، بولونيا ، ڤيترب ، وإلى بعض الأمراء . وتحالف المتمردون مع ميلانو وفلورنسا ، الدولتين الشماليتين اللتين كانتا تؤملان الإفادة من الفوضى للتوسع (١٣٧٥ م) . ولزم عدة شهور لغريغوار الحادي عشر ، الذي جاء للاستقرار من جديد في روما ، لتوطيد النظام وفرض معاهدة على جيرانه .

وما كادت السلطة الحبرية تعود ، وهي ضعيفة جداً أيضاً ، إلا ووضعتها الحيدة الكبرى على بساط البحث : لأنه لم ينضم للحبر الروماني **أوربينو السادس** ولخلفائه إلا جزء من المسيحية ، أما الجزء الآخر فقد اعترف ببابوات آفنيون ، **كليمان السابع** وخلفائه . وفي الدول الحبرية كانت سلطة الحبر (المدني) مع جاهه المعنوي الذي مس ، عرضة لتهديدين : لقد أفادت الكومونات من الحالة وثارت وطردت روما نفسها مراراً عديدة الحبر الأعظم ؛ وثار كبار الإقطاعيين أيضاً وتآمروا مع الأعداء في الخارج ، ودفع أحبار آفنيون ملك فرنسا وأمراء آنجو على حل الشقاق لصالحهم بضربة قوة في روما . وفي الحقيقة إن ملك نابولي لاديسلاس وضع نفسه حامياً (للمدينة) وللبابا الروماني . ولكن هذه الوصاية الضيقة كانت أيضاً أكثر خطراً . وفي ١٤١٧ م ، عندما أعاد مجمع كونستانس إلى المسيحية زعيماً وحيداً في شخص **مارتن الخامس** ، كانت الدولة الحبرية في فوضى كاملة . ولزم البابوات أيضاً ربع قرن ليستطيعوا نهائياً الاستقرار من جديد في المدينة (١٤٤٣ م) ، بعد نضال صعب جداً ، ضد الطغاة الطموحين مثل فرانسوا سفورزا وفورتبر اكتشيو .

ب ـ مملكة نابولي

بالرغم من ضياع صقلية (١٢٨٢ م) والتخلي عن كونتيه آنجو إلى بيت آل ڤالوا بسبب زواج مارغريت آنجو بشارل ڤالوا ، ماتزال ملكية نابولي الآنجفية بعد في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، دولة قوية . إن الملك روبير الذي خلف في ١٣٠٩ م أباه شارل الثاني ، فيما أقام أخوه البكر فرعاً من العائلة الآنجفية على رأس هونغاريا ، كان يحكم على كونتية بروفانس وعلى كل جنوب إيطاليا . وكان يطالب عدا ذلك بلقب ملك القدس والسيادة على إمارة آكاي (منطقة من إغريقية القديمة) في شمال البولوبونيز ، شكلت في القرن الثالث عشر إمارة من الإمبراطورية اللاتينة ثم ارتبطت من جديد بالإمبراطورية البيزنطية في بداية

القرن الخامس عشر) . وتأمنت سلطته بإدارة مركزية جداً موروثة عن العواهل السؤابيين ، وكانت من أصلب السلطات في إيطاليا . والحركة الكومونية لم تتغلغل عملياً في دوله . وبتاريخ وفاته في ١٣٤٣ م بدأ ، لمملكة صقلية دور طويل من الفوضى . وكان خلف العاهل الراحل ، جانّ الأولى ، حفيدته ، تحكم المملكة بشكل بغيض كريه . ولتهدئة معارضة النبلاء الذين رفعوا رؤوسهم ، نهبت مال الخزينة ، وأخذت تغدق المعاشات والامتيازات . ومنذ ذلك الحين لم تعد مملكة صقلية تلعب دوراً من الصعيد الأول في السياسة الإيطالية . وتفاقمت الحال بواقع قضية الوراثة : فقد كان أقرب وارث لجانّ أحد أحفادها وهو شارل دودورازّو (أو دوراس) . وعلى ما يبدو لم تقم أي صعوبة بهذه المناسبة ، عندما وضعت الحيدة الحبرية ومسألة إطاعة المملكة كل شيء على بساط البحث . وإثر الانتخاب الحبري المزدوج ، اعترفت جانّ الأولى بكليمان السابع . وفي روما ، كان أوربينو السادس قلقاً من التهديد الذي قد يتضمنه هذا الانتخاب بالنسبة له ؛ ولذلك قرر أن يتجنبه بالشكل التالي : استنجد بشارل دوراس وتوَّجه تحت اسم شارل الثالث ، وقلده مملكة صقلية . ردت الملكة بتبني وريث لها أخي شارل الخامس ، ملك فرنسا ، لويس ، دوق آنجو (١٣٨٠ م) . ومنذ ذلك الحين بدأت منافسة طويلة بين عائلتي دوراس وآنجو على التاج : ففي شخص شارل الثالث الذي دخل نابولي في ١٣٨١ م ، وقتل الملكة جانّ ، استولى آل دوراس على المملكة . ولكن حزباً آنجفياً تشكل فيها ودعم عدة محاولات قام بها أدواق آنجو ، ولكنها منيت بالإخفاق . وثبت ابن ووارث شارل الثالث ، الملك لاديسلاس (١٣٨٦ ـ ١٤١٤ م) ، سلطة سلالته بالنضال ضد كبار البارونات واستطاع أن يسلك سياسة نشيطة في إيطاليا الوسطى حيث حاول توسيع نفوذه . ولكن جانّ الثانية ، أخته ، التي خلفته كانت آخر ممثل لأسرة منيت بالانطفاء . أما آل آنجو الذين كانوا قد كسبوا البروفانس ، فلم يستطيعوا الإفادة من الفرصة للاستقرار في نابولي . وكاللص الثالث في الخرافة ، دخل ملك

آراغونة ألفونس الخامس ، بموجب زواجه ، في تملك صقلية وسيطر على ساردينيا وقسم من كورسيكا ، وعرف كيف يجعل نفسه سيد نابولي (١٤٤٢ م) . وإلى صقلية التي كان عاهلها الفعلي ، أضاف الأرض اليابسة من جنوب شبه الجزيرة الإيطالية التي اعتبر عواهلها أنفسهم دوماً ملوك صقلية : ولهذا أخذ ملك آراغونة لقب (ملك الصقليتين) .

ج - إيطاليا الشمالية

خلال كل هذا الدور ، تغيرت بعمق الخارطة السياسية لإيطاليا الشمالية : ففي منتصف القرن الخامس عشر ، تركت كثرة الكومونات المستقلة الصغيرة المكان لبعض الإمارات الكبرى . وبأشكال مختلفة ، حسب المناطق ، جرت في كل مكان العملية نفسها التي ربطت تجمع الأراضي بتطور الأنظمة السياسية . ووجدت نقطة الانطلاق في الزخم الذي مارسته الطبقات الدنيا ، طبقات الشعب النحيل في آخر القرن الثالث عشر في الكومونات اللومباردية والتوسكانية لتنتزع من الشعب الطرير حصر الحكم . ولإنهاء المنازعات الأهلية كلف المواطنون في الغالب شخصية ماهرة : هنا حاكم ، وهناك رئيس الشعب ، بحكم المدينة . وهؤلاء الموظفون الكبار من ذوي الصفة الاستثنائية ، والمنتخبون مبدئياً لعام واحد ، نجحوا غالباً في البقاء في السلطة خلال دور طويل ، وأحياناً طوال حياتهم وحصلوا في هذه الحالة على حق تعيين خلفهم . وفي الوقت نفسه ، نمت سلطتهم دون حدود وأصبحوا سادة (أمراء) المدينة . ويكفي لفرد أن يصبح سيداً لعدة مدن ليؤلف لنفسه إمارة . ولم يحدث هذا التطور دون صدام ، لأن الإمارة المدنية التي قبلت كمخرج مؤقت طرحت قطعاً من عدة مدن ؛ ومن جهة أخرى ، إن الرابطة التي توحد مدن إمارة واحدة هي رابطة شخصية صرفاً ويمكن أن تنقطع أخيراً : ولذا ، منذ بداية القرن الرابع عشر ، يرى أن صروحاً سياسية لم تعرف

إلا وجـوداً عـابراً مـؤقتـاً قبـل أن تتصلب ، في منتصف القرن التـالي ، سيطرة البندقية ، وميلانو وفلورنسا .

ويجب أن نضع جـانبـاً الشمال ـ الغربي من شبـه الجـزيرة ، إذ تشكلت فيـه إمـارات محشورة بقوة في الـوديـان الآلبيـة وتتجـاوز النطـاق الجغرافي لإيطـاليـا الأصلية . ويقصد بذلك إمارات من أصل إقطاعي كان واضع اليـد عليهـا تـابعـاً للإمبراطور . وتوسعت فيها حركة المـدن قليلاً . وفي بـدايـة القرن الخـامس عشر جرى في هذه المناطق تجمع سياسي واسع . إن كونتات الساڤوا الذين وضعوا يدهم منذ ١٣٨٨ م على كونتية نيس وكسبوا منفذاً بحرياً ، أخذوا الإرث من فرع أصغر مقيم في بيمونت . وأخـذ رئيس الإمـارة الواسعـة على هـذا النحـو اللقب الـدوقي . ولكن وضع الدوقية في ملتقى الطرق الآلبية جعل منهـا دولـة في أوربـة الوسطى أكثر منها دولة إيطالية .

أ ـ البندقية

تمثل البندقية نموذج المدينة التي ظلت في مرحلـة الكومون ، أو على الأرجح نموذج سيادة تمارس جماعياً بالأرستقراطية التي تحتكر السلطة ، وهذا لم يمنعهـا من أن تتشكل في إمارة . وتعكس نظمها مختلف مراحل تطورها السيـاسي البطيء : وكان الـدوج وارثـاً للـدوق البيزنطي السـابق . واحتفـال الزواج مع البحر الـذي يطبع تسنمه العرش ، ولباسه الفخم وألقابه تذكر بأنه الأمين على سلطـة ملكيـة . ولكن منـذ ١١٤٣ م ، لم يمسـك هـذه السلطـة عن طريق الإرث بـل عن طريـق الانتخاب . ومن جهة ثانية ، إن سلطته المحـددة بوعود يتعهـد بهـا لـدى اعتلائـه العرش ، هي بخاصة معنوية : فالدوج لا يمكن أن يبت بأي قضيـة . بل يستطيع فقط بآرائـه أن يوجـه سيـاسـة البنـدقيـة . ومجلس الشعب (الآرنغو) يـدل على الدور الـذي أخـذه العنصر الشعبي في القرن الثـاني عشر . ولم يكن المجلس ، منـذ ١٢٦٨ م ، هو الذي ينتخب الدوج . وفي القرن الرابع عشر قلما كان يدعى لاتخاذ

قرار . والشكل الذي له دلالته في البندقية هو أن التعبير (كومون) أخنى عليه الدهر في القرن الخامس عشر . وحل محله التعبير إمارة وبه يدل على الهيئات الأساسية في الحكم البندقي ، أي المجالس . وهذه المجالس تساق في ذلك العصر على سبيل الحصر من الطبقة الأرستقراطية . إن **المجلس الصغير** يشخص الدولة البندقية ، لأنه يمسك بالسلطة التنفيذية : وخص غالباً باسم الإمارة . وإلى جانبه **مجلس الشيوخ** ، ويهتم بوسائل التجارة والملاحة والإدارة . **والكوارانتيا** يؤمن العدلية . وأخيراً **مجلس العشرة** ويكلف بالسهر على أمن الدولة . وأعضاء هذه الهيئات الحكومية المختلفة ينتخبهم مجلس انتخابي يسمى (**المجلس الكبير**) . واستبعد من هذا الأخير ، في بداية القرن الرابع عشر ، كل الشعب . وفيه يجلس فقط أعضاء الأرستقراطية ، أي كل من هم مسجلون على **الكتاب الذهبي** . وعلى هذا النحو تأمنت سيطرة طبقة اجتماعية واحدة دون نزاع أهلي ، ودون اللجوء إلى حاكم . ويرجع نجاح الأرستقراطية البندقية إلى تلاحمها . فهي بكاملها تتفانى في خدمة الدولة وتساعد على نمو إمبراطورية واسعة في البحر والبر .

وفي الواقع ، لقد عرفت البندقية كيف تبقى وتتماسك وتوسع دومينها فيما وراء البحار خلال مئة وخمسين سنة . ومع ذلك فلم يكن هذا العمل سهلاً : باستثناء بحر الأدرياتيك ، حيث ، بفضل ممتلكاتها في إيستري (تريستا) وفي دالماسيا (زارا ودورازّو) تمارس حصراً تجارياً حقيقياً ، ولكنها مافتئت تصطدم بمنافسة جنوة على البحر . لقد كان الجنويون يسيطرون على جزء من تجارة البحر المتوسط ، بفضل وكالاتهم التجارية في إفريقية الشمالية وإسبانيا ، وكانوا حاضرين أيضاً في بلاد الشرق الأدنى حيث كانوا ينافسون البندقية . وهاتان المدينتان البحريتان تملكان أيضاً وكالات تجارية في القسطنطينية ، في لاجازّو (أرمينية الصغرى) ، وفي مملكة قبرص ، وفي الإسكندرية . ومن جهة أخرى ، بينما أمنت البندقية لنفسها مواقع عديدة في اليونان شبه الجزيرة والجزيرة ، في

مودون وكورون في طرف الموريه ، وفي كريت ، وفي جزر سيكلاد وسبوراد وفي أوبيه ، وابتداءً من ١٣٨٢ م في كورفو ، أقام التجار الجنويون بخاصة على شواطئ البحر الأسود ، في كافّا وتانا . وفي القرن الثالث عشر تحولت المنافسة بين هاتين الدولتين الملاحيتين على ضفاف البوسفور ، إلى نزاع . ولكن خلال النصف الأول كله من القرن الرابع عشر ، وبالرغم من أعمال القرصنة المتقابلة ، عاشت البندقية وجنوة بسلام . ولكن السياسة الجريئة لجنوة حرضت النزاع . وفي منتصف القرن باشر التجار الجنويون وبشكل مقلق بتوسيع ممتلكاتهم : كورسيكا ، جزيرة كيو ، مدينة فوسيه ، المشهورة بغناها بكبريتات الألومنيوم والبوتاس (حجر الشب) أصبحت بين أيديهم . وفي كل مكان ، ولا سيا في قبرص ، ظهروا منافسين متشددين . وأخيراً كانوا يزعمون بحصر تجارة البحر الأسود ، وإجبار السفن البندقية على ألا ترسو إلا في ميناء كافّا وأن تدفع رسماً مرتفعاً . انفجرت الحرب في ١٣٥٠ م وتتابعت مع انقطاعات حتى ١٣٨١ م . وخرجت البندقية ظافرة من النزاع : واحتفظت بمواقعها فيما وراء البحار التي ظلت أقوى من أي وقت مضى ، بالرغم من التهديدات التركية .

ومنذ بداية القرن الرابع عشر ، دشنت البندقية سياسة جديدة تماماً أمنت لها أرضاً على اليابسة . فما هي الضرورة التي دعت البندقية إلى كسر عزلتها اللامعة وزجّ نفسها في السياسة الإيطالية وبسط سيطرتها في وادي نهر البو ؟ يرجع ذلك أولاً إلى دواعي اقتصادية : فقد كان تجار اللاغون (الفرجة البحرية التي أمام البندقية) يقيمون علاقات تجارية نشيطة جداً مع البلاد الجرمانية . ولذا كانوا بحاجة إلى السيطرة على طرق الوصول إلى الشمال ؛ ومن جهة أخرى ، رأت البندقية أن توطد سيطرتها السياسية على مدن الخليج ، للحفاظ على حصر تجاري شديد ؛ وأخيراً إن الخسارة المؤقتة ، العابرة ، التي منيت بها في بلاد المشرق لم يكن منها إلا حثها على البحث عن تعويضات لها في إيطاليا نفسها . ومنذ

ذلك الحين زجت البندقية نفسها في الترتيبات السياسية في شبه الجزيرة . وقد اصطدم برنامج فتحها بإمارات صغيرة متشكلة من قبل في الجزء الشرقي من سهل البو ، مثل إمارة آل سكاليجر في ڤيرونه ، وإمارة آل كرّاره في بادوا التي اضطرت لتدميرها . ولكنها أخذت بعين الاعتبار أيضاً الطموحات المتنافسة بين المدينتين الكبريين ميلانو وفلورنسا اللتين كانتا الواحدة تلو الأخرى حليفتين لها أو عدوتين . لقد كانت السياسة البندقية الجديدة بائسة في القرن الرابع عشر كله . أما في القرن الخامس عشر فقد شكلت لنفسها أرضاً على اليابسة : ففي ١٤٠٦ م كسبت البندقية الإمارة على تريڤيز ، وفيسانس ، وبادوا ، وفيرونه . وفي ١٤٢٨ م ، أضافت إلى هذه المجموعة بريشيا وبرغام . وعندئذ أصبحت قوة الدولة البندقية عظيمة .

ب ـ دوقية ميلانو

لقد اشتركت نشأة ونمو الإمارة الميلانية باسم أسرتين توالتا تباعاً على الإمارة : آل فيسكونتي وآل سفورزا . هذا ويصعد تولي الإمارة بصفة شخصية في المدينة اللومباردية الكبرى إلى آخر القرن الثالث عشر : أولاً كانت متنازعة بين الغلفيين والجيبيليين ، وثبتت في ١٣١١ م في أسرة آل فيسكونتي ، بفضل مساندة الإمبراطور هنري السابع . ومن ماتيّو الأول ، مؤسس السلالة ، انتقلت السلطة دون كبير صعوبة إلى ذراريه الذين حملوا مثله لقب (النائب الإمبراطوري) . وقد استطاع آل فيسكونتي في عهد جان غاليا (١٣٧٨ ـ ١٤٠٢ م) المخاتل المخادع والسياسي العظيم أن يخطوا خطوة جديدة : فقد رفع الإمبراطور فنسيسلاس النيابة إلى المرتبة الدوقية . وأصبح دوق ميلانو تابعاً للإمبراطور ، ويتصرف منذ الآن بسلطة معززة . وكانت سلطاته شبيهة بسلطات الأمراء الأرضيين الألمان . ومن ثم قلده أمراء إيطاليون آخرون منحهم الإمبراطور أيضاً ألقاباً إقطاعية . وعلى هذا النحو رفع أمير مانتو إلى رتبة مركيز (١٤٣٣ م) ، وأمير فراره إلى

رتبـة دوق (١٤٥٢ م) . ورافق صعود آل فيسكونتي ازديـاد الأراضي التي وضعت تحت نفوذهم . فمن ذلـك أن أوائل آل فيسكونتي شكلوا إمـارة واسعـة تضم لودي ، باڤيا ، پليزانس ، كريمون ، كوم ، وبرغام ، وبريشيا . وعندما استلم جان غاليا السلطة ، كانت له مشاريع طموحة ، كان يحلم جزئياً على الأقل بتحقيق الوحـدة الإيطالية . بيد أن تطلعاته اصطدمت بالضرورة بتطلعات البنـدقيـة وتطلعـات فلورانسا . ونحو الشرق ، استطـاع أن يفرض إمـارتـه على فيرونـه ، وفيسـانس ، وبادوا التي كان البنادقة يطمعون بها عبثاً . وفي سياق السنتين ١٣٩٩ و ١٤٠٠ م ، حول أطماعه نحو إيطاليا الوسطى : واعترفت تباعاً بإمارتـه كل من بيزا ، وسيين وپيروز . وكان جان غاليا يجمع إلى حرارة الفتح المرونـة في الحكم : فكل مـدينـة من المدن التي كان أميرها ، كانت تحافظ على استقلالها الذاتي ، وأنظمتها الأساسية وامتيازاتها ، هذا فضلاً عن الأموال التي تأتي وتكافىء الخدمـات التي تقـدم . وكان له برنامج أعمال كبرى : مثل بناء كاتـدرائيتي ميلانو والشـارتروز في بـاڤيـا أمنـا العمل . وكانت دوقيـة ميلانيـا في أوجهـا . فقـد فرض جـان غـاليـا السـلام على البندقية وهدد مدينة فلورنسا عندما وافته المنية في أيلول ١٤٠٢ م .

وخلال عشرة أعوام ، اجتازت الدوقية أزمـة خطيرة جـداً . لقـد تجزأت بين أبناء الدوق الراحل ، وأصبحت عرضة لمنـافسـات الأحزاب ، وقـدمت لفلورانسـا والبندقية إمكان الأخذ بثأر عظيم . ففي ١٤١٢ م عادت وحـدة الـدوقيـة لصـالح فيليب ـ ماري فيسكونتي . ولم يكتف هذا الأخير بتوطيد إمارتـه على المـدن التي كانت جـزءاً من الإمـارة ، بـل هـاجم ، في ١٤٢١ م ، مـدينـة جنوة التي تشكل بـالنسبـة لمجموع الـدوقيـة منفـذاً بحريـاً ممتـازاً . أمـا جنوة التي مزقهـا النزاع بين الأحزاب النبيلة التي تستعمل تطلعات الشعب وسيلة سياسية ، فقـد حـاولت أن تعطي لنظمها (مؤسساتها) نوعاً من الاستقرار وذلك بإقـامـة الـدوج على مـدى الحيـاة (١٣٣٩ م) ثم بـاللجـوء إلى إمـارة أجنبيـة ، إمـارة ملـك فرنسـا

(١٣٩٦ ـ ١٤٠٩ م) . ولم تتخلص الكومون من هذه السيطرة إلا منذ اثنتي عشرة سنة ، عندما اضطرت تحت القسر أن تتنازل إلى فيليب ـ ماري بالسلطات الأميرية . وكان هذا مهتماً بالتدخل في رومانيو وفي توسكانا . وهذه الطموحات غير الخفية عقدت ضده حلف البندقية وفلورنسا (١٤٢٥ م) . وبعد حرب طويلة ، اضطر فيليب ـ ماري أن يتخلى عن برغام وبريشيا للبندقية وأن يتعهد بألا يتدخل في توسكانا (١٤٣٣ م) . وكان ذلك ضربة توقف موجهة لسياسة الفتح التي سار عليها أدواق ميلانو . وتفاقمت الحالة أيضاً عندما توفي فيليب ـ ماري في ١٤٤٧ م دون أن يترك وارثاً شرعياً .

استأنف عمله رجل ، حديث عهد بالمجد ، وهو **فرانسوا سفورزا** . كان ابن طاغية شهير في بداية القرن الخامس عشر ، وشكل طغيانه الخاص ووضعه تباعاً لخدمة البابا ، وملكة نابولي ثم فيليب ـ ماري فيسكونتي . ثم إن سفورزا أدرك بأنه مالم يتصرف بأرض لإقامة جنوده وتأمين تموينهم ، فلن يكون غير زعيم عصابة متواضع . وبوضوح إن دوق ميلانو كان يرغب بالثأر من البابا الذي ترأس التألب المعادي لميلانو ، وحض طاغيته السابق على البحث عن ثروة في ثغر آنكون . وعرف فرانسوا كيف يفرض نفسه على المدن وحتى على البابا ، ومنذ ذلك الحين ، أخذ يتدخل في السياسة الإيطالية كأمير يطلب تحالفه أكثر مما هو زعيم مرتزقة تستأجر خدماته . وقد ساعدته عدة تغيرات في المواقف في الوقت المناسب على الاستيلاء على السلطة : دخل أولاً في خدمة العصبة البندقية ـ الفلورنسية ضد مستخدِمه السابق فيليب ـ ماري ، وحصل لنفسه ، في معاهدة ١٤٠٣ م ، على يد بنت غير شرعية لدوق ميلانو مع مدينتي كريمون ومونترومولي . واستطاع بهذا أن يتخلى عن ممتلكاته في ثغر آنكون . وبعد موت فيليب ـ ماري استمر في السياسة نفسها : ففي ميلانو ، تشكلت ، بفضل زوال

آل فيسكونتي ، جمهورية تسمى الجمهورية الإمبروزية على شرف القديس إمبروز شفيع المدينة .. غير أن هذه الجمهورية الناشئة كانت هدفاً لصعوبات عديدة ، واتخذت لخدمتها سفورزا ضد البندقية . ثم انتقل الطاغية لخدمة البندقية للنضال ضد الجمهورية الإمبروزية . وكانت هذه في آخر أنفاسها . وقبلت بأن تعهد بالإمارة إلى فرانسوا سفورزا الذي أخذ لقب دوق في آذار ١٤٣٠ م . وفي فترة بضع سنين وطد وضع الإمارة : تخلى للبندقية عن كل الأراضي الواقعة في شرقي نهر الآدّا ووقع مع البابا وملك نابولي ميثاقاً لمدة خمسة وعشرين عاماً (لسلام إيطاليا) ووجدت دوقية ميلانو توازنها الأرضي .

فلورنسا وآل ميديتشي

في جنوب دوقية ميلانو ، جمهورية مدنية ، **فلورنسا** ، ظلت زمناً طويلاً متعلقة بحرياتها الكومونية . وهذا لم يمنعها ، في القرن الرابع عشر ، من أن تمتد بأرضها على قسم من توسكانا . وإن وصول الإمارة المدنية في القرن الخامس عشر ، تحت الشكل الخاص جداً (إمارة) كوزم دو ميديتشي يتطابق مع عودة إلى سياسة سلمية .

في بداية القرن الرابع عشر ، كانت فلورنسا مهددة بالسياسة الإمبراطورية التي كان يسلكها أمير لوقا ، كاستروكشيو كاستراكاني ، ثم بتطلعات وأهداف جان ملك بوهيميا . فقامت بتجربة مقتضبة لإمارة مدنية . ووضع الفلورنسيون حريتهم بين يدي دوق كالابر (١٣٢٦ م) ومن ثم بين يدي طاغية حقيقي ، غوتيه دو بريين (١٣٤٢ م) . ولم يبق هذا على السلطة غير عام واحد . ومنذ ١٣٤٣ م ، عادت فلورنسا إلى النظم الكومونية : فإلى جانب الحاكم ورئيس الشعب العسكري اللذين يؤاخذان دوماً من الأجانب ، شكلت (السنيوريا) الهيئة الأساسية للحكم . واستقرت في القصر الذي شاده في آخر القرن الثالث عشر

آرنولفو دي كامبيو ، وكانت تضم ثمانية رؤساء أديرة ، وموظف عدلية يؤمنون السلطة التنفيذية خلال شهرين ، ومجلسين يبقيان خلال ستة أشهر . ويجري تعيين هؤلاء الموظفين حسب أصول معقد يجمع بين وضع قوائم للمرشحين والسحب بالقرعة لأسمائهم . وكانت القضية معرفة من يشارك فعلاً بالحياة السياسية للمدينة . ومن حيث المبدأ الحكم خاص بالشعب ، وبتعبير آخر ، إن النبلاء والماغنات محرومون من جزء من الحقوق السياسية ولا يمكنهم أن يشغلوا أي وظيفة شعبية . ولكن (الشعب) لا يمارس سلطاته السياسية إلا بواسطة الأصناف المهنية ، (الآرتي) . وعليه فإن قسماً من الشعب الفلورنسي ، صغار الحانوتيين (الدكانيين) ولا سيما جمهور عمال النسيج ، ليس له الحق في أن ينتظم في صنف . ولذا فهم بالتالي مبعدون عن حياة الكومون . وإذن فالنظام أبعد من أن يكون ديموقراطياً . إنه يميل ، بالعكس ، في اتجاه الأوليغارشية (الأقلية الحاكمة) . وفي الواقع بين واحد وعشرين صنفاً يتوازعها أعضاء (الشعب) ، يرى أن الأصناف السبعة الكبرى التي تضم متعهدي النسيج وأصحاب المصارف يلعبون دوراً أهم بكثير وينزعون إلى أن يحتجزوا لأنفسهم إدارة الحكومة . ولمقاومة الضغوط الخارجية كانت هذه الأوليغارشية من (الشعب الطرير) مضطرة لتطبيق سياسة متأرجحة دقيقة جداً . وفي السنوات التي تلت سقوط غوتيه دو بريين ، بين ١٣٤٣ و ١٣٧٨ م ، تحالف (الشعب الطرير) في بعض الأحيان مع الماغنات ؛ وعندما يطالب هؤلاء الأواخر بكثير من العجرفة حقوقهم السياسية ، يتقرب من (الشعب النحيل) والبورجوازية الوسطى . ولكن البورجوازية العليا لاترى مع ذلك بأن تقوم بتنازلات كبرى لأناس الشعب الصغير (الصغار) . وكان هؤلاء ، في سبيل رغبتهم في المشاركة بالحكم ، يتوصلون بدورهم إلى تطبيق سياسة مغامرة . وبما أن مطالبهم كانت تدفع ، لذلك كانوا يحاولون ، لصالحهم ، استخدام ثورة (عمال النسيج) . ولكن ممثلي المهن الصغرى قلقوا من الحركة الثورية التي أثارها هؤلاء العمال ، وفي آخر الأمر

وحـدوا مصـالحهم مـع (الشعب الطرير) لسحـق (عمـال النسيـج) (صيف ١٣٧٨ م) . وعنـدئـذ قرئ السلام على كل محـاولـة حكم ديموقراطي في فلورنسـا . ومنذ الآن فصاعداً ، ظفر النظام الأوليغارشي : وبموجبه يكون الحكم لحزب واحد يضم عـدة أسر هـامـة من المـدينـة تحت إدارة أسرة آل ألبيزي . ويفرض هـؤلاء قراراتهم بتغيير نظـام سوق الموظفين لإبعـاد الأصنـاف الصغرى عن الحكم ، وبنفي الأسر من الحزب المنـافس : آل آلبرتي ، وآل ستروزي ، وآل ميـديتشي . وهكـذا انطفأت الحياة السياسية في المدينة التوسكانية الكبرى . فهل للقضايـا التي تضعهـا السياسة الخارجية أن تولدها من جديد ؟

إن البورجوازية العليـا التي كانت ، منـذ ١٣٤٣ م ، توجـه بـاستمرار تقريبـاً السياسة الخارجيـة للكومون ، وفي ركابهـا آل البيزي اقترحوا على أنفسهم أن تكون رسالتهم صيانة مصـالح التجـارة الكبرى الفلورنسيـة . وكان القصـد من ذلـك أن يؤمن لفلورنسا الإشراف على الطرق التي تجتاز جبـال الآپنّن ، وأن يفتح لهـا من جهة أخرى منفذ على البحر . ومنذ منتصف القرن استطاعت فلورنسـا أن تبسـط نفوذهـا ، بفضـل المنـازعـات في داخـل الكـومـونـات ، على مـدن : بيستـويـا ، وپراتو ، وسـان جيمينيـانو ، وسـان مينيـاتو ، وفولترّا . وبهـذه البـدايـة للإمـارة الفلورنسية أعطى آل ألبيزي فتحة على البحر . وكانت فلورنسا من أجل وارداتها وصادراتها ، تابعة لبيزا وميناثها الأمامي بورتو بيزارو : ويا لها من رعوية مخزية للمدينة الغلفية الكبرى أن تكون تابعة لعدوتها الجيبيليـة القـديمة . وانتهت هـذه الحالة عندمـا استطـاع آل ألبيزي في الاستيلاء ، في ١٤٠٦ م ، على أريزو وپيزا . وقد أرضى هـذا النصر كبريـاء الفلورنسيين أكثر من مصـالحهم الاقتصـاديـة . وفي الواقـع إن مينـاء بيزا غطتـه الرمـال أكثر فـأكثر . ولـذا وجب إيجـاد منفـذ بحري آخر . فقـد كسبت ليفـورنـة في ١٤٢١ م . وبـالرغم من انتصـارات السيـاسـة الخارجية ، لاقى آل ألبيزي مصاعب كبرى للحفـاظ على سيطرتهم على فلورنسـا .

وذلك لأن الحروب والتعاملات الدبلوماسية تكلف غالياً جداً : ولتدارك هذه النفقات لم يكتف الحزب القائم على السلطة بااللجوء إلى القرض ، واضطر في ١٤٢٧ م فرض ضريبة على الثروة . وقد استاء لهذا كثير من المواطنين ، وبخاصة في البورجوازية العليا . ويكفي إخفاق عسكري ، وحملة خاسرة ضد لوقا لتتبلور المعارضة . واضطر آل ألبيزي إلى النفي ، بينما دعي أعداؤهم السياسيون في المدينة (١٤٣٤ م) . ولم يكن القصد ثورة مخصصة لتوطيد الحريات القومونية ، وإنما تغيير بسيط للأحزاب القائمة على السلطة . وحلّ آل ميديتشي محل آل ألبيزّي . والفارق الوحيد هو أن السلطة الحقيقية ستمارس منذ الآن من قبل رجل واحد ، زعيم أسرة آل ميديتشي ، كوزم .

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يلعب فيها آل ميديتشي دوراً سياسياً في المدينة الفلورنسية . أصل أسرتهم من توسكانا وتتحدر على ما يبدو من طبيب قديم ، جدّ الأسرة ، كما يوحي بذلك الاسم والرصاصات الست الحمراء التي توجد على أسلحة البيت : ويقصد بها أقراص طبية . لقد أقام آل ميديتشي في فلورنسا ، وكانوا أصحاب مصارف ، وبدأوا يشاركون في الحياة العامة منذ آخر القرن الثالث عشر : اعتمدوا تقليدياً على (الشعب الصغير) وانضموا للحزب المعادي لآل ألبيزي ، ومع ذلك فقد كانوا يعملون بكثير من الحذر والفطنة ، ويتجنبون المجازفة والمخاطرة بغية صيانة مصالحهم المالية . وعندما أصبح كوزم دو ميديتشي زعيم الأسرة في ١٤٢٩ م ، لم يحكم عليه بالنفي إلا في ١٤٣٣ م ، أي في الوقت الذي شعر فيه آل ألبيزي أن السلطة تفر من أيديهم . ثم عاد كوزم إلى فلورنسا في ٥ تشرين الثاني ١٤٣٤ م واحتفظ فيها حتى وفاته (١٤٦٤ م) بالسلطة التي نقلها إلى ذراريه . ومن الصعب تحديد طبيعتها . إن كلمة برنسيبا لا تطبق إلا بصورة ناقصة على هذا النفوذ الذي مورس خلال ثلاثين عاماً في فلورنسا . وفي الواقع ، على خلاف أوغست الذي يشبه به الميديتشي ، وإذا

استثنيت وظيفة موظف العدلية التي تسلمها ثلاث مرات خلال مدة كاملة من ستة أشهر ، فإن كوزم طوال كل باقي وقته ، لم يمارس أي وظيفة رسمية ولم يأخذ أي لقب خاص . لقد بقي مواطناً بسيطاً ، رجل أعمال ، يقضي في قصره الشخصي قصر ريكاردي الحالي حياة بسيطة ونشيطة . ومع ذلك كان السيد الحقيقي للدولة الفلورنسية : كان محاطاً بأصدقائه ، ويقرر السلام والحرب والقوانين . وفي داره تناقش الشوون العامة ، ويختار الموظفون . ولديه ، حسب تعامل جديد في إيطاليا ، يعتمد السفراء الميلانيون والفلورانسيون . فمن أين أتته إذن السلطة الغيبية التي يمارسها ؟ أولاً من ثروته الواسعة : لقد كان آل ميديتشي يملكون أضخم ثروة في فلورنسا . ومصرفهم أول مصرف في المدينة ، ويقوم بعمليات ذات صفة دولية . والأموال الجاهزة لديه كبيرة جداً ، حتى استطاع ، في ١٤٢١ م ، أن يسلف كومون فلورنسا بالمبلغ الضروري لشراء ليفورنة من الجنوبيين . وكذلك مَوَّل أبو كوزم بالجزء الأعظم لتعمير كنيسة سان لورنزو بعد حريقها في (١٤١٧ م) . ونظراً لأن كوزم كان قوياً بالقدرة التي يعطيها المال ، فقد عرف كيف يسلك سياسة توازن حاذقة بين مختلف الطبقات الاجتماعية في المدينة ، لقد رد للماغنات حقوقهم السياسية - التي أصبحت مع ذلك وهمية - ، وأمن لنفسه تعاطف الشعب الصغير بما عهد من وظائف إلى بعض أعضائه . وبقي (الشعب الطرير) الذي ينتمي إليه : لم يستطع كوزم أن يتجنب بأن لا يتشكل فيه حزب معاد لنفوذه . ولكنه مع أعدائه ظهر قاسياً ومتشدداً دون أن يكون دموياً : النفي ، الفرض الاعتباطي لأعباء ضريبية ثقيلة ساعدته على تحجيم هذه المعارضة . وبالمقابل أمن لنفسه صداقات متينة بين أنصاره الذين شجعهم بإنقاص منظم للضرائب أو بهبات كريمة . وأخيراً أفادت حكومته فلورنسا بكاملها : فعلى نقيض أمراء الشمال ، كان كوزم محباً للسلام بعزم وشجاعة . وبلعبة الدبلوماسية أقام توازناً بين الدول الكبرى وصان مصالح الإمارة الفلورنسية . ومن جهة أخرى كان كوزم أميراً مثقفاً جداً لأنه يعرف قليلاً الإغريقية ودشن الحماية

للفنون والآداب والعلوم . وأمر ببنـاء دير القـديس ـ مرقس والمكتبـة المجـاورة . وقصر « الشـارع الواسع » حيث أقيم مصرفـه ، ودارة (ڤيـلاّ) في فيزولـه . وحمى كـذلـك الفنـانين والمهنـدسين المعماريين : برونيليسشي وميكيلـوزّو ، والنحـات دوناتللو ، والرسـامين مثل فرا فيليپو ليبي وفرا آنجيليكو ، وفي الوقت نفسـه قـدم الشغل للعمال الفلورانسيين . وفي عهده تفتحت المدينة الفلورانسية الكبرى وبدأت الحضارة الفلورانسية تشع في إيطاليا كلها .

٣ ـ شبه الجزيرة الإيبرية

النعرات القومية

منذ ١٢٧٠ م لم يعد النضال ضد الكافرين (المسلمين) في شبه الجزيرة الإيبرية المشروع الكبير الذي يوحد جميع المسيحيين في جهد واحد . وبالرغم من المنازعات الداخلية التي تضعف مملكة غرناطة الإسلامية فقد ظلت متماسكة في الجنوب ـ الشرقي . وذلك لأن الدول الثلاث المسيحية ، التي تقاسمت شمال البلاد : قشتالة ، والبرتغال ، وممالك تاج آراغونة ، أصبحت لها منذ الآن مصالح مختلفة تفرق بعضها عن بعض ، عندما لا تجعلها تتعارض مع بعضها . لقد كانت كل مملكة من هذه الممالك منهكة بالمنازعات الأهلية والثورات الإقطاعية والثورات المدنية الضارة كثيراً بالسلطة الملكية . إن إسبانيا القرن الرابع عشر تبدو مؤهلة للتجزئة السياسية .

أ ـ قشتالة

إن قشتالة ، التي تقع مراكزها الحيوية في الهضاب الداخلية ، استمرت وحدها في النضال ضد المسلمين . ويقصد بذلك الكفاح على الحدود الغنية بالمفاخر الفردية ، ولكن دون تأثير محسوس على حدود مملكة غرناطة . لقد ضعفت المملكة القشتالية كثيراً جداً لتشتبك في كفاح حاسم يساعدها على طرد أواخر المسلمين من شبه الجزيرة . واستعملت قواها في النضال ضد طبقة نبيلة مشاغبة تساعدها الظروف . بدأت الثورات منذ آخر حكم ألفونس العاشر ، فاتح قادس : فضد هذا العاهل المتسلط الذي يحلم بالتاج الإمبراطوري ، دعم النبلاء تمرد ابنه الثاني سانش على أن يتخلوا عن هذا الأخير عند موت أبيه (١٢٨٤ م) للنضال لصالح وارثين

آخرين . وبعد كل سنوات الحرب الأهلية هذه انتهى توالي القصور الملكي ، قصور فرديناند الرابع وقصور ألفونس الحادي عشر ، بدمار سلطة الملك . وعندما زعم بيير الأول (١٣٥٠ ـ ١٣٦٩ م) أن يرجع السلطة الملكية ، اصطدم بثورة عامة قامت بها الطبقة النبيلة . وعلى رأس هذه الطبقة النبيلة وجد أخوه النصفي ، الابن غير الشرعي ، هنري كونت ترانستامار ، الذي طالب بالتاج . وحصل هذا على دعم شارل الخامس ، فقد اتخذ ملك فرنسا حجة تدخله طرد عاهل قشتالة للأميرة الفرنسية ، بلانش دو بوربون ؛ ولكنه قدم طوعاً مساعدته العسكرية إلى هنري ليستطيع على هذا النحو التخلص من العصابات الكبرى التي أرسلت إلى إسبانيا تحت قيادة دو غيكلن . وبالرغم من مساندة إنكلترا ، فقد غلب بيير الشرس في مونتيل وأسر وقتله منافسه خلال مبارزة . والأرستقراطية ، التي حملت إلى السلطة السلالة الجديدة ، فرضت قانونها على هنري (١٣٦٩ ـ ١٣٧٩ م) وعلى خلفيه الضعيفين جان الأول (١٣٧٩ ـ ١٣٨٨ م) وهنري الثالث (١٣٨٨ ـ ١٤٠٦ م) . وخلال هذا القرن من الحروب الأهلية تشكلت هذه الأرستقراطية حول الأسر الكبرى في أحزاب قوية وقادرة . وكان كبار الأمراء يتصرفون بأسلحة خاصة . ويتحصنون في قصور واسعة ، مثل قصر بينافيل ، وهي ملاجئ منيعة في عصر لم تعرف فيه المدفعية بعد في قشتالة . وانتزعوا من العواهل مرتبات وتنازلات أرضية وامتيازات اقتصادية تركت الملكية فقيرة حائرة لا تدري ما تقول وما تفعل .

ب ـ البرتغال

إن النهوض الاقتصادي اللامع الذي شهدته البرتغال في القرن الرابع عشر يختلف بشدة عن الركود والبؤس اللذين كانا ثمن الفوضى في قشتالة . لقد كانت البرتغال منصرفة كلياً إلى نشاطاتها التجارية وتنزع إلى التحول عن الشؤون الداخلية في شبه الجزيرة لتنظر نحو الطرق الأطلسية . لقد وجد بعض عواهل

لهم قيمتهم ، مثـل دوني الليبرالي (١٢٧٩ ـ ١٣٢٥ م) ، ألفـونس الرابـع (١٣٢٥ ـ ١٣٥٧ م) ، وفرديناند الأول (١٣٦٧ ـ ١٣٨٣ م) أخـذوا على عـاتقهم التنمية الاقتصادية لبلادهم : اهتموا باستقلال المناطق الواقعة في جنوب نهر التـاج ، وشجعوا المنشآت البحريـة ونظموا جهـاز تـأمين متبـادل يغـذيـه رسم على حمولـة السفن . وانتقلت العاصمة من بورتو نحو لشبونة . وهي مينـاء يحتـك فيـه التجـار الإنكليز والفلامانديون والجنويون وأصبح مركز البلاد الحقيقي . ومع ذلـك فـإن الطبقة النبيلـة الريفيـة والمحـاربـة لم تتخل عن زجّ نفسهـا بشؤون قشتـالـة . وفي النصف الثاني من القرن ، دفعت العواهل إلى الإفـادة من الاضطرابـات التي تمزق المملكة المجاورة . ولم تكن حجج التدخل صعبـة الإيجـاد : لقـد تشـابكت ذراري سلالات المملكتين بزواجات عديدة . وهكذا ، عنـدمـا قتل بيير الشرس من قبل الابن غير الشرعي هنري دو ترانستامار ، طالب ملك البرتغال ، بأن يكون خلفاً له . وانفجرت الحرب ، وكانت مدمرة للبرتغال : فقـد اجتيحت البلاد وحوصرت لشبونة واضطر فرديناند الأول إلى طلب السلام وأن يزوج ابنته بيـاتريس لجـان قشتالة ، ابن ووارث هنري دو ترانستامار . وعندمـا توفي فردينـانـد البرتغـال في (١٣٨٣ م) انقلبت الحالة . فقد طلب ترانستامار قشتالة باسم زوجتـه ، الوارثـة الوحيدة للراحل بتاج البرتغال . وكانت الطبقة النبيلة في هذا البلد مستعدة تمامـاً لقبول اتحاد المملكتين . وعندئذ قامت البورجوازية التـاجرة في لشبونـة وجمـاعـة الحرف ورفعوا إلى السلطة الابن غير الشرعي للملك ، جـان دافيس . وأحرز هـذا على جيش الفرسان القشتالي نصراً مبيناً في الجبارّوتا (١٣٨٥ م) . ولإنهاء الحرب في ١٤١١ م ، قررت قشتالة الاعتراف رسمياً بالسلالة الجـديـدة . وكان نصر جـان الأول نصراً للروح القومية المتجسدة بـالبورجوازيـة التجـاريـة التي أبت أن تترك البلاد لقمة سائغة لقشتالة . لقـد انتصر الملـك جـان بفضل القروض التي قبل بهـا تجار المدن الكبرى . وانتهت السياسة الخارجيـة بجر المملكتين على طرق مختلفـة . فبينما بقيت قشتالة ، بعد اعتلاء هنري ترانستامار العرش ، حليفاً أميناً لفرنسا في

نزاعها الطويل ضد إنكلترا ، دخلت هذه الأخيرة في حلف مع البرتغال . وتزوج جان البرتغال فيليبين دو لانكاستر ؛ ووضع الأسطول البرتغالي نفسه في خدمة إنكلترا ، وانعقدت علاقات تجارية متينة بين البلدين .

جـ ـ تاج آراغونة

لقد عرفت المناطق الشرقية في شبه الجزيرة الإيبرية تطوراً مشابهاً لتطور البرتغال . فقد كان (تاج آراغونة) يضم بلداً فقيراً ، الجبال والوديان الآراغونية ، إلى واجهة بحرية ، الكاتالونيا واللوفانت (ڤالانس) اللتين تنعشهما تجارة كثيفة . ومملكة ماجورقة ، التي تشكلت في القرن الثالث عشر ، لصالح فرع ثان من الأسرة الملكية ، تضم البالئار ، والروسيون ، والسردانيا ، حافظت على استقلالها حتى ١٣٤٤ م . وكان العواهل الآراغونيون مدفوعين ببورجوازية الموانئ الكاتالونية ، وباشروا سياسة توسع متوسطية ، وطمعوا بصقلية منذ القرن الثالث عشر : فقد حصل جيم الأول ، من أجل ابنه بيير ، على يد بنت ملك صقلية مانفرد . ولكن هذا الأخير خلعه شارل دآنجو وطرده . ولذا وجب الاستيلاء بقوة حية على الجزيرة المتوسطية الكبرى . وقد أعطى احتلال تونس ، في ١٢٨٠ م ، الآراغونيين قاعدة عمليات قريبة من صقلية ، وما فتئوا يكيدون ضد العاهل الآنجفي . وعقب المجزرة العامة للفرنسيين في صقلية[1] في ١٢٨٣ م ، لم يكن أمام پيير الثالث إلا أن ينزل ليؤمن لنفسه ، بقليل من الزمن ، السيطرة على الجزيرة . أما من جهة جيم الثاني (١٢٩١ ـ ١٣٢٧ م) ، ملك ماجورقة فقد تنازلت له البابوية عن حقوقها على كورسيكا وساردينيا . وخطوة خطوة أبعد

---

(١) المجزرة العامة للفرنسيين الموجودين في صقلية في ١٢٨٣ م كانت في اثنين عيد الفصح في الوقت الذي كانت الأجراس تقرع لتدعو لصلاة (الستار Vêpres) الصقليين الثائرين ضد شارل الأول دآنجو و يدعمهم بيير الثالث ملك اراغونة . وعلى إثرها أصبح البيت الأراغوني سيد صقلية .

البيزانيين الذين استقروا فيها . وعندما جمع بيير الرابع في ١٣٤٤ م مملكة آراغونة ومملكة ماجورقة ، وجد على رأس إمبراطورية بحرية واسعة يضاف لها وكالات في بلاد شرق المتوسط وموره حيث استقرت عصابات قطاع طرق كاتالانيين . وهذه السياسة الخارجية العظيمة ، ولكن المكلفة ، الشاغلة للبال ، أجبرت العواهل الآراغونيين على كثير من التخلي تجاه الطبقة النبيلة عن أفقر جزء من مملكتهم ، آراغونة . وانتزعت الأرستقراطية من الملوك امتيازات باهظة : فعليهم أن يعقدوا المجلس ويخضعوا لإشراف المستشارين الدائمين الذين تعينهم الطبقة النبيلة ؛ وأخيراً اعترف ألفونس الثالث للكبار بحق خلع العاهل الذي يخل بتعهداته . وفي منتصف القرن الرابع عشر ، باشر بيير الرابع باسترجاع السلطة الملكية : ففي الحرب الأهلية التي نشبت ، سحقت الطبقة النبيلة أخيراً . وحذفت كل الامتيازات السياسية (١٣٤٨ م) . واعتمد الملك في النزاع على بورجوازيي المدن المتوسطية ومنحها حريات كومونية عريضة وتمثيلاً هاماً في الكورتيسات (المجالس) .

ظهور قوى الاتحاد

في النصف الأول من القرن الخامس عشر بدأت تظهر في شبه الجزيرة الإيبرية قوى الاتحاد . وفي الحقيقة ، إن البرتغال ظلت تتطور بشكل مستقل : فقد مهر العواهل البلد نظماً (مؤسسات) إدارية وحقاً عاماً . وبخاصة عززوا السياسة الغربية والأطلسية لسابقيهم . إن كسب سبتة في ١٤١٥ م وأعمال رسم المصورات الجغرافية والكونية التي قام بها هنري الملاح ، الابن الثاني لملك البرتغال جان الأول (١٣٨٥ ـ ١٤٣٣ م) ، والمقيم في رأس سان ـ فانسن ، وأخيراً الرحلات الإفريقية التي جرت الملاحين البرتغاليين أكثر فأكثر نحو الجنوب ، أعلمت وهيأت المغامرة البحرية الكبرى التي انطلقت فيها المملكة الغربية الصغيرة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر .

وبالمقابل إن تطور الآراغون وقشتالة هيأ بصورة غير محسوسة المملكتين نحو التوحيد . وإذا تابعت الآراغون سياسة الهيمنة في إيطاليا حيث اعترف بألفونس الخامس (١٤١٦ ـ ١٤٥٨ م) وارثاً من قبل الملكة جانّ نابولي ، فإن التنصيب على العرش الآراغوني لعائلة قشتالية ، وهي فرع ثان لأسرة ترانستامار ، بدأ بتقارب مع المملكة المجاورة ؛ وعند وفاة الملك مارتن الأول (١٤١٠ م) الذي لم يترك وارثاً ، وضعت قضية اختيار عاهل . وكان المطالب بالعرش فرديناند دانتكويرا الولد الثاني من سلالة قشتالة ، ابن أخ الملك الراحل ، ومن قبل ابن عمه الكونت دورجل . ولوضع حدٍ لحرب تجابه فيها المدعيان بالعرش ، قررت النيابات الدائمة في الكورتيسات التي تستمر في تأمين إدارة المملكة ، أن تتدخل : وبموجب تسوية (حل وسط) كاسب (١٤١٢ م) ، حكمت لصالح فرديناند . وعليه وجد منذ الآن عاهلان من أسرة ترانستامار في شبه الجزيرة .

ومع ذلك هيأت قشتالة نفسها لتلعب دوراً موحداً . وفي الظاهر تغير القليل من الأشياء في حياة المملكة المركزية بالنسبة للقرن الرابع عشر ، فتحت حكم جان الثاني (١٤٠٦ ـ ١٤٥٤ م) الضعيف ، كانت البلاد فريسة الفوضى والحروب الأهلية أكثر من أي وقت مضى . إن محظي الملك بدرو دو لونا ، سيد (مقدم) نظام سنتياغو (شنتياقب) والقائد الأعلى للجيش ، كان السيد الحقيقي للحكم . وكان عليه أن يواجه استياء الطبقة النبيلة الحريصة على سلطتها . وبفضل الطاغية رودريغ دو فيلاندراندو ، استطاع أن يسحق ثورة عامة في معركة أولميدو (١٤٤٥ م) . ولكن الملك أعدمه أخيراً في ١٤٥٣ م . وبالرغم من هذه الظواهر ، بدأت قشتالة تصبح دولة كبرى ، وقد بدأ الشعور من قبل بالفوائد الظاهرية المتعلقة بتوسعها الجغرافي ووضعها المركزي (الأوسط) في شبه الجزيرة وتفوقها الديموغرافي : لقد كانت قشتالة تضم ، في بداية القرن الخامس عشر ، نحو خمسة إلى ستة ملايين نسمة ، على حين أن كلاً من جيرانها لم يكن ليضم أكثر من

مليون . وأخيراً بدأ نهوض البلاد الاقتصادي بعد أن أخرته الحروب الأهلية زمناً طويلاً . وقشتالة غنية بتربية الحيوانات على هضاب الداخل وتفوق الزراعة بشكل واضح . وكانت (المستا) الرابطة القومية التي تضم كبار نبلاء الملاكين ، كما تضم أيضاً صغار ومتوسطي المربين ، وتنظم انتجاع الأغنام التي تقيم شتاء في الجنوب وتصعد صيفاً مرتفعات الشمال . وقد حصلت من العواهل على تحديد الرسوم التي تضرب القطعان على طرق الانتجاع . وفي الوقت نفسه ، كانت نتاجات هذه التربية تقدر لتبنيها ، في سياق القرن الرابع عشر ، عرقاً جديداً ظفر في القرن الخامس عشر . وذلك بتخليها عن خروف الشرّو ، الخروف الأهلي الأصلي ذي الصوف المرصوص قليلاً ، لصالح خروف الميرينوس الذي جاء ولا شك من مراكش بلاد آل مرين . وجزته المرصوصة جهزت فيما بعد أفضل أصواف أوربة ، وكان الصوف الذي يتاجر به في الأسواق الموسمية الكبرى في مدينة دل كامبو يغذي تجارة تصدير مثمرة . وجنت قشتالة ربحاً أيضاً من ثروتها بالفلذات المعدنية : حديد بلاد كانتابر ، والباسك ، وكبريتات البوتاس والفوسفات من قرطاجنة وزئبق المعدن التي كانت تصدر أيضاً . وأخيراً بدأت قشتالة تفيد من جبهاتها البحرية المتعددة : على الأطلسي ، في الشمال ، كان الملاحون الباسك ناقلين يؤجرون عمائرهم إلى تجار جميع البلاد ، ويختلفون إلى لاروشل ، ونانت ، وبروج ، بل وحتى إلى الموانئ الإنكليزية . وفي خدمة جنوة تغلغلوا في البحر المتوسط . وعلى ساحل الأندلس كانت إشبيلية وميناؤها الأمامي بوانته دو تريانا تستقبلان بصورة وحيدة تقريباً عمائر أجنبية تحط رحالها لنقل فلذات قشتالة وصوفها . وأخيراً ، فتح ميناء قرطاجنة ، في مملكة مرسية القديمة ، لقشتالة نافذة ضيقة على البحر المتوسط ، وليس الزمن ، الذي ستقطف فيه قشتالة ثمار هذا التقدم الاقتصادي ، ببعيد .

الفصل الثامن

نحو عالم جديد

المقدمة

في منتصف القرن الخامس عشر يرى أن المنازعات السياسية والدينيـة ، التي قسمت الغرب بشكل فظيع خلال أكثر من مائة عـام ، أخـذت تهـدأ : وعلى وجـه العموم ، إن المشاكل الاقتصادية الخطيرة قـد أمكن التغلب عليهـا ؛ وإن عـاطفـة القلق والاضطراب التي عكرت صفو الأجيـال السـابقـة بـدأت تنقشع . وفي جميع الأصعـدة فتح لأوربـة دور تعمير . ولكن لم يكن القصـد إرجـاع النظـام القـديم الـذي اضطرب بـالحرب خـلال فترة من الـزمن ، والجـدب والحيـدة الكبرى . إن الأزمـة ، التي هـزت أوربـة وضحت ضرورة تشكيـل دول قـويـة ومركـزيـة ، وكشفت عن حاجات اقتصادية جديدة يجب أن تسد ؛ وأيقظت أخيراً تطلعـات دينية ، فكرية ، وجمالية جعلت من المستحيل العودة بكل بسـاطـة إلى موضـات التفكير والحس التي كانت في القرن الثـالث عشر . ففي أوربـة آخر القرن الخامس عشر أو على وجه الدقة في بعض قطاعاتها ، بـدأ تجـديـد عميق (نهضـة) بالمعنى الواسع للتعبير . وفي الحقيقة ، لم تجنب كل التهديـدات : وأكثرهـا خطورة سقوط القسطنطينية الذي تمثل باستقرار الأتراك العثمانيين في أوربـة نفسهـا ، في البلقان . وهذه الإمبريالية العثمانية المهاجمة لم تترك راحة للممالك المسيحية القائمـة في جوارهم . أما في العالم القديم أي العصر القـديم والعصر الوسيـط ، الـذي عرفتـه البلاد الآسيوية ؛ الصين ، اليابـان ، الهنـد ، فقـد تجزأت هـذه البلاد وجمـدت في تأمل ماضيها . وظلت إفريقية تحت رحمة المجاعات والأوبئة والمنازعات القبلية ، في وقت كان فيـه الغرب الأوربي يؤكـد تفوق حضـارتـه ؛ ويستعـد لفتح العـوالم الجديدة وتوطيد نفوذه في كل مكان .

على عتبة الأزمنة الحديثة

١ ـ حول الأفق السياسي

لقد كان الدرس من قرن ونصف من الخلافات الدولية والمنازعات الأهلية مزدوجاً : إن فكرة المسيحية ، حلم بعض الأكليركيين المتجهين نحو الماضي الروماني ، المتجسد في القرن الثاني عشر بطفرة الحروب الصليبية ، عاشت نهائياً ؛ وإن أفول السلطات التي أرادت أن تكون عامة وكونية ، أفول البابوية التي تريد أن تؤكد مزاعمها في الحكم الإلهي (التيؤقراطية) ، كأفول الأباطرة الذين يهدفون إلى التفوق ، كان لها صورة . وستكون أوربة الجديدة أوربة الأمم . ولكن من الواضح أيضاً بأن الأمة لا يمكن أن تعيش إلا إذا دعمت بقوة دولة منظمة بشكل صلب تحت إدارة ملكية مركزية . وهكذا ارتسمت لأوربة ، منذ منتصف القرن الخامس عشر الخطوط الكبرى لتطورها السياسي القادم ؛ ولكن هذا الأخير بدأ بشكل متفاوت حسب المناطق .

أوربة الإمارات والأمم

في أوربة الوسطى الجرمانية والإيطالية ، أسرف الإمبراطور والبابا في السلطة التي كانا يتصرفان بها في أحلام الهيمنة على العالم . وكانا غير قادرين على إنجاح عمل أكثر تواضعاً ولكنه أكثر واقعية ، والوصول به إلى نهاية طيبة وهو : أن يحشدا حولهما الطاقات القومية ويؤلفا دولة ألمانية ودولة إيطالية . وظلت ألمانيا وإيطاليا مكرستين للتجزئة السياسية .

أ ـ إيطاليا

في إيطاليا ، إن حركة المركزية السياسية والأرضية معاً التي جرت في القرن الرابع عشر ، توقفت في النصف الثاني من القرن التالي قبل أن تبلغ نهايتها . لقد ظلت شبه الجزيرة مقسمة إلى إمارات ذات نظام سلطوي ولكنه في الغالب غير مستقر . وفي نقصها السياسي كانت أكثر من أي وقت مضى فريسة معرضة لأطماع الدول الأجنبية .

إيطاليا الأمراء

إيطاليا آخر القرن الخامس عشر هي إيطاليا الأمراء . والحكم الجمهوري للبلديات لم يجد فيها مكانه . فمن طرف إلى الطرف الآخر في البلاد ، في الدول الست الأساسية التي تثبتت في سياق القرن السابق ، انتصرت أنظمة ملكية أو شبه ملكية .

في طرفي شبه الجزيرة ، في مناطق هيأتها الجغرافيا والتاريخ لتكون أوربية أكثر منها إيطالية ، ولم تتم فيها الحركة البلدية بشكل كامل ، كانت سلطة الأمير تعتمد على تقليد قديم يؤمن لها بعض الثبات . في الشمال ـ الغربي ، شكل أدواق الساڤوا على سفحي جبال الألب ، في الساڤوا وفي البيمونت ، إمارة قوية متينة تشرف على طرق الشعب الجبلية ، وتملك مع نيس منفذها الخاص على البحر المتوسط . وفي الشمال الغربي صانت البندقية ، جزءاً من إمبراطوريتها البحرية ، وأنمت منذ قليل هيمنتها في اتجاه اليابسة . ووجدت منذ زمن طويل توازناً داخلياً يبرر الصيغة (صاحبة الشوكة الجمهورية) . وهذا التعبير الأخير لا يمكن أن يضلل : لأن السلطة في أيدي أوليغارشية (أقلية) ضيقة من التجار بخاصة ، ولكن أيضاً من مجلس الشيوخ ، لأجل السياسة الخارجية ، الذي يمارس ، بواسطة مجلس العشرة ، دكتاتورية حقيقية . ومن بعد ألا يقال

(الإمارة) للدلالة على أعضاء هذا الحكم ! وأخيراً في الجنوب ، في مملكة نابولي ، ورث الملوك الآراغونيون عن أسلافهم النورمان والجرمان ، والأنجوفيين نظاماً إدارياً مركزياً جداً . وسمح الملك ألفونس الشهم لنفسه بأن يحكم دون أن يدعو في (برلمانات) البارونات وممثلي البلديات (الكومون) . ومع ذلك ، فعند وفاته ، في ١٤٥٨ م ، افتتح دور ينقصه استقرار كبير . لقد ترك الملك ألفونس دوله الوراثية : الآراغون ، ساردينيا وصقلية لأخيه جان الثاني ، وتاجه الإيطالي لأخيه غير الشرعي فرّان . وفي هذه الحال سمى رونيه دآنجو نفسه ملكاً على نابولي . وهكذا وجد فرّان ضده ميلاده غير الشرعي وثورة حزب البارونات ، المفضلين للأنجفيين . وحاول جان كالابر ابن الملك رونيه حملة إيطالية ولكنه هزم في تروجا (١٤٦٢ م) . وهذا النصر عزز نوعاً ما وضع فرّان على عرشه .

وفي المناطق الأخرى من إيطاليا ، ظهرت الحركة البلدية (الكومونية) بقوة أكثر وبثبات ومتانة أكثر ، وانتهت السلطة السياسية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر بتمركزها بين يدي رجل واحد . ولكن سلطة هؤلاء الأمراء الحديثي العهد ظلت ضعيفة : من طغاة سعداء أو تجار أغنياء . وهؤلاء الحديثو العهد بالسياسة كانوا تحت رحمة خسارة ثروة أو إخفاق عسكري . بين هذه الإمارات ، جنوة ، لم تعد تذكر إلا في الذاكرة لأنه لم يكن لها تاريخ خاص بها : فقد كانت تنتقل بين تارة وأخرى من إمارة ملك فرنسا في (١٤٥٨ م) إلى نفوذ دوق ميلانو (في ١٤٦٤ ثم في ١٤٨٧ م) ، فلا تكاد تجد بصورة عابرة استقلالها إلا وتقع في الفوضى . إن مصير الدول الحبرية ، دولة فلورنسا ، ودولة ميلانو ، تبين بشكل أفضل تطور السلطة الأميرية .

الدول الحبرية

إن حكومة وسياسة الحبر الأعظم في دوله لا تختلف عن حكومة وسياسة أي أمير إيطالي . وفي الواقع ، إن معظم الأحبار في النصف الثاني من القرن

الخامس عشر لم يتخلوا فحسب عن ممارسة (سيادة العالم) ، وإنما تخلوا أيضاً في الغالب عن أعبائهم الروحية ليكرسوا أنفسهم لشؤون تركتهم الزمنية . وباستثناء البابا الإسباني كاليكست الثالث (بورجيا) فإنهم جميعاً إيطاليون ، واثنان منهم ينتميان إلى أسر قديمة أرستقراطية ، بيوس الثاني الذي ينتمي إلى أسرة آل بيكولوميني ، وسيكست الرابع إلى أسرة آل لا روفير . وهذا يوضح في الجزء الأعظم المصلحة التي يعلقونها على الحياة السياسية الإيطالية . وفي داخل دولهم كانت القضية الأساسية إرجاع سلطتهم ، التي كانت بفضل (أسر بابل) و (الحيدة الكبرى) ، قد هوجمت بشدة من قبل بلدية روما والأمراء الذين ألفوا لأنفسهم إمارات صغيرة . ونراهم من عهد نيقولا الخامس (١٤٤٧ ـ ١٤٥٥ م) إلى إينوسان الثامن (١٤٨٤ ـ ١٤٩٢ م) ، حاولوا أن يصبحوا ملوكاً مطلقي السلطة . وهذه السلطة ، التي لا يمكنهم قبولها ولا نقلها بشكل وراثي ، كالأمراء الآخرين ، حاولوا أن يوسعوها ويمددوها باللجوء إلى « النيبوتيسم » أي منح الأفضال إلى أعضاء الأسرة وإساءة الثقة المخولة له . وهناك بابوات آخرون كانوا قد تفضلوا على أعضاء أسرتهم ، وسارعوا في المنصب الكنسي لأقربائهم . والشيء الجديد هو أن هذه الممارسة أصبحت وسيلة حكم . وقد دشن هذا النظام البابا بورجيا ، كاليكست الثالث (١٤٥٥ ـ ١٤٥٨ م) . فغداة انتخابه بادر كردينال فالانس السابق بتوظيف عدد من أبناء وطنه في روما فإلى أبناء أخواته الذين تبناهم ونقل إليهم اسم (بورجيا) أوجد مكانة ممتازة ، من ذلك أن بيير ـ لويس ، وإن لم يدخل في النظام الكنسي ، رَكّم عدة وظائف إدارية : رئيس عام للكنيسة ، حاكم قصر القديس ـ آنج وعدة مواقع حصينة أخرى ، وعميد التركة في توستشيا . وررودريغ بورجيا رفع وهو شاب لمرتبة الكردينالية ، وورث بعد سبع وثلاثين عاماً العرش الحبري تحت اسم ألكسندر السادس . وإذا لجأ الخلفاء المباشرون لكاليكست إلى قليل من العلانية في تنفيع الأقارب ، فإن سيكست الرابع (١٤٧١ ـ ١٤٨٤ م) وإينوسان الثامن (١٤٨٤ ـ ١٤٩٢ م)

حولاه إلى مبدأ حكم . فمن ذلك أن اثنين من أبناء أخوات سيكست الرابع جوليان دولا روفير وبطرس رياريو سميا كردينـالين . وثلاثـة آخرون خـدموا في العصر مصالح أسرة لا روڤير ؛ وأمنوا لها في الـدول الحبريـة وضعاً متفوقـاً حتى أن لعبـة الأحلاف الزواجية أتت تمد بساندات خارجية : فمن ذلك أن ليونارد محافظ روما تـزوج ابنـة الملـك فرانـد ؛ وأخـذ جـان إمـارة صغيرة في ثغر أنكـون ويـد ابنـة فريـديريـك دومونتوفلتره ، أمير أوربينو . وليشكل سيكست الرابـع إلى جيروم الذي ارتبط بزواجه بـدوق ميلانو ، إمـارة في رومـانيو ، لم يتردد في الانطلاق في حرب ضد فلورنسا . وتنفيعية إينوسـان الثـامن أيضـاً أكثر فضيحـة على الصعيـد الأخلاقي : وذلك أن هذا الحبر الذي جاء متأخراً إلى الكنيسة بعد شبـاب خليع ، تجرأ وأعلن في رومـا أن لـه ولـداً وبنتـاً ، ولكنـه كان قليـل النفـاذ على الصعيـد السيـاسي : فرانشيسكو سيبو تزوج في ١٤٨٨ م بنت لـوران دوميـدتيشي ، ولكن هنا يتحدد الدور الرسمي لهذا الابن الضعيف للبابا .

وفي الحقيقة لقد أعطى الباباوات لبلاطهم ، حيث أكثروا الأعياد والمـآدب ، الأبهة الدنيويـة ، وحموا الفنـانين ، ولجؤوا إلى فرض ضريبـة ثقيلـة أكثر فـأكثر ، وإلى بيع الوظـائف في البلاط الرومـاني ، وشـاركوا في الـدسـائس الـدبلومـاسيـة وأحياناً العسكرية التي تقسم إيطاليـا ، ولـذا لم يختلفوا مطلقـاً عن سـائر العواهل الإيطاليين . وسلطتهم الزمنية علقت بنفس التهديـدات . أولاً تهـديـد الكرادلـة الذين كانوا يميلون في كل انتخاب إلى ربط البابا بالأيمان ؛ ثم تهديد الأمراء الذين شكلوا إمارات صغيرة في الـدول الحبريـة . واضطر بيوس الثـاني إلى النضـال ضـد سيجيسموند مالاتيستا ، أمير ريميني والزعيم اللامع .

وكان على بولس الثـاني أن يكافـح آل أنغيـلارا الـذين يملكـون عـدة قصـور حصينة في توستشيا . والأعجب ، إن لم يكن خطراً ، ظهور المعارضـة الجمهوريـة في روما وتتمثل بجماعـات الإنسـانيين الـذين ينهلون من عبـادتهم للقـديم إعجـابهم

بالنظام الجمهوري . ومنذ ١٤٤٧ م ، غداة وفاة أوجين الرابع ، وبفضل شغور العرش الحبري ، حاول نبيل روماني فقيه باللغة والأدب اللاتينيين ، ستيفانو بوركارو أن يثير الشعب على (حكم الكهان المخزي) . وبعد أن عفا عنه نيقولا الخامس ، دبر في ١٤٥٣ م مؤامرة جديدة كان هدفها سجن البابا والكرادلة . ولكن اكتشف أمره وشنق هو وشركاؤه في شرفات قصر سانتانج . وفي ١٤٦٧ م ، انفجرت قضية أخرى : وذلك أن بيوس الثاني الأديب الإنساني نفسه ، عهد إلى الإنسانيين بعدة وظائف في الإدارة الحبرية . وقرر خلفه بطرس الثاني بطرد هؤلاء (المختزلين) . فاستاء الإنسانيون وكان من عادتهم الاجتماع في دار بونبونيوس ليتوس ، مقر الأكاديمية الرومانية ، التي كانت تحاول بعث العبادات الوثنية . فهل هيؤوا بحق مؤامرة ضد السلطة الحبرية ؟ على أي حال ، أوقفوا واتهموا بالتآمر على الدين المسيحي وعلى حياة البابا ، وزجوا في غياهب السجن .

فلورنسا في عهد آل ميديتشي

في فلورنسا ، وفي نفس العصر ، تطورت أيضاً الإمارة التي دشنها كوزم دوميديتشي في اتجاه الملكية . ولكن النفوذ السلطوي للأسرة الكبيرة لأصحاب المصارف فقد جزءاً من سلطته السياسية وأصبح عرضة للتهجم . لقد خلف كوزم دون صعوبة في إدارة البنك ، كما في حكم فلورنسا ، أولاً ابنه بيير (١٤٦٤ ـ ١٤٦٩ م) ثم حفيده لوران (١٤٦٩ ـ ١٤٩٢ م) وبهما كادت الإمارة (البرانسيبا) أن تصبح إمارة مقنعة . والجبهة الجمهورية التي حاول كوزم الحفاظ عليها تداعت من كل جانب : فمن ذلك أن العديد من أجهزة الحكم الجمهوري السابق ، المجلس الأعظم ، والرئيس العسكري للشعب قد حذفا بكل بساطة ؛ وانتزع من الآخرين الأساسي من وظائفهم . وهكذا انتهى لوران (في ١٤٨٠ م) بألا يحكم إلا مع مجلس واحد وهو **مجلس السبعين** ويسمى أعضاؤه مدى الحياة ،

وملأه بصنائعه . وفي داخل المجلس تفحص كل اقتراحات القوانين وتتخذ جميع القرارات الهامة . وفي الوقت الذي شدد فيه آل ميديتشي سيطرتهم السياسية على فلورنسا تخلوا عن نمط بيت كوزم البورجوازي ليعيشوا أمراء . وفي الحقيقة ، إن بيير ولوران ، على خلاف أمراء العصر الآخرين ، تدربا على حياة البنك لا على الفن العسكري . ولكن التربية الخالية عن الغرض التي تلقاها لوران لا تتفق مطلقاً والمفاهيم البورجوازية . وكانت أمه من أسرة تورنا بوني ومثقفة جداً . سهرت على دراساته الأولى ، ثم كان عنده أساتذة منتقون من بين أفاضل الإنسانيين في العصر ، أرجيروبولوس للإغريقية ، مارسيل فيتشينو للفلسفة ، لاندينو للآداب الإيطالية ، وكان لوران العظيم مؤلف أغاني وقصائد ، وشغفاً بالفن ، وحامياً لرجال الفنون والآداب ؛ حمى فيروكيو وبوتيشيللي ، وأقام في إحدى ڤيلاته (الأكاديمية الأفلاطونية) . وكان كريماً ومحباً للأبهة ، وأقام ، دون أن يكون له بلاط بصورة حقيقية ، أعياداً كثيرة ، ونظم استقبالات وأدخل المباريات إلى فلورنسا . وكان لكبار الأمراء ، من أسرة الميديتشي ، من الجيل الجديد ، مزاج شديد متسلط ، وفيما يتعلق خاصة بلوران ، كان عنده بعض الاحتقار لقضايا المال . وكان بيير يجهل الفن الذي طبقه أبوه لاستخدام المال لغايات سياسية : وذلك بإقراض المبالغ من المال دون أن ينوي المطالبة بها ، وبذا شكل زبائن أوفياء للأسرة الميديتشية . وما كاد بيير يصل إلى السلطة إلا وطلب دفع كل الديون ، وبذلك دمر الحزب الذي كان أبوه يعتمد عليه . ولوران يهتم قليلاً بالشؤون المصرفية ويتركها لمديري الشركات . ولا يمكن لقوة وسنا حكومة لوران أن تخفيا تماماً الطابع الضعيف لنفوذ آل ميديتشي على فلورنسا في آخر القرن الخامس عشر . إن النفوذ الذي كسبه كوزم في الشؤون العامة كان مرتبطاً بشكل وثيق بالتفوق المالي لمصرفه . ومنذ بداية حكم لوران ، بدأت الصعوبات المالية تظهر : فقد كان الأمير الشاب يصرف دون حساب ولا يراقب بشكل وثيق إدارة مديري الشركات المحليين . ومن جهة أخرى ، إن القروض المقبولة

للعواهل ، بفضل مال المودعين ، تحولت حسب الحوادث السياسية إلى عمليات خاسرة ، وتسببت بكوارث . لقد توالت إفلاسات الشركات التي كان لآل ميديتشي مصالح فيها : تدمرت شركة لندن بحرب الوردتين (١٤٧٧ م) ، وشركة بروج بهزيمة شارل الجريء (١٤٧٨ م) . والشركات الفرعية في ميلانو ، في ١٤٧٨ م ، وفي آفنيون ، في ١٤٧٩ م ، تدمرت بدورها . وتحرضت المعارضة السياسية بسبب سلطة آل ميديتشي المتشددة ، ونمت في الوقت نفسه : ودبرت ضد بيير ميديتشي مؤامرة كان ساعدها الطاغية بارتولوميو كولليوني . ولم يثبط إخفاقه عزم المعارضين الذين جددوا محاولتهم ضد لوران وكادوا أن يبلغوا أهدافهم . وفي وسط المؤامرة الجديدة وجدت أسرة أصحاب مصارف فلورنسيين آل پازي ، وكان لوران يحذر منهم ويبعدهم عن المجالس ، وفي ١٤٧٣ م ، أقرض البنك البازي للبابا سيكست الرابع المبلغ الضروري لشراء إمارة إيمولا التي خصصها لأحد أولاد إخوته . وبالمقابل نقل البابا إلى بنك آل پازي إدارة حساب المجلس الرسولي . وكان ذلك بالنسبة للوران خسارة مالية عظيمة ، وفي الوقت نفسه إخفاقاً سياسياً لأنه نفسه كان يطمع أيضاً بإيمولا . وكشف النضال بين الأسرتين . فقد عزم آل پازي على التخلص من نفوذ لوران ، ولذلك تحالفوا مع ممثل لأسرة فلورنسية أخرى عدوة لآل ميديتشي وهو فرانسوا سالفياتي ، رئيس أساقفة پيزا الذي منعته معارضة لوران من حوزة كرسي أبرشيته . وانتظر المتآمرون اللحظة التي يجتمع فيها لوران وأخوه جوليان ، بغية القضاء على عائلة الميديتشي بأسرها . وسنحت الفرصة في يوم الأحد في ٢٦ نيسان ١٤٧٨ م : فقد كان جوليان ولوران يحضران القداس جنباً إلى جنب . وفي اللحظة التي لفظ فيها الكاهن انطلقوا « تلي القداس » انقض المتآمرون على الأخوين : سقط جوليان بعد أن طعن عدة طعنات وجرح لوران ، واستطاع الفرار . وعندئذٍ ظن المتآمرون أن الوقت حان للاستقرار في قصر الإمارة . غير أن سرعة بديهة وولاء موظف العدلية الذي أمر بإغلاق الأبواب ، أوقعهم في الفخ وأنقذ لوران . كان

القمع دامياً : شنق فرانسوا بازي ورئيس الأساقفة ، بالرغم من الغضب العظيم الذي أبداه البابا سيكست الرابع ، وحرم لوران ، حتى أنه دعم حرباً قصيرة ضده (١٤٧٨ ـ ١٤٨٠ م) . إن حياة وسلطة لوران ، الذي يعزز أيضاً الطابع الطاغي لحكومته ، كانتا سليتين ومعافيتين ، ولكن بالإضافة إلى الصعوبات المالية والسياسية ، ظهر تهديد آخر واضح : فمنذ ١٤٩٠ م وبخاصة انطلاقاً من ١٤٩٤ م ، أقيم راهب دومينيكي في دير القديس ـ مرقس ، يدعى سافونارولا ، وبدأ يهاجم في وعظه أخلاق الفلورنسيين المنحلة والاستبداد الذي يستعبدهم أيضاً . ووجد جميع المستائين في انتقاداته تبريراً لحقدهم على آل ميديتشي . ومع ذلك كان الحظ السياسي للأسرة يبدو دوماً في أوجه . ولكن بعد عامين على وفاة لوران ووصول ابنه بيير إلى السلطة (١٤٩٢ م) ، تقوض نفوذهم في ١٤٩٤ م .

الإمارة الميلانية

كان تطور الإمارة الميلانية موازياً في عدة نقاط لتطور فلورنسا ، فقد أصبح الطاغية السابق ، **فرانسوا سفورزا** دوقاً وفرض على المدينة طغياناً جديداً . وكانت أجهزة الإدارة المتمركزة جداً فيها ، التي تفتحت منذ عهد آل فيسكونتي ، ناجعة ونافذة جداً وظلت تعمل بعد موت فرانسوا (١٤٦٦ م) ، عندما عادت السلطة إلى الضعيف والضئيل **غاليا ماري** ، ابنه . ومع ذلك فقد كان النظام ضعيفاً **وتراوح** بين خطرين : الثورة ضد الاضطهاد والانقلاب الذي نجح لمغامر آخر . ففي ١٤٧٦ قتل نبيلان ميلانيان أولجياتي ولامبونياني غالياماري ، ولكن جرمهم غير مفيد ، واقتيدا إلى التعذيب دون أن يفكر الشعب ، الذي اعتاد على العبودية ، بالثورة . وشجعت الحالة عندئذٍ أهداف طموح آخر وهو **لودوفيك لومور** ، الابن الثاني لفرانسوا سفورزا وأخو الدوق القتيل ، فقد أخذ مكانه في المجلس إلى جانب بونّ دوساڤوا ، زوجة أخيه ، التي تمارس الوصاية لصالح الفتى جان غاليا . وفي ١٤٧٩ م أبعد الوصية وحكم وحيداً

باسم ابن أخيه . ولكن طموحه لم يشبع ، وأراد منصب الدوقية . فهل يمكنه اغتصابه دون عداوة الملك الآراغوني في نابولي ، بعد أن تزوج ابن أخيه أميرة من آراغونة ؟

إيطاليا الممزقة

وفي الواقع ، في إيطاليا الممزقة ، كان للحوادث التي تجري في إمارة انعكاسات بصورة حتمية تقريباً في الإمارة المجاورة ، عندما لا تجد فيها أصلاً وسبباً . إن مصالح الأمراء ، الذين تارة يتحالفون ، وتارة يختلفون ، نسجت الورطة الإيطالية التي امتزجت فيها التعاملات الدبلوماسية التي يعقدها السفراء والعمليات التي يقودها العسكريون . ومع ذلك فإن السلام الموقع بين ميلانو والبندقية في لودي في ١٤٥٤ م ، بدا أنه يفتح دور سلام لإيطاليا . وبعد بضعة أشهر ، انضم البابا وفلورنسا وملك نابولي إلى الأمراء لإبرام ميثاق لخمسة وعشرين عاماً (العصبة الإيطالية) . ولم تكن الأسباب لتعوز الأمراء الإيطاليين ليسكتوا تنافرهم . فلقد دوى فتح الأتراك للقسطنطينية كقصف الرعد في إيطاليا . وفي الحقيقة ، إن جهود نيقولا الخامس وكاليكست الثالث وبيوس الثاني لتنظيم حملة صليبية لم تجد صدى في إيطاليا كما في باقي البلاد المسيحية ، وبادرت البندقية لعقد سياسة اتفاقات تجارية مع الأتراك . ولكن البنادقة لا يجهلون بأن الأتراك يمثلون بالنسبة لإمبراطوريتهم البحرية تهديداً فظيعاً يتجسد بخسارة مورة (١٤٦٠ م) ، ونيغروبون (١٤٧٠ م) وكافا (١٤٧٥ م) وأوترانت (١٤٨٠ م) . والسبب الثاني يعود إلى خطر التدخل الأجنبي في إيطاليا . ففي ١٤٥٣ م ، تدخل ملك فرنسا شارل السابع والسلاح بيده في النزاع الذي كان يقسم شبه الجزيرة . وأكدت عصبة لودي على أن إيطاليا يجب أن تبقى للإيطاليين . وأخيراً إن وفاق ١٤٥٤ م كانت غايته الحفاظ بين الإمارات الإيطالية ، التي كانت قوتها متساوية تقريباً ، على توازن سياسي : فقد تعهد أعضاء العصبة أن يأتوا

لنجدة أي منهم يقع ضحية عدوان . وإذا لم تتوصل إيطاليا إلى توحيد نفسها ، فإن تقسيم النفوذ ترك لها على الأقل بعض الثبات والاستقرار .

ومع ذلك ، فبعد عشرين عاماً على توقيع ميثاق لودي ، مزقت الحروب شبه الجزيرة من جديد . إن قضية إيولا التي أثارتها تنفيعية سيكست الرابع ومؤامرة آل بازّي ، التي كان لها فروع في روما ، نصبت فلورنسا والبابا الواحد ضد الآخر . وبينما كان الفلورانسيون مدعومين من البندقية وميلانو ، عقد البابا تحالفاً مع الملك فرّاند (١٤٧٨ م) وانقطعت عصبة السلام . وما كاد يعقد اتفاق في ١٤٨٠ م إلا ونشب خلاف آخر ، نشأ عن الشقاق بين البندقية وفراره (١٤٨١ ـ ١٤٨٤ م) . وأمام تألب ميلانو وفلورنسا ونابولي لم تجد صاحبة السيادة البندقية الجمهورية سلامتها إلا بتهديدها بدعوة ملك فرنسا لنجدتها . وبعد عام ، أثار البابا خلافاً جديداً عاماً بمهاجمة الملك فراند ، بحجة أنه لم يؤد منذ زمن طويل الضريبة الحبرية . واصطفت فلورنسا وميلانو إلى جانب النابوليين (أهل نابولي) ، وفي هذه المرة تكلم البابا إينوسان الثامن بأن يدعو لمساعدته ملك فرنسا . وفي كل مرة تقترح فيها المساعدة ، يجنب اللجوء للدولة الأجنبية بفضل دبلوماسية لوران العظيم الحاذقة ، لأنه كان يدرك الخطر الذي يتمثله على حرية إيطاليا . ولكن لوران العظيم مات في ١٤٩٢ م . وما من إرادة تعارض منذ ذلك الحين تطوراً كان في بداية نموه في الحالة الإيطالية . وبين أعضاء ميثاق لودي الذي ينادون عالياً « إيطاليا للإيطاليين » وجد بينهم أجنبي ، وهو ملك نابولي الآراغوني . أما فرّاند وارث ألفونس الشهم فقد ظل حتى الأعماق مرتبطاً بسياسة عمه جان الثاني الآراغوني ، ثم ابن عمه فردينانـد الكاثوليكي . ولكن الأنجوفيين لم يتخلوا عن تاجهم النابولي ، وإذا كان وراء فرّاند يوجد الآراغوني ، فوراء رونيه آنجو توجد فرنسا . وتكفي دعوة الأجنبي لتتحول إيطاليا برمتها إلى ساحة مغلقة للمنافسات الأوربية . وكان الأمراء الإيطاليون

يعتقدون بأنهم يستطيعون استعمال الحلف الأجنبي كسلاح يمكن طرحه فيما بعد حسب هواهم . وكان أقلهم وسوسة لودوفيك لومور الذي أثار تدخل الأجنبي : فليستولي على التاج الدوقي دون محذور ، كان عليه أن يحرض على ملك نابولي عدوّاً هائلاً : ولذا اختار ملك فرنسا شارل الثامن . وهذه الدعوة التي أطلقها في ١٤٩٤ م أثارت حروب إيطاليا الفظيعة .

ألمانيا وهوامش الجرمانية

تبدي ألمانيا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر منظراً يشبه من عدة جهات منظر إيطاليا : ففي إطار إمبراطورية ليس لها إلا حقيقة اسمية وهمية تتفتح نعرة الإمارات .

أفول السلطة الإمبراطورية

إن أفول المؤسسة الإمبراطورية الذي تأيد في ١٣٥٦ م بالمرسوم الذهبي ، قد ثبت أكثر فأكثر . لقد كانت الإمبراطورية دون عاصمة ، دون إدارة ، ودون موارد خاصة باستثناء بعض التكاليف الضئيلة التي تدفعها المدن . لذا لم تكن غير منصب شرفي . وفقدت كل الجاه الديني الذي يخولها إشعاعاً عالمياً عاماً . كان فريديريك الثالث آخر ملك للرومانيين الذي كلف نفسه عناء المجيء إلى روما بحثاً عن التاج الإمبراطوري (١٤٥٢ م) . والحادث ، الذي يختم رمزياً دوراً كاملاً من التاريخ الجرماني ، لا يثير أي حركة ، لأن هذا المسعى لم يكن له أي أهمية سياسية . لقد كان الإمبراطور يتسلم منصبه بالانتخاب وحده ، وعليه أن يحسب حساب الأمراء الناخبين . وهؤلاء يعتبرون أنفسهم حلفاء للعاهل أكثر منهم رعايا له . ويعملون كسادة في داخل أرضهم ، ويقلدهم في ذلك سائر الأمراء الآخرين : وفي هذه الظروف لم يكن الإمبراطور غير رئيس لاتحاد

دول . ويرمز فيه إلى الوحدة ولكنه لايحكم . وكان دياط الإمبراطورية (الرايخشتاع) يضم ثلاث هيئات : هيئة الناخبين ، هيئة الأمراء ، هيئة المدن ، وهو وحده يستطيع اتخاذ قرارات هامة تتعلق بالتشريع والضرائب والسياسة الخارجية . وقراراته تربط الإمبراطور . وإذا بقي من حيث المبدأ المصدر الأعلى للعدل ، فإن معظم القضايا تحتكرها المحاكم المتكاثرة في البلاد . وقضاء الاستئناف أمام المحكمة الإمبراطورية تخلى الناخبون طوعياً عنه ، وكذلك الأمراء الآخرون .

تفتت ألمانيا

لقد تغلبت القوى المبعدة عن المركز وتفتتت ألمانيا . ففي آخر العصر الوسيط حسب فيها ما يقرب من ٣٥٠ (دولة) . وكانت هذه الدول في الحقيقة متفاوتة السعة والأهمية : فإلى جانب المدن والإمارات الصغيرة ، التي تتبع الإمبراطور مباشرة ، أي التي تحكم نفسها بشكل مستقل ذاتياً وتضخم رقم المجموع ، لا يوجد إلا بعض عشرات من الإمارات الحقيقية . ولكن ينقصها الثبات والاستقرار . لقد كان معظم الأمراء غير قادرين على استغلال تفتيت السلطة الإمبراطورية لصالحهم . ويبددون قواهم ويسرفون مواردهم في منازعات عقيمة ينازع فيها بعضهم بعضاً . كانوا يعتبرون إمارتهم تركة ويتقاسمونها في كل خلف ، وهذا يزيد تجزئة البلاد الألمانية : ففي القرن الخامس عشر وجدت دوقية بافاريا مقسمة إلى أربع إمارات ، والبرنسفيك وممتلكات آل هابسبورغ إلى ثلاث . وأخيراً ، كان على الأمراء ، نظراً لفقدان الموارد الضرورية لإيجاد إدارة حقيقية أن يجابهوا معارضة (المجالس) حيث يجلس مندوبو الفرسان والمدن . والفرسان سواء كانوا داخلين في دولة أو حصلوا على التبعية المباشرة للإمبراطورية ، يتصرفون بإقطاعات قلت مواردها بحادث التطور الاقتصادي . ولما وصل بهم الأمر إلى الاستدانة والدمار ، بحثوا للبقاء عن تفاقم استغلال العالم الريفي أو أصبحوا قطاع طرق مثل الشهير غوتز فون برليشنغن . وفي كل

الأحوال ، عكروا النظام العام . أما المدن التي أفادت بالعكس بصورة عريضة من نهضة المبادلات التجارية ، فكان لها نظام متغير : فقد استطاعت بعض المدن ، مثل مدن الإمبراطورية أو المدن الكنسية أن تتحرر من الوصاية الأميرية ومثلت نفسها في دياط الإمبراطورية . ونظمت نفسها جميعاً تحت إدارة مجلس (RAT) يوزع ويفرض الرسوم البلدية ويؤمن السلطة القضائية على سكان المدينة . وكان الأمراء والفرسان يطمعون بثرواتها . وبين هذه القوى الثلاث كانت الخلافات أمراً مألوفاً . ونادراً ما ترفع أمام المحاكم . وفي هذه الفوضى العامة ، كان كل واحد ينزع إلى أن يأخذ حقه بيده ؛ ولإعادة السلام العام كان من الضروري إصلاح البنية السياسية للإمبراطورية . وكان هذا الإصلاح موضع مناقشات عديدة لم تؤد إلى أي نتيجة محسوسة . وفي الواقع ، إن الحل الوحيد الواقعي الذي يرجوه الإنسانيون والشعب ، أي توطيد السلطة الملكية ، رده الأمراء بالإجماع لاهتمامهم بمصالحهم وحدها .

الآمال بنهضة جرمانية

ومع ذلك ففي آخر القرن الخامس عشر ظهرت بعض مؤشرات لتحسين في الوضع الألماني . ولم تأت هذه المؤشرات من الملكية وإنما من بعض البيوت الأميرية التي عظمت شوكتها . وهذه البيوت ما زالت بعد غير قادرة على توحيد العالم الجرماني من جديد . ومع ذلك كانت تجنب ألمانيا من أن تصبح كإيطاليا رهان المنازعات الأوربية . وبين الأمراء الألمان في القرن الخامس عشر ، وجد رجال لهم قيمتهم ، مثقفون ، وأهل لأن يكونوا لأنفسهم فكرة سامية عن الدولة وتوطيدها . لقد اعتمدوا على رأي عام ملّ الفوضى ، وعلى الشركات التجارية التي أمدتهم بالقروض ، فعمروا دومينهم ومهروا دولتهم بإدارة أقل بدائية من ذي قبل منسوخة عن إدارة فرنسا ، وبجيش قوي نافذ ، ونظموا ماليتهم . وأخيراً ، نشروا قواعد للوراثة من شأنها تجنب التقسيم : مثل آل فيتلسباخ في بافاريا والكونت

إيرهارد دو ڤرتامبرغ . على أن تقدم البيتين الأميريين بيت آل هوهنتسولرن وبيت آل هابسبورغ يستحقان عناية خاصة .

كان فريديريك دو هوهنتسولرن بورغراف نورامبرغ متواضعاً ، خدم بإخلاص سياسة الإمبراطور سيجسموند الدينية وكافأه هذا الأخير بإعطائه مارغرافية براندبورغ التي وقعت ثانية بين يديه . واكتفى فريديريك الأول (١٤١٥ ـ ١٤٤٠ م) وفريديريك الثاني (١٤٤٠ ـ ١٤٧٠ م) بتقوية وتمتين دومينهما . ولكن خلفهما ألبرت ـ آشيل دو هوهنتسولرن ، وهو أمير موهوب يدعو إلى الإعجاب ، بدأ بتوسيع ممتلكاته من جهة بوميرانيا . وكان أحد مؤسسي الدولة البروسية في المستقبل .

ومنذ آخر العصر الوسيط كان حظ آل هابسبورغ وضاءً ، فبفضل اللامبالاة التي تحيط الآن بالوظيفة الإمبراطورية ، وبفضل الانتخابات المتعاقبة ، احتكروا بشكل شبه وراثي التاج الملكي ، وبخاصة وسعوا بصبر دولهم الوراثية . وفي ١٤٣٧ ، انتقل بموجب معاهدة برون مجمل أموال آل لوكسمبورغ ، عدا براندبورغ ، من سيجيسموند إلى صهره ألبرت هابسبورغ ، دوق النمسا ، الذي انتخب ملك الرومانيين . وفي ١٤٣٩ ، عندما توفي ألبرت الثاني وانقسم الإرث ، اعترف بابنه الشاب لاديسلاس ملكاً على بوهيميا وهونغاريا . وبدأت هاتان المنطقتان تتطوران خارجاً عن الفلك الجرماني . ومع ذلك فإن فريديريك شتيريا ، ابن عم ألبرت ، أصبح زعيماً لبيت هابسبورغ ولبس بدوره التاج الملكي (١٤٤٠ ـ ١٤٩٣) . وكانت أموال الأسرة التي مازالت بعد مبعثرة بين عدة فروع : النمسا ، التيرول ، شتيريا ، الكارنيول ، وقسم من الألزاس ، تؤلف مجموعة هامة . ويقصد بها في الواقع المناطق التي تسيطر على المعابر الألپية والتي كانت ، من جهة أخرى ، غنية بالفلذات . وكان فريديريك عاهلاً مسالماً كسولاً ومهملاً . يهزأ به معاصروه غالباً . ولكنه كان مقتنعاً بأن الدبلوماسية أنجع من

الحرب . وما كان ليهتم بألمانيا ، ولكنه كان يهيئ ترتيبات تساعد على ضم مختلف ممتلكات الأسرة في كل متجانس . وحقق نجاحه الأعظم ، نحو الغرب ، بمفاوضات حاذقة مع أدواق بورغونيا وسبق أن أباطرة أسرة لوكسمبورغ كانوا قد اتخذوا حيالهم موقفاً معادياً ، حتى أنهم تحالفوا مع الملك شارل السابع ضد فيليب الطيب ، والسبب في ذلك بسيط : فقد كسب دوق بورغونيا ، وبفضل اتحادات زواج ، عدة امارات في البلاد المنخفضة قد تعود للامبراطور ، إثر انطفاء نسل الذكور في سلالاتها . وبخاصة تبني فريديريك الثالث سياسة مختلفة جداً : اعترف بالمكاسب التي حققها فيليب الطيب وخلفه شارل الجريء . ولمح إليهما بإنشاء ممكن لمملكة بورغونيا تابعة للإمبراطورية وترك شارل الجريء يأمل بأن بإمكانه أن يخلفه على عرش الإمبراطورية . ودون أن يتعهد تماماً ، ومقابل وعود غامضة ، حصل فريديريك الثالث لابنه **ماكسمليان** على يد الوارثة لبورغونيا ، مارية . وبعد موت شارل الجريء (كانون الثاني ١٤٧٧ م) انتقلت كل أملاكه ، باستثناء دوقية بورغونيا الأصلية ومدن السوم التي كسبها لويس الحادي عشر ، إلى آل هابسبورغ . وهكذا أصبحت دولتهم من أقوى سلطات الغرب . وتنبأ فريديريك الثالث بمستقبل بيته وأطلق شعاره العزيز العالي : (A.E.I.O.U) وهذا يعني بالألمانية (Alles Erdreich Ist Oesterreich Untertan) أو باللاتينية : (Austriae Est Imperare Orbi Universo) أي أن تعود إلى النمسا السيطرة على العالم . وكان أرشيدوق النمسا ، الإمبراطور منذ ١٤٩٣ م ، **ماكسمليان** (١٤٩٣ ـ ١٥١٩ م) أول سلالة كبار عواهل آل هابسبورغ . وقد ورث من أبيه طبعه المتردد والمتقلب بالإضافة إلى إسرافه الجنوني . ولكنه كان ملكاً عظيماً جداً .

وهذا الأمير الفارس الذي يحمي الفنانين والعلماء بدا أيضاً سياسياً حاذقاً : فقد جمع كل تركة أسرته بين يديه وأعلن أنها غير قابلة للقسمة . لقد كان بحق مؤسساً لنفوذ وسيطرة آل هابسبورغ .

الثغور الشرقية والشمالية في أوربة الكاثوليكية

بالرغم من هذه التحويلات التي هيأت لبعض الإمارات الألمانية مستقبلاً لامعاً ، فإن ضعف الإمبراطورية كانت نتيجته المباشرة تشكيل دول قومية وانحسار النفوذ الجرماني .

أوربة الشرقية

وهذا الانحسار في الغالب محسوس في شرقي البلاد ، التي تؤلف أمام الروس الأرثوذوكس والأتراك المسلمين ، ثغور المسيحية الرومانية . وتؤلف هونغاريا المثال الأول . فمنذ انطفاء السلالة القومية لآل آربادِيَنْ (١٣٠٨ م) أصبح تاج القديس ـ إيتين رهان منازعات بين عدة بيوت أميرية في أوربة . وبعد قرن مضى تحت إدارة العواهل الآنجوفيين (١٣٠٨ ـ ١٣٨٢ م) ، دخل في حوزة سيجيسموند دو لوكسمبورغ الذي أورثه آل هابسبورغ مع مجموع أملاكه . وبدا مصير هونغاريا منذ ذلك الحين مرتبطاً بمصير النمسا ، وهذا وضع ملائم لتقدم الجرمانية في هذه المناطق . وستمنح الظروف مع ذلك إلى هونغاريا قرناً أيضاً من الاستقلال القومي . فقد اصطدمت سلطة الأباطرة الجرمانيين أولاً بوجود طبقة من كبار الملاكين النبلاء ، الماغنات الذين عظمت سلطتهم بفضل المنازعات السلالية . وبخاصة إن عدم كفاءة بيت النمسا متمثلاً بألبرت الثاني ولاديسلاس أمام الخطر التركي ، فرض زعيماً قومياً في شخص الماغنا **جان هونياد** وكان هذا مكلفاً باسم لاديسلاس الشاب ، تأمين حكم البلاد . وعظم دوره بقرب الجيوش التركية التي احتلت صربيا وهددت مدينة بلغراد . وبنتيجة هذا النصر ، أصبح هونياد بطلاً قومياً . وعند وفاته نودي بابنه ماتياس كورڤن وله من العمر خمسة عشر عاماً فقط ، ملكاً (١٤٥٨ ـ ١٤٩٠ م) . كان رئيساً عسكرياً كبيراً ، ورجل دولة مستنيراً ، وإنسانياً متميزاً ، ترأس مصير هونغاريا المستقلة والمزدهرة . وفتحت وفاته أزمة سلالية جديدة : فقد عاد تاج القديس ـ إيتين

إلى أمير پولوني ؛ وكانت هونغاريا مأخوذة بين خطرين ، خطر أن تصبح تابعة لبولونيا ، وخطر أن تكون فتحاً جديداً للإمبراطورية العثمانية . وما لبثت أن ضحت باستقلالها ووضعت نفسها لعدة قرون تحت وصاية آل هابسبورغ .

وتاريخ **بوهيميا** في عدة نقاط مواز لتاريخ هونغاريا ، فبعد انطفاء السلالة القومية ، سلالة آل بريميسليد (١٢٨٣ م) انتقلت هي أيضاً إلى أيدي آل لوكسمبورغ . ولكن العاطفة القومية تبلورت في بوهيميا بفضل خلافات دينية : لقد كانت الهرطقة الهوسية أيضاً رد فعل ضد الضريبة الحبرية كما هي ضد السيطرة الجرمانية . وكانت الحركة عنيفة جداً حتى أنها اضطرت أخيراً البابا والإمبراطور إلى القيام بتنازلات . لقد أمنت الكومباكتاتا (١٤٣٦ م) لبوهيميا نوعاً من استقلال ذاتي ديني . وخرجت البلاد متحولة بالأزمة : فقد ارتفع مستوى أكليروسها .. ووجدت اللغة التشيكية كل حقوقها . وهكذا تفتحت حضارة لامعة . ومن جهة أخرى ضعفت سلطة العاهل بشكل عظيم أمام طبقة نبيلة نقادة مشاكسة ومعاكسة . وهكذا فإن الشاب لاديسلاس هابسبورغ ، الذي ورث بعد أبيه تاج بوهيميا ، الذي أورثه إياه بيت آل لوكسمبورغ لم يستطع أن ينتخب ملكاً على بوهيميا إلا مقابل (**امتيازات**) تمنح الطبقة النبيلة المحلية امتيازات عظيمة . وغداة وفاته (١٤٥٧ م) ، أعطيت بوهيميا عاهلاً قومياً ، جورج دو بودريبرادي (١٤٥٨ ـ ١٤٧١ م) . وفي عهد هذا الملك المحب للسلام الذي يحلم بتأسيس جمعية أمم مسيحية ليواجه التهديد التركي ، بدا أن الهرطقة تولد من جديد . فمن ذلك أن فلاحاً قليل التعليم ولكنه كان تلميذاً لجان هوس ، وهو بيير شلشيكي ، كان في أصل تأسيس **وحدة الإخوة التشيكيين** التي انفصلت عن الكنيسة الرومانية . وكان على جورج دو بودريبرادي أن يناضل ضد هونغاريا التي أطلقها البابا ضده . وعند وفاته ، كانت حالة البلاد مضطربة : فقد تحركت الطبقة النبيلة القوية الشوكة ، ورفضت أن تنتخب ماتياس هونغاريا ، صهر

العاهل الراحل ، وقدمت التاج لأمير بولوني وهو **لاديسلاس جاجلّون** . ولم تعرف بوهيميا كيف تستفيد من ظرف ملائم لتثبيت استقلالها القومي .

بولونيا

لقد ضمت بولونيا في آخر القرن بوهيميا وهونغاريا تحت إدارتها ، وكانت قطعاً المملكة التي أفادت من أفول النفوذ الجرماني في أوربة الشرقية . وترجع سلطتها إلى اتحادها مع ليتوانيا الذي تحقق في ١٣٦٨ م تحت إدارة سلالة آل جاجلون . فقد استطاع هؤلاء العواهل أن يخمدوا طبقة نبيلة قلما تميل إلى الطاعة . ومع مشاركتهم في النضال ضد الأتراك الذي امتاز به لاديسلاس السادس الذي مات بمجد أمام ڤارنا في ١٤٤٤ م ، كانوا يناضلون بصورة أساسية في الغرب ضد الدفع الجرماني . وقد صلبت نتائج انتصار تاتنبرغ المدوي الذي سحق فيه الفرسان التوتونيون ، بفضل كازيمير الرابع (١٤٤٧ ـ ١٤٩٢ م) : وحقق هذا انتصارات جديدة مثل نصر مارينبورغ (١٤٥٧ و ١٤٦٠ م) ، وفي سلام (تورن) أجبر النظام التوتوني على تسليم كل أراضيه إلى بولونيا ، باستثناء بروسيا الشرقية التي احتفظ بها كتابع لملك بولونيا (١٤٦٦ م) . وهكذا كانت بولونيا ، تحت قيادة آل جاجلون في أوج سلطتها . وبدافع من نشاط اقتصادي شديد ، امتد نفوذها من الأدرياتيك إلى الدنيبر ومن البالطيك إلى البحر الأسود . وكانت جامعة كراكوفيا مركزاً لامعاً للآداب الإنسانية . وعن تقدم العاطفة القومية يشهد أيضاً (تاريخ بولونيا) الذي أصدره رئيس الكهنة لونجينوس في ١٤٨٠ م . ومنذ هذا العصر بدأ يظهر رد فعل الطبقة النبيلة ضد السلطة الملكية ومع الزمن أصبح خطراً .

وهكذا ، في شرق أوربة الكاثوليكية ، تشكلت على حساب الجرمانية ثلاث دول قومية : وكان ينقص كل واحدة منها وجود نظم ملكية قوية بشكل كاف لتحشد بشكل دائم الطاقات القومية التي بعثرتها الثورة غير المنظمة التي قامت بها

الطبقة النبيلة المشاغبة . وهكذا فإن هونغاريا التي أثقل عليها بشكل مقلق التهديد التركي ، كما أثقل على بوهيميا ، ستضطران أخيراً منذ بداية القرن التالي إلى الدوران من جديد في فلك الدولة النمساوية . أما بالنسبة إلى بولونيا فأمامها بعد قرن لامع من الاستقلال .

أوربة الشمالية

لقد أخذ تطور البلاد الشمالية ، التي استيقظت فيها أيضاً عواطف قومية ، مظهراً أكثر تعقيداً في آخر القرن الخامس عشر . إن النفوذ الألماني ، الظاهر بخاصة في الصعيد الاقتصادي ، ظل شديداً أكثر مما في مناطق أوربة الشرقية . وإن كريستيان الأول دولدنبورغ الذي وطد لصالحه وحدة الممالك الثلاث وأحيا من جديد اتحاد كالمار ، حاول أن يعاكسه ، ولذا أسس جامعة كوبنهاغن لمنع الأكليروس من الذهاب والدراسة في المدارس الألمانية ، ولكنه لم يستطع أن ينتزع إسكانديناڤيا من النفوذ التجاري لمدن الهانس الجرمانية . ورد الفعل ، الذي ظهر عندئذ في البلاد الشمالية ، كان موجهاً ضد الدانيمارك التي فرضت اتحاداً كانت المستفيد الأساسي منه .

كان كريستيان الأول آخر عاهل دانيماركي جمع إلى تاج الدانيمارك (١٤٤٨ م) تاج النرويج (١٤٤٩ م) وتاج السويد في (١٤٥٧ م) . وفي ١٤٧١ م أحرز حزب الاستقلال السويدي في برونكبرغ نصراً حاسماً طرد الملك الأجنبي . وأخذ الزعيم القومي شتن شتور بيده مقاليد الأمور في البلاد . ومنذ هذا الحين ارتسمت لعدة قرون الجغرافيا السياسية للعالم الإسكانديناڤي : لقد قسم هذا العالم بين مملكتين لا تنطبق حدودهما تماماً مع حدود الجماعات القومية . ولكنها ألفت تحت إدارة الملكيات السلطوية دولاً ذات بنية ثابتة ، والسويد التي تحافظ على سيطرتها على فنلاندا ، تهيأت لتصبح في عهد خلفاء الملك غوستاف

فازا ١٥٢٣ م دولة كبرى . أما الدانيارك ، التي كان ملكها هانس بن كريستيان الأول ، ومهرها بأسطول حربي عظيم ، فقد احتفظت في تبعيتها بالنورفيج وأفادت من نهوض اقتصادي واسع .

أوربة الدول القومية

من الجزر البريطانية إلى شبه الجزيرة الإيبرية ، أخذت أوربة الغربية سيماها السياسية الحديثة . ففي إسبانيا وإنكلترا ، كما في فرنسا ، يرى ملوك أقوياء يناضلون ضد القوى الخارجة عن المركز التي تغرق ممالكهم في آخر أزمات العصر الوسيط ، قد أنجزوا حولهم جمع دول قومية ونظموها بقوة وصلابة .

تشكيل الملكية الإسبانية

في منتصف القرن الخامس عشر ظلت شبه الجزيرة الإيبرية مقسمة إلى ثلاث ممالك : القشتالة ، الآراغونة ، البرتغال ، بدت تتجه في سياق القرن السابق نحو مصائر مختلفة . وبالرغم من الظواهر تهيأت الوحدة .

قشتالة

كانت قشتالة مهيأة لتأخذ فيها دور التوجيه ، وواقعة في وسط شبه الجزيرة . وبدأت تفيد من النهوض الاقتصادي ، الذي تفوقت به واجهتاها البحريتان على المحيط الأطلسي .

إن البورجوازية التي تعززت سلطتها على هذا النحو وتلعب في الكورتيسات دوراً هاماً ، كانت ترغب فيه أن تدعم توطيد سلطة ملكية قوية ومركزية ضد الطبقة النبيلة المشاغبة دوماً . وأخيراً ، إن قشتالة التي ظلت وحدها تناضل في القرن الرابع عشر ضد المسلمين ، كانت تتمتع في شبه الجزيرة كلها بجاه ديني عظيم . ومع ذلك فقد وجدت عقبات تقاوم مع ذلك تحقيق الوحدة تحت

الإدارية القشتالية . فهي توجد أولاً في داخل المملكة نفسها ؛ فالنظام الملكي فسد بعواهل ضعفاء أو موضع جدل ، كان حكمهم في صالح كبار المملكة ولتحريرهم ؛ فقد كان جان الثاني البليد المهمل (١٤٠٦ ـ ١٤٥٤ م) وابنه هنري الرابع غير قادرين على قمع ثورات الطبقة النبيلة التي أقلقت البلاد . وإلى هذه الحالة البائسة أضيفت من بعد قضية سلالية خطيرة : وهي أن الملكة جانّ تزوجت هنري الرابع . وولدت منه بنتاً ، أميرة ، أطلق عليها أيضاً اسم جانّ ولكن الإشاعة لم تنسب أبوة البنت إلى هنري الملقب بالعاجز وإنما إلى محظي الملكة بلتران دو لا قونقة . وإذا كانت جانّ بنتاً غير شرعية فالتاج يرجع إلى أخت الملك إيزابل . وبتأثير الضغوط التي مورست عليه ، غير هنري الرابع مراراً عديدة أحكامه الوراثية ففاقم بذلك الاضطراب العام . وانقسمت الطبقة النبيلة إلى فئتين : بعضهم دعم قضية جانّ (البلترانية) ؛ والآخرون قضية إيزابل . وقامت حرب أهلية كان الملك فيها في موضع حرج ومزقت البلاد وعرضتها للفوضى .

وتجاوزت قضية الوراثة حدود قشتالة . وفي الواقع ، تزوجت إيزابل ابن عمها فرديناند ، وارث تاج آراغونه (١٤٦٩ م) بينما عرض ملك البرتغال ألفونس الخامس على البنت جانّ أن يتزوجها ويدعم قضيتها . وفي ختام الخلاف السلالي الذي اختلفت فيه البنتان يتعلق الشكل الخارجي السياسي لمستقبل شبه الجزيرة حسبما تتحد قشتالة بالبرتغال أو بآراغونة .

البرتغال وآراغونة

ماهي حظوظ البرتغال ؟ كان فيها استقرار سياسي عظيم ، مبني على تنظيم إداري ممتاز وضعه لها عواهلها . وتم هذا العمل في عهد ألفونس الخامس (١٤٣٨ ـ ١٤٨١ م) وجان الثاني (١٤٨١ ـ ١٤٩٥ م) : إن (البراءات الألفونسية) تقنن التشريع البرتغالي في اتجاه تعزيز الدولة الملكية وذلك بإيجاد مكان لدور الكورتيسات التشريعي . فقد أخمد جان الثاني آخر هزة ثورة للطبقة

النبيلة بإعدامه المحرك الأساسي فردينـانـد دو براغـانس . ولكن البرتغـال ولت ظهرها أكثر فأكثر لشبـه الجزيرة وكرست نفسهـا لميلهـا البحري . وعلى العكس ، مملكة آراغونة التي تأثر نشاطهـا التجـاري في البحر المتوسط بظهور الأتراك وبنو القرصنـة في إفريقيـة الشماليـة ، انســاقت في حشر نفسهــا عن عـزم في الشؤون الإسبانية . وفي الحقيقـة ، إن المملكـة الآراغونيـة اجتـازت أزمـة داخليـة خطيرة أضعفتهـا بشكل خطر . وبفضل الغيـاب الطويل لألفونس الشهم الـذي قضى كل حكمه في دومينـه في نـابولي ، استولى كورتيسـات كاتـالونيـا على السلطـة . وأثـار موت العاهل ، في ١٤٥٨ م ، أزمة زادتها تفاقماً شؤون ناڤار . وكان جان الثـاني ، الملـك الجديد ، قد تزوج بلانش دو ناڤار والابن الـذي ولـد من هـذا الزواج ، شـارل ، ورث مملكــة البيرينـــه الصغيرة . وانفجر خـلاف بين الأب والابن ، وتحــزبت الكاتـالونيـا لهـذا الأخير ، وثـارت على الملـك واضطرتـه إلى تنـازلات خـولهـا في امتيازات فيلافرانكا في ١٤٦١ م . وإثر موت الأمير شارل سرت في الجمهور إشاعـة أن الملـك مسؤول عن ذلـك ، فـأشعلت ثورة حقيقيـة . وقـدمت البورجـوازيـة الكاتـالانيـة التـاج الكـونتي إلى الملـك رونيــه دآنجـو ، العــدو الســابـق لـلأمراء الآراغونيين . وحافظ جان الثاني على مساندة القسم الأعظم من الطبقة النبيلـة ، والفــلاحين . ولكن الحـــالـــة كانت خطيرة جـــداً ، حتى أن الملـــك لـــويس الحادي عشر ، ملك فرنسا ، كان حكماً على الحالة : وحاول جان الثاني نفسه عبثاً أن يتصالح مع ملك فرنسا وذلك بأن يترك له روسيّون . ولكن ملـك فرنسـا دعم على الأقل الحملة التي أطلقها ابن رونيه دآنجو ضد بارشلونـة . وانضم الغزو الأجنبي إلى الحرب الأهليـة لإغراق البلاد خلال عشرة أعوام في الفوضى . وأخيراً ، استغل الدبلوماسي الحاذق جان الثاني السأم العام ونجح في إخضاع بارشلونـة (١٤٧٢ م) وأعلن الملك عفواً عاماً وصادق على الامتيازات الكاتالانيـة وأرجع وحـدة المملكـة حول شخصه . وهذه المنازعات لم تمنعه من العمل على تحقيق الوحدة الإسبـانيـة . فهو الذي عرف كيف يدبر زواج ابنه ووارثه فرديناند بإيزابل قشتالة .

وعندما فتحت ، بوفاة هنري الرابع ، قضية وراثة قشتالة ، في ١٤٧٤ م ، أطلقت البرتغال والآراغونة قواهما في النزاع . فضد جانّ التي يدعمها قسم من الطبقة النبيلة القشتالية وألفونس الخامس ملك البرتغال ، اعترفت الكورتيسات بإيزابل واعتمدت على الجيش الآرغوني لزوجها وناضلت أيضاً أربعة أعوام قبل تحقيق النصر . وبمعاهدة **الكاسوڤاس** (أيلول ١٤٧٩ م) رضخت البرتغال ، ولم تعد تهتم بشؤون شبه الجزيرة ، وانطلقت بحماسة في مغامرة المحيط الأطلسي .

اتحاد آراغونة وقشتالة

من اتحاد المملكتين القشتالية والآراغونية ولدت إسبانيا الحديثة . وأصبح فرديناند ملك آراغونة عند وفاة أبيه (١٤٧٩ م) وحكم وإيزابل معاً ، وخدمها في ذلك إشعاع شخصيتها .

وهذا الاتحاد الشخصي بين الملكين لا يعني مع ذلك توحيد الأراضي التي يحكمانها . لقد حافظت كل من المملكتين على نظمها الخاصة ولكن الانمحاء الاقتصادي لكاتالونيا أعطى في الواقع لقشتالة دور التوجيه . وعمل الملكان على تحقيق الوحدة الإسبانية ، بتوطيد السلطة الملكية أولاً : ففي قشتالة بخاصة ، خمدت نأمة الطبقة النبيلة ووضعت الكورتيسات تحت الوصاية بينما أقيم الكوروجيدورات ، نوع من المفتشين الملكيين ، في كل مكان . وتم تجمع الأمة الإسبانية أيضاً بفضل المشاريع المشتركة في المملكتين ، ثم إرجاع روسيون بالحصول عليها من ملك فرنسا ، وبخاصة اتجهت الطاقات نحو إنهاء الاسترداد الذي انقطع منذ زمن طويل . ففي ١٤٩٢ م ، أدى أخذ غرناطة إلى زوال آخر جزء من النفوذ الإسلامي على التراب الإسباني . وأعلم فردينانند البابا إينوسان الثامن بالخبر بحماسة .

وبتأصيل العاطفة القومية مع الإيمان المسيحي والأصولية الكاثوليكية حاول

الملكان تحقيق الوحدة الإسبانية . وفي الحقيقة ، لقد عاودا النضال ضد المسلمين والمراطقة ، ولم يجمعا وراءهم الأكليروس القلق على الإيمان ، فحسب ، وإنما الجماهير الشعبية الحاسدة لنفوذ اليهود في أوساط المجتمع العليا وللنجاح الأكثر تواضعاً للحرفيين والفلاحين المسلمين . وبشكل له دلالته ، كانت سنة سقوط غرناطة السنة التي بدأت فيها حملة الصبء القهري ضد اليهود والمدجنين ، الموديجار (المسلمون الذين لم يرتدوا عن دينهم) . وصدرت براءة ٣٠ آذار ١٤٩٢ م وأمهلت اليهود في كل المملكة أربعة أشهر ليرتدوا عن دينهم ويقبلوا التعميد أو يغادروا المملكة . وفي هذه الحالة ليس لهم حق في أن يبيعوا عمائرهم أو يأخذوا معهم الذهب والفضة . وغادر مئتا ألف يهودي إلى البرتغال ، ونافار وإيطاليا أو إفريقية الشمالية . وبالرغم من الوعود المقطوعة أثناء استسلام غرناطة ، سلك الإسبان سياسة مماثلة ضد المسلمين . وفي الوقت نفسه نظم مجمع الكرادلة من جديد محكمة التفتيش القديمة ، ولاحق المرتدين المشبوهين . وانطلق لتوحيد شبه الجزيرة بالعاطفة الدينية . وسيتحقق لصالح ورثة الزوجين الملكيين ، ابنتهما جانّ وبخاصة حفيدهما شارل ، شارل كنت المستقبل . وأخيراً في هذه السنة ١٤٩٢ م ، فتح ملاح إيطالي دخل في خدمة إيزابل ، للمغامرين الإسبان والمبشرين ، طرق العالم الجديد ، حيث امتدت الإمبراطورية الإسبانية . وهكذا فإن حكم (الملكيين الكاثوليكيين) ، الذي يختم العصر الوسيط في تاريخ إيبريا هيأ لإسبانيا الحديثة عصراً ظافراً .

إنكلترا

لقد طردت إنكلترا بهزائم فورميني (١٤٤٩ م) وكاستيون (١٤٥٣ م) من القارة ولم تحتفظ إلا بمدينة واحدة وهي مدينة كاليه . وهكذا انفصل مصير إنكلترا عن مصير فرنسا بعد أن ربطها انتصار هاستينغس منذ أربعة قرون . لقد كان انهيار الإمبراطورية الإنكليزية ـ الفرنسية لآل بلانتاجونيه في الواقع تحريراً

لإنكلترا . وفي داخل الوحدة الجغرافية التي تمثلها الجزر البريطانية أصبح بإمكان الشعب الإنكليزي أن يتشكل في أمة متجانسة حول سلالة قومية وينظم نفسه في إطار دولة حديثة . وهذا التعديل لا يمكن أن يجري دون أزمة . وفي الحاضر المباشر ، تسيطر على المعاصرين الحرارة والغضب ضد العواهل الذين كانوا غير قادرين على تجنب الهزيمة . ولذلك فتحت أزمة نصبت ، ضد آل لانكاستر القائمين على السلطة ، فرعاً من أسرة بلانتاجونيه ، وهو فرع آل يورك . ولكن التاج ، الذي يتنازع عليه آل لانكاستر ، ورمزهم الوردة الحمراء ، وآل يورك حملة الوردة البيضاء ، لم يكن الرهان الوحيد في الصراع . وتحت هذا النزاع السلالي ، قلبت أزمة اجتماعية إنكلترا وفاقمت هذا النزاع ومددته . إن الطبقة الأرستقراطية المحرومة بشكل فج من الإقطاعات والموارد التي تحصل عليها من الأراضي المحتلة على القارة ، حاولت أن تجد تعويضاً بالاستيلاء على السلطة . وهكذا وضعت السلطة الملكية على بساط البحث ومعها إمكان إنكلترا بأن تصبح دولة قوية .

لقد رفع هنري لانكاستر إلى السلطة بعاطفة قومية ، وخلع في ١٣٩٩ م ابن عمه ريتشارد الثاني المحب للسلام كثيراً . والانتصارات التي أحرزها على القارة هنري الخامس تبرر الاغتصاب الذي ارتكبه بيت آل لانكاستر . والهزائم التي تراكمت في حكم هنري السادس أفقدته الثقة به . ومنذ هذا الحين فإن الحقوق بالتاج للملك الضعيف وغير الكفء ، هنري السادس ، الذي سيطرت عليه زوجته الفرنسية مارغريت دآنجو ، وضعت موضع شك . أفلا تعين خلافة النسب للعرش ذرية إدموند يورك بدلاً عن ذرية جان دو لانكاستر . انقسمت الطبقة النبيلة : فأمام الحزب الذي يدعم هنري السادس وقف حزب يوجهه دوق وارويك الذي تحزب لريتشارد يورك . وقام نزاع حاقد ودموي لا تنقصه الخيانات ولا انقلابات التحالف .

أثار دوق يورك ، ريتشارد ، النزاع ، زاعماً بأن يفرض نفسه وارثاً على

هنري السادس . وحصل على لقب (الحامي) . ولكن إلى جانب هنري السادس الذي كان عقله مخلخلاً كعقل جده ، ملك فرنسا شارل السادس ، كانت الملكة ساهرة ، وجابهت التهديد بقوة . ونشبت الحرب بين السلالتين ولكن نهايتها ظلت خلال عدة أشهر غير أكيدة : لقد أحرز ريتشارد في شهر تموز ١٤٦٠ م نصراً في نورثامبتون ، ولكنه في شهر كانون الأول من السنة نفسها غلب وقتل في ويكفيلد . وعاود ابنه إدوارد النزاع معتمداً على كونت ورويك وتمكن من القبض على شخص هنري السادس وسجنه في برج لندن ، بينما فرت الملكة مارغريت . وبتتويج إدوارد الرابع ملكاً في ١٤٦١ م ، انتصر آل يورك . وفي الواقع كان ورويك يقبض على السلطة ولكن إدوارد فيما بعد أراد أن يتحرر من وصايته وتزوج فتاة تنتسب إلى الأسرة المنافسة لأسرة ورويك وهي أسرة وودويل . عندئذ غير ورويك المعسكر بشدة . وتصالح مع مرغريت دآنجو ، بفضل المساعي الحميدة التي بذلها الملك لويس الحادي عشر ، ونجح في إعادة البائس هنري السادس إلى العرش (تشرين الأول ١٤٧٠ م) . وجاء دور إدوارد الرابع للفرار . وانتصرت الوردة الحمراء لآل لانكاستر . ولكن ورويك (صانع الملوك) دوماً هو الذي يحكم . وأراد لويس الحادي عشر أن يدفع له ثمن المساندة التي قدمها : لقد أراد أن يعقد ضد عدوه ، دوق بورغونيا ، تألباً إنكليزياً ـ فرنسياً ، ولم ينجح إلا في قيام الحرب الأهلية من جديد في إنكلترا ، كما أشار إلى ذلك المؤرخ الإخباري توماس بازين .

عبر إدوارد الرابع المضيق ، في نيسان ١٤٧١ م ، يدعمه في ذلك ابن حميه وحليفه الطبيعي ، شارل الجريء . وقعت المعركة في بارنه حيث هلك ورويك (نيسان ١٤٧١ م) وفي تيوكسبري (أيار ١٤٧١ م) حيث أخذت مارغريت آنجو أسيرة وأعدم ابنها . وأمنت هاتان المعركتان نهائياً العرش لإدوارد الرابع الذي أزال خصمه في السجن ، وكرستا هزيمة آل لانكاستر .

وفي هـذه المرة وجـدت الحوادث الإنكليزيـة انعكاسـاتها في فرنسـا . فمقـابل المساعدة التي قدمها دوق بورغونيا ، تعهد إدوارد الرابع باستئناف النزاع ضد ملك فرنسا . وأمنه شارل الجريء بأنه مـا أن يصل الأرض الفرنسيـة حتى تثور الطبقـة النبيلة ضد لويس الحادي عشر ، وإن نزهة عسكرية حتى مدينـة رنس تسـاعـده للـذهـاب إليهـا وقبـول تـاج فرنسـا . نـزل إدوارد الرابـع في كاليـيـه ، في ٤ تمـوز ١٤٧٥ م ، ولكنـه لاقى في الحـال المصـاعب : إن سن ـ كانتن ، التي اعتقـد بـأنهـا معه ، قاومت . ومن جهة أخرى ، اشتبك شـارل الجريء مع دوق اللورين فترك لإدوارد كل ثقل النضال ضـد فرنسـا . وكان إدوارد واقعيـاً ولا يريـد أن يضحي بحياة اللذائذ التي يحبها لتاج فرضي . وفي ١٤ آب ، دخل في محادثات في ديڤ مع مبعوثي لويس الحادي عشر . وفي ١٩ آب أقسم الحزبان في بيكيني على السوم على احترام المقترحات التي اتفقا عليها . وبـاختصـار ، إن إدوارد تلقى مقـابل إبحـاره وعودته إلى إنكلترا مبلغ ٧٥٠٠٠ إيكو تمثل نفقات الحرب ووعـد بصـداقتـه مقـابل مرتب مدى الحياة قدره ٥٠٠٠٠ إيكو تعهد بدفعها له ملك فرنسا . وهذا الاتفـاق المقبول طوعاً أنهى عملياً حرب المئة عام .

وعندما عاد إدوارد الرابع إلى إنكلترا ، حدد مطامعه في التمتع بأسباب الحيـاة وسـط بلاط فرح وفـاسـد . ولم يقف أي عـائق أمـام تحقيق هـذا البرنـامج : لقـد هلكت الطبقـة النبيلـة بحرب الـوردتين ، وهـذه الحرب ، بـالعكس ، شجعت العنصر البـورجـوازي الـذي أفـاد من نهضـة البـلاد الاقتصـاديـة . لقـد تركت البورجوازية السلطة التشريعيـة ، واهتمت ، في داخل مجلس العموم الـذي تمثلت فيه ، بمراقبـة أموال المملكـة بصورة أسـاسيـة . وبفضل المعونـات الفرنسيـة كانت طلبات الملك إدوارد من المال في البرلمان قليلـة الأهميـة ، الأمر الـذي شجع حسن التفاهم بين العاهل وبرلمانه .

ومع ذلك فإن إنكلترا لم تنته من الأزمـات السلاليـة . إن موت إدوارد الرابع

قبل أوانه (نيسان ١٤٨٣ م) ترك العرش لابن عمره اثنا عشر عاماً ، وهو **إدوارد الخامس** . واستحوذ أخو المليك الراحل ، ريتشارد دو غلوسستر على الملك الفتى وأخيه : وحبس (ولدي إدوارد) في برج لندن ، واعتبرهما ابنين غير شرعيين وأعطى التاج لنفسه بطريق برلمان مباشر . ثم تخلص من ابني أخيه بقتلهما . ومع ذلك كان حكم الملك القاتل قصير الأمد جداً (١٤٨٣ ـ ١٤٨٥ م) . فقد قام ضد مطالب جديد ، هنري تيودور . وهو ينتسب من جهة أمه إلى بيت آل لانكاستر ، وحليف بزواجه إلى بيت آل يورك . وبذا حصل على دعم الحزبين الكبيرين اللذين قسما إنكلترا خلال ثلاثين عاماً . وأمكنهما أن يتصالحا في شخصه . حصل في بوزورث (٢٢ آب ١٤٨٥ م) على نصر حاسم على ريتشارد الثالث الذي قتل في المعركة . ورفع هنري السابع (١٤٨٥ ـ ١٥٠٩ م) إلى السلطة برغبة الأمة بكاملها بالسلام ، ووطد بشكل حازم جداً سلطته ، وأسس سلالة صنعت في المستقبل عظمة إنكلترا في القرن السادس عشر . وتعززت السلطة الملكية وأصبح بإمكانها إنهاء تجميع الجزر البريطانية ، وضم إيكوسيا التي مازالت مستقلة بعد وإيرلاندة الخاضعة بشكل سيء دوماً في آخر العصر الوسيط ، في مملكة متحدة ، بريطانيا العظمى .

فرنسا

لقد تجمعت الأمة الفرنسية وراء الملك شارل السابع بحماسة وطنية جديدة تماماً . واستطاع هذا الملك أن يحرر البلاد من الاحتلال الإنكليزي . ومع ذلك فإن مملكة فرنسا التي دمرتها الحرب ، لم تجد بعد توازنها في منتصف القرن الخامس عشر . والوحدة الفرنسية لم تتحقق بحق ، لأن السلطة الملكية لاتحكم في كل مكان دون تقسيم . وهكذا فإن دوق بورغونيا ، الذي تصالح مع ملك فرنسا ، وبدا أن هذه المصالحة ضعيفة ، كان سيداً على مجموعة أراض تشكل دولة في دولة وتمنحه سلطة أعلى من سلطة عاهل المملكة . ومن جهة أخرى ، مامن

معاهـدة أنهت الحرب مع إنكلترا : إن هنري السـادس ظل يسمي نفسـه في أعمـالـه الرسمية (ملك فرنسا وإنكلترا) وترك التهديـد يثقل بعودة الحرب من جـديـد . إلا أن ملوك فرنسا في النصف الثـاني من القرن الخـامس عشر ، شـارل السـابع في آخر حكمــه (مــات في ١٤٦١ م) ، لـولـويس الحـــادي عشر بخـــاصـــة (١٤٦١ ـ ١٤٨٣ م) ، وأخيراً ، باسم الشاب شارل الثامن ، الوصيـان : آنّ وپيير دو بوجو (١٤٨٣ ـ ١٤٩٢ م) ، كانوا يعملون على عودة السلطـة الملكيـة وإنجـاز الوحدة الفرنسية بوضع حد نهائي لحرب المئة عام .

فرنسا في آخر حكم شارل السابع

كانت فرنسا ١٤٥٠ م فرنسا الإقطـاعيـة أيضـاً . والـدومين الملكي ، أي مجموع الأراضي التي تمارس عليها سلطة العاهل مباشرة ، دون وساطة كبار الإقطاعيين ، ضيق المسـاحـة نسبيـاً . وهو على كل حـال أقل امتـداداً ممـا كان في بـدايـة القرن الرابع عشر . وبـاقي البـلاد مـؤلف من إقطـاعـات كبيرة مجمـوعـة في أيـدي بعض العائلات القوية . كان بيت **بورغونيا** يملك أموالاً عظيمة على جانبي الحـدود التي تفصـل في الشمال الشرقي الإمبراطـوريـة والمملكـة . وهـذه الأمـوال تشكل فئتين متميزتين يفصل بينهما اللورين والشـامبـانيـا ؛ في داخـل القـارة كـونتيـة ودوقيـة بورغونيـا يضـاف لهما الشـاروليـه والمـاكـونّيـه ؛ وعلى شـواطئ بحر الشمال مجمـوع (البلاد المنخفضة) التي تمددها الآرتوا والبيكارديـا واللوكسمبورغ . وإقطـاعـات **بيت آنجـو** : آنجــو ، مين ، بروڤـانس ، بــارّوا ولــورين ، مبعثرة كثيراً . أمـا الإقطاعات المتجمعة جيداً ، بـالعكس ، تمتـد في داخل فرنسـا . وهي أموال بيت **بوربون** : بوربونّيــه ، المـارش ، فوريـز ، بـوجـوليـه . وغرب فرنسـا مقسم بين دوقية **بروتانيا** ، دوقية **أورلئان** ، ودوقية **الانسون** . والجنوب الغربي ، منـذ ضم كونتية كومبين إلى التاج (١٤٠٤ م) ، في أيدي ثلاث عـائلات : بيت ألبريت ،

بيت أرمانياك ، بيت فوا . وأخيراً في الجنوب الشرقي ، الدوفينه تؤلف تقليدياً وقفاً لوارث العرش .

إن واضعي اليد على هذه الأموال الواسعة يشكلون إقطاعية جديدة : فهم في الواقع ، ليسوا أنسال العائلات الإقطاعية القديمة ، لأن هذه العائلات قضت عليها الملكية في القرن الثالث عشر . إنهم أمراء دم تكرم عليهم الملوك ، وبخاصة في القرن الرابع عشر ، بمنحهم أوقافاً : وهكذا تخلى شارل الخامس عن آنجو وبورغونيا إلى أخويه ، وعن إقليم أورلئان إلى ابنه الثاني . وهؤلاء الإقطاعيون الجدد أكثر خطراً بكثير على السلطة الملكية من القدامى . لقد كان هؤلاء يشعرون بأنهم مرتبطون بالولاء وبالواجبات التي يقتضيها تجاه سيدهم الملك . وفي منتصف القرن الخامس عشر انقطع الوفاء التابعي للأمير السيد كما انقطعت عاطفة الشعور بها . وكان شارل السابع يعي في هذه النقطة عدم نفاذ النظم التابعية القديمة لدرجة أنه لم يعد يطلب من دوق بروتانيا ولاء وثيقاً ، وقرر بسهولة أن يعفي نفسه من ولاء دوق بورغونيا فيليب الطيب (١٤٣٥ م) . وهؤلاء الأمراء وأمثالهم يعتبرون أنفسهم مستقلين ، أو على الأقل ، معفين من كل التزام تجاه الملكية ، ويتصرفون بسلطة عظيمة : فإلى الامتيازات الأميرية القديمة ، مثل حق سكّ النقود ، والقضاء العدلي ، أضيف امتياز أهم بكثير في هذا القرن الذي بدأت فيه الثروة المنقولة تحسب مساوية ، إن لم تكن أكثر ، للثروة المتأتية عن الأرض . ويقصد بذلك جباية كل أو جزء من الضرائب الملكية التي تخلى الملوك لهم عنها . وعندما يجد الأمراء أصحاب الوقف في دوميناتهم مناطق غنية تاجرة ، يتمتعون بموارد هامة ، ويمكنهم أن يقدموا مرتبات للطبقة النبيلة الصغرى والمتوسطة التي حكم عليها التطور الاقتصادي بحياة العوز ، ووظائف إدارية أو عسكرية ، وتشكل لهم هذه الطبقة زبائن سياسية قوية ، تتملكهم عاطفة الغلو والاستعلاء . أما الشعب فيرى فيهم مدافعين عن الامتيازات

الإقليمية وحماة ضد الضريبة الملكية الثقيلة . وفي الحقيقة كان هؤلاء الأمراء الوقفيون أغنياء ومقتدرين ، تدفعهم نعرة إقليمية قوية جداً في الأقاليم الفرنسية . ولذلك كانت تغريهم بتحويل دوميناتهم إلى دول حقيقية ومهرها بنظم موحدة ومركزية ومنسوخة عن نظم الملكية الفرنسية ، ويأخذون عندئذ وجه ملوك حقيقيين ولا يترددون في تسمية أنفسهم (أدواق بفضل الله) . وتقدم بورغونيا فيليب الطيب المثل الدامغ لهذا التطور . فمن ذلك أن مجلساً كبيراً نظم في ١٤٦٦ م ، وأعطى آراءه إلى الدوق من أجل القرارات الهامة ، ودرس جميع العرائض التي قدمت له . وهو الجهاز الأساسي في الإدارة المركزية التي امتد نفوذها على مختلف عناصر المجموعة البورغونية . وتخلص فيليب الطيب من الولاء الشخصي إزاء شارل السابع ، واستطاع أن يشعر نفسه بأنه عاهل ، وقد قال شاستولان : « ظاهره وحده يعتبره إمبراطوراً » . ويتعامل مع جميع الملوك معاملة الند للند . وبمناسبة زواجه من إيزابل البرتغال أحدث نظام الجزة الذهبية منافساً للأنظمة الملكية . وبلاطه الذي تفتح فيه أدب وفن بورغوني ـ فلاماندي تجاوز بسناه بلاط ملك فرنسا . وأخيراً غداة فتح القسطنطينية من قبل الأتراك ، أقسم على مائدة التدرج (١٤٥٤ م) أن يشن الحرب الصليبية وبدا كأوائل أمراء المسيحية .

وهكذا تشكلت الإمارات الكبرى دولاً في دول . وكانت الحالة على هذا النحو أخطر على الملكية ، لأن الأمراء الذين ينجون من مراقبتها يملكون أراضي خارج حدود المملكة ، أو أن لهم ألقاباً على ممتلكاتهم . وهكذا فإن أدواق بورغونيا ، بالبلاد المنخفضة ، وبيت آنجو باللورين يعتبرون أنفسهم ملاك أراض في الإمبراطورية : إن شارل دورلئان ابن ڤالانتين فيسكونتي طالب بدوقية ميلانو ؛ ورونيه دآنجو رغب في استعادة مملكة نابولي ، التي طرده الآراغونيون منها (١٤٤٢ م) .. وعليه فإن الأمراء ، أصحاب الوقف ، لهم سياسة خارجية

شخصية خاصة بهم تمر عبر الأهداف الدبلوماسية لملك فرنسا . فتارة يزعمون بأن العاهل يضع قواته في خدمة طموحاتهم الخاصة ، وعندئذ يخاطرون بجر فرنسا في مغامرات ليس فيها ما تربحه ، ويثيرون ضدها ، على كل حال ، عداء بعض العواهل الأجانب . وهكذا فإن ملك فرنسا بدعمه مزاعم الآنجوفيين في نابولي ، تسبب في حقد ملك آراغونة عليه . وأحياناً لا يترددون في دعم سلطة أجنبية ضد فرنسا ، أو التحالف مع أعدائها إذا كان هذا يمكن أن يزيد في قدرتهم . فمن ذلك أن الارتباط الإنكليزي ـ البورغوني شكت منه المملكة الفرنسية كثيراً ، على ما يبدو ؛ لأن المتألبين عليها حلفاء الدول الأجنبية كانوا من كبار إقطاعيين القرن الخامس عشر ، وأقوى من الملك . ومن حسن حظه أن المنازعات ، التي كانت تقوم بينهم ، ويقاوم فيها بعضهم بعضاً ، لا تمكنهم دوماً من تشكيل جبهة موحدة تدوم لفترة طويلة ضده ؛ وأن الأعداء في الخارج ، وبخاصة إنكلترا ، كانوا غارقين في أزمات داخلية خطيرة لا تساعدهم على التدخل إلا دورياً على الساحة الدولية . ومقابل هذه التهديدات المتقطعة والمتفرقة ، عززت الانتصارات والإصلاحات قوة شارل السابع وأحاطت بالملكية هالة الوجاهة وجعلت منها مؤسسة ثابتة تقف وتقاوم التجزئة والفوضى . ولذلك مثلت ، بالنسبة للجزء الأعظم من السكان ، الوحدة والاستقلال القومي والسلام . وفي نظر الطبقة الصاعدة ، أي البورجوازية حجمت السلطة الملكية شغب الإقطاعيين والثورات الشعبية ، وكفلت النظام الذي لولاه لما استطاعت أن تفيد من النهضة الاقتصادية . وهي التي منحت هذا التنبل الذي تطلعت إليه كما تطلعت إلى تتويج نجاحها المادي . وفي الكفاح الذي شنته لنصرة سلطتها استطاعت الملكية أن تعتمد على القوى العميقة للأمة .

وكان على شارل السابع ، في آخر حكمه ، أن يناضل ضد المعارضة الإقطاعية . ففي ١٤٤٠ م اصطدم بتألب دبره دوق بوربون ودعمه ولي العهد

لويس . غير أن تدخلاً قوياً في الأوفيرن ساعده على خنق الحركة . وبعد بضع سنوات (في ١٤٤٥ م) تآمر دوق آلانسون مع دوق يورك وتهيأ لاستقبال إنزال إنكليزي في شبه جزيرة كوتنتن . فأوقف في أيار ١٤٥٦ م ، وزجّ في سجن لوش وصودرت دوقيته . وفي الوقت نفسه لوحق خصم آخر للعاهل ، وهو كونت أرمانياك ، أمام برلمان باريس تحت اتهام مزدوج : فقد كان يطمع بكونتية كومنج ، وتآمر هو أيضاً مع إنكلترا ؛ وجرم بسفاح ذوي القرابة ، ورفض رغم الحرمان الحبري أن يصلح نفسه . وساعده الهرب وحده على الفرار من الحكم الصادر بحقه .

وبالرغم من النجاحات التي أحرزها شارل السابع العجوز فقد تساءل بقلق عما سيحصل لعمله بعد وفاته : وعلى ما يبدو أن وارث العرش ، ولي العهد لويس غير قادر على إتمامه . وهذا المراهق الذي لاتنقصه الشجاعة لأنه مارس شؤون السلاح منذ سن أربعة عشر عاماً أثناء حملة ديب وأظهر تهافتاً على الحكم مفسداً يزيل كل اعتبار آخر أو عاطفة . وكان غير محبب لأبيه ، وشارك تقريباً في كل المؤامرات التي حيكت ضده . وملّ أبوه شارل السابع من دسائسه المستمرة ومن الوقاحة التي يعامل بها علناً المحظية الملكية ، آنيس سوريل فأرسله إلى الدوفينه في ١٤٤٧ م . وهنا أخمد ولي العهد أنفاس الطبقة النبيلة ونظم المؤسسات من جديد ، وتبنى عدة تدابير للتنمية الاقتصادية في وقفه وتعلم أساليب الحكم . ووضع أيضاً كل اهتمامه في تطبيق سياسة خارجية معاكسة لسياسة أبيه . وعلى هذا النحو ، وبالرغم من أوامر شارل السابع ، تزوج ابنة دوق سافوا . وفي كل مكان ، في إيطاليا ، في إسبانيا ، في إنكلترا اصطدمت سياسة الأب بسياسة الابن . ولما علم أن شارل السابع ساخط عليه ومتجه بأسلحته نحو الدوفينه ، فرّ وطلب اللجوء عند دوق بورغونيا الذي أقامه في جيناب في إقليم البرابان . ومن هنا استمر أكثر من ذي قبل في التآمر مع بلاط إدوارد الرابع ، محرضاً العاهل

الإنكليزي على استئناف الحرب ضد فرنسا . وبدا أن المملكة على شفا أزمة جديدة وفظيعة فخاف شارل السابع من أن يسممه ابنه ، ومات في تموز ١٤٦١ م .

فرنسا في عهد لويس الحادي عشر

أ ـ الملك

بدأ الحكم الجديد تحت رعاية ملائمة قليلاً . دخل لويس الحادي عشر باريس برفقة فيليب الطيب . وإلى جانب دوق بورغونيا الذي يعامله بأعظم آيات الاحترام ، بدأ الملك وجهاً صغيراً جداً . ولاحظ الشعب الباريزي ذلك .

وفي الحقيقة أن هذا السلوك الذي يتمثل فيه الخضوع مكنه من الحصول ، مقابل دفع المبلغ الموعود في آراس ، من استرجاع مدن السوم (١٤٩٢ م) . ولكن التدابير الأولى التي اتخذها العاهل الجديد لم تتكلم لصالحه : فقد عجل بطرد مستشاري أبيه ، وأمر بتحرير دوق الأنسون واستدعاء جان الخامس دأرمانياك وعفا عنه . ومع ذلك فإن الأمير الثائر ، الذي اشترك بالثورة التي نشبت في فرنسا في ١٤٤٠ م ضد إصلاحات شارل السابع وأخمدها هذا الملك ، تكشف على العرش بأنه أشد المدافعين حماسة عن السلطة الملكية . وهذا المعارض ، الذي كان يدعو برغبته التدخل الأجنبي ، أظهر وهو على السلطة حساً قومياً واقعياً . لقد كان وجهاً حائراً تائهاً ومعقداً ، أصلعاً وقبيحاً ، وبنيته ضعيفة ، خالياً من الهيبة ومن الكياسة أيضاً ولا يتظاهر بما ليس فيه .

وهذه المظاهر الخارجية التي قلما تعجب ، لم تمنع لويس الحادي عشر من أن يمارس على من يقترب منه ، من بورجوازيين أو أجانب ، بسحر بيانه وألفة سلوكه ، سلطة جاذبية حقيقية . ورسم مستشاره المقرب إليه فيليب دو كومين في (مذكراته) بكثير من الدقة الأساليب التي يستعملها الملك لكسب الثقة والصداقة .

وكان طبع العاهل متناقضاً أيضاً . فمن تقوى ضيقة ومنحرفة تجمع الصور التقية والطلاسم ، كان لويس الحادي عشر أيضاً أميراً من أمراء النهضة واقعياً كما يريد ماكياڤيللي ومجرداً من كل وسوسة ضمير .

ولا يمكن القول أفضل من قول كومين ، بأن الانتهازية الوقحة من عاهل لا يثق إلا بنفسه ويستخدم للعمل رجالاً وضيعي الأصل ، وغالباً خالعة العذار مثل أوليفيه لو دَمْ أو تريستان لرميت ، لأن هؤلاء كانوا مدينين له بكل شيء ، وعلى هذا النحو يمسك بهم . وهناك تناقض آخر : فمن عدة جهات كان لويس الحادي عشر رجل الاندفاعات الفجة ؛ فلتلطيف غضب أقبح خصم له ، دوق بورغونيا ، شخص إليه ووضع نفسه تحت رحمته . ولا شيء يمكن أن يمنعه من الأخذ بثأره من أعدائه بأفظع شكل . إن تاريخ الكردينال بالو الذي حبس في باليسّي ـ ليه ـ تور في قفص من حديد ، حسب الأسطورة ، ليكفر عن خيانته ، حاضرة في كل الذاكرات . ولكن لويس الحادي عشر يعرف أيضاً كيف يكون صبوراً إلى الحد الأقصى للوصول إلى أهدافه وغاياته : (عنكبوت عام) ينسج شباكه في الظل ليأتي أعداؤه ويرموا أنفسهم بها ، يفضل دوماً الدبلوماسية على الحرب . فهل كان على درجة عالية من المهارة ؟ قد يكون في مثل هذا القول مبالغة ، لأن النشاط الفوضوي ، والظلام الطائش ، والقرارات العاجلة تضعه مراراً في وضع محزن ، وقد اعترف بذلك المؤرخ كومّين .

وفي الواقع ، إن قوة لويس الحادي عشر لا تأتي عن أنه يمتنع عن كل خطأ سياسي ، وإنما مما يعرف كيف يستدرك بمهارة الأخطاء التي ارتكبها .

وشيئاً فشيئاً تعلم بألا يصادم خصومه مجابهة وألا يباشر كثيراً دفعة واحدة . وبالإجمال لقد كان ملكاً عظيماً وينبغي ألا يحكم عليه بأخطاء شبابه . ولا بالعزلة القائمة في آخر أشهر حكمه ، وإنما بسعة العمل الذي أنجزه في الظروف الحرجة .

ب ـ ثورات الأمراء

لقد ثمل لويس الحادي عشر بوصوله إلى العرش بعد طول انتظار وصبر ، وبدأ باتخاذ تدابير غاشمة ، عزل الضباط بكثرة وإزعاجات ضريبية ضد رجال الكنيسة ، حذف امتيازات ورواتب النبلاء ، مما أثار ضده مقاومات عنيفة : مقاومة الأمراء التي عرف أنها كانت على حسابه ، وكانت أكثر هولاً من غيرها . فقد غضب فرانسوا الثاني أمير بروتانيا عندما طلب منه العاهل الجديد ولاء مباشراً . واستاء منه بيت آل آنجو لأنه لم يدعم سياسته الإيطالية ، ولأنه بمعاهدة بايّونّ تحالف مع الملك جان الثاني آل آراغونة ، وأرسل إليه جيشاً لإخضاع كاتالوانيا الثائرة وحصل كرهن على روسيون وسرداني . وغضب فيليب الطيب من روح الاستقلال التي أبداها محميه السابق . وتصالح مع ابنه شارل ، كونت شاروليه الذي سيدير منذ الآن دوقية بورغونيا ، وترأس منذ الآن تألباً ضد ملك فرنسا ، حتى أن من سيكون أكبر عدو للويس الحادي عشر لا يشبهه أبداً . كان أسود الشعر له عقائص ، ولون زيتوني ورثه عن أمه البرتغالية ، بقامتها الطويلة والقوية التي تخلع عليها هيئة اعتزاز ونبل .. وكان وفياً ومخلصاً ودقيقاً في حياته الخاصة ، ومثقفاً وموسيقياً جيداً جداً . وكان زعيم حرب ممتازاً وإدارياً ممتازاً معاً . وقد خولته شجاعته وجرأته الجنونية لقب المتهور . ولا يعادلها إلا طموحه المفترس . وكان أمام لويس الحادي عشر (متواضعاً في لباسه وكلامه) وبتذوقه للأبهة وكبريائه غير المحدود كان ممثلاً للطبقة النبيلة الكبرى .

جمع شارل أمير شاروليه الأمراء المستائين وراءه . ووجد بينهم الضئيل شارل فرنسا ، دوق بيرّي ، أخو الملك ووارثه . وفي آذار ١٤٦٥ م أطلق من بروتانيا بياناً طالب فيه باسم (الخير العام) بإصلاح الدولة . وكان يقصد مشايعة الرأي العام لقضية الإقطاعيين . واشتبكت العمليات الحربية : توجه لويس الحادي عشر نحو وسط فرنسا لمعاقبة دوق بوربون الذي شارك في الحركة .

ولكنه اضطر للعودة إلى باريس بعد أن أخبر بأن الجيوش البورغونية والبروتانية اتجهت نحو العاصمة . وحصل الصدام بالقرب من مونليري ؛ غير أن هذا القتال الذي اشتبك فيه الجيشان في ١٦ تموز ١٤٦٥ م وكان غير حاسم ، لم يستطع فيه لويس منع انضمام أعدائه إلى بعضهم ، غير أنه جنب التهديد عن باريس . ولم يبق للملك إلا أن يجرد المتألبين من سلاحهم ويحل العصبة بمنح امتيازات لكل منهم . وكان ذلك موضوع معاهدتي كونفلان وسان ـ مور . وبموجبها استعاد شارل شاروليه مدن السّوم ؛ ودوق بوربون نيابته في اللانغدوك ؛ وأخذ أخو الملك وقفاً غنياً في نورماندیا .

وفي السنوات التالية ، حاول لويس الحادي عشر الرجوع عن تنازلاته الخطرة ، وأفاد من ثورة تعهدها بعنايته في غاند ولييج وشلت شارل شاروليه ، واسترجع نورماندیا من أخيه . وقد بررت اتفاقات هذا الأخ مع إنكلترا ، والأهمية الستراتيجية للإقليم هذا القرار . ولكن الملك كان مهتماً أيضاً بأن يؤمن لنفسه الرأي العام ، وطلب الموافقة من المجلس المجتمع في تور (١٤٦٨ م) ؛ وحلّ المجلس لويس من تعهداته ، وأعلن بأن نورماندیا غير قابلة للتصرف أيضاً .

ومع ذلك فإن هجمة ثانية تهيأت ضد الملكية : فقد ألجأ دوق بروتانيا شارل دو فرانس وثار . أما شارل المتهور الذي خلف فيليب الطيب (١٥ حزيران ١٤٦٧ م) فقد تزوج مارغريت يورك ، أخت إدوارد الرابع (١٤٦٨ م) . ولمنع إبرام تألب جديد كان جان الثاني دآراغون ، المستاء من حليفه بالأمس ، مستعداً للمشاركة به ، حاول لويس الحادي عشر أن يجرد شارل المتهور من سلاحه أثناء مقابلة خاصة . وارتكب « أكبر جنون » (كومين) بشخوصه إلى الدوق في بيرون (تشرين الأول ١٤٦٨ م) . وفاجأه خبر بشكل مزعج أن لييج ثارت على صراخ (ليحيى الملك) فأثار غضب البورغوني الذي يعامل لويس كأسير . وربما كانت حياة الملك مهددة . غير أن كومين مستشار دوق بورغونيا آنذاك ، دبر تسوية :

وبموجبها على لويس أن يعد في معاهدة بيرون (١٤ تشرين الأول) أن يعطي إلى شارل فرنسا الشامبانيا والبري تعويضاً له عن خسارة نورمانديا ؛ وكان عليه أن يتحمل الإذلال الأقصى في مرافقة الدوق وحضور القمع الذي حلّ باللييجيين حلفائه السريين .

وجنب ماهو أقبح . فمقابل تضحيات ضخمة ، حال لويس الحادي عشر نهائياً دون تشكل تألب خطير . فإلى أعضائه ، المنفصلين الآن ، حاول الملك الوفي لتكتيكه أن يسترجع بالتفصيل كل ماقبل بالتخلي عنه جملة في وقت الخطر . ونجح في أنه أقنع شارل فرنسا ، بعد أن خدع مستشاريه بأن يقبل عوضاً عن الشامبانيا المجاورة بصورة خطرة لدوقية بورغونيا ، بالغوين البعيدة . وشجعته الظروف على ذلك . إن ميلاد ولي العهد ، الذي سمي هو أيضاً شارل (٣٠ حزيران ١٤٧٠ م) انتزع من الأخ المشاغب للملك كل أمل بأن يكون خلفه ، وإن رجوع آل لانكاستر وضع على عرش إنكلترا عاهلاً ملائماً لملك فرنسا . ووجد دوق بورغونيا نفسه معزولاً . وأكدت عدة مؤشرات على أن الميزان لا يرجح لصالحه : فقد أتى مجلس تور (١٤٧٠ م) إلى السياسة الملكية بدعم الأمة ، وأحلت لويس الحادي عشر من تعهداته في بيرون ، بينما اتهم الكردينال بالو بأنه كان مشجعاً جداً لقضية المتهور وزج في السجن . وكان أحذق مستشاري دوق بورغونيا ، كومين ، قد انتقل لخدمة ملك فرنسا . وتوج موت الدوق شارل المفاجئ في الغوين ، في أيار ١٤٧٢ م ، بشكل مناسب قوي عمل لويس . وبصورة قاسية ، اتهم خصوم الملك ، وشارل المتهور على رأسهم ، الملك ـ خطأ ـ بأنه سجن أخاه . وهذه هي الحجة التي ساعدت معارضة الأمراء على التجمع للمرة الثالثة ضد الملك لويس . وفي الحقيقة لقد رجع إدوارد الرابع ملكاً على إنكلترا وأصغى لإيحاءات ابن حميه البورغوني ، الذي حرضه على معاودة النضال القديم العهد ضد المملكة الفرنسية . وأخيراً عندما أصبح ملك آراغونة سيد بارشلونة

دخل هو أيضاً في التألب الجديد . ومن حسن حظ ملك فرنسا أن خصومه لم يعرفوا كيف ينسقون دفاعهم . واشتبك شارل بورغونيا في الكفاح دون أن ينتظر استعداد شركائه . والطرق الفظة التي استخدمها صلبت ، في كل مكان ، مقاومة ومنها مدينة بوفيه التي تحمست بشجاعة جانّ لينيه ، جان هاشيت الأسطورة ، أعطت المثال . أما الأمراء الآخرون فقد تبعوا بفتور عمل المتهور الذي وقع هدنة مع الملك . وهذه الهدنة ساعدت الملك على القضاء على أحد خصومه المستحرين ، الكونت جان دارمانياك . وفي ١٤٧٣ م ، استولى جيش ملكي على لكتور حيث قتل الكونت . وصودرت أملاكه ، ودخلت قوات ملكية أخرى الروسيون والسرداني التي كان جان الثاني داراغون قد استرجعها بفضل مصاعب لويس الحادي عشر . وفي ١٤٧٥ م ، كان إدوارد الرابع مستعداً للتدخل فنزل في كاليه بعشرين ألف رجل ، ولكن بعد فوات الأوان . لأن شارل بورغونيا كان آنئذ مشتبكاً في الشرق في عمليات صعبة ، وحصار نوسّ أمسك بالأساسي من قواته . وكان ملك آراغونة منشغلاً بخاصة بإرث قشتالة الذي فتح أمامه . ويئس إدوارد الرابع من مقاومة المدن مثل سان ـ كنتن ، ومن الدعم الضعيف الذي قام به الأمراء الفرنسيون ، فقبل المفاوضة مع لويس الحادي عشر . وصنعت معاهدة بيكيني منه حليفاً لملك فرنسا . واضطر دوق بورغونيا أن يفاوض من جديد بشأن هدنات سولور (أيلول ١٤٧٤ م) . وتكلف القائد الأعلى للجيش دو سان ـ بول الذي راوغ بين الحزبين ، نفقات هذا الاتفاق . فقد سلمه دوق بورغونيا وحكم عليه برلمان باريس بالخيانة وقطع رأسه (كانون الأول ١٤٧٥ م) . وتوطد السلام ، ولكنه كان سلاماً مؤقتاً .

النزاع الفرنسي ـ البورغوني

إن وجود الدولة البورغونية ، وأكثر من ذلك طموحات الدوق لا تتفق وأمن المملكة . فمن مختلف الأقاليم التي جمعها الأسلاف حاول شارل المتهور أن يصنع

دولة متجانسة وقوية . وهذا المشروع يهدد فرنسا مباشرة . وفي السنوات السابقة عمل شارل على جمع القطع المتناثرة لدومينه : فمنذ ١٤٦٩ م حصل كرهن لقرض من ٥٠٠٠٠ فلورن لدوق النمسا سيجيسموند على حقوق هذا الأخير الوراثية في الألزاس . وفي ١٤٧٣ م ، بسط نفوذه على اللورين التي سمح دوقها الشاب رونيه الثاني بعبور الجنود البورغونية عبر إمارته . وفي السنة نفسها ، عزز مواقعه الرينانية باحتلال الغلدر بفضل نزاع في عائلة الدوق ومحاولة التدخل في انتخاب رئاسة أسقفية كولونيا . ومن هذه الإمارة التي تشرف على كل شاطئ المانش وبحر الشمال ويؤلف ظهيرها أحد المراكز الصناعية الأكثر نشاطاً في أوربة ، أراد من يسميه المعاصرون (دوق الغرب الأكبر) أن يصنع مملكة تكون بعثاً لمملكة لوتارنجيا القديمة . وفي الواقع لم يشعر شارل مطلقاً بأنه أمير فرنسي : « لقد أصبح من طبيعة أخرى غير فرنسية » كما قال عنه شاستيلاّن . وفي أيلول ١٤٧٣ م ، التقى في تريف بالإمبراطور فريديريك الثالث وأمل أن يحصل منه على لقب ملك بل وحتى وراثة الإمبراطورية . وفي آخر لحظة ، قلق فريديريك من معارضة الأمراء ومدن الإمبراطورية فقطع المحادثات . ومع ذلك لم يثبط عزم شارل من هذا الإخفاق ولا من الإخفاقات التي مني بها في محاولاته ضد ملك فرنسا . ولكن زمن ضعف الملكية الفرنسية قد مضى . ومنذ الآن يستطيع لويس الحادي عشر استغلال كل الثغرات في سياسة خصمه . وكانت القضية المالية من أخطر المسائل التي وضعت للجريء (المتهور) . ولتحسين جيشه استعاض عن الخدمة المفروضة على التابعين والمدن برسوم مالية تساعده على تجنيد جيش دائم وبناء مدفعية مهورة بعتاد ممتاز . ولكن كان يضطر دون انقطاع أن يطلب من مجالس أقاليمه المال الذي لا تمنحه هذه الدول دون طلب امتيازات بالمقابل ، والدومين المسمى ، لعدم وجود ما هو أفضل ، البورغوني ، يجمع مناطق وشعوباً مختلفة ، وبعضها ، وثورة لييج تؤكد ذلك ، يتحمل بشكل سيء مطالب وسلطة

الدوق . ومن جهة أخرى ، إن سياسة الجريء التوسعية أقلقت جميع جيرانه ، أمراء الإمبراطورية مثل الكونفدراليين السويسريين . وتقتضي حذاقة لويس الحادي عشر العمل على تدمير الدولة البورغونية دون مهاجمتها مباشرة . شجع أعداء شارل ، وقدم إليهم سراً مساندته العسكرية والمالية . وخدم ملك فرنسا بالطموح والثقة الشديدين اللذين جرا دوق بورغونيا في مغامرات خطرة أكثر فأكثر . وفي ١٤٧٥ م ، انطلق شارل طائشاً في النزاع الذي كان رهانه أبرشية كولونيا . فقد ألقى الحصار أمام نوسّ على الراين . وبينما كان منشغلاً على هذا النحو ، شجع لويس الحادي عشر توقيع تحالف بين السويسريين ، والدوق سيجيسموند النمسا واتحاد الألزاس ـ الدنيا : وألف عصبة كونستانس . وفوجئ شارل بذلك فلم يستطع في الوقت الملائم نجدة عامله الأكبر في الألزاس الذي قتل . ثم إن رونيه اللورين تشجع بلويس الحادي عشر ودخل بدوره في عصبة كونستانس . وفي الحقيقة لم يستطع منع شارل الجريء من فتح دوقيته . ولكن الأمير البورغوني الذي كان جيشه مجرباً بحملاته المتعاقبة ، تدخل ضد السويسريين الذين أبدوا عداءهم لحليفته ، دوقة الساڤوا . وبدأت نكبات دوق الغرب الأكبر . وفي آذار ١٤٧٦ م ، مني جيشه بهزيمة بالقرب من غراندسون أمام المدفعية السويسرية الهائلة . وفي مورة (٢٢ حزيران) دمر نصف الجيش . وحرضت هذه الهزائم أعداء المتهور على رفع رؤوسهم . فمن ذلك أن ثورة قامت وطردت من اللورين الحاميات البورغونية . وفي تشرين الأول ١٤٧٦ م حاول شارل بجيش مرتجل أن يسترد نانسي . ولكن المحاصرين أحاطت بهم الجنود التي جمعها رونيه اللورين بفضل الأموال الفرنسية ، وفي القتال فقد المتهور حياته (في ٥ كانون الثاني ١٤٧٧ م) . ووجد نصف جسده الذي التهمته الذئاب بعد بضعة أيام في الطين المتجمد . ونشر لويس الحادي عشر الخبر السعيد في كل مكان . ولكنه في فرحه ارتكب حماقات . فمن ذلك أنه عرض رسمياً على ابنة المتهور ،

الأميرة الشابة ، مارية ، المنعزلة في غاند ، حمايته الملكية . وظن نفسه حاذقاً بإطلاق جنوده على السوم ، والآرتوا ، والبيكارديا ، بل وحتى بورغونيا ، وقاومت المدن البورغونية ، ولا سيا مارية الفزعة التي قررت أن تتزوج ماكسمليان النمسا ، ابن الإمبراطور فريديريك الثالث (آب ١٤٧٧ م) ونشبت حرب عندئذٍ بين ملك فرنسا وماكسمليان . وبعد هزيمة مربكة في غينيغات (في البادوكاليه) ، قرر لويس الحادي عشر توقيع السلام في أراس (١٤٨٢ م) . واحتفظت فرنسا بالبيكارديا ودوقية بورغونيا . وانتقل كل باقي دول المتهور إلى النمسا . ومع ذلك نصت المعاهدة على أن تشكل الآرتوا والفرانش ـ كونته مهراً لمارغريت النمسا ، بنت مارية وماكسمليان ، المخطوبة لولي العهد . ولم يجن لويس الحادي عشر من الإرث البورغوني أخيراً إلا شيئاً قليلاً ولاسيا أن طيشه بخاصة عزز قوة بيت آل هابسبورغ . وعندما يتزوج فيليب الجميل ابن ماكسمليان ومارية وريثة الملكين الكاثوليكيين فردينانـد آراغونة وإيزابل قشتالة ، فإن هذه القوة ستطوق تماماً مملكة فرنسا .

ومع ذلك فإن انهيار القوة البورغونية كان حاسماً من أجل تشكيل الوحدة الفرنسية . لأن الانضمام إلى الدومين الملكي تكاثر : فإقطاعات بيت آرمانياك وآلانسون قبض عليها أثناء النزاع . وفي ١٤٨٠ م ورث لويس من رونيه دانجو إقطاعه الآنجفي والبروڤانس اللذين أمنا للمملكة السيطرة على ساحل البحر المتوسط . وبصورة موازية ، تثبتت سلطة ملك فرنسا . وفي هذه المناطق التي ضمت إلى التاج أبقى الملك على الهيئات المحلية : برلمانات ، دواوين المحاسبات ، محكمة المساعدات ، ونشط مركزية الإدارة . وتأمنت هذه المؤسسة بأجهزة حكومية مختصة أكثر فأكثر . ونزع المستشار إلى أن يلعب دور رئيس العدلية والحكومة ؛ وترك أكثر فأكثر شؤون المستشارية الأصلية إلى (موظفي السر) وهؤلاء يتقاسمون مختلف الأعمال حسب كفاءتهم . وثبت بخاصة مذهب

السلطة الملكية . وفي الحقيقة لا يقصد بذلك الملكية المطلقة . وقد أشار كومين في « مذكراته » أن العرف ينظم سلطة الملوك على رعاياهم .

ولكن للرعايا الحق في التعبير عن آرائها بواسطة مجلس المملكة العام ، ولكن القرار الملكي هو الذي يتغلب في آخر الأمر . وعندما ضعف لويس الحادي عشر بحكم السن اعتزل في بليسي - ليه - تور ، ومات في ٣٠ آب ١٤٨٣ م ، وتحققت الوحدة الفرنسية حول العرش .

قصور شارل الثامن

لقد شهد دور القصور الذي تلى وفاة الملك لويس الحادي عشر ، بعد أزمة قصيرة ، أن عمله تم وتصلب . وكان شارل الثامن فتى لا يستطيع تأمين الحكم ، ولذلك عهد لويس شفهياً بالوصاية إلى ابنته آنّ التي تزوجها بيير دو بوجو أخو ووارث دوق بوربون ، وكان الخيار ممتازاً . ولكن ابن عم الملك ، لويس أورلئان ، حاول أن يفيد من الوضع ليستولي على مقاليد قيادة الحكم . وكان وراءه كل ماتبقى من الإقطاعية الفرنسية . وتمت اللعبة في مجلس المملكة العام الذي اجتمع في تور في كانون الثاني ١٤٨٤ م : ولم يحصل لويس أورلئان إلا على رئاسة المجلس ، بينما عين آل بوجو جميع الأعضاء . وخاب ظن ابن عم الملك وتقرب من دوق بروتانيا الذي شعر بأن استقلال دوقيته مهدد : فقد قام دوق أورلئان بمحادثات بغية زواجه بالوارثة آنّ . وفي الحال طلب آل بوجو يدها لشارل الثامن . ولكنهم في عجلتهم بربط بروتانيا بالدومين الملكي ارتكبوا خطأ : فقد تفاوضوا مباشرة مع عدة نبلاء بروتانيين لأجل أن يعترف هؤلاء ، بعد وفاة فرانسوا الثاني ، بملك فرنسا دوقاً . وما أن علم فرانسوا الثاني بذلك إلا وتملكه غضب عنيف . وترأس تألباً إقطاعياً ضم لويس أورلئان ، وجان دوفوا ، وآلن دالبريت ، وماكسمليان النمسا : وكانت (الحرب المجنونة)

(١٤٨٥ م) . وفي ١٤٨٨ م ، عندما أعلن سقوط لويس أورلئـان وفرانسوا الثـاني أطلق الجيش الملكي بقيـادة لويس دولاتريمـوال ، هجـومـاً حـاسماً . وتـوج بنصر سان ـ أوبـان ـ دو ـ كورميـه ، وبـأخـذ فوجير . وأسر لويس أورلئـان ، وقرر دوق بروتانيا توقيع معاهدة ڤرجه : وبموجبها وعد بألا يزوج ابنتـه دون موافقـة الملك وسلم عدة مواقع حصينة رهناً لذلك . ولكن عنـدمـا توفي فرانسوا الثـاني في ١٤٨٨ م ، قفزت ثانية قضية بروتانيا . فقـد طلب ملـك إنكلترا والإمبراطور يـد الدوقة الشابة وقدما لها مسـانـدتها . وأسرع شـارل الثـامن وأطلق حملـة جـديـدة ساعدته على الاستيلاء على نانْت ورين (١٤٩٢ م) . وفي كانون الأول من السنـة نفسها احتفل بزواج شارل الثامن وآنّ . وإذا مات الملك قبل آنّ ، فعلى هـذه أن تتزوج خلفه . وهكذا هيء ارتباط بروتانيا بالدومين الملكي .

وعندما انتهى العصر الوسيط ، ظهرت مملكة فرنسا (كأحدث) دولة قوميـة في أوربة . وعـادت الملكيـة فيهـا من جـديـد مركز الأمـة : وخـارجـاً عن بعض الإمارات الأكيتانية والبيرينية ، وجد وقف كبير ، وقف دوق بوربون الـذي نجـا من السيطرة المبـاشرة للحكـومـة الملكيـة . واعتـاد ممثلـو كل الشعب الفرنسي أن يجتمعوا في مجلس عام ويأتوا للسلطـة الملكيـة بمسـانـدة الرأي . وفي أعمـال الإدارة الملكية بـدأت لغـة الـدومين ، الفرنسيـة ، تصبح منـافسـة للغـة اللاتينيـة ، لغـة رسمية . وبالإجمال ، إن شخص الملك يجسد وحدة الأمة ، والوفاء للعاهل يختلـط بالعاطفة القومية .

وفي الحقيقـة أن أوربـة النصف الثـاني من القرن الخـامس عشر قـد تحـولت بعمق في صورتها السياسية ، وشعرت أيضاً بكاملها بحاجات جـديـدة وبتطلعـات غريبة على التقاليد القديمة . وهـذه الحـاجـات والتطلعـات في خطوطهـا الكبرى يتقاسمها الغرب الأوربي كلـه . ولكن بمـا أنهـا أوربـة الأمم فـإن حيـاتهـا المـاديـة وحضارتها تنزعان لتكونا في نطاق الدول الآخـذة بـالتشكل . وإذا أسهمت القوى

الاقتصادية بقوة في تشييد ممالك مركزية ، فعلى العكس انتظم الاقتصاد بصورة عفوية أو بعمل العواهل ، على صعيد قومي . وهكذا فإن (نقاش المنادين بالحرب في فرنسا وإنكلترا) الذي تألف في ١٤٥٦ م يقارن ثروة المملكتين : وفرة السكان ، خصب التربة ، نمو التجارة ، بأنها تقيم كعوامل قدرة قومية ، وعلى الأمير أن يسهر عليها . وفي الصعيد الروحي يعتبر الأكليركيون والمؤمنون أنفسهم ، منذ الحيدة الكبرى ، أعضاء كنيسة قومية قبل أن يشعروا بأنهم متضامنون مع المسيحية العالمية . والأشكال (الصيغ) الجمالية نفسها لم يعد لها ، كما في عصر الرّوْماني أو الغوطي ، قيمة أوربية ؛ وعلى صورة الآداب عُرِّف الفن بأنه إيطالي أو فلاماندي . لقد أصبح الغرب الآن بحضارته كما في حياته السياسية واحداً ومتعدداً معاً .

الفصل التاسع

العمران الاقتصادي

والحاجات الجديدة

النهضة الاقتصادية العامة في أوربة

كانت تهدئة الخلافات الدولية وتوطيد النظام العام ، تحت حماية الأمراء والملوك ، ظروفاً ملائمة لنهضة عامة في الحياة الاقتصادية في أوربة النصف الثاني من القرن الخامس عشر : فقد عاد المنحنى الديموغرافي إلى الصعود ببطء ، وأعطى لكل الفعاليات دفعة جديدة ؛ وأصبح بإمكان اليد العاملة الموفورة أن تسد حاجات مستهلكين كثراً . وساعد توطيد التيارات التجارية الكبرى على أن تأخذ السلع طريقها نحو مراكز الاستهلاك الهامة . ولكن الاضطرابات السياسية والأزمة أتت بتقلبات دائمة في اقتصاد (ماقبل الحرب) كما في المجتمع .

والخارطة الاقتصادية لآخر القرن الخامس عشر لاتنسخ بأمانة خارطة القرن الثالث عشر : فمن ذلك أن مراكز الإنتاج القديمة قد أفل نجمها . واستيقظت مراكز أخرى جديدة . وغيرت طرق المبادلات أماكنها . وهذه التحويلات العامة على سبيل المثال محسوسة جداً في الصناعة التقليدية للنسيج : فقد احتفظت لمشاغلها الخاصة بصوف أغنامها ، وأصبحت المادة الأولية لصنع الجوخ تجهز أكثر فأكثر من قطعان الميرينوس في إسبانيا . ومنذ الفتح التركي ، غدت مادة حجر الشب تصل من آسيا الصغرى إلى أوربة بصعوبة . واكتشاف مناجم في شمال

روما ، في تولفا ، صنع من الدولة الحبرية مجهزاً أساسياً لهذا الإنتاج الثمين لكل أوربة . وكذلك البيكارديا التي اجتاحتها الحرب استعيض عنها باللانغدوك لإنتاج العظلم الذي يزرع بصورة أساسية حول تولوز ويصدر بواسطة ميناء بايون ، بينما تنمو (الفوّة) حول سبير . وامتدت زراعة الكتان ، المادة الأولية للأقمشة الناعمة الثمينة للأرستقراطية الأميرية ، وزراعة القنب في بيكارديا والبلاد المنخفضة وألمانيا . وهكذا تحولت جغرافيا النسيج تماماً . وبصورة عامة إن الاضطرابات قد سببت ضرراً دائماً للتجارة الكبرى في القارة . وفي الحقيقة ، عندما عاد السلام تكاثرت الأسواق الموسمية ، وقدمت للتجار نقاط لقاء في ملتقى الطرق الكبرى البرية . ولكن الجزء الأعظم من البضائع أخذ يسلك الآن الطريق البحرية التي تصل البندقية وجنوة بلندن أو بروج بمضيق جبل طارق ، وبحر البالطيك وبحر الشمال بممرات السوند ؛ وموانئ البحر المتوسط ، في شبه الجزيرة الإيطالية ، التي تمتع بازدهار قديم مثل موانئ الأطلسي ، لشبونة ، إشبلية ؛ وأنفرس ، التي بدأت تحل محل بروج التي غطتها الرمال ، أصبحت مركزاً من أنشط مراكز الحياة الاقتصادية .

وتحسنت التقنيات أيضاً بالخروج من دور الأزمات . إن نقص اليد العاملة ، والرغبة في اقتصاد الأجور المرتفعة شجعا اختراع الآلات القادرة على أن تحل محل الإنسان . ومن جهة أخرى كانت الحرب نفسها عامل تقدم : فخارجاً عن تحسين التقنية العسكرية كظهور أسلحة نارية في أوربة ، شجعت الحرب إنتاج وتحويل الفلذات المعدنية وكانت أكبر مستهلك لها . وفي هذا الصعيد الأخير ثبت التقدم التقني . فخلال زمن طويل كان يكتفى بحك وكشط العروق السطحية . ونضوبها في الوقت الذي ازداد فيه الطلب عليها ، يوضح استخدام طريقة استخراج أكثر نفاذاً . فقد حفرت آبار أكثر عمقاً بكثير . وأوصلت إلى دهاليز على طبقات وثبتت بأخشاب . وهذا الاستغلال لما تحت التربة العميق

أصبح ممكناً بعد أن حلت قضيتان كبيرتان : قضية التهوية أولاً ؛ وقد تأمنت هذه التهوية بفتحات عديدة أشعلت أمامها النيران لتنشيط المبادلات الجوية . غير أن المياه أجبرت في السابق على هجر المناجم التي بدئ بها ؛ أما الآن فتؤمن الآلات العظيمة سحب المياه . والمضخات تحرك بدواليب كبرى تديرها الخيول . ومبدؤها مرتبط باكتشاف جهاز الحركة الدافعة ، التي تبدل حركة دائرية مستمرة إلى حركة مستقيمة متوالية متناوبة . وبالمقابل : وبفضل هذه المستجدات تكاثر إنتاج فلذات الحديد والفضة والنحاس ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر بما يعادل الأربع أو الخمس مرات تقريباً . وفي شأن المعدنين الأخيرين يجب أن نضيف ، كعامل تقدم ، اكتشاف طرق تساعد على فصل الفضة عن الرصاص الفضي ، وفلذات النحاس الفضية . وتستعمل الفضة لسك النقود ، ويدخل النحاس في تركيب خليطة جديدة ، الصُّفْر ، التي تمزجه بحجر التوتيا (الكالامين) . وبقيت الصناعة المعدنية للحديد أهم من غيرها : ففي أفران عالية ذات حرارة متزايدة أنتج الحديد الخام الذي يصهر ثانية في الفرن ويخرج منه الحديد الحلو بفضل مطارق مائية قوية ، بيد أن نمو الصناعة الحديدية مازال محدداً بعد لنقص المحروقات . وكانت الغابات تجهز بفحم الخشب ولكنها اجتيحت بكاملها . أما فحم (الأرض) ، فقد ظل استخراجه قديماً جداً . وإذا استثنيت مناطق لييج ونيوكاسل فهو ينتج بصورة أساسية ويستعمل من قبل فلاحين يستخرجونه بحفر ثقب في حقلهم . والصناعات الأخرى هي أقل تحويلاً : فمن الممكن أن نذكر مع ذلك للحرير ظهور أنوال قادرة على تنفيذ رسوم معقدة . ونمو صناعة الزجاج التي وجدت في الحياة اليومية تطبيقات عديدة بدأ من البيوت الزجاجية لنباتات البلاد الحارة إلى زجاج البيوت ، ومن الأدوات المنزلية إلى النظارات والمرايا . وللتقدم التقني نصيبه في نهوض الإنتاج الزراعي . وأكثر من ذلك تمكن الإشارة إلى أن المكاسب السابقة مثل المحراث الصباب قد تعممت ، وأن طرق التجفيف قد تحسنت أيضاً : ففي هولاندا كثرت طواحين

الهواء التي تشغل مضخات ماصة تساعد على كسب أراضي جديدة . وأخيراً ظهرت بعض الزراعات الجديدة في أوربة : الرز الذي زرع أولاً وحده في إسبانيا الإسلامية ، ووصل إلى سهل البو الأدنى ، والقمح الأسود ، الذي أدخل إلى أوربة الشرقية منذ الإمبراطورية المغولية وتبنيت زراعته في آخر القرن الخامس عشر في النورمانديا وفي بروتانيا وأعطت قيمة للأراضي الفقيرة .

وأخيراً ، إن التقنيات التجارية والمصرفية ، دون أن تعرف تجديدات حقيقية ، انتشرت هي أيضاً بصورة عريضة في أوربة النصف الثاني من القرن الخامس عشر . إن التأمين وضع التجار في ملجأ من أخطار البحر وهجمات القراصنة ؛ وعلم الحسابات في جزء مزدوج ، الذي يسهل الرصد والموازنات ، والسفتجة (الكمبيالية) التي تجنب نقل رأس المال والصرف اليدوي للعملة . وشجعت على نمو أشكال بدائية للرأسمالية : الشركات التي تجمع رؤوس أموال عدة مساهمين ، تسيطر على البنك والتجارة الدولية الكبرى . إن شركة آل ميدتيشي ، مع فروعها في بروج ، ولندن ، ونابولي والبندقية تعتبر أشهرها . ولكن الرأسمالية الناشئة تغلغلت أيضاً في قطاعات الاقتصاد الأخرى . فمن المؤكد أن التاجر ـ المتعهد ، الذي يشغل الحرفيين ويجهزهم بالمادة الأولية ليس جديداً ؛ ولكن نوعاً من الرأسمالية يمكن وصفها برأسمالية صناعية ، ظهر منذ آخر القرن الخامس عشر في بعض مناطق أوربة : وارتبط بنمو النشاطات التي تتطلب حشد عدة عمال يتعاونون لإنجاز عمل واحد ، ومواد مكلفة للحصول عليها وصيانتها : إن الرحاب البحرية ، التي تجمع أحياناً في موانئ البحر المتوسط عدة ألوف من العمال ، معامل زجاج ، أفران عالية ، تتطلب كفاءة إنتاجها المتزايد جهازاً عديداً ؛ وطواحين مائية خاصة بطحن القمح ، وقشر الدبغ ، العظلم (نبات يصبغ لوناً أزرق) أو عجينة الورق .

والنشاطات المنجمية في عز نهضتها تقدم مثالاً آخر من هذا النموذج في

التنظيم : إن تجهيز المناجم ، في الواقع ، يحتاج أيضاً إلى وضع أموال متزايدة ، ولذلك تشكلت شركات رأسمالية ، لشراء المستغلات القديمة أو الحصول على امتيازات جديدة . ويتمثل رأس المال بحصص تباع إلى أفراد ، يتركون تسيير المنجم إلى المدير ، والمنجميين ، الذي لا يشتغلون لحسابهم أصبحوا عمالاً مأجورين . وهذه الأشكال الجديدة للنشاط الاقتصادي تقدم صفة مازالت استثنائية ولكنها نجحت أحياناً في تفجير إطار عمل العصر الوسيط ، التنظيم الصنفي للحرف . وهكذا يرى في صناعة النسيج عدد من المشاريع أقامت الآن خارج المدن لتجد بقربها المادة الأولية أو مجاري الماء التي تجهزها بالطاقة . ولكن أيضاً للإفادة من اليد العاملة التي لا ترتبط بالأنظمة الصنفية . وهذه حالة الفلاندر التي نمت فيها صناعة الأقمشة في الأراضي المستوية الخالية من التضاريس .

وبعد ، فهل تكيف الإنتاج والتوزيع مع الطلب ؟ في كثير من الدومينات كان الطلب يزداد بأسرع من كمية المحاصيل الجاهزة للاستهلاك . ومع النهضة الديموغرافية وتحسين مستوى الحياة ودخول عدد كبير من الفئات الاجتماعية في اقتصاد المبادلات ، تكاد سلع الاستهلاك الجاري تغطي في الغالب الحاجات . وكذا الحال من أجل الحبوب : لأن السطح النسبي للأراضي المزروعة نقص في أوربة لصالح مستغلات زراعية أخرى أكثر عائداً بالربح ، مثل تربية الحيوانات وزراعة الكرمة . وبالرغم من أن التغذية بخاصة في المدن تترك مكاناً أقل للحبوب ، فإن هذه كانت تنقص لأقل طقس سيء يأتي ويفسد المحصول . وعليه لا يوجد تخلية ممكنة من الغابات في الجزء الغربي من أوربة لإعدادها صالحة للزراعة . وكذلك الطلب على السمك لا يشبع بالصيد في بحر الشمال وبلجيكا ، وهذا بالرغم من اختراع طريقة للحفظ ، أي تكديس سمك الرنكة المملح أو المدخن في برميل . وأكثر أيضاً أن بعض محاصيل البذخ تفقدها زبائنها الفنية

في البلاطات الأميرية في عز توسعها والطبقة البورجوازية ذات الدخل الأفضل . والتوابل تصل بسهولة أقل منذ أن احتل الأتراك الطريق المغولي وغلا ثمنها كثيراً . والسكر أيضاً الذي يفضله أصحاب الذوق على العسل ، ولا ينتجه الغرب ، بالرغم من بعض محاولات الجنوبيين ، في قبرص ، وفي البرتغال . وأخيراً ، وبالرغم من الاستثمار الكثيف للمناجم الأوربية ، فإن المعادن الثمينة ، ولا سيما الذهب ، الذي يتضمن باستعماله الآن جزءاً كبيراً من النشاط الاقتصادي ، تنتج بكمية غير كافية للإجابة على الحاجات النقدية .

الأوربيات الثلاث الاقتصادية

إن التعمير الاقتصادي وتحسين الإنتاج وإشباع الحاجات الجديدة ، كل هذه القضايا وضعت بصورة مختلفة حسب البلاد ووجدت فيها حلولاً مختلفة . والحياة الاقتصادية المنظمة منذ زمن طويل على السلم المدني أو الإقليمي مع ارتباطها بالنشاط الأوربي بكامله ، قد استقرت في الواقع في الإطار القومي . والتضامن الجديد يقرب المنتجين عمال الأمة الواحدة أمام المنافسة الأجنبية . والحركة بخاصة قوية حيث يتزعمها العواهل . وتدخل الدولة في الحياة الاقتصادية له في الغالب هدف ضروري . ولكن تشريع آل تيودور في إنكلترا ، وتشريع الملكين الكاثوليكيين في إسبانيا ، أو تشريع لويس الحادي عشر في فرنسا ، كان من نتيجته الإنتاج القومي وحمايته . وكذلك توسع الحق الملكي في تحت تربة المناطق الغنية بالفلذات ، ولا سيا في الجبال ، حيث لا يستطيع أي مالك أن يفيد من حقوقه ، كان هدفه المباشر أن يحصل للعواهل على موارد جديدة لأنهم لا يمنحون الاستثمار إلا مقابل عشر الإنتاج ، ولكن كان من نتيجته تأمين رقابة الدولة على الإنتاج المنجمي القومي . والبلاد الأوربية ، حسب اتجاهات اقتصادها ، يمكن أن تصنف في ثلاث جماعات أساسية . فبينما ظلت الممالك الشرقية متجهة شطر الماضي ، وكانت ممالك أوربة الوسطى والغربية تجد الازدهار دون أن تنجو تماماً

من بعض الصعوبات ، دخلت شبه الجزيرة الأيبرية عن عزم في طرق المستقبل التي تساعد على إشباع الطلبات الجديدة للاقتصاد الغربي .

أ ـ بلاد الشرق الأوربي الكاثوليكية

لم تتبع البلاد الكاثوليكية في شرقي أوربة : هونغاريا ، بوهيميا ، بولونيا ، ألمانيا فيما وراء نهر الأيلب باقي أوربة في تطوره . وظلت إلى آخر القرن الخامس عشر وقبل كل شيء بلاداً زراعيةً ، ونشاط التجار فيها في أيدي الأجانب .

وهنا كما روسيا الموسكوفية الأرض موفورة أكثر من الناس ، وكان الأمراء ، وحدهم يتصرفون بالسلطة في أراضي فتحت حديثاً ويؤلفون لأنفسهم في الأراضي العذراء دومينات واسعة . ويفرضون على فلاحي هذه المناطق الذين لا يملكون لا أرضاً ولا عتاداً زراعياً ، مقابل التمتع بقطعة أرض صغيرة وبحمايتهم ، سخرات ثقيلة على الذخر ، أي الدومين الخاص بالأمراء . وفي الشرق الأوربي المتجه شطر الماضي ، تشكلت (عبودية ثانية) ونظام أميري جديد يكرس هذه المناطق لقرون الركود الاقتصادي ، بينما تمنع سلطة الأمراء الإقطاعيين إقامة دول مركزية . ونظراً لغياب المدن الهامة والبورجوازية التاجرة ، كانت التجارة من النموذج الاستعماري في أيدي الأجانب ، وأوربة الشرقية تجهز البلاد الغربية ، بالمحاصيل الزراعية والمواد الأولية التي لاتوجد عندها ، وتجار الهانس الجرمانية يأتون إليها ويبحثون عن بعض محاصيل البذخ مثل العنبر والفراء التي يبيعونها من جديد فيما بعد بثمن غالٍ جداً . ولكن التجارة تتناول بصورة أساسية البضائع الفقيرة والثقيلة ، والكبيرة الحجم ذات السعر الضعيف نسبياً : حبوب ألمانيا الشرقية وبولونيا التي تصدر نحو الفلاندر ، وإنكلترا وأكيتانيا ، وخشب المناطق البولونية والإسكاندينافية وكل ماتحت محاصيل الغابة ، الصمغ ، الزفت

(القار) ، رماد الغابات الضروري لصباغة القماش ، والحديد ، وبخاصة السمك الآتي من إسكانديناڤيا .

ب ـ وسط وشمال غربي أوربة

وبالمقابل ، يرى في وسط وشمال غربي أوربة ، اقتصاد أكثر تطوراً يترك إلى جانب الزراعة مكاناً هاماً للحرفية والتجارة . إن وجود مدن عديدة وفي الغالب مأهولة جداً بالسكان ، وسعة العمليات النقدية التي تنفذ إلى كافة الفعاليات الاقتصادية توضحان فيها أفول النظام الأميري ونهضة الطبقة البورجوازية الغنية والقوية التي شجعت مساندتها جهود الأمراء والملوك نحو المركزية . وفي هذا القطاع من أوربة ، يرى أن الحياة الاقتصادية في كل بلد لها سياؤها الخاصة وقضاياها الفردية .

البورجوازيات التاجرة ، محرك الاقتصاد في أوربة الوسطى

لم تكن في ألمانيا الغربية وفي إيطاليا سلطة مركزية قوية ، ولذلك كان دور البورجوازيات أساسياً في المدن التاجرة ، المتنافسة تارة ، والمتضامنة تارة أخرى على الصعيد القومي .

١) ـ إيطاليا

كانت شبه الجزيرة الإيطالية ، المحظية بقدم تقاليدها وكمال تقنياتها التجارية والصناعية والمصرفية ، هي أيضاً من أكثر المناطق ازدهاراً في الغرب . والإيطاليون يحافظون في التجارة والبنك على دور دولي من الصعيد الأول . وفي الحقيقة ، إن الفتح التركي أوقف بفظاظة التوسع الإيطالي في الشرق بتدمير الوكالات كلها ، ولكنه لم يحرم التجار الإيطاليين من دورهم كوسطاء في تجارة السلع الشرقية الثمينة ، التوابل بخاصة ، وظلوا وحدهم يوزعونها في كل أوربة . وبنفس الشكل ، وبالرغم من ردود الفعل التي تكره الأجانب عند البورجوازية

القوميـة ، فـإن البنـوك الإيطـاليـة مـافتئت تمـول جـزءاً هـامـاً من الفعـاليـات الاقتصـاديـة في البلاد الأوربيـة ، وعلى سبيل المثـال في البرتغـال ، أو المشـاريـع السيـاسيـة للعواهل الإنكليز أو الفرنسيين ومشـاريع الأمراء البورغونيين . وأخيراً إن النصف الثـاني من القرن الخـامس عشر يتصف في إيطـاليـا نفسهـا بـالتقـدم الزراعي المرتبـط بـأعمـال كبرى في التجفيف والري وبنهـوض صنـاعي في صعيـد الصناعات النسيجية والمنشآت الملاحية ، وصناعة الورق ، والزجـاج والأسلحـة . ومع ذلك فإن توزيعاً جديداً جغرافياً أخذ يتجه إلى نقل المراكز الاقتصـاديـة نحو الشمال وتركيز أكثر الفعـاليـات أهميـة لصـالح بعض هـذه المراكز . فبينمـا أفل نجم مملكة نـابولي ، المستعبـدة للمصـالح الآراغونيـة ، كانت المـدن التي تتمتع بـازدهـار عظيم . وجنوة ، التي تنافسها فلورنسا والبندقية اللتان عرفتا كيف تؤمنـان حصر التجـارة الشرقيـة ، كانت المـدينـة التي تـألمت أكثر من غيرهـا من نتـائـج الفتـح التركي . ولكن إذا رأى ميناء جنوة تجارته تميل إلى الأفول ، فإن التجـار الجنويين حافظوا في خارج إيطـاليـا على نشـاط كثيف : لقـد كانوا حـاضرين في إنكلترا ، والبلاد المنخفضـة ويلعبون دوراً من الصعيـد الأول في البروفـانس حيث استقرت أسرة دوريـا التي حكم عليهـا بـالنفي ، وبخـاصـة في البرتغـال . ففي لشبونـة كان آل لوميلليني صيـارفـة الملـوك . ويسيطرون مـع تجـار شركاء آخرين على تجـارة الحنطـة ، ويبنون سفنـاً . وفي البنـدقيـة ، المنـافسـة السعيـدة لجنوة ، تتطـابق الدولة مع مصالح أوليغارشيـة تجـار : وكان المجلس الأكبر ومجلس الشيوخ ينظمان قوافل السفن وينتخبان البضائع التي تنقل ، ويمنعـان استعمال السفن الأجنبيـة . وكان البنادقة سادة تجارة التوابل ، وتذهب سفنهم لتبحث عنهـا في الشرق وتـأتي بها إلى أسواق أوربة الشمالية : بروج ، لندن ، أنفرس بقوافل منظمة تجتاز مضيق جبل طـارق . وكان الأسطول البنـدقي يضم ، في آخر القرن الخـامس عشر ، أكثر من ٣٠٠٠ سفينـة قـادرة على المـلاحـة حتى في الشتـاء ، و ٣٥٠٠٠ مـلاح . وكانت مدينة الأدواج تسحر بسناها وازدهارها كل من يزورها من مختلف الطبقات .

وفي داخل القارة ، تتمتع **ميلانو** بموقع تكشفت محاسنه حديثاً : فهي تقع على منافذ المعابر الألبية الهامة ، وتفيد من نمو العلاقات بين شبه الجزيرة وألمانيا وتشرف عليها ، وهي تضيف ، إلى صناعة في عز نهضتها ، ازدهار (كونتادو) كانت أريافه مسرحاً لجهد كبير في تحسين الأراضي . وأخيراً **فلورانسا** ، بين كل المدن الإيطالية ، في آخر العصر الوسيط ، كانت أكثرها لمعاناً وضياءً . فمنذ ضم بيزا وتشكيل دولة توسكانية ، أصبحت فلورانسا دولة بحرية ، وأطلقت سفنها الخاصة على البحر المتوسط والأطلسي . وكان البنادقة مع الفلورانسيين أنشط التجار في القسطنطينية وفي كل الإمبراطورية العثمانية . وزادت هذه النهضة البحرية الازدهار ، الذي كانت المشاريع القديمة ، صناعة النسيج ، وتوسع الشركات التجارية والمصرفية في الغرب ، مستمرة في تأمينه .

٢) ـ ألمانيا

لقد استيقظت ألمانيا الغربية بصورة أحدث من إيطاليا على النشاطات الصناعية والتجارية ، ولكنها كانت آخذة في سد تأخرها الاقتصادي ، وكانت هذه اليقظة مرتبطة بنمو التجارة في بحر الشمال وفي البالطيك . إن الهانس الجرمانية ، التي تضم المدن التجارية في ألمانيا والرينانيا وتسيطر عليها هامبورغ ولوبيك حارستا المرور بين البحرين ، حافظت على نشاط كبير : لقد وضع الهانسيون الشرق الأوربي على صلة مع الغرب الأقصى لتكامل إنتاجاتها . يسوقون نحو الغرب المحاصيل الخام من أوربة الشرقية ، والحبوب والسمك ، والخشب والفرو ويجهزون أوربة الشرقية بالمنسوجات من الفلاندر وإنكلترا . والملح من لونيبورغ أو من الأطلسي وحتى التوابل التي يأتي بها الإيطاليون إلى بروج . ومع ذلك فإن تجارة الهانس بدأت تنحط . وفقد التجار الألمان امتيازاتهم في لندن ، لاسيا وأن السفن الإنكليزية والهولاندية بدأت تنافسهم في دومينهم الخاص . إن مركز ثقل الاقتصاد الألماني انتقل نحو الجنوب لصالح مدن ألمانيا

الجنوبية . ومنذ أفول الطرق والأسواق الموسمية الشامبانية ، أفادت هـذه المنطقـة من نمو العلاقات البرية المباشرة مع إيطاليا ؛ ومن جهة أخرى ، إن الجبال القديمة في ألمانيا الجنوبية الغنية بالفلذات أفادت من النهضـة الكبرى في النشـاط المنجمي في وقت أخذ الطلب على الأشياء المعـدنيـة بـالازديـاد وازدهرت مـدن بسرعـة : ليبزيغ ، أوغسبورغ ، نورمبرغ ، راتسبونّ وفرانكفـورت على المـاين ، وأصبحت مراكز أسواق موسمية شهيرة . وتأسست فيهـا شركات كبرى على مثـال إيطـاليـا : لقـد أنشئت (شركـة ألمـانيـا) في رافنسبـورغ في آخر القرن الرابع عشر على يـد جوزيف هومبيس ، وكان آل فوجر حـائكين متواضعين ، في أوغسبـورغ ، أثروا بتجارة النحـاس نحو البنـدقيـة ، وكانوا في آخر القرن الخـامس عشر قـادرين على إقراض العواهل مبالغ عظيمة .

الملكية توجه النهضة الاقتصادية في أوربة الغربية

وفي البلاد الأخرى ، في الوسط الغربي من أوربة ، أخذت الحياة الاقتصادية طابعاً قومياً بوضوح ، لاسيا وأن العواهل أنفسهم كانوا يحاولون توجيهها .

أ ـ الدولة البورغونية

تقـدم الـدولـة البـورغـونيـة المثـل الأول . فقـد نهضت منـذ بـدايـة القرن الخـامس عشر من الأزمـات المرتبطـة بـالأوبئـة والحروب التي أصـابتهـا أقـل مما أصابت فرنسا . ويرجع ازدهارها جزئياً إلى السياسـة الحـاذقة والنشيطـة التي سلكها أدواقهـا : فقـد أغنى هؤلاء ، ولا سيا فيليب الطيب الكروم البورغونيـة ، وحموا صناعة إمارتهم ضد المنافسـة الإنكليزيـة وبحثوا في اللوكسمبورغ عن منـاجم الفلذات . وشجع شارل الجريء التجارة بصورة خاصة . وقام في ١٤٧٠ م بـأعمـال كبرى لإزالة رمال الزوين وإنعاش نشـاط بروج ؛ وصحبت الروابـط السيـاسيـة التي عقدها مع الـدول الأيبريـة والإيطـاليـة مبـادلات اقتصـاديـة . وأخيراً ، إن

العملة الممتازة التي سكها الأدواق (الفيرلانـدر) الـذهبيـة لعبت دوراً سعيـداً في الفـاعليـة الاقتصـاديـة . ومن جهـة أخرى ، عرف العواهل البـورغـونيـون كيف يضمون تحت نفوذهم مناطق اقتصادية مختلفة ومتكاملة تؤمن للحياة الاقتصادية في إمارتهم توازناً قومياً حقيقياً : وهذه المناطق الزراعية الغنية في بورغونيا تشاركهـا بسعادة المراكز الحرفية وتجار البلاد المنخفضة . إن الخمور الأوسرية والكوت دور ، ومركوريـه ، نُوي وبـون . أغنت دوقيـة وكـونتيـة بـورغـونيـا اللتين تصـدرانهـا بالطريق النهري انطلاقـاً من أوسير وشـالون على الصون نحو الفلانـدر وإنكلترا . وهذا الغنى أدى إلى تقدم عـام في النشـاط . فقـد أصبحت شـاتيون ـ على ـ السين مركز أقمشـة محليـة ، ولا سيا ديجون ذات الموقع الجيـد في نقطـة عبور بين فرنسـا الشماليـة والجنوب ، ومكانـاً لتجـارة هـامـة ، وتغطت بعمائر فخمـة . وفي البـلاد المنخفضة كان الازدهار العام أقل من غيره . وأحدث تحويل الصنـاعـة والتجـارة فيها انتقالاً لمراكز النشاط كان غير ملائم للمدن الفلامـانـديـة الكبرى . وفي مضمار الصناعة ، شكت صناعة الأجواخ أكثر فأكثر من منافسة الأجواخ الإنكليزيـة التي أخذت مكان الإنتاج الفلاماندي في أسواق عديـدة وحتى في بروج . وكانت المـدن الكبرى للأقمشـة في عز أفولهـا : ففي يپر ، في آخر القرن ، تـدمرت عـدة بيوت ، ورد ثلث السكان إلى التسول . ومع ذلك فـإن المراكز الصغرى التي تصنع الأقمشـة من النوعية الجاريـة ، مثل كاسِّل ، توركوانغ ، كورتريـه ، استطـاعت أن تنجو من الأزمة ، وحاول الحرفيون الفلاماندیون أن يتكيفوا من جديـد بـالتوجـه نحو فعاليات جديدة مثل صناعة النسيج الصوفي الخفيف ، وصناعة السجـاد والأقمشـة الكتانية في المدن الكبرى مثل بروكسل ، ولا سيا في المراكز الريفية الصغرى مثل ڤرڤيـه أو أودينـارد . وتم تطور التجـارة أيضـاً على حسـاب الميـنـاء الفـلامـانـدي الكبير ، بروج . وفي الحقيقـة ، إن بروج مـا زالت مشرقـة جـداً بعـد في منتصف القرن الخـامس عشر ، وكانت مينـاءً كبيراً لترانزيت التجـارة الـدوليـة ، ومركـز الفروع الأساسية للشركات الإيطالية . وما زالت تتمتع بنشاط كثيف .

وكان العصر أكبر عصر للهندسة المعمارية والتصوير (الرسم) في بروج ، العصر الذي بنيت فيه كنيسة القديس ـ المخلص وكنيسة قبر السيد ـ يسوع المسيح ، العصر الذي اشتغل فيه جان ڤان آيك ومملنغ . ولكن تراكم الأموال المتزايد ، بالرغم من الأعمال التي أجريت في ذراع زوين ، والتنظيم الدقيق والشديد هربا التجار الأجانب وأعدّا لبروج أفولاً سريعاً . ففي آخر القرن وجدت عدة آلاف البيوت في حالة دمار . وأفادت من هذا الأفول في المدن الفلاماندية مناطق واقعة إلى الشمال منها : ميناء **أنفرس** يستقبل التجار الأجانب الذين يغادرون بروج . وكان ذلك الميناء نشيطاً منذ القرن الرابع عشر ، ويملك منذ فيضانات بداية القرن الخامس عشر طريقاً أسهل إلى البحر . والسفن الأجنبية لا تضرب برسوم ثقيلة ، وتستقبل أسواق المدينة جميع التجار وجميع الصرافين . وڤرڤيه أصبحت ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، أول سوق مالي للتجارة الأوربية : فالتجار من كل البلاد يعالجون فيها قضاياهم على نماذج (مساطر) ويقومون فيها بعمليات تجارية أو مالية على أسعار البضائع والعملة . ولم تعمل أنفرس مع ذلك سوى أن حلت محل بروج في وظائف التجارة والترانزيت . ولم يكن لها جهاز بحري خاص أكثر من بروج . أما في الشمال ، في الموانئ الهولاندية ، مثل أمستردام فقد ولدت بحرية جديدة : فالملاحون الهولانديون يصدرون براميل السمك إلى كل بحر الشمال ، وبالرغم من جهود الهانس ، نفذوا إلى البالطيك . وكان النهوض الاقتصادي لهولاندة عاماً : فنمو المروج الاصطناعية ساعد على حذف الأراضي البور وتربية الحيوانات الكبرى . وبدأت الزبدة والجبنة الهولاندية تصدر . ونهضت أيضاً صناعة الأقمشة في المراكز المدنية مثل دلفت وليدن وبيعت الأقمشة الهولاندية في أسواق عديدة في شرق أوربة .

ب ـ مملكة فرنسا

في مملكة فرنسا ، جرى الإعمار الصعب وتقدم الاقتصاد تحت الإدارة الملكية أيضاً . لقد خربت فرنسا بفظاعة من جراء اجتياحات الحرب وأصيبت بنقص عام في السكان . والإعمار الذي بدأ في آخر حكم شارل السابع ، تقدم ببطء شديد . ونهاية الحرب الرسمية لا تعني في الواقع الرجوع مباشرة إلى السلام التام . وخلال زمن طويل أيضاً ظلت الأرياف والطرق تشكو من أعمال الشقاوة التي يرتكبها قطاع الطرق الذين كانوا في الغالب جنوداً سابقين ؛ بينما العداوة الصماء ، التي تسود بين فرنسا وإنكلترا ، تغذي على البحر حرب قرصنة . وأخيراً ، إن ثورات الإقطاعية الفرنسية أفسدت حتى نحو ١٤٧٥ م جهود الملكية لتوطيد النظام . ووجدت أصعدة أخرى نجت من العمل الملكي ، مثل صعيد الديموغرافيا أولاً : فالشعب لا يمكن أن يعمر نفسه إلا بعد عدة أجيال . ويلاحظ عودة الاستيطان في بعض المناطق ، ولكن يبدو أنها على الأرجح تنقلات داخلية للسكان أكثر منها نهضة ديموغرافية تكاد تبدأ . وظلت اليد العاملة نادرة . ومن جهة أخرى ، إن نقص رؤوس الأموال أعاق أيضاً النهوض الاقتصادي في فرنسا . وهنا أيضاً بقي العواهل عاجزين . وفرنسا لا تنتج تقريباً الذهب ، وصادراتها ضعيفة كثيراً لتأتي به إليها . والعمليات التي ينبغي بموجبها استعمال التوابل أو تخصيص أموال على المقبوضات (الدخول) يضيق عليها ، ورؤوس الأموال قلما كانت مجمعة ومركزة . ولم يكن لفرنسا كجاراتها شركات ذات رأسمال مرتفع . والعملة التي أصدرها الملك ضعيفة القيمة ، وفي المملكة تتداول قطع عديدة من النقود الأجنبية .

ودور جاك كور ، الذي يدخل في عهد شارل السابع ، يصور جيداً صعوبات النهضة الاقتصادية بإظهاره بداياتها . كان ابن تاجر فرو في بورج . تلقى في شبابه تعلماً عملياً تماماً . كان ذكياً ، شغيلاً ، جريئاً ودون وسوسة ضمير .

ويعرف كيف يفيد بشكل أفضل من الظروف المواتية . إن أول حظ له هو أنه ولد في بورج حين كانت هذه المدينة عاصمة فرنسا ولي العهد : فاهتبلها جاء كور بربط حظه بحظ من سيكون شارل السابع في المستقبل . شارك أولاً ضارب النقد في بورج . وبما أنه يغامر عن عدم بصيرة على النقود التي خفت قيمتها ، ويصنع قطعاً أدنى من نماذج البراءات الملكية ، فقد لوحق في ١٤٢٩ م . ولكنه عرف كيف يحصل على عفو ولي العهد ، ومنذ ١٤٣٠ م ، أصبح مجهز البلاط ، وكانت فرصة جيدة للانطلاق في تجارة بلاد شرقي المتوسط مع الإيطاليين . وفي ١٤٣٥ م أصبح سيد النقد في بورج ، وتبع الملك إلى باريس وبصفته ناظر المالية (١٤٤٠ م) تقبل حراسة حلي العاهل ووظيفة نفقات بيت الملك . وبقرض ٤٠٠٠٠ ايكو مول فتح نورمانديا . وفي قمة حياته الرسمية دخل المجلس الأكبر (١٤٥٠ م) وتنبل (١٤٥١ م) وهذا الصعود السياسي وفضل الملك خدما مصالحه بصورة عظيمة . وبمختلف أعبائه كموظف ملكي حقق كسباً عديداً ، دون حساب المبالغ التي تدفع له سراً ليتمتع بمساعيه الحميدة لدى الملك . ودوره كمجهز للبلاط ساعده على تحقيق أرباح جوهرية على الأقمشة الثمينة ، والتوابل ، والأثاث ، التي يجهزه بها . وألف لنفسه على هذا النحو ثروة شخصية عظيمة يمكن أن تفيده كرأسمال للانطلاق . وهذا الرأسمال ضخمه الملك الذي يعهد إليه بالمال . وبفضل رؤوس الأموال هذه تمكن جاك كور أن يجازف في مشاريع هامة بفضل الملك ، كالحصر والإعفاء من الرسوم . وأصبح له جاه عظيم في نظر التجار الأجانب . وكان نشاطه متنوعاً للغاية . ويعتمد أولاً على التجارة الكبرى مع بلاد شرقي المتوسط . كان جاك كور يملك أسطولاً صغيراً من السفن التي بنيت في رحاب مارسيليا . ونقاط ارتباطها هي مونبليه ، إيغ - مورت ومارسيليا . وخوله الملك حق رفع رايته وحصر التجارة مع بلاد شرقي المتوسط (المشرق) . وكان لجاك كور ممثلون في كل شرقي المتوسط ، في الإسكندرية ، بيروت ، دمشق ، فاما غوست ، رودوس ، في إفريقية الشمالية ، في تونس وفي بوجه ، وفي

كل المراكز الإيطالية الكبرى ، وفي بارشلونة . ويحصل منها على التوابل ، والحرائر ، والبورسولين ، والعطور ، وتعهد بنقل السياح وتجارة الدقيق . وحاول أيضاً بسط شبكته التجارية إلى شمال ـ غرب أوربة . وعلى هذا النحو صدر من باريس توابل إلى إيكوسيا ، ولكن المتمول الكبير لم يقتصر على التجارة ، ولتثمير رؤوس أمواله والحصول بسعر رخيص على وسائل تبادل مع الشرق ؛ وظف أموالاً ، مشاركاً مع تجار آخرين ، في مشاريع حرفية أو استثمارات منجمية . وكان عنده مصنع للحرائر في فلورانسا ، ومصبغة في مونبليه ، ومعمل ورق في روشتايّه في منطقة ليون . وفي هذه المنطقة الأخيرة يشرف على الإنتاج المنجمي . والتزم فيها لاثني عشر عاماً رسم العشر الذي فرضه الملك على المناجم . ويملك وحده ، أو مع شركاء في شركة عدة مناجم فضة ونحاس . ومن بورج ، حيث شاد لنفسه منذ ١٤٤٣ م قصراً حقيقياً ، يحكم إمبراطوريته الاقتصادية .

إن سنا نجاحه يوضح فظاظة سقوطه . ولم ينقصه الأعداء : من تجار كان سبباً في خرابهم ، ومن رجال بلاط مدينين له ، ومن حاسدين بذخه القح . حتى إن الملك نفسه بدأ يقلق من نجاح يمكن أن يرتاب فيه . وليس من الصعب أن يوجد في نشاطاته شذوذ يذهب به إلى ارتكاب أخطاء . وأضيف إلى هذا الاتهام أنه تآمر على الملك وأن له ضلعاً في موت آنيس سوريل محظيته ، أي الملك .

وفي ١٤٥٣ م ، حكم عليه بالنفي المؤبد ، وصودرت أمواله ، وأخيراً ، ومهما يكن نجاح جاك كور الشخص وضاءً ولامعاً ، فإن دوره على مقياس الاقتصاد القومي ، إذا ماقورن بنشاط الشركات الإيطالية الكبرى ، يبقى متواضعاً . إن ضعف هذا النجاح المؤسس بصورة أساسية على الفضل الملكي يكشف عدم كفاية الرأسمالية الفرنسية وصعوبات الإعمار .

وفي عهد الملك لويس الحادي عشر أصبحت نهضة الإعمار حاسمة . لقد أظهر

هذا العاهل أكثر من أبيه اهتماماً حقيقياً بالمسائل الاقتصادية ، وساعدته كفاءاته على القيام في هذا المضمار بسياسة تدخل جديدة تماماً . ففي شبابه ، قضى عدة سنوات في الفلاندر ، وارتبط مع العديد من الإيطاليين . ولما أصبح ملكاً أراد أن يزور مملكته « كما يزور بستاني بستانه » كما يقول طبيبه شوانيه . أمر بتنفيذ بعض الأعمال : مثل تحويل ذراع من نهر اللوار ، وخرق جبل ڤيزو ، وأحاط نفسه ببورجوازيين على علم بهذه القضايا الاقتصادية . وأفكاره الشخصية ، والمجالس التي يصغي إليها ، كانت في أصل تشريع اقتصادي هام . حقاً ، إن سياسته بقيت عملية ؛ والتدابير التي اتخذها لا تمثل مطلقاً خطة عامة ، وإنما قرارات خاصة ، تقتصر على بعض صعد الصناعة والتجارة ، بينما الاقتصاد الريفي كان أهم منها بكثير ، ولم يكن موضع أي تدبير . وأخيراً إن الاقتصاد لم يكن للويس الحادي عشر إلا واسطة لتجهيز الملكية بالموارد المالية التي تساعده على تعزيز نفسه . وهذه السياسة ، كما هي ، سهلت عمل إعمار فرنسا ليجعل الفرنسيين يثقون بأنفسهم .

والنهضة الزراعية متفاوتة جداً حسب المناطق ، والصعوبة الكبرى تأتي عن نقص اليد العاملة . وقد ترافق الإعمار بهجرات فلاحين غادروا بلادهم عفوياً أو لدى نداء الأمراء نحو مناطق قليلة السكان : بروتون ، نورمانديون ، بواتيون وليموزينيون جاؤوا وأقاموا بعدد عظيم في منطقة بوردو وفي جنوب الحوض الباريزي . وصحب جهد حقوقي نهضة الزراعة : فأصحاب الأطيان القدامى قد تهدموا في الغالب ، وحدود قطع الأراضي زالت ، وأخيراً كان الفلاحون حديثين ، ووجب تسجيل أعراف جديدة . لقد نسخت عن القديمة فكان لها صفة محافظة بوضوح . ووسعت المدخرات من الأراضي الاحتياطية ، وأعيد توطيد التعامل الإجباري والعام لغرض خاص بالأمير مثل استعمال مطحنة الأمير لطحن الحبوب ، أو عصر العنب في معصرته إلخ .. ومع ذلك فإن ندرة اليد العاملة

اضطرت الأمراء إلى تخفيف بعض الشروط : فمن ذلك يلاحظ تراجع جديد للقنانة ، وحلت الضريبة المالية في الغالب محل الأتاوات العينية . وفي النهاية القصوى للعصر يبدو أن الاقتطاع قد تحقق قليلاً قليلاً في كل فرنسا : وساعد الإنتاج في السنوات السمينة على تصدير الحنطة والخمر . ولكن عندما يقع طقس رديء تقع البلاد تحت رحمة المجاعة من جديد .

وفي المضمار الصناعي ، كان التدخل الملكي غالباً . فمن أجل النشاطات التقليدية كان القصد بخاصة تشريعاً مهنياً ضيقاً . فقد صادق الملك أو أحدث تنظيم الحرفة بناء على طلب البورجوازية الصغيرة الحرفية التي تمسكت بأن تحتفظ لنفسها بحصر نشاط ، وجعل الوصول إلى المعلمية صعباً على الخدم . وهذا التشريع له قيمة اقتصادية ضعيفة . والأهم من ذلك نمو نشاطات جديدة بإيحاء من الملك . فقد تقدمت الصناعات الاستخراجية بسرعة . إن استخراج الفحم وفلذات الحديد القليل في نورماندیا والدوفينه ترك للمبادهة الفردية الخاصة . ولكن التدخل الملكي كان حاسماً من أجل مناجم النحاس والفضة والرصاص في منطقة ليون . ولحفر أروقة ومعالجة الفلذات جذب الملك الألمان واستثناهم من الضرائب . ويراقب الاستخراج موظفون ملكيون يقتطعون للملك رسم العشر على إنتاج المناجم . وشجع لويس الحادي عشر أيضاً لحاجات جيشه ، الصناعة المعدنية . كما شجع أخيراً في المملكة صناعة الحرير ، التي دخلت إلى فرنسا في ١٤٦٠ م . فقد تأسس مشغل متواضع في ليون ، وكان عرضة لعداء التجار الإيطاليين في المدينة ، وعاش ضعيفاً . وعندئذ اهتم لويس بالمشروع .

وفي ١٤٧٠ م لاحظ لويس الحادي عشر قلة حماسة الليونيين ، أهل ليون ، فقرر نقل المشغل إلى تور . ولكن صناعة الحرير الغنية بالمستقبل لم تصل إلى عز نهضتها إلا بعد وفاة الملك . فتحت حكمه بقيت الصناعات التقليدية ، ولا سيا صناعة الأقمشة ، أكثر أهمية من غيرها . وتبع النشاط التجاري نمو الإنتاج

الزراعي والصناعي ، وأفاد هو أيضاً من التدابير الملكية . فقد اهتمت هذه أولاً بالطرق التي تسلكها التجارة . فإذا بقيت الطرق بحالة ضعيفة ، وإذا لم يكن لتنظيم محطات البريد في ١٤٧٩ م لنقل الرسائل إلا غايات سياسية وعسكرية ، فبالمقابل وافق الملك على ثقب جبل فيزو بغية تحسين العلاقات بين فرنسا وإيطاليا ، وبخاصة قام بأعمال على مجاري الماء مثل سد نهر اللوار وحفر نهر الأورْ . وظهر عمله أيضاً في خلق أو المصادقة على أسواق موسمية تفيد من إعفائها من الضرائب : مثل أسواق ليون التي كانت نجاحاً . وبفضل منع الملك التجار الفرنسيين من الذهاب إلى أسواق جونيف أو الأجانب من اجتياز المملكة للذهاب إليها في ١٤٦٢ م ، كسفت ليون جونيف كملتقى دولي . وخول الملك من جهة أخرى دعمه للتجار : وحاول عبثاً إشراك الطبقة النبيلة الفرنسية على مثال الأمراء الإيطاليين أو الإنكليز في (البضاعة) بتخليصها من فكرة مسبقة عن فقدان صفة النبل .

وبشكل أكثر نفاذاً شجع لويس الحادي عشر البورجوازية التاجرة ودعم جهود غليوم دو ڤاري ، وهو ساعي بريد سابق لدى جاك كور ، استأنف جزءاً من أعماله ، وأعمال خلفه پيير دوريول ؛ وهي شركة تؤمن استيراد التوابل من البحر المتوسط الشرقي أخذت في ١٤٧٦ م حصراً . ولكن لويس الحادي عشر لم يحصل من مندوبي المدن على رؤوس الأموال الضرورية لتشكيل شركة هامة من أجل تجارة بلاد شرقي المتوسط . وبالإجمال ، وبالرغم من جهوده ، فإن نشاط فرنسا التجاري ظل ضعيفاً . وهذا يرجع أولاً إلى الاهتمامات النقدية أساساً التي أوحت بسياسة الملك المحبة للكسب . فقد كان الملك مهتماً تماماً بتجنب خروج العملة وحدد الاستيراد . وإذا كان لهذا الموقف نتائج سعيدة في الصعيد الصناعي لأنه يعين تحريات للبحث عن حجر الشب وبخاصة إقامة صناعة الحرير في فرنسا ، فقد حدد بصورة فريدة المشاريع التجارية . ومن جهة أخرى ، نظراً

لفقدان رؤوس الأموال الكافية ، ظلت الملاحة الفرنسية ضعيفة وقديمة والمواني سيئة التجهيز . وأخيراً ، إن مصلحة الملك والتجار الفرنسيين اتجهت بخاصة صوب المتوسط لاسيا وأن فرنسا بعد كسب البروفانس تملك فيه مع مارسيليا منفذاً هاماً . وإذا وضعنا جانباً عودة نشاط الموانئ النورماندية التي تتاجر من جديد مع إنكلترا وشبه الجزيرة الأيبرية ، فإن الجهود باتجاه الأطلسي ضعيفة للغاية وتشير إلى روح رتابة التجارة الفرنسية .

جـ - إنكلترا

بدافع من العواهل من آل تيودور ، قامت إنكلترا ، هي أيضاً بإعمار اقتصادها الذي تضرر بشكل خطير في حربها مع فرنسا ، وأكثر من ذلك أيضاً بحرب الوردتين . ولكنها في الوقت نفسه ، بدأت بقلب حاسم لنشاطها الاقتصادي . ففي الأرياف الإنكليزية ، تراجعت زراعة الحبوب أمام مراعي الأغنام ، لأن بيع الصوف بدا أكثر فائدة وربحاً للمالكين العقاريين من بيع الحبوب . إن الأمراء ، أصحاب الأرض ، هم الذين حققوا لصالحهم هذا التحويل . ولتنمية تربية الحيوانات ، وجب تأسيس مراعي واسعة وتسويرها بغية حمايتها ضد إحياء الأرض وإعدادها للزراعة ، وضد قطعان المستأجرين . أما قطع الأراضي المدخرة التي بقيت غابات أو أراضي براح ، بوراً ، فكانت مكرسة لهذا النشاط . ويكفي الأمير أن يعوض خسارة المجتمع الريفي عن ضياع حقوق الاستعمال ، وذلك بأن يترك له قسماً من أراضيه . ولكن تعشيب المدخر ، بعد أن كرس حتى الآن للزراعات ، بدا عملية صعبة . ولما كانت قطع المستأجرين والقطع المستغلة من قبل الأمير مختلطة عموماً وبشكل معقد ، لذلك وجب القيام بجمع الأراضي المتناثرة في أرض واحدة . وأخيراً ، إن بعض الأمراء يرون أعظم من ذلك . وهو أنهم يريدون أن يستعيدوا دومينهم كله لتغذية قطعان خرافهم . وعند انتهاء التأجير ، أو حال وفاة ، يطردون المستأجر . وبما أن رقابة القطعان

تتطلب أذرعاً أقل من زراعة الحبوب ، فإن الفلاحين المحرومين من العمل يتركون الأرض ويهجرون القرى ؛ حتى أن السلطة الملكية قلقت لذلك . فمن ذلك أن براءة ١٤٨٩ م ، التي تشير إلى « حيث يوجد ٢٠٠ شخص يشتغلون في الأرض لا يرى إلا راع أو راعيان » ، تحاول تجنب الحركة . لأنه يرى ، في الحاضر المباشر ، أن الفلاحين المطرودين ، الذين لا يجدون جميعاً عملاً ، لاستخدامهم في الصناعة ، يشكلون عصابات خطرة من المتسولين . وتدخل الملك لا يمكن أن يمنع الثورة الزراعية التي بدأت الأرياف الإنكليزية لتكون مسرحاً لها ، لاسيما وأن هذا التحول في النشاط الريفي ، الذي كان حتى الآن مسيطراً في الاقتصاد الإنكليزي ، أصبح مرتبطاً بنهضة جديدة في الأصناف الحرفية وفي التجارة . فالأقمشة المصنوعة في إنكلترا من الصوف الذي كان يمّون قديماً المدن الجوخية في الفلاندر ، خلف الآن ، على السوق العالمية ، القماش الفلامندي . والآن يرى التجار والسفن الإنكليزية ينشرونها على الطرق الكبرى للتجارة الدولية . وأصبحت إنكلترا الآن في حال الكشف عن موهبتها البحرية . فمن ذلك أن التجارة الإنكليزية ، تجارة (الأجواخ الطويلة) ، عهد بها إلى المغامرين التجار . وهؤلاء يضعون في الرحاب البحرية سفناً عديدة وينازعون بشدة الإيطاليين والهانسيين تجارة بحر الشمال ؛ حتى أنهم يرتادون موانئ البحر البالطيك وموانئ البحر المتوسط . وأكثر من ساوثامبتون التي يسيطر عليها الإيطاليون ، وأكثر أيضاً من لندن التي يحافظ فيها الهانسيون على دور هام ، يرى أن نهضة بريستول ترمز ليقظة قومية للاقتصاد الإنكليزي .

د ـ شبه جزيرة إيبريا تفتح للاقتصاد طرقاً جديدة

بالرغم من أن كل بلاد أوربة الوسطى والشمال ـ الغربي منها وجدت ازدهارها ، فقد لاقت في آخر القرن الخامس عشر معوقات لنمو نشاطاتها الاقتصادية . إن ضرورة الخضوع لمتطلبات الأتراك ولحصر البندقية وفلورنسا

للحصول على المحاصيل الثمينة من الشرق بأسعار تضخمت دون حدود بفقدان كل منافسة ، ونقص المعادن الثمينة الذي يلجم نهوض الرأسمالية التجارية ، أوجدت لها مصاعب مشتركة . غير أن بلدين في الجنوب الغربي من أوربة حاولا بنجاح طرقاً جديدة جعلت منهما رائدي الاقتصاد الحديث .

الظروف المواتية للاكتشافات الكبرى

في آخر العصر الوسيط بدأت البرتغال ، ومن بعدها إسبانيا متأخرة كثيراً ، بالبحث عن طرق بحرية جديدة . وهذه المحاولات كانت في أصل الاكتشافات الكبرى . ومن الوجهة التقنية ، أصبحت الرحلات البعيدة ممكنة بالتقدم والتحسين اللذين حققتها الملاحة في القرون الأخيرة من العصر الوسيط ، وترجع إلى الاتصال بالعرب والتجربة المتوسطية . لقد كانت الرحاب البحرية ، في القرن الخامس عشر قادرة على بناء سفن كبرى تتسع حتى ٥٠٠ تونو ، وعلى درجة من المتانة تستطيع بها مجابهة العواصف في عرض البحار ، وأكثر سهولة في الاستعمال بتبني السّكّان (دفة السفينة) الذي تحمله قطعة الخشب أو المعدن التي تشكل الحد الخلفي من القسم الغائص من السفينة . وقد ظهرت هذه الدفة في الغرب ، منذ القرن الثالث عشر ، ولكنها لم تفرض إلا ببطء . والسفينة (الكرك الجنوية) تقدم نموذجاً لهذه السفن المحسنة . ومن جهة أخرى ، لم يكن الملاحون مجبرين على متابعة السواحل لأنهم قادرون على التوجه في عرض البحار . وكان لديهم البوصلة التي هي اختراع صيني أتى به العرب إلى الغرب منذ القرن الثالث عشر ؛ ومنذ آخر هذا القرن ، فكر إيطالي أن يرفع الإبرة المغناطيسية على محور ويضع الكل في علبة ، وأصبحت البوصلة أداة استعمال سهل . وكان الملاحون عدا ذلك قادرين على تصور ولو بشكل غشيم صورة الأراضي والبحار المعروفة وموقع سفنهم . وفي الواقع ، إن معارف العصر القديم الإغريقي بالرياضيات وعلم الفلك نقلت إلى الغرب منذ القرن الثاني عشر بواسطة العرب . ونظام بطليموس في رسم

الخرائط ، بطليموس العالم الإسكندري الشهير في القرن الثاني ق.م ، قبله پيير دايي الجامعي الباريسي في كتابه (صورة العالم) الذي ألفه في ١٤١٠ م . لقد علم العلم الإغريقي على تعيين موضع نقطة على سطح الكرة الأرضية بواسطة خطوط العرض وخطوط الطول ، وفي الوقت نفسه إعداد أنظمة انعكاس تساعد على تمثيل سطح منحن على سطح مستو . والكرات الأولى صنعت في الغرب ورسمت على سطحها المجموعة المزدوجة لدوائر التحديد ، خطوط الطول وخطوط العرض . وفي آخر القرن الثالث عشر ظهرت الخارطات الأولى التي رسمها الجنويون ؛ وفي القرن الرابع عشر تمت المدرسة الكاتالانية التقاليد الجنوية ورسمت خارطات جميلة مثل الخارطة التي قدمت في ١٣٧٥ م إلى شارل الخامس . وفي القرن التالي اشتغل خريطان ألمانيان عظيمان جيروم منذر ونيقولا بهايم في خدمة ملك البرتغال . وبما أن أسماء الموانئ تكتب عمودياً على السواحل التي يشيرون إلى رسمها ، فإن هذه الخارطات سميت الخارطات المينائية . وأصبح بإمكان الملاحين استعمال خرائط نصفي الكرة الأرضية والخرائط العادية ، لأنهم أصبحوا قادرين على تعيين النقطة أي على تعيين موقع سفنهم . ومن الممكن مع الإسطرلاب قياس ارتفاع كوكب فوق الأفق ، وبالتالي بالرجوع إلى الجداول الفلكية (كالجداول الألفونسية) التي وضعت في قشتالة في القرن الثالث عشر ، حساب مسافة بعد الكوكب عن خط الاستواء .

لقد كانت هذه التقنيات وهذه المعارف منذ زمن طويل تحت تصرف ملاحي الغرب كله . فكيف إذن الإيضاح بأن هذه الوسائل الجديدة المقدمة للملاحة لم تستخدم قبل القرن الخامس عشر ؟ ومن جهة أخرى ، إن المشاريع الجديدة في الأطلسي كانت في بدايتها من عمل الدولتين الإيبريتين وحدهما وبخاصة البرتغال ؟ ذلك لأن الغربيين لم يفيدوا من هذا التقدم لمجابهة البحار المجهولة إلا عندما مست الحاجة ودفعتهم بشكل حازم . لقد كانت البرتغال ، من

بين جميع بلاد الغرب ، أحد البلاد التي شعرت أكثر من غيرها بضرورة الانطلاق على الطرق الجديدة ، وفي الوقت نفسه كانت المملكة التي تتمتع بظروف مواتية لمحاولة المغامرة .

البرتغال أول مستفيد من هذه الظروف

في أصل الاكتشافات الكبرى ، يبدو أن البواعث الاقتصادية كانت قاطعة وجازمة . إن حصر الارتباطات مع الأتراك من أجل تجارة التوابل ، من قبل البندقية وفلورنسا ، دفع المنافسين البائسين من المدينتين التاجرتين إلى البحث عن طرق أخرى للوصول إلى البلاد المنتجة لهذه السلع . وكالبلاد الأخرى ، كانت البرتغال في هذه الحالة . كما أن نقص الذهب دفع الغربيين أيضاً إلى الاستيلاء على مصادر المعدن الثمين ، في السودان التي يأتي منها كميات ضعيفة من الذهب تصل بطريق إفريقية الشمالية وشبه الجزيرة الإيبرية إلى أوربة . وكان البرتغاليون كسائر الغربيين بحاجة ملحة إلى الذهب . ولكن موقعهم الجغرافي يضعهم بشكل أفضل من غيرهم قادرين على تحويل تيار الذهب السوداني لصالح طريق أطلسي يكون لهم فيه الحصر . وأخيراً ، إن التوسع ضرورة حياتية للبرتغال ، فهو بلد صغير لم يحظ بإنعام الطبيعة ، ويشكو من عجز دائم في الحبوب . وهو بحاجة للحصول على أراضي للحنطة وبسط سطح الصيد أيضاً . وإلى الأسباب الاقتصادية تضاف أيضاً العوامل الدينية . ففي الغرب كله أخذ المسيحيون بتقدم المسلمين الأتراك وتطلعوا إلى منازعتهم . وتوجد أسطورة تصنع من (الكاهن جان) سيد إمبراطورية مسيحية غنية في قلب إفريقية ؛ وحضت المشروع الذي يشق بمقتضاه طريق يؤدي إليه ، لإبرام حلف معه للتغلب على الأتراك . ولكن لتحقيق هذا المشروع الوهمي ، كان يعوز العواهل والمؤمنين حماسة الصليبيين الأوائل . ولم تنجح جهود البابوية لإعداد حملة لهذا الغرض ، لأن الإمبراطورية البيزنطية في نظر غالبية الغربيين تمثل عالماً بعيداً وأجنبياً ومصيره يختلف عن

مصيرهم . وبالمقابل لم ينقطع النضال ضد المسلمين بالنسبة لسكان شبه الجزيرة الأيبرية ، لانتزاع التراب القومي من أيديهم . إن الخطر الإسلامي الذي ظهر عند تدخل المرابطين والموحدين في إسبانيا ظل واقعاً ملحاً ولدفع التهديد لماذا لا يعبر في هجمة الاسترداد مضيق جبل طارق ؟

إن الأوربيين ، وبخاصة البرتغال ، كانت لهم في القرن الخامس عشر أسباب واضحة للقيام برحلات استكشافية . وتجمعت ظروف مادية وسياسية شجعت مشاريع هذا البلد الأخير . أولاً موقعه الجغرافي . فهذه المملكة الصغيرة من الفلاحين والصيادين ترى في القرن الخامس عشر أن توسعها القاري تحده قشتالة . لذا كان من الطبيعي أن يتحول نحو المحيط الذي ينفتح عليه بواجهة بحرية عريضة ؛ كما أن قرب إفريقية يغري بحملة نحو الجنوب . ولعبت أيضاً لصالح البرتغال عوامل اقتصادية وتقنية . فقد كانوا يتصرفون في الواقع ببحرية ممتازة . والبرتغاليون أنفسهم بحارة مجربون . وفي القرن الرابع عشر بسطوا سطح ملاحتهم حتى بحر الشمال . وفي القرن التالي نفذوا إلى البحر المتوسط . ولكن البورجوازية البرتغالية لم يكن عندها ما يكفي من رؤوس الأموال لتمول بنفسها وحدها توسعاً تجارياً عظيماً . ولذا كان خط البرتغال في إقامة رجال أعمال إيطاليين ، جنويين بخاصة حذفهم من البحر المتوسط الغربي البنادقة والفلورنسيون الذين يستخدمون البرتغال لنقل نشاطاتهم إلى الغرب . فمن ذلك أن شركات إيطالية استثمرت الثروات الطبيعية في البلاد ، الفلين على سبيل المثال ، وأقرضت المال إلى الملك وبخاصة استأجرت عمائر لتجارة الشمال أو البحر المتوسط . وأخيراً ، إن هذه الكفاءات القومية والأجنبية استخدمتها الأسرة الملكية نفسها التي تدفع الزخم الحاسم ، وتترأس حركة التوسع . لقد كان العاهلان البرتغاليان إدوارد الأول (١٤٣٣ ـ ١٤٣٨ م) وألفونس الخامس الإفريقي (١٤٣٨ ـ ١٤٨١ م) يهتمان شخصياً بالشؤون البحرية ، وفي رحابها الملاحية في

نهر التاج ، أنشأ أسطولاً من السفن التي تسير بالقلاع والمجاديف وأسهما في شركات تجارية . وإلى جانب الملوك لعب الأبناء ، أبناؤهم دوراً هاماً : وأشهرهم هنري الملاح الأخ الثاني للملك إدوارد الأول . وكان هذا الأمير المثقف يهتم معاً بمعاودة النضال ضد الإسلام وتأسيس عظمة بلاده الاقتصادية ، وذلك بأن يؤمن لها الذهب والتوابل وحقول الحبوب . ففي لاغوس مقامه الاعتيادي ، أو في منطقة رأس سان فنسان ، حيث يقيم أحياناً ، جمع الوثائق الضرورية لرحلات الاكتشافات ، وجمع خارطات جنوية وكتلانية ، وأقام مراسلة أتبعت بعلماء وفلكيين من مختلف بلاد أوربة ؛ وأخذ مذكرات عن النتائج التي أتت بها الحملات التي أطلقت على البحر . ومن جهة أخرى ، أخذ لخدمته أو مصلحته ملاحين وتجاراً إيطاليين حسنوا له سفن الاكتشاف السهلة التشغيل عوضاً عن السفن الثقيلة الجنوية المخصصة لنقل البضائع . وسفن الاكتشاف هذه هي الكراقيل ، السفن السريعة والصغيرة السعة .

لقد اتجه التوسع البرتغالي شطر إفريقية . ففي الحملات العسكرية وجد أبناء الطبقة النبيلة الفقيرة ممن أتوا بعد البكر ما يشغلهم ، وتوالت الاكتشافات السلمية . بدأ البرتغاليون في مطلع القرن يهتمون بمراكش الغنية بالحنطة والتي تفيد موانئها منافذ لذهب السودان (الغربي) . وأفادوا من ضعف السلالة المرينية وأطلقوا أول حملة على سبته على شاطئ مضيق جبل طارق (١٤١٥ م) . وفي ١٤٣٧ م ، أخذ فرديناند ، أخو هنري الملاح ، أسيراً في فاس ومات بعد أن تحمل آلاماً شاقة ، وبهذا أخذ اسم الإبن المقدس ، ولكن وكالات تأسست في صافي وفي أنفا ، وفي ١٤٧١ م أخذت طنجة أخيراً . وفي الوقت نفسه بدأ الملاحون البرتغاليون يتقدمون في أرخبيلات الأطلسي وعلى طول الشواطئ الإفريقية : في ١٤١٩ م ، اكتشفت جزر ماديرا ؛ وفي السنتين التاليتين (١٤٢٤ ـ ١٤٢٥ م) حاول البرتغاليون أن يوطدوا مواقعهم على شواطئ جزر كناري التي لم يحتلها

القشتاليون بعد . ولكن قشتالة خصت نفسها بكل جزر كناري في مجمع بال في ١٤٣٤ م ، وبين ١٤٤١ و ١٤٤٥ م استطلع مونيو تريستاو تباعاً الرأس الأبيض قبل قرن . ثم بدأ الاكتشاف البطيء للسواحل الإفريقية : وبالرغم من الأساطير التي ترعب الملاحين ، وبالرغم من خسارة سفن في العواصف ، ساعدت كل رحلة على الذهاب إلى أبعد من قبل نحو الجنوب فقد تم تجاوز رأس بوغادور في ١٤٣٤ م ، وبين ١٤٤١ و ١٤٤٥ م استصلح مونيو تريستاو تباعاً الرأس الأبيض والرأس الأخضر . وفي ١٤٤٦ م اكتشف بارتلمي دياز أفواه نهر السنغال وكان أول ملاح دخل مباشرة بتماس مع العالم الأسود . وبارك البابا نيقولا الخامس تقدمه بنشر مرسوم يعهد به إلى ملك البرتغال حصر وكالات إفريقية الغربية . وعند موت الأمير هنري ١٤٦٠ م ، صوقب خليج غينه ، ثم اجتيز خط الاستواء (١٤٧١ م) . وفي ١٤٨٠ م بلغ بارتلمي دياز أقصى إفريقية الجنوبي وأطلق عليه اسم (رأس الرجاء الصالح) . وبعد اثني عشر عاماً طاف فاسكو دو غاما حول الرأس واستطاع بلوغ الهند مباشرة .

كانت نتائج هذه الرحلات البرتغالية مزدوجة : ففي الحاضر المباشر ساعدت على استغلال الأرخبيلات والأراضي التي عرفت لصالح البرتغال . ففي جزر آصور أغنى البرتغاليون زراعة القمح ؛ وفي ماديره غرسوا الكرمة وقصب السكر . ومنذ ١٤٧٢ م انطلقت أول قافلة سكر إلى الفلاندر . وكانت الوكالات التجارية في غينة في أيدي (شركة لاغوس) التي تأسست في ١٤٤٤ م ؛ وبين مراكش وجزر آصور التي تجهز الوطن الأم بالقمح والخيول ، كانت البرتغال تقدم المنسوجات ومواد الجلد . وغينة ، التي تجهز بالذهب ، والعبيد ، والتوابل ، نظمت الشركة نوعاً من تجارة (ثلاثية) أمنت ، بفضل موارد متممة ، الازدهار البرتغالي . وهذا هو الاستثمار الاستعماري الحديث مع ما يتممه تجارة الزنوج الذين يباعون في لاغوس أو في لشبونة .

إسبانيا تنطلق على طريق المحيط

وبعد ذلك حملت الاكتشافات البرتغالية ثماراً أخرى . فقد تكشف الطريق الجديد نحو الهند وتوابلها على أنه أعلى من طريق المتوسط . لأن المرور (الترانزيت) الصعب براً حتى الإسكندرية والرسوم المقتطعة في المرور من قبل الأتراك تجعله غير سهل ، غير مريح ، ولأن التوابل تصل بكمية كبيرة إلى الأسواق الأوربية . إن البحث عن طريق من جهة الغرب ، وهو مشروع جاء متأخراً لحساب إسبانيا ، لم يؤد إلى نتائج ملموسة إلا ببطء . نشأ المشروع من متابعة أخطاء ظهرت في آخر الأمر سعيدة . الأول ، الخطأ الذي ارتكبه جغرافي معاصر لبطليموس وهو مارن الصوري الذي قصر بشكل عظيم في تمثيله للعالم المسافة التي تفصل أوربة الغربية والصين ، ولم يضع بينهما غير محيط أطلسي ضيق . والخطأ الثاني ، هو خطأ كريستوف كولومب الذي وثق بهذه المعطيات وباشر الوصول إلى آسيا عن طريق المحيط الأطلسي . كان كريستوف ابن حائك جنوي ، وعامل سابق لأصحاب مصارف في مدينته ، عرض مشروعه أولاً على ملك البرتغال ، ومن بعد على هنري السادس ملك إنكلترا ، ولكن دون نجاح . وفي ١٤٨٦ م ، لاقى من الملكين الكاثوليكيين أفضل ترحيب . وفي ١٤٩١ م سمحت له إيزابل بتشكيل أسطول صغير من ثلاث كراقيل . انطلق من قادس في ٣ آب ١٤٩٢ م باتجاه الغرب . وفي ١٣ تشرين الأول بلغ كولومب إحدى جزر باهاما . وبعد أن زار كوبا قفل راجعاً ومقتنعاً بأنه لامس جزراً مجاورة للصين . ودون أن يعلم ، اكتشف قارة جديدة : أمريكا .

لقد فتحت المشاريع الأيبرية لأوربة الحديثة عوالم جديدة للفتح والاستغلال .

وهكذا نرى أن أوربة تحولت تماماً في آخر العصر الوسيط :

في الشرق ، كانت الدولة العثمانية في عز توسعها ، والإمبراطورية البيزنطية والممالك البلقانية (بلغاريا ، صربيا) تحيا حياة وقف التنفيذ . أما روسيا الموسكوفية فقد تحررت من سيادة المغول وتهيأت لقبول الإرث البيزنطي ، بينما اتحدت بولونيا بليتوانيا وألفتا مع هونغاريا حصناً أمامياً للمسيحية الرومانية تجاه تقدم الأتراك .

وفي أوربة الوسطى ، تخلت الإمبراطورية ، كالبابوية ، عن الحلم القديم للسيطرة على العالم . ولم يبلغ تجميع الأراضي ، الذي تحقق لصالح بعض الإمارات ، نهايته . وظلت شبه الجزيرة الإيطالية شهيدة التجزئة ، وعرضة لطمع الممالك المجاورة . وألمانيا لم تكن إلا تعبيراً جغرافياً . لقد تفتتت فيها القوة السياسية بين العديد من الإمارات الصغيرة والمدن المستقلة . ومع ذلك ، بدأت بعض البيوت الأميرية ، كبيت آل هابسبورغ ، تثبت سلطتها .

وأخيراً ، أخذت أوربة الغربية صورتها الحديثة : ففي شبه الجزيرة الأيبرية ، عندما وحدت قشتالة وأراغونة مصيرهما ، وفي إنكلترا بعد هزات حرب الوردتين الفظيعة بين آل يورك وآل لانكاستر ؛ وفي فرنسا ، حيث استطاع لويس الحادي عشر دفع الخطر البورغوني ، أنجز العواهل تنظيم دولهم بجمع الطاقات القومية حولهم .

الفصل العاشر

التطلعات الجديدة

الإنسانية والنهضة

إن الاكتشافات الكبرى التي تطبع آخر العصر الوسيط هي أيضاً اكتشافات الفكر والذوق : وهذه التطلعات الجديدة جذبت الأفكار المثقفة نحو طرق جديدة ، طرق الأدب الإنساني (الإنسانية) والنهضة .

بقاء التقاليد الفكرية والفنية

ومع ذلك لم تكن القطيعة مع الماضي فظة . فما زال التقليد يحافظ في القرن الخامس عشر على سيطرته الكبرى على الأفئدة والنفوس . ويتمثل أولاً بالكنيسة عدوة كل تجديد . وفي الحقيقة ، لقد ارتفعت في داخلها انتقادات عنيفة ضد المساوئ والمفاسد التي تشوه صورتها : كالوظائف الكنسية التي يتنازع في التعيين لها العواهل والبابا والهيئات الانتخابية ، حتى أصبحت رهان الأطماع المادية لأبناء الطبقة النبيلة من غير البكور أو المجازين من الجامعة الباحثين عن أسباب حياتهم ؛ أو غياب الأحبار بل وحتى الكهان الذين يراكمون عدة وظائف في آن واحد ويعيشون بعيداً عن رعاياهم بزهو كثرة الإنفاق ؛ واضطراب الحياة الديرانية في أنظمة تضنيها خلافات داخلية خطيرة ؛ وضعف التعليم اللاهوتي الذي تعطيه الجامعات ؛ والتقوى الغشيمة الفجة والباطلة عند المؤمنين الذين أسيء تأطيرهم بـ (طبقة كادحة إكليركية) من الوكلاء الذين يساء دفع أجورهم ، أو هم جهلة أو فاجرون . وفي الحقيقة ، إن التطلعات إلى إصلاح الكنيسة لم تنطفىء

تماماً . فقد ناضل بعض رجال النخبة للإتيان بأدوية لهذه الآلام . وبمساندة شارل السابع أعدّ الكاردينال ديستوڤيل إصلاحاً للامتحانات ؛ وجان بوربون ، أب كلوني (١٤٥٦ ـ ١٤٨٥ م) حاول إصلاح نظامه ؛ وجان ستاندوك ، أحد ممثلي التقوى الحديثة أخذ على عاتقه الكلية (مدرسة ثانوية) المدمرة في مونتيغو التي أصبح رئيسها (مديرها) وفرض فيها نظاماً دقيقاً شديداً واستقبل فيها الطلاب الفقراء . ولكن هذه الجهود المبعثرة والمتقطعة لا تعطي إلا نتائج دون غد . لأن الجمود يغلب عند من يمكنهم التحريك أو القيام بإصلاح شامل : من أحبار أغنياء ، وعواهل راضين عن أنهم انتزعوا من البابوية كونكوردات تساعدهم على بسط سيطرتهم على كنيسة مملكتهم . والجميع يخشون تحويلاً للكنيسة يهدد فوائدهم وامتيازاتهم . وأخيراً إن البابوية غير قادرة على أن تترأس إصلاحاً . لقد خرجت ضعيفة من محنة الحيدة الكبرى ، واقتصر بابوات النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، أمام المزاعم المتعاظمة للدول الحديثة ، على صيانة ماتبقى من سلطة حبرية ، وصيانة مصالحهم الزمنية في إيطاليا . ومن جهة أخرى ، إن شخصية أواخر أحبار العصر الوسيط لم تكن أهلاً لرفع الجاه الروحي والأخلاقي للكرسي الأقدس . فقد افتضح ألكسندر السادس بورجيا ، المنتخب في ١٤٩٢ م بلا أخلاقية حياته الخاصة وبالمحسوبية التي يمارسها لصالح أقربائه ومقربيه . ومثل هؤلاء الأحبار لا يمكنهم ولا يريدون أن يستجيبوا لتطلعات بعض المؤمنين .

وتحت مؤشر التقليد يدخل أيضاً جزء كبير من الإنتاج الأدبي والفني . فقد أنهت اللغات العامية تطورها البطيء . وأعطى تقدم اللغة الفرنسية وتوحيدها أفضل مثال : وإذا بقي التمييز بين لغة الشمال (الدويل) ولغة الجنوب (الدوك) ، فإن أدب الدوك لم ينتج مطلقاً أعمالاً كبرى . وفي مدن جنوبي فرنسا تبنى المجتمع المثقف لغة الشمال ؛ وكذلك كومين ، رغم أنه فلامندي الأصل ، استعمل في

مؤلفاته لغة إيل ـ دو ـ فرانس . وإن ظفر اللغة الفرنسية ، التي بسطت لفظها ، وانتظم نحوها ، هيأ ولا شك لجمهور أعرض النهضة الأدبية في القرن السادس عشر . ولكن في الحاضر المباشر ، بقي أدب النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، وفياً للأغراض التقليدية . وبالرغم من عودة السلام والازدهار ، فما زال الطالع التشاؤمي مستحكماً . فنحو ١٤٦٥ م ، أصدر رفيق سابق لجان دارك ، واسمه جان دو بويْ رواية سيرة ذاتية (الشاب) تصف بواقعية مصائب الحرب . وفكرة الموت المستحوذة والفساد اللذين يكرس لهما الجسد لم تزل . وهذا هو الغرض المألوف عند أكبر شعراء ذلك العصر وهو فرانسوا ڤيلّون . وهذا الطالب من أصل متواضع الذي اختلف غالباً في زمن (شبابه المجنون) إلى أماكن السوء كما اختلف إلى دروس كلية الفنون حيث قبل أستاذاً في ١٤٥٢ م . هذا الغلام السيء كان طوراً وطوراً لصاً ، وطفيلياً على حساب امرأة عامة ، وقاتلاً ، هذا المحكوم عليه سابقاً بالموت ، ولكن عفي عنه ، وغاب ، في ١٤٦٣ م ، دون أن يترك أثراً ، وجد ، في تجربته الأليمة للحياة والشر ، نغمات مؤثرة تذكر بالواقع المفجع للوجود الإنساني . ومع فيلّون بلغ الشعر الغنائي إحدى قممه .

وربما ، كرد فعل ضد هذا الوسواس بالموت ، ظهرت عودة إلى روح الفروسية وإلى الحب المهذب . وحاول الأمراء إحياء تقليد الفرسان الشجعان بالإكثار من المباريات ، وأوجدوا نظماً جديدة . وعدلت أغاني الملاحم القديمة ، وأغنيت بتوسيعات جديدة ، وأخرجت نثراً ، وألفت قصصاً كانت لذائذ للمجتمع الناعم المصفى .

غير أن العقل الرشيد الصلب للبورجوازية لا يمكن أن يتكيف مع هذا المثل الأعلى الذي عفى عليه الزمن . فمن أجل جمهور بورجوازي ، يرى أن قصة جهان دو سنتريه هجاء لقصة فروسية تخرج شاباً نبيلاً في خدمة أمير يطوف العالم من

أجل حب جميلته ، بقربها أباتي سمين يأخذ مكانه دون جهد . وإثر ترجمة بوكاشيو من قبل لوران دو بروميرفيه عرف (جنس) القصة نجاحاً كبيراً ، وأفضل مثال على ذلك هو (**مئة قصة جديدة**) . وانتصر الفكر الإيجابي (الوضعي) للبورجوازية في أوصاف دون زينة وتكلف للمؤرخ كومين (١٤٤٧ ـ ١٥١١ م) الذي يبحث عن تحديد وتعيين أسباب الحوادث ، وإيجاد بواعث الأمراء والملوك . ونجح بخاصة في مسرح الملهاة (الكوميديا) : من ذلك جنود مثل الأطفال دون اكتراث بباريس يمثلون مسرحية هزلية مضحكة وحماقات ، مثل هزلية الأستاذ (المحامي باثولن) التي أبدعت نحو ١٤٥٤ م ، وهي وصف تهكمي للخداع العام الدنيء .

والفن الغوطي ، بعد أن بدا أنه ضعف في القرن الرابع عشر ، عرف في القرن التالي تجديداً حقيقياً في **الأسلوب الوهاج** . وفرض نفسه وقاوم الموضات الجديدة خلال أكثر من مئة وخمسين عاماً بفضل اختراعات وبحوث مستمرة جددت شباب العبقرية الغوطية .

ولكن تجديد الأشكال كان عاماً . فالدعائم ذات الحروف الحادة تصعد حتى القبة في البناء دون أن تنقطع بتيجان ؛ والقباب تثقل بتعاريق (زخارف ناتئة كالعروق) إضافية ، مضلعات القبة وأضلاع العقد (في القبة الغوطية) ، ترسم نجوماً أو وروداً . والواجهات تغطى بنقوش منحوتة وسدائل (ما يرخى من السقف على شكل المظلة ويجلس الملك تحته) وذرى (مسلات البناء الغوطي) ودرابزين خفيفة وجبهات مثلثية تتوج باب الكنيسة فتحول الأجزاء العليا إلى دنتللا من الحجر (تخاريم) . وقد انتصر الفن الوهاج في كنيسة السيدة في مدينة إيبين بالقرب من شالون / على المارن ، وفي سان ـ ريكيه ، وفي بو ، وتغلغل في ألمانيا ، في أولم وأرفورت ، ونورامبرغ ؛ وفي إنكلترا تحت الاسم (الأسلوب العامودي) بدا أنه أقل تواشجاً وأكثر تجريداً (عراء) كما في كنيسة هنري السابع

في وستمنستر . وفي هذه الكنـائس تخلـد التماثيل الجنـائزيـة المسجـاة على القبور ، والتماثيل التي لا عد لها من الحجر أو الخشب ، نماذج أنواع فن التمثال الغوطي ، كما تخلد مدرسة سيين أو مدرسة إسبانيا فن الرسم .

ولذا فإن التقاليد الفكرية والفنية للعصر الوسيـط كانت أبعـد من أن تكرس لزوال فج ، وتجاوزت الخـط الفـاصل الـذي وضعـه المؤرخون بين العصر الوسيـط والعصور الحديثة . وهي تملك أحياناً في ذاتها ، كما هي حالة الفن الغوطي ، قدرة إبداع وتجديد تساعدهـا على الخلود حتى في عز قلب القرن السـادس عشر . ولكن المستقبـل لم يكن هنـا ، إنـه في أشكال جــديــدة للفكر والحس ظهرت في القرن الخامس عشر تحت اسم : **الإنسانية والنهضة .**

الإنسانية

إن نمو الأفكار الجديدة التي أطلق عليها اسم (الإنسانيـة) يتضح بمنـاخ ملائم للتخمر الفكري . ففيه ردت الفلسفة المـدرسيـة (السكولاستيكيـة) إلى ريـاضـة لفظية ورتيبة ، وتزعزعت فلسفة توماس الاكويني بالنقد الأوكامي (بالنسبـة إلى غليوم أوكام) . ولم ترض كل هـذه الأفكار ، وتركت المجـال رحبـاً أمـام الأبحـاث الجديدة . لقد ظهرت رحلات الاكتشـاف ، ونشطت حب الاطلاع الفكري بعـد أن استيقظ بتماسه مع عوالم مجهولـة . وأخيراً ، على الصعيـد المـادي ، شجع التطور السياسي والاجتماعي نشـاط المفكرين . وكان العواهل وأمراء القرن الخـامس عشر أغنيـاء وأقـويـاء ، وفي الغـالب مثقفين ويحبـون أن يحـاطـوا بـالأدبـاء والكتـاب ويـأخـذوا وجـه حمـاة لرجـال الآداب والفنـون بحمايتهم وتـأمين عيشهم . وكانت الأبحاث الجديدة تعدّ وتهيأ أحياناً في ظل الجامعـات التقليـديـة ، ولكنهـا نمت في الغـالب في الأكاديميـات والحلقـات التي تضم علمـاء وأمراء وكبـار البورجوازيين . وكانت إيطاليا في قمة ازدهارها الاقتصادي الذي شهد كثرة البلاطات الأميريـة ، وقدمت الأمثلة الكثيرة من هـذه الحمـايـة . لقـد كانت الثقـافـة تشريفـاً في بلاط

الأمراء الصغار مثل فريديريك دو مونتفلتره في أوربينو أو آل إيست في فراره ، وفي بلاط آل ميديتشي في فلورنسا . وأعطى كوزم ميديتشي لابنه لوران أفضل أساتذة إيطاليا المعاصرين : بكشي ، أرجيروبولوس علمه الإغريقية ، ومارسيل فيتشينو الفلسفة الأفلاطونية . وجذب لوران بدوره إلى فلورنسا الأدباء الإيطاليين مثل آنج بوليسين أو لاندنيو ، وألجأ في مدينته كارجّي الأكاديمية الأفلاطونية التي أحياها مارسيل فيتشينو . وكذلك حمى أحبار النصف الثاني من القرن الخامس عشر الإنسانيين : فقد أعاد نيقولا الخامس (١٤٤٧ ـ ١٤٥٥ م) تنظيم جامعة روما ودعا إليها مشاهير الإنسانيين مثل لوران فاللا وتيؤدور دو غازا . وهو الذي أنشأ (مكتبة الفاتيكان) التي كانت تضم عند وفاته ما يقرب من ألف كتاب . وأخيراً أمر بترجمة آثار إغريقية إلى اللاتينية . وبيوس الثاني كان نفسه إنسانياً . ثم سيكست الرابع . وقد أتم هذان الأخيران عمل نيقولا الخامس . ودعا سيكست الرابع أرجيروبولوس ليدرس في جامعة روما ، وأنمى مكتبة الفاتيكان بشكل عظيم ، وأنشأ مصلحة للإعارة ، وشجع على انتشار الأعمال النادرة غالباً . وفي ألمانيا ، كانت المدن التاجرة التي تضم أغنى البورجوازية ، نورمبرغ ، أوغسبورغ ، في القرن الخامس عشر ، مراكز كبرى للنشاط الفكري الجديد .

إن قضية أصول الإنسانية مرتبطة بشكل وثيق بتعريف حركة الفكر هذه . فقد جرت الفكرة على أن الإنسانية نشأت من (اكتشاف جديد) للأدب القديم ، أو ، حسب إيضاح أقل إجمالاً ، من معرفة مؤلفي العصر القديم الكلاسيكي الذين ظلوا حتى ذلك الحين مجهولين ، كبعض الأدباء اللاتين مثل شيشيرون ، لوكريس ، وسينيك ولا سيما الإغريق . إن مجيء عدة علماء إغريق إلى إيطاليا في القرن الخامس عشر مثل لاسكاريس أو بسّاريون ، الذين طردهم الفتح التركي من القسطنطينية وأتوا ومعهم مخطوطات ثمينة ، أعطى الثقة لهذه النظرية . وفي

الحقيقة ، إن هؤلاء الأدباء أسهموا في الحركة الإنسانية ، ولكنهم ليسوا مؤلفيها . إن دراسة العصر الوسيط تدل على أن هذه القرون التي وصفت على عجل بالبربرية ، كان يغذيها الفكر القديم . وإذا قُبل تعريف الإنسانية بأنها اكتشاف العصر القديم فيجب إرجاع (نهضة القرن الثاني عشر) ، وحتى النهضة الكارولنجية ، بداية هذه الحركة . وبين فكر أكليركيي القرن التاسع والقرن الثاني عشر وفكر إنساني القرن الخامس عشر توجد هوّة . وفي الحقيقة ، ليست معرفة كمية كبرى من الآثار اللاتينية والإغريقية هي التي تميز الإنساني . إنها موقف جديد إزاء التراث القديم . وبالنسبة لأساتذة وطلاب العصر الوسيط ، أخذت نصوص العصر القديم طابعاً مقدساً وظهرت كأنواع من الخوارق ويجب محاولة فهم معناها السري . ويقتضي العمل البحث عن الحقيقة المحتواة في النص كما نقلتها الرواية مع الاقتصار على تفسير يحترم ودون الرجوع إلى الواقع الماضي أو المعاصر . أما موقف الإنسانيين فمختلف جداً . إن الحماسة للقديم لم تخنق فيهم روح الفحص . وإن احترام فكر المؤلف يثير بالعكس فيهم مطالب نقد لغوي : ففي أصل الإنسانية يوضع أولاً الشعور بنقصان ، عدم كمال ، النصوص التي نقلتها الأجيال العديدة من الناسخين . لقد أدخل هؤلاء شروحاً ، وصححوا بجرأة أو عن غير وعي كل مالم يفهموه . وعليه فإن أول عمل للإنساني هو أن يعيد النصوص المشوهة بجمع أكثر عدد ممكن من نسخ المؤلف نفسه لتحذف منه الأخطاء بالمقارنة . ومن بعد الاطمئنان عن معنى الكلمات ، وبخاصة تعابير مجموعة المفردات الإغريقية وذلك بسؤال الفقهاء البيزنطيين بشكل لا يمل ولا يكل . وعندئذ فقط يصبح من الممكن محاولة فهم فكر المؤلف . وفي هذه المرحلة ، تدخل في أعمال الإنسانيين اهتمامات النقد التاريخي . لقد كفَّ الإنسانيون عن اعتبار المؤلفين القدامى ، وبخاصة أرسطو ، (حيوانهم الأسود) ، كهواتف غيبية ، وسلطات معصومة لمعاملتهم مفكرين كالآخرين ، أي محددين بالعصر والمجتمع الذي كانوا يعيشون فيه ، وأنهم أهل لأن يخدعوا أو يجهلوا بعض

القضايا . وهكذا فإن المؤلفين المعروفين أفضل من غيرهم في العصر الوسيط ، مثل فيرجيل أو أرسطو ، قد اكتشفهم من جديد الإنسانيون الذين يضعون آثارهم في ظرفهم الحقيقي . إن فكرة عالم ثابت ، غير تاريخي أوحى به المنطق الأرسطاطاليسي ، قد دفعت ، لأن المعرفة ليست كشفاً (وحياً) يعبر عنه مرة واحدة من فم هاتف غيبي . إنها فتح تدريجي تقدمي للفكر الإنساني .

هذا وتشرح طرق العمل ، التي أوضحها الإنسانيون ، الاتجاهات الأساسية لتفكيرهم . وهم أعداء المذاهب الفلسفية ، ولا يزعمون أن يبنوا (كاتدرائية أفكار) تنظم وتحبس ، في مجموعة نظام منطقي مقرر مسبقاً ، الكون كله وتخضع كل بحث إلى لاهوت مفترض مسبقاً . وهذا الموقف وكرههم لأرسطو يساعدان ، في الصعيد الفلسفي ، على فهم تفضيلهم لأفلاطون الذي يضعونه في مركز ثقافتهم : فعوضاً عن الكتب الأرسطاطاليسية القاسية الصلبة يفضلون أسلوب الفكر الأفلاطوني المرن الذي يعبر ، في جدل الحوارات عن تناقضات الواقع . ومن جهة أخرى ، إن اكتشافهم للواقع القديم هو اكتشاف للإنسان في بحثه عن المعرفة والحقيقة . ولذلك فإن الإنسان و (العلوم الإنسانية) ، على عكس اللاهوت ، الذي هو علم الخلود الإلّهي ، في مركز اهتمامات هؤلاء الفقهاء الذين يسمون بشكل دقيق (إنسانيين) .

وبتواضع ، يتصور الإنسانيون إذن تحقيقات محسوسة وواضحة في مضمار العلوم الأخلاقية (المعنوية) أولاً ؛ ومن الملاحظ أن كثيراً منهم يقومون ، إلى جانب الأعمال اللغوية صرفاً ، بعمل المؤرخين : فمن ذلك أن ليؤناردو بروني (١٣٧٠ ـ ١٤٤٤ م) مؤلف (تاريخ فلورنسا) يمكن أن يعتبر ، بصحة طريقته ، أنه أول مؤرخ حديث . والمعروف أكثر منه ماكياڤيللي (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧ م) الذي حلل في كتابه (الأمير) بكل برودة علمية ، حيث نُظر عن خطأ ، وعن عدم تبصر ، « كيف تكتسب إمارة ، وكيف يحافظ عليها ،

وكيف تفقد » . واهتم الإنسانيون بعلوم الطبيعة ؛ والطريقة النقدية ، التي وضحوها لدراسة النصوص ولدراسة المدينة الإنسانية ، ليست غريبة عن النجاحات التي سيعرفها البحث العلمي في القرن السادس عشر .

ليس فقط في هذه الإنسانية التي اكتشفوها مع حدودها ، ولكن أيضاً مع إمكانيات تحسينها وكمالها وتفتحها ، وثق الإنسانيون بها ثقة عظيمة . والإنسان الذي يفهمونه ويتصورونه ليس وضيعاً أمام الله ، ساقطاً بذنبه الأصلي ، ولكنه قادر على النضال ضد مصابه والظفر عليه بفضيلته .

والإنسان بقدرته على الإبداع ليس كائناً ساقطاً ، وإنما هو صورة عن الله . وبتنمية جميع قدراته يتقرب من النموذج الخالد الذي خلق عليه .

وظهر مثل أعلى إنساني جديد بعيد جداً عن مفاهيم العصر الوسيط في الخضوع والخنوع . فهل هذا يعني أن الإنسانيين هراطقة ؟ لقد ظل معظمهم مسيحيين متحمسين يحترمون تعاليم الكنيسة ، ويأبون على أنفسهم معالجة القضايا الميتافيزيكية (ما وراء الطبيعة) التي لاتستطيع التجربة عليها أن تعلمهم . وموقفهم موقف تواضع وليس موقفاً لا دينياً . وكان بعضهم ، وبخاصة مارسيل فيتشينو ، يعون التناقضات التي تقوم بين إيمانهم ومفهوم الإنسان ، ويحاولون أن يوفقوا ويوحدوا الوثنية القديمة والفكر المسيحي . ولكن هؤلاء الفقهاء اللغويين وصل بهم الأمر حتماً إلى معالجة النصوص المقدسة بنفس الشكل الذي عالجوا به المؤلفين الدنيويين ، رغبة منهم في إرجاع مظهرها الأصلي . ومع الزمن ، أعدّ هذا الفكر النقدي حرية عقيدة البروتستانتية وعدم الإيمان اللاديني . ولكنه لم يكن موضع بحث بعد في آخر القرن الخامس عشر .

وكانت إيطاليا وطن الإنسانية كما كانت إغريقية وطن الفكر القديم : ولكن من إيطاليا ، حيث نشأ الفكر الجديد ونما ، وصل البلاد الأخرى ، ولا سيما

فرنسا وألمانيا ، فقد عرفت فرنسا من قبل في القرن الرابع عشر ، تحت التأثير الإيطالي (إنسانية أولى) اشتهرت برجال مثل : نيقولا دو كلامانج ، وبيير كول ، وغونتيه كول . ولكن بعد ١٤٥٠ م فقط عادت الحركة إلى باريس : ففي ١٤٥٨ م ، أخذ غريغوار دو سيتا دي كاستيلّو كرسي الإغريقية في الجامعة ؛ وفي ١٤٥١ م ، دخل إلى السوربون السافو ياردي غليوم فيشه الذي ألف (فن الفصاحة) الحماسية . وتابع عمله فلاماندي وهو : روبير غاغن . وهكذا تألفت في العاصمة الفرنسية جماعة من أصدقاء الآداب القديمة وتستقبل إيطاليين أو إغريق مثل جورج هرمونيم . وفي هذا الوسط تثقف كبار الإنسانيين الذين شرفوا مطالع القرن التالي : كالفرنسيين جاك لوفيفر ديتابل وتلميذه غليوم بوديه ، والهولاندي إرزموس الذي تابع في ١٤٩٥ م دروس كلية مونتيغو . وفي ألمانيا تألفت أيضاً مراكز للفكر الجديد : في نورامبرغ ، حيث يشتغل إلى جانب رسامي الخرائط مثل مارتن بهين ، إنسانيون مثل بيرهايمر ؛ وفي أوغسبورغ حيث يعيش الإنساني بوتنغر .

وهذا الانتشار للإنسانية ، في بلاد جديدة وفي أوساط أكثر سعة ، خدم باختراع المطبعة . وقد أعدت هذه بتقدم صناعة الورق ، لأن الرق لا يكون رقيقاً بشكل كافٍ ولا مرناً أيضاً للمرور في مكابس المطبعة . والورق اختراع صيني نقله العرب إلى الغرب وظل حتى القرن الخامس عشر إنتاجاً نادراً ومكلفاً . وكان ثخيناً وخشناً ويمتص الحبر وتنقصه المتانة . وفي القرن الخامس عشر كثر الاستعمال الزائد للباس الجسم من القماش والنمو المتعلق بزراعة الكتان والقنب ، وكثرت الخرق البالية التي جهزت معامل الورق بمادة أولية من أفضل نوعية . وفي أيطاليا بخاصة ، في فابريانو ، تحسنت التقنيات ، وحلت مطرقة الخشب محل حجر الطاحون ، وفتتت بقوة أكثر الخرق من الأقمشة الرديئة . وتطلب التصنيع النهائي الهلام الحيواني الذي يعطي للورق رقة ونعومة وصقلاً . وانتعشت صناعة

الورق على أيدي تقنيين إيطاليين وانتشرت في كل أوربة : في الشامبانيا ، في الأوفيرن ، في المنطقة البارزية ، في رينانيا . ومهارة الصناع تضمن نوعية الإنتاج الذي يكلف أربع أو خمس مرات أقل من كلفة الرق . وأعدّ ورق الطباعة . وعلى هذا الورق تبنيت أولاً طريقة الطباعة بالأحرف الخشبية أو الألواح الخشبية (الكسيلوغرافيا) المطبقة سابقاً على المنسوجات وتساعد على إنتاج صور تجمع في كتيبات . ونحو ١٤١٨ م ، ظهرت في البلاد المنخفضة الطباعة الخشبية لإيضاحات محفورة على خشب وضعت على هامش هذه الصور . وبصورة موازية لهذه البحوث في الطباعة الخشبية وجد مخترعون آخرون ، ومن بينهم بخاصة جواهريون ، يحاولون إيجاد طريقة أكثر مرونة لطباعة نصوص طويلة . ومع الأحرف المتحركة وجد الحل . وجرت المحاولات الأولى في ستراسبورغ في ١٤٣٩ م ، وفي هولاندة في ١٤٤٠ م ، وفي آفنيون في ١٤٤٥ م . ثم وضح الاختراع ونقح على يد جان غوتنبرغ في مشغله في مدينة ماينس (١٤٥٠ ـ ١٤٥٥ م) . وتحسن أيضاً وتكامل في ماينس على يد پيير شيفر : ففي قالب يمثل في حفر رموز الكتابة ، يصهر القصدير أو الرصاص . والحروف المصنوعة على هذا الشكل ، المجموعة في أشكال لتأليف النص المراد نسخه ، تدهن بحبر أسود كثيف ؛ وبواسطة مكبس ، تترك انطباعها على الورق ؛ وباعتبارها متحركة ، يمكن استعمالها من جديد بتركيب وطباعة نصوص أخرى .

ومن بعد انتشرت المطبعة في البلاد الأوربية الأخرى . وهكذا في فرنسا ، في ١٤٥٨ م ، أرسل شارل السابع إلى ماينس ، للتجسس على الصناعة الجديدة سكاك النقد في باريس ، نيقولا جانسون الذي استقر فيما بعد طباعاً في البندقية . ولكن النساخ الفرنسيين كانوا معادين لهذا الاختراع الذي يخاطر بخراب نشاطهم . وفي ١٤٦٣ م ، طردوا من باريس روست المانيسي الذي جاء إليها ليعرض الكتاب المقدس مطبوعاً . ومع ذلك ، في ١٤٧٠ م ، فإن الألماني جان

هيلن قيم مكتبة الصوربون والساڤواردي غليوم فيشه الأستاذ في الجامعة ، فرضا المطبعة بوضع ثلاثة حرفيين ألمانيين في الكلية . ثم ظهر طباعون باريزيون مثل باسكيه بونوم الذي طبع في ١٤٧٧ م أول كتاب باللغة الفرنسية وهو (التقاويم الفرنسية الكبرى) . وفي ليون ، في ١٤٧٣ م استقر الليجي غليوم برسي الذي نشر ترجمة فرنسية (للأسطورة الذهبية) (١٤٧٦ م) . وتشجعت الصناعة الجديدة بلويس الحادي عشر الذي استخدم الطريقة الجديدة لنشر نص معاهدة سانليس (١٤٨٢ م) . ونمت في ليون ، التي كانت ، بيئة مشغل للطباعة ، أول مركز فرنسي في آخر القرن . كما انتشرت في تولوز وألبي . وفي خارج فرنسا ، أصبحت بال ، أنفرس ، والبندقية بخاصة ، مراكز كبرى للطباعة الأوربية . وفي هذه المدينة الأخيرة استقر في ١٤٨٩ م مؤسس سلالة الطباعين الكبرى ، آلد مانوتشه . فقد أبدع هذا الفقيه مطبعة خرجت منها روائع نموذجية للطباعة . واخترع الحرف المائل . وبادئ بدء استعملت المطبعة لنشر مؤلفات تقية ، ومن بعد ، ظهرت أفضل وسيلة لتقدم التعليم ونشر الأفكار الجديدة .

نهضة الفنون

في الوقت الذي انتشرت فيه الثقافة الإنسانية بالكتاب الجديد ، كان الفنانون العديدون ، ولا سيما في إيطاليا ، يكثرون الآثار الفنية المستوحاة من علم جمال جديد ، علم جمال النهضة . وكانت الروابط وثيقة بين هاتين الظاهرتين للعبقرية الإيطالية . وهذا الفن ، الذي ازدهر في إيطاليا ، وانتشر في أوربة كلها ، يعرف أولاً ، هو أيضاً ، بطابعه الإنساني العميق . فبينما كان بناة العصور السابقة يوجهون أنظارهم نحو مدينة الله ليأتوا منها بقبس وانعكاس ، كان مبدعو الفن الجديد يشتغلون لمدينة الناس . وآثارهم : من قصور ، وفرسكات ، ولوحات كانت زينة فخمة في الحياة الدنيا . وهذا لا يعني أن تفتح الفن الدنيوي أدى إلى زوال الفن المقدس . فقد شيدت كنائس بعدد عظيم ، وأوحت

الموضوعات الدينية للرسامين والنحاتين عن سعة . ولكن العمائر المقدسة لم تكن هرباً هائماً لصور بناء نحو السماء . وبتوازن حجومها التي تعتمد بصورة صلبة على الأرض ، تكون على قدر الإنسان . ففي المشاهد الدينية الممثلة ، يرى الإنسان بعواطفه وتطلعاته في الصعيد الأول . وفن النهضة إنساني لأنه ، كما هو ، صنع للناس ، ولأنه ثروتهم . ودور الحماية أهم أيضاً في مضمار الفنون مما هو في مضمار الثقافة . فقد كان الحماة يشجعون ويسهلون ، بمساعدتهم المادية ، عمل المثقفين ، ويستطيعون أحياناً توجيهه بإيحاءاتهم . وبالمقابل ، يفرضون برامج بناء على المهندسين المعماريين ويعينون بطلباتهم الموضوعات التي يجب على الرسامين والنحاتين معالجتها . وحرية الفنان تبقى كاملة في أسلوب معالجة الغرض المقترح . ولكن الأثر يظل مطبوعاً غالباً بطابع شخصية من طلبه . وفي الغالب يرى أن الأمراء أنفسهم يحمون الفنانين والإنسانيين ، في إيطاليا بخاصة . ففي فلورنسا ، كان كوزم ميديتشي يسر بجمع المداليات والأواني القديمة ، ويحيط نفسه بفنانين ، مثل برونيللسشي ودوناتيللو ، ويقدم إليهم طلبات ؛ وشغل لوران العظيم فيروكيو وبوتيشيللي . وفي روما ، عهد البابا نيقولا الخامس إلى المهندس المعماري الكبير ألبرتي تنفيذ مشروع واسع لتعمير كنيسة القديس بطرس وقصر الفاتيكان . غير أن وفاة البابا قبل الأوان أدى إلى وقف هذه الأعمال ، ولم تستأنف إلا في القرن السادس عشر . ودعا أوجين الخامس إلى روما فرا أنجيليكو ليزين له القابلة (الكنيسة الصغيرة) ، المسماة قابلة نيقولا ، بفرسكات تحكي بالتفصيل أدوار حياة القديس إيتين وحياة القديس لوران . وسلك سيكست الرابع الطريق نفسه . وأمر بتشييد القابلة التي تحمل لذكراه اسم سيستين (قابللا سيستينا) وبدأ بتزيينها فنانون توسكانيون مثل بوتيشيللي وغيرلاندايو ، أو أومبري (من أومبري) مثل البيروجي ، مثلوا على الجدران الجانبية ، بمجموعتين متوازيتين ، مشاهد تذكر بحياة موسى وحياة يسوع ، حسب برنامج حدده سيكست الرابع نفسه . وروما أيضاً مدينة لمبادهة هذا البابا باني كنيسة

(القديسة مارية السلام) وكنيسة القديسة ـ مارية ـ الشعب ؛ وإلى مبادهة كرادلته أيضاً لبناء قصر البندقية وقصر الإدارة . ولم تكن فلورنسا وروما المركزين الوحيدين للنهضة الإيطالية . فقد كان آل ڤيسكونتي في ميلانو ، وآل غونزاغ في مانتو ، وآل إيسته في فرارة ، وآل مونتوفيلتره في أوربينو ، والطاغية مالاتيستا في ريميني . وكانت الأسر النبيلة الكبرى في البندقية تتنافس بحرارة لجذب الفنانين ليخلعوا بآيات فنهم على دارات هذه الأسر كل رونق وجمال وإشراق تزيد من قدراتها . ولم يكن الولع بالفن الجديد وقفاً على الأمراء وأصحاب المصارف الإيطاليين : إن عدداً عظيماً من لوحات المدرسة الفلاماندية أو الرينانية مدينة بوجودها إلى طلبات نبلاء أو تجار البلاد المنخفضة وألمانيا . وارتبطت البلاطات الفرنسية أيضاً بفنانين : ففي مختلف ممتلكاته ، في آنجو ، كما في البروفانس ، كان الملك رونيه نفسه رساماً وهاوية للرسم الفلاماندي وعاش حياة فنية نشيطة . وفي الدومين الملكي طلب جاك كور إنشاء قصره الفخم في بروج ، واستوحى تزيينه منه وكسف نوعاً ما الملك . ولكن الفنانين في آخر الحكم تكاثروا حول شارل السابع . واستقبل هذا الملك في بلاطه بخاصة الرسام التورانجي جان فوكيه الذي نفذ صورة شخصية له وصورة شخصية لحظيته آنيس سوريل . ولكن البلاط المشرق أكثر من غيره كان بلاط ديجون : فقد أتى أدواق بورغونيا ، الذين قلدهم موظفوهم مثل نيقولا رولن ، وفيليب پوت ، إلى بلاطاتهم من ممتلكاتهم في البلاد المنخفضة بجهاز كامل من النحاتين والرسامين ، ومنهم الهولاندي كلاوس سلوتر ليشتغل في ضريح فيليب الجريء ، والرسامين الفلاماندين جان ڤان آيك وروجه ڤان درڤيدن .

والفن الجديد أخيراً إنساني بعمق لأن إعجاب المعاصرين ، فيما وراء الأثر ، يذهب إلى الفنان الذي أبدعه . وفي مجتمع القرن الخامس عشر يتمتع الفنانون باعتبار جديد : لأن نشاطهم ينفصل بوضوح عن نشاط الحرفيين . وقوة إبداعهم

في نظر الإنسانيين دليل على عظمة الإنسان . يضعه مساوياً للملائكة ، كما كتب جيانوزّو مانيتيّ وشبه إله حسب مارسيل فيتشينو . ولذا كان الفنانون يعيشون في دالّة الأمراء ، الذين يتشرفون بصداقتهم . لقد وهبتهم السماء عبقرية ، فهم أبطال المجتمع الجدد . وبقدر المساعدة المادية التي يتقبلونها ، يشجع الاعتبار ، الذي هم موضعه ، تفتح شخصيتهم والتعبير عن هذه الشخصية في آثارهم .

وعلى مثال الإنسانيين ، كان المهندسون المعماريون والرسامون والنحاتون في القرن الخامس عشر يهوون القديم . والإيطاليون بخاصة يرغبون بالتالي ، ربط تجربة العصر الوسيط مع الفن القديم ؛ وفي هذا الرجوع إلى الأصول ، يفكرون بإيجاد التعبير عن عبقريتهم الخاصة المتحررة من التأثيرات الأجنبية ، التي انتصر بها الفن الغوطي ، في رأيهم . وهذا هو القصد من النهضة . واتجه الفنانون إلى مدرسة أعمال الماضي الإغريقي ولا سيما الروماني ، وذهب برونيللسشي ودوناتللو معاً يدرسان الأوابد القديمة في روما . ومانتينيا فعل الشيء نفسه في جوار البندقية . وأكب المهندسون المعماريون على قراءة فيتروف المهندس المعماري الروماني . ودرس النحاتون دون إبطاء المجموعات القديمة التي جمعها حماة الفن ، وحلم الرسامون بمساواة آپيل وزوكسيس ، هذين الساحرين الإغريقيين اللذين يخدعان النظر برسومهما . وهكذا فإن تأثير الدرس القديم يقرأ تقريباً في كل ظواهر الفن . وبنى المهندسون المعماريون أبنية من الآجر وغطوها من الخارج بغطاء من الرخام أو من الحجر ؛ ومن الداخل بالرخام أو الجص المخلوط بطحون الرخام أو بالرسوم الجدارية (الفرسكات) . ولتغطية الأبنية استعملوا الطاق (على شكل عريش الكرمة المحدب) أو القباب من الآجر المتلاصق باللياط (المونة) أي خليط الرمل والكلس ؛ أو أخفوا السطح المصنوع من القرميد بطابق نهائي يعتمد على طنف أو بدرابزين بغية الإيحاء بفكرة سطح . والتمس تركيب الواجهات النظم القديمة ، ولعب بالأعمدة والدعائم (العضادات) المزدانة

بـالزخـارف أو المقنـاة والملتصقـة بجـدار البنـاء . وعلت الجبهـات المثلثـة النوافـذ والبوابات ، مع طنف يإفريز قصير في قمـة الأبنيـة . وفي النحت شـدد على النقش الكامل البروز . وتحررت التماثيل من العبودية التي فرضهـا الإطـار المعماري عليهـا وتصورها تبعاً له ، وعبرت عما لم يعبر عنـه منـذ عهـد الإغريق : وهو التعبير عن الجسم البشري بكامل مرونته . وكان رمز هذا التجديد تمثال الطاغية غـاتـاميلاتـا الذي نحته دوناتيللو ومثله فيه وهو ممتط صهوة الجواد ، وكان أول تمثـال من هـذا النوع منذ العصر القديم . وعلى مثال النحاتين بدأ الرسامون يعرون الجسم البشري ليـدرسـوا فيـه العنـاصر الشكليـة ، حتى أن بعضهم ، مثـل بـوتيشللي ، عـالجـوا موضوعات من وحي وثني صراحة .

وتحت تأثير الإنسـانيـة ، كان فن النهضـة فنـاً عـالمـاً أو بـالأحرى فن علمـاء وفقهـاء متبحرين . لأن الفنـانين لم يكتفوا بـالاقتبـاس عن الروائـع القـديمـة علم تركيب الأشكال التي يكيفونها بحرية حسب عبقريتهم ، وإنما كانوا يتساءلون عن مبادئ فنهم نفسها ، ويفكرون ملياً بتركيب روائعهم . وتفكيرهم هـذا يقربهم من الإنسانيين الذين تربطهم بهم في الغالب روابط صداقة . وكان عند بعضهم صوفيـة أشكال تمت بصلة إلى الأفلاطونية ـ الحديثة عند مارسيل فيتشينو . وهكذا ينتقل الفن من التجربة إلى العلم . وكان ليون باتيستـا ألبرتي (١٤١٠ ـ ١٤٧٢ م) نموذج هؤلاء الفنانين النظريين : فهو كمهندس معماري نشر مؤلفات حاسمـة في الرسم وفي النحت ، وأخيراً مؤلفـاً عظيمـاً في البنـاء (١٤٦٠ ـ ١٤٧٢ م) متكيفـاً بحريـة مع فيتروف . وكتب النحـات غيبرتي نفسـه أيضـاً تفسيرات وشروح لفنـه . والرسـام بيير ديلـلا فرانشيسكا حرر مـؤلفـاً مطـولاً في رسم (المنظـور) وانصرف بـاؤلـو أوتشيللو دون نهاية إلى بحوث ريـاضيـات وصفيـة . ودوّنَ ليؤنـاردو دو فنشي في (دفاتره) أسرار علمـه . وظهرت نتيجـة هـذه البحوث في الآثـار المعماريـة بـادئ بدء : وذلك أن إيقاع المكان يحصل عليه بالهندسة لا بالحدس ، وأن نسبـة أعضـاء

البنـاء محسوبـة بشكل عضوي وعـام ، تسهمان في إعطـاء قصور وكنـائس النهضـة توازناً وبساطة تبلغان الكمال . وفي الوقت نفسه فتح فن الرسم المكان : وذلـك أن رسم (المنظور) الذي يضع الأشخاص والأشياء حسب قياس نسب كبرهـا ، يوهم بـالعمـق ؛ وينفـذ إلى الخلفيـات التي ظلت زمنـاً طـويـلاً مـذهبـة أو مـوشـاة . وأصبحت اللوحة منذ الآن نافذة مفتوحة على عالم بثلاثة أبعـاد . وفي كل مـا يعبر بقوة في العمل الفني للحجوم ، يسهم تقـدم العلـوم التشريحيـة فيما يتعلـق بـالجسم البشري : فقـد أعطي تشريـح الجثث الرسـامين كالنحـاتين معرفـة عميقـة بعلم التشريح البشري . وكما كان الإنسانيون بالنسبة للمطبعة ، كان عند هؤلاء الفنانين العلماء أيضاً تذوق شديد جداً للإمكانيات التي تقدمها اكتشافات الثقافـة . وأخـذ الرسـامون يستعملـون أكثر فـأكثر الرسم بـالـزيت الـذي حسنـه وكمّلـه الأَخَـوان ڤان أيك والذي أعطى للّون شفافية ظلت مجهولة حتى ذلك الحين . وساعد تقدم صهر الصفر (البرونز = خليطة النحاس والقصدير) غيبرتي على إنجـاز منحوتـاتـه لأبواب كنيسة المعمودية في فلورنسا ، ودوناتيللو على سبـك تمـاثيلـه العظيمـة التي تـدعـو إلى الإعجـاب . وبفضـل تحسين البرنيـق (طـلاء صيني لامـع يطلى بـه) استطاع لوقا دللا روبيـا أن يتخصص في صنع الخزف المختلف الألوان . ولؤنـاردو دو فنشي الرسام والمهندس والميكانيكي ، ألقاب أمكنه أن يفتخر بهـا عنـدمـا قـدم إلى دوق ميلانـو ، جمـع في شخصـه الفنـان والتقني . إلا أن المثـل الأعلى الإنسـاني يجحد كل تخصص ويرمي بالعكس إلى تفتح جميع المواهب الموجودة في الإنسـان . إن مهندساً معمارياً يدون كتاباً مطولاً في الفلسفة ، ورسامـاً يخترع آلـة حربيـة ، وأميراً يتـداول قلم المصور والريشـة بموهبـة ، لم يكونوا في ذلـك العصر أعجب من فنان قادر على أن يعبر عن نفسه أيضـاً في الرسم والنحت والبنـاء ؛ وحتى عنـدمـا لا يمتاز مبدعو القرن الخامس عشر إلا في صعيـد واحـد ، يعرفون كيف يفيـدون درساً من كل التجارب . ولا يعلم أبداً ولا شك ، على سبيل المثال ، كل ما يـدين به الرسم الحديث إلى النحت في اكتشافه للجمال .

إن حب القديم ، وتمجيد الإنسان ، وتذوق العلم ، كل هذا يسهم قطعاً في أن يجعل من الفن الجديد موضة تعبير ، لا عن أحوال النفس الداخلية ، وإنما ، بالعكس ، عن الواقع الخارجي . والرسم أكثر من كل شيء آخر ، لأنه يعتمد في الانطلاق على تقليد يدل على هذا الطابع الواقعي . وبفضل اختراع المنظور يرد إلى المجتمع صورة عالم بدئ بتمثيله عموماً في كرويته ، ثم أخذ الرحالة يجوبونه في كل الاتجاهات . وأناب التزيين المحسوس للحياة اليومية عوضاً عن التزيين المجرد للخلفيات الذهبية . فمن ذلك تلك المسافات الواسعة عن الريف التي تنفتح في خلفية اللوحات . وغزز الرسامون مسندهم على الساحات أو في شوارع مدينتهم . حتى أن نظرهم كان ينفذ إلى داخل المنازل التي يصفها الفنانون الهولانديون بدقة . وفي وسط هذه المناظر الواقعية ، يضعون صورة الناس الذين يؤكدون أنفسهم باعتبارهم أفراداً ، ويريدون أن يكونوا معروفين . وهكذا نهض فن رسم الأشخاص في الوقت الذي نهض فيه فن رسم المناظر .

وكانت الفلاندر مع جان ڤان آيك وروجه ڤان در ڤيدن وإيطاليا المجذوبة في ثلم التجربة الفلورنسية ، المركزين الهامين للفن الجديد . وأقيمت بينهما علاقات ترمز لها في منتصف القرن رحلة ڤان در ڤيدن إلى فراره . وفي منتصف طريق المناطق الفلاماندية والإيطالية كانت فرنسا أرض لقاء . وهكذا استيقظت أوربة كلها تدريجياً لهذه النهضة التي ستتفتح في القرن التالي .

أسماء الأعلام الأجنبية

القسم الأول

A

آبيفيل	Abbeville
أكايي	Achaïe
آنيس دو ميران	Agnès de Meran
ايغ ـ مورت	Aigues-Mortes
آلاشان	Alachan
الأرك	Alacros
البرت الدب	Albert L'Ours
الكسندر دو هاليس	Alexandre de Halès
أموري	Amaury
أمْيَنْ	Amiens
اناكليت الثاني	Anaclet II
انغكور	Angkor
أنانيي	Anany
آنجو	Anjou
اكويلا	Aquila
آرل (مدينة)	Arles
أرنود دو بريشيا	Arnaude de Brescia
أرّاس	Arras
ايميري دو بيغيلهان	Aimeric de Peguilhan
آرتوا	Artois
أرثور	Arthur
جان آزين	Jean Asen
آستي	Asti
اوبنتون	Aubenton
اومال	Aumale
اوني	Aunis
أوڤيرني	Auvergne
اوسكولتا فيلي (مرسوم بابوي)	Ausculta Fili
اوڤيرني	Auvergne
أڤرانشْ	Avranches
الطاي (التاي)	Altaï

B

باداجوز (بطليوس)	Badajoz
باكوفو	Bakufu
بامبرغ	Bamberg
باروا (إقليم)	Barrois (le)
بارباروسا، فريديريك الأول	Barbarousse
بار ـ على ـ اوب	Bar-Sur-Aube
بينيڤنت	Bénévent
بنوا دوسان مور	Benoît de St-Maure
بانوكورن	Bannockurn
بايون	Bayon
بيارن إقليم في جبال البرانس وعاصمته پو Pau	Bearn
بياتريس	Béatrice
بون	Beaune

بيكيت، توماس	Becket (Thomas)
باجة	Beja
بيناريس	Benarès
برنارد دو كانتاڤال	Bernard de Quintavalle
برنارد دانهالت	Bernard dAnhalt
برّي	Berry
بيتون	Bethune
بيزيه	Béziers
برجر	Birger
بيشيو	Bischio
البوغوميليون (هراطقة مانويون)	Bogomiles
بيتينيا	Bithynie
بوالو (ايتين)	Boileau (Etienne)
بوانبروك (جان)	Boinebroke (Jean)
بوليسلاف بوش تورس	Boleslaw Bauche Torse
بولوني (مدينة في إيطاليا)	Bologne
بوردو	Bordeaux
بوذا الرحيم	Boudha Aida
بولون (في فرنسا)	Boulogne
بوڤين	Bouvines
بري	Brie
بوف	Boves
بروج (ميناء)	Bruges
برنسويك	Brunswick
بوشيدو	Bushido
برغش	Burgos

C

كيْفا	Caïffa
شالوكيا	Chalukya
سيفالو	Cefalu
كاد (غليوم)	Cade
كافّا	Caffa
كاهورسي	Cahorsin
قلعة أيوب	Catalayub
قلعة رباح	Calatra
كاليكست	Calixte
كانوسّا	Canossa
كاستيلنو	Castelnau
شامپا (مملكة)	Champa
الكاتاري (الهرطقي)	Cathare
الكاتارية (هرطقة)	Catharisme (le)
شالوس	Chalus
شانسي	Chan-Si
شاؤ يونغ	Chao-Yong
تشيابو	Cimabue
الكلاريسات	Clarisses (les)
شومون	Chaumont
شييري	Chieri
سيليستَنْ الثالث	Celestin III
كريتين دو تروا	Chretien de troyes
مؤلف رواية إيڤان Yvain (١١٧٢)	
شومون	Chaumont
شونو (الأب)	Chenu
سيتو	Cîteaux
مدينة في الكوت- دور (بورغونيا) في فرنسا أسس فيها روبرت دو موليسم في ١٠٩٨ طائفة رهبانية وإليها نسب النظام الديري السيسترسي Cistercien	
كلارندون	Clarendon
كليريسي لايكوس	Cléricis laïcos

(مرسوم بابوي) في ١٢٩٦

شينون Chinon

شيڤا Çiva

كولونّا (آل) Colonna (les)

كومپاناجيوم Companagium

(الخبازون)، بائعو الخبز

كونان Conan

اسم أربعة أدواق في بروتـانيـا في العصر الوسيـط

(القرن العاشر- الثاني عشر)

كونوي (معاهدة في ١٢٧٧) Conway

كونستانسْ Constance

كوربيْ Corbeil

كورسيلّ Courcelles

كورتريه Courtrai

پيير كورتنيه Courtenay (Pierre)

پيترو دو كريسانتزي Crescenzi (Pietro

كريسپن (آل) Crespin

أسرة في أراس

قونقة Cuenca

البلاط الملكي Curia regis

نهر قره صو (سيدنوس) Cydnus (le)

D

داي-ڤيت Daï-Viet

دامّ Damme

داندولو Dandolo

ديميتريزا Démetriza

دييغو Diego

جاغاتاي Djagatay

جيبه Djébé

جوتشي Djoutchi

جورتشيت Djurtchet (les)

دومفرون Domfront

دومينيك دو غوزمان Dominique de Guzman

دوويه Douai

دوكتشيو Duccio

دونز سكوت Duns Scot

دورو Duro

دروقة Duroca

دورازّو Durazzo

E

آيك فون ريبغاو Eike Von Repgau

ايلي ELY

مدينة في بريطانيا - العظمى

انغيرّان دو مارينـي Enguerrand de Marigng

ايسترامادور (الجوف) Estramadoure

ايتينْ لانغتون Etienne Langton

اوجين الثالث Eugène III

يابرة Evora

F

فلاندر Flandre

فوا Foix

فولكونغ، سلالة Folkung

فوكين Fou Kien

فرانشيسكو دي برناردون

Francesco di Bernardon

فريجوس Frejus

فريسكو بالدي (آل) Les Frescobaldi

فريتيڤال Frétéval

فوجيوارا (حزب) Fujiwara

G

غايار (قصر) Gaillard
غايّون Gaillon
غاند Gand
غانجايكانداشولابوران Gangeikandacholapuram
جان دو غارلاند Garlande (Yean)
غوتيه دو ني Gautier d Aunay
الوثنيون Gentils (les)
جيرون Gérone
جوڤروا دو مونموث Geoffroi de Monmouth
جوفروا دو فيلهاردُوَن Geoffray de Villehardouin
غريغوار Grégoire
جيلسون Gilson
الجيبيليين Gibelins (les)
جيوڤاني ڤيلاني Giovanni Villani
غوليه Goulet
غراسيان Gratien
غيدو كاڤالكانتي Guido Cavalcanti
غريندور دو دوويه Graindor de Douai
غليوم البروتاني Guillaume de Breton
غليوم دو نوغاريه Guillaume de Nogaret
غويّنّ (لا) Guyenne (la)
غي دو دامپيير Gui de Dampierre
غليوم دو بويلورنس Guillaume de Puylaurens

H

هاكون الرابع Haakon IV
هانْسْ Hans
هيان Heian
هنري دو بابنبرغ Henri de Babenberg
هنري فوسيون Henri Focillon
هنري راسْپ Henri Raspe
هَسدَنْ Hesdin
هولشتاين Holstein
هونانْ Honan
هويسالا Hoysala
هوغ الأسمر دو لوزينيان كونت المارْشْ Hugues le Brun de Lusignan
هوبرت غوتيه Hubert Gautier
هُغولن Hugolin

I

ايزيدور Isidore
ايزامبور Isambour
اينوسان Innocent
ايڤانويه Ivanhoé

J

جان دو غارلاند Jean de Garlande
جاك دو مولي Jacques de Molay
جان الثالث ڤاتاتزيس Jean III Vatatzès
جاك دو ڤوراجين Jacques de Voragine
جاك ڤيتري Jacques Vitry
جيم الأول Jaime per
جاياڤارمان Jayavarman
جوانڤيل Joinville
جون پيكام John Peckam

K

كانا Kana (les)
كاي فونغ K ai Fong
كانوج Kanauj

كان ـ سو	Kan-Sau
كاڤيري (نهر)	Kaviri
كيرالا	Kerala
كاراكيتاي	Kara Kitay
كاراكوروم	Karakorum
كيرييت اونغوت	Kereyt Oengut
خانباليك	Khanbalik
كيتان	K I-Tan
خيطان	Khitan
كن	Kin
كوبيلاي	Koubilay
كرا (برزخ)	Kra
كوامو	Kuammue
كولْمْ	Kulm
كتب مينار	Kutub Minar
كيوتو	Kyoto

L

لاكوپو تورّيتي	Lacopo Torriti
لاني ـعلى ـ المارن	Lagny-sur-Marne
لاروش أوموان	Laroche-Aux-Moines
لاميلوريا	Lameloria
لاسْ فورميغاس	Las Formaiguas
لاس ناڤاس دو تولوزا (العقاب)	Las Navas de Tolosa
لاڤور (قصر)	Lavaur
ليكلوز	L Ecluse
مدينة في هولندة وتسمى أيضاً (سيويس)	Siuis
ليستر	Leicester
ليوويلين	Llewelyn
ليويس	Lewes
لي (قانون الطبيعة)	Li
لينغا	Linga
لونغ تسيوان	Long Tsiuan
لُبيك	Lübeck
لوك (مدينة)	Lucques
ليون التاسع	Léon IX
ليونين	Leonin
ليموزَنْ	Limousin
ليزيو	Lisieux
ليپاري (جزر)	Lipari
لوثير الثالث	Lothaire III
لوثير دو زوبلنبرغ	Lothaire de Supplenburg
لوزاس	Lusace

M

مادهڤا	Madhva
مين	Maine
ماغنوس	Magnus
مانفرد	Manfred
مانو	Manou
ماريا دوتراستيڤيريه	Maria de Trastevere
ماري فرانسا	Marie de France
مارتن الرابع	Martin IV
ملفي	Melfi
ميشليه	Michelet
ميكلامبورغ	Mecklembourg
مينام (وادي)	Menam
مركيت	Merkit
مسّينا	Messine
مينا موتو	Minamoto

موهَيَنْ	Mohien
مونغكا	Mongka
مونرياله	Monreale
مونس -أن- پيڤيل	Mons - en - Pévèle
مونبيليه	Montpellier
مونفوكون	Montfaucon
موروزيني (توماس)	Morosini (Thomas)
مورتن	Mortain
مورتيمر	Mortimer
مورانو	Murano
موستشياتو	Musciatto
ميزيا	Mysie

N

نايمان	Naïman
نارا	Nara
نياميا	Neamia
نوڤير	Nevers
نيشيرن	Nicheren
نورثامبتون	Northampton

O

الاوبودريت	Obodrites
اوغوداي	Ogoday
العقد	Ogive
اويرات	Oïrat
اونون (نهر)	Onon
اوبوس ماجوس	Opus Majus
اوسما	Osma
اوتاكار	Otakar
اوتون دولاروش	Othon de la Roche
أويغور	Ouïgour

P

پالا (آل)	Pala (les)
پانديا	Pandya
الباتاريون	Patarins (les)
البرسڤال أو قصة غرال	Perceval Graal
بيريغور	Perigord
بيروتَنْ	Perotin
بيروز أو فيروز	Perouse
بوتي- كوڤيللي (كنيسة)	Petit-Quevilly
پيير دولا بوسْ	Pierre de la Bosse
پير (القديسون)	Pir (les)
پيير فلوتْ	Pierre Flotte
نيقولا پيزانو	Nicolas Pisano
فيليپ اوغست	Philippe Auguste
فيليپ الطيب	Philippe le bel
فيليپ هوربل	Philippe Hurpel
پيير دو تارانتيز	Pierre de Tarentaise
بيترو كاڤالاني	Pietro Cavallani
فوسيه أو (فوقيه) مدينة في آسيا الصغرى	Phocée
پيستويا	Pistoia
پواسّي	Poissy
بواتو	Poitou
البولاب	Polabe (les)
پوميرانيا	Pomeranie (la)
الخارطات البحرية الأولى	Les portulans
البريمونتريون	Prémontrés (les)

نظام الكهنة القانونيين أسسه القديس نوربير Norbert في ١١٢٠ في بريمونتريه

ويخضع لقاعدة القديس اغسطينوس	
بروفنْ (مدينة)	Provins

Q

القفجاق	Qiptchag
كيرسي	Quercy

R

راجاراجا	Rajaraja
رامير الأول	Ramire per
رامسي	Ramsey
رامايانا كامبار	Ramayna de Kambar
رايخشتاغ	Reichstag
رَنْسْ	Reims
روسّ (نهر)	Reuss
روڤال	Reval
ملك الرومانيين	Rex Romanorum
روبير بروس	Robert Bruce
روبير دو كلاري	Robert de Clari
روبن هود	Robin Hood
ريازان	Riazan
رودريغ دياز دو بيڤار	Rodrigue Diaz de Bivar
ريكاردي (آل)	Les Ricardi
ريغا	Riga
رومانيو	Romagne
روانْ	Rouen
رونيميد	Runnymead
روتبوف	Rutebeuf

S

سال (زاله)	Saale
الزلاقة	Sagrajas
سَنْتْ	Saintes
سن- إيڤ	St-Ives
سان- دوني	St-Denis
سن- بوتولف	St-Botolph
سان- فيليكس دو- كارامان	St-Felix-de-Caraman
سن- جرمن- دي- بريه	St-Yermain-des-Prés
سن- غوتار	St-Gottard
الإناء الأقدس	la Sainte Graal
سان جاك كومبوستيل أو سنتياغو أو شنتياقب	St-Jac ques de compostelle
سانش الكبير	Sanche le Grand
سانتونج	Saintonge
شون (الضرائب)	Shoën (les)
سالامنكا	Salamanque
شڤيرين	Schwerin
سي شوناغون	Sei Shonagon
شينران	Shinran
شنتو	Shinto
شڤيتز	Schwyz
الحيدة	Schisme (le)
سكروفيني	Scrovegni
سو- ماكوانغ	Seu-Ma Kouang
شوغون	Shogoun
سيامْ	Siam
سيين	Sienne
سيجيه دو برابان	Siger de Brabant

سي هيا	Si-Hio
سيليزيا	Silesie (la)
سيمون دو مونفور	Simon de Monfort
السورابيون	Sorabes (les)
سوبوتاي	Souboutay
سوزدال	Souzdal
سپير	Spire
سوربون (روبير دو)	Sorbon
سورديل	Sordel
سريفيجيا	Srivijya
ستافورد	Stafford
شتاوفن (آل)	Staufen (les)
ستوكهولم	Stockholm
شتيريا	Styrie
سوجه	Suger
وحدة الآراء	Syncretisme

T

التاجه (نهر)	Tage
التايغا	Taïga
تالياكوزو	Tagliacozzo
تايرا	Taïra
تانغوت	Tangouts
تايْ ـ تسو	Tai-tsu
تانجور (معبد)	Tanjore
تاريمْ	Tarim
تشان	Tchan
تشوكنغ	Tchöking
تيموجين	Temoudjin
تساليا	Thessalic
تشوهي	Tchou-Hi
تيبو الرابع	Thibaut IV
تيبو	Thibaut
توروتْ	Thaurout
توماتْ	Toumat
تورنيه	Tournai
تريڤيز	Trévise
تريستان وإيزوت	Tristan et Iseut
ترواد	Troade
برج نيل	la Tour de Nesle
تروا (مدينة)	Troyes
لا توشيا	la Tuscia

U

اوباي	Ubaye
مسيل في جبال الألب في إقليم بروفانس العليا في فرنسا	
عبيدة	Ubeda
اونترڤالدن	Unterwalden
اوبسالا	Uppsala
اوتولا	Utula

V

ڤالديمار	Valdemar
ڤالانسينْ	Valenciennes
ڤالوا (آل)	Valois (les)
الڤالدية	Valdisme (le)
ڤودوا دو ڤالدانس	Vaudais de Valdenses
ڤود (إقليم)	Vaud
ڤيكسَنْ	Vexin
ڤيغورو دو باكونيا	Vigoureux de Baconia
ڤيزليا	Vezelay
ڤيلار دو هونّكور	Villard de Honnecourt

ڤايكنغ	Viking
لاڤيللت	Villette (la)
ڤانسان دو بوڤيه	Vincent de Beauvais
ڤيوليه ـ لو ـ دوك	Viollet - le - Duc
ڤيرجيلَ	Virgile
ڤيسبي	Visby
ڤلاديمير	Vladimir

W

واس	Wace
ڤاغريَنْ	Wagriens
ڤايبليغنْ	Waibligen
ولتر سكوت	Walter Scot
ولتر دو هنلي	Walter (Henley de)
وانغ ـ نغان ـ شي	Wang - Ngan - Che
ڤارتا	Warta
الولف (أو الغلف)	Welf (les Guelfes)
ڤانسيسلاس	Wenceslas
الڤيند	Wendes (les)
وينشستر	Winchester
ڤيتلسباخ	Wittelsbach
ڤورمس	Worms

Y

يبر	Ypres
يو	Yue

Z

زين (مذهب)	Zen

القسم الثاني

أباغا	Abaga
أكاي	Achaïe
أدّا (نهر)	Adda
آجونيه (إقليم)	**Agenais**
أميريغو مارشيز	Amerigot Marchès
إيكس	Aix
آلن آلبريت	Alain dAlbret
البرتي	Alberti
آلبي	Albi
البريت	**Albret (d')**
البيزي (آل)	Al Bizzi
البورنوز	Albornoz
الكاسوڤاس	Alcaçovas
آلد مانوتشه	Alde Manuce
الجبارّوتا	Aljubarrota
النسون (دوق)	**Alençon (d')**
إيلخان	Ilkhan
المعدن	Almaden
الفونس الرابع	Alphonse IV
الفونس الخامس	Alphonse V
الفونس الشهم	Alphonse le magnanime
أموري دو سيفيراك	Amaury de Sévérac
أمبواز	Amboise
آميديه الثامن	Amedée VIII
نهر سيحون	Amou Daria
أنانيي	**Anagni**
أنكون	Ancône
أندرونيك الثاني	Andronic II
أنجيه	Angers
أنغكور	Angkor
أنغيلاّرا (آل)	Anguillara
شارل دانجو	**Anjou, Charles (d')**
أپيل	Apelle
أبوليه	Apulée
أرجيرو پولوس	Argyropoulos
أرغون	Arghoun
أرنو دو سرڤول	Arnaud de Cervole
أرنولفو دي كامبيو	Arnolfo di Cambio
أرل	Arles
الأرباديون (آل)	Arpadiens (les)
أراس	Arras
أرتا	Arta
الأصناف المهنية	Arti (les)
أزن (آل)	Asen
أسّيز	Assise
أشيكاغا (حزب)	Ashikaga
أتوس (جبل)	Athos

أودينارد	Audenarde
أوريه	Auray
أوسير	Auxerre
آفينيون	Avignon
آيوثيا	Ayuthia
أزيكور (هضبة)	Azicourt

B

بهماني (مملكة)	Bahmani
بال أو بازيل	Bâle
بالو	Balue
برق	Baraq
باربيت	Barbette
باردي	Bardi
باري	Bari
بارنه	Barnet
بارتولوميو كولليوني	Bartolomeo Colleoni
بارتيليمي دياز	Barthelemy Diaz
بارتولوميو پرينيانو	Bartolomeo Prignano
بازين (توماس)	Basin (thomas)
بازا	Baza
بازاديه (إقليم)	Bazadais (le)
بايّو	Bayeux
بوفيه	Beauvais
بيارن	**Béarn**
بوجانسي	Beaugency
بدفورد	Bedford
بيلليني، جانتيل	Bellini, Gentile
بون	Beaune
بيغار	Begards
بيغن	Béguins
بلتران دو لا قويڤا	Beltran de la Cueva
بنوا الحادي عشر	Benoît XI
برغن	Bergen
برنارد السابع	Bernard VII
برنارد دو پوجيه	Bernard de Poujet
برتران دو غيكلن	**Bertrand du Guesclin**
بسّاريون	Bessarion
بيتون	Bethune
بهزاد	Bihzad
بوايانا	Boïana
البويار (الأمراء)	Boïars (les)
بوا - شونو	Bois - Chenu
بوغ	Boug
بونّ دو سافوا	Bonne de Savoie
بولوني	Boulogne
بوتيشيللي	Botticelli
بوسيكو (دو)	Boucicault, de
بورج	Bourges
بوزورث	Bosworth
بورنوف	Bourgneuf
براban	Braban
برّي (منطقة)	Berry
برشيا	Brecia
بريشت	Brest
بروتانيا (إقليم في فرنسا)	**Bretagne (la)**
بريس (منطقة)	Bresse
بريتيني	Brétigny
بريجيت دو سويد	**Brigitte de Suède**

بر يستول	Bristol
بروج	Bruges
برونيللسشي	Brunelleschi
برونكبرغ	Brunkeberg
برونّ	Brünn
برنسويك	Brunswick
بورو دو لا ريڤيير	Bureau de la Rivière

C

كن	Caen
كافّا	Caffa
شاه روخ	Chah Rokh
كاليه	Calais
شامپا	Champa
كاليكست الثالث	Calixte III
كامبر يه	Cambrai
كازيمير الكبير	Casimir le grand
كانتاكوزين (جان)	Cantacuzène (Jean)
كراره	Carrare
كاسْبْ	Caspe
كاستيلّون	Castillon
كاترين دو سيين	Catherine de Sienne
كو (بلاد)	Caux
كالتابللوتا	Caltabelluta
كاريجي	Careggi
كاستروكشيو كاستراكاني	**Castruccio Castracani**
سيفيزوس بيوتيا	Céphisos de Beotie
سرداني (في إسبانيا)	Cerdagne
سيريزي	Cerisy
سرتالدو	Certaldo
سبتة	Ceuta
شاندوس	Chandos
تشوسر	Chaucer
شاريته- على- اللوار	**Charité- Sur- Loire**
شارل دو بلوا	Charles de Blois
شارل أورلئان	**Charles d'Orléans**
شارل الحبيب	Charles le bien-aimé
شارل دورازّو	Charles de Durazzo
شارل موراڤيا	Charles de Moravie
شارل كنت (شارل الخامس)	**Charles - Quint**
شاستيلاّن	Chastellain
شاتونوف- دو- راندون	Chateauneuf- de- Randon
شن- تشيئو	Chen - tcheou
شاي	Chay
شينون	Chinon
كيو (جزيرة)	Chio
شيتور	Chitor
شوانيه	Choinet
كورا (كاهري كامي)	Chora (Kahriye Cami)
كريستيان الأول	**Christien Per**
كريستين دو پيزان	Christine de Pisan
شيڤا	Civa
كلاوس سلوتر	Claus Sluter
كوشرل	Cocherel
كلو دي غاليه	Clos des Galées
كولا دي رينزو	Cola di Rienzo
كولليونه	Colleone
كومينج (كونتية)	Cominges.
كومنين (آل)	Comnenes (les)

كومبين	Compiègne
كونفلان	Conflans
كونتادو	Contado
كونتا فينيسَّانْ	Contat Venaissin
كورون	Coron
مفتش	Corregidor
كورتريه	Courtrai
كوزم	Cosme
كوتنتن	Cotentin
الكورتيس	Cortès (les)
كرافان- على- إيون	Cravan-sur-Youne
كريسي- ان- بونتيو	Crecy-en-Ponthieu
كرين	Creil
كريستوبولوس	Cristoboulos
كيزيك	Cyzique

D

دايميو	Daïmios
دانيل	Daniel
دانتي	Dante
دوفينه (إقليم)	Dauphiné
داكسْ	Dax
دل كامبو	Del Campo
ديكامرون	Decameron
دولاتور لاندري	De la tour Landry
دلفت	Delft
دفنتر	Deventer
جاغاتاي	Djaghataï
ديجون	Dijon
دييبّ	Dieppe
دوني الليبرالي	Denis le liberal
ديميتري دونسكويْ	Dimitri Donskoï
دومريمي	Domrémy
دون (نهر)	Don
دوناتللو	Donatello
دوريا	Doria
موت العذراء (في الليتورجيا القديمة)	Dormition
دوڤر	Douvres
دو غيكلن	Du Guesclin
دوراس = دورازو	Duras
دوشان	Dušan
اوستاش ديشان	Eustache Deschamps

E

ايكاردت	Eckhardt
إدوار بوليول	Edouard Bolléiol
	Elucidarium
انجلبركت انجلبركتسون	Engelbrekt Engelbrektsson
ايبفاني	Epphane
ابيروس	Epire
ارزموس	Erasme
ايرهارد دو ڤورتامبرغ	Erhard du Würtemberg
ايريك بوميرانيا	Erik de Pomeranie
ارفورت	Erfurt
اسبليشين	Esplechin
ايتين مارسيل	Etienne Marcel
اور (نهر)	Eure

اوبيه	Eubée
ايفرو	Evreux
فرديناند دو براغانس	Ferdinand de Bragance
فورميني	Formigny
فرنسوا ڤيلّون	François Villon
فوجر (آل)	Fugger
كتب الصلوات الكنسية	Heures

F

فاليز	Falaise
فيكامب	Fecamp
فرديناند دانتكويرا	Ferdinand dAntequera
فرّان	Ferrand
فيزوليه	Fiesole
فوندي	Fondi
فورميني	Formigny
فوجير	Fougères
فرانسوا سالڤياتي	François Salviati
فرا انجيليكو	Fra Angelico
فرانشيسكو بتراكولو	Francesco Petracolo
فرانشينكو سيبو	Francesco cibo
فرانسوا سفورزا	François Sforza
فرانجيباني (آل)	Frangipani
فرا فيليبوليبي	Fra Filippolippi
فراتيسيلْ	Fraticelles
فرواسّار	Froissart

غيتاني	Gaetani
الجيبيليون	Gibelins
غاليپولي	Gallipoli
غاند	Gand
غاستون فوبوس كونت فوا Foix	Gaston Phocubus
غاتّاميلاتا	Gattamelata
غوتيه أثينة (الأثيني)	**Gauthier d'Athènes**
جوفروا داركور	**Geoffrois d'Arcourt**
غوتيه دو بريين	Gauthier de Brienne
جينابْ	Genappe
الملقب سكاندربغ Skanderbeg	**Georges Castriota**
جورج هرمونيم	Georges Hermonyme
جورج دو بوديبرادي	Georges de Podiebrady
جوفروا دو بوسيكو	Geoffroi de Boucicaut
جيرار دو غروت	Gerard de Groote
جرسون	Gerson
غازان أو قازان	Ghazan
غيبرتي	Ghiberti
غيرلاندايو	Ghirlandaio
جيانوزّو مانيتّي	Gianozzo Manetti
جيَنْ	Gien
جيفري	Givry
جيل الأعمى	**Gilles l'Aveugle**
جيل دوريه	Gille de Rais
جيوڤاني دلله اوبالديني	Giovanni delle ubaldini
غلوستر	Gloucester
غونتيه كول	Gontier Col
غوجرات	Goujerat
غلدر	Gueldre
الغلف (حزب)	Guelfe
غيراند	Guérande
غور- أمير	Gour- Emir

غرابار	Grabar
غراندسون	Grandson
غريغوار سيتا كاستيللو	Grégoire de Cita di Castellu
غرونيڤالد	Grunewald
غليوم برسي	Guillaume Bercy
غليوم بوديه	Guillaume Budé
غليوم فيشه	Guillaume Fichet
غليوم دو دورمان	Guillaume de Dormans
غليوم فرو	Guillaume Frout
غليوم دو ماشو	Guillaume de Machaut
غليوم اوكام	**Guillaume d'Occam**
غليوم ڤاري	Guillaume de Varye
غينيغات	Guinegatte
الغوين (إقليم)	Guyenne
جاك ڤان أرتوفيلد	Jacques Van Artevelde
مانيزي (مدينة)	Magnésie
تيراش	Thierache

H

هابسبورغ (آل)	Habesbourg
حجي بارلاس	Hadji Barlas
هينوت	Hainaut
هانس (آل)	Hans (la)
هارفلور	Harfleur
هدويج	Hedwige
هيلاّد	**Hellade**
هانبون	Hennebond
هنري بوفور	Henri Beaufort
هنري سوزو	Henri Suso
هنري تيودور	Henri Tuder
ثورة البؤس	Herelle (la)
الهندوسية (ديانة)	Hindouisme (l)
هوهنتسولرن (آل)	Hohenzollern
هوجو	Hojo
هوندشوت	Hondshoote
هو- نان	Ho-Nan
هونوريوس دوتَنْ	Honorius dAutun
هوغ كاپتْ	Hugues Capet
هلّ	Hull
همفري دو غلوستر	Humphrey de Gloucester
هونيادي (جان)	Hunyadi, Jean
هوونغ وو	Huong Wou

I

ياروسلاڤ	Iaroslav
إيلليريا	Illyrie
إيلي (نهر)	Ili
أندوس (نهر)	Indus (l)
إينوسان الثامن	Innocent VIII
إيزابو	Isabeau
إيزابيل روميه	Isabelle Romée
إيزيدور	Isidore
إيسيوكول	Issiqkoul (l)
إيڤانوف	Ivanov

J

جاك دارك	**Jacques d'Arc**
جانسون	Janson
جانّ دارك	**Jeanne d'Arc**
الثورة اليعقوبية	Jacquerie (la)
جاك لوفيفر ديتاپل	**Jacques Lefèvre d'Etaples**

جاك ڤان آرتفيلد	Jacques Van Artevelde
جاك كور	Jacques coeur
جاكومار	Jacquemart
جاجلّون (آل)	Jagellon
جارجو	Jargeau
جومنا	Joumna
جايم	Jaime
جان داللي	**Jean d'Ally**
جان دافيس	**Jean d'Avis**
جان ، كونت دو دونوا	Jean, conte de Dunois
جان فوكيه	Jean Fouquet
جان دو بُويْ	Jean de Beuil
جان أرمانياك	**Jean d'Armagnace**
جان جرسون	Jean Gerson
جان « البلترانيجا » (البلترانية)	Jeanne de la «Beltraneja»
جان دو جاندن	Jean de Jandun
جان دو لوبيير	Jean de Loubières
جان الجميل	Jean le bel
جان ايستيڤه	Jean Estivet
جان غاليا	Jean Galéa
جان غوتنبرغ	Jean Gutenberg
جان هيلَنْ	Jean Heylin
جان هونياء	Jean Hunyade
جان هوس	Jean Hus
جان جوڤنيل	Jean Jouvenel
جان مايّار	Jean Maillard
جان دو مونتروي	Jean de Montreuil
جان دولاموت	Jean de la Motte
جان دو رويسبروك	Jean de Ruysbroeck
جان دو سان- يون	Jean de Saint-yon
جان لينيه	Jeanne Laisné
جان لوفيه	Jean Louvet
جان دو پانتيڤر	Jean de Pentièvere
جان دو توازي	Jean de Toisy
جان دو توركومادا	Jean de Torquemada
جان دو ڤونيت	Jean de Venette
جان بوتي	Jean Petit
جان بوسيل	Jean Pucelle
جان تاولر	Jean Tauler
جان دون خوف	Jean sans peur
جان ڤان آيك	Jean Van Eyck
جان زيسكا	Jean Ziska
جيروم منزر	Jérome Münzer
جون بول	John Boll
جون هوكوود	John Hocwkwood
جولِيَنْ	Julien
جوزيف هومپيس	Joseph Hompys
جوڤيزي	Juvisy
جوڤينال دي اورسن (مؤرخ)	**Juvénal des Ursins**
جون ويكليف	John Wyclif

K

كاليمانتان	Kalimantan
كاليتا	Kalita
كاماكورا	Kamakura
كنّارا	Kannara
كارابيسڤار	Karabisvar
قره يوسف	Kara Yousouf
كاڤيري (نهر)	Kaviri

كيش	Kech
كنْتْ (كونتية)	Kent
كيانغ- سي	Kiang-Si
كيڤا أو خيڤا	Khiva
كييف	Kiev
كولومنا	Kolomna
كوسّوڤو	Kossovo
كوستروما	Kostroma
كوبيلايْ	Koubilay
كوليكوڤو	**Koulikovo**
كوستانديل	Kustendil

L

لا شـارتروز دو ڤـال دو بنـديكسيـون (دير للمباركة) في جبل اسمه شارتروز

La Chartreuse du Val-de-Bénédiction

لادوغا	Ladoga
لاغرانج دو	La Grange, de
لاغراڤيل	La Gravelle
لاهير	Lahire
لاجازّو	Lajazzo
لامبونياني	Lampugnani
لانكاستر (آل)	Lancastre
لان	Laon
لوران دو برمييرفيه	Laurent de Premierfait
لاترموال	La Trémoille
لا ريؤل	La Réole
لا روش درّين	La Roche Derrien
لا روڤير (آل)	La Rouvère
ليمنوس	Lemnos
لومرسيه	Le Mercier
ليبزيغ	**Leipzig**
ليؤناردو فانتشي	Leonarde de Vinci
ليونزيو پيلاتو	Leonzio Pilato
لولينغن	Leulinghen
ليدن	Leyde
لييج	Liège
لوش	Loches
لودي	Lodi
اللولارديون أو الكهنة الفقراء	Lollards
لوميلليني	Lomellini
لونجينوس	Longinus
لويس باڤاريا	Louis de Bavière
لويس دانجو	Louis dAnjou
لويس دو مال	Louis de Male
لوتارنجيا	Lotharingie
لوراغيه	Louraguais
لوبيك	Lübeck
لوسيدير	Lucidaire
أو لوميير آسليه	**Lumière aslais**
لوك	Lucque
لودولف الشارتري	Ludolph le Chartreux
لودوڤيك لو مور	Ludovic le More
لونيبورغ	Lunebourg
لوكسوي	**Luxeuil**

M

ماغنوس	Magnus
ماهو	Mahaut

ماينا	Maïna
مين	Maine
مالاكا	Malacca
مالاتيستا	Malatesta
مالستروا	Malestroit
مالي	Mali
مالوا	Malwa
مانفرد	Manfred
مانس	Mans
مانسا موسى	Mansa Musa
مانتْ	Mantes
ماتينيا	Mantegnia
مانويل	Manuel
مارن الصوري	Marin de Tyr
مارتن الأول	**Martin Per**
ماتياس كورڤن	Mathias Corvin
مانتو	Mantoue
ماركو پولو	Marco Polo
ماري جاتا	Mari Jata
مارسيل پادوا	Marcile de Padoue
مارسيال	Martial
مارتن بهيْنْ	Martin Behain
ماتيوس كورين	Mathios Coruin
ماتّيو جيوڤانللي	Matteo Giovanelli
ماكسيم الإغريقي	Maxime le Grec
ميهون - على - ايڤر	Mehun-sur-Yvre
ميديتشي (آل)	Medici (les)
الدوق الأكبر ميغاس دوكس	Mégas Dux
مملنغ	Memling
مينان	Ménan
ماند	Mende
منغلي جيريْ	Mengli Gireï
مركوريه	Mercurey
مونغ	Meung
ميتز	Metz
ميشيل دو لاندو	Michel de Lands
ميكيلوزّو	Michelozzo
ميليزيڤا	Mileseva
ميليوتين	Miliotine
ميران شاه	Miranchah
ميسترا	Mistra
مودينا	**Modène**
مؤجوكرتو	Moajokerto
مودجو باهيت	Modjopahit
مودون	Modon
مونديديه	Mondidier
مونيمڤازيا	Monemvasia
مونتفيلتره	Montefeltre
مونغ - فو	Mong-Fou
مونغكا	Mongka
مونليري	Monlhery
مونترو	Montreau
مورا	Morat
موريه	Morée (la)
مونيو تريستاو	Munio Tristao
مونتيل	Montiel
مونبيليه	Montpellier

Pampapati	پامپاپاتي
Plantagenet	پلانتاجونيه (آل)
Pantanassa	بانتاناسّا
Paolo Uccello	باؤلو أوتشيللو
Pasquier Bonhomme	پاسكيه بونوم
Patay	پاتاي
Pathelin	پاتولن
Pavie	پاڤيا
Pedro de Luna	بدرو دو لونا
Pélogonie	پيلاغونيا
Penafiel	پينافيل
Peniscola	پنيسكولا
Perm	پروم
Péronne	بيرونّ
Perouse	بيروز
Perrault	پيرو
Perrinet Gressart	بيرينه غريسّار
Perruzi	بيّروزي
Petrarque	بترارك
Peutinger	بوتينغر
Philippe de Commynes	فيليب كومين
Philippe-Marie-Visconti	فيليبِ ماري ِڤيسكونتي
Philippe Pot	فيليب پوت
Philippe de Vitry	فيليب ڤيتري
Phnom-Penh	فنوم بينه
Phocée	فوسيه (أو فوقيه)
Picquigny	بيكيني
Pie II	بيوس الثاني
Pierre de Beaujeu	پيير بوجو
Pierre Chelcicky	پيير شلشيكي
Pierre Bersuite	پيير برسويت
Pierre col	پيير كول
Pierre Cauchon	پيير كوشون
Pierre de Corbara	پيير دو كوربارا
Pierre Craon	پيير كراون
Pierre d'Orgemont	**پيير دورجومون**
Piero Baldi Degli Ubaldi	پييرو بالدي ديغلي أوبالدي
Pierre-Louis	پيير لويس
Pierre Roger	پيير روجيه
Pisa	پيزا
Pirheimer	**بيرهايمر**
Pistoia	بيستويا
Pléthon	افليطون
Podolie (la)	بودوليا
Poitiers	پواتيه
Pologne	بولوني
Polenta (les)	بولانتا (آل)
Pomérélie	بوميريليا
Pomiestié (le)	بوميستيه
Ponponius Laetus	بونبونيوس ليتوس
Ponthieu	بونتيو
Pont-Saint-Esprit	پون- سن- إسبري
Pontoise	پونتواز
Poperinghe	پوپرينغ
Procope le Grand	پروكوب الكبير
Provins	پروڤن
Porto Pisaro	بورتو پيزارو

براتو	Prato
برزميسليد (آل)	Przmislide (les)
بسكوف	Pskov
پوانته دو تريانا	**Puente de Triana**

Q

كيبتشاق أو القفجاق	Qiptschaq
الكوارانتيا	Quarantia (la)
كيرسي	Quercy

R

الراجبوت	Radjpoutes
رادونيج	Radonège
رامادهيپاتي	Ramadhipati
راماسوامي	Ramaswami
رَوْبريتر (آل)	Raubritter (les)
راڤين	Ravenne
راڤنسبورغ	Ravensburg
رونيه دانجو	**René d'Anjou**
رين	Rennes
رستوف	Restov
روثيل	Rethel
ريتشمونت	Richmont
رَنْسْ	**Reims**
ريان	Rian
ريازان	Riazan
ريكاردي (قصر)	Riccardi
ريغا	Riga
رياريو	Riario
ريتشارد غلوستر	Richard de Gloucester
ريتشارد يورك	**Richard d'York**
ريميني	Rimini
روبير دارتوا	**Robert d'Artois**
روبير دو بوديكور	Robert de Baudicourt
روبير بروس	Robert Bruce
روبير لو كوك	Robert le Coq
روشيه ديه دوم	Rocher des Domes
روبير دو جونيف	Robert de Genève
روشتايّه	Rochetaillé
رودريغ بورجيا	Rodrigue Borgia
رودريغ دو فيلاندراندو	Rodrigue de Villandrando
روجه دو فلور	Roger de Flor
روجه ڤان در ڤيدن	Roger Van der Weyden
رولَنْ	Rolin
روماني	Romagne
روزبك	Roosebeke
روستوف	Rostov
روانْ	Rouen
رووِيرغ	Rouergue
روبليوف (أندريي)	Roubliov (Andreï)
رومانيو	Romagne
روميلي	Roumelie
روا	Roye
رُسْتْ	Ruste

S

سان- اوبن- دو- كورميه	Saint-Aubin-du-Cormier

Sigismond	سيجيسموند
Siméon le kier	سيمون المتغطرس
Sienne	سيين
Simone Fidati Da Coscia	سيمون فيداتي دا كوسشيا
Simon Caboche	سيمون كابوش
Sixte IV	سيكست الرابع
Skopeje	سكوبيا
Soami	سوآمي
Soleure	سولور
Song	سونغ
Songhai (les)	الصنهاجة
Sorabaya	سورابايا
Souzdal	سوزدال
Spire	سپير
Spolète	سپوليت
Staufen	شتاوفن (آل)
Stefano Porcaro	ستيفانو پوركارو
Sten Sture	شتن شتور
Stralsund	شترالسوند
Strozzi	ستروزي
Suffolk	سفولك
Sund	سوند
Surrey	سريه

T

Taborites	الطابوريون
Tacite	تاسيت
Takauji	تاكوجي
Talas	تالاس

Saint-Riquier	سن- ريكيه
St-Cormeille	سان- كورمي
Saint-Germain-des-Prés	سان- جرمن- دي- بريه
San Gimignano	سان جيمينيانو
St-Omer	سن- أومير
St-Paul-de-Durance	سن- پول- دو- دورانسْ
Saint-Pol	سَنْ- پول
Saint-Ouen	سانتوان
St-Serge	القديس- سرج
Saint-Vaast-la-Haugue	سان- فاست- لا- هوغ
St-Vit	سن- ڤيت
Salisbury	ساليسبري
Sanche	سانش
Sangama	سانغاما
Sangatte	سانغات
Sankore	سانكور
Savonarole	ساڤونارول
San Miniato	سان مينياتو
Sciarra Colonna	سيارّا كولونّا
Scaliger	سكاليجر (آل)
Schwyz	شويتز
Sayana	سايانا
Sebzexar	سبزكسار
Serpoukhov	سيربوخوڤ
Seschu	**سيسشو**
Sesson	سسون
Senlis	سانليس

تالبوت	Talbot
تانا	Tana
تانغ	TAng
تاننبرغ	Tannenberg
تارتا	Tartas
طاي	Thaï
تايلاند (سيام)	Thailand (Siam)
تشو يوان تشانغ	Tchou Yuantchoung
تساهونيك	Thessahonique
تيرووان	Therouane
توماس دو كمبن	Thomas de Kempen
تيلوغو	Telougous
ترموند	Termonde
تيوفان الإغريقي	Theophane Gyrec
تيوكسبري	Tewksbury
توغان تيمور	Toghan Temour
تولفا	Tolfa
توغلوك	Toughlouq
توكولور	Toucouleurs
تولا	Taula
توكتاميش	Touqtamich
توران	Tourane
تورنابووني (آل)	Tornabeoni
توزا	Tosa
توركوان	Tourcoing
تور	Tours
تريستان لرميت	**Tristan l'Hermite**
بلاد ماوراء النهر (ترانزوكسيان)	Transoxiane
ترانستامار	Transtamare
تروجا	Troja
تروا	Troyes
تونغابهادرا	Tungabahadra
توستشيا	Tuscie
الاتراكية	Utraquisme
تفير	Tver

U

أُلْم	Ulm
أنترڤالدن	Untervvalden
أوربيتو السادس	Urbain VI
أورجيل دو	**Urgel (d')**
أوري	Uri

V

الإفلاق	**Valachie (la)**
ڤالانس	Valence
ڤالنتين ڤيسكونتي	Valentine Visconti
ڤانْ	Vannes
ڤارنا (وارنا)	Varna
ڤارّون	Varron
ڤاسّيلي الأول	**Vassili Per**
ڤيلبوزد	Velbouzd
ڤرجه	Vergé
ڤرنويْ	Verneuil
ڤيروكيو	Verrochio
ڤرڤييه	Verviers
ڤيينّ (الفرنسية)	Vienne
ڤيتشيه (مجلس الشعب)	Vietché
ڤيلاني	Villani

ڤيلهاردون، غليوم
Villhardouin, Guillaume

ڤيلنوف۔ ليز۔ آڤينيون
Villneuve- Lès- Avignon

Vincennes ڤانسين

Vincent Ferrier ڤانسان فرّيه

Viterbe ڤيترب

Vitruve ڤيتروف

Volhynie (la) ڤولهينيا (آل)

Vijayanagar ڤيجاياناغار

W

Wakefield ويكفيلد

Warwick وارويك

Wat Tyler وات تايلر

West- Roosebeke ويست۔ روزبك

Wiclif ويكليف

Windesheim ڤيندسهايم

Witold ڤيتولد

Wou وو

Y

يني تشري (الجيش الجديد = الانكشاري)
Yeni cheri

Yong- Lo يونغ۔ لو

Ypres **يبر**

Yuan يوان

Z

Zadonchtchina (la) الزادونشتشينا

Zantha زانتا

Zelotes (les) الزلطيون

اسم أطلق على اليهود المتحمسين الذين قاموا بالثورة في العام ٧٠ ب.م

Zemène زيمين

Zen زين

Zeuxis زوكسيس

Zwynn زوين (مصب نهر)

Zwyn زوين


المحتوى

القسم الأول

تاريخ القرنين الثاني عشر والثالث عشر

المقدمة

الفصل الأول

توسع الآفاق الاقتصادية وتحول مجتمع العصر الوسيط

الفصل الثاني

المدن

الفصل الثالث

توطيد الملكيات

الفصل الرابع

ألمانيا وإيطاليا

الفصل الخامس

الكنيسة في كفاح جديد

الفصل السادس

الأشكال الجديدة

الفصل السابع

الفن القوطي (الغوطي)

الفصل الثامن

الحملات الصليبية في الغرب الأوربي

المقدمة

الفصل التاسع

الحملات الصليبية في المشرق العربي

الفصل العاشر

آسيا الوسطى والشرقية

الفصل الحادي عشر

آسيا الوسطى والمغول

القسم الثاني

تاريخ القرنين الرابع عشر والخامس عشر

الفصل الأول
العوالم الشرقية

الفصل الثاني
مصاعب أوربة

الفصل الثالث

عصر الاضطراب والقلق

الفصل الرابع

آفنيون أو روما

الفصل الخامس

حيدة الغرب الكبرى كنيسة أو كنائس

الفصل السادس

الحرب تمزق أوربة

الفصل السابع
الآفاق الأوربية الأخرى

١ ـ ألمانيا وهوامش الجرمانية

٢ ـ شبه الجزيرة الإيطالية



الشكر الجزيل لمن أسهم في نشر هذا الكتاب

